

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

التفسير المفصل

٤

سورة النساء

بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

الجزء الأول

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

٧
بصائر المعرفة القرآنية



قرآن يتلى لإنسانية ترقى



سورة النساء

١

بسم الله الرحمن الرحيم



برعاية

BRIGHTNESS
LIMITED

التفسير المفصل
في تسوير السور القرآنية

(٤)

سورة النساء

مبنى

بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

الجزء الأول

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

الكتاب

التفسير المفصل

4 سورة النساء

بث الحياة الإنسانية

وتنظيمها الإلهي الحقوقي وحماية المستضعفين

خاصة النساء والأطفال

تاليف

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية في كلية الشريعة ـ جامعة قطر

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

2021/538

الرقم الدولي (ISBN)

978 992 715 409 6

الطبعة الأولىٰ: 2021

التحرير والتدقيق

د/ سعيد بن دحباج– د/ حمود ردمان – أ/ أديب المخلافي – دار لوسيل

وقام بتحكيم الكتاب إثنان من الدكاترة المتخصصين

التنفيذ الطباعي

شركة الخليج للنشر والتوزيع

الناشر

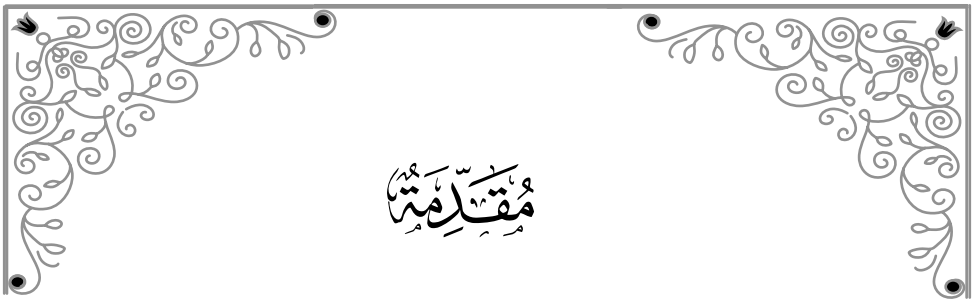
دار لوسيل للنشر والتوزيع



+974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89 Doha,Qatar,64040

@darlusail darlusail@darlusail.com www.darlusail.com





مُقَدِّمَة

الحمد لله.. جعل القرآن العظيم مفتاح آلائه، وخاتم بيانات رسله وأنبيائه، ومصباح قلوب أوليائه، وربيعهم الذي يهيم به كل منهم في رياض ارتقائه.. أحمده على توالي نعمائه وأشكره على تتابع كرم لا أمد لانتهائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقضي لقائلها باعتلائه ويعدها المؤمن زاده العظيم، ومستقبله الحقيقي عند لقائه.. ذلكم الله ربي له الأسماء الحسنى ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وأشهد أن سيدنا محمَّدًا عبده ورسوله أرسله بكتاب مبين أوضحه فأشرقت نجومه إشراق البدر في أفق سمائه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما أقبل الليل بظلامه وأدبر النهار بضيائه.

اللهم ربَّنا إِنِّى أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ يَا حَىُّ يَا قَيُّومُ: ربِّ ليس لي من الأمر إلا ما قضيت ولا من الخير إلا ما أعطيت ، فاجعل لي في كل لحظة من أيام عمري حظًّا من عبادتك، ونصيبًا من شكرك، واحفظني من جميع نواحي حفظًا عاصمًا من معصيتك هاديًا إلى طاعتك، واجعلني أرضى خلقك بك، وأشكرهم لك، وأقربهم منك، وأحبهم إليك.

وبعد:

ففي المرحلة (المتوسطة) كان أستاذنا/ يحيى الراشد أستاذ التفسير يطير بنا في محاولة تدبر آي القرآن المجيد.. كان شخصية يتعلق بها قلبك لكن فؤادي تعلق أكثر

بأسلوبه في الشرح والبيان واستخراج المعاني.. أستاذٌ مثله ليس غريبًا أن يسألني حينها: هل وضعت خطة لنفسك تتعلق بالدراسة الجامعية؟ سؤال بادرته إجابته: نعم!

وبينما أنا أحاول أن أعرض بضاعة تفكيري المزجاة فاجأني بحثٌ تشعر معه باللذة: لا ترضَ بشيء دون الدكتوراه.. انقضت أيام المرحلة (المتوسطة) وجاءت أيام (الثانوية) المليئة بتوقد الحياة وضجيج طموحاتها.. حينها رجعتُ إلى صنعاء، وفي رحلةٍ شبابية ماتعة بتنا ليلة الجمعة في مرتفقنا الشبابي، وفي صباحها تحلقنا نتلو آيًا من القرآن العظيم يتقدمها سورة الكهف، ونتبادل تصحيح التلاوة، ومشاعر الأنس بكلامه:

فما أجلَّ حديثًا في تآلفنا ... وما أرقَّ عتابًا في تصافينا
وفي الرواق وقد ألفيتنا زمرًا ... نشدو بما جاء في طه وياسينا
يا حبذا لهفةٌ تحتل جانحنا ... وذكرياتٌ من الماضي تغذينا
لها الخوالج تهفو كلما ذكرت ... مرابعًا قد أقمنا عندها حينا

فأضاءت لي معانٍ تربط بين قصص سورة الكهف، وبسم ثغري حينها، وقلت لصحبي حين بدأنا نتبادل خواطر التدبر: هل تأذنون لي بتقديم (إشراقاتٍ قرآنية) من سورة الكهف؟ كانت تلك بدايةً حقيقية! إنها البداية المشرقة لشخصي الضعيف مع سيلٍ من البصائر القرآنية المتدفقة.. جعلتني تلك البصائر أنظر إلى آيات القرآن فأهفو إلى امتلاك ضيائها، والشعور بالقوة في بيناتها، وأتطلع إلى وقتٍ أحسُّ معها بأن يقال لي -كما قيل لموسى عليه السلام من قبل-: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لا تخف! أظهرها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٨).

وإذ قذفتُ بنفسي في تابوت الحياة، وألقيت بعقلي في معتركها أويتُ إلى كهف المناجاة الإلهية عسى ربي أن ينشر لي من رحمته، ويهيئ لي من أمري مرفقًا، فأجرى الله على لساني أن أَلِظَّ بهذا الدعاء: اللهمَّ يسر لي إتمام تفسير كتابك على أحسنِ وجهٍ، وأجملِه، وأكملِه، وأحبِّه إليك، وأكثره تأثيرًا في نفوس الخلق، وأعظمِه بيانًا لإعجاز

آياتك، واجعل ذلك على نحوٍ لم أُسبَقْ إليه، وأَلْقِ القبول في قلوب العالَم له إلى يوم الدين، وارفعني به مكانًا عليًّا يا أرحم الراحمين، واجعلني بذلك من المخلِصين الشاكرين، وتالله إني لأرجو من ربي أن يُلحقني بالصالحين، إنما شأني أني:

ظامئٌ، والدموع تسقي ظمايا وسراب القفار يسقي أسايا
الأماني أمام عيني أُراها تطحن الفكر لم تصلها خطايا

هذه بداية قصتي مع القرآن..

لقد أخذتُ ميثاقًا على نفسي مذ وعيتُ التطام أمواج الحياة بتعقيداتها ألا أبرحَ حتى أبلغ مجامع أنواره، ومركز بصائره وأسراره، ولمَ لا؟

وأحاول أن أسلك في ذلك ما قرره ابن تيمية ﷺ وهو يتتبع الفرق بين جهود الصحابة رضي الله عنهم في نقل رسالة الإسلام، فيقول: « وَأَيْنَ تَقَعُ فَتَاوَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَتَفْسِيرُهُ وَاسْتِنْبَاطُهُ مِنْ فَتَاوَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَتَفْسِيرِهِ؟ وَأَبُو هُرَيْرَةَ أَحْفَظُ مِنْهُ؛ بَلْ هُوَ حَافِظُ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ: يُؤَدِّي الْحَدِيثَ كَمَا سَمِعَهُ وَيَدْرُسُهُ بِاللَّيْلِ دَرْسًا؛ فَكَانَتْ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إلَى الْحِفْظِ وَتَبْلِيغِ مَا حَفِظَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَهِمَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَصْرُوفَةٌ إلَى التَّفَقُّهِ وَالِاسْتِنْبَاطِ وَتَفْجِيرِ النُّصُوصِ وَشَقِّ الْأَنْهَارِ مِنْهَا وَاسْتِخْرَاجِ كُنُوزِهَا. وَهَكَذَا وَرَثَتُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ: اعْتَمَدُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى اسْتِنْبَاطِ النُّصُوصِ لَا عَلَى خَيَالٍ فَلْسَفِيٍّ وَلَا رَأْيٍ قِيَاسِيٍّ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَاتِ. لَا جَرَمَ كَانَتْ الدَّائِرَةُ وَالثَّنَاءُ الصِّدْقُ وَالْجَزَاءُ الْعَاجِلُ وَالْآجِلُ: لِوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ التَّابِعِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة »[1].

وها هو الله جل مجده يرينا المعجزات التي لا تنقضي في آياته القرآنية؛ فوجوه إعجازه لا تنفد، ومعالم جاذبيته تترى وتتجدد، وهو الذي جعل الله ألفاظه وبصائره روحًا تعطي الإنسانية معاني حياتها الحقيقية، ونورًا يسوقها إلى الرؤية الصادقة الشاملة للوجود مكانًا وزمانًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤ / ٩٤ .

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣).

وقد امتن بفضله ومحض جوده فألهمني العزم على وضع هذا التفسير الموسوم بـ (نَظَّمْنَا لِلْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ) الذي أرجو الله أن ييسر ظهور إصداراته تباعا في أفانينه الثلاثة: المفصل والوسيط والوجيز.

لماذا أخرجت (سورة النساء) قبل سورة البقرة وآل عمران؟

تلك قصة الأقدار العجيبة.. فلقد كتبت في الزهراوين بعد الفاتحة، لكنني كنت أكتب ملتمسًا لمنهجٍ مبتكر يمكن أن يُبرِز للعالم شيئًا من التجديد لا يجدونه في التفاسير السابقة، ولم يكتمل هذا المنهج الذي أرجوه إلا عند وصولي لتحرير سورة النساء، وأنا في ذلك أجمع بين التحرير الكتابي، وتحويل المكتوب إلى شرائح للعرض؛ إذ لذلك أثرٌ كبيرٌ في تجويد العمل وإتقانه، وتحرير المكتوب وافتنانه، وأضم للكتابة وشرائح العرض إقامة الدورات العلمية في تفاسير هذه السور، فتلك الدورات تزيد الأفكار نضجًا، ويُسهم المشاركون فيها في الارتقاء بسبل التدبر للقرآن المجيد، ويضاف إلى ذلك الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية أحيانًا؛ إذ عملت جاهدًا ألا أستضاف في أمورٍ لا تتعلق بتدبر القرآن العظيم، وساعد على ذلك برنامج (مجالس أهل التفسير) الذي امتد نحو ست سنين بواقع ساعة أسبوعيًا غالبًا في إذاعة القرآن الكريم في قطر..

ولما أشرقت سورة النساء بنورها كان المنهج الذي أتلمسه قد بدأ بالاستقرار.. وذلك أحوجني إلى إعادة تحرير سورة البقرة وفق هذا المنهج المستقر.. تلك قصة تقدُّم (سورة النساء) على الزهراوين، وما فعلته عن أمري بل أرجو أن الله جل ذكره هو الذي ساقني إليه، فعسى أن يكتب ربي أعظم القبول لما سطرته ها هنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد سبق هذا التفسير المفصل التفسير الوسيط لسورة النساء في جزء واحد تضمن عددًا من شرائح العرض (بوربوينت) بلغت (٢٥٦) شريحة، أما الوجيز فقد ضمن في شرائح عرض بلغت نحوًا من (٢٥) شريحة ليكون مادة علمية مركزة تصلح مقررًا علميًا مكثفًا في دراسة بصائر سورة النساء في الدورات والبرامج القصيرة.

وها هو التفسير المفصل لسورة النساء يأتي في ثلاثة أجزاء تضمن تمهيدا لذلك، ومن ثم تفسير السورة بدءا بمقدمتها ثم محاورها السبعة وانتهاء بخاتمتها.

* **تضمن الجزء الأول** منها:

تمهيدًا بين يدي السورة ضم ثمانية فصول تشكل توطئة لا بد منها بين يدي تفسير سورة النساء. وتبع ذلك تناول مقدمتها التي حوت أسسًا ثمانية، ومن ثم المحورين: الأول والثاني والثالث:

المحور الأول: التنظيم الإلهي لأموال الأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء، تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية.

المحور الثاني: التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار الحياة.

المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية.

* **وتضمن الجزء الثاني**:

الرابع والخامس من محاور سورة النساء.

المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة.

المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين.

*** وأما الجزء الثالث :**

فقد تضمن المحورين الأخيرين من السورة: السادس والسابع، والخاتمة.

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية.

المحور السابع: التنظيم الإلهي لمعرفة الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم.

خاتمة السورة: حق العالم في التعرف إلى الكتاب الحق الذي يبث الحياة الإنسانية، ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، ويحمي الإنسانية من الضلالة والجهالة، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة.

وسوف أعرض هنا لمصطلحات يكثرُ دورانها ويشيع استخدامها في تفسيرنا هذا ليكون القارئ على بينة منها ومن المراد منها أينما وقف عليها فيه، وسنكتفي هنا بالتعريفات الموجزة لهذه المصطلحات ومن أراد أن يتوسع في دراستها والوقوف عليها فليراجع بحثنا الموسوم بـ (تسويرُ السُّورةِ القرآنيةِ.. إعجازٌ متجدِّدٌ -دراسةٌ تطبيقيةٌ على سورةِ النساءِ).

عمود السورة: هو الموضوع الكلي العام الذي تدور حوله السورة.

محاور السورة: هي أقسامها الكبرى التي تتكون منها السورة مرتبة.

الترتيب (السياق) المصحفي: أي ترتيب السور في القرآن الكريم حسب وجودهن في المصحف.

الترتيب (السياق) التاريخي: أي ترتيب السور والآيات في القرآن الكريم حسب تاريخ نزولها إلى الأرض.

البصيرة: هي المعنى المضيء الذي تنير به الآية أنفسنا وأسماعنا وحياتنا.

وقد أرفقت بآخرة الكتاب منظومة رائقة العبارة لطيفة الإشارة جمعت خلاصة بصائر سورة النساء بعنوان (صفوة البيان من وحي شرح بصائر القرآن).. دبج أبيات هذه المنظومة يراع الشيخ الدكتور الشاعر: صفوت سويلم (استشاري المسالك) فجاءت كمسك حسن الكتاب به ختاما، أو كَـدُرَّةٍ ازدان بها نظاما وإحكاما. وقد كان الناظم نعم السابر السائر الخليل السالك.. ما زال يحبوني ويحبو (بصائر المعرفة القرآنية) بهمته الدائبة، ونشاطه الذي لا يوصف، وشغفه الذي يلهم السائرين، وقد لمست فيه صدق المودة، وإضاءة الهمة، والملكة العلمية المتميزة، والإخـلاص الفريد، وزكاة النفس فجزاه الله خير الجزاء، وأكرمه بأعظم مما يرجو من الخير والنعماء.

فإليك هذا السفر البصائري الذي استغرق مني إعداده والعمل عليه لهذه السورة وحدها نحو (سبع سنوات) من عمري، أجهدت في تهذيبه وتنقيحه عقلي وفكري، وعقدت على إتمامه أمري.

ربنا املأ الأرض بأنوار كتابك، وافتح لهذه البشرية أمرًا رشدًا تقيم فيه أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون يا أرحم الراحمين.. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.. اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد..

ربِّ باسمك الأعظم الأعلى الأجل الأحب إليك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد أسألك أن تيسر لي إتمام تفسير كتابك على أحسن وجهٍ، وأجمله، وأكمله، وأحبه إليك، وأرضاه عندك، وأكثره تأثيرًا في نفوس الخلق، وأعظمه بيانًا لإعجاز آياتك، واجعل ذلك على نحوٍ لم أُسبق إليه، وألق القبول في قلوب الخلق لي فيه إلى يوم الدين، وارفعني به مكانًا عليًا يا أرحم الراحمين، واجعلني في ذلك من المخلصين الشاكرين.

اللهم ربِّ أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أن تتقبل هذا الكتاب وتجعله ينال من نور كتابك يا أكرم الأكرمين، وانشر له وبه رحمتك يا أرحم الراحمين.

ربِّ كن بي حفيًا، وارفعني مكانًا عليًّا.

وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على الله ربنا توكلنا

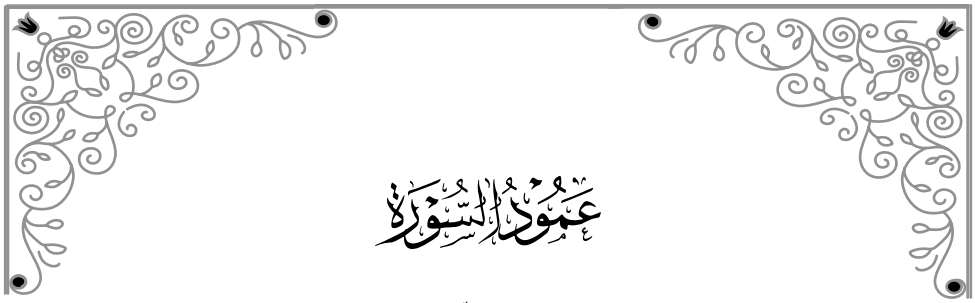
٥ من شواال ١٤٤٢ هـ

الموافق ١٣ مايو ٢٠٢١م

s1435y@gmail.com

التمهيد





عمود السورة

الموضوع الكُلِّي للسُّورة

إنني أحلق على جناح الشوق لأخبرك بالموضوع (بعمود السورة) الذي دارت حوله سورة النساء لعلي أجذب اهتمامك، ثم أُظهر لك بعدُ سبب اختياري لهذا العنوان ليكون الموضوع العام الذي تدور حوله كل المحاور والمواضيع والبصائر الجزئية في السورة، وتلك حصيلة سنوات متعددة في هذه السورة المباركة، والموضوع الذي تدور حوله سورة النساء هو:

بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال

وليظهر لك كيف تم التوصل إلى هذه الكلمات الدقيقة المحكمة التي توضح الشخصية المستقلة لسورة (النساء) لا بدَّ من تمهيدٍ محرَّرٍ يُجَلِّي لك علم (تسوير السورة).

وسنقسم هذا التمهيد إلى الفصول الثمانية الآتية ثم أتبعه بمنظومة (**صفْوَة البيانِ مِنْ وَحْيِ شَرْحِ (بَصائرِ القُرْآنِ)**).



الفصل الأول

السِّياق التاريخي لنزول سورة النِّساء

نزلت هذه السورة في المدينة؛ ويكاد يكون ذلك مجمعًا عليه، وها هي عالمة النساء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنبئك عن ذلك فتقول: (وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ) [١]، لكنك خبيرٌ بأنهم يريدون بنزول السورة نزول أولها، ثم إنها تتابع فربما نزل بعضها في آخر البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

فماذا كان ترتيب هذه السورة؟

لَقَدْ عَدَّها بعضهم الثَّالِثَةَ وَالتِّسْعِينَ مِنَ السُّوَرِ؛ إذ تجد في الرواية المشهورة الضعيفة عن ابْن عَبَّاسٍ ﷺ في ترتيب نزول السور أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ بِالمدِينَةِ سُورَةُ البَقَرَةِ، ثُمَّ الأَنْفَالِ، ثُمَّ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةُ الأَحْزَابِ، ثُمَّ الممْتَحَنَةِ، ثُمَّ النِّسَاءِ.

فهل الأمر كذلك؟

لا يظهر لي ذلك؛ فهذه الرواية ينبغي التحرز من التسليم بما فيها لضعف إسنادها من جهة[٢]، ولأنك تجد تنافيًا بين بعض مضمونها والواقع التاريخي والموضوعي أحيانًا، وبذا فهي لا تكفي لتكوين صورةٍ واضحة المعالم تقربنا من صورة الترتيب التاريخي لنزول السور؛ إذ ذاك يساعد على فهم المراد الإلهي في آيات السور.. على أن عسر التحديد التاريخي التفصيلي الدقيق لنزول السور لا يعني عدم المعرفة الإجمالية بوقت نزول هذه السورة المباركة، فهذه المعرفة الإجمالية مفيدة جدًا كما

---

(١) البخاري (٦ / ٢٢٨) برقم ٤٩٩٣.

(٢) ينظر: فضائل القرآن لابن الضريس ص (٣٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٧/ ١٤٤).

أن الغشاوة النسبية على المعرفة التاريخية التفصيلية أكثر إفادة؛ إذ تُـجبِرُ المرء على التدبر القرآني المتحرر أحيانًا من الملابسات التاريخية لترسل رسولًا منها يوحي بأن القرآن المجيد يجتاز الحدود الزمنية والشخصية (الزمكانية) ليناسب العصور والتطور البشري والأمكنة المختلفة، وذلك لا يعني البتة عدم الإفادة من الواقع التاريخي لنزول السورة، فهو من أعظم المعينات على فهم كلماتها، وآياتها، إلا أنه لا يقيدها عن أن تكون منارًا لكل المجتمعات في كل الأزمنة.

ولا أظن سورة النساء تأخرت إلى الحد الذي تذكره الراوية السابقة، فَبناء على تلك الرواية تَكُونُ سُورَةُ النِّسَاءِ نَازِلَةً بَعْدَ عام الأَحْزَابِ الَّتِي وقعت في شهر شوال من العام الخامس من الهجرة، وَبَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ الَّذِي هُوَ فِي سَنَةِ سِتٍّ؛ لأن سورة الممتحنة نزلت أوساطها بعد الحديبية بل ارتبط نزول أولها بفتح مكة، أظننتَ سورةَ النساء تأخرت حتى نزلت في قريبٍ من ذلك الوقت؟ فدعنا نتذكر بعض المعالم لمحاولة معرفة الوقت التقريبي لنزولها:

المعلم الأول: سترى من آياتها أحكامًا نزل الجواب بشأنها باكرًا بعد الهجرة النبوية، كآيات المواريث وخاصة الأولى منها وهي قوله تعالى ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ (النساء: ١١)، فقد نزلت في شأن بنتي سعد بن الربيع ﷺ اللتين تُوفي أبوهما في معركة «أحد» حيث أخذ عمهما مالهما وحرمهما وأمهما من الإرث[1]، و«أحد» وقعت في السابع من شوال في السنة الثالثة من الهجرة، وبذا فمن السورة ما نزل إما في آخر السنة الثالثة وإما في بدايات الرابعة.

المعلم الثاني: تجد من آياتها آيات حماية المجتمع من الفاحشة (النساء١٥-١٨)، حيث عالجت الآيات مَن يقع في تلك الفعلة علاج المصلح الذي يروم إعادة تأهيل

(١) سنن الدارقطني (٥/ ١٣٧)، وأصل الحديث عند الترمذي (٤/ ٤١٤)، وصححه الترمذي، وقدحسنه الألباني.

من يأتيها.. وأنت تعلم -أيَّدك الله- أن أهل العلم يكادون يجمعون على أن هذه الآية نزلت قبل آية حد الزنا التي وردت في سورة النور، وسورة النور نزلت مع حادثة الإفك، وحادثة الإفك في تقدير بعض أهل العلم كانت قبل وقعة بني قريظة، التي حكم فيها سعد بن معاذ ثم مات ﷺ متأثرًا بجراحه في السنة الخامسة، وسعد هو صاحب المقولة المشهورة في الدفاع عن عائشة ﷺ حيث غضب للنبي ﷺ وأزواجه فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا وَاللَّهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ. إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ»[1]، وهذه المقالة منه تدل على أن ذلك كان قبل حادثة بني قريظة وقبل الخندق لاتصال هاتين الحادثتين، وحادثة الخندق كانت في السنة الرابعة أو الخامسة على خلاف في ذلك، فغزوة (المريسيع) التي كانت حادثة (الإفك) بعدها تكون قبل الخندق في الرابعة أو الخامسة، وبذا فإن من آيات سورة النساء ما نزل في السنة الرابعة قطعًا.

المعلم الثالث: في هذه السورة المباركة تجد قانون الأمانات العامة، وهو قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النِّسَاء:٥٨)، ذكروا أنها نَزَلَتْ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣/ ٢٢٩)، ويذكر ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٤٧١) استشكال القاضي عياض في ذكر سعد بن معاذ في هذا الحديث؛ لأن الإفك كان في المريسيع وكانت سنة ست فيما ذكر ابن إسحاق، وسعد بن معاذ مات من الرمية التي رميها بالخندق فدعا الله فأبقاه حتى حكم في بني قريظة ثم انفجر جرحه فمات منها وكان ذلك سنة أربع عند الجميع إلا ما زعم الواقدي أن ذلك كان سنة خمس قال: وعلى كل تقدير فلا يصح ذكر سعد بن معاذ في هذه القصة، والأشبه أنه غيره، ثم رده بناء على الاختلاف في تاريخ غزوة المريسيع، وقد حكى البخاري عن موسى بن عقبة أنها كانت سنة أربع وكذلك الخندق كانت سنة أربع فيصح أن تكون المريسيع قبلها، فإن كانا من سنة واحدة استقام أن تكون المريسيع قبل الخندق فلا يمتنع أن يشهدها سعد بن معاذ، وبين أن الصحيح في النقل عن موسى بن عقبة أن المريسيع كانت سنة خمس وأن الذي نقله عنه البخاري من أنها سنة أربع سبق قلم نعم. والراجح أن الخندق أيضًا كانت في سنة خمس خلافًا لابن إسحاق فيصح الجواب المذكور وممن جزم بأن المريسيع سنة خمس الطبري... ثم ذكر إشكالات أخرى وبين حلها، وبَيَّن مبالغةَ ابن العربي في نفي وجود سعد حينها، وأن هذه المبالغة جرت على عادته... رحم الله الجميع.

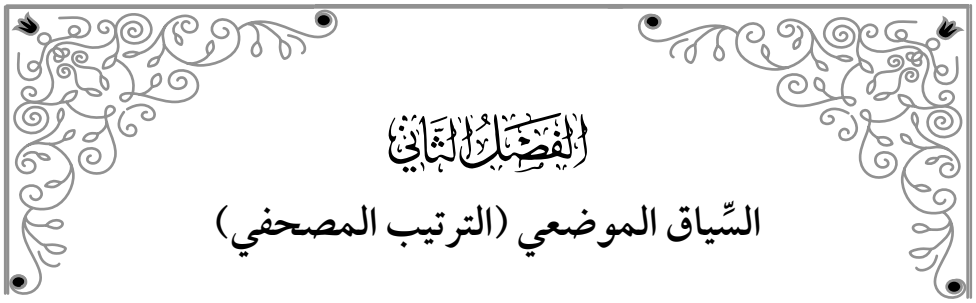
يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي قِصَّةِ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ الشَّيْبِيِّ، صَاحِبِ مِفْتَاحِ الكَعْبَةِ، وعندي في نزولها عام الفتح نظرٌ، والحديث لا يميل كثرة من محققي علم الحديث إلى إثباته.

المعلم الرابع: في هذه السورة آيات الحث على الخروج من القرية الظالم أهلها، فما هذه القرية المقصودة عند نزول هذه الآيات؟ إنها ليست إلا مكة التي كانت ترزح تحت الاحتلال الوثني حينها، وإن عمَّت غيرها بعد ذلك، وفي السورة تسمع المستضعفين يئنون بحثًا عن الولي والنصير أمام الاضطهاد الوثني المريع الذي يأكل كرامتهم، وذلك كان في أوائل العهد المدني، وامتد إلى ما بعد صلح الحديبية.

وبذا تخلص إلى أن هذه السورة لم تنزل كاملةً في وقتٍ واحدٍ، بل إن نزولها بدأ في أواخر السنة الثالثة للهجرة، أو أوائل السنة الرابعة على إثر غزوة أحد بقليل في أواسط العهد المدني فانتصرت للحقوق المادية لليتامى والنساء ضمن منظومة المواريث الإسلامية وفق تقنينٍ عادلٍ مدهشٍ يتكامل مع بقية مجالات الحياة ولم تصل إليه النظم الإنسانية إلى اليوم، ونزل بعد ذلك أو معه آيات تنظيم الأسرة ثم نزلت آيات الهجرة من أرض الظلم، وآيات استنقاذ المستضعفين، وخلال ذلك نزلت آيات الحوار مع أهل الكتاب: اليهود والنصارى، حوارًا يدور حول جوانب التعايش، والنقاش في القضايا الدينية، والاجتماعية، والفكرية، ويتضمن بيان الأخطاء والانتهاكات الضخمة التي سببها المحرفون للكتب السابقة، عسى أن تهتم الأمة الجديدة بعدم الوقوع فيما وقع فيه من قبلهم، واستمرت السورة في النزول؛ حتى نزل بعضها ضمن آخر ما نزل، كآية الكلالة الثانية، فعَنِ البَرَاءِ بن عازب ﷺ قَالَ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ (١).



(١) البخاري (٨ / ١٩٠) برقم ٦٧٤٤ .



الفصل الثاني

السِّياق الموضعي (الترتيب المصحفي)

سورة النساء هي الرابعة في الترتيب المصحفي بعد الفاتحة والبقرة وآل عمران، وترى الترتيب المصحفي القرآني منسجمًا متناغمًا بصورة مدهشة:

فقد كانت أم القرآن في موقعها المناسب؛ فارجع البصر إلى ما سبق سورة النساء من السور لترى المجد الثقافي عند تأمل موقع سورة النساء:

فبدأ النظام القرآني بالفاتحة التي قدمت للعالم تعريفًا مدهشًا بالإسلام في اختصارٍ بديع، وحوت بكثافةٍ متميزة مقاصد القرآن الكريم، وجمعت المبادئ الدستورية الإسلامية، والمحكمات الضرورية التي يجب أن يعرفها كلُّ مسلمٍ، كما أخبرت العالم عن الله وأساس صفاته، وأغاثت الإنسانية بالهداية الإلهية ليتمكنوا من تنظيم حياتهم على الوجه الأمثل.

فسورة الفاتحة مثلت المقدمة المختصرة التي لا يُعذر في حفظها كلُّ مسلمٍ ذكر أو أنثى مهما كان أمره أو انشغاله، فمحلها من حيث عدد الكلمات لابد أن يكون في البداية.. لكن الأمر لا يتعلق بقلة الكلمات بل يتعلق أيضًا بالناحية المعنوية فقد قدمت للعالم تعريفًا مكثفًا للإسلام في سبع آيات.

وجاءت بعدها سورة البقرة؛ لتبين إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، وتجعل التجربة الإسرائيلية في جانبها الإيجابي، وفي جانبها السلبي محورًا للإفادة في الأسلوب الصحيح للاستخلاف الإنساني في الأرض، فتدرس النواحي الحيوية

المختلفة استلهامًا لجوانب النجاح، واتقاء لجوانب الفشل التي سببت الإخفاقات الرهيبة التي وقع فيها الإسرائيليون، وليتحقق النجاح في هذا الاستخلاف لا بد أن يوجد الهدى الإلهي القائم على السمع الواعي، والطاعة الإيجابية من الناحية النظامية، وعلى التقوى من ناحية البناء النفسي والعقلي.

ثم جاءت سورة آل عمران؛ لتحدثنا عن السنن الإلهية في بناء الخير في العالم، وذلك يقتضي التفاعل مع الحضارة النصرانية التي تمثل ثاني حضارة كتابيةٍ مؤثرة بعد الحضارة الإسرائيلية، وهم أول أمة من حيث الواقع العددي، ومن أكثر أمم أهل الأرض حركةً، وقوةً، واقتضى ذلك معرفة التاريخ الحقيقي لأسرة آل عمران عليهم السلام، وبذا وضعتنا سورة آل عمران على تفاعل معتدلٍ متزنٍ واعٍ مع أمة النصارى أتباع عيسى عليه السلام، وفيها فصَّل الله كيفية بناء شبكات الحوار معهم وفق التكافؤ لا وفق العبودية والخوف، كما اقتضى ذلك بيان السنن الإلهية في حدوث الانكسار في معارك الحياة، وكيف يمكن قلب الهزيمة إلى انتصار، والفشل إلى نجاح، وترى في سورة (آل عمران) تحصين المجتمع من الأخطار الخارجية الناتجة عن تعامله مع القوى العالمية، ومن الأخطار الداخلية الناتجة عن الخلل في تطبيق المبادئ الإسلامية، وليتم هذا التحصين فقد بَيَّن الله جل مجده في السورة القواعد المنهجية، والقوانين السننية، والروايات التاريخية الصحيحة المفيدة لنكون خير أمة أخرجت للناس، فننشر الخير والنور في العالم، وترى في السورة حديثًا مفصلًا عن أسباب الضعف الإسلامي، والفشل الجماعي أمام القوى الفاعلة في الأرض، عندما تضيع أمة الخير سنن الخير القرآنية فتترك المنهج العدل المستقيم وتسير إما وفق منهج الوهن، وإما وفق منهج الغلو، في سلسلة من الأخطاء النفسية والثقافية الداخلية في الأمة، وهناك تحدث الهزيمة في المعارك الحضارية المختلفة، ومن أبرز الهزائم القديمة النكسة العسكرية التي أحدثت القروح والجروح في المسلمين في معركة

أحد، وبذا يكون القرآن هو المصدر الحقيقي للمعرفة في أمور التفاعل مع العالم حيث بين الله سنن النصر والهزيمة، والفشل الجماعي أمام القوى المتقلبة في البلاد كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨)،

ماذا ترى مما سبق؟

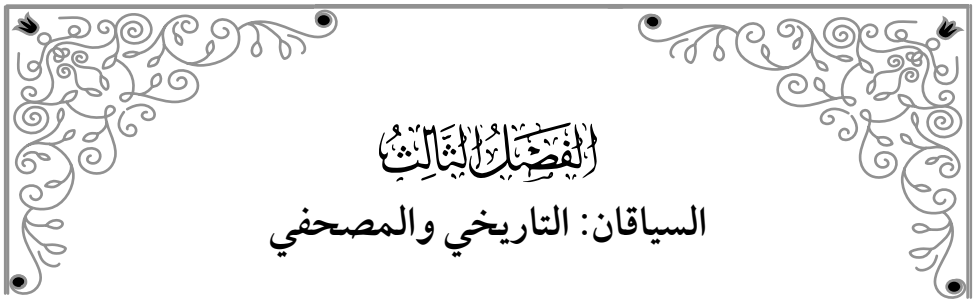
سورة الفاتحة: تعرف العالم بالإسلام، وسورة البقرة تكلمك عن كيفية التفاعل مع الآخر اليهوديً، وسورة آل عمران تنبئك عن كيفية التفاعل مع الآخر النصراني.. إن التعاون مع الآخر العالمي، والأقليات التي تمتد منه محورٌ أساسيٌ من محاور الحديث في تقويم الأمم. فالزهراوان فصلتا إدماج الأقليات الدينية في المجتمع من جهة، والتفاعل مع أهم حضارتين لهما تأثير على الواقع الأرضي.

وهنا جاءت سورة (النساء) المباركة لتكمل هذا البناء الإسلامي العظيم، ولتبرز الجانب الحضاري المشرق للثقافة القرآنية بالكلام عن حقوق (النساء)، وتثبيت كرامتهن الإنسانية في جوٍّ جاهليٍّ يمتهنهن ويتلاعب بهن، وبناء ذمتهن المالية المستقلة، واستدعى ذلك الكلام عن الحقوق والواجبات الإنسانية بالقسط؛ إذ النساء يشكلن المحور الذي يبث البشرية، واقتضى ذلك الدفاع عن الفئات المستضعفة في العالم، فأبانت السورة الحقوق والواجبات الفردية والجماعية، وأبرزت حقوق اليتامى والنساء والمستضعفين أمام نزوات الاضطهاد والاستغلال، وأظهرت بدقةٍ تقنينية عجيبةٍ ماهية هذه الحقوق وكيف يتم تخليصها من ذوي النفوذ والقوى المهيمنة من الكبراء والأغنياء محليًا وإقليميًا وعالميًا، وقد يكون هؤلاء المستضعفون الذين يُمنعون حقوقهم، أو تستغلهم الفئات القوية وذوات النفوذ والسيطرة من اليتامى، وقد يكونون من النساء، وقد يكونون من الرجال الذين يقابلهم قومٌ هم أشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، وقد يكونون من الرعايا في مقابلة الحكام،

وذلك يعني أيضًا أن تذكر حقوق الحكام وواجبات الرعايا ليقوم كل فريق بالقسط في فكره وواقعه، ويأتي في السورة ذكر حقوق الزوجات مقابل الأزواج، والعكس، كما ترى ذكر حقوق الأقارب إرثًا، والأباعد تعاملًا، ومن أبرز ما نراه في سورة النساء بناء الجوانب الاجتماعية بالقسط؛ وتأمين البشرية وخاصة المستضعفين من التمييز والاستغلال، وهنا تلمس تناسقًا مذهلًا بين السور الثلاث، فسورة البقرة تم الكلام فيها عن العلاقة مع القوة الإسرائيلية، وسورة آل عمران تم الكلام فيها عن التفاعل مع القوة العظيمة التي يشكلها أتباع المسيح عليه السلام، وسورة النساء يتم فيها السبق القرآني المدهش في الكلام عن قضايا النساء وحقوقهن، وواجباتهن، وعضويتهن الفاعلة في المجتمع، وهذه القضايا الثلاث: قضايا الأقليات، والحوار مع بقية العالم، والنساء هي أهم القضايا التي تتخذ منها كثيرٌ من القوى العالمية منطلقًا لإظهار تفوقها الفكري مع أنها لم تكتشفها إلا في أواخر القرن العشرين الشمسي في حين ترى القرآن نزل بمعالجتها قبل ألف وأربعمائة عام، وكانت معالجة القرآن لها قائمة على القسط بينما تتم معالجتها من قبل القوى المعاصرة وفق مفهوم نظام (الفيتو) العنصري، وتبعًا للأهواء والعبث والاستغلال.

وإنك لتجد مشاعرك تتحرك عند قراءة سورة النساء عندما تراها تؤسس الحياة الإنسانية على مبدأ القسط، وتعيد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها، دون حاجة للمرور بالتجارب المؤلمة من اشتراكية، أو ماركسية، أو بلشفية، أو رأسمالية.





الفصل الثالث
السياقان: التاريخي والمصحفي

السياقان: التاريخي والمصحفي يقدمان كنوزًا مفاجئة متجددة من المعرفة القرآنية في سورة النساء، ويقدمان (الإعجاز المعنوي) في أبهى صوره.

من أعظم مصادر التدبر المعينة على فهم كلمات الله ملاحظة نوعي الترتيب القرآني أو السياق القرآني:

الترتيب أو السياق التاريخي والترتيب أو السياق المصحفي:

فأما السياق التاريخي فترى فيه نزول القرآن حسب تاريخ النزول ابتداء من البعثة إلى وفاة النبي ﷺ، فأول ما نزل من القرآن المجيد الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق، ولا يخرج هذا الترتيب المعجز عن أمرين:

أولهما: مواكبة الأحداث الحيوية لتسديد النبي ﷺ في كيفية تعامله مع العواطف أو التفاعلات الشخصية أو الأسرية أو العامة.

وثانيهما: البناء التدريجي للنفوس الإنسانية وفق صبغة الله التي يريد أن يصبغ بها البشرية لتصل إلى مدارج السعادة.

فالسياق التاريخي يوقفنا على فهم معاني هذه الآيات وفق ملابسات النزول سواء نزلت الآيات بسبب حادثة أو بسبب سؤال، أم لم تنزل بسببٍ محدد أو حادثة معينة وإنما نزلت ضمن العهد المكي أو المدني، فإدراك ذلك يؤثر في إدراكنا لتصرف النبي ﷺ أمام هذه الآيات تطبيقًا لها، فالملابسات التي تحيط بنزوله سواء أكانت

سببًا للنزول أم تعلقت الآيات بمعالجتها تسهم في وقوفنا على المعنى الحقيقي للكلام الإلهي، وتوصلنا إلى القول السديد والأمر الرشيد في معنى الآيات من غير شطط أو غلو أو جفاء.

وأما السياق المصحفي فترى فيه وضع السورة بعد اكتمالها في موضعها المحدد من المصحف حيث نختار أن هذا الترتيب توقيفيٌّ لا اجتهاديٌّ، لكننا في الترتيب المصحفي لا نعني ترتيب السور فقط بل ترتيب الآيات التي أجمع أهل العلم على أن وضعها المصحفي توقيفي، والنوعان في السياق المصحفي يرجعان إلى قاعدةٍ كبيرةٍ عظيمة جليلة يبينها الله محكمة لا متشابه فيها، ومسَلَّمَةً لا شية فيها، فيقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، فالسياق المصحفي الموضعي يخبرك عن إحكام مذهلٍ للنص القرآني المجيد قال فيه عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بعد أن بين وجوه ارتباط الكلام عند العرب:

«إذا كانتْ هذهِ الأمورُ وهذه الوجوهُ منَ التعلُّق التي هيَ محصولُ النَّظمِ موجودةً على حَقائِقها وعلى الصِّحَّة وكما ينبغي في منثورِ كلامِ العربِ ومنظومِه، ورأيناهُم قدِ اسْتَعملوها وتصرَّفوا فيها وكملوا بمعرفتِها، وكانتْ حقائقَ لا تتبدَّلُ ولا تَختلفُ بها الحالُ... فما هذا الذي تجدَّد بالقرآنِ من عظيمِ المزيَّةِ وباهرِ الفَضْل والعجيبِ منَ الوصف حتى أعجز الخلقَ قاطبةَ، وحتَّى قهرَ منَ البُلغاء والفُصَحاءِ القُوى والقُدَرَ، وقَيَّدَ الخواطرَ والفِكر، وحتى خَرِستِ الشقاشقُ، وعُدِمَ نطقُ الناطقِ، وحتى لم يَجْرِ لسانٌ، ولم يُبنْ بَيانٌ، ولم يساعدْ إمكانٌ، ولم يَنْقدحْ لأَحدٍ منهُم زَنْد، ولم يَمضِ له حَدٌّ، وحتى أسالَ الوادي عليهم عَجزًا، وأخذَ منافذَ القولِ عليهم أَخْذًا»[1]، ولكنك تراني أخالفه فيما حاول فيه الحصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قال:

(١) دلائل الإعجاز (ص: ١٧).

إنِّي أقولُ مَقالًا لستُ أُخفيه ولستُ أرهَبُ خصْمًا إنْ بَدا فيهِ
ما مِنْ سبيلٍ إلى إثباتِ مُعجزةٍ في النَّظْمِ إلا بما أصبحْتُ أبديهِ [١]

فقد جعل الله -جلَّ ذكرُه- لكثيرٍ من السابقين واللاحقين نصيبًا في إبداء الإعجاز القرآني بحمد الله، وكلٌّ يبديه على شاكلة قد لا تجدها عند آخرين.. ولعلك ترى في هذا الكتاب شيئًا من فضل الله الواسع في ذلك، فعد بنا إلى ما بدأناه من الكلام عن الترتيب المصحفي، فإن هذا الترتيب للسور والآيات له دوره الكبير الفاصل في إدراك الفوائد الإنسانية الضخمة التي نكتسبها من بصائر القرآن المجيد، فهو يعيننا على معرفة موضوع السورة ويبين لنا معالجة الرؤية القرآنية للمواضيع الصغيرة والكبيرة الشخصية والمحلية والعالمية التي تمتد عبر الزمان والمكان، من غير تقييدٍ بسياقها التاريخي.. إنه يبين لنا الرؤية القرآنية للقضايا، ويظهر لنا البصائر القرآنية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان لتعالج القضايا في كل زمان ومكان.

وللترتيب المصحفي وظيفةٌ أخرى تتمثل في دوره الترجيحي في فهم النص عندما يذهب كل فريق بما تأوله، وربما علا بعضهم على بعض في ذلك؛ فإذا السياق الموضعي يأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد.

وبالجمع بين السياقين: السياق التاريخي والسياق المصحفي الموضعي نصل إلى أقرب نقطةٍ في فهم النص القرآني حيث تشرق النفوس بنور ربها بعيدة عن أهوائها أو ضغوط الواقع حولها، وعندها تجد العاصم من مضلات الفتن المتجددة.

علم اتصال النظم القرآني يكشف المفاجآت في الإحكام القرآني اللفظي والمعنوي، وينبئك عن جانبٍ من أهم جوانب الإعجاز القرآني:

(١) دلائل الإعجاز (ص ١٧)، هل لك أن تقول هنا: ما باله ﷺ يحصر مسألة إعجاز القرآن فيما يبديه دون غيره؟ لكن عذره واضحٌ، فهو يحاول أن يبين مكامن البحث عن الإعجاز القرآني، ولم يقصد حصر مظاهره.

أما وقد رأيت السياق المصحفي يُردِفُ سورةَ أم القرآن بهذه السور الثلاث الكبرى: البقرة آل عمران النساء، فإليك الآن المفاجأة في علم اتصال النظم القرآني في هذه السور الثلاث، وهيمنتها على إدارة أهم مِلفات الأحداث العالمية، فالسور الثلاث تدير ملفات التفاعل مع الآخرين محليًا ودوليًا وخاصة القوى الأكثر تأثيرًا في العالم: القوى الإسرائيلية والنصرانية، كما تسبق العالم بمِلف حق الإنسانية في الخماسية التي تمثل معاني (البث)، وهي الحياة (الإظهار) والاستقرار والإعمار والتكاثر والانتشار ، وتقنين الحقوق النسوية بصورةٍ دقيقة تكفل إنشاء الأسرة المركزية التي تنبثق عنها الإنسانية المترابطة.

تسمع الضجيج الإعلامي الهادر الذي يشق الآذان، ويقلب الحقائق لدى بني الإنسان حول قضايا: العلاقات الدولية والمحلية بين الأمم القائمة على السلم العالمي، والتعايش بين الأقليات والأكثرية، وحقوق المرأة:

تأمل كيف عالجت السور الثلاث الكبرى الأولى من القرآن المجيد ذلك ببراعة تامة:

فسورة البقرة عالجت التفاعل مع اليهود بصورة خاصة.. ألم تر أن الله سماها (البقرة) ليكون الاسم رمزًا حاضرًا حيويًا يلخص التفاعل الدائم مع بني إسرائيل فهمًا لنفسياتهم، وإدراكًا للجانب الإيجابي والسلبي عندهم؛ إذ المقصود بالبقرة بقرة خاصة أمر موسى عليه السلام قومه بذبحها لحل إشكالية نشبت بينهم.

سورة البقرة -أيها القارئ العزيز- تعالج العلاقات الدولية مع أعظم فئةٍ دينية على وجه الأرض استطاعت أن تُكَوِّنَ لها هذا التأثير الضخم في الأحداث العالمية.

إنك لتندهش عندما تقرأ سورة البقرة؛ إذ ترى قصة بدء البشرية وآدم عليه السلام في الآيات (٣٠-٣٩)، ثم تأتي الآية (٤٠) مباشرة لتصور لك بصورة مفاجئة انتقالًا (زمكانيًا) أي زمانيًا ومكانيًا يتجاوز التاريخ ليصل إلى بني إسرائيل حيث يخاطبهم الله خطابًا مباشرًا، وينشئ معهم حوارًا يحمل في ابتدائه الكثير من التلطف من خلال مناداتهم بأحب اسمٍ يتلهفون على سماعه، وهو (بنو إسرائيل)، فيقول الله جلَّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة: ٤٠).

لقد كانت التجرِبة الإسرائيلية -في بصائر سورة البقرة- مليئةً بالسلبيات كما رأيت فيها إيجابياتٍ ضخمة، فإن رأيتهم في وصف السورة يقومون بأفظع الجرائم، فإنك ستجدهم يصنعون أعظم المكارم،

فتقرأ في الجانب السلبي قول ربك تعالى جده: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١)،

وفي الوقت ذاته ترى نهوضهم والصبر المدهش لصفوتهم في سبيل الله، حيث تقرأ في الجانب الإيجابي قول ربك -عزَّ جارُه-: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦) ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٥٠، ٢٥١).

وفي هذا الجانب الرائع من التاريخ الإسرائيلي يُشَبِّه أصحابُ النبي ﷺ أصحابَ بدر -وهم أعظم ثلة من المسلمين- بأصحاب طالوت رَحِمَهُ اللَّهُ، فعن البَرَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَمِئَةٍ [١].

(١) صحيح البخاري (٦/ ٧٣) برقم٣٩٥٧.

كانت سورة البقرة تدور حول ذلك، ولذا كان موضوعها المبدئي الذي اخترته في الكتاب الذي أرجو أن يخرج قريبًا: إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية.

أما إشراق الحضارة الإسلامية فلأن سورة البقرة كانت أول سورة نزلت في المدينة، والنبي ﷺ سيخاطب العالم بها ولن يكتفي بخطاب قريش أو العرب فقط، ولأنه أصبح الداعية الحاكم، وليس الداعية فقط، فبنت (فسطاطُ القرآن الكريم) وهي سورة (البقرة) الحضارةَ التي تعيد العدل في الوقت الذي تلاعبت فيه القوتان العظميان (فارس والروم) بمفاهيم العدل والنظام في العالم.. لقد قدمت تلك الحضارة تفصيلاتٍ تشريعيةً وسياسيةً واجتماعيةً واقتصادية فأشرقت بنور ربها على الإنسانية الحائرة، وكان من أهم ما تقدمه الحوار مع صنفٍ من أذكى البشرية هم بنو إسرائيل، وكان بين النبي ﷺ وبينهم جولاتٌ هائلة من الحوار والمعرفة التاريخية، فَعَرَّفنا الله سبحانه وتعالى بأدق التفاصيل التاريخية التي لا يعرفها بعضٌ ممن ينتسب إلى الرأي العام عندهم.

أما سورة (آل عمران) فقد دارت حول سنن النجاح والفشل في إقامة الحضارة الرسالية التي تبني الخير في العالم، والتفاعل مع الثقافة النصرانية، وهكذا هو اسم الكتاب الذي أرجو أن يخرج قريبًا حول هذه السورة العظيمة:

أما سنن النجاح والفشل فلوجود هذه الآية المركزية المحورية فيها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

لقد جاءت هذه الآية المباركة في سياق الكلام عن الدروس الضخمة التي تمثلها مدرسة (أحد) حيث حدثت الانتكاسة العسكرية المؤلمة، وهي انتكاسة غير متوقعة

للتقدم الإسلامي المشرق أمام القوى الوثنية، وهل السورة إلا بيانٌ تفصيليٌّ لأهم المواقف التي سببت تلك الآلام؟

وأما الحضارة الرِّسالية فأنت تدرك ذلك عندما تجد آية وقعت موقعًا مفاجئًا لا يشبه ما قبله ولا ما بعده.. إنها قوله تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).. فانظر قبلها لتجد كلامًا عن دروس الهزيمة في أحد، وانظر بعدها لتجد الدروس متتابعة عن تلك الهزيمة، فيفجؤك قول الله جل ذكره: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وإذن فلماذا قطعت هذه الآية ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ..﴾ الكلام المتصل حول دروس أحد؟

لعلك عندها تشعر بمركزية هذه الآية في كل القضايا التي تريد السورة الكلام عنها، فالحديث عن سنن الانتصار والفوز والانكسار والفشل في أحد ليس إلا لأن الحضارة التي ينشئها النبيُّ ﷺ في المدينة ذاتُ رسالةٍ وظيفية تتعلق بالتلاوة للقرآن الكريم، والتزكية، والتعليم، كما أن الأمر منعكس أيضًا، فإن أي حشد لمختلف القوى السياسة والاقتصادية والعسكرية يظل عديم النفع في تحقيق الانتصار إن لم يقترن برسالة الحضارة وروحها اللتين تمثلهما هذه الآية.

وأما بناء الحضارة الرِّسالية للخير في العالم فلوجود آيتين محوريتين مركزيتين أخريين هما قوله -تعالى مجدُه-: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وبذا فإن الرسالة العامة التي تكتنزها الحضارة الإسلامية الوليدة في المدينة يلخصها مفهوم الخير للناس، كما تمثلها الوظائف النبوية الثلاث.

وأما الجزء الأخير من موضوع سورة آل عمران، وهو التفاعل مع الثقافة النصرانية فإنه لا يعزب عنك أيها القارئ اللبيب أن اسم السورة (آل عمران) لتشير إلى الرسالة النصرانية، والحضارة النصرانية والثقافة النصرانية، وبذا تراها تحل ثانيًا بعد التفاعل مع الثقافة اليهودية التي رأيناها في سورة البقرة..

تعرفنا سورة (آل عمران) بالواقع التاريخي الحقيقي لأسرة آل عمران: أم مريم، ومريم وعيسى ﷺ، وتربط السورة بطرفٍ خفيٍّ بين التفاعل السلبي مع الحضارة النصرانية وبين الإخفاقات الحضارية التي حدثت في (أحد)؛ إذ لا شك أنه يملؤك الفضول المعرفي ابتداء عندما تجد اسم السورة (آل عمران)، ثم تجد نحو نصفها يتكلم عن دروس أحد.. فما الرابط بين الحضارة النصرانية التي يعبر عنها اسم السورة، وبين دروس أحد؟.

وانظر لجمال الإحكام، ففي سورة البقرة تشرق الحضارة الإسلامية الوليدة، وفي سورة آل عمران تتعرض هذه الحضارة الوليدة لانتكاسة طارئة عندما خالفت سنن الانتصار، ويظهر الوجود الإسرائيلي بقوة في سورة البقرة كما يظهر الوجود النصراني في سورة آل عمران.. أما يعلمنا ذلك كيف يتحقق لنا الإخفاق أو النجاح في تفاعلنا مع الجهتين سواء أكان ذلك في ميدان الخصومة أم في ميدان التعاون؟ ومتى يقرر على المعاهد الديبلوماسية وعلى السلك الديبلوماسي بصفة عامة تدارس البصائر القرآنية السياسية في سورتي البقرة وآل عمران؟.

أليس هذا مدهشًا؟

إنك لترى إحكامًا ظاهرًا، وترتيبًا لم يَعْدُ مكانه المناسب: التفاعل مع اليهود، وبعده يأتي التفاعل مع الحضارة الأكثر عددًا وقوة وإمكاناتٍ في الواقع العالمي.. إنها الحضارة النصرانية.

اليهود أقل عددًا لكنهم ذوو تأثيرٍ مهولٍ على مستوى العالم، وأما النصارى فيدير اليهود مراكزهم المالية، بل إنهم لفرط ذكائهم يديرون المراكز المالية العالمية.. يخطب صنَّاع القرار الحكومي والمعارض ود اليهود في العالم النصراني، بل يجعلون (إسرائيل) الأيقونة المركزية قبل الانتخابات وبعدها.

وناسب السياق المصحفي السياقَ التاريخي للتفاعل النبوي المنير مع العالم؛ فإن بني إسرائيل أول من تعامل معهم النبي ﷺ تعاملًا مباشرًا بعد وصوله إلى المدينة ثم التقى بوفد النصارى بعد ذلك عندما قاموا بزيارته.

وبعد: فماذا ترى في السورتين؟ لقد سبق القرآن الأممَ المتحدةَ والمختلفةَ والمؤسسات الحقوقية الدولية في إنشاء أسسٍ للتواصل المحليِّ والدوليِّ بين الأمم وأهل الأديان من خلال السورتين المباركتين (البقرة وآل عمران)، بينما ترى التلاعب الدولي قائمًا إلى الآن بأوراق تجد من عنواناتها (الأقليات، والأكثرية) فينصرون جهة ضد أخرى حسب الأهواء التي تقتضيها مصالح القوى المستكبرة في العالم.

والسورتان الزهراوان فصَّلتا التفاعل مع أكثر جهتين تأثيرًا في العالم هما: العالم الإسرائيلي، والعالم النصراني.. بماذا تشرق علينا سورة النساء؟

إنها تشرق بالكلام عن حق الإنسانية في الحياة والبثِّ الاجتماعي البشري، وتنظيم حقوقها البينية بالقسط؛ وحمايتها وخاصة المستضعفين والنساء من الاضطهاد..

إنها تقدم لك منظومة قانونية مقسطة متكاملة مدهشة تكفل للإنسانية الوجود، والبث، وتعبر لك أتم التعبير عن ذلك الآية الأولى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، فيشوقك الله جل ذكره تشويقًا مستفزًا لتتساءل: كيف يحدث ذلك؟

وعندها تجد السورة تتكلم عن حقوق الطفل والنساء ابتداء من الآية الثانية على صورة قوانين ملزمة يتخللها الإشراق الوعظي، والنور التذكيري، فيقول الله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٢).

تجد في سورة النساء كلامًا تفصيليًا عن حق الإنسانية في (بثِّ جنسها)، وكيف يتأتى لها هذا الحق إن أهملت حقوق الأطفال، وتم التلاعب بحقوق النساء؟

وبذا تحدثك السورة عن حقوق الأطفال والنساء ليكون ذلك الحديث منطلقًا لتكوين الأسرة المركزية (الرجل والمرأة والأطفال) والأسرة المتوسطة (ذوي القربى) ومنهما يتم بث الجنس الإنساني، فتنشأ الأسرة الإنسانية الكبيرة، وهكذا يقرر الله حقوق النساء ويضع القوانين والإجراءات اللازمة لتصبح مركزًا لقيام الإنسانية في الأرض بدلًا من أن تكون المرأة أداة يتلاعب بها الشيطان والذين يتبعون الشهوات.

ألا ترى أن دول العالم الأول تدق نواقيس الخطر إن وجدت معدل الخصوبة أقل من المعدل الطبيعي الذي يبقي على عدد سكان المجتمع ثابتًا على الأقل، فبعض الدراسات تقدر الحد الأدنى من عدد الأطفال الذي ينبغي أن تنجبه كل امرأة خلال حياتها ٢،١ طفل لكل امرأة في الدول الصناعية، بمعنى أن كل عشرة أزواج في الدول الصناعية ينبغي أن ينجبوا ٢١ طفلًا، وأكثر من ذلك بقليل في الدول النامية لكثرة تعرضهم للحوادث.. ونقص المجتمعات عن هذا المعدل سيؤدي إلى شيخوخة الحضارة، ومن بعدها الفناء.. وبحسب تقرير للأمم المتحدة فإن معدل الخصوبة في أوروبا تراجع من ٤,٨٢ في عام١٩٦٠م إلى ١,٨٠ في عام ٢٠١٦م.. إن ذلك ينذر بالفناء على المدى البعيد.

ائتوني بكتابٍ أو بثقافةٍ تجعل من النعم على البشرية: (البث الإنساني) أي استقرار الإنسانية وانتشارها في الأرض، إن السورة لا تطلب ثبات البشرية على

عددٍ محددٍ بل تمن على العالم ببث البشرية على امتداد الزمان والمكان، ولذا تجد سورة النساء لا تخبرنا فقط عن حقوق النساء وواجباتهن بل تتكلم عنهن في إطار الكلام عن البث البشري (الوجود والاستقرار والانتشار)، وإنما الله جعل عنوانها الأبرز (النساء) لإنصافهن من الظلم الهائل الذي تعرضن له قبل الإسلام من جميع الحضارات الجاهلية القديمة التي كانت قائمة حينها سواء في ذلك الحضارة الرومانية أو الفارسية أو الهندية أو الصينية أو العربية الوثنية، فإن أصدق تصوير يوضح الحقيقة المرة المفجعة لوضع النساء عند هذه الحضارات هو قول الله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ (النساء: ١٩) أي لا تفعلوا ما يفعله أهل الجاهلية من عد المرأة مجرد متاعٍ أو سلعة مثل السلع والأمتعة التي يقتنيها أحدهم في البيت وربما باعها أو تخلص منها.. هكذا كان حال الحضارات الجاهلية القديمة كما هو قريب مع تغير الأسماء وخداع الشعارات في الجاهليات المعاصرة.

بذا تعانق موضوع السورة مع اسمها على خير وجه.

وهكذا اجتمعت السور الثلاث الأولى في الترتيب المصحفي: البقرة وآل عمران والنساء، لتنبئك بتفصيلٍ يأخذ الأنفاس عن قضايا المرأة والتفاعل الإنساني مع الآخرين وهو الذي تبخسه (الشرعية الدولية) وتتلاعب به عندما تسميه (قضايا الأقليات) فتنصر أقلية ضد الأكثرية في مكان، وتتلاعب بحقوق الأقليات في أمكنة أخرى.

لعله استبان لك سبب (تسوير سورة النساء) على الوجه الجلي الأكمل.. إن إدراك ذلك يضيء لنا الطريق في إدراك نوعٍ مبهرٍ من الإعجاز المعنوي للفظ القرآني.

ومن أعظم المصادر التي تزيد تدفق المعاني في الآي القرآني: السياق المصحفي الذِّكْري القريب والبعيد، والسياق التاريخي، والاعتبار للعموم اللفظي؛ واختلافات دلالات الألفاظ.

ونعني بالسياق الذِّكْري أن الله تعالى جده ذكر هذه الآية بعد هذه الآية، وقبل هذه الآية، وكذلك ذكر هذه الكلمة قبل أختها التي بعدها، وبعد أختها التي قبلها.. وهكذا.

وأما اختلاف دلالات الألفاظ، فنعني به أن اللفظ ربما كان ضمن المشترك وربما كان ضمن المتواطئ وإخوانهما، واضرب لهم مثلًا في هذه السورة المباركة بقوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء:٢٩).

فهذه الجملة القرآنية الدستورية تتضمن عددًا من المعاني الحافظة للمجتمع تم تفصيلها في موضعها من السورة:

فالمعنى الأول: ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملة واحدة، ودعوة واحدة، فالضميران فيه على التوزيع، فأنتم كنفس واحدة، فمن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه، وهذا مصطلح قرآني فريد مدهش نوجهه لأمة فعل بعض أبنائها بها ما لم تفعله الوحوش الضارية بفرائسها.

والمعنى الثاني: لا تقتلوا أنفسكم بالانتحار مهما كانت الآلام، بل يجب على المجتمع أن يخفف عنكم تلك الآلام.

المعنى الثالث: لا تقوموا بالجرائم التي تعاقبون عليها بالعقوبة القصوى، مثل جريمة الخيانة العظمى التي فيها تدمير للإنسانية وبثها في الأرض.

المعنى الرابع: لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب المعاصي التي تسبب البؤس الفردي، والدمار الجماعي، وتهلك عقولكم وأرواحكم.

المعنى الخامس: لا تقتلوا أنفسكم بفعلٍ يؤدي إلى إيذاء النفس أو إزهاقها حتى لو كان الفعل طاعةً إلا أن تكون طبيعته مقتضيةً لذلك مثل الدفاع عن الإيمان والبلدان والمستضعفين.

المعنى السادس: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم في تحصيلها بل ابحثوا عن الكسب المشروع على رضا وهون، وهذا معنى جميل يظهر من السياق الخاص القريب.

المعنى السابع: لا تقتلوا أنفسكم باتباع الأنظمة الجاهلية.. لا تقتلوا أنفسكم بتقديم الأهواء الغوية على تشريعات الكتاب الخاتم.. تتوهمون السلامة في تلك الأفكار والتشريعات وتبتعدون عما أمر به رب الأرض والسماوات فإذا أنتم قد وقعتم في الهلكة والدركات، وهو أيضًا معنى معتبر يدل عليه السياق العام.



الفصل الرابع

اسم السورة القرآنية نوعٌ آخر من البيِّنات المبهرة

نحن الآن -أيها المتدبر- أمام سورة سميت باسم (النِّساء).

فلماذا هذه التسمية؟

إن ««النساء» شقائق الرجال» كما يقول النبي ﷺ [1]، فلا يستغني أحد الزوجين عن الآخر في القيام بـ (بث الحياة الإنسانية)، وإذا كان الأمر كذلك فقد وجب أن تأخذ المرأة مكانتها المنطقية المكرمة في الواقع الإنساني، ولكن الجاهليات القديمة والحديثة بخست النساء حقوقهن، وعوملن في كثيرٍ من الحضارات البائدة على أنهن جنسٌ منبوذ مستعبد، وبقي الأمر حتى خرجت مظاهرة نسوية في ١٨٥٦م للاحتجاج في (نيويورك) على الظروف غير الإنسانية التي يُعاملن بها، وفي ٨ مارس ١٩٠٨م تظاهرن مجددًا في (نيويورك) حاملاتٍ قطعًا من الخبز اليابس وحُزَمًا من الورود، وطالبن بخفض ساعات العمل ووقف تشغيل الأطفال، وفي عام ١٩٧٧م خصصت الأمم المتحدة يوم الثامن من مارس يومًا عالميًا للمرأة.. لكنهم يغفلون أن الكتاب الدستوري الوحيد الذي انتصر للمرأة قبل أكثر من ١٤٠٠عام كان القرآن.. فأين عنه يذهبون؟ ولماذا أهله عن كنوزه التي تحتاجها البشرية غافلون؟

تسمية سورة (النساء) تكتسب مكانتها العظيمة في إنصاف المرأة ومنحها مكانتها في (بث الحياة الإنسانية) في سبقٍ لا يمكن مقارنته تاريخًا ولا مضمونًا مع العبث الجاهلي القديم والحديث بالمرأة.

---

(١) أحمد (٦ / ٢٥٦) برقم ٢٦٢٣٨ ، وحسنه لغيره الأرناؤوط.

الفصل الخامس

الخريطة الكلية لسورة النساء

(بث الحياة الإنسانية، وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال)

تعالوا نرى الدر النضيد الذي يصَّعَّد من سورة النساء من خلال محاورها:

فبعد تَفَكُّرٍ متكرر، وتدبرٍ استغرق نحو خمس سنوات ساقني حادي التدبر إلى مراجعاتٍ متعددة في السورة، وهذه المراجعات اقتضت تعديلاتٍ كثيرةً في ترتيب محاور السورة اعتمادًا على الإحكام في تتابع آياتها في محاولةٍ للوصول إلى الأكمل في إدراك عمود السورة و(الصورة المتكاملة للسورة التي اقتضت ذلك التسوير).

حين تدرك النفس الإنسانية الصورة الكلية للسورة، وعمودها الذي يسري بين جميع محاورها هناك.. هناك تبدو لك السورة في أحسن نظام، وأقوى إحكام.

فماذا أقول لك؟

لعلك تظن بادئ الرأي أن السورة جمعت أشتاتًا من الآيات والمواضيع المتفرقة دون رابطٍ واضحٍ بينها، فإن كنت مؤمنًا بالقرآن فَإنك ستكتفي فقط بالتذكر المحض وحده، والإفادة من هذه المواضيع المختلفة دون أن تكلف نفسك عناء السؤال عن سبب (تسوير السورة) الذي يمنحها شخصيتها المتميزة، أما من أراد السبيل الحقيقي فإن قلبه يتيقن بأن تقسيم القرآن المجيد إلى سور تقسيم توقيفي إلهي لحكمة بالغة.. هنا لا بد من المصابرة التدبرية لمعرفة سبب (تسوير السورة)، ولذا يهيجك الله جل

ذكره لتتدبر القرآن في هذه السورة، فيقول لك: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

اسمح لي أن أُقَرِّرَ لك إن سلكت معي هذا السبيل أنك ستشعر بالاندهاش الشديد وأنت تلمس انسياب الخريطة المكونة لسورة النساء؛ إذ ترى السورة ينتظمها عمودٌ واحدٌ واضحٌ يربط بين آياتها وفق رسمٍ تفصيليٍّ متقنٍ، فيظهر في السورة جميع ما تحتاجه الصورة المتكاملة،إذ يبصرنا الله في هذه السورة مِنَّتَهُ العظمى بـ (بث الحياة الإنسانية)، وتنظيم حقوق أفرادها بالقسط، وليتم ذلك بصورةٍ مكرمة، ولقد ألقاني يَمُّ التدبر في آخر الرحلة إلى أن هذه السورة تكونت من مقدمةٍ وسبعة محاور وخاتمة:

فالمقدمة: تقرر أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية) (النساء:١).

وتجد هذه المقدمة في آيةٍ واحدةٍ هي الآية الأولى من سورة النساء لكنها ضمت بكفاءة عالية مجموعة من أهم الأسس التي تكفل بث الجنس الإنساني وفق مبدأ القسط، وتبهرك هذه الآية بأنوارها الجاذبة حتى اختزلت ألفاظها تلك المعاني الثرية، **وهذه الأسس هي:**

الأساس الأول: عالمية الخطاب الإسلامي ليكون الخطاب الأكثر أهلية للمحافظة على بث الحياة الإنسانية، وليقيم التفاعل الإيجابي الصالح بين أبناء الإنسانية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، إنه خطاب عالمي.. لم يكن الإسلام منذ آدم عليه السلام دينًا عنصريًا لجنس أو قبيلة أو فئة أو أسرة، والمخاطبة العالمية تقتضي النسبة الإنسانية لا العقدية، فلم يقل: يا أيها المؤمنون والكفار.

الأساس الثاني: الرؤية القرآنية للحقوق قائمة على أساس النظر إلى المصلحة

الإنسانية في الحياتين: (الفانية، والباقية)، ويُبَصِّرُنا بذلك أن هذا الخطاب العالمي العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لم يكن إلا في بداية سورتين: النساء التي أعلنت للعالم بداية الحياة الدنيوية البشرية، والحج التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الأخروية.

الأساس الثالث: التقوى صِمام الأمان لإعطاء الحقوق لأهلها، وإقامة القوانين بالعدل في العلاقات الأسرية والبشرية، ومبدأ التقوى ينمي المراقبة الإنسانية، والضمير البشري، ويقيم الأخلاق الحقيقية، ويحمي من التلاعب بالقوانين؛ فقد كرر الله ذكرها مرتين في آية المقدمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، والتقوى تعني اتقاء المخافات المستقبلية القريبة والبعيدة الناتجة عن حساب الله لعباده.

الأساس الرابع: تكريم المرأة، وبناء الحياة البشرية على هذا التكريم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ (النساء:١)، حيث خُلِقت إما من نفس الرجل وإما من جنسه، فمن ذا الذي يمكن أن يحتقرها كما فعلت الجاهليات المختلفة، وهنا تُبْصِرُ القصةَ الحقيقيةَ لبدء الخلق الإنساني، وتُقَدِّمُ للبشرية النور الصادق لبداية وجودها، وتساعد القوى الظلامية على التوقف عن الفهم الخاطئ للتاريخ، والاتباع الأعمى لخطوات الشيطان، فقد بدأ مفهوم الأسرة المكونة من الزوج والزوجة مع بداية البشرية، فتدمغ الآيةُ الباطلَ الذي عبرت عنه القصص المزيِّفة للتاريخ.

الأساس الخامس: منح الله للبشرية الحق في (بث الجنس الإنساني في الأرض زمانيًا ومكانيًا)؛ وكلمة (بثَّ) معناها: أظهر وفرَّق ونشر، وهي بذلك تدل على رباعية حقوقية متكاملة هي: (الإظهار) بأن خلقهم من العدم، و(الاستقرار)، و(الإعمار)، و(التكاثر والانتشار)، فالله -تعالى مجدُه- أعطى الإنسانية حق الحياة فخلقها من

أصلٍ واحدٍ، وأقام مبدأ الوحدة الإنسانية وفق العدل الرائد لا وفق المبادئ العنصرية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، فاقتضى ذلك وجود حقوق وواجبات متبادلة بين كل بني الإنسانية، ويجب تنمية العاطفة المتراحمة المتساوية بينهم، وأن يؤسس مبدأ التفاعل الإنساني على العدل، والأخوة الإنسانية تعني أنه يَحْرُمُ ويُجَرَّمُ التمييز العنصري أما التفاوت النسبي فهو للتعارف، ويقرر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى الحقوقي الإنساني العظيم بعد أن أبصر الأخوة الإنسانية في هذه الآية، فيقول في بيان مشرقٍ: «جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ وجوبَ حق الأخ على أخيه».

الأساس السادس: صلة الأرحام القريبة والبعيدة علامة على صدق تدين الإنسان، وبناء النظام البشري السوي ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١).

الأساس السابع: تنمية درجة الإحسان في النفوس البشرية لتراقب ربها في أداء الحقوق الإنسانية لأهلها، فيجتمع القضاء والديانة في الالتزام بالمبادئ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

الأساس الثامن: يرتبط البث التكريمي للحياة الإنسانية بالإيمان بالله الواحد، فهو الذي خلقها وبثها، وإنكار وجود الله إعلان حرب على الإنسانية ذاتها.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المقدمة والمحور الأول).

تحدثت المقدمة عن أسس بث الحياة الإنسانية، ولكن كيف تبدأ الحياة الإنسانية؟

إنها تبدأ بالطفل الذي تنجبه المرأة، فهل للحياة الإنسانية أن تستمر أو تنتشر إذا أُهمل الطفل؟ وهل لها أن تُعَمَّر وتزدهر إذا أهينت المرأة وهي تمثل المركز الحقيقي لحضانة البشر وبثهم في الأرض؟ وهنا يأتي **المحور الأول** ليصحح الأوضاع الجاهلية القديمة والمعاصرة حول حقوق الطفل والمرأة، ففصل لنا هذا المحور الكلام عن:

التنظيم الإلهي لأموال الأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-١٤) «بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث».

البشرية تتكون من أربع أسرٍ أساسية:

الأسرة الأولى: الأسرة المركزية، وتتكون من الزوجين والأطفال، وهي أساس بث الحياة الإنسانية.

الأسرة الثانية: الأسرة المتوسطة، وتتكون من ذوي القربى والأرحام، وأولهم الوالدان العظيمان اللذان جعلهما الله أصلًا لوجود الأولاد ذكورًا وإناثًا.

الأسرة الثالثة: الأسرة الإنسانية العامة.

الأسرة الرابعة: الأسرة المؤمنة، وهي أسرة خاصة من الأسرة الإنسانية العامة تتكون من جميع المؤمنين والمؤمنات الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠)، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، وقال عنهم في هذه السورة: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ (النساء: ٣٣)، ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ (النساء: ٢٥)، وهذه الأسرة

هي معيار الصلاح والسعادة للأسر الثلاث، فعندما تطبق بصائر المعرفة القرآنية تُلهِمُ الأسر الثلاث الأخرى النور المبين الذي يُخرِجُ هذه البشرية البائسة من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والسلم، ويهديها سبل السلام في التفاعل مع الحياة.

وحتى يتم بث الحياة الإنسانية ينبغي أن توجد الأسر الثلاث الأولى، وتقوم الأسرة الرابعة -إن وجدت في صورتها النموذجية- بمساعدة الأسر الثلاث على البث الحقيقي العادل للبشرية في جوٍّ من السلام والعدل، وقبل البدء بالكلام عن الأسرة المركزية وتكونها لا بد من الكلام عَمَّن سيكون الأسرة المركزية، فكان هذا المحور معقودًا لحماية الطفل ذكرًا كان أو أنثى، وحماية المرأة وهي الطفلة التي تكبر لتكون امرأة راشدة لكنها ربما تواجه بقوانين جاهلية فرضها الرجال تضطهدها، وكذلك ينبغي إظهار حقوق السفهاء ليكون علامة على البناء في الحياة الإنسانية لا على الهدم بسوء تفكيرهم، وهنا تنهمر عليك فيه القطرات الندية من تشريعات الحقوق المالية للفئات المستضعفة في المجتمعات: (الأطفال وخاصة اليتامى، والنساء، والسفهاء الذين لا يملكون الرشد للتصرف في الحياة)، كما تجد فيه إدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث، وترى هذا المحور في الآيات (٢-١٤):

يُبْرِزُ لك القسم الأول من هذا المحور حقوق الطفل على المجتمع حوله، وذلك لأن الطفل يمثل أضعف المراحل الإنسانية، فمنحه الله حقوقه في الرعاية وتكوين الثروة المالية التي يكتسبها عن طريق الإرث، ويتداخل القسم الثاني مع القسم الأول لشدة العلاقة حيث يبين الله جل ذكره فيه حقَّ المرأة في الزواج، ويثبت ذمتها المالية المستقلة لتقوم بمهمتها في رعاية الطفولة والجنس الإنساني، وهنا يأتي القسم الثالث حيث يفصل الله حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال في المجتمع حتى لا

يؤذوا أنفسهم أو مجتمعهم ويكونوا عامل تخريب فيه.

أما وقد جعل الله الإرث هو السبب الأول لتكوين الثروة، فقد استدعى ذلك أن يفصل الله منظومة الإرث لتحقق أهدافها في رعاية الإنسانية، وهنا يأتي:

القسم الرابع: الذي يظهر القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه، بينما يتولى:

القسم الخامس: إبراز الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وأثرها العظيم في بث الحياة الإنسانية.

وهنا تظهر الفلسفة القرآنية المدهشة في جعل الإرث وسيلة لبث الحياة الإنسانية.. عُدْ من جديدٍ لفلسفة المحور الأول حيث تشرق السورة على العقول الإنسانية بآلائها.

كيف يتحقق البث للحياة البشرية دون أن تكون الأجيال الجديدة من الأطفال على قيد الحياة؟ وكيف يتحقق البث للحياة البشرية إن لم يحيَ الأطفال الحياة الكريمة اللائقة؟ وكيف لهم أن يحيوا حياة كريمة دون وجود مالٍ يعينهم على الرعاية والعناية والتأهل لاستقبال الحياة؟ وكيف يجدون مالًا وهم ليسوا تجارًا، ولا يستطيعون مواجهة الحياة؟ وكيف يمكن أن يوجدوا دون أن يسبق ذلك وجود النساء اللاتي يملكن حق الزواج وفق ذمة مستقلة نفسيًا وماليًا؟

من أجل ذلك كتب الله على الإنسانية في **المحور الأول حقوق الأطفال والنساء، وإدماجهم في منظومة الإرث وفق نظام عادلٍ مدهش**، فالإرث أول وأعظم سبب لتكوين الثروة دون تعب.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الأول والمحور الثاني):

أسست البصائر القرآنية العالية في هذا المحور حقوق الطفل، والمرأة في الأمور المالية وخاصة ما يتعلق منها بالزواج لتكون لهم الذمة المستقلة، ولا بد من أن يكون ذلك ضمن إظهار المنظومة المالية لكل فئات المجتمع.. بذا ترى في المحور الأول حقوق الطفل مكفولة، وتجد للمرأة ذمة مالية مستقلة مكرمة، وهما أساس الأسرة، فالطفل هو أساس تَكَوُّن الأسرة، والمرأة هي الزوجة التي جعلها الله ركن ظهور الحياة البشرية، وتربيتهم وتكاثرهم، وبَثِّهم الزماني والمكاني، ولا بد من ردِّ الاعتبار لهما وإنقاذهما من الاستغلال المضطهد الذي سلطته عليهما الأنظمة الجاهلية القديمة والمعاصرة.

أما والأمر كذلك فقد آن الأوان لمعرفة كيف يمكن أن تتكون الأسرة المركزية المكونة من الزوج والزوجة وفروعهما من الأطفال،ويمكن إدخال أصولهما من الآباء والأمهات إلا أن الأقرب جعل الآباء والأمهات ضمن الأسرة المتوسطة فهي تتألف من ذوي القربى.. وهنا ترى الانتقال طبيعيًا منطقيًا من المحور الأول إلى الكلام عن كيفية بناء الأسرة التي تشكل النواة الأساسية للبث الإنساني، واستقراره وتماسكه، وهنا يأتي **المحور الثاني**، ليحدثك عن:

التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار الحياة (النساء: ١٥-٢٥).

وقد بدأ المحور **بالقسم الأول** الذي أبرز أهمَّ القوانين التي تحمي نظام الزواج من الخيانة، وتعيد تأهيل الخونة المتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة المجتمعية، وذلك لأن هذه القوانين تمثل الوقاية الأساسية من تدمير الأسرة عبر تجاوز نظام الزواج الشرعي، وإعادة التأهيل يشمل التأديب والفرصة للتوبة وإعادة بناء الحياة.

لماذا بدأ المحور الثاني بالكلام عن الخيانة للنظام الأسري؟

هذا من عظمة الترتيب القرآني وإعجازه، فإن الله جل ذكره أراد أن يحمي مفهوم الأسرة قبل نشوئها.. كيف يمكن أن تتكون أسرة حقيقية والزوج فيها يخونها، فيتخذ له خليلات، والمرأة تخون فتتخذ لها أخدانًا؟ فالأسرة أساس بث الحياة الإنسانية، فلو تعرضت الأسرة المركزية للخيانة من أحد طرفيها أو من كليهما لدمرت الحياة البشرية.. لا نحتاج إلى إثبات ذلك، فالواقع المعاصر للحضارة المادية المتفوقة يعطيك البرهان المادي المنظور.. إنها حضارة الشيخوخة حيث مستوى وجود الأسر المركزية يزداد ضعفًا، فكثير من الرجال فيها يكتفون بالخليلات (girl friend)، وكثير من النساء يكتفين بالأخدان (boy friend) وربما مال بعضهم إلى مماثله.. فما النتيجة؟ أن تستغيث بعض هذه الدول، وتبحث عن المهاجرين لإبقاء اقتصادها قويًا، ولحمايتها من الفناء التدريجي.. من أجل ذلك بدأ هذا المحور بهاتين الآيتين: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥، ١٦).

ثم جاء **القسم الثاني** ليظهر حقوق الزوجة في المعاشرة، وليثبت حقوقها المالية التي تكونت بسبب المعاشرة، وليحذر الزوج من التعسف في التعامل معها، والكلام هنا يختلف عن التفصيل الذي سبق لك أن وجدته في القسم الثاني من المحور الأول حيث كان هناك عن حق المرأة في الزواج وذمتها المالية المستقلة، بينما الكلام هنا كان عن حقوقها بعد الزواج.

ثم كان **القسم الثالث** الذي كان عن حق أصيل من حقوق البناء الأسري وهو معرفة المحرمات من النساء في الزواج، ويحق لك أن تلاحظ أن المحور أبرز أولًا

القوانين الحامية لتداعي الأسرة بسبب الخيانة الزوجية، ثم ذكر في القسم الثاني حقوق المرأة في المعاشرة وحقوقها المالية بسبب المعاشرة، ثم بين في القسم الثالث: من يحرم الزواج منهن لتنظيم الإنسانية وفق العلم الإلهي بالطبيعة الجسدية الفسيولوجية والنفسية والعقلية حتى تتكون أنواع الأسر الثلاث.

وأبرز **القسم الرابع**: حقًا جديدًا من حقوق البناء الأسري، وهو معرفة من يجوز الزواج بهن (النساء:٢٤-٢٥)، بعد أن تم معرفة من يحرم الزواج بهن، وهكذا نشأت الأسرة المركزية في هذا المحور.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثاني والمحور الثالث):

بعد أن تكونت الأسرة في المحور الثاني يأتي المحور الثالث ليبين كيفية الرعاية للأسرة المركزية ماليًا ونفسيًا، وكيف يمكن حمايتها من المشاكل المغايرة لخيانة نظام الزواج أي من المشاكل التي تحميها من النشوز والشقاق، وكيف ينشأ من خلالها الأسرة المتوسطة (الموالي-ذوو القربى)، وكيف نتعامل مع الأسرة الإنسانية الكبيرة، وهكذا تسير بنا بصائر المعرفة القرآنية في هذه السورة متدرجة لتبين (بث الحياة الإنسانية) بالقسط، واستحق هذا المحور أن يكون عنوانه:

المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣).

وفيه: تنظيم الأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين الموارد المالية والنفسية للتماسك الأسري.

هنا تتعرف إلى الحصون التي تحفظ الاستقرار الأسري، وتقيم العلاقة المتوزانة بين الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وهذه الحصون تبين

المصداق الحقيقي لقوله جل ذكره في المحور الثاني: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤) فوصف الرجال بأنهم محصنين من خلال تأسيس الأسرة القائمة على الزواج الشرعي، ووصف النساء كذلك بالإحصان فقال: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥)، ووصف الفتيات المؤمنات بذلك يجعل سائر المؤمنات أولى بوصف الإحصان.. فما الحصون التي تحرس الأسرة المركزية، ، فيُحصِنُ بها الرجل نفسه وزوجه، وتُحصِنُ بها المرأة نفسها وزوجها، وبها يُحافَظُ على التماسك الأسري، ويتحقق هدف بث الحياة الإنسانية؟

يذكر الله في هذا المحور تسعة حصون:

الحصن الأول: إدراك الرحمة الإلهية في التشريعات القرآنية لحماية الحياة الإنسانية، حيث يُظهِرُ الله لك المقاصد الكلية العظمى للتشريعات الإلهية التي تنظم الواقع الأسري، والمجتمعات البشرية (النساء٢٨-٢٦).

الحصن الثاني: التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة (النساء:٢٩).

الحصن الثالث: المحافظة على الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس أو كبائر الذنوب المدمرة (النساء: ٢٩-٣١).

الحصن الرابع: الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء؛ فالحياة ليست صراعًا بينهما، ولذا يجب نبذ التمني المذموم عند الجميع، وتنمية الطموح لنيل الفضل الإلهي (النساء:٣٢).

الحصن الخامس: الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم على النصرة والولاء (النساء: ٣٣).

الحصن السادس: إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها (النساء: ٣٤-٣٥).

الحصن السابع: القيام بحقوق الأسرة الإنسانية المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة (النساء:٣٦).

الحصن الثامن: الحذر من الصفتين اللتين تدمران التماسك الأسري، وتقضيان على بث الحياة الإنسانية، وتَحْطِمان النظام الاجتماعي، وهما الفخر والخيلاء، ومعالجة نفسيات أصحابها (النساء:٣٧-٤٢).

الحصن التاسع: الاستمتاع الحقيقي بالصلاة؛ لأنها تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، وذلك بتعظيم الصلاة وأماكنها، فالصلاة المعظمة من أقوى أسس بث الحياة الإنسانية (النساء:٤٣).

وهنا ترى التنظيم الإلهي للأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين أسس الموارد المالية والنفسية والعملية للحفاظ على التماسك الأسري.

لمعةٌ في جلال الإحكام في النظم القرآني في هذا المحور:

ويُخْتَمُ هذا المحور بالحصن التاسع الذي يذكر الله فيه حق البشرية في معالجة نفسها بالاستمتاع بالصلاة؛ فيقول تعالى جده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣).. وهنا قد ينبعث المشككون في النظم القرآني، فيقولون: ذكر (منع قربان الصلاة حالة السكر) دليلٌ واضحٌ على عدم تناسق آيات القرآن، وبيانٌ ظاهرٌ على تفكك نظمه، فما علاقة هذا الموضوع بما قبله وما بعده؟ ما علاقة هذه الآية بسورة النساء؟ لماذا لم تذكر في سورة المائدة مثلا؟ ما علاقة ذلك برعاية الأسرة؟

فاستمتع هنا بتأمل إحكام النظم القرآني -أيدك الله- فذكر منع قربان الصلاة حالة السكر ليس إلا دليلًا واضحًا على إحكام النظم القرآني، وسبيلًا مبينًا على غزارة المعاني التي تنثال من ألفاظه.. فإن تساءلت عن الاتصال بين هذه الآية وموضوع السورة (بث الحياة الإنسانية)، فالأمر واضحٌ؛ إذ إن الصلاة تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، فالصلاة أعظم مقام يمكن أن يقوم فيه الإنسان بتصفية عقله، وتحتاج الأسرة لوجود حسٍّ المسؤولية فيها، ولا بد أن يقوم ذلك على صفاء عقلٍ لا انفعال عاطفة متشنجة في لحظةٍ من اللحظات سواء كانت من جهة المرأة أم من جهة الرجل، والمحافظة على الصلاة واللجوء إليها من أعظم المعينات على رعاية الأسرة المركزية، والمحافظة على العلاقات الإنسانية بالنسبة للأسرة الإنسانية العامة.

وكما رأيت ذكر الصلاة بصورةٍ أخرى أثناء الكلام عن قضايا متعلقة بالأسرة في سورة النساء فإنك قد رأيت ما يشبه ذلك أثناء الكلام عن طبيعة العلاقات البشرية بعد الطلاق في سورة البقرة عند قوله جل ذكره: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، ففي سورة البقرة وابتداء من قوله تعالى جده: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) تفصيل تشريعي مدهشٌ للِّقاء بين الزوجين، والفراق بينهما بأنواعه المختلفة، وقبل أن يختم تلك الأحكام الثرية التي استغرقت أكثر من أربع صفحات من القرآن المجيد تأتي هذه الآية المفاجئة ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، مع أن هناك بقية في أحكام الفراق الزوجي؛ إذ يقول الله بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ (البقرة: ٢٤٠).. ألا يحق لك أن تبحث عن الأسباب الكامنة وراء إدخال موضوع الصلاة في هذا الموضع؟

من أسباب ذلك أن تلفت التربيةُ القرآنيةُ نظرَنا إلى أن إدارة الشؤون الأسرية لقاء وفراقًا يحتاج إلى صفاء عقل، كما أن الله ذكر البخلاء والمرائين قبل أن يمنع من قربان الصلاة حالة السكر هنا ليحذرهم أن تُسْكِرهم شهواتهم عن الواجب الإنساني الذي فرضه عليهم الله جلَّ شأنه، فالسكر بالمال، والسكر بشهوة الذكر والترؤس، والمراءاة لجذب إعجاب الجماهير، والمراءاة بالأعمال البطولية.. كل ذلك يدل على إغلاق العقل كما يغلق الخمر العقل، وكما يغلقه النوم، فحرَّم الله -تعالى جده- أن يقرب أحدٌ الصلاة وهو سكران أي مغلق العقل، وكذلك لا تستطيع أن تدير أمورك الحيوية في الأسرة والوزارات والإدارات وأنت مغلق العقل، فهذا تفكيرٌ حول علاقة هذه الآية المباركة في تكوين الأسر.

هكذا ترى أن الأقسام السابقة تظهر -بادئ الرأي- أنها مواضيع متفرقة متباينة لكنك تجدها عند التدبر مجموعة في لحمة واحدة تضمها صورة متكاملة، وترى فيها عَظَمة القرآن وقوة إعجازه.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثالث والمحور الرابع):

وصفت لنا المحاور السابقة تكون الأسرة المركزية الأساسية، والمتوسطة، والعامة، ووجدتَ فيها تنظيمًا للحياة الإنسانية لتكون قابلةً (للبثِّ) الذي يعني الاستقرار والانتشار والإعمار، ولكن كيف يمكن تنظيم العلاقاتِ بين الأسر الأربع على وجه الدقة؟ كيف يمكن أداء حقوق الأفراد إلى أصحابها على وجه القسط؟

هنا يأتي **المحور الرابع** ليحدثك عن: **التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء: ٤٤-٧٠).**

وهذا المحور تمت صياغته بصورة مبتكرة، تكون من خمسة أقسام، فثلاثة أقسام

منها كأنها أطراف مجنحة تمثل عدوَّين مضادين للوسط.

فالقسم الأول يمتد في الآيات (النساء:٤٤-٤٦) حيث عرفنا الله فيه بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحرص على تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء:٤٤-٤٦).

وأما **القسم الثاني** فذكر رَبُّنا فيه أعظم جنايات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر البشرية، وامتد في الآيات (النساء:٤٧-٥٧).

كان هذان القسمان يمثلان الجناح الأول المضاد لمركز المحور الذي يجليه القسم الثالث:

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها، ويمتد هذا القسم في الآيات (النساء:٥٨-٥٩)، وهذا القسم يعرض لنا عرضًا مثيرًا الأسس الدستورية والتنفيذية لقيام الإدارة الراشدة بأداء الحقوق إلى أهلها.

وإذا كان الجناح الأول المضاد للإدارة الراشدة يمثل العدو الأجنبي المتربص مع إمكانية أن يتبعهم بعض من ينتسب إلى القوى الصالحة جهلًا أو نفاقًا فإن الجناح الثاني المضاد يمثل العدو المحلي الذي يصد عن الإدارة الراشدة صدودًا، وهو الذي يُظهره لنا القسم الرابع حيث يعرفنا بقوى النفاق التي تمثل الصنف الثاني الذي يمنع قيام الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقَها، وتتنعم بما هو خيرٌ وأحسن تأويلًا، وامتد هذا الصنف في الآيات (٦٠-٦٥).

وأمام الكيد الشديد الذي يجمعه الصنفان للقيادة الراشدة، وأما لغوهم في الرسالات الإلهية، وصدهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء بالرسالة الخاتمة يُختَم هذا المحور بما يُرَغبُ البشرية ترغيبًا تحفيزيًا مُشَوِّقًا لتطبيق التنظيم

الإلهي للحياة الإنسانية، ويبرز لنا ببهجة من القول الصادق في القسم الخامس ما يُوَضِّح الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت، وامتد هذا القسم في الآيات (٦٦-٧٠).

وقد تتساءل لماذا هذا الاختصار المكثف فيما يتعلق بالإدارة الراشدة على عكس قسط كل إنسان في تكوين الثروة من الإرث؟

لأن المراد وضع الأسس الدستورية العامة للإدارة الراشدة حيث ترجع التقنيات التفصيلية بعد إلى الاجتهاد البشري الذي يأخذ بعين الاعتبار التطبيق النبوي، والتطبيق الراشدي في عهد الخلفاء الخمسة للنبي ﷺ (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن).

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الرابع والمحور الخامس):

ها أنت ذا ترى البناء الزاهي العظيم تشيده سورة النساء.. تراه يكتمل رويدًا رويدًا في صورة بهية، وقد رأيت في هذا البناء كيف تم توفير حقوق الأطفال والنساء وأفراد المجتمع لينال كلٌّ منهم حقه مكرمًا من الرعاية والعناية وتكوين الثروة، وذلك كان في المحور الأول، وبناء على ذلك قامت الأسرة المركزية في المحور الثاني، كما ظهر لنا ضمن هذا البناء المشيد في المحور الثالث: الموارد المالية المكتسبة للأسرة المركزية وأسس استقرارها النفسي، وصاحب ذلك رؤيتنا للقوانين التي تبني العلاقة المتينة بين الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وظهر في المحور الرابع الإدارة الراشدة التي تدير أفراد الأسر الأربع، وتعطي كل ذي حقٍّ حقه لتحقيق هدف البث الإنساني (الحياة والاستقرار والانتشار والإعمار)، وهنا يبدو لنا تساؤل كبير عن أهم استراتيجية يجب أن تتبعها الإدارة الراشدة لإقامة البث الإنساني وفق مبدأ القسط.. كيف يمكن لها فعل ذلك مع التحديات الضخمة التي تواجهها

على المستوى المحلي والعالمي؟

هنا يأتي **المحور الخامس** ليفصل لك الحديث عن أن: **التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء٧١-١٠٤):**

وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر، والبحث عن أرض العدل والكرامة.

ربما تعجلت واستغربت هذه الكلمة (المدني) وتساءلت عن معناها في هذا السياق؟ أقول لك: لا تعجل، فإنما عنيت بـ(المدني) النسبة إلى مدينة النبي ﷺ؛ فهي ما سُميت كذلك إلا بعد مقدمه المبارك الشريف ﷺ، ويصور أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ذلك فيقول: «لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء»[1].. لقد أحدث النبي ﷺ تغييرًا عظيمًا في العالم، وكانت عاصمة التغيير العادل (المدينة) قد تغيرت ضياء ونورًا بمقدمه ﷺ، ومما أضاء منها اسمها، فقد تغير من (يثرب) إلى المدينة، وكأنها البلد الذي يستحق أن يسمى مدينة دون غيره.

يبدأ هذا المحور من الآية ٧١ قوله -تعالى مجدُه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ (النساء: ٧١)، فهذا المحور محورٌ طويل أخذ حيزًا كبيرًا من السورة فامتد من الآية (٧١) إلى الآية (١٠٤)، ويفصل الله لنا فيه بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن الداخلي المجتمعي والسلم العالمي، وبذلك يتم الاستقرار الأمني، ويحدث الإعمار، وينبثق الانتشار، فيتحقق بث الجنس الإنساني، فهذا محورٌ مدهشٌ يُبرهِن على الدقة التشريعية التنظيمية التي تفتح بصائر القرآن المجيد عليها

(١) أحمد (٣/ ٢٦٨) برقم ١٣٨٥٧، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان - وهو الضبعي - فمن رجال مسلم.

أبصارنا، وينمي بصائرنا، **ولذا انقسم هذا المحور إلى الأقسام الآتية:**

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية، وامتد هذا القسم في الآيات (٧١-٧٣).

ولا تنفع استراتيجية أخذ الحذر إلا أن يردفها الإعداد العسكري والأمني المناسبان، ولذا كان **القسم الثاني**: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين (النساء:٧٤-٧٦).

ولكن الإعداد العسكري العالي لا يعني الاستخدام المتهور للقوة، ولا البطش بها، بل الاستخدام الحكيم العادل، وإلا فالأصل كف اليد، ولذا كان **القسم الثالث**: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء:٧٧-٧٩).

ولكنك تطرح سؤالًا ضروريًا: إن كان الأصل كف اليد والسلام، فما القوانين الحاكمة التي تردع المتآمرين الداخليين والمعتدين الخارجيين؟

إن تقلب الأحوال الدنيوية يجعلك محتارًا في تقديم نص على نص، وهنا يجعل الله جل ذكره التصرفات النبوية جزءًا من السياسة الأمنية لنهتدي بها في التعامل الحيوي، كما يحث على الاستنباط الحقيقي من النصوص الشرعية للبحث عن حلول لكل القضايا المستجدة، ومن أهم تلك القضايا كيفية التعامل مع الشائعات في مجالي الخوف أو الأمن، ولذا كان **القسم الرابع**: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر

القرآني وفق الفهم النبوي (النساء:٨٠-٨٧)

ودعني أنقل إليك هنا الخاتمة التي ذكرتها في آخر ذلك القسم:

الإحكام البديع لآيات القرآن المجيد في هذا الموضع:

أليست قصة رائعة أن تدرك هذا الاتصال المحكم لموضوعي الشفاعة والتحية بالجو العام المحيط بهما في السورة؟

تعال لتدرك بإعجاب الصلة الوثيقة لذكر الشفاعة والتحية في سياق الكلام عن مبدأ السلام الأمن الداخلي والسلام العالمي، فتأمل المسألة معي:

لقد ذكر الله قبل هاتين القضيتين كلامًا عن أخذ الحذر وإنقاذ المستضعفين وكف اليد، وضرورة القتال عندما يُكتَبُ أي عندما يجب القيام به، ثم أنبأك عن أهمية طاعة القيادة النبوية، وحال المتلاعبين الذين يظهرون الطاعة للقيادة النبوية وهم يتآمرون ضد أقوال النبي ﷺ، وأخبرك كيف تتعامل مع الشائعات في مجالي الأمن والخوف، ثم أعقب ذلك كله بأن حرض النبي ﷺ على القتال عندما يجب ولو كان منفردًا.. هنا جاءت مسألة الشفاعة، وجاءت قضية التحية.

دعنا ننظر ما بعد ذلك: لقد جاء الكلام عن كيفية التعامل مع العالم بناء على كف الأيدي وإلقاء السلم وهجرة المسلمين من ديار المحاربين الوثنيين في مكة، ثم يذكر الله بعد ذلك حرمة الدماء، وحرمة قتل الآخرين ما داموا ألقوا السلام أو السلم أو الإسلام.

ومن خلال هذا السياق يتضح أن الشفاعة جاءت في موضعها البديع لتتكلم أولًا عمَّن يجعل النبي ﷺ قد شُفِّعَ بتكثير أنصاره بدلًا من أن يكون فردًا فقط، وهكذا من قام بالحق بعده، فهذا المقصد الأساسي لإيراد الشفاعة في ذلك الموضع، وبعد ذلك يمكن التوسع في إيراد قضايا الشفاعة الأخرى.

وكذلك ما يتعلق بالتحية فإنها وردت في سياق عسكري أمني، وفي أثناء الكلام عن وجود حالتي الأمن أو الخوف، وضمن محور عام يرتبط بتوازن الردع وإحلال السلام، فذكرها إنما هو لكيفية التعامل مع مَنْ يحيي المسلمين من الآخرين، فهذا المقصد الأصلي من إيرادها بدلالة السياق، ثم يدخل بعد ذلك قضايا التحية التي يذكرها علماؤنا في كتبهم لكن دون إغفال للسياق الأصلي الذي وردت فيه التحية في هذه السورة.

وعند الشعور بالوصول إلى هذا المعنى يجد المرء المدى الضخم لظهور الكتاب المجيد مفصلًا حسب الإحكام الحق، ولا يملك إلا أن يردد ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ولكن القسم السابق لا يقدم لك إجابات مفصلة حول أقسام العالم بالنسبة لكف اليد أو للمواجهة والالتحام بل رأيت فيه التحريض المدهش على استخدام الحل العسكري والأمني حتى قال الله فيه: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤)، وهنا يأتي القسم الخامس ليوضح لك أقسام العالم حولك بالنسبة لكف اليد وإلقاء السلام أو العكس.

القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:تقسيم العالم حسب إلقاء السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء:٨٨-٩١).

وحتى يتم التوازن في التفكير، ولئلا يعتقد من يقرأ الآيات السابقة أن الباب مفتوح لاستباحة الدماء عند أدنى شبهة يأتي القسم السادس ليعيد التوازن في الفكر، حيث يملتئ بالقوانين التي تعظم الدماء المصونة سواء أكانت دماء المسلمين أم المسالمين:

القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:

حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية أو العسكرية (النساء:٩٢-٩٤) .

ويعود التوازن مجددًا، فربما شعر القائمون على الأمن بالقلق الشديد نظرًا لما سمعوه من عواقب التعدي على الدماء الإنسانية، وقد يفضي بهم هذا إلى ترك أهم وظائف الحفاظ على الأمن الداخلي والسلام العالمي، وهي الجهاد في سبيل الله، وهنا يأتي القسم السابع ليعيد هذا التوازن:

القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:

تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء:٩٥-٩٦).

ولتحقيق السلام العالمي الحقيقي لا بد من أن يغادر المظلومون والمضطهدون أرض الظلم المجرم حتى تتمكن قوى العدل من أن تقوم بعملها في تحقيق العدل، وردع الظالمين، ولذا فصَّل الله أوضاع الذين لم يهجروا أرض الظلم ويهاجروا إلى أرض العدل في القسم الثامن.

القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي.

تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء:٩٧-١٠٠).

هذا المحور الرحيب جمع بين السياسات الأمنية والعسكرية وبين سياسة صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وكل ذلك لتحقيق البث الإنساني (الحياة والاستقرار والانتشار والإعمار)، وقد ختمه الله بما يوقظ الغافلين الذين يظنون أن هناك تناقضًا أو عدم اجتماعٍ بين الصلاة وبين القيام بأعباء الحياة، فكان:

القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:

الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء:١٠١-١٠٤).

وهنا تجد التأكيد على أهمية الصلاة لتشكل أحد أعمدة الحل في سياسية إحلال السلام، وإقامة الاستراتيجية الأمنية والعسكرية كما وجدت أن الله جل ذكره أشعرك بأهمية الصلاة في القضايا الاجتماعية في الأسر الأربع (المركزية والمتوسطة والعامة والإيمانية).

فما أجلَّ القرآن.. ما أعظم بصائره التي تنير للإنسانية الدروب.. كم تشعر النفس بالارتفاع في ذرى الضياء عندما تجد في آياته تلك الآلاء.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الخامس والمحور السادس).

دعنا نستعِدْ معًا الكوكب الدري الذي أضاء في المحاور السابقة؟

لقد أمدتك المحاور السابقة بالتنظيم الإلهي المدهش للبث الإنساني في الأرض، فأسست تلك المحاور: الأسرة المركزية، والأسرة المتوسطة، والأسرة الإنسانية العامة.. وهكذا يتحقق (بث الحياة الإنسانية)، وقد رأيت القوانين التي تعطي كل ذلك حقٍّ حقَّه في صورة مبهرة من التنظيم الدقيق.

كان ذلك في المحاور الثلاثة الأولى، ثم انتقلتْ بك بصائر سورة النساء في المحور الرابع نقلة نوعية لتأسيس الإدارة الراشدة التي تؤدي حقوق الإنسانية لأصحابها بأداء الأمانات إلى أهلها، وتحكم بالعدل، ثم جاء المحور الخامس ليرفد (بثَّ الحياة الإنسانية) بما يلزمها من إقامة المجتمع على مبدأ الأمن الداخلي، والسلام العالمي، وذلك يقتضي النهوض باستراتيجية (أخذ الحذر) وما ينبثق عنها

لتحقيق هدف حراسة الدماء الإنسانية، ونصرة المستضعفين، وأداء الأمانات إلى أهلها أي توزيع الحقوق الإنسانية إلى أصحابها.

هنا يأتي السؤال: فإن نشب النزاع بين أطراف من الأسر الأربع ولم يستطع المجتمع المحيط السيطرة عليه فما الحل؟ وإن نشب النزاع بين أطراف الإدارة الراشدة (السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة الرقابية، والخبراء) فما نصنع؟ وإن استعر النزاع بين الإدارة الراشدة وبقية أفراد الإنسانية، فما السبيل لضمان بث الحياة الإنسانية؟ وكذلك لو نشب النزاع بين الإدارة الراشدة وبين الأمم الأخرى التي أقام المحور الخامس العلاقات معها على أساس السلم.. فما الحل إزاء ذلك كله؟

هنا يأتي **المحور السادس** ليتبوأ مقعده الصادق ضمن محاور السورة المتصلة، فينبئك عن: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦)، **فتبرز** السلطة الأرضية الأخيرة التي تحمي القسط في الحياة الإنسانية، وترد الحقوق إلى أصحابها.

وليحقق هذا المحور هدفه فقد انقسم إلى الأقسام الآتية:

بدأ المحور **بالقسم الأول** الذي يفصل أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين (النساء:١٠٥-١١٣)، ويلفت نظرك أن الخطاب فيه موجه إلى النبي ﷺ مباشرة لمعاتبته في أسلوبه القضائي، وليعلمه الله ما لم يكن يعلم من الآداب القضائية التي تضمن حق المظلومين بأحسن طريق.. فإذا كان الخطاب بهذه الصورة لخليل الحق وسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المعصوم من الجور فكيف ينبغي أن تكون عليه صورة التحري عند غيره؟.

ولكن القضاء وحده لا يستطيع أن يقوم بمهمة أداء الحقوق إلى أصحابها لاتساع النزاع مع توسع بث الحياة الإنسانية، وهنا يأتي:

القسم الثاني: بثُّ الحياة الإنسانية يقتضي إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تهتم بالمجتمعات، وتعزز وظيفة القضاء في القيام بالقسط، والتحذير من التنظيمات المضادة التي تشاق الحياة القويمة (النساء:١١٤-١١٥).

ولا يتم القيام بالقسط، ولا تكتمل خطة (البث للحياة الإنسانية) إلا بمعرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تعصم الإنسانية من الوقوع في فخاخ عدوٍّ متربصٍ لا تراه بعينيها، ولذا كان:

القسم الثالث: حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني (النساء:١١٦-١٢٢).

وقد تتفاخر المكونات الإنسانية بالعنصرية النسبية، أو بعنصرية القوة، أو المال، ويجعلونها معيار التحكم بالآخرين، وأساس إصدار الحصانة من المساءلة القضائية، وامتلاك الفيتو الدنيوي والأخروي..

وهنا يبين الله جل جلاله غير ذلك في:

القسم الرابع: العمل أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي (النساء:١٢٣-١٢٦)

وفي هذا الموقع من السورة حيث المحور القضائي تجد الأمر في غاية الإحكام والمناسبة للكلام عن حقوق المستضعفين من النساء والولدان التي سبق ذكرها في المحور الأول والخامس.. ولكن لماذا إعادة ذكرها هنا؟

يظهر أن ذلك ليكون لها اهتمام خاص من قبل السلطات القضائية، ولذا جاء القسم الخامس معقودًا للكلام عن حقوق النساء والأطفال عامة، واليتامى منهم خاصة:

القسم الخامس: من أهم أسس القسط في الواقع الإنساني: تطبيق فتاوى الانتصار الحقوقي والقضائي للنساء والأطفال (النساء:١٢٧).

لقد ذكر القسم الخامس ضرورة الاعتناء بحقوق النساء بصفة عامة وفق التقسيم الحقوقي الذي تجده متلوًا في الكتاب، إلا أنه من حقك أن تسأل عن أمر عجيب في النظم القرآني: لماذا جاء الكلام عن نشوز المرأة في الآية (٣٤)، بينما لم يذكر نشوز الرجل هناك؟

هنا ترى القسم السادس يفصل ما يتعلق بنشوز الرجل، ولكن لماذا تأخر من المحور الثالث ليكون في **المحور السادس**..

الله أكبر كم في الفتح التدبري للقرآن المجيد من عجبٍ!

أما ابتداء فقد ذكر الله حقوق المرأة، وحذر من نشوز الرجل وتعسفه مع المرأة أو اضطهاده لها وشدد عليه في ذلك، فما سبق هذا الموضع فهو في حقوق المرأة ونصرتها من أي اضطهاد محتمل يمكن أن يقوم به الرجل ضدها كما في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ (النساء: ٤)، وفي قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)

ثم أخر تفصيلًا حقوقيًّا يتعلق بنشوز الرجل على زوجته إلى موضعه المناسب، حيث لا يقدر على هذا التفصيل الموزون إلا الحكيم الخبير! ولعلك ما زلت متلهفًا: لماذا تأخر؟

لقد تأخر لأن الرجل يملك القدرة الاجتماعية والإنسانية في الغالب ليتعامل مع نشوز المرأة، أما المرأة فإنها قد لا تستطيع ذلك بحكم الواقع، فلا بد من جهة تعينها

على الانتصار عليه، ولذا كان الأنسب أن يكون الكلام عن نشوز الرجل في المحور القضائي لئلا يغترَّ الرجل بقوته الاجتماعية أو الإنسانية في الطغيان على حقوق المرأة، وليكون من مهمات القضاء إنشاء أقسام مستعجلة تفصل في حقوق المرأة التي تخاف نشوز زوجها، ولذا كان:

القسم السادس: النساء بين الاستغلال الشيطاني، والانتصار القضائي: الانتصار الحقوقي للمرأة عند نشوز الزوج، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية بعد الفراق (النساء:١٢٨-١٣٠).

وإذا كانت القوانين القضائية في أهم قضايا بث الحياة الإنسانية قد استقرت من خلال الأقسام السابقة، فإن ذلك لا يعني الوصول إلى القسط في الحياة الإنسانية بسهولة، إذ يمكن للمتحايل أن يَدُعَّ صاحب الحق بتحايله أو مكره أو تجاهله أو تعسفه أو ليه للقوانين أو ادعاء عدم وجوب القسط مع غير أهله أو أهل ديانته، وهنا ترى الختم المناسب لهذا المحور بـ:

القسم السابع: أعمدة الحياة الحقوقية العالمية السعيدة التي تمنع التحايل على القضاء (النساء:١٣١-١٣٦):

العمود الأول: العمود القلبي عبر تعظيم الله، الذي يولد التقوى، ويبني الضمير الحي (النساء:١٣١-١٣٤).

العمود الثاني: العمود التطبيقي القانوني الملزم عبر القيام بالقسط بغض النظر عن الظالم والمظلوم قربًا وفقرًا وغنىً ومكانة، وهذا العمود هو المركز الذي يدور حوله القضاء(النساء:١٣٥).

العمود الثالث: العمود الإيماني العقلي المؤدي إلى قيام العدل العالمي عبر

الإيمان الكامل، وليس الإيمان المبعض ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء:١٣٦).

وبعد هذا الاتصال: ألم تنفتح المغلقات؟ لقد استبان لك أن وجود هذه الآيات المتعلقة بالتقوى وأركان الإيمان لم تكن حشوًا، ولا تجميعًا لكلام إثر كلام.. بل جاءت بعد التفصيل الحقوقي لنشوز الرجل لتكمل التسديد الحقوقي، وتضعه في موضعه المناسب؛ إذ مثلت أهم الأعمدة التي يقوم عليها أداء الحقوق إلى أصحابها حيث تحمل الإنذار الواضح لأصحاب التحايل القضائي والقانوني.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور السادس والمحور السابع):

لقد رأيت البنيان المتكامل المدهش أمامك ماثلًا.. أي بيان؟

إنه بنيان (بث الحياة الإنسانية) الذي يعني هذه الرباعية المجيدة: (الحياة، والاستقرار، والانتشار، والإعمار)، وهذا يعني خامسة ضرورية هي: إعطاء الحقوق الإنسانية لأصحابها (أداء الأمانات إلى أهلها)

ولذلك رأيت تفصيلًا لكل شيءٍ في الحياة الإنسانية.

فالمقدمة تكلمك عن أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بث الحياة الإنسانية) (النساء:١) التي تعني: الإظهار (إظهار الإنسانية من العدم)، والاستقرار، والإعمار، والتكاثر والانتشار، ثم تأتيك المحاور تترى كلما جاء محور أظهر لك التقنين الشرعي المجيد لتحقيق هدف (بث الحياة الإنسانية).

فالمحور الأول تجد فيه كلامًا وافيًا لفترة (ما قبل نشوء الأسرة) حيث تأتيك

القوانين التي تنصر حقوق الأطفال، وحقوق النساء في الزواج والمال، ثم تدمجهم ضمن مكونات المجتمع المختلفة ليحصلوا على حقوقهم في تكوين الثروة المالية من الإرث على أساسٍ من العدل.

والمحور الثاني: يحدثك عن الأسرة المركزية، وكيف تحميها من الخيانات الزوجية، وكيف تكونها حتى تأتلف مع الأسرة المتوسطة، وكيف تؤدي للزوجة حقوقها.

ويخبرك المحور الثالث عن (الأسرة المركزية وبث الحياة الإنسانية): التنظيم الإلهي للأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة).

وأما المحور الرابع فينبئك عن (الإدارة الراشدة وتنظيم الحقوق الإنسانية)، حيث تجد فيه حماية بث الحياة الإنسانية بتكوين الإدارة الراشدة التي تؤدي الحقوق إلى أصحابها.

وأما المحور الخامس: فتجد فيه التفصيل لإكمال عملية بث الحياة الإنسانية مما يقتضي الاستقرار بحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي، بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي حفظ المجتمع بتطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر من الشرور المختلفة، ونصرة المستضعفين، والبحث عن أرض العدل والكرامة .

فإن حدث النزاع بين أي جهة من الأطراف السابقة يجيئ المحور الحقوقي القضائي، وهو المحور السادس ليفصل لك ما يتعلق بالسلطة الأرضية الأخيرة التي تحمي القسط في حياة البشرية، وترد الحقوق إلى أصحابها

هكذا يتحقق (بث الحياة الإنسانية) عبر الإظهار، والاستقرار، والإعمار،

والتكاثر والانتشار بصورة عادلة مقسطة تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتعطي الحقوق لأصحابها.

فماذا بقي بعدُ؟

لقد بقي الحديث عن أصناف الإنسانية الذين يحاولون تدمير بث الحياة الإنسانية لتأخذ على أيديهم عسى أن يهجروا عدوانهم ويتركوا جناياتهم، ولتحذرهم الإنسانية على نفسها، وهنا يأتي المحور الأخير من السورة، وهو:

المحور السابع: أصناف الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣)

هذه الأصناف لا تخلو من أن تكون داخلية أو خارجية، ولذا انقسم المحور إلى ثلاثة أقسام تعبر عن أصناف ثلاثة، فأما الصنف الداخلي، فقد بدأ هذا المحور بداية منطقية بالكلام عنه باعتباره أسوأ هذه الأصناف وأردأها: إنهم المنافقون المخادعون الذين يظهرون الإيمان لزيادة النكاية في بني الإنسان، فكان:

الصنف الأول: المفسدون من (المسلمين) وهم قوى النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٥٢)، وانقسم الكلام عن هذا الصنف إلى فصلين:

الفصل الأول: أهم صفات قوى النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٤٣).

ووجود هذه الفئة السيئة بين القوى الصالحة كفيل بقلب الموازين الثقافية والفكرية رأسًا على عقب؛ إذ قد يتسببون في نزول العذاب نظرًا لتلاعبهم بالحقائق، فيوجهون الإنسانية إلى بطر النعمة وارتكاب أعمال الفسق، والجهر بالسوء ونشره،

وهنا يأتي القسم الثاني ليبين الله الرحمن الرحيم أنه لا يعذب عباده إلا أن يفعلوا ما يستوجب العذاب، فكان:

الفصل الثاني: حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة (النساء:١٤٤-١٥٢).

لقد استحق المنافقون أن يذكرهم الله في فصلين كاملين مفصلًا أحوالهم، ثم ذكر الله الصنف الثاني المتلاعب بحقوق البشرية في تقوى ربها، وإقامة حقوقها في بث جنسها، وهذا الصنف ذكره الله في القسم الثاني من المحور:

الصنف الثاني: المفسدون من (اليهود) (النساء:١٥٣-١٧٠)، ولأهمية هذه الفئة ولتأثيرها في مجريات الأحداث على مستوى الإنسانية، وخاصة على النصارى، ولأنها أول أمة بعث لها نبي ليجعلها أمة حرة متمدنة مستقلة، فقد تفرع الكلام عنها إلى خمسة فصول منطقية جاءت مرتبة على صراط مستقيم:

الفصل الأول: أسوأ الانتهاكات التي اقترفوها في حق أنفسهم والعالم، مما تلاعبوا فيه بالحقوق الإنسانية (النساء١٥٣-١٥٥).

الفصل الثاني: أسوأ انتهاكاتهم ضد العالم النصراني (النساء:١٥٦-١٥٩)، ولماذا العالم النصراني خاصة؟

أليس هذا من إعجاز القرآن المجيد؟ أليس من الإعجاز أن يخصص القرآن حيزًا معتبرًا لبيان انتهاكات اليهود ضد العالم النصراني؟ لقد علم الله -تعالى جدُّه- أن متطرفي اليهود سيحاولون اختراق العالم النصراني، وتغييره لصالح خرافاتهم وامتصاصهم لدماء البشر، فجاء هذا الفصل في موضعه... ولماذا العالم النصراني أيضًا؟

للتأثير العالمي المدهش الذي تجده للعالم المنتسب إلى النصرانية على

مستوى الأحداث الإنسانية، ولذلك استحقوا أن يُفرَد لهم حيزٌ يرون فيه تفصيلًا دقيقًا لانتهاكات اليهود ضد أهم مقدسات النصارى، ففي هذا الفصل ترى دفاعًا لافتًا للأنظار عن المسيح وأمه عليهما السلام مما لا تجده عند النصارى، ولعل التحريف والتخريف الذي يعشعش على عقائد كثيرٍ من النصارى ساعد في قدرة متطرفي (اليهود) على اختراق العالم النصراني بكل سهولة.

الفصل الثالث: انتهاكات المفسدين من اليهود في الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية ضد أنفسهم، والعالم (النساء:١٦٠-١٦١).

الفصل الرابع: الإشادة بالفئة المؤمنة من اليهود، وجعلهم أنموذجًا للناس(النساء:١٦٢).

وذلك لإقامة القسط في تصنيف العالم حيث يأتي الفصل الرابع ليخبرك عن الفئة المؤمنة من اليهود، حيث يُساق الثناء على استقامتهم على دين موسى عليه السلام ليكونوا أنموذجًا صادقًا للناس (النساء:١٦٢).

الفصل الخامس: حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب (النساء:١٦٣-١٧٠).

فقبل الانتقال إلى الصنف الثالث من أصناف المتلاعبين بحق بث الجنس الإنساني في الأرض كان لا بد من ردٍّ تفصيلي حول تشويش متطرفي اليهود ومن يلعبون بهم ممن ينتسب إلى النصرانية والإسلام، ولذا جاء القسم الرابع ليجلي لنا حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب.

الصنف الثالث: المفسدون من (النصارى) (النساء:١٧١-١٧٣).

ليكون الكلام عنهم في موضعه، فهم في أحداث العالم الجسيمة غالبًا ما يكونون

في مجالٍ ليتلاعب بهم منافقو المسلمين، ومتطرفو اليهود.

وبعد هذا النظام البديع لمحاور السورة.. إنه النظام الذي تناسقت أجزاؤه، واتصلت على أجمل وجه أعضاؤه تأتي.

الخاتمة:

حق العالم في التعرف إلى الكتاب الحق الذي يقيم بنيان الحياة البشرية ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍّ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦).

فبعد أن طافت بك السورة في أفنانها الرحيبة، ووضعت لك خطة محكمة لبث الحياة الإنسانية، تأتي الخاتمة على صورةٍ غير معتادة في كل خاتمة، حيث تجد فيها بيانًا لأعظم حقوق العالم، وهو حق التعرف إلى الكتاب الحق الذي يحل مشاكل البشرية، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍّ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦)، وذلك لتستمد منه الإنسانية نظمها وقوانينها وتشريعاتها، وانقسمت الخاتمة بصورةٍ فريدة إلى قسمين.

فأما **القسم الأول** فتجد فيه الإعلان العالمي للدستور الإلهي الخاتم الذي يجمع بين المعجزة والمنهج ويُقَدِّم الحلول الحقيقية للبشرية (النساء:١٧٤-١٧٥).

وأما **القسم الثاني** فتلمس فيه الختم ببيان مسألة الكلالة وهي مثال بارز على حماية الشريعة للانتشار البشري، والرعاية للأسرة الإنسانية، والتفصيل الحيوي التشريعي المدهش للكتاب الذي جمع بين البرهان المؤيد والنور المبين (النساء:١٧٦).

وهنا ترى أن الختم ختم تقنيني محض يبين دوران تشريعات السورة حول بث

الجنس الإنساني، وإقامة الحياة الإنسانية، وخُتِمَ هذا الختم ببيان المصدر الحق الذي ينبغي للبشرية اللجوءُ إليه لئلا تقع في (الضلالة) أي في التيه الفكري، والهلكة المادية، فقال الله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).. أَعِدْ هذا الختم لترى فيه مقدار الرحمة الإلهية بالبشرية.. أَعِدْه لترى فيه أهم الأهداف التشريعية للقرآن المجيد: بيان الطريق للإنسان الحر المختار عساه يبصر ما يُـمَكِّنُ جنسه من الحياة السعيدة المقسطة في الدنيا.. كأن الله يقول للإنسانية: أنا بينت لكم ما يحميكم من الضلالة مما لا تعلمونه لأني بكل شيء عليم.. يخبرهم عن رحمته ومحبته الخير لعباده عسى أن يطبقوا ما لم يحيطوا به علمًا؛ فإن سيدنا علي ﷺ يبين لنا شيئًا من الطبيعة النفسية للإنسان فيقول: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، وَأَحِبَّاءُ مَا أَلِفُوا»، هنا تعلم لماذا تجد المثاني اللفظية والمعنوية [1] تتجدد في السورة لتريك هذه الإرادة الإلهية الرحيمة بالإنسانية.

ابتداء من قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) ثم انتقل منها إلى حقوق الأطفال عامة واليتامى خاصة مما تجده في قوله تعالى جده: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ (النساء: ١١)، وفي السبيل نفسه تجد الله يثبت أركان الأسرة بعلمه الواسع بالإنسانية، ويبين رحمته بالإنسان الجاهل فيقول: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

ومن هذه الآيات تعال إلى الآيات التي تبين المقاصد الإلهية من هذه التشريعات

(١) المثاني: جمع مثناة، وهي ما تكرر إما لفظًا وإما معنى.

في صورة جامعة تبين رحمته العظيمة بالبشر حيث يقول ربنا جل مجده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٢٦ - ٣١).

وكما تحميهم هذه التشريعات من المجرمين الذين يتبعون الشهوات من الإنس فإنها تحميهم من العدو الخفي، ويقول الله مبينًا ذلك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣).

ولا يقف الأمر عند هذا التحبب الإلهي لعباده، والرأفة البالغة بهم حتى يؤكد لهم أنه لا يظلم عباده في أدنى شيء، لكنه يضاعف الحسنات لترجيح موازين العباد، ويهب من لدنه أجورًا دون أن يقابلها عمل إنساني، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

ولا تقف الرحمة الإلهية الحكيمة عند ذلك حتى يفتح الله لعباده باب الأمل بغفرانه لما دون الشرك من الذنوب ولو كانت كبيرة لمن يستحق ذلك، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

ويخبرهم بمدى وفاء التشريعات التي أنزلها عليهم بمتطلبات الخيرية والحُسْن، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ

خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٦٦، ٦٧).

وترى فتح باب التوبة والاستغفار من كل الذنوب مثاني مبثوثة في السورة كما في قول الله تعالى مجدُه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٦٤).

وإذا كان النبي ﷺ قد مات فإن الله التواب حي لا يموت، فيقول الله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠)، ويخبرهم -عزَّ جارُه- أنه لا يريد تعذيبهم، فيقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٧)، ولأن طبيعة الدنيا تجعلهم غير قادرين على سماعه ولا الكلام معه فإنه يرسل المرسلين ليقوموا بتبليغهم بما هو خير لهم، فيقول الله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٥)، وينبئهم أن الرسول الخاتم ﷺ جاءهم بالبرهان العقلي، والنور القلبي على أتم وجهٍ تحتاجه البشرية، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).. أليس الانبهار يبلغ مداه عندما تسمع الله يختم ذلك كله بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء: ١٧٦).

وبعد: ألم ترَ أن الله فصَّل في المحاور التي ضمت سورة النساء من كل شيء موعظة وتقنينًا للتشريعات التنظيمية للحياة البشرية، وبث فيها هدى ورحمة ليتحقق بث الحياة الإنسانية بالقسط.

عد بنا إلى نظام هذه السورة مجدَّدًا لأضرب لك مثلًا على اكتشاف البينة القرآنية المُبهرة:

لماذا بدأت السورة بحقوق الأطفال اليتامى ضمن موضوعها الأكبر (بث الحياة الإنسانية)؟ وما علاقة القسط في اليتامى ونكاح النساء في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)؟

أما البدء بالأطفال في الآية الثانية فذلك هو المنطقي في إطار الكلام عن (بث الحياة الإنسانية).. أفليس من الطبيعي أن يُذكر الطفل أولًا؟ الطفل يمثل بداية الإنسانية بعد أن خلق الله النفس الواحدة وزوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، والرجال والنساء إنما تكون بدايتهم باستقبال الحياة أطفالًا مستضعفين يحتاجون إلى الرعاية والعناية، ولأن الوصية في الأولاد عامة ستأتي فقد اهتم المحور الأول باليتامى خاصة لضياع العائل الذي يقوم عليهم، ولكن الأطفال اليتامى خاصة يحتاجون في تربيتهم إلى مساعدة كبيرة لا يقوم بها أحد كما تقوم بها النساء، والأصل أن الأطفال يعيشون مكفولين في أُسَر، وللنساء دورهن الفعال في تربية الأطفال، ولذا ذكر الله شرعية تعدد الزوجات إلى أربع ليقمن بمهامهن في بث الجنس البشري ومنها مهمة الإقساط إلى اليتامى، وليكون ذلك حقًا لهن يحتجن إليه كما يحتاج إليه الرجال، وقد جمع الله معانيَ متعددة تعود إلى هذا المفهوم في هذا النص المركز، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)، وهنا يظهر لك معنى فريد من معاني هذه الآية المبهرة، كما ترى في هذا الوجه من التفسير المنطقية الضخمة التي اكتشفناها في ارتباط الشرط بجزائه مما تعب كثيرٌ من المفسرين في محاولة إظهاره.. بيد أن جهدهم العظيم المشكور -جزاهم الله خيرًا- قدم لنا معاني ثرية أساسية أفدناها في تدبرنا للآية.. ألم أقل لك: إننا نعيد اكتشاف المعجزة القرآنية؟ وهذا لا يعني نفي المعنى المشهور المذكور عن السيدة الموفقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ إذ ذُكِرتْ في هذه الآية أربعة معانٍ في هذا الارتباط.

ومن جهة أخرى تستطيع بوضوح أن ترى موضوعًا آخر يلوح: إنه موضوع تكوين الثروة المالية للفرد الإنساني.. فهو قوام الحياة.. كيف يمكن تكوين هذه الثروة التي تعين على بث الجنس الإنساني؟ ولذا كان الكلام عنه أيضًا ضمن أوائل الآيات.

واضرب مثلًا آخر على هذا الثراء الشديد الذي تكتشفه في المنطقية الترتيبية القرآنية: فإن الله ذكر الإرث في المحور الأول، وذكر التجارة في المحور الثالث حسب تدبري واستنباطي للمحاور.

يبرز لك الإرث واضحًا بينًا ليُشكل أعظم مصادر الثروة المالية التي يجدها المرء دون عناء، فهو ملك جبري على رغم المورث والوارث، ولا بد من تنظيم تشريعاته ليحقق غرضه في خدمة بث الحياة الإنسانية بدلًا من أن يكون مصدرًا لتداول المال بين فئة محددة، أو لزيادة الظلم في الأرض، وبات من الطبيعي أن يذكر الله حقوق اليتامى والنساء والسفهاء في هذا المصدر المالي الأساسي.

وفق هذا العنوان الجامع: (بث الحياة البشرية) مضت السورة في تأسس الأسر الإنسانية الكبرى، وهي أربع أسر: الأسرة المركزية (زوجان وأبناؤهما)، والأسرة المتوسطة (وتتكون من الوالدين وذوي القربى وبقية ذوي الأرحام)، والأسرة الإنسانية العامة، والأسرة المؤمنة، كما أضاءت السورة الواقع الإنساني بمنح الحقوق للأفراد والمجموعات المختلفة في البشرية وفق أنظمة تفصيلية دقيقة لا تعرفها الأنظمة الجاهلية القديمة والمعاصرة، ولتجدن أثر هذا الموضوع المركزي مؤثرًا على ترتيب الآيات في السور، ولنأخذ ملمحًا من ذلك يفتح مَلَكة التدبر، ويوسع عقلية التفكر، فقد قدَّم الله جل مجده في الآية الثانية عشرة ما كان غير معروف من توريث أبناء الأم، حيث كانت الجاهلية الأولى تستبعدهم زهدًا في سبب الرابطة بهم وهي الأمومة، كما تستبعدهم الجاهلية الأخرى بتفاصيل مختلفة، فقدمهم، وأخر

الأقرب من الميت في عرفهم وهم الأخوة الأشقاء، أو لأب؛ لبيان ضرورة إنشاء الأسرة المتكاملة: المركزية والمتوسطة، وقد بينا هناك أنه قدمهم في الذكر لأن النظام الجاهلي كان يهملهم، فلا يمنحهم شيئًا من الإرث، فأنصفهم بتقديم ذكرهم.

وهكذا سترى المنطقية السهلة الممتنعة، وقرب المعنى القرآني مع إبائه كإباء نظم لفظه أن يستطيعه أحد من البشر، أو أن يروم مثله لفظه، وبعد: آلقرآن المجيد خير أمَّا يسطرون؟

وإن أردت أن تشعر بمدى هذا الغِنى الضخم الذي يكتنزه النظم القرآني الفريد، فالتفت إلى الصفحة الأولى من سورة النساء.. لقد حوت ستَّ آياتٍ فقط، لكنها فَصَّلت: ثمانية أسسٍ في علم (بث الحياة الإنسانية)، وقررت لليتامى ستة عشر حقًا، وجعلت للنساء في موضوع حق المرأة في الزواج ثمانية حقوق، وفصلت للسفهاء ثمانية حقوق في الرعاية والعناية.. كل ذلك في صفحة واحدة تكونت من ست آيات.. بم تشعر إزاء ذلك؟ ألا يدهشك هذا التفصيل التشريعي الحقوقي؟

ألا تشعر بأنه يصل إلى حد الإعجاز؛ إذ نزل هذا الكلام على نبيٍّ أمي في أمة بعيدة عن الحضارة والثقافة والتشريع في زمانه؟ فلماذا لا نقدم هذه الرسالة العظيمة إلى المنظمات الدولية التائهة؟ لماذا لا نساعدها في التقنين الراشد لحقوق الفئات الإنسانية المختلفة؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للأيتام؟، هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للنساء؟، لماذا لا نعقد اللقاءات بهم لنخبرهم عن الإيجابيات العظيمة والمكاسب الضخمة التي تكسبها الإنسانية لو طبقت هذه الشريعة الرائعة الربانية التي يقول الله عنها تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

«ولقد قلت في الكتاب عقب ذكر بصائر الآية الخامسة التي فَصَّلت حقوقَ

(السفهاء): «أغمض عينيك، وفكر في حال العرب واليهود في المدينة عندما نزلت هذه الآية وما قبلها وما بعدها، وقل لي: **أليست الآية تمثل أنموذجًا للإعجاز القانوني الاقتصادي الاستثماري في القرآن الكريم؟ وهل كان المستوى الفكري للعرب وحتى اليهود يطيق أن يستوعب مثل هذا التفصيل؟**».

فأقبل على تدبر السورة واصطبر عليه، ولا تعجب أن تجد الأمر بالتدبر في هذه السورة حيث يقول الله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وفي التنظيم الإلهي لبث الحياة البشرية ترى التوازن البديع بين متطلبات الجسد، وأشواق الروح، وتجد الإنقاذ للبشرية والرحمة بالإنسانية؛ إذ يرحم الله العبد حيث لا يرحم العبد نفسه، فيقول جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩)، ويحذر تعالى شأنه من نفسيات البخل والرئاء والحسد والجهر بالسوء من القول؛ إذ يحرصون على منع حقوق الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧)، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء: ٥٣، ٥٤)، وهكذا تمضي السورة في الارتقاء بالحياة الإنسانية لئلا تقع أسيرة لجانب تغلو فيه، فيكون عاقبة أمرها خسرًا، فإن الحضارة المعاصرة كالجاهلية القديمة تأسست على:

١) القوة التي تؤدي إلى الغرور والاعتداء.

٢) وتأسست على طلب المنفعة، التي يؤدي الغلو فيها إلى التنافس المذموم والأثرة المدمرة.

٣) وتأسست على جذب وجوه الناس من خلال البريق الإعلامي المثير، مما يؤدي إلى الجدال والصراع، ويثمر النزاع.

٤) وعلى اتباع الهوى الذي يؤدي إلى مسخ الإنسانية لتتحول إلى النفسية السَّبُعِيَّةِ الأنانية المتوحشة.

٥) وعلى القومية والشعوبية التي تنتج التصادم، وتمنع بث الحياة الإنسانية.. ألم يأتك نبأ الحربين العالميتين: الأولى والثانية؟ ألم تر كيف أكلت الإنسانية فيها نفسها باسم الشعوبية والعرقية المتفوقة؟

ولقد قامت الحضارات المادية على منطق حسابي مالي لا حياء فيه، فكان من الطبيعي ضمن شرعيتها الدولية أن تفني أنظمة ملايين الناس، وتفني دولًا، وتأكل قوت مساكين ذوي مسغبة، أو يتامى ذوي متربة.. تفعل تلك الأنظمة ذلك أمام سمع العالم وبصره ثم تبقى شرعيته قائمة، ومغازلة عتاة المادية المعاصرة معلنة.

وفي هذه السورة المباركة تبرز القيمة الإنسانية الحقيقية بُعيد حقبةٍ مظلمة من النظريات العبثية التي تتعامل مع الإنسان باحتقار، وتزعم هذه النظريات المجنونة أن وجود الإنسان مجرد مصادفة عشوائية، فقد ذكر «روبرت أجروس، وجورج ستانسيو) صاحبا كتاب (العلم في منظوره الجديد): أن النظرة القديمة تنكر على الإنسان ما تعتبره مغالاة منه في إحساسه بأهميته الذاتية قائلة: إن كوبرنيكوس قد خلع الإنسان المغرور عن عرشه في مركز الكون، وأن عليه أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكبًا تافهًا يدور حول نجم لا شأن له [١].

وسعت النظريات المادية الجديدة من الدهرية القديمة فلم تكتف بالتمرد على الله حتى تمردت على الإنسان، وجعلته مجرد حيوان أو مادة، فذهب

(١) العلم في منظوره الجديد ص٥٣.

الفلاسفة والعلماء طرائق قددًا في تحقير البشر ليصلوا من خلاله إلى عدم وجود قصد من وجوده، وينفوا من خلاله وجود خالق له، بدلًا من أن يكون البشر أعظم الأدلة على وجود الخالق جل ذكره، ورأيت الماديين في المعسكرات المختلفة في ضلال بعيد قد سلكوا طرائق قددًا لكنها تجتمع على نزوة الأنانية والعبثية التي لا حدود فيها ولا تنظيم، ويصف ذلك برتراند رسل فيقول: «لو تخلى الفيلسوف عن برجه العاجي، ونظر في حقيقة الشيوعية لوجد أنها والرأسمالية تنطلقان من نزوة واحدة وهي النزوة المادية»، وتروتسكي المعارض لستالين وصف الحزب الشيوعي بأنه أوجد رأسمالية الدولة [1].

أما في الرؤية القرآنية فإنك تشعر بالقيمة الحقيقية للإنسانية، وتجد فيها (الغائية) التي تعطي للبشرية الـمُكَرَّمة معنىً في الوجود، ولقد عبرت عن ذلك سورة (النساء)، فأخبرتك أن الإنسان مخلوقٌ خلقه الله جل ذكره، ثم خلق له زوجه، وأوجد لهما القدرة على بث الحياة الإنسانية زمانيًا ومكانيًا، ونظم له سبيل البث بما يقيم الحقوق بينه وبين بقية جنسه بالقسط.

وفي سبيل (بث الحياة الإنسانية) وفق التنظيم الحقوقي الإلهي سترى في هذا الكتاب الآيات البينات من الكتب الإلهية السابقة وقد صدَّقها القرآن المجيد دلالة على خروجها جميعًا من مشكاة واحدة قبل أن تأتي يد الفسق المحرفة فتتلاعب بنصوص الكتب السابقة، فعند قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١) تجد استشهادًا **بإنجيل يوحنا** (٨) الذي ترى فيه قول عيسى عليه السلام: ٤٠ ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا

(١) المسلمون والحضارة الغربية ص٥٦٠.

لم نولد من زنا. لنا أب واحدٌ وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني.

وتجدنا نتفيأ ظلال القرآن المجيد فنناديهم تأثرًا بالنداء القرآني لهم، ونقول لهم: يا من تنتسبون للمسيح.. ارجعوا إلى الحق فإن الحق يحرركم من عبوديتكم للخرافات الباطلة.. حرروا أنفسكم من خطيئة الافتراء الكبير على المسيح عليه السلام، فإنكم الآن عبيد لهذه الخطيئة الشنيعة، فقد قال المسيح لمن عارضه من اليهود كما في **إنجيل يوحنا** (٨) ٣٢ وتعرفون الحق والحق يحرركم، ٣٣ أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحدٍ قطُّ. كيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحرارًا؟ ٣٤ أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: إن كل من يعمل الخطية هو عبدٌ للخطية.

سورة النساء إيجادٌ للمصالح الإنسانية المتعلقة بالأطفال والنساء والرجال، وحفظ وتنميةٌ لها:

الكليات الخمس وتسوير سورة النساء حول (بث الحياة الإنسانية، والتنظيم الحقوقي لها، وحماية المستضعفين وخاصة الأطفال والنساء من الاضطهاد):

لا يمكنك أمام الحشد المدهش من القوانين الحقوقية الإنسانية التي تفتنك بها سورة (النساء) إلا أن تقرر بأن:

هذه السورة تمثل نورًا متقدمًا مبهرًا يحوط الإنسانية بعنايته ورعايته، ويحفظ لها كرامتها، ويحنو عليها بأفضل الحدود التي تحميها، وتضمن انتشارها، ويحافظ على الكليات الخمس التي دارت حولها الشرائع والحضارات، وهي: الدين، والنفس، والنسل (العِرْض)، والعقل والمال:

فالمحافظة على (الدين) تعني حق الإنسان في الاختيار الفكري العقدي على

ألا يمثل عقيدة اعتداء ضد الآخرين، والمحافظة على (النفس) تعني: حق الحياة الكريمة للوجود الإنساني (الإظهار)..

الوجود للنفس يعني إظهارها في هذه الحياة، ثم استقرارها وحمايتها من كل أذى نفسي أو مادي يمكن أن يلحق بها.. ألا ترى أن الله من أول السورة يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: 1)، والمحافظة على (النَّسْل) تعني المحافظة على حق البشرية في التكاثر والانتشار والاستمرار، والمحافظة على (العقل) تعني حق الإنسانية في أن يكون ذكيًا واعيًا قادرًا على الإعمار، وذلك يقتضي تنمية العقل البشري ابتداء من مرحلة الطفولة ليصل إلى مرحلة (الرشد) في التصرفات وإدارة الحياة، والحماية التامة له من أن تصيبه الآفات بالمسكرات أو المخدرات .. ألا ترى أن السورة تحدثك عن حفظ نفسك وعقلك، فتجد فيها مثلًا: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٦)، والمحافظة على (المال) تعني حق الإنسانية في تكوين الثروة التي يستمتع من خلالها بتبادل المنافع الحيوية (الإعمار)، وذلك يقتضي إعانة الإنسان على إيجاد مالٍ يتحرك في الحياة من خلاله، وينميه، ويكون له ذمة مالية مستقلة لا يتمكن أحدٌ من السطو عليه دون وجه حق.. ألا ترى أن السورة من أولها تحدثك عن الذمة المالية الخاصة باليتامى والنساء.وكل ذلك تدخل فيه المعاني الأربعة لكلمة (بثَّ)، وهي الإظهار (إظهار الإنسانية من العدم)، والاستقرار، والإعمار، والتكاثر والانتشار.

وللمحافظة على الكليات الخمس قسم فقهاؤنا الأحكام المتعلقة بها إلى ثلاثة أنواع: الضروريات، والحاجِيَّات، والتَّحْسِينَّات.

والمصلحة الإنسانية التي تحقق ذلك ترجع إلى هذه الأقسام الثلاثة المذكورة، بل ذهب الإمام مالك وبعض الشافعية إلى أنَّ الاحْتِجاجَ بالمصلحة المُرْسَلة فيما

يتعلق بالضَّروريات، وإنْ لم يوجد بشأنها دَليلٌ خاص، تجمع كلمة (بث الحياة الإنسانية) هذه المعاني كلها، فهي تعني رباعية متلازمة:

الإظهار أي إيجاد للحياة الإنسانية من العدم، وتعني الاستقرار، وتعني الإعمار، وتعني التكاثر والانتشار، فكل ذلك من لوازم بث الحياة الإنسانية.

كل ذلك تراه في السورة يُقَدَّم إليك بكل سلاسةٍ وبراعةٍ بل بصورةٍ معجزة تأخذك سطوتها، وتهيمن عليك كلماتها..

هنا تعلم لماذا جاء المحور الرابع في السورة ليحدثك عن محاولات الذين يشترون الضلالة لأن تضل البشرية السبيل، وإنك لتجد النسبة مطردة في واقع الإنسانية بين خطين متوازيين واضحين:

الأول: خط المحاربة للهدايات القرآنية.

الثاني: خط المحاربة لأهم الحقوق الإنسانية.

ولك أن تتساءل ببراءة: لماذا أصبحت بعض المؤسسات الدولية والشركات العابرة للقارات أدوات سامة لامتصاص أعظم حقوق الإنسانية في الوقت ذاته الذي تصف فيه الإسلام بأبشع الألفاظ لتزين أمام العالم امتصاصها لدماء البشرية؟

هنا تقدم لك سورة النساء «الحق» الذي تقوم عليه السموات والأرض، وبتطبيقه تُبَثُّ الحياة البشرية بعدلٍ مطلق.. إنها السورة التي تقسم واجبات الحياة بين الرجل والمرأة مع التركيز على إنصاف المرأة دون أن يصل ذلك إلى أن تستغل هذا الإنصاف لتظلم الرجل.

حتى يظهر لك هذا «الحق» الذي تظهره السورة بصورة مدهشة، فسل الكنيسة: لماذا كان الزواج مباحًا في أول الحياة النصرانية للقسس؟ بل لماذا كان تعدد الزوجات شريعة أنبياء العهد القديم؟ ثم لماذا حرمت الكنيسة بعد ذلك الزواج على

القسس قبل أن ينتزعه البروتستانت من جديد؟ لماذا تفعل ذلك وهي ترى أن البديل آلاف الحالات من اغتصاب أكابر من الأحبار والرهبان للأطفال؟

وفي المقابل: سل الملحدين الذين اتخذوا داروين نبيًا يفسر الواقع برجم الغيب.. سل الذين اتخذوا الفلسفة الداروينية الاجتماعية، فجعلوا الحياة صراعًا أزليًا ينتصر فيه الأقوى والأشد ظلمًا وليس الأحق ولا الأعدل.. سلهم: أليس ذلك شبيهًا بقصة سفر التكوين حول انتصار يعقوب عليه السلام على من زعموا أنه (الله) تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا؟

هل يجد المهووسون بالحرب النووية في هرمجدون، والجشع الرأسمالي أعظم من أن يقتنعوا إن كانوا ملحدين بعقيدة الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية؟

هل يجدون إن كانوا مؤمنين أفضل من الاقتناع بعقيدة سرقة (يعقوب) البركة والنبوة من أخيه الأكبر عيسو، ومن انتزاع (يعقوب) البركة من (الله) بعد أن غلبه؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وصلى الله على أنبيائه ورسله أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

تأتي سورة (النساء) لتخبرك عن حقوق الأطفال والنساء لأنهم أساس بث الحياة الإنسانية في الوقت الذي ترى أن المرأة لم تستطع الحصول على بعض حقوقها إلا قبل بضع سنين.

والناظر في التاريخ المعاصر يجد من الظلم للمرأة وإقحامها في مجالات عمل لا تناسب طبيعتها وفطرتها، وتشق عليها مشقة شديدة، بينما السورة تقرر إلزام الرجال بأن يكونوا قوامين على الأطفال والنساء ينفقون عليهم الأموال، ويخصص لهم حقوقًا مالية في الإرث وغيره مع تصرف مستقل كامل؟

هل يستوي هذا ومن يعلم البشرية عن وجوب الإنفاق على الأطفال والنساء، ثم يخصص لهم حقوقًا مالية في الإرث وغيره مع تصرف مستقل كامل؟



الفصل السادس

الواقعية المعجزة للبصائر القرآنية في سورة النساء

القرآن يُشَخِّصُ الواقع الزمكاني كأنما أنزل الآن؛ فإن القرآن المجيد نزل على النبي ﷺ ليقود حياتك الفردية، وليبصر الأمم والنظم والدول والحكومات لتستهدي ببصائره في تنظيم حياتها وشؤونها، لا جرم أن تجد الارتباط الشديد للواقع الحيوي الذي يوجه النفس الإنسانية في كل أنحاء الكلمات القرآنية، وحينها تشعر بأن ما تبنيه الخرافات المنظمة المعاصرة تتلاعب بالعقل الإنساني، وتبعده عن المعالم الحقيقية (لبث الحياة الإنسانية)، ولسوف يكون أمرهم بورًا، وبمشعل البصائر القرآنية ووهجها الذي لا ينطفئ تستطيع أن تقول عن قوى الفساد العلمي والعملي: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩)، وخذ أنموذجًا فيما سطرته لنفسي ولك -أيدك الله- في قول الله تعالى جده: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، فقد قلت هناك:

«تذوق معي طعم هذا التعبير الإصلاحي المهيب: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.. سياقه بعد الكلام عن المنافقين.. تصور الآن أمامك أرتال القنوات الفضائية، وحشود وسائل التواصل الاجتماعي.. تصورها جميعًا، وهي تعمل ليل نهار على نشر السوء من القول.. فما السوء من القول؟ إنه كل كذبٍ قبيحٍ تردده الألسن.. إنه كل زورٍ يُنشَر لإشاعة الإجرام والفاحشة والغيبة المنظمة، والنميمة الفردية والنميمة الاستخباراتية المحلية والدولية.. هل تتصور كم ينشر بأموال الشعوب المستضعفة المسكينة من هذا الزور المحلي والعالمي في واقع

اليوم؟ هل يمكنك أن تتخيل كم من الأموال العامة تتدفق على برامج الفن والبرامج الاستعراضية لنشر السوء من القول؟

والآية صريحة واضحة: لا يحب الله هذا الجهر من السوء بالقول.. أتظن الله لا يعذب من يفعل ما لا يحبه جل ذكره؟ أعيذك من أن تقول ما قاله سفهاء السفهاء وهم ينشرون السوء من القول.. لقد قالوا: اقترفنا السوء من القول والفعل ولم نر عذابًا.. لم تحدث لنا زلازل، ولا سقطت علينا صواعق ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ (البقرة: ١١٨).. لقد قالوا: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ وفي السنن الإلهية ترى أن الله لا ينزل -بالضرورة- عذابه العاجل على كافر يجهر بالسوء من القول والفعل، بل يتوعده بعذاب الآخرة فيقول: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (المجادلة: ٨)، أما في دنيا الذين يزعمون الانتساب إلى الإسلام فإن الله ينزل عليهم قوارع اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، وتأتيهم المصائب المتتابعة لكن كثيرًا من السفهاء ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل: ٢١).. أفما يكفي عقوبة عاجلة أن ترى الفقر ينتشر في بلدانٍ حباها الله بالثروات والموارد الطبيعية التي يفترض أن تكون في أعلى مؤشرات السعادة الدولية؟

وعد إلى الآية: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ لتراها تقيد الذي لا يحبه الله بالجهر.. فهل يعني ذلك أن السر بالسوء من القول جائز؟

كلا! اجمع الآيات لتصل إلى أعلى الغايات -أيدك الله- فوعزة ربك لتجدن حقًّا ما وعد ربك من جعل هذا الكتاب هدى ورحمة وتبيانًا لكل شيء، فقد تقدم في هذه السورة ضوابط القول في السر الذي سماه الله نجوى في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤)، ولقد رأيت القرآن يجرم الأعمال الفردية والجماعية لقول السوء في السر في

قوله تعالى جده: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (النساء: ١٠٨).. ولكن السياق الآن في الكلام عن المنافقين ومن يعمل أعمالهم؛ إذ من أهم صفاتهم التي يستجلبون بها العذاب الإلهي: الجهر بالسوء من القول.. فانظر جمال السياق، والإبهار الذي يوضحه الكلام المنساق في تنظيم المجتمعات وحمايتها من هذه الفئة المجرمة.

الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية -سبًّا، وقذفا-، وينتهي انحلالًا اجتماعيًا، وفوضى أخلاقية، تنعدم فيها الثقة بين الناس؛ فيؤدي ذلك إلى هضم الحقوق، والتقاطع، وسفك الدماء أو التطبع على إشاعة الفحشاء، ويصبح من البطولة فعل الجرائم والتآمر».

وهكذا ينهمر عليك غيث البصائر القرآنية في سورة النساء مدرارًا هنيئًا مكتظًا بالتشريعات لكن اكتظاظه بها لا يحرمك من أن تراه على أجمل ما يكون التنضيد، وستلمح في حدودها القائمة بتنظيم بث الحياة البشرية تشريعات لجأت النظم المعاصرة إلى الاقتباس منها، ويحق لك هنا أن تتذكر قول بديع الزمان النورسي: «أليس من الجناية على الإسلام أن نستجدي الأحكام من أوروبا ولنا شريعة غراء تأسست قبل ثلاثة عشر قرنا؟ إن هذا الاستجداء شبيه بالتوجه إلى غير القبلة في الصلاة»[1].

لقد بلغ الاعتداء على الحياة الإنسانية من بني الإنسان حدًا لا تستطيع استيعابه تحت سمع ما يسمى الشرعية الدولية وبصرها، وانظر إلى أنهار الدماء المتدفقة التي لم توقفها مؤسسات الشرعية الدولية، وكما اتخذ مؤسسات البخل والمراءاة الدولية سبيلها العجب في التلاعب بقضايا الإنسانية فإن الأطماع والنزوات الفردية تزداد سعارًا، فهذا رئيس سيراليون -في فبراير ٢٠١٩م- يعلن حالة طوارئ وطنية في بلاده بعد ارتفاع

(١) الدين والدولة في تركيا، د. كمال حبيب، ٢٠١٠م (ص: ٧٦).

معدلات الاغتصاب بشكل مخيف[١] وجريمة اغتصاب طفلة تبلغ من العمر ٥ سنوات حيث تعرضت لشلل جزئي بعدما اغتصبها عمها، ويلجأ وحوش الإنسانية لاستغلال المستضعفين وخاصة الأطفال والنساء، فقد تعرضت نصف النساء في سيراليون إلى عنف جنسي أو جسدي في حياتهن.

ومن الواقعية المعجزة أن تجد القرآن المجيد يخاطبك أنت أيها القارئ قبل أن يخاطب غيرك:

استباقٌ لاستكشاف المعنى الأصلي والتبعي للمصطلح القرآني (أهل الكتاب):

هذا التفسير يروم تنزيل الآيات على الواقع الحقيقي، هنا تدرك معي أن جميع الخطابات القرآنية، والأخبار الفرقانية إنما يعنى بها في المقام الأول المسلمون ويدخل معهم غيرهم حسب السياق، وبذاك تراني اخترت أن المراد من الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب: أهل الكتابين (اليهود والنصارى) ويشمل الخطاب المسلمين ولكن حسب ما يناسبهم، وكذلك يدخل معهم غيرهم كالمجوس والهندوس بحسبهم في الخطاب العام لا في التفاصيل الخاصة.

ففي هذه السورة المباركة تجد المصطلح القرآني المتألق (أوتوا الكتاب- أوتوا نصيبًا من الكتاب-أهل الكتاب)، والمشهور عند المفسرين -رحمهم الله- أنهم اليهود والنصارى.. لا نرتاب في صحة ذلك، فـ(ال) عهدية أي الكتاب المعهود قبلنا، إلا أنك قد تجد المراد بهم أحيانًا أحد الفريقين حسب السياق كما ذكر ذلك المفسرون في قوله جل ذكره: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ (النساء: ١٥٣) فذكروا أن المراد بهم هنا هم اليهود بدلالة السياق، وأما قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا

(١) net.Static.arabi21 موقع (عربي ٢١) على الانترنت ١٠فبراير ٢٠١٩م .

تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٧١)، فإنهم ذكروا أن المراد بهم هنا النصارى بدلالة السياق أيضًا[١]، ولو أخذت الإضافة (أهل الكتاب) مجردة عن الحقيقة العرفية القرآنية لأدخلت فيهم: (المسلمين) بما يناسب حالهم، فالمسلمون أوتوا كتابًا أيضًا، وهو القرآن الذي من أشهر أسمائه الكتاب، فتكون هذه الألقاب حقيقة عرفية في اليهود والنصارى، وحقيقة عامة في كل من أوتي نصيبًا من الكتاب، فيدخل فيها المسلمون إما أصالة وإما تبعًا.. ماذا أقرر هنا؟ أقرر أننا -معشر المسلمين- ندخل فيها، كما أنه يمكنك أن توسع المعنى أكثر ليدخل كل من أوتي نصيبًا من الكتاب، إذا جعلنا الكتاب بمعنى (الكتابة)، ويكون الكلام الذي يلي النداء يتعلق بكل فريق بحسبه. والنداء والإخبار عن القوم بهذا المصطلح الجميل (أهل الكتاب) يعلمنا طريقة الحوار والتفاعل حسب الأحوال المختلفة، فلو شاء الله لقال عنهم: ألم تر إلى اليهود والنصارى، لكنه لم يقل ذلك لعدة أهداف منها:

أن يرفع الله جل ذكره من شأنهم، فعسى أن يكون هذا نوعًا من استلانة القول لهم ليعرفوا الحق ويراجعوه، وأن يكون في الوقت ذاته بابًا لمحاسبتهم فهم أهل كتابٍ يعلمون ما لا يعلمه غيرهم، ألا يكون ذلك أدعى لأن يعتنقوا الخير ويتركوا المنكرات التي يقترفونها؟.

(أهل الكتاب) مصطلحٌ قرآنيٌّ مبتكرٌ يظهرُ منه التهييجُ لهم مدحًا وتحميلًا لمسؤولية الأسفار التي ينسبون إليها، فإنني افتتحتُ بهذا المصطلح أبوابًا من النور القرآني.

(١) وإن كنت أميل إلى تعميم الفريقين في الموضعين، ثم تخصيص فئة منهم بما بعد الجملة الأولى من الآيتين لاعتباراتٍ لعلها ترد في موضعها إن شاء الله.

ولا تظنن أنني بذلك أعارض ما درج عليه الأقدمون وشادوه عبر القرون من عد مصطلح (**الذين أوتوا الكتاب**) حقيقة عرفية قرآنية في اليهود والنصارى؛ فإني قائلٌ بقولهم رحمهم الله، بيدَ أنني أُدخِلُ المسلمين إما أصالة؛ إذ معهم الكتاب كمن سبقهم، وإما تبعًا؛ فالخطاب الذي ورد فيمن سبقهم خطابٌ لهم تنبيهًا وتحذيرًا وحثًا وإغراء وتفصيلًا حسب السياق العام أو الخاص القريب أو البعيد التاريخي أو الذكري على أن الخطاب قد يخص فئة بعينها حسب السياق والقرائن ويلحق بها غيرها نوع إلحاق، ولذا قد تراني أذكر هذا المصطلح (أهل الكتب الثلاثة) وأعني بها: الأمم الثلاث أهل التوراة والإنجيل والقرآن.

وإصراري على التنبيه على ذلك نبع من رؤيتي للواقع المر للمسلمين؛ إذ يحسب كثيرٌ منهم ألا تكون فتنة إن صنعوا ما يصنعه أهل الكتاب ما دام الخطاب في قضية ما متوجهًا لأهل الكتاب فقط، ولقد رأيت من المسلمين من يظن نفسه بريئًا من الوقوع في الغضب والضلالة المذكورين في سورة الفاتحة لأنه يظن أنها لم تشر إلا إلى غيره.. أو لا ترى كثيرًا منهم يشترون الضلالة ويريدون أن يضل العالم السبيلَ، ولا يوقع على نفسه آية النساء (٤٤) لظنه أنها في أهل الكتاب من غير المسلمين؟.

هل ترى مجرد الخطاب لهم والكلام عنهم بهذا المصطلح يجعل فساق المسلمين الضالين المضلين بمعزلٍ عن أن يدخلوا في قوله جل ذكره: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤)! إن ذلك الفهم لهو من أعظم الفِرى وأشنع الضلالات التي استنكرها حذيفة بن اليمان ﷺ أن يأتيها أحدهم، فعَنْ أَبِي البَخْتَرِيِّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ حُذَيْفَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧) قَالَ: فَقِيلَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: «نِعْمَ الإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ

إِنْ كَانَتْ لَهُمْ كُلُّ مُرَّةٍ، وَلَكُمْ كُلُّ حُلْوَةٍ. كَلَّا وَاللَّهِ لَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَهُمْ قَدَّ الشِّرَاكِ»، وفي رواية الحاكم: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: نِعْمَ الإِخْوَةُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِنْ كَانَ لَكُمُ الحُلْوُ وَلَهُمُ المُرُّ، كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَحْذُوا السُّنَّةَ بِالسُّنَّةِ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ [١].

وبناء على ذلك فكل ما خوطب به الإسرائيليون فهو خطاب لنا إلا ما وضح فيه التخصيص، وهنا تسمع تقرير ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة [٢].

وما أشبه ذلك بمن يظن أن النجاة والفوز إنما يتحققان عند الانتساب إلى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو إلى خدمة المساجد، أو إلى أهل القرآن، أو إلى الألقاب الكثيرة التي يزكي بها كل إنسان نفسه دون أن يزكي حياته بعمله، وهذا يشبه قول النبي ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ القَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الجِذْعَ فِي عَيْنِهِ» [٣].

ولقد سار الرازي ﷺ على مهيعٍ فسيحٍ في سديدٍ من القول حين قنن لهذه المسألة فقال: «جَمِيع مَا خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْبِيهٌ لِلْعَرَبِ لِأَنَّ الفَضِيلَةَ بِالنَّبِيِّ قَدْ لَحِقَتْهُمْ، وَجَمِيعُ أَقَاصِيصِ الأَنْبِيَاءِ تَنْبِيهٌ وَإِرْشَادٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ (الزمر: ١٨)، وَقَالَ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (الزمر: ٥٥). وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

(١) والقذة ريشة السهم، وتؤخذ من طائر النسر أو الصقر غالبًا، ثم تنحت وتعد لتركب في السهم، وللسهم ثلاث قذذ منتظمة، فصار يضرب بهذا المثل في التسوية وعدم التفاوت.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (١/ ٨).

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان مشكول (١٣ / ٧٤) برقم٥٧٦١، وصححه الألباني في الصحيحة برقم٣٣.

(يوسف: ١١١)، وَلِذَلِكَ رَوَى قَتَادَةُ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ كَانَ يَقُولُ: قَدْ مَضَى وَاللَّهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَمَا يُغْنِي مَا تَسْمَعُونَ عَنْ غَيْرِكُمْ»[١].

كما تبصر هنا الفقه العظيم الذي يُظهِرُ قامة عمر بن الخطاب ﷺ: إن بني إسرائيل قد مضوا، وإنكم أنتم تعنون بهذا الحديث[٢].

أليس من الضلال البعيد أن يقع المسلمون فيما ذكره الله من انتهاكات منحرفي أهل الكتابين، ثم يرفع أحدهم عقيرته يُظهِرُ لنفسه النزاهة بأنه من خير الأمم، وأن الله إنما يذكر أهل الكتاب عند بيان تلك الانتهاكات؟! بل قد يقترف الإجرام، ويختمه بأن يحمد الله، أو يعزم على فعل الاعتداء ويعلقه، فيقول: إن شاء الله.

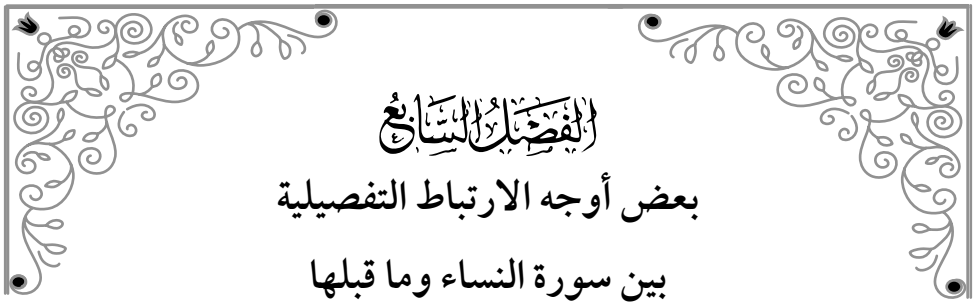
وبذا تجمع آيات السورة لتجدها تقرر حقيقة من أعظم الحقائق والحقوق البشرية حيث يقول الله تعالى جده: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣).

ألا يحق لك أن تسأل القوى المستكبرة التي تحاول فرض رؤاها القاصرة على العالم: مَن الذي يتعلم ممن؟ من الذي يملك النور ليشرق على ظلمات الجهل والتخلف والظلم الذي يسيطر على الأمم المتحدة والمختلفة؟

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (يونس: ٩٤، ٩٥).

(١) تفسير الرازي (٣/ ٤٩٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٢/ ٣١٠).



الفصل السابع

بعض أوجه الارتباط التفصيلية بين سورة النساء وما قبلها

دعني أقلب معك بعض الحديث حول ذلك، وإلا فإنك تجد الارتباط الكلي فيما ذكرناه في الترتيب المصحفي، فمن وجوه الارتباط:

الوجه الأول: تتابع ذكر الكتاب المجيد في السور الثلاث، فتدبر لترى:

أن الله جل مجده ذكر القرآن في سورة البقرة بيانًا لأصله ومصدره وهدفه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وذكر القرآن في آل عمران: بيانًا لطبيعة صياغته، وتتمة لأهدافه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

أما في النساء فإنك تجد وصفًا لكيفية ظهور الإعجاز فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).. ألا ترى هذا التتابع التذكيري ينساب على سننٍ مستتم؟.

الوجه الثاني: كما ترى التتابع الموضوعي بين السور الثلاث واضحًا: فذكر الله جل ثناؤه في سورة البقرة كيف يكون الكتاب العظيم مصدرَ السعادة بأن يستمد المتقون منه الهداية، وفصل عددًا من جوانب الهداية من خلال بيان المنظومة

العقدية، والتشريعية، والمالية فيه، كما بين كيفية الاستفادة من التجربة الإسرائيلية الثرية، وذكر في سورة آل عمران التاريخ الحقيقي للمسيح وأمه -عليهما السلام-، وكيفية التعايش وإدارة الحوار مع الكفار المختالين بأموالهم وأولادهم التي تمثل طاقاتهم وثرواتهم وقواتهم ومؤسساتهم، وخاصة مع النصارى، وهنا ذكر منظومة الحقوق اللازمة لإنقاذ المستضعفين وحمايتهم على المستوى المحلي والعالمي.

الوجه الثالث: ذكر الله في (آل عمران) سنن الانتصار والانكسار، فقال: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٧)، وبين هنا أنه سيهدينا لسنن الذين من قبلنا في القوانين والتشريعات ليظهر لنا ما هو خير وأحسن تأويلًا، فقال: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (النساء: ٢٦).

الوجه الرابع: أمهات الفضائل في علم الأخلاق أربع: العلم والشجاعة والعدل والعفة، وسورة البقرة ممتلئة بالفضائل الأربع، وأنت تراها جميعًا مفصلة بارزة في السور الأربع ولكن وفق أصول وتفصيلات مختلفة تتعلق بها، فمن أمثلة ذلك في سورة آل عمران والنساء على الإشارة العابرة فقط:

الخلق الأول: العلم من خلال كتب الله: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ** ﴾ (آل عمران:٣-٤)، وذكر أنموذج العلم الحق في معرفة التأويل الصحيح للقرآن الكريم ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ** ﴾ (آل عمران: ٧)، وفي الشهادة على توحيد الله ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ** ﴾ (آل عمران: ١٨)، وكذلك من خلال المعلومات الحقيقية حول المسيح وأسرته عليهم السلام ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ** ﴾ (آل عمران: ٦٢)، وتعليم ما لم يكن العالم يعلمونه في سورة النساء

مبسوط منتشر حسبك فيه هذه النصوص الجاذبة للحس المعرفي الإنساني: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (النساء: ٢٦)، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

الخلق الثاني: الشجاعة من خلال معالجة خوف المسلمين وارتباكهم؛ مما أوقع الهزيمة في أحد: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (آل عمران:١٤٣)، وعالج الوهن ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩) ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٦) ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ (آل عمران: ١٦٩)، ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ (آل عمران: ١٧٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

لقد عالجت سورة آل عمران موضوع (الشجاعة) عند التحام الجيشين، واستعار الحرب بين الفريقين على سبيلٍ لا يمكن أن تجدها في دقة المعالجة وروعتها عندما تقرأ معلقة الفخر الكلثومية التي يقول فيها عمرو بن كلثوم[1]:

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا ... فَأَعْجَلْنَا القِرَى أَنْ تَشْتِمُوْنَا
قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُوْنَا
وَنَحْنُ الحَاكِمُوْنَ إِذَا أُطِعْنَا ... وَنَحْنُ العَازِمُوْنَ إِذَا عُصِيْنَا
وَنَحْنُ التَّارِكُوْنَ لِمَا سَخِطْنَا ... وَنَحْنُ الآخِذُوْنَ لِمَا رَضِيْنَا
وَكُنَّا الأَيْمَنِيْنَ إِذَا التَقَيْنَا ... وَكَانَ الأَيْسَرِيْنَ بَنُو أَبِيْنَا

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إيميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، (ص: ٧٣).

فَصَالُوا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْهِمْ وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيْمَنْ يَلِيْنَا
فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالمُلُوْكِ مُصَفَّدِيْنَا
إِلَيْكُمْ يَا بَنِي بَكْرٍ إِلَيْكُمْ أَلَمَّا تَعْرِفُوا مِنَّا اليَقِيْنَا
أَلَمَّا تَعْلَمُوا مِنَّا وَمِنْكُمْ كَتَائِبَ يَطَّعِنَّ وَيَرْتَمِيْنَا

وعالجت سورة (النساء) قضية الشجاعة من باب أعظم هو مقدمة وهدف لما عالجته سورة آل عمران: إنه الاستراتيجية الأمنية العسكرية (أخذ الحذر) لتحقيق الهدف الذي يقتضيه بث الحياة الإنسانية (السلام وكف يد العدوان)، ويلخصه قوله جل ذكره: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠) حيث يمكن المناصرة الحقيقية لقضايا المستضعفين في الأرض، وهو أحد أهم قضايا سورة النساء.

الخلق الثالث: العدل: فقد ذكرنا في بصائر سورة آل عمران أن الآية الثامنة عشرة آية مركزية واضحة، وهي آية تبين أساس الألوهية الذي يستحق الله من خلاله أن يُعبد دون سواه﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)، وتجد العدل التطبيقي في ذكر أقسام أهل الكتاب فهم كما قال الله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران: ٧٥)، وهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ (آل عمران: ١١٣)، وكذلك العدل التطبيقي في النظر إلى واقع المؤمنين البشري: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وعلى الرغم من خطأ بعضهم إلا أن الله يغفر لهم بالنظر إلى حسناتهم الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ (آل عمران: ١٥٥)، وهنا تتلقفك سورة النساء لتبين صور العدل التفصيلية في الحقوق، وتأتي بآية القسط الشامخة في التقاضي ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

الخلق الرابع: العفة: فقد ذكر الله جل مجده في آل عمران آية البيان للواقع النفسي والفكري والعقلي الشهواني الإنساني الجامع ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (آل عمران: ١٤)، وهنا في المقابل بين أن هذه الشهوة الإنسانية في موضعها الصحيح سبب لبث الحياة الإنسانية من أول آية.

وترى من التكامل بين (آل عمران) و(النساء) أن قصة (أحد) أسفرت عن أيتام وأرامل استشهد مورثوهم في حب الله، وكان من أمرهم في الجاهلية منع أمثالهم من الإرث جورًا عن سواء السبيل وضلالًا عن أقوم الدليل؛ جاءت هذه السورة داعية إلى الفضيلتين الباقيتين، وهما العفة والعدل مع تأكيد الخصلتين الأخريين حسبما تدعو إليه المناسبة، فيثمر هذا التواصل الإحسان والتعاطف، فمقصودها الأعظم الاجتماع على الدين بالاقتداء بالكتاب المبين، وما أحسن ابتداءها بعموم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بعد اختتام تلك بخصوص ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) [1].

الوجه الخامس: بين الله تعالى شأنه في (البقرة) الهدف من خلق آدم عليه السلام، وهو جعله خليفة في الأرض، وبين في سورة (آل عمران) حال الكافرين من ذريته ممن يختالون بالقوات المادية والبشرية (الأموال والأولاد) فحادوا عن منهج الاستخلاف، ولعلمه جل جلاله بالقوة الضخمة للنصارى ضمن هذه التفاعلات أخبر عن التاريخ الحقيقي لأسرة آل عمران المباركة، وإذا كانت القوة والتقلب في البلاد ليس معيارًا لإقامة منهج الاستخلاف الإنساني العادل، ذكر الوحدة الإنسانية

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٧١).

في سورة النساء، وحقوق بني الإنسانية على بعضهم.

الوجه السادس: تضمنت سورة البقرة الكلام عن ابتداء الخلق، وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ (البقرة: ٢١، ٢٢)، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٨، ٢٩) وذكر الله فيها البدء البشري تفصيلًا ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وأعقب ذلك ذكر عيسى عليه السلام في سورة آل عمران، وعلم الموقنون بأنه تعالى جده لو شاء لكانت سنته بعد آدم كما حدث مع عيسى، ولو شاء لكانت سنته بعد عيسى كما حدث مع آدم، فسائر الحيوان لا يتوقف على أم فقط، أو على أم وأب، وإنما لله في خلقه أن يفعل ما شاء، فذكر الله السنة المطردة في خلق البشر من ذكر وأنثى، وما يترتب عليه من الرابطة الخاصة والعامة بين البشر وفق أرحامهم القريبة والبعيدة، والحقوق المترتبة على ذلك في حياتهم حيث تتكون الأسر، وتنمو العلاقات النسبية والزوجية، وبناء العلاقات الاجتماعية، وسبل إصلاح الخلافات، والحقوق المترتبة على ذلك بعد موتهم، واحتواء المشاكل، وبيان المواريث، والأنظمة الأسرية، فالذي يحارب هذه الطريقة للتكاثر الإنساني في التناسل كأنه يريد إبادة البشرية، والذي يبحث عن أنواعٍ أخرى للقاء الإنساني غير الطريق الطبيعي الشرعي فإنه يعمل على إلغاء التكاثر الإنساني الذي يعمر الأرض، ويمنع أن تُزهِرَ الحياة.

الفصل الثامن

أسلوب الصياغة للألفاظ والمعاني القرآنية في سورة النِّساء

أولًا: يبهرك أسلوب السورة، فتحبه وتنجذب إليه عددَ الرمل والحصى والتراب؛ فقد أتبع سببًا جديدًا ضمن الأساليب القرآنية المميزة، فلم تجد له شبيهًا في السور القرآنية الثلاث السابقة حسب الترتيب المصحفي.

يسبي الشعاعُ المنيرُ لأسلوب السورة عينيك عندما ترى الكلمات في السورة تجمع بين التشريع التقنيني، والموعظة المؤثرة، والجوامع الدستورية، والحنان التربوي، ويحيط بذلك الصياغة الحقوقية القانونية الدستورية باتخاذها صورة أوامر ونواهٍ صارمة، مع إلباسها الجانب الوعظي الإيماني المشرق، وإخراج الأمرين في قالبٍ وصورةٍ لغوية بيانية ذات جمالٍ أخاذ، وحروفٍ جاذبة آسرة، فجمع هذا الأسلوب بين المنهج العاطفي الرقابي ليعتاد الناس على محاسبة أنفسهم في مراعاة هذه الحقوق، والصياغة القانونية الدستورية، فكان لا بد مع التشريع القانوني من المخاطبة العاطفية التي تربي الضمير، وتبني في الأنفس العقل المستنير، ويظهر ذلك في محفزات كثيرة مثل الكلام عن مراقبة الله، والتذكير بالمآلات المستقبلية من الجنة والنار، والإخبار عن الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.

البيان القرآني المهيمن في سورة النساء تراه آسرًا بصورة فائقة؛ إذ تجد الصياغة القانونية المحكمة لكنها لا تنفك البتة عن الإيقاع الصوتي المميز البديع، ولا تخلو من التناسق ذي النغم المريح المثير في الوقت ذاته، بل تنفرد بالكلمات المتتابعة ذات

الأصوات المتناسقة المستلذة، وأنت تسير تسمع آياتها تجد نفسك منجذبًا بصورةٍ لا إرادية لحرف فواصلها في آخر رؤوس الآيات، فحرف الفاصلة في رؤوس آي سورة النساء هو الألف التي عَوَّضت عن تنوين الفتح: رقيبًا عليمًا حكيمًا، ولم يسبق لها مثيلٌ في السور الثلاث السابقة حسب الترتيب المصحفي، فهذا أسلوبٌ جديدٌ جَذَّابٌ له رنينه، وأثره في سبي الاهتمام، ولأن الكلمات ذات انسجام يتنزه عن الشعر ويتعالى عن معتاد النثر تشعر بشعورٍ مختلف مع أن الكلام لا يخرج عن حروف العربية.. إنه شعورٌ لا يوصف من التأثر المدهش، يجتمعُ فيه مع التناغم الصوتي اللفظي التآلفُ التشريعي المعجز المصاحب بالحنان الخلاب الذي يسبغه الله على البشرية في القضايا الأسرية، والاجتماعية، والأمنية، والفكرية، والتركيز على الرحمة الإلهية، والرعاية الربانية لتكوين حياة إنسانية مترابطة ذات وشائج تمتلئ بالخير والمحبة والصدق، وتبتعد عن الأنانية والشح والبخل والحسد والاعتداء، ولذا أبانت السورة أهمية الفروع الأسرية الممتدة إلى الإخوة والأخوات بعد أن بيّن الله حقوق الأصول والفروع، كما تجد التناسق بين الآيات والتتابع في الأفكار، مع وجود قناطر وجسور تصغر وتكبر لتعبر بك من الموضوع السابق إلى الموضوع اللاحق.

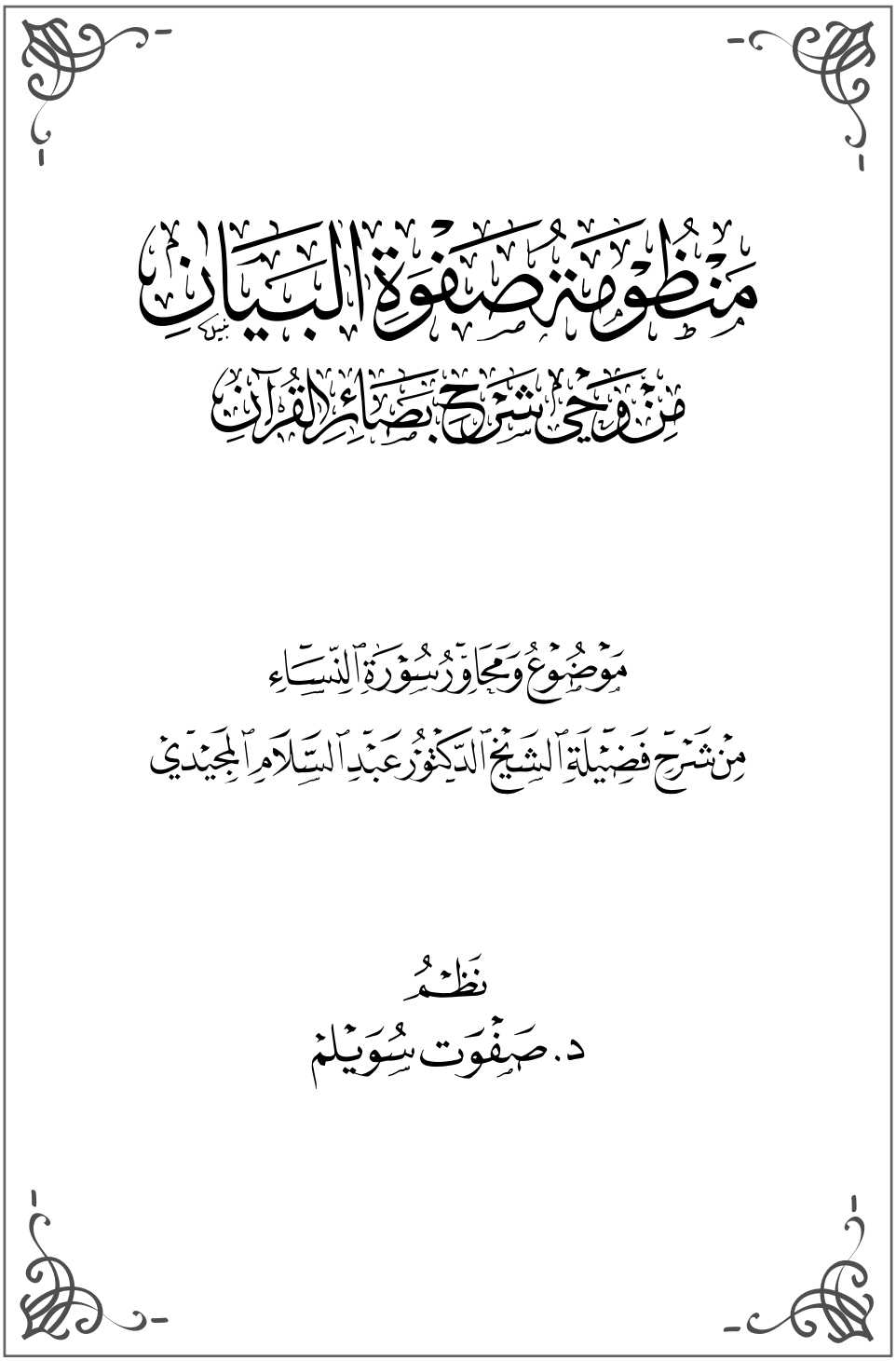
ويأتي الختام المناسب في هذه السورة بالكلام عن ما أراده الله لنا بهذه التفصيلات الدقيقة.. إنه يريد أن يجنّب البشرية الوقوع في فخ التجارب الضالة، التي تجلب الدمار والخراب: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء:١٧٦).

ثانيًا: تداخل ذكر الحقوق القانونية للفئات الإنسانية المختلفة من اليتامى والنساء والمستضعفين من الرجال، والمظلومين في القضاء لعدة مقاصد منها: بيان وحدة النظر إليها جميعًا وعدم اتخاذها عضين بأخذ بعضها وترك بعضها

حسب الهوى والاشتهاء، ففي التشريعات القرآنية ترى كل جهةٍ تنادي بمراعاة حقوق الأخرى، ولذا يذكر الله حقوق اليتامى ليدخل معها حقوق الأسرة المسلمة، ثم يُدخِل حقوقَ الوارثين، ويعود بعدها لذكر حقوق الأسرة المسلمة من جهاتٍ أخرى، ويأتي بعدها بذكر حقوق المجتمع، وحقوق الأمانات بين الرعايا والحكام، وحقوق حماية المجتمع وخصوصًا حماية المستضعفين من همجية المعتدين، وحقوق المظلومين في المجتمع وفي الجهات القضائية ليعود من جديد لذكر حقوق الأسرة من جهات أخرى.







منظومة صفوة البيان

من وحي شرح بصائر القرآن

موضوع ومحاور سورة النساء

من شرح فضيلة الشيخ الدكتور عبد السلام المجيدي

نظم

د. صفوت سويلم



بسم الله الرحمن الرحيم

١. بـدأتُ بِسْم اللهِ ربِّي المُنْعِمِ مُصلِّيًا على النبيِّ الأكْرَمِ
٢. محمَّدٍ وَصَحْبِهِ الأطْهارِ وَكُلِّ مَنْ تَلَا مِنَ الأبْرارِ
٣. وبعدَ حمدٍ للإلهِ يُثبتْ يُصاغُ نَظْمٌ للفقيرِ (صفوتْ)
٤. نَظْمٌ يُسمَّى (صفْوَةَ البيانِ) مُلَخِّصًا (بَصائرَ القُرْآنِ)
٥. مُدَعَّمًا بالأصلِ والجديدِ مِنْ وحْيِ شرْحِ شيْخِنا المجيدي
٦. نرجو الإلَهَ الرُّشْدَ والتوفيقَ وللكتابِ الفهمَ والتَّطْبيقَ

٧. وَذاكَ نَظْمُ سورةِ النِّساءِ يَمتازُ بالإيجازِ وَالجَلاءِ
٨. قَدْ رُتِّبَ القُرْآنُ تَرْتِيبانِ مَعَ النُّزولِ أوَّلًا، وَالثَّانِي
٩. المُصْحَفِيُّ، بَادِئًا بالفاتِحَةْ وُكُلُّ تَرْتيبٍ أضافَ مَصْلَحَةْ
١٠. حَالَ النُّزولِ، ذَلِكَ التَّارِيخِي يُوَضِّحُ الأحْداثَ بالتَّأْرِيخِ
١١. فَذاكَ مَكِّيٌّ لَهُ ما بَرَّرَهْ وَبَعْدُ في المَدينةِ المُنَوَّرَةْ
١٢. طبيعةُ التَّشْريعِ وَالنِّفاقِ وَالمَكْرِ لِليَهودِ وَالفُسَّاقِ
١٣. كذا بِهَا بِدايَةُ القِتالِ وَكُلُّ ما اسْتَجَدَّ مِنْ أحْوالِ
١٤. كَذَاكَ ما قَرَّرهُ الرَّسُولُ مَعْ كُلِّ حَادِثٍ، لَهُ تَأْوِيلُ
١٥. وكُلُّ هذا للدُّعاةِ يَعْصِمُ مِنْ كُلِّ فَهْمٍ خاطِئٍ قَدْ يَقْصِمُ

١٦. لكنَّ تَرْتيبَ السُّوَرْ في المُصْحَفِ يُفيدُنا مِنْ جانِبٍ مُخْتَلِفِ
١٧. فَمِنْ خِلالِهِ الرُّؤَى قَدْ تتَّضِحْ لِكُلِّ ما قَدْ لا يَصِحُّ أوْ يَصِحْ

١٨. معَ الشمولِ والعمومِ في النظرْ بِلَا زمانٍ أوْ مكانٍ مُعْتَبَرْ
١٩. كذا العلاقاتُ التِي مَعَ الأُخَرْ ثُمَّ العِلاقاتُ التِي بينَ السُّورْ
٢٠. بالِاتِّصالِ وَالمُناسَباتِ ما بيْنَ سورَتَيْنِ أوْ آياتِ

٢١. وَما يَلِي التَّوْضِيحُ بِالمِثالِ لِبَعْضِ ما مَضَى مِنَ الأقْوَالِ
٢٢. فَأوَّلًا فاتِحَةُ الكِتابِ تَحْوِي لِمَا يَحْوِيهِ مِنْ أبْوابِ
٢٣. قدْ ضُمِّنَتْ سَبْعًا مِنَ الآياتِ لِسائِرِ الأحوالِ وَالأوْقاتِ
٢٤. حجمٌ صغيرٌ مُعْجِزٌ في آيِهِ قَدْ صاغَهَا الحَكيمُ في عَلْيائِهِ

٢٥. وَبَعْدها في سُورَةٍ للبَقَرَةْ بدايَةُ الحَضارَةِ المُنْتَشِرَةْ
٢٦. لِذا بِهَا حضارةُ الإسلامِ قَدْ أشرَقَتْ بِسائِرِ الأحكامِ
٢٧. مَعْ كاملِ التَّوضيحِ وَالتَّفْصيلِ لِدَوْلةِ اليَهودِ بالتَّحليلِ
٢٨. بَدْءًا بِهِمْ كَقُوَّةٍ مُؤَثِّرَةْ وَللفَسادِ داعِمِينَ نَشْرَهْ
٢٩. كَيْ يُدرِكَ الصُّلَّاحُ بالدَّليلِ جوانِبَ الإخفاقِ وَالتَّبْديلِ

٣٠. وَآلِ عِمْرانَ أتَتْنَا مُبْهِرَةْ فيها حِواراتُ النَّصارَى ظاهِرَةْ
٣١. مِنْ أجْلِ أنْ نُباشِرَ الحِوارَ بِما أرادَ رَبُّنَا وَاخْتارَ
٣٢. فَهَؤلاءِ القُوَّةُ المُنَفِّذَةْ وَلِفَسادِ الآخرينَ مُنْقِذَةْ
٣٣. بِعَدَدٍ، وَعُدَّةٍ بِكَثْرَةِ على مدَى التاريخِ منذُ الهِجرَةِ
٣٤. كَذَاكَ فيها للبِناءِ الدَّاخِلِي وَصْفٌ دَقيقٌ، مَعْ عِلاجِ الخَلَلِ
٣٥. بِهِ بيانُ سُنَّةِ الإخْفاقِ وَالقَرْحِ، وَالتَّعقيبُ للخلَّاقِ

٣٦. وَذاكَ للتَّجْهيزِ للأعداءِ مَعْ كامِلِ التَّأهِيلِ وَالصَّفاءِ

٣٧. وَبَعْدَهمْ في سورةِ النساءِ بَثٌّ لِخلقِ اللهِ في الأرْجاءِ
٣٨. وَذاكَ حقٌّ مِنْ حقوقِ البشَرِ في البَثِّ وَالتَّكاثُرِ المُنْتَشِرِ
٣٩. مَعْ ضَبْطِها لكَامِلِ الحُقُوقِ مَعَ البَيانِ الواضِحِ المَوْثُوقِ
٤٠. وَقَرَّرَتْ مَبادِئًا عظيمَةْ كَـ(الأُمْنِياتُ لا تُضيفُ قيمةْ)
٤١. فالسُّوءُ وَالحُسْنَى همَا ما يُعْتَبَرْ في صفْحَةِ الإنسانِ مِنْ كُلِّ البَشَرْ
٤٢. وَذاكَ في الدُّنْيا، كذا في الآخرةْ يُضافُ إيمانٌ لِنَيْلِ المَغْفِرَةْ

٤٣. قَدْ نُزِّلَتْ مِنْ بَعدِ ما جاءتْ أُحُدْ لِنُصْرَةِ الضَّعيفِ في كلِّ الصُّعُدْ
٤٤. وَذاكَ في الميراثِ وَالأيتامِ وَللنِّسَا، وَالاِضْطِهادِ الدَّامِي

٤٥. تَحديدُ موضوعٍ لكلِّ سُورَةْ لاحِظْهُ في الركائزِ المُشيرَةْ
٤٦. مِنَ اسْمِهَا، وَنَوْعَيِ التَّرتيبِ وَمِنْ مَحاوِرٍ مَعَ التَّبْويبِ
٤٧. ففي النِّساءِ حقُّ الانْتِشارِ للنَّاسِ مَعْ ضمانَةِ الإعْمارِ
٤٨. مَعْ دِقَّةِ الإنصافِ في الحُقوقِ بالقِسْطِ لا بالغصْبِ والعُقوقِ
٤٩. فالقسْطُ فيها ظاهِرٌ مُكَرَّرُ عنْ أمْرِهِ سُبْحانهُ يُعَبِّرُ

٥٠. مَحاوِرُ النِّساءِ في مُقَدِّمَةْ وَسبْعَةٍ، وَبَعدهُمْ في خاتِمَةْ

٥١. فَالآيةُ الأُولَى هيَ **المُقدِّمَةْ** لِحَقِّ أرحامٍ وَبَثٍّ مُعْلِمَةْ

٥٢. تَـدْعو إلى حُقوقِ كُلِّ النَّاسِ وَحَـقِّ أرْحامٍ بِـلَا التِباسِ
٥٣. وَذاكَ مِنْ خـلالِ تَقْوَى اللهِ بِهَا اسْتَعينُوا، لا بِقلبٍ لاهِي

٥٤. **وَالمحورُ الأوَّلُ** للحقُوقِ في المالِ للضعيفِ بالتَّوثيقِ
٥٥. للسفهاءِ، وَاليتامى، وَالنِّسا والوِرثِ بالتفصيلِ كَيْ لا يُنْتَسَى
٥٦. كَذَا حقُوقُ الطِّفْلِ قَدْ بانَتْ لَكُمْ مَعَ ﴿اليَتامَى﴾ ثُمَّ ﴿في أوْلادِكُمْ﴾
٥٧. كَذَاكَ حَقُّ المُجْتَمَعْ مَحفوظُ وَذاكَ في ﴿وصيَّةٍ﴾ مَلحوظُ
٥٨. وَينْتَهِي المحورُ عِنْدَ الرَّابعةْ مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ، وَالحُقوقُ لامِعَةْ

٥٩. **وَالمحْورُ الثَّانِي** بِهَا قَدْ بَيَّنَ الأسرَةَ المُثْلَى لِكَيْ تُكَوَّنَ
٦٠. فالمالُ بالميراثِ جاءَ أوَّلَا ثُمَّ الزَّواجُ بعدهُ فورًا تَلَا
٦١. عَلى الزَّواجِ المالُ جا يَحُثُّ وَبالزَّواجِ يَستَمِرُّ البَثُّ
٦٢. وَذاكَ ميثَاقٌ غَلِيظٌ قُدِّسَ فَسُنَّ تأْهيلٌ لِمَنْ قَدْ دَنَّسَ
٦٣. كذا لَهُنَّ حَقُّ الِاسْتِقْلالِ في الوِرْثِ وَالصَّداقِ ثُمّ المالِ
٦٤. وَبَعدُهُ بيَانُ مَنْ قَدْ تَحْرُمُ مِنَ النِّسَا فَإِنَّهُ مُعَظَّمُ
٦٥. كَذَاكَ مَنْ تَحِلُّ، بِالضَّوابِطِ حيثُ الزَّواجُ أعظَمُ الرَّوابِطِ

٦٦. **وَالمِحورُ الثالثُ** في المقاصِدِ وَالضَّبْطِ للبُيوتِ بالقَواعِدِ
٦٧. بهِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُبيِّنَ وَكَيفَ للأموالِ أنْ تُكَوَّنَ
٦٨. وَبعدهُ النُّشوزُ وَالقِوامةُ ثمَّ الشِّقاقُ، الصُّلْحُ وَالسَّلامَةُ
٦٩. وَاخْتِمْهُ بالقِيامِ للصَّلاةِ فيها صَفاءُ العقْلِ وَالنِّيَّاتِ

٧٠. وَهْوَ الذِي تُبْنَى عليهِ الأُسَرُ وَالِانْفِعالُ هادِمٌ مُبْتَسِرُ
٧١. وَالأمرُ بالصلاةِ قَدْ يُكَرَّرُ في كُلِّ ما بِهِ تُقامُ الأُسُرُ
٧٢. فَـ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى﴾ الصلاةِالوُسْطَى أثْناءَ ما فيهِ الطَّلاقُ غَطَّى

٧٣. وَبعدَ هَذا مِحْورُ الإدارةْ بدونهِ لا تَصْلُحُ الحضارةْ
٧٤. وَالأصلُ في الإدارةِ الدستورُ أدُّوا {الأماناتِ} بِهَا يَدورُ
٧٥. فَلْيُعْطَ أصْحابُ الحُقوقِ حَقَّهُم في كلِّ شيءٍ دُونَ إنقاصٍ لَهُمْ
٧٦. كَذَاكَ فيهَا طاعةُ الإسلامِ للهِ وَالرَّسولِ وَالإمامِ
٧٧. وَفِي الجوانِبِ: المُعَوِّقاتُ {أوتوا نَصيبًا} مِنْ كِتابٍ فاتُوا
٧٨. كَذَاكَ مَنْ يدورُ في أفلاكِهِمْ مِنْ مُدَّعِي الإسْلامِ مِنْ أمْثالِهِمْ
٧٩. كذلكَ {الذينَ يزعمونَ} لِكُلِّ طاغوتٍ يُحَكِّمُونَ

٨٠. يُفضِي انْتِهاءُ مِحورِ الإدارَةْ لِخَامِسِ المَحاوِرِ المُثارَةْ
٨١. تُنظِّمُ الإدارةُ الرَّشيدَةْ السِّلْمَ في المَناطِقِ البَعيدَةْ
٨٢. كَذَاكَ فيهِ حِفْظُ أمْنِ الدَّاخِلِ بِهِ {خُذُوا حِذْرَكُمُ} وَما يَلِي
٨٣. فالأصْلُ في إسْلامِنا السَّلامُ وَحِيطَةٌ، وَحذَرٌ يُقامُ
٨٤. وَعُزْلَةُ الأعْداءِ مَعْ بَذْلِ السَّلَمْ لا حَرْبَ فيها بيْننا أوْ نَنْتَقِمْ
٨٥. ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾} تُثيرُ تَفْكيرًا مَعَ انْتِباهِ
٨٦. وَفِي القراءاتِ لنا قَدْ أسَّسُوا فَـ{لَسْتَ مُومَنًا} بِهَا نَسْتَأنِسُ
٨٧. ففي السَّلامِ البَثُّ وَاسْتِقْرارُ أمَّا مَعَ الحروبِ فالدَّمارُ
٨٨. لَكِنْ إذا تَطاوَلَ الأعْداءُ وَكانَ تَهْديدٌ أوِ اعْتِداءُ

٨٩. فَقَدْ أَتَتْنَا ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ تَحْرُسُ وَتَسْتَرِدُّ الحَقَّ مِمَّنْ دَنَّسُوا



٩٠. **المِحْوَرُ السَّادِسُ** للقَضاءِ ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ في ابْتِداءِ
٩١. أَتَى هُنَا للحسْمِ في النزاعِ للكُلِّ في مُخْتلَفِ الأَوْضاعِ
٩٢. في الأسرةِ الأُولَى وَفِي الأَرْحامِ كَذَاكَ للشُّعوبِ وَالحُكَّامِ
٩٣. وذكْرُ آدابِ القضاءِ الرَّائِعَةْ في كُلِّ تَفصيلٍ هُنَا مُجَمَّعَةْ
٩٤. أَوَّلُها ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فَغَيْرُهُ أسيرُ مَا يَهْواهُ
٩٥. كَذَا وُجوبُ العدْلِ للبَرِيءِ وَلوْ يَهودِيٌّ يَشِي بالسُّوءِ
٩٦. ﴿لَّا خَيْرَ فِى﴾ النَّجوى هُنَا قَدْ تَعْنِي مُجْتَمَعٌ يُقالُ عنهُ المَدَنِي
٩٧. فالأَصْلُ تَقْنينٌ لهُ للفائِدَةْ لِذا بِمِحْورِ القضاءِ أوردَهْ
٩٨. وَفيهِ ذِكْرٌ عنْ نشوزِ الرَّجُلِ ﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾ خافتْ أَتَتْ للعدْلِ
٩٩. وبعدها جاءَ النِّداءُ كُونُوا بالقِسْطِ قَوَّامِينَ لا تَخُونُوا



١٠٠. **وَالمِحورُ السَّابعُ** فيمَنْ أجرمُوا بِمَنعِ حقِّ الناسِ، حَتَّى يُعْلموا
١٠١. ثَلاثَةٌ قَدْ حاربُوا الإعْمارَ مَنْ نافَقُوا، اليَهودُ، وَالنَّصَارَى
١٠٢. مَنْ نافَقُوا هُمْ أَوَّلُ الأَنْواعِ لقوَّة التَّأثيرِ وَالخِداعِ
١٠٣. همْ آمَنُوا، وَكَفَرُوا، وَآمَنُوا وَكَفَرُوا، وَكُلُّهُمْ لَمْ يُعْلِنُوا
١٠٤. لَكِنْ علاماتٌ لَهُمْ تَفْضَحُهُمْ في الوصْلِ بِالكفارِ ما أقبَحَهُمْ
١٠٥. يُشاركونهمْ بِالاسْتِهْزاءِ بالمُؤْمِنِينِ ثُمَّ بِالإغْواءِ
١٠٦. مَذَبْذَبينَ، دائمًا كُسالَى عنِ الصلاةِ، يَكْنِزونَ المَالَ
١٠٧. كَذَاكَ مَنْ غالُوا مِنَ اليَهودِ وَأَعْلَنُوا العداءَ للمعبودِ

١٠٨. وَخذلوا هارونَ ثـمَّ موسَى وافْتَخرُوا زُورًا بقتلِ عيسَى
١٠٩. وَحَرَّفوا عقيدةَ النَّصارَى وَاتَّهَمُوا سَيِّدَةَ العَذَارَى
١١٠. ودَمَّروا المالَ وَالِاقْتِصادَ وَنَشرُوا الرِّبا، كذا الفسادَ
١١١. بالمِثلِ مَنْ غالُوا مِنَ النَّصارَى وَثَلَّثُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبارَا

١١٢. وَفِي **الخِتام** ﴿جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كَذَا أَتَى القُرْآنُ
١١٣. وَالناسُ في بدْءٍ وَفِي الخِتامِ قَدْ خُوطِبُوا مِنْ رَبِّنا العَلَّامِ
١١٤. وبعدهُ التوضيحُ في النِّهايةْ كَيْ تَأخُذُوا بالجِدِّ كُلَّ آيةْ
١١٥. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ماقَدْمَضَى كيْ لا تَضِلُّوا، فاهْتَدُوا بِما ارْتَضَى
١١٦. بكلِّ شيءٍ رَبُّكُمْ عليمُ لِذَا البَيَانُ شامِلٌ مَعْصُومُ

١١٧. وَذاكَ نَظْمٌ مُوجَزٌ بَسيطُ بِهَيْكَلِ النِّسَا فَقَطْ يُحِيطُ
١١٨. يُوَضِّحُ المَوْضوعَ وَالمَحاوِرَ لِمَنْ أحَبَّ دائِمًا أنْ يَذْكُرَ
١١٩. وَمَنْ أرادَ مِنْهُ الاِسْتِزادَةْ فشَرْحُ شَيْخِنا بَهِ الإفادَةْ
١٢٠. بِهِ بَصائرُ الكِتابِ كامِلَةْ لِكُلِّ مَفْهومٍ أتَتْ مُفَصِّلَةْ

١٢١. وَالحَمْدُ لِلإلَهِ في الخِتامِ على اكْتِمالِ النظمِ والتَّمَامِ
١٢٢. ثُمَّ الصلاةُ دائمًا وأبَدَا على رسولِهِ مُبَلِّغِ الهُدَى
١٢٣. مُحمَّدٍ وَآلِ بيْتِ النُّورِ وَصَحْبِهِ على مدى الدُّهُورِ

تمت بحمد الله

بصائر المعرفة ال

موضوع السورة: بث الحياة الإنسانية، وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال من الاضطهاد

المحور الأول	المحور الثاني	المحور الثالث	المحور الرابع
التنظيم الإلهي للأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-١٤) **«بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث»**	**التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار الحياة (النساء:١٥-٢٥)**	**التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣):** **وفيه: تنظيم الأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين الموارد المالية والنفسية للتماسك الأسري**	**التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء:٤٤-٧٠)**

الخاتمة: من أعظم حقوق العالم التعرف إلى حقيقة الكتاب الحق الذي يحل مشاكل البشرية، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍّ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦)

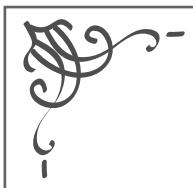
قرآنـية في سورة النساء

المقدمة: أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية) (النساء:١)

المحور الخامس	المحور السادس	المحور السابع
التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء٧١-١٠٤): وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر، والبحث عن أرض العدل والكرامة	التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء: ١٠٥-١٣٦)	التنظيم الإلهي لمعرفة الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء: ١٣٧-١٧٣)

شكل (١) خريطة كلية تجمع الموضوع المختار لسورة النساء، كما تبين مقدمة السورة، وخاتمتها، والمحاور التي تُظهر عمودها المنطقي المتناسب ابتداء من أول آية إلى آخر آية.






المقدمة

أهم الأسس الحقوقية التي تضمن
(بث الحياة الإنسانية)
[النساء:١]






المُقَدِّمَة

أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بث الحياة الإنسانية)

جاءت المقدمة في أول آيةٍ من السورة.. نعم! لا تندهش: إنها آيةٌ من (١٧٦) آيةً هي عدد آيات سورة النساء، لكنها تكتنز في إيجازٍ عميقٍ تأسيس الكلام عن انبثاق الوجود الإنساني بالخلق الإلهي وفق نظامٍ محدد. فنعم البيان القرآني أمام ناظريك! فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، لقد ضمت الآية في جوانحها مقدمةً نفيسةً تتضاءل عندها العبارات. إنك لترى فيها عددًا من أهم أسس الاجتماع الإنساني في الأرض، وهي:

الأساس الأول:

عالمية الخطاب القرآني، فهو الخطاب الأكثر أهلية ليحافظ على بث الحياة الإنسانية ويقيم التفاعل الإيجابي الصالح بين أبنائها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والمخاطبة العالمية تقتضي النسبة الإنسانية لا العقدية، فلم يقل: يا أيها المؤمنون والكفار.

تكرر هذا الخطاب في القرآن الكريم نحوًا من واحد وعشرين مرة ليدلل على العمق العالمي للخطاب القرآني.. إن القرآن يخاطب البشرية جميعًا.. تمتع بذلك! وقد تتساءل: لماذا بدأ الله الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في سورةٍ مدنيةٍ مع أن المنتفع به إنما هم المؤمنون؟ إنه البعد الإنساني لرسالة الرحمة للعالمين، وهو خطابٌ مدهش:

فأما أولًا: فهناك معنىً رائعٌ في الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ يدل على بعدٍ دعويٍّ

عميقٍ؛ إذ تشمل هذه الكلمة أمة الدعوة جميعًا وهم المؤمنون والكفار، ولكنه لم يخاطب الكفار بـ (أيها الكفار) هنا، بل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ فخاطبهم بما يجمعهم، ويؤلف بين قلوبهم، ليظهر لهم أنه خطاب لمصلحة البشرية جميعًا، وهو بذلك يثبت كثيرًا من الأخلاق الاجتماعية التي يشترك فيها المسلم وغير المسلم، ويُنشئ قاعدةً صلبةً للأخوة الإنسانية الصحيحة لا الوهمية، بل إنك تجد ربك جل ذكره لم يخاطب الكُفَّارَ بِوَصْفِ الكُفْرِ إِلَّا مَرَّتين:

وَاحِدَةً فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ، حيث قال جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ (التحريم: ٧)، وهذا نداءٌ طبيعيٌ لهم في الآخرة حيث قُسِّمت المنازل في الحياة الأبدية، ولم يعد هناك مجالٌ لدعوتهم إلى الخير.

والثانية في أول سورة (الكافرون)، وهذا خطابٌ لهم عند المفاصلة، وبيان الحدود الدينية لئلا يكون الإسلام عرضةً للتلاعب، ولتثبيت حرية الاختيار الديني، فأما عند الخطاب العام فينبغي للداعية أن يتعمد خطاب الكفار بالألفاظ المؤنسة لهم مثل الألفاظ التي تدل على الانتماء الإنساني المكرم.

لقد كان هذا الخطاب الفذ أعظم تحدٍ للكفار المعاصرين للنبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.. لا ليس ذلك فحسب! بل ما زال أعظمَ تحدٍ للكافرين المعاصرين ولمن يزعم الإسلام ممن يأبون إلا جعل مصالحهم الشخصية أو مصالح دولهم الذاتية محل مقامات النبلاء الطبقية الرهيبة القديمة.

وأما ثانيًا: فمع أن المنتفع بالخطاب الإلهي غالبًا إنما هم المؤمنون المتقون إلا أن ذلك لا يعني عدم مخاطبة بقية العالم بالتقوى، ولا يعني عدم التذكير بعظمة الخالق العظيم، كما أنه يعني بوضوح أن يكون التذكير بالتقوى جزءًا من الخطاب السياسي والثقافي العام مما لا نرى ضياءه هذه الأيام، والله المستعان، ولا يستفزنك استهزاء المستهزئين.

وأما ثالثًا: فذلك يعني ضرورة مخاطبة العالم بما يتضمنه الشرع من محاسنَ ومكارم، والافتخار بتشريعاته ونظمه، وبيانه للعالَم المترقب المتسائل أو الجاهل أو المتجاهل، وجعل ذلك أحد أهم أسس الإعلام المنتمي إلى الدول الإسلامية.. هل ترى كيف هو حال الإعلام في دولٍ تنتسب إلى الإسلام في هذه الأجيال؟.

وأما المعنى الرابع الرائع فهو: أن هذا الخطاب يتضمن دليلًا على أن الإسلام دين الحق؛ إذ ليس شريعة عنصرية، ولا طبقية، ولا تمييزية، فإن هذه الأوصاف تكفي في بطلان شرائعها، وما زلت والله أتعجب من وجود شرائع عنصرية في الأرض، دون أن يقابلها إدانة عالمية، كما أنك تعجب من وجود شرائع خاصة وإن حاول أتباعها تعميمها، وكيف يعممون شريعة تنسب إلى شخص لا إلى اسمٍ يدل على رب العالمين بينما الإسلام هو الدين الذي جاء لخطاب الناس كافة، وترى في هذا النداء للناس عظمة الإسلام القائم على التعارف والحوار حيث يقدم لهم جميعًا الحلول الناجعة لمشاكلهم، والوسائل الحقيقية لبناء حياتهم، وليس الأوهام، وأكل السموم والركام من خلال التزييف الدولي، وما يسمونه فنون الألعاب السياسية.

الأساس الثاني:

التقوى صِمام الأمان لإعطاء الحقوق لأهلها، وإقامة القوانين بالعدل في العلاقات الأسرية والبشرية، ومبدأ التقوى ينمي المراقبة الإنسانية، والضمير البشري، ويقيم الأخلاق الحقيقية، ويحمي من التلاعب بالقوانين؛ فقد كرر الله ذكرها مرتين في آية المقدمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾، والتقوى تعني اتقاء المخافات المستقبلية القريبة والبعيدة الناتجة عن حساب الله لعباده، وذلك يعني اتقاءه عزَّ جارُه.

وقال معبرًا عن جوهر التقوى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، فالشعور بالرقابة الإلهية هو المحفز لتنمية التقوى، والتقوى صمام الأمان لإيقاظ ضمائر

البشرية التي تراقب الله وتخافه، حيث بين الله تعالى أن استحقاقه لأن يتقيه عباده؛ فهو الرب الخالق ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فكُنْتَ مَعْدُومًا فَأَوْجَدَكَ، وَمَيِّتًا فَأَحْيَاكَ، وكلمة {ربكم} تعني أنك كنت عَاجِزًا فَأَقْدَرَكَ، ومُعدمًا فأعطاك، ونكرة فعرَّفك، وَجَاهِلًا فَعَلَّمَكَ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ (الشعراء: ٧٨، ٧٩) وهذا يقتضي أن نشكره، والشكر يكون بالتقوى والتقوى تكون بالعبادة، والعبادة رأسها الإيمان.

فأين ابتكار البرامج المناسبة للتدرب على تنمية هذا الهدف العظيم (التقوى)؟ هذا المبدأ يعني تحفيز الأجهزة الإعلامية والتعليمية على غرسه، وأعجبني صنيع والدٍ حفز التقوى في المجال العبادي لدى أبنائه بأن أعلن عن منافسةٍ للحصول على شهادة البراءتين، وعنى بذلك حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى لله أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق»[1].

التقوى تعبر عن المراقبة الذاتية وتعني إيجاد الإنسان الصالح، وهنا نلاحظ عظمة البناء الإسلامي في إعطاء الأسرة مكانتها، والتعامل بالتقوى مع بقية الأرحام، وجعل التقوى أساس التعامل مع الأسرة البشرية الكبيرة التي ترجع إلى أبٍ وأمٍّ، وبذا تظهر المقاصد الشرعية في الاهتمام بمصالح بني الإنسانية الذين تربط بينهم علاقة الدم؛ إذ كلُّهم يرجعون إلى أبٍ واحدٍ، وأمٍ واحدةٍ، فقد سبق أن ذكر الله تعالى جده قضية الحقوق مرارًا في السورتين السابقتين مثل آية البر (البقرة: ١٧٧)، وآية المسارعة إلى المغفرة والجنات (آل عمران: ١٣٣)، ولكن الجديد هنا أنه يُفَصِّل تفاصيل الحقوق والواجبات من أول آية، ومقدمتها تمثل افتتاح سورةٍ عظيمة هي سورة الحقوق والبناء الاجتماعي في الوقت ذاته.

(١) الترمذي (٢ / ٧) برقم ٢٤١، وحسنه الألباني.

فالتقوى هنا أساس توزيع الحقوق، والبناء الأسري؛ وحتى ينمو الحس الإنساني السليم، فلا بد من ربطه بالتقوى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١).

فكأنه يقول: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي هو سيدكم ومولاكم المحسن إليكم، وتقواه تتم بأن تحذروا أن تخالفوه في التشريعات والنظم التي ما أراد لكم فيها إلا الخير والسعادة، فإن خالفتموها حلت بكم الشقاوة المعيشية، والعداوة بين بني الإنسانية، وأكلتكم الأزمات الطاحنة، وتحولتم إلى مخلوقات متعادية لا تعرفون حقًا، ولا تنكرون باطلًا.

وتبرق عيناك عندما ترى أن هذه السورة بدأت بذكر التقوى ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، في الوقت الذي اختتم الله سبحانه وتعالى سورة آل عمران بالتقوى ضمن الرباعية التي تضمن الفلاح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، فالتقوى هي النظام الرقابي المباشر على الضمير، فإن الإنسان قد يتفلت من الحقوق القانونية، وقد يتفلت من الحقوق الدستورية من خلال الدهاء والمكر والخداع، ولكنه ينبغي أن يفكر: إلى أين سيهرب من الرقابة الإلهية.

وقد يتلاعب بالقانون كما يفعل كثير من الناس خاصة في الأنظمة التي لا توجد فيها تقوى، بل ترى المحامين في تلك البلدان أكثر الناس ثراء، يعلمون كيف يستخرجون الحقوق لأهلها، وأحيانًا يكون الأمر بالعكس؛ إذ يستخرجون حقوق الآخرين المظلومين ليسلموها للظالمين.. بعضهم يعرف كيف ينصف المظلوم من الظالم، إلا أن العامل المؤثر قدرة المحامي على التلاعب بالقانون، والتحايل عليه ليكسب قضيته ولو كان صاحبه ظالمًا، وذلك ليحقق المحامي الثراء والشهرة

معًا.. وذلك لا يكون عند صاحب الرقابة الذاتية.. إنها رقابة الضمير وخشية الرحمن بالغيب، وهو الذي نسميه عندنا بهذا المصطلح البديع الرائع التقوى.

لا تذهب نفسك المتأملة قبل أن تجمع بين الأساسين السابقين في الآية: أساس عالمية الخطاب القرآني، وأساس التقوى التي تجعل القانون فَعَّالًا في الحق نفسه لا فيما يسميه الناس حقًّا.. وأعد معي قراءة الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١) لترى أنك لا تتوارى خجلًا حين تلتقي بغير المسلم وتطلب منه أن يتقي الله بل تعتز بذلك وتخبره بما هو عنه غافل من أهمية استحضار التقوى في الحياة الشخصية والعامة، ولأنها العاصم من التلاعب بالقوانين وقد عرفها علماؤنا بقولهم: ألا يجد الخلق في خلقك عيبًا، ولا يجد الملك الحق في سرك ريبًا. وما يستوي الأعمى عن القرآن الذي يقابل غير المسلمين فلا يحدثهم بما يريد القرآن أن يحدثهم به، والبصير الذي يسمع الله يأمر العالم بالتقوى، فيبادر في حركته الأولى قبل الأخرى ليعلم الناس بالكنوز الإسلامية التي يحتاجونها حتى لو لم يؤمنوا بالإسلام.

ويروعك التكرار للتقوى مرتين في آية واحدة غير طويلة، وذلك لأنها تشمل كل شؤون الحياة، فهو تَعَالَى قَالَ أَوَّلًا: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فأمر بِالتَّقْوَى أولًا لِمَكَانِ الإِنْعَامِ بِالخَلْقِ في البداية وَغَيْرِهِ فهي تقوى عامة فيما بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه، وَفِي الثَّانِي أَمْرٌ بِالتَّقْوَى لِمَكَانِ الأرحام القريبة والبعيدة.

فالأولى تذكير بتقوى الرب المربي، **والثانية** أمرٌ بتقوى الإله المعبود..

تجد في الموضع الأول ذكر الله بوصف الربوبية ليذكرك بتربيته وإحسانه فناسب البدء به؛ إذ كأنه يقول لهم كما رباكم سبحانه وأحسن إليكم فربوا ضعفاءكم وأحسنوا إليهم، وَالثاني ذكر فيه اسم (الله) وهو لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى القَهْرِ وَالهَيْبَةِ والملك والعلو، فَأَمَرَهُمْ بِالتَّقْوَى بِنَاءً عَلَى التَّرْغِيبِ، ثُمَّ أَعَادَ الأَمْرَ بِهِ بِنَاءً عَلَى

التَّرْهِيبِ كَمَا قَالَ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة: ١٦) وَقَالَ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠).

الأساس الثالث:

الرؤية القرآنية للحقوق تقوم على أساس النظر إلى المصلحة الإنسانية في الحياتين: (الفانية، والباقية)، ويُبَصِّرُنا بذلك أن هذا الخطاب العالمي العام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لم يكن إلا في بداية سورتين: (النساء) التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الدنيوية، و(الحج) التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الأخروية.

فأما إحداهما: فهي السُّورَة الرَّابِعَة مِنَ النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ القُرْآنِ، وقرنها بالأمر بالتقوى، ورتب عليها معرفة الطبيعة الحيوية للدنيا، وبين للبشرية ما يجهلونه من كيفية انبثاق الحياة، وخلق الوجود البشري.

وأما الأخرى فهي السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ القُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ (الحج:١)، وقرن الخطاب العالمي بالأمر بالتقوى، ورتب عليها معرفة الطبيعة الحيوية للدار الآخرة فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١). وذكر الحياتين الدنيوية والأخروية ضمن الخطاب العالمي يدل على تأسيس المعرفة البشرية على النظرة الشاملة لحياة (الشهادة) الحاضرة، ولعالم (الغيب) القادم.

الأساس الرابع:

من أعظم حقوق بث الحياة الإنسانية: تكريم المرأة، وبناء الحياة البشرية على هذا التكريم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١)، وهنا تُبصِرُ القصةَ الحقيقيةَ لبدء الخلق الإنساني حيث بدأت على صورة أسرة من زوجٍ وزوجة.. إن الآية تقدم النور الحقيقي لبداية الوجود البشري،

وتساعد القوى الظلامية على التوقف عن الفهم الخاطئ للتاريخ، والاتباع الأعمى لخطوات الشيطان.

فهذه الكلمات العظيمة تبصرنا بعدة قوانين واضحة ورائعة في العلاقة بين الرجل والمرأة، ومن خلالها تظهر حقوق النساء، فلنؤخر تفصيل ذلك إلى القسم الخاص بحقوق النساء، والآية هنا تبصرك ببصيرة ثمينة في تاريخ الحياة الإنسانية حيث تخبرك بالقصة الحقيقية للوجود البشري، فالشيطان يحاول تلقين أتباعه تزوير القصة الحقيقية لبدء نشوء البشرية، فاسمع قول الله مبينًا هذه القصة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، ومعنى ذلك أن الله قد كون العائلة المكتملة المكونة من رجلٍ وامرأةٍ منذ بدء البشرية، فأساس السعادة البشرية باجتماع الرجل والمرأة على الطريقة الفطرية؛ لأن الطرق الأخرى تسبب الدمار الإنساني إذ قد خرجت عن الطريق الفطري، الذي يتم بالتكون من الزوجين، ثم ينبثق عنهما الرجال والنساء، والزوج هو الثاني للنفس أو هو «الفرد الذي له قرين»، فكل واحدٍ من القرينين يقال له: «زوج»، ثم قيل لامرأة الرجل، وللرجل صاحب المرأة: «زوج»، ومن هذين الزوجين انبثقت البشرية رجالًا كثيرًا ونساء، فكل من الرجل والمرأة (زوج للآخر)، فلا تكون الزوجية إلا باجتماعهما، ويضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قانونًا عامًا للعلاقة الجسدية والنفسية بين الرجل والمرأة يظهر منها التكريم الأعظم للنساء، فيقول: «إنما النساء شقائق الرجال»[1].

وانظر كيف نكَّر كلمتي: (رجال) و(نساء)؛ ليدل على كثرة الأنواع وتعددها، أي: في أشكالهم، وألوانهم، ووصف الرجال بالكثرة دون النساء مع أنهن ربما كنَّ

(١) أحمد(٦ / ٢٥٦) برقم ٢٦٢٣٨، وقال الأرناؤوط: «حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله وهو ابن عمر العمري».

أكثر إشارةً إلى أنهم أظهر في رأي العين في الحقيقة الفطرية لما لهم من الانتشار وللنساء من الاختفاء والحماية والصيانة والاستتار، على أنك ربما لاحظت أحيانًا الإحصاءات التي تذكر أنه يقابل الرجل الواحد عددٌ من النساء غالبًا، فهن أكثر، بل ربما يقابل الرجل الواحد في بعض الدول امرأتان أو ثلاثٌ، والكثرة وصف ملحوظ للنساء هنا حيث اكتفى بوصف الصنف الأول بالكثرة مع اشتراك الصنف الآخر في الوصف ذاته، والتقدير (رجالًا كثيرًا ونساء كثيرات)، ويمكن القول بأن الله وصف الرجال بالكثرة لأنهم في الغالب الجنس الأقل حسب المشاهدة الواقعية، ولم يصف النساء بالكثرة لوضوح ذلك في الواقع، كأنه يقول: وصف الرجال بالكثرة لكثرتهم مع أنهم أقل أمام النساء عند المقارنة، ويبقى هذا الاستنباط محل نظر.

وربط الرجال بالبث لأنهم المكلفون بالانتشار في الأرض لينفقوا على النساء ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠).

الافتخار بالنساء:

فبثَّ من الزوجين رجالًا كثيرًا ونساء.. إلى أين يقودك هذا؟ إلى الافتخار بالمرأة، والشعور بعظمتها في الحياة، فليست المرأة -كما تصور بعض الديانات المنحرفة أو العقائد الضالة- مخلوقًا يُستنكف منه أو يُتلاعب به، ولقد رأيت الحضارات الجاهلية تنسب المرأة إلى النجاسات والرجس والخبث والخيانة.. انظر إلى تكريم المرأة هنا.. فالرجال والنساء خُلِقا من نفسٍ واحدة وزوجها.. وقارن ذلك بإجرام القوانين الوضعية في ذلك الزمان وإجرام الشرائع المحرفة، حيث كانت المرأة عندهم كالسلعة التي تباع وتشترى حتى نسب إلى بعض فلاسفة الحضارة الإغريقية قوله عن المرأة: «إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والانهيار في العالم، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة، حيث يكون ظاهرها جميلًا، ولكن عندما

تأكل منها العصافير تموت من فورها» [١].. وأنا أشك في نسبة هذا الكلام لسقراط، ولكن مفهوم هذه العبارة يُلَخِّصُ النظرةَ الفلسفية للنساء في ذلك العصر، وتعجب كيف يتفاخر الحداثيون بالنهل من فلسفةٍ تكون هذه العبارة أحد قوانينها، وتنقل كارن أرمسترونج في كتابها: (نظرة الإنجيل إلى المرأة: خلق المسيحية للحرب الجنسية في الغرب) أن اللوثريين البروتستانت، في وتنبرج، ناقشوا مسألة ما إذا كانت النساء حقيقة من بني الإنسان، وكان توما الأكويني متحيرًا تمامًا، مثله مثلما كان أوغسطين من قبل، فيما إذا كان هناك داعٍ أن يخلقها (الله)، فكتب يقول فيما يختص بطبيعة الفرد: فإن المرأةَ مخلوق مَعِيب وجدير بالازدراء، ونقلت عن أحد اللقاءات الكنسية في القرن السادس أنه كان على الأساقفة أن يصوتوا على مسألة: «ما إذا كان للنساء أرواح أم لا؟! ولقد فاز اقتراح الموافقة بأغلبية صوت واحد..

قارن بين هذه المواقف وبين قوله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، فالبشرية ترجع إلى زوجين أحدهما هذه المرأة التي يرفع اسمها ووصفها في النظرة القرآنية.

فقول ربك جل جلاله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١)، يظهر لنا انبثاق البشرية من نفسٍ واحدةٍ هي نفس آدم عليه السلام، وأنَّثها نظرًا لتأنيث لفظ: النفس، وكلمة (زوج) في اللغة العربية تطلق على الجنسين، فخلق البشرية من نفسٍ واحدة، ولإتمام التكاثر باجتماع زوجين خلق من هذه النفس الواحدة زوجها، والمراد بزوج آدم: حواء عليها السلام، وسُمِّيَ آدَمُ بذلك لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ أَدِيمِ الأَرْضِ كُلِّهَا بألوانها وأنواعها المختلفة: أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، وبذا اختلفت نفسيات بنيه وأجسادهم، وسُمِّيَتْ زوجه بِحَوَّاءَ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ.

(١) المرأة في التصور الإسلامي ص ١٥٥.

وكلمة ﴿مِنْهَا﴾ تحتمل معنيين:

فقد يكون المعنى ما ذهب إليه الجمهور من أن حواء عليها السلام خلقت من ضلعٍ من أضلاع آدم عليه السلام، وقد استدلوا بإشاراتٍ في النصوص، وأشهر ما استدلوا به ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الـمرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء» [(١)]، والضلع واحدة الضلوع والأضلاع، فالضلوع ما يلي الظهر، والأضلاع ما يلي الصدر، وتسمى الجوانح، ولكن الحديث ليس نصًّا في أن حواء خلقت من آدم عليه السلام؛ إذ يحتمل أن يكون المراد التمثيل الذي يدل على الطبيعة النفسية مثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)؛ إذ تعني الآية أن الإنسان له طبيعة التعجل، ولم يأت نصٌّ ظاهر في هذا الموضوع يقطع بأن حواء خلقت من آدم عليه السلام إنما ورد ذلك في سفر التكوين٢:

٢٠ فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ البَهَائِمِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَجَمِيعِ حَيَوَانَاتِ البَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ، ٢١ فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا، ٢٢ وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ، ٢٣ فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ، ٢٤ لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وأنت تعلم أن حديث بني إسرائيل هنا لا يصدق ولا يكذب لعدم ثبوت ما يدل على أحد الأمرين بشأنه.

وقد يكون معنى الآية: خَلَقَ زوجها مِنْ جِنْسِهَا، فَكَانَ مِثْلَهَا، وهذا مثل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ..﴾ (الروم: ٢١)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٤ / ١٦١) برقم ٣٣٣١.

جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل: ٧٢) أي من أجناسكم، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١١)، وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤) (١).

وفي كلا الحالين فإن هذا يدل على مقدار كرامة المرأة في النظرة الإسلامية، وأنها شقيقة الرجل.

الآية تبين البداية الحقيقية لبث الحياة الإنسانية؛ إذ بدأ مفهوم الأسرة المكونة من الزوج والزوجة مع بداية البشرية، فتدمغ الآيةُ الباطلَ الذي عبرت عنه القصص المزيِّفة للتاريخ.

في بيان كيفية بث الجنس الإنساني من النفس وزوجها ردٌّ واضحٌ على تزييف الوعي الذي تعمل عليه الأدوات الثقافية العالمية التي تزعم أن البشر بدأوا في وضعٍ منحلٍّ مجرم شيوعي تكون المرأة حرة في التنقل بين من شاءت من الرجال، ثم جاءت فكرة العائلة من بعد، ثم يزعمون بعد أن العائلة لما جاءت صارت المرأة أسيرة مستعبدة، وأنها فقدت حريتها بذلك.. هذا الهراء الشيطاني المضاد للبيان الرباني نقله مجموعة من الكتاب الذين ينتسبون للعالم الإسلامي كأنهم يقومون بتنفيذ البرنامج الإداري لخطوات الشيطان، فيختلقون قصصًا لبدء الخلق من عند

(١) ورجح الألباني الرأي الثاني، فقال في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - (١٣ / ١١٤٠) : « وهذا هو الراجح عندي أنه استعارة وتشبيه لا حقيقة، وذلك لأمرين:الأول: أنه لم يثبت حديث في خلق حواء من ضلع آدم كما تقدم، والآخر: أنه جاء الحديث بصيغة التشبيه في رواية عن أبي هريرة بلفظ : «إن المرأة كالضلع» أخرجه البخاري (٥١٨٤) من حديث أبي ذر، وحديث عائشة رضي الله عنهم».

أنفسهم كخرافات الداروينية، أو كما قال قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة: «أورد شيخ المؤرخين (هيروديت) أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة إلى الصدفة، ولا تفترق عما يشاهد بين الأنعام، وكان الشأن إذا ولدت المرأة ولدًا أن يجتمع القوم متى وصل الولد إلى سن البلوغ، وينسبوه إلى أشبه الناس به...» [١].

فلا تلتفت لمؤرخٍ تائهٍ مثل «هيروديت» يتكلم في أمرٍ غيبيٍ بتخرصٍ يتبع فيه الظن وما تهوى الأنفس، لكن املأ نفسك متعجبًا من هذا الذي ينتمي للإسلام «قاسم أمين» ونقل هذا الكلام عن «هيروديت»، ترى هل عرف هذا الإنسان القرآن الكريم؟ هل قرأ آياته لتصور له كيف بدأ الخلق؟ ومن هو هذا الذي استدل به أمام البيان القرآني، والبصائر الفرقانية؟ فالآية تؤكد لك أن الأسرة المركزية صاحبت بداية الخلق، وكانت هذي الفطرة الأصلية.

كما أن إثبات الطريق الزوجي لبداية الخلق سبيلًا واحدًا لتنظيم الله لانبثاث الإنسانية ينبئك عن الجهل الطبق والجرأة في الكلام بلا علم الذي اتسم به فرويد(Freud) حين قال: «فالواقع، الإنسان البدائي كان أحسن حالا إذ لم يعرف قيودا فرضت على غرائزه» [٢]. والرؤية القرآنية تفصل لنا أساس السعادة البشرية من الناحية الاجتماعية فلا تكون إلا باجتماع الرجل والمرأة على الطريقة الشرعية، حيث تتكون الأسرة ثم ينبثق عنها الرجال والنساء.

تبين الآية البداية الصريحة للخلق، والأساس الحقيقي لنمو البشرية، فلا يكون الطريق الفطري للتكاثر الإنساني إلا عبر التقاء الرجل بالمرأة التقاء شرعيًا، فتتكون الأسرة التي تنبثق عنها الإنسانية وفق حقوق وواجبات واضحة، وليس وفق الأنانية

(١) المرأة الجديدة ص١٤.

(٢) العلم في منظوره الجديد ص٧٧.

والجشع والعبث بالشهوات دون التزامات مقابلة، فأي طريقٍ آخر قد يتسبب في الدمار الإنساني إذا خرج عن الطريق الفطري الذي أراده الله سبحانه وتعالى للتناسل البشري.

الأساس الخامس:

منح الله البشرية الحقَّ في (بث الجنس الإنساني في الأرض زمانًا ومكانًا)؛ وكلمة ﴿بَثَّ﴾ تدل على رباعية حقوقية متكاملة هي: (الإظهار) بأن خلقهم من العدم، و(الاستقرار)، و(الإعمار)، و(التكاثر والانتشار)، فالله -تعالى مجدُه- أعطى الإنسانية حق الحياة فخلقها من أصلٍ واحدٍ، وأقام مبدأ الوحدة الإنسانية وفق العدل الرائد لا وفق المبادئ العنصرية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١).

فمعنى كلمة ﴿بَثَّ﴾ [1]: أظهر وفرَّق ونشر، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية: ١٦)، أي بسط كثيرة متفرقة منشورة مقسمة على الأرض، ومثل ذلك قولُه تَعَالَى جده: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ (الواقعة: ٦) فَمَعْنَاه أَي غُبَارًا مُنْتَثِرًا، وقولهم «تَمْرٌ مُنْبَثٌّ أي ظاهر متفرق غيرُ مَكْنُوزٍ، ومن ذلك (البَثُّ) وهو الغَمُّ الظاهر الَّذِي تُفْضِي بِهِ إِلى غيرك، ويظهر عليك فيعالجك ويعاودك كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جده فِي قِصَّةِ يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)، فيُقَالُ: أَبَثَّ فُلَانٌ شُقُورَهُ وَفُقُورَهُ إِلَى فُلَانٍ يُبِثُّ إِبْثَاثًا.

إن هذه الكلمة ﴿بَثَّ﴾ مدهشة حقًا، وترى فيها ما لا يمكن أن تعبر عنه كلمةٌ أخرى، فمعنى كلمة ﴿بَثَّ﴾: أظهر وفرَّق ونشر، ولا يمكن أن يظهر إلا إذا أحيا، ولا يمكن تفريق الرجال والنساء في الأرض إلا إذا لازم ذلك الاستقرار في مرتفق منها لتلتقي النفس وزوجها، ولا بد من إعمار ذلك المرتفق ليظل التكاثر الإنساني قائمًا،

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٧٢)، تاج العروس (٥/ ١٦٢).

والتكاثر مع الاستقرار والإعمار يقتضي وجود حقوق متبادلة بين أبناء الإنسانية على أساس من العدل.

وقوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ينبئك عن عظيم كرم الله جل جلاله حيث خلق الإنسانية من عدم، وأعطاها حق الوجود أي حق الحياة، وهذا الحق عطية إلهية فلا يحق لأحد من المخلوقين أن يسلبه أو ينتقصه بما في ذلك الشخص نفسه، ولذا ستجد السورة تجعل قتل النفس أو قتل الغير جريمة كبيرة في قوله -عزَّ جارُه-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩).

ولم يقف الأمر عند حق الحياة حتى أتبعه بحق البث الإنساني، والبث يعني الانتشار الزماني والمكاني، وهذا يضمن بقاء البشرية على هذه الأرض، فبَثُّ الجنس الإنساني في الأرض من أهم المقاصد الشرعية، ولا تجد كتابًا في الأرض جمعها ورتَّب نظمها وأسسها كما في القرآن المجيد، وقد بين الله مبدأ الوحدة الإنسانية وقصة وجودها الحياتي المادي في أربعة مواضع من الآية الأولى فقط في هذه السورة، وهذا بحد ذاته أمرٌ مدهش فهو في نهاية الإعجاز:

الموضع الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (النساء: ١) فجعل الخطاب عامًّا للعالم كله.

الموضع الثاني: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي نفس آدم عليه السلام

الموضع الثالث: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فمن على الرجال بخلق النساء لهم، ومن على النساء بخلقهن من الرجال للدلالة على كمال الاحتياج وشدة الاتصال، وليكون ذلك من أعظم مظاهر تكريم المرأة، وإعطائها حقوقها ومكانتها.

وبذا ترى الله يظهر قدرته في تنويع كيفية الخلق وفق القسمة الرباعية العقلية:

فمنهم: بشرٌ لا من ذكر ولا أنثى، وهو آدم عليه السلام.

ومنهم: بشر من ذكر فقط، وهي حواء من آدم عليهما السلام على القول بأنها

خلقت من جسده لا من جنسه.

ومنهم: بشر من أنثى فقط، وهو عيسى عليه السلام.

ومنهم: بشر منهما، وهو الطريق المعتاد ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذا هو الموضع الرابع في الآية، فجعل الله هذا البث منهما لا من الرجل فقط، ولا من المرأة فقط، وهذا البث حقيقته النشر، وهو دليلٌ على أن هناك خالقًا هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ فإنك ترى أن الله يخبرك أن هذه المليارات من سكان هذا الكوكب يرجعون إلى نفسٍ واحدةٍ وزوجها، وبذا فلا بد لهم من خالق قادر عليم، ولا بد لأبويهم من خالق قادر عليم يخلق منهما البشرية التي بثت في الأرض.. فالآية تهديك إلى معرفة بداية الخلق كما تهديك إلى الأول الذي ليس قبله شيء -جل مجده-.

وهذا الطريق الفطري في إنشاء الأسر هو الطريق لنمو البشرية، وغير هذا الطريق لا يمكن أن يؤدي إلى نمو البشرية بل قد يؤدي إلى إبادتها واضمحلالها؛ إذ لم يجعل الله غير هذا السبيل للتناسل الإنساني.

جعل الله ضمن السنن الفطرية الطبيعية: وجود الأسرة لتكون نواة للمجتمع، والأسرة تتكون من رجل وأنثى، ووضع الله تعالى خصائص الاشتراك الإنساني بين النسل المبثوث من أول ذكرٍ وأول أنثى.. ماذا يعني ذلك؟ إنه يقيم الصلة الإنسانية العامة فيما بينهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١)، وهذه الأخوة الإنسانية تقتضي حقوقًا وواجبات تظللها الرقابة الإلهية في التطبيق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، ويرتبط الجميع بخالقهم الذي أنعم عليهم بالوجود والانتشار.

فهذه الجمل تبين الرؤية القرآنية لمبدأ الوحدة الإنسانية؛ إذ توجد بين بني الإنسان رابطة نَسَبية يعظمها الإسلام حيث يرجعون جميعًا إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة، وهذه

الرابطة الإنسانية يترتب عليها أربعة قوانين:

القانون الأول: هناك حقوق وواجبات متبادلة بين أفراد الإنسانية للمحافظة على حق الحياة والبث الإنساني الزماني والمكاني:

ولا بد من مراعاة هذه الحقوق والواجبات سواء أكانت معنوية أم مادية.

القانون الثاني: يجب تنمية العاطفة المتراحمة المتساوية بين أبناء الإنسانية سواء قرب الرحم أم بعد؛ إذ لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

وإنك لترى في البصائر القرآنية والشريعة الإسلامية هنا شيئًا مدهشًا: ألم تر أن الله غفر لبغيٍّ لأنها سقت كلبًا، فكيف برحمة الإنسان لأخيه؟ اسمع للقصة يرويها أبو هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِه» (١)، بل إن إزالة أذى عن طريقٍ يمر عليه الإنسان والحيوان يسبب مغفرة الرحمن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» (٢).

إنها العاطفة الإنسانية التي يجب أن يتبادلها بنو الإنسان سببها الرحم البعيدة حيث خلقوا من نفسٍ واحدة، ولقد قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مبينًا شدة العاطفة الرحمية بين الأقارب: «فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا» (٣)، وروى جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه موقفًا رائعًا في التذكير بهذه العاطفة الرحمية: قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢١١) برقم ٣٤٦٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٧٧) برقم ٢٤٧٢.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ٤٧) برقم ٥٢٣٠.

أَوِ العَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَةِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وَالآيَةَ الَّتِي فِي الحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ -حَتَّى قَالَ- وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ -قَالَ- ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فقال الرسول ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»(١).

فاستثار النبي ﷺ همتهم وعاطفتهم بقراءة آية النساء، ولذا ذَكَرَ الله بعد الآية الأولى من سورة النساء حقوق اليَتَامَى وَالنِّسَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، فالقرابة الإنسانية توجب أن يكون بين أفرادها محبة وعطف وشفقة، وحزن على ما يصيب بعضهم من آلام، والله ذكر لهم وحدة الأصل ليعطفَ بعضهم على بَعْضٍ، وَيُحَنِّنَهُمْ عَلَى ضُعَفَائِهِمْ، وقد قيل في بيان هذه الوحدة الإنسانية:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ أَبُوهُمُ آدَمُ وَالأُمُّ حَوَّاءُ
نَفسٌ كَنَفسٍ وَأَرواحٌ مُشاكَلَةٌ وَأَعظُمٌ خُلِقَت فيها وَأَعضاءُ
لا عيبَ للمرءِ فيما أن تَكون لهُ أُمٌ من الرومِ أمْ سوداءُ دعجاءُ
فإن يكن لهم من أصلهم شرف يفاخرون به، فالطين والماء

القانون الثالث: يجب أن يؤسس التفاعل الإنساني على العدل، وتطبيقًا لذلك امتلأت جوانب السورة بتقرير العدل في جوانب الحياة المختلفة.

(١) صحيح مسلم (٣ / ٨٦) برقم ٢٣٩٨، والمجتاب: اللابس، والمذهبة: الشيء المموه بالذهب، النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب.

فأهم أصلٍ في الرابطة الإنسانية رابطة الحقوق القائمة على العدل، ولذا نرى الانتشار العظيم للكلام عن القسط في هذه السورة المباركة﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ (النساء: ٣)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ (النساء: ١٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ (النساء: ٥٨) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣، ١٢٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

القانون الرابع: هناك أخوة إنسانية ثابتة، فيَحْرُمُ ويُجَرَّمُ التمييز العنصري أما التفاوت النسبي فهو للتعارف.

فلا يوجد بشرٌ أعلى من بشرٍ من حيث النسب؛ إذ كلهم من نفسٍ واحدةٍ، وهذا يوجب مراقبة خالق النفس الواحدة لا التكبر والتعاظم بفرعٍ نَسَبِيٍّ لا يوجد له تميزٌ في ذاته عن بقية الفروع، وبذلك أطفأ الله نار التمييز العنصري الذي ما يزال العالم يئن تحت وطأته إلى اليوم.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ -أي كِبْرها- وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ. مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ. أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ

أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلاَنِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ» (١).

فهذه هي الرؤية الإسلامية للوحدة الإنسانية نقدمها لك لتراها بيضاء صافية خالصة هنيئًا للشاربين تضع لك الأمور في مواضعها في الحياة البشرية بحكمة وصدق.. فماذا تقول عندما تقارن بينها وبين العنصرية المرعبة القائمة على مبدأ (الفيتو) الذي تستخدمه مجموعات ودول وتتلاعب من خلاله بالعالم، حيث نرى أبشع صور التمييز العنصري، والتلاعب بمصائر الشعوب؛ إذ جعل مصير العالم في يد خمسة رؤوس تشكل أعلى دول العالم في مبيعات السلاح، ويتم التلاعب بصنع القرار فيها حسب القدرة المالية لكل طرف.. ثم تتحكم هذه الرؤوس الخمسة بالأمن العالمي!! وفق قوانين الغاب، ومنطلقات الشياطين.. وبنوا على (الفيتو) تقسيم صكوك التحصين من المساءلة على الجرائم لمجموعاتٍ محددةٍ من البشر.. كيف تقبل البشرية أن يكون المتحكمون بقضايا الأمن والسلم العالميين هم تجار الأسلحة في الأرض.. كيف تتوقع أن يديروا الأمن العالمي حينها؟ هذه البصائر القرآنية تجتاح -بحمد الله- التمايز الطبقي الظاهر والخفي الذي ما يزال مقننًا إلى اليوم حتى في بلادٍ تزعم انتسابها إلى الإسلام، بل تراه واضحًا فيها أكثر من غيرها.

هل يستوي هذا وقول إبراهام لينكولن في إحدى خطاباته أمام الكونجرس: «سأقول، فإنني لم ولن أكون في جانب إحداث مساواة اجتماعية وسياسية بأي شكل بين العرقين الأبيض والأسود وأنا لم ولن أكون أبدًا في جانب جعل الناخبين أو أعضاء هيئة المحلفين من الزنوج، ولا تأهيلهم لمسك المكاتب ولا لتزويجهم بالبيض، وسأقول بالإضافة لهذا إن هناك فرقًا جسديًا بين العرق الأبيض والعرق الأسود والذي أؤمن أن بسببه سيمنع إلى الأبد الحياة المشتركة بين العرقين من

(١) أحمد (٢ / ٣٦١)، أبو داود (٤ / ٤٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، والجِعلان: جمع الجُعَل وهو حشرة سوداء كالخنفساء تعيش في القذارات.

نواحي المساواة الاجتماعية والسياسية وأنا وكأي رجل آخر أفضل أن يكون منصب الرئاسة بيد العرق الأبيض».

أليس هذا كلام لشيطان تصور بصورة إنسان؟ أليس هو الذي كان يمنح المكافأة المالية (٢٥ دولارًا لكل فروة هندي أحمر)؟ هل يستوي هذا الخطاب وقول الله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١).

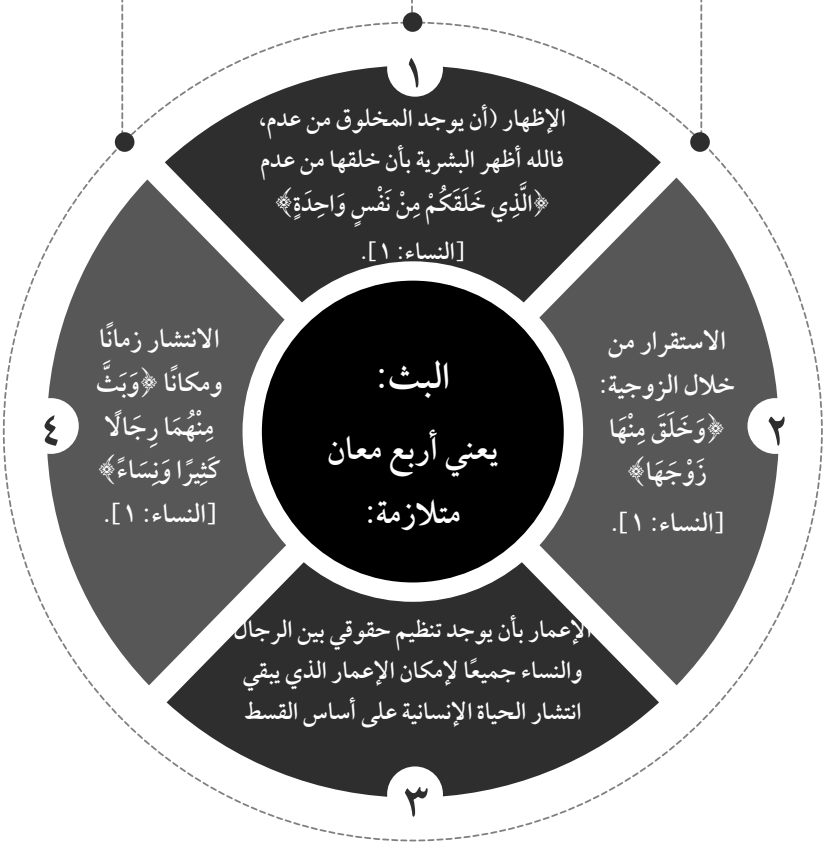
فهذه الرابطة الإنسانية لا تطغى على الرابطة الإيمانية، بل إن الرابطة الإيمانية كما رأيت تقويها وترشدها وتحميها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف: ٦٥)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ (الأعراف: ٧٣).. فجعل الأخوة الإنسانية أخوة قائمة لها حقوق ظاهرة، ويقبل على أصحابها إقبال المحب المتعاطف.

ويقرر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى الحقوقي الإنساني العظيم بعد أن أبصر الأخوة الإنسانية في هذه الآية، فيقول في بيان مشرقٍ: «ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحِّد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، مُعَرِّفًا عباده كيف كان مُبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبِّهَهم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ وجوبَ حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بَعُدَ التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذُل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعني: من آدم»[1].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٥١٢).

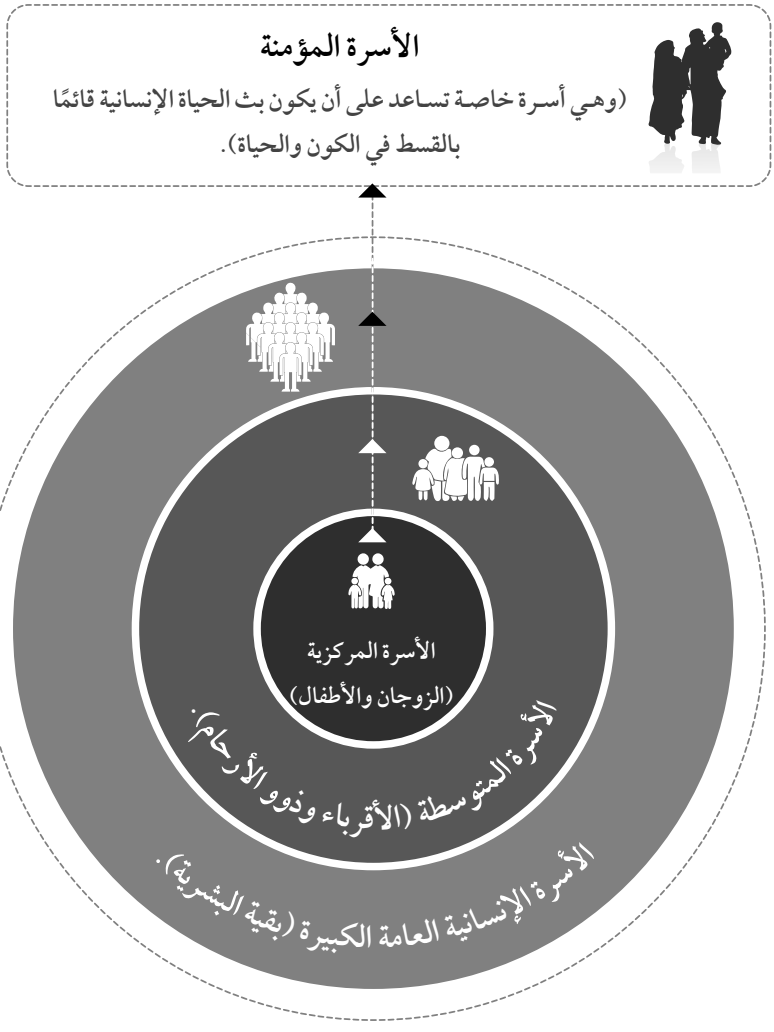
بث الحياة الإنسانية، والتنظيم الحقوقي لها ونصرة المستضعفين وخاصة النساء والأطفال من الاضطهاد

المقدمة النساء (١) : أسس بث الحياة الإنسانية



بث الحياة الإنسانية، والتنظيم الحقوقي لها ونصرة المستضعفين وخاصة النساء والأطفال من الاضطهاد

المقدمة النساء (١) : أسس بث الحياة الإنسانية



شكل (٢) صورة توضيحية للمعاني التي تكتنزها كلمة (البث)، ولتفصيل دوائر الأُسر التي تتكون منها الإنسانية

الأساس السادس:

صلة الأرحام القريبة والبعيدة علامة على صدق الإنسان مع ربه، وصدقه في بناء النظام الإنساني السوي العادل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ (النساء: ١).

والمعنى: بما أن ربكم خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، ورباكم فبث من النفس وزوجها رجالًا كثيرًا ونساء، فاتقوه، واتقوا الله في أرحامكم فأنتم تعظمونه، فيسائل بعضكم بعضًا باسمه كما تتساءلون بالرحم، فلعل هذا بقي لكم من دين إبراهيم عليه السلام، فتقولون: «أسألك بالله، وأنشدك بالله، وأسألك بالرحم التي بيني وبينك»، والأرحام جمع رحم، واسْمُ الرَّحِمِ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ التي هي أساس الصفات الإلهية، ويبين لنا النبي ﷺ هذا الارتباط فيقول: «قَالَ اللَّهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ، وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ» (١).

ويتضح هذا المفهوم الإلهي في تثبيت الصلة الإنسانية بين بني آدم من القراءتين الواردتين في هذه الكلمة؛ إذ يظهران ثلاثة مشاهد:

القراءة الأولى: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ بالنصب، أي: وَاتَّقُوا الأَرْحَامَ فَصِلُوهَا وَلَا تَقْطَعُوهَا أو على الإغراء: والأرحام فصلوها، فهذا المعنى الأول، وهنا ترى أن الله قرن بين التساؤل به وبين الأرحام القريبة والبعيدة بين البشر.

القراءة الثانية: قرأ حمزة: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامِۚ﴾ بالجر، عطفًا للاسم الظاهر على الضمير المجرور في قوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، ولهذه القراءة معنيان: القسم بالأرحام، أي: اتقوا

(١) أحمد (١ / ١٩١) برقم ١٦٥٩، وقال الأرناؤوط: «صحيح لغيره رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبدالله بن قارظ»، وفي البخاري (٨ / ٧) برقم ٥٩٨٩ عَنْ عَائِشَةَ ﵂، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الرَّحِمُ شِجْنَةٌ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ.

الله الذي تساءلون به، وأقسم بالأرحام، وذلك كما أقسمَ الله بالشمس والنجم.. وذلك لتعظيم مكانة الرحم، ولبيان أساس من أسس العطف والتراحم بين الخلق وهو الأرحام القريبة والبعيدة. فهذا المشهد الثاني، أو: واتقوا الله الذي تساءلون به وتتساءلون بالأرحام كذلك فتقولون: أسألك بالله والرحم، أو أسألك بالرحم الذي بيني وبينك، فهذا المشهد الثالث، والسؤال بالأرحام ليس قسمًا بها، بل هو استرحام وحث ليفعل المسؤول الشيء المطلوب، وقد قال النبي ﷺ: «ومن سألكم بالله، فأعطوه»[١]، وهذا كَقَوْلِ السَّائِلِ لِلَّهِ: «أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ، أَنْتَ اللهُ المنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»[٢]، و«أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»[٣]، وَ«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ...»[٤].

وإذا سأل أحدٌ بالله فخدعه المسؤول أو نكل أو نكص يكون قد أتى جريمة كبيرة وأمرًا معيبًا، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: فكما تعظّمون ربّكم بألسنتكم فعظّموه بطاعتكم إياه فيما أمركم ومن أعظم ذلك أن تصلوا أرحامكم، ويكون تكرار التقوى لتعظيم الرحم فكأنه يقول: اتقوا الله في حقوق من خلقوا معكم من هذه النفس، فهذه توصية عظيمة للإنسان بأن يقيم حقوق أرحامه، ويستثمر في طاعة ربه مرور أيامه، ولقد لجأت قريش إلى تذكير النبي ﷺ بالرحم عندما جنت عاقبة بغيها بمنع من أسلم من اللحاق بالمدينة في صلح الحديبية، فَكَوَّنوا فئة ثالثة متحللة من الصلح بين الطرفين، وهاجموا القوافل الاقتصادية القرشية ضمن حرب عصابات، فأرسلت قريش تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَما أَرْسَلَ -يعني إلى من لم يستقبلهم من المسلمين بسبب

(١) النسائي (٥ / ٨٢)، وصححه الألباني.

(٢) سنن أبي داود (٢/ ٧٩) برقم (١٤٩٥)، وصححه الألباني.

(٣) هذا اللفظ في سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٦٧) برقم (٣٨٥٧)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٤) جزء من حديث في مسند أحمد (٦/ ٢٤٦) برقم (٣٧١٢)، وصححه الأرناؤوط.

عهد الحديبية- فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ [١] فعدلت قريش الاتفاقية، وناشدته الله والرحم ليقبل التعديل، ولذا ترى الحث النبوي الحثيث على صلة الأرحام مهما أساءوا، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ، بِخِصَالٍ مِنَ الخَيْرِ: أَوْصَانِي: بِأَنْ لاَ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ المَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَتْ» [٢]، ومثل ذلك حديث حكيم بن حزام ﷺ أن رجلًا: سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل قال: «على ذي الرحم الكاشح»[٣]، (يعني أن أفضل الصدقة على ذي الرحم القاطع، المُضْمِر العداوة في باطنه) ، وقد وضع النبي ﷺ منهجًا جامعًا مدهشًا في تقوية الصلة الرحمية الخاصة والعامة مبينًا أثرها في العمران والتنمية الإنسانية، فقال ﷺ: «إنه من أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار» [٤]. فانظر كيف يُسَعِّرُ بعض المسلمين الحروب على جيرانهم حقدًا وحسدًا أو طلبًا للجاه والسلطة والمال، وتقديمًا لأنفسهم عملاء صدقٍ لمجرمي الأرض ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (يس: ٧٦).

وانظر كيف جمع أرحم الناس بالناس بين منهج الرفق الذي ينبغي أن يكون صفة المحظوظين، وبين صلة الرحم وحسن الجوار، فصلة الرحم للأسرة المتوسطة (الأخوة الرحمية)، وحسن الجوار للأسرة الكبيرة العالمية (الأخوة الإنسانية).

وهنا ترى الجمع المدهش بين الأخوة الإنسانية العامة وبين الأخوة الإنسانية

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٥٨).

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢ / ١٩٤) برقم ٤٤٩، وصححه الأرناؤوط.

(٣) أحمد(٣ / ٤٠٢)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف.

(٤) أحمد (٦ / ١٥٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

الخاصة التي تعبر عنها الأسرة المتوسطة التي تجمع قرابات الرحم؛ إذ يجمع الله بينهما ويجعل بينهما برزخًا لا يبغيان بل يتعاضدان ويتكاملان، فوجود الأخوة الإنسانية العامة التي ذكرها الله في قوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ لا يعني عدم وجود الأخوة الخاصة التي عبر عنها بالقرابات الرحمية، ومثل ذلك العلاقة بين الأخوة الإيمانية والأخوة الإنسانية؛ إذ لا تلغي إحداهما الأخرى، بل إن الأخوة الإيمانية هي نقطة الانطلاق لنشر الرحمة والعدل في الأخوة الإنسانية العامة، وكأنه -جل مجده- يقول: كما تهتمون بالقريب من أرحامكم فاذكروا الرحم البعيد فأعطوها حقها.

نعم إنها صلة الأرحام، وإعطاء الحقوق للأنام: علامة التقوى بقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ فصلة الأرحام علامة التقوى الصادقة.

وربما تتساءل: لماذا ذكر صلة الأرحام وهو يتكلم عن قصة بدء الخلق البشري وتنوع وتناسل الخلق البشري؟ إنه جل جلاله يريد تقنين المصالح العليا لبث الحياة الإنسانية.. يربطهم بنواة بث الحياة الإنسانية، وهي الأسرة المركزية، ثم بالدائرة الأوسع منها، وهي الأسرة المتوسطة أعني ذوي الأرحام، ومن خلال هاتين الأسرتين يتم بث الحياة الإنسانية لتنشأ الأسرة الإنسانية الكبيرة، ولا يتحقق ذلك إلا بصلة الأرحام التي تجمع الأسر الثلاث، ونذكر هنا الواقع المؤلم لأرقى الدول التي تصف نفسها بأنها متحضرة وتزعم أن لديها قيمًا.. يعتبرون من الحظوظ الكبيرة أن يزور الأبناء الأم والأب في رأس السنة، دعك من صلة أرحام الآخرين من ذوي القربى، فكأن ذلك مجرد خيالٍ عندهم.. وهنا تدرك قيمة ذكر الأرحام في هذا الموضع.

ولاحظ أن هذه مقدمة لما سيأتي من حقوق تفصيلية تتعلق بالأرحام، وأولهم الوالدان مما ستفصله السورة.

تنبيه: يتعلق بما نقله حمزة ﵀ من قراءة متلقاة عن النبي ﷺ في هذا الموضع.

ردَّ قراءةَ حمزة رَحِمَهُ اللَّهُ بعضُ النحويين بردودٍ تدل على التعصب لقواعدهم المستنبطة، والجهل بالعلم موجبٌ للجرأة في رد الواضح منه، ولعل هؤلاء القوم يظنون أن القراءات اجتهاد أو خبر آحاد.. لم يعلموا أنها تُلقيت وفق قواعد التواتر القرائي، وإذا كانت القواعد اللغوية المستنبطة من القرآن تمثل أفصح الكلام ما دامت ثبتت تلقيًا وتم تناقلها، وكذلك القواعد اللغوية المستنبطة من القراءات المتواترة التي تمثل وجوهًا لفظية منضبطة للقرآن المجيد، فكيف يحتج إنسان بقاعدة استنبطها على أفصح كلامٍ وأسلمه إسنادًا؟، بل إنه ربما وهم في استنباطه لما قَعَّده أو في سماع شواهدها، أو في استقراء مواردها.

فلا ينبغي مجرد التعرض بالنقد لهذه القراءة بل ينبغي اتهام العقل بعدم استيعاب المعنى الناشئ عن هذه القراءة، على أن القراءة الثابتة تُستنبط منها القاعدة النحوية وليس العكس، وقد ارتكب بعض النحاة خطأ جسيمًا حيث جعلوا القاعدة النحوية حاكمةً على المسموع الثابت في اللغة العربية؛ فالقواعد تُستنبَط من الثابت المنقول من كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ، وما نُقل من كلام العرب، فكيف تجعل القواعد حاكمة على أصلها؟ وبما أن القراءة قد ثبتت فهذا كافٍ لتعديل القاعدة التي وضعها النحويون، ولذا قال الرازي: «وَذَلِكَ يُوجِبُ القَطْعَ بِصِحَّةِ هَذِهِ اللُّغَةِ، وَالقِيَاسُ يَتَضَاءَلُ عِنْدَ السَّمَاعِ لَا سِيَّمَا بِمِثْلِ هَذِهِ الأَقْيِسَةِ الَّتِي هِيَ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ العَنْكَبُوتِ... وَرَدَ ذَلِكَ فِي الشِّعْرِ وَأَنْشَدَ سِيبَوَيْهِ فِي ذَلِكَ:

فَاليَوْمَ قَدْ بِتَّ تَهْجُونَا وَتَشْتُمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

وَأَنْشَدَ أَيْضًا:

نُعَلِّقُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سُيُوفَنَا وَمَا بَيْنَهَا وَالكَعْبِ غَوْطُ نَفَانِفِ»

ثم ترى الرازي يتعجب من التعصب كيف يصنع بأصحابه عندما يجهلون

أصول العلم الآخر فيقول: «وَالعَجَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ النُّحَاةِ أَنَّهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ إِثْبَاتَ هَذِهِ اللُّغَةِ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ المَجْهُولَيْنِ وَلَا يَسْتَحْسِنُونَ إِثْبَاتَهَا بِقِرَاءَةِ حَمْزَةَ وَمُجَاهِدٍ، مَعَ أَنَّهُمَا كَانَا مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي عِلْمِ القُرْآنِ» [١].

الأساس السابع:

تنمية درجة الإحسان في النفوس البشرية لتراقب ربها في أداء الحقوق الإنسانية لأهلها، فيجتمع القضاء والديانة في الالتزام بالمبادئ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

من يضمن أن تُؤدى الحقوق الإنسانية إن تم التلاعب بالقوانين الموضوعة لذلك؟ من يضمن أن تؤدى الأمانات إلى أهلها؟ هنا وضع الله -تعالى في علاه- أنظمة تنفيذية وقضائية تقوم بحراسة هذه المبادئ، ولكنه رحمةً بنا ضمَّ إلى الجانب القضائي الجانب الرقابي الذي يقوم على التدين، فإن تم التلاعب بالجانب القضائي -كما بَرَع في ذلك كثيرٌ ممن ينتسب إلى الإسلام وغيره مؤخرًا- فليذكروا أن الله رقيب على كل شيء، والرقيب [٢] أخص من العليم والسميع والبصير، فهو من: (رَقَبْتُهُ) أي أصبتُ رَقَبَتَه، ولعله من ذلك جاء معنى (رَقَبْتُهُ) أي: حفظته، والرَّقِيبُ: الحافظ، وذلك إمّا لمراعاته رقبة المحفوظ، وإما لرفعه رقبته، وقال تعالى: ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ (ق: ١٨)، وقال: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ (التوبة: ١٠)، والمَرْقَب: المكان العالي الذي يشرف عليه الرقيب، وقيل لحافظ أصحاب الميسر الذين يشربون بالقداح رَقِيبٌ، وتَرَقَّبَ: احترز راقبًا، نحو قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ (القصص: ٢١)، والرَّقُوبُ: المرأة التي لا يعيش لها ولد كأنها ترقبه لعله

(١) تفسير الرازي (٩/ ٤٨٠).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٤٢٧)، مفردات القرآن للراغب (ص: ٣٦٢)، تاج العروس (٢/ ٥١٣).

يبقى لها، فهي تَرْقُبُ موت ولدها لكثرة من مات لها من الأولاد، والناقة التي ترقب أن يشرب صواحبها، ثمّ تشرب، وأَرْقَبْتُ فلانا هذه الدار هو: أن تعطيه إيّاها لينتفع بها مدّة حياته، فكأنه يرقب موته، وقيل لتلك الهبة: الرُّقْبَى والعمرى.

كذا قالوا ﷺ والذي يظهر لي أن الرقيب هو المراقب الحافظ الراصد المترصد القاصد للرؤية والمتابعة المحصي لأفعال من يرقبه، يراقب للحفظ وينتظر الوقت المناسب أو الأجل المسمى ليحدث الأمر المتوقع من غيره، أو ليقوم بالفعل المناسب مع الجهة التي يراقبها، فالرقابة والترقب تقتضي المتابعة والفحص، وانتظار أمرٍ لا بد من وقوعه خيرًا كان أم شرًا، فالمؤمن يقول لمجرمي قومه: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ﴾ (هود: ٩٣)، أي انتظروا أن يحل بكم الوعد الإلهي، وأنا سأنتظر ذلك راصدًا حركات الليالي والأيام غير مكذب للوعد الإلهي الذي أعلم مجيئه قطعًا، وإن لم أعلم موعده.

ومن ذلك قول أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ: ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ [1]، وقولُه تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه: ٩٤) أي لم تحرسه حراسة المدقق الذي يبني الحكم على كل حرفٍ من حروفه، ومن هنا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

وقال:

قالوا وأنت رقيبنا وشهيدنا من فوق عرشك يا عظيم الشان
إنا أبينا أن ندين ببدعة وضلالة أو إفك ذي بهتان

فبعد إقرار تلك الأسس أراد الله -جلَّ في علاه- أن يثبت في نفسك أن الرقابة غير مرتبطة بالصلاة فقط، بل هي قائمة على كل نفس بما كسبت كيفما كان هذا الكسب، فتشمل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ومن أسباب ذكر ذلك أن قطع الأرحام ليس له

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٦) برقم ٣٧١٣.

حدّ في الشريعة، وإن كان يمكن التعزير عليه، لكن الله سبحانه وتعالى هو الرقيب على عباده في دقائق الأمور وجلائلها، فختم بذلك؛ لبيان هيبة مراقبته للخلق.. ويذكرنا أبو العتاهية برقابته، فيقول:

إذا ما خلوْتَ، الدّهرَ، يوْمًا فلا تَقُلْ خَلَوْتُ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
ولاَ تحْسَبَنَّ اللهَ يغفُلُ ساعة وَلا أنَ مَا تخفيه عنه يغيب
لهَوْنَا، لَعَمرُ اللّهِ، حتى تَتابَعَتْ ذُنوبٌ على آثارهِنّ ذُنُوبُ
فَيا لَيتَ أنّ اللّهَ يَغفِرُ ما مضَى ويأْذَنَ فِي تَوْباتِنَا فنتُوبُ

الأساس الثامن:

يرتبط البث التكريمي للحياة الإنسانية بالإيمان بالله الواحد، فهو الذي خلقها وبثها، وإنكار وجود الله إعلان حرب على الإنسانية ذاتها، ويبصرنا بذلك الآية كلها حيث ترجع خلق الإنسانية وبثها واستمرارها في إقامة صلة الرحم الإنسانية برقابة الله جل ذكره، فأعد القراءة وانظر صدى الهيبة المنعكسة عليك عند تلاوتها إن لم تصاحب العناد أو الغفلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)

وأنت ترى عودة مظفرة نحو الإيمان بالله يعبر عنها (روبرت م.أغروس وجورج ن.ستانسيو) في كتابهما (العلم في منظوره الجديد) فيقولان: «أما فيما يتعلق بالدين فالظاهر أن مستقبل النظرة الجديدة يوحي بالعودة بثقافتنا إلى الإيمان بوجود الله الواحد، وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الإنسان»[1].

(١) العلم في منظوره الجديد ص١٣٦.

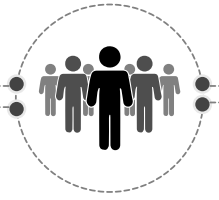
أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية) [النساء:١]

الأساس الأول

عالمية الخطاب القرآني، فهو الخطاب الأكثر أهلية ليحافظ على بث الحياة الإنسانية ويقيم التفاعل الإيجابي الصالح بين أبنائها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والمخاطبة العالمية تقتضي النسبة الإنسانية لا العقدية، فلم يقل يا أيها المؤمنون والكفار.

الأساس الثاني

التقوى صِمام الأمان لإعطاء الحقوق لأهلها، وإقامة القوانين بالعدل في العلاقات الأسرية والبشرية، ومبدأ التقوى ينمي المراقبة الإنسانية، والضمير البشري، ويقيم الأخلاق الحقيقية، ويحمي من التلاعب بالقوانين؛ فقد كرر الله ذكرها مرتين في آية المقدمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، والتقوى تعني اتقاء المخافات المستقبلية القريبة والبعيدة الناتجة عن حساب الله لعباده، وذلك يعني اتقاءه عزَّ جارُه.

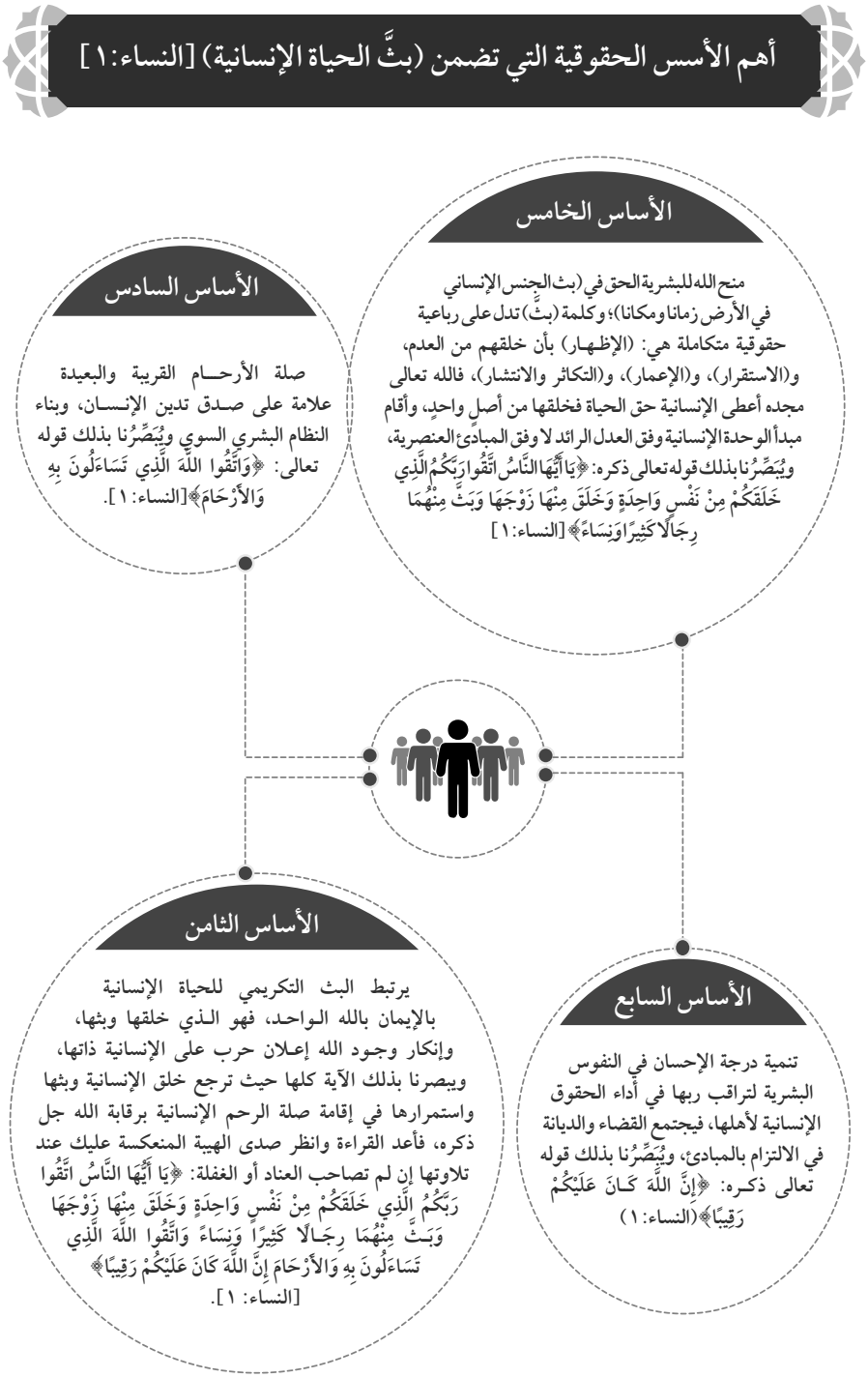


الأساس الثالث

الرؤية القرآنية للحقوق قائمة على أساس النظر إلى المصلحة الإنسانية في الحياتين: (الفانية، والباقية)، ويُبَصِّرُنا بذلك أن هذا الخطاب العالمي العام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لم يكن إلا في بداية سورتين: النساء التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الدنيوية، والحج التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الأخروية.

الأساس الرابع

تكريم المرأة، وبناء الحياة البشرية على هذا التكريم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]، وهنا تُبصِرُ القصةَ الحقيقيةَ لبدء الخلق الإنساني حيث بدأت على صورة أسرة من زوج وزوجة، وهنا تقدم النور الحقيقي لبداية الوجود البشري، وتساعد القوى الظلامية على التوقف عن الفهم الخاطئ للتاريخ، والاتباع الأعمى لخطوات الشيطان.



شكل (٣) أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية)



المحور الأول

التنظيم الإلهي للأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-٤١) «بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث»



فكرة المحور:

الحقوق المالية للفئات المستضعفة في المجتمعات (الأطفال وخاصة اليتامى، والنساء)، وإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث، وترى هذا المحور في الآيات (النساء:٢-١٤)

المناسبة والاتصال:

بين الله جل جلاله في (مقدمة السورة) أهم الأسس التي تضمن بث الحياة الإنسانية، وتكفل تنظيم حقوق أفرادها بالقسط، وتحميهم من الاضطهاد مهما كان ضعفهم، ثم جاء هذا المحور ليكون الأول في السورة، حيث يُفَصِّل الله -تعالى مجدُه- فيه بداية بث الحياة البشرية، والآن تعال معي ليُسفِرَ لك صبحُ البيان عن السبب المنطقي في ترتيب هذا المحور:

اهتمَّ هذا المحور بذكر مرحلة ما قبل نشوء الأسرة، فالإنسانية تنشأ من الطفل ابتداء، والمرأة هي الوعاء المثالي المعجز الذي جعله الله لهذا الطفل قبل وجوده وقبل ولادته، كما أنها أعظم المخلوقات أهلية للاعتناء بالطفل بعد ولادته، ولا تنفرد المرأة بسبيل ولادته؛ إذ لا بد لها من الزواج ليأتي الأطفال، ولا بد لها من الاستقلالية المالية لتستطيع القيام بدورها في تربية الأطفال بعد ولادتهم، ولذا دمج ما يتعلق بحقها ضمن الحقوق المالية والتربوية لليتامى لأثرها الكبير في رعاية الأطفال وخاصة اليتامى.. هنا تدرك لماذا ابتدأ هذا المحور بتفصيل حقوق الأطفال، وخص منهم اليتامى الذين يمثلون أضعف مراحل الإنسان، ثم ذكر الله حقوق المرأة في الزواج المكرم، واستقلاليتها المالية لتمارس دورها في رعاية الأطفال، وفي هذه الأثناء ذكر الله حقوق السفهاء الذين لا يحسنون التصرف من الصغار والكبار والرجال والنساء، وذلك لتأهيلهم والأخذ على أيديهم، لئلا يفسدوا العالم حولهم

بتصرفاتهم غير الراشدة، ولعلهم يتحولون إلى مرحلة الرشد في التصرف.

ولكن كلَّ ذلك يدفع إلى التساؤل عن مصدر الثروة المادية التي يمكن أن يجدها هؤلاء الأصناف الثلاثة: الأطفال، والنساء، والسفهاء، فكان الكلام عن التفاصيل الدقيقة المنظمة لأنصبة الإرث، ولكن وفق ميزان القسط الذي يعدل بين الأصناف الثلاثة وغيرهم من فئات المجتمع، ونصَّ على حقوق النساء والصغار والأخوة للأم في مسائل الإرث، لئلا يستولي الأذكياء والأقوياء على حقوق غيرهم كما ترى في الشرائع والوقائع الجاهلية القديمة والمعاصرة، لكن الشريعة التي نصرتهم وأثبتت حقوقهم أثبتت حقوق غيرهم لوضع كل شيء في موضعه، فجعل بين الفئتين: الضعفاء والأقوياء برزخًا من حدوده الضابطة لا يبغيان.

وبذا تكونت أقسام هذا المحور على ترتيب منطقي دقيق محكم.

وتجد في هذا المحور الحقوق التي تحمي هؤلاء البشر من بعضهم، ومن البيئة التي تحيط بهم، وبدأ بالفئات الثلاث التي تكون عرضةً للاستحواذ عليهم، والمكر بهم، والاستغلال لهم، والتآمر على أموالهم وحقوقهم، والتلاعب بحياتهم حتى من قبل أقرب الناس إليهم.. يمكن أن يتم التلاعب بهم إما بسيف الحياء وإما بسيف الإجبار والإرغام.

فانظر كيف تُثبت الأنوار القرآنية العدلَ في العالم!، لقد ذكر الله -عزَّ جارُه- أهم الحقوق الحيوية للأصناف الثلاثة، ثم خصَّ الله بالذكر تفاصيلَ مواريثهم؛ فَوَقْتُ ما بعد موت أحد المورِّثين يُعَدُّ وقتًا غامضًا يتمكن فيه المستغلون الأقوياء من التلاعب بالأحزان ليستولوا على ما لا يحق لهم، فتأمل مقدار الانتصار الذي تبثه هذه السورة لحقوق المستضعفين، ولا بد من حماية الضعفاء من الأقوياء؛ فالقوة مظنةٌ للغرور والكبر والظلم كما قال المتنبي:

وَالظّلمُ من شِيَمِ النّفوسِ فإن تجدْ ذا عِفّـةٍ فَلِعِلّةٍ لا يَظْلِمُ

وأنت تعلم أن إخوة يوسف عليه السلام قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨)، فجعلوا معيار المحبة ليس الصدق ولا البراءة ولا الإيمان بل القوة، فصارت القوة في البشر مظنة الغرور والبطر.

ولا بد أن نؤكد أننا عندما نقول: (الفئات المستضعفة) فهذا وصف واقعٍ مثل قوله تعالى جدُّه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وكذلك عندما نقول: الفئات المستضعفة في المجتمع، فليس ذلك تنقصًا من شأنهم بل لكبح جماح من هم أقوى منهم، إما باعتبارات جسدية أو باعتبارات وجاهية، فالله سبحانه وتعالى هنا ينصفهم، وبذا يلوح لك النور واضحًا في تقسيم المحور إلى الأقسام الخمسة الآتية:

القسم الأول: الحقوق المالية العامة للطفل (للأطفال اليتامى) (النساء:٢-٣، ٦).

القسم الثاني: من حقوق النساء العامة عند الزواج ليقمن بدورهن في رعاية الأطفال والجنس الإنساني (النساء:١، ٣-٤).

القسم الثالث: حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال (النساء:٥)

القسم الرابع: القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه (النساء:٧-١٠).

القسم الخامس: الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وتحقق العدل في بث الحياة الإنسانية (النساء:١١-١٤).



المحور الأول

التنظيم الإلهي للأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-١٤)

«بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث»

القسم الأول

1

الحقوق المالية العامة للطفل (للأطفال اليتامى) [النساء:٢-٦، ٣]

القسم الثاني

2

من حقوق النساء في الزواج المكرم ليقمن بدورهن في رعاية الأطفال والجنس الإنساني [النساء:١، ٣-٤]

القسم الثالث

3

حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال [النساء:٥]

القسم الرابع

4

القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه [النساء:٧-١٠]

القسم الخامس

5

الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وتحقق العدل في بث الحياة الإنسانية [النساء:١١-١٤]

تسوير السورة: ترى في السورة حشدا من الآيات والمواضيع المتفرقة بادئ الرأي فتظنها لا رابط بينها فمن أراد التذكر المحض بالآيات وجده، أما من أراد الربط المحكم الذي يبين سبب (تسوير السورة) فلا بد من إعمال ذهنه تفكرًا وتدبرًا، ولذا قال الله في سورة النساء ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

فكرة المحور الأول: ما قبل نشوء الأسرة المركزية



شكل (٤) صورة توضح أقسام المحور الأول



القسم الأول

الحقوق المالية العامة لليتامى

(النساء:٢-٣، ٦)

آيات هذا القسم:

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ (النساء:٢-٣).

وقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ (النساء:٦):

الحق الأول: يجب أن تُدفَع أموال اليتامى لأصحابها في وقتها الشرعي

ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الأول لقوله جل ذكره: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ (النساء:٢):

يوجه الله الخطاب للإنسانية مباشرة لبيان مسؤوليتهم في حراسة أموال اليتامى، فيقول: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ فانظر لجوانب القوة والتأكيد على تسليم حقوق اليتامى في هذه الجملة لتسبي لُبَّك، وتنيرَ نفسَك:

فكلمة {آتوا} بمعنى أعطوا فالإيتاء هو الإعطاء إلا أن الذي يظهر لي أن الإيتاء إعطاء مع تهيئة المعطى على الوجه الأمثل ليتناول الشيء الذي سيعطاه مثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ (البقرة: ٥٣) ونحوها تجدها

بلفظ الإيتاء غالبًا لا بلفظ الإعطاء، ومن ذلك إعطاء المستحقين حقوقهم يُعبر عنها بلفظ الإيتاء ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الإسراء: ٢٦)، ولعله لذلك يقال: تأتى له الشيء، أي تهيأ، وتأتى له، أي ترفق وأتاه من وجهه، فالإيتاء إعطاء خاص، وذكر بعضهم أن في الإعطاء دليل التملك بخلاف الإيتاء كما في الفروق، ولا يظهر لي ذلك.

وكلمة ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ تذكر بالحقيقة التي ربما طال الزمان فطويت عن المخاطبين في عالم النسيان.. إنها أموالهم وليست أموالَكم، ونسبها إليهم مباشرة؛ لأن المقام مقام التشريع التقنيني، ويظهر جمال العطف في بيان المعنى؛ فكأن الله قال: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام وآتوا اليتامى أموالهم، فإن ذلك من التقوى.

وإيتاء اليَتَامَى أموالهم يجب أن يكون في وقته الشرعي أي بعد أن يتحقق شرط قدرتهم على إدارة أموالهم مما سيرد في الآية السادسة، ومن ذلك أن يتجاوزوا مرحلة اليتم بأن يبلغوا النكاح.. وهنا لا بد أن تسأل: فكيف سماهم يتامى؟ مع أن النبي ﷺ نفى عنهم صفة اليتم، فعن عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ ﷺ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ، وَلاَ صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»[1]، فهو يبين أن المحتلم لا تجري عليه أحكام اليتيم، فقد خرج من حيز اليتم، فكيف سمي في الآية يتيمًا؟

إنك خبيرٌ بأن اليتامى جمع يتيمٍ، وهو من مَاتَ أبوه فِي حَالِ صِغَرِهِ، كَأَنَّهُ بَقِيَ مُنْفَرِدًا، لَا يَجِدُ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ، فالْيُتْمُ الِانْفِرَادُ، وَمِنْهُ الرَّمْلَةُ اليَتِيمَةُ وَالدُّرَّةُ اليَتِيمَةُ، وهي التي كمل حسنها فلا شبه لها، وَقِيلَ: اليُتْمُ فِي الأَنَاسِيِّ مِنْ قِبَلِ الآبَاءِ، وَفِي البَهَائِمِ مِنْ قِبَلِ الأُمَّهَاتِ، وفي الطير من فقد أبويه، فاليتيم ينفرد عن عائله وحاميه من الأخطار الحيوية الخارجية وهو أبوه، ولذا لم يطلقوا على من فقد أمه يتيمًا لأن كافله موجودٌ،

(١) سنن أبي داود (٣ / ١١٥) برقم ٢٨٧٣.

وإنما وصفهم بأنهم يتامى في الآية ليظهر لنا أكثر من معنى وأكثر من حق في هذه البينات المباركات، فمن ذلك:

أن تكون كلمة (اليتامى) مجازًا باعتبار ما كان، فيمكنك أَنْ تَقُولَ المراد من اليتامى الذين بلغوا أو كبروا، وإنما وصفهم باليتم باعتبار ما كان لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِاليُتْمِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ زَالَ فِي هَذَا الوَقْتِ كَقَوْلِهِ تعالى جده: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٤٦) أَيِ الَّذِينَ كَانُوا سَحَرَةً قَبْلَ السُّجُودِ، وَأَيْضًا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى مُقَارَبَةَ انْقِضَاءِ العِدَّةِ، بُلُوغَ الأَجَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ (الطَّلَاقِ: ٢) وَالمَعْنَى مُقَارَبَةُ البُلُوغِ.

وعندها تقول: وهل لوصفهم باليتم فائدة ثانية؟ لعلك ترى معي أن وصفهم باليتم -وإن بلغوا- يجعل المجتمع باقيًا على أهبته في حراسة حقوقهم وحمايتهم؛ إذ هم حديثو عهد بعالم البالغين وما فيه من مخاطر وربما ابتلعهم المستغلون، فكان هذا الوصف مرققًا للقلوب عند النظر إلى هؤلاء الذين دخلوا مرحلة الرشد في إدارة الأموال حديثًا، وليحدث الإسراع في تسليمهم أموالهم، ففور بلوغ اليتامى وقت الإذن الشرعي وجب أن تُسَلَّم إليهم الأموال.

ولكن مَن المخاطب؟ مَن المكلف بإيتاء اليتامى أموالهم؟ واضحٌ أن الآية لم تحدد جهة الخطاب، وذلك حتى يشمل كل من له علاقة:

فالمخاطب أولًا: هم الأوصياء على اليتامى، وثانيًا: المجتمع رعاة ورعايا، والإنسانية التي تعرف لمبادئ المحافظة على الحقوق الإنسانية معناها، فكلهم ينبغي أن يشرف على عملية تسلم اليتامى أموالهم حَالَ كَوْنِهِمْ يَتَامَى مِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِنَفَقَتِهِمْ، وَكُسْوَتِهِمْ، وينبغي أن يشرفوا على تسليم اليتامى أموالهم بعد أن يصلوا إلى سنة التسلم، وينبغي أن ينتزعوها لهم حال تلاعب الأوصياء بها، فالمجتمع بحكومته

وأمته يدخل في الخطاب، فإن ظلمهم الأوصياء تولى المجتمع إنصافهم.

فإن خطر عليك أن تسأل: ما المال المعطى؟

فهو المال الذي يستحقه الأيتام للإنفاق عليهم حال يُتْمهم، والمال الذي يملكونه فيُدفَعُ إليهم حال بلوغهم عندما يصيرون في وضعية الأهلية لإدارته وتملكه.

الحق الثاني: يجب توريث الصغار الذين أشار إليهم باسم اليتامى مع وجود الكبار، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

فقد روى الطبري عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الَّذِينَ لَا يُوَرِّثُونَ الصِّغَارَ مَعَ وُجُودِ الكِبَارِ فِي الجَاهِلِيَّةِ»، ويكون معنى: ﴿وَءَاتُواْ﴾ عينوا لهم حقوقهم الإرثية التي سيستلمونها بعد البلوغ وإيناس الرشد.

الحق الثالث: يجب حفظ أموال اليتامى من قبل الجهات المختلفة في المجتمع وحمايتها من الأيدي الخاطفة

ويمكن أن يتم ذلك بتعيين هيئات مختصة بهذا الموضوع، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثالث لقوله ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

إذ قال الزمخشري: «يُرَادُ بِإِيتَائِهِمْ أَمْوَالَهُمْ أَنْ لَا يَطْمَعَ فِيهَا الأَوْلِيَاءُ وَالأَوْصِيَاءُ وَوُلَاةُ السُّوءِ وَقُضَاته، وَيَكُفُّوا عَنْهَا أَيْدِيَهُمُ الخَاطِفَةَ حَتَّى تَأْتِيَ اليَتَامَى إِذَا بَلَغُوا سَالِمةً» فأطلق اللَّازِم وهو الإيتاء وأراد الملزوم وهو الحفظ، أَو هو مجَازٌ بالمآل؛ إِذِ الحِفْظُ ينتجُ عنه الإِيتَاء، ولعلك -أيدك الله- ترى معي أن المعنى أوسع مما ذكره الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يجب حفظها من الأيدي الخاطفة، وكذلك من أن تنقص قيمتها بأن تبحث الهيئات المعنية في الكيفية الآمنة لاستثمارها لليتامى.

الحق الرابع: آتوا اليتامى الذين ما زالوا في مرحلة اليتم أموالهم أي أنفقوا عليهم

منها تكريمًا وتأديبًا وتعليمًا وتربية وتزكية

ويدخل في ذلك الحاجات الأساسية من المطعم والمشرب والسكن:

فكلمتا (اليتامى، أموالهم) هنا حقيقة لا مجاز كما ترى، وهذا هو المعنى الرابع، ويكون المعنى ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ حَالَ كَوْنِهِمْ يَتَامَى ممَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من نفقة وكسوة للمطعم والمشرب والكسوة والسكن والتعليم، فاليتامى هنا حقيقة لا مجاز.

الحق الخامس: آتوا اليتامى أموالهم أي أنفقوا عليهم من أموالكم حال عدم وجود مالٍ عندهم؛ لأنه يجب على كل إنسان عنده فضل مال أن ينفق على الضعيف الذي لا مال عنده ولو كان مكلفًا، فكيف باليتيم؟ فاليتامى هنا حقيقة، وكلمة ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مجاز، فهي أموالكم لكن لهم حق فيها؛ إذ أنتم مستخلفون في هذه الأموال، فهذا هو المعنى الخامس لقوله جل ذكره ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾:

فقد صرَّح الله جل ذكره بأن ما في أيديكم من الأموال ليست لكم على الحقيقة، وذلك في قوله جل مجده ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧)، وتكاثرت النصوص في هذا المعنى، ومنها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟»[1].

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٣) برقم ٦٧٢١.

تصور ذلك! فلو عمل المسلمون بذلك لما بقي محتاج ولا يتيم مضيع، وحسبك أن تبكي ألـمًا وقهرًا عندما تسمع عن ضياع أكثر من عشرة آلاف طفلٍ من المهاجرين الذين وصلوا إلى أوروبا ممن تم تسجيلُهم رسميًا، والشرطة تتحدث عن احتمال ذهابهم لعصابات الإفساد من تجار الجنس والأعضاء.. فما بال المسلمين قطعوا أوصال الإنسانية بالحدود الوهمية التي وضعوها بينهم وبين بقية أعضاء الجسد الواحد.. ألا ساء ما يأفكون!

فهذه خمسة حقوق لليتامى تبصرنا بها الجملة الأولى من هذه الآية المباركة، وانظر للثراء البياني فيها، وذاك يعجز عنه كلام البشر ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ (الطارق: ١٣، ١٤).

الحق السادس: يحرم التعامل مع مال اليتيم بالتطفيف، بأن يؤثر الوصي نفسه بطيب المال، ويجعل لليتامى رديء المال، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ (النساء:٢)، وهذه مادة (دستورية – قانونية):

الخبيث [١] مِنْ خَبَثِ الحَدِيدِ وَهُوَ صَدَؤُهُ المفسد لحاله، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا فَأَبْدَى الكِيرُ عَنْ خَبَثِ الحَدِيدِ

وذلك لأنه يدل على فساده، والـمَخْبَثَةُ: الـمَفْسَدَة، جَمَعُه مَخابِثُ. قَالَ عَنترةُ:

نُبِّئْتُ عَمْرًا غيْرَ شاكِرِ نِعْمةٍ والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ

أَي مَفْسَدَةٌ.

فالخبيث ما نسب إلى الـمكروه الـمستقبح في كميته أو كيفيته، مَحْسُوسًا كَانَ أَوْ مَعْقُولًا، ويُوصَفُ بِهذين الوصفين الـمتقابلين (الخبيث والطيب):

(١) مفردات اللغة ص٢٧٢، تاج العروس (٥/ ٢٣٥).

١) الأشخاصُ والكلمات، وفسر بهما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ (النور:٢٦).

٢) وَالأَشْيَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

٣) وَالأَموال، وَمِنْهُ هذه الآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا.

٤) والأعمال، كهذه الآية فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ مَعْنَاهَا: وَلَا تَتَبَدَّلُوا العَمَلَ الخَبِيثَ بِالعَمَلِ الطَّيِّبِ، فتَجْعَلُوهُ بَدَلًا مِنْهُ، سواء في فهمكم للحياة أم دراستكم أم في أعمالكم أم في علاقتكم الاجتماعية، فتقيمون أموركم على الخبيث، بل أقيموا أموركم على العمل الطيب.

٥) والأقوال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (إبراهيم:٢٤)، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم:٢٦).

فيتناول الخبيث المكروه المستقبح من رديء المقال، وخبث الفعال، وأصل الطيب أمران: الحلال الشرعي، والجيد الذي تستلذه الحواس، وتميل إليه الطباع، وتطرب له الأسماع غالبًا.

فالمعنى: لا تستبدلوا الخبيث من المال والتصرف في تعاملكم مع اليتيم بالطيب، ويدخل في هذا الحق مجموعةٌ من الصور:

الصورة الأولى: أموال غيركم وحقوقهم طيبة لهم، لكنها خبيثة بالنسبة لكم إذا أخذتموها منهم بغير وجه حق، وأما أموالكم فطيبة لكم، ومن الخبيث أن تأخذوا مال اليتامى فهو خبيث بالنسبة لكم طيب بالنسبة لهم، فلَا تَسْتَبْدِلُوا الأَمْرَ الخَبِيثَ، وَهُوَ

أكل أَمْوَالِ اليَتَامَى، بِالأَمْرِ الطَّيِّبِ وَهُوَ حِفْظُهَا وَالتَّوَرُّعُ مِنْهَا.

الصورة الثانية: عند إعطاء اليتامى حقوقهم، لا تجعلوا أردأ الأنواع المختلطة بأموالكم للأيتام، ولا تستأثروا بالطيب الجيد، فلا تعطوا زيفًا وتأخذوا جيدًا، لا تتركوا لهم فاسدًا، وتأخذوا حسنًا.

الصورة الثالثة: إن تاجرتم للأيتام، فلا تجعلوا المغنم لكم والمغرم عليهم.

الصورة الرابعة: لا تتلاعبوا بأموال اليتامى، وتتركوا المتاجرة بأموالكم، وهو معنى رائع أشار إليه الطاهر بن عاشور فقال: «لَوِ اهْتَمَمْتُمْ بِإِنْتَاجِ أَمْوَالِكُمْ وَتَوْفِيرِهَا بِالعَمَلِ وَالتَّجْرِ لَكَانَ لَكُمْ مِنْ خِلَالِهَا مَا فِيهِ غُنْيَةٌ عَنِ الحَرَامِ».

الصورة الخامسة: أَنْ يَأْكُلُوا مَالَ اليَتِيمِ سَلَفًا مَعَ التِزَامِ بَدَلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا يَكُونُ مُتَبَدِّلًا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ.

وهذه الجملة القرآنية صورت المال الذي يؤخذ من الآخرين بغير وجه حقٍ: بإنسان ترك الطيب الطاهر زكي الرائحة والمنظر وأخذ بدلًا منه الخبيث المنتن بشع الرائحة والمنظر، فَمَن مِن البشر يفعل ذلك؟

الحق السابع: يحرم أكل مال اليتامى سواء على جهة الغصب الظاهر أم المستتر مثل زعم الاستثمار، ويجب تمييز أموالهم عن أموالكم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء:٢):

وانظر لجمال التعبير حيث قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ولم يقل: ولا تضموا، ولذا انبثق عن هذه البصيرة القرآنية ثلاث صور:

الصورة الأولى: لا تأخذوها غصبًا، فتضيفوها إلى أموالكم، فهو غير الحق الأول لأن الحق الأول فيه المنع من الامتناع عن إيتاء اليتامى أموالهم، والمنع من التثاقل

في ذلك، بينما هنا يخبر الله عن تحريم اغتصابها بضم أموالهم إلى أموالكم.

الصورة الثانية: لا تضموها إلى أموالكم بزعم الاستثمار لهم، على وجه الإرغام لهم، أو الحياء منهم على قبول ذلك، فتخلطوها، فتأكلوها جميعًا.

الصورة الثالثة: لا تنفقوا على ميزانياتكم المشتركة في الأكل والتصرف حتى تميزوا مالكم من مال اليتيم؛ وعند ذلك يمكنكم الحساب الدقيق، والعدل في الأخذ والعطاء والاستثمار؛ ولذا عبر بـ(إلى) إشارةً إلى تضمين الأكل معنى الضم؛ تنبيهًا على أنها متى ضمت إلى مال الولي أكل منها، فوقع في النهي، فحض بذلك على تركها محفوظة على حالها.

وهنا ربما تتساءل: هل القيد بـ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ له مفهوم مخالفة؟ أي هل إذا كان الأكل مطلقًا أو كان إلى غير أموالكم جاز؟

والجواب: بل النهي مطلق سواء أكلتم أموالهم إلى أموالكم أم أكلتموها مطلقًا، فالوصف هنا بقوله{إلى أموالكم} للتوضيح والبيان بذكر الحالة الغالبة في الناس؛ فواقع أكثر الأوصياء أنهم إذا سيطروا على أموال اليتامى أن يضموها إلى أموالهم حيث يقذف الشيطان في أنفسهم الاستفادة من أموال اليتامى لاستثمارها مع أموالهم والاستكثار بذلك، ولفضحهم بأنهم يتلاعبون بمال اليتامى بشتى الأساليب، وهدفهم النهائي ضمها إلى أموالهم، ولذا ذكر الله على إثر هذا الحق: مادةً حاكمةً مُعَظِّمةً فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ (النساء: ٢)، فهذه مادة حاكمة؛ لأن الله يحكم تصرفاتنا بهذا الوصف المعظم لذنب التعدي على أموال اليتامى وحقوقهم، ويبين بأنه حوب كبير أي ذنب كبر حجمه، فاحذروا أن تتساهلوا فيه:

فهذه مادة حاكمةٌ لما سبق، وهي معظمة لتنفيذ تلك الحقوق، وذلك يعني التهديد لمن تساهل في إيتاء الحقوق إلى أهلها، فإن معنى»الحُوب» بالضم مثل

الحَوب بالفتح وهو الإثم، وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوبا. أيسرها أن ينكح الرجل أمه» (١) أي سبعون نوعًا من أنواع الإثم، يقال منه:«حاب الرجل يَحُوب حَوبًا وحُوبًا وحِيَابة»، ويقال منه: «قد تحوَّب الرجل من كذا»، إذا تأثم منه، ومنه قول أمية بن الأسكر الليثي:

وَإِنَّ مُهَاجِرَيْنِ تَكَنَّفَاهُ غَدَاتَئِذٍ لَقَدْ خَطِئَا وحَابَا

ومنه قيل:«نزلنا بحَوبة من الأرض، وبحِيبَةٍ من الأرض»، إذا نزلوا بموضع سَوْءٍ منها، ولعل أصل الكلمة مِنَ التَّحَوُّبِ وَهُوَ التَّوَجُّعُ، وسأل نَافِع بْن الأَزْرَقِ ابن عباس ﷺ عَنْهُ فَقَالَ: هُوَ الإِثْمُ بِلُغَةِ الحَبَشَةِ. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفُ العَرَبُ ذَلِكَ؟ قال: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الأَعْشَى:

فَإِنِّي وَمَا كَلَّفْتُمُونِي مِنَ امْرِكُمْ لأعلمُ مَنْ أَمْسَى أَعَقَّ وَأَحْوَبَا

فَالحُوبُ هُوَ ارْتِكَابُ مَا يَتَوَجَّعُ المُرْتَكِبُ مِنْهُ مما يؤدي إلى الإثم، وأكل مال اليتيم من الإثم الكبير الذي يتوجع منه، فينبغي أن تحذروا من أن ترتكبوا ما يتوجع منه في الدنيا والآخرة، ولا تغرنكم لحظتكم الراهنة؛ فإن الأيام دول.

وكَانَ النَّبِيّ ﷺ يَدْعُو بأن يغسل الله الحوبة فيقول: «رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي» (٢)، ووصف الحوب بالكبر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ لبيان حقيقته، وزيادة تبشيعه، وذلك لأن صفة الكِبَر هنا:

إما أن تكون إيضاحية أي أن أكل اليتامى إثم كبير يورث وجعًا كبيرًا، فالحوب كبيرٌ في ذاته لكنه زاد فوصفه بالكبر إيضاحًا لحقيقة من حقائقه ليزيدك تصورًا لبشاعة

(١) سنن ابن ماجه (٢ / ٧٦٤) برقم ٢٢٧٤، وصححه الألباني، والحديث فيه نظر في إسناده ومتنه.
(٢) أبو داود (١ / ٥٥٨).

اقترافه، وذلك كما وصف الطائر بأنه يطير بجناحيه ليزيدك إيضاحًا لتصوره في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وإما أن تكون الصفة هنا تأسيسية لتميز لك هذا الذنب الذي يتصف بأنه من كبار الذنوب عن اللمم الذي هو صِغارُها، فمن الحوب ذنوبٌ صغيرة ومنه ذنوبٌ كبيرةٌ، وأكل مال اليتامى من الذنوب الكبيرة.

وقد روى مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ: قَدِمْتُ قَدْمَةً مَكَّةَ، فَبَيْنَا أَنَا أَطُوفُ فِي السَّحَرِ إِذَا النَّاسُ يَقُولُونَ: قد جاء قَدْ جَاءَ العَنْبَرِيُّ الزَّاهِدُ، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ جَافُّ المَنْظَرِ دَخَلَ الطَّوَافَ، فَطَافَ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ وَرَكَعَ خَلْفَ المَقَامِ، ثُمَّ أَتَى المُلْتَزَمَ، فَرَفَعَ يَدَهُ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَاحِمِ رَنَّةِ البَاكِينَ، وَقَابِلِ التَّوْبَةِ، وَالمُتَفَضِّلِ بِهَا عَلَى المُسْرِفِينَ، الَّذِينَ أَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ سُيُوبِ تَفَضُّلِهِ، وَأَهْطَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَاءِ بَذْلِهِ، وَفَوَائِدِ نِعَمِهِ وَجَزِيلِ إِحْسَانِهِ! مَا عَجَزَتِ البَرِيَّةُ عَنْ شُكْرِهِ وَالقِيَامِ بِأَدَاءِ حَقِّهِ إِلا بِمَعُونَتِهِ. سُبْحَانَ الَّذِي لا يَمْنَعُ العِبَادَ أَسْبَابَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْهُمْ لَمَّا أَنَابُوا إِلَيْهِ بِمَا أَجْرَمُوا مِنَ الحَوْبَةِ، وَلَمْ يَعْجَلْ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ، وَهُوَ يَرَاهُمْ يَتَمَرَّسُونَ بِمَعَاصِيهِ لِغَضَبِهِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتُرُ عَلَيْهِمْ بِسِتْرِهِ، وَيَتَوَدَّدُهُمْ بِإِنْعَامِهِ، وَيَتَحَبَّبُ إليهم بدوام إِحْسَانِهِ، ثُمَّ فَتَحَ لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى شَوْقِهِمْ إِلَيْهِ بِحُسْنِ مَوْعِظَتِهِ ؛ فَقَالَ لِمُسْرِفِي عِبَادِهِ: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣)، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ﴾ (البقرة: ١٨٦)، وَقَالَ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ (غافر: ٦٠) !

فَسُبْحَانَ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَى مَنْ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ، وَيَتَحَبَّبُ بِالنِّعَمِ إِلَى مَنْ يَتَبَغَّضُ بِالمَعَاصِي إِلَيْهِ ؛ فَأَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ أَسْأَلُهُمْ لِمَا لَدَيْهِ. إِلَهِي ! أَنَا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدَيْكَ، هَا أَنَا قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُتَوَسِّلٌ بِكَرَمِكَ إِلَيْكَ، لا تَزِلَّنِي عَنْ مَقَامٍ أَقَمْتَنِي فِيهِ، وَلا تَنْقُلْنِي إِلَى مَوْقِفِ سَلامَةٍ مِنْ نِعَمِكَ إِلا أَنْ، أَتَنَصَّلَ إِلَيْكَ مِمَّا كُنْتُ أُوَاجِهُكَ بِهِ

مِنْ قِلَّةِ اسْتِحْيَائِي مِنْ نَظَرِكَ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ ذُنُوبِي الَّتِي ابْتَزَّتْ قَلْبِي حَلاوَةَ ذِكْرِكَ، وَأَطْلُبُ العَفْوَ مِنْكَ ؛ إِذِ العَفْوُ نَعْتٌ لِكَرَمِكَ. يَا مَنْ يُعْصَى وَيَرْضَى كَأَنَّهُ لَمْ يُعْصَ ! يَا حَنَّانًا لِشَفَقَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَنَّانًا بِلُطْفِهِ، وَمُتَجَاوِزًا بِعَطْفِهِ عَنْ خَلْقِهِ ! طَهِّرْ قَلْبِي مِنْ أَوْسَاخِ الغَفْلَةِ، وَانْظُرْ إِلَيَّ نَظَرَكَ إِلَى مَنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ، واستعملته بمعونتك فأطاعك، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، وَهَبْ لِي صَبْرًا وَيَقِينًا، وَاغْفِرْ ذَنْبِيَ العَظِيمَ، وَتَجَاوَزْ لِي عَنْ سَيِّئَاتِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. قَالَ: فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى عَرَفْتُ مَوْضِعَهُ ؛ فَكَتَبْتُ عَنْهُ هَذَا الدُّعَاءَ وَغَيْرَ هَذَا مِمَّا كَانَ يَدْعُو بِهِ عَنْدَ المُلْتَزَمِ فِي أَوْقَاتِهِ [1].

الحق الثامن: يجب التعامل المقسط مع اليتامى، ولو اقتضى ذلك البحث عن أكثر من زوجة ليكنَّ عونًا على رعاية اليتامى بالقسط، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الأول لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء:٣).

فيدخل في ذلك ثلاث صور:

الأولى: وإن خفتم ألا تقسطوا في رعاية اليتامى لأن زوجة الواحد منكم لا تستطيع القيام بذلك فانكحوا معها من النساء مثنى وثلاث ورباع ليساعدنكم على بث الحياة الإنسانية برعاية اليتامى:

فقد يكون الإنسان وصيًّا على يتيمٍ في حجره يربيه؛ لأن أباه أسند إليه تربيته، وقد يشعر المرء بواجبه تجاه الإنسانية، فيضم إليه بعض اليتامى، ويقوم بتربيتهم، لكنه لا يجد عند زوجته الاستعداد أو القدرة على إعانته في هذه المهمة العظيمة، فلينكح معها من النساء مثنى وثلاث ورباع ليكن عونًا له على أداء واجبه الرائع العظيم.

(١) المجالسة وجواهر العلم (٦ / ٢٥٠) برقم٢٦١٤.

الثانية: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لأن زوجاتكم يأبين ذلك حرصًا على مصلحتهن الخاصة، فاتركوهن، وانكحوا ما طاب لكم غيرهن فإنه يحل لكم ذلك مثنى وثلاث ورباع:

فربما تشوق الإنسان ليقوم بواجبه تجاه اليتامى، فيبتلي بزوجةٍ تأمره بما يسوء، وتخوفه من عواقب الفقر، وتنهاه عن البر، فأمر الله بالإقساط مع اليتيم حتى ولو اقتضى الأمر أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، فالمعنى هنا ينصب على ضرورة القيام بحق اليتيم وإزالة العوائق التي تمنع من إشاعة التعاون على البر والتقوى في الأرض، ولو كانت من أقرب الناس.

الثالثة: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لأن اليتامى لا يمكن صلاحهم إلا بالزواج من أمهاتهم الأرامل فانكحوا لأجل هذه المهمة الإنسانية من النساء مثنى وثلاث ورباع:

كم هو مدهش هذا البيان القرآني.. تصور كم في هذا الارتباط الشرطي الفريد من معانٍ في بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الحقوقي.

فأول ما ينبغي أن نعرفه لإدراك المعاني الكلية في هذه الآية أن نتعرف إلى معنى كلمة {تقسطوا} [1] فهي من الإِقْسَاطِ ويرجع إلى القِسط بكسر القاف، وهو العَدْلُ وَالنَّصَفَةُ، فالقسط هو النَّصِيبُ العادل، فتقول: قسطي كذا وكذا، وتقسطنا الشيء بيننا، ولأن الأصل أن كل واحدٍ يحصل على نصيبه، صار القسط يعني العدل، ولذا قال تَعَالَى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ (النِّسَاءِ: ١٣٥)، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ (الأعراف٧: ٢٩)، ويقال منه أقسط يقسط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢)، والقسطاس: الميزان.

(١) تاج العروس٢٠/ ٢٤، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٠٣)، مقاييس اللغة (٥/ ٨٥).

ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ فِي القِسْمَة فَقَط، أَقْسَطْتُ بَينهم، وأَقْسَطْتُ إِليهم، ولذا فرق في الحديث بين العدل والقسط، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش. إن لهم عليكم حقًّا، ولكم عليهم حقًّا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، (وفي رواية أبي موسى: وإذا قسموا أقسطوا)، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (١).

والقِسْطُ: القِسْمُ من الرِّزْق الَّذِي هُوَ نَصِيبُ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وبه فسرت كلمة القسط في قول رَسُول اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ» (٢)، وخَفْضُهُ: تَقْلِيلُه، ورَفْعُه: تَكْثِيرُه، وقِيلَ: القِسْطُ، فِي الحَدِيثِ: المِيزَانُ، أَرادَ أَنَّ الله تَعَالَى يَخْفِضُ ويَرْفَعُ مِيزَانَ أَعْمَالِ العِبَادِ المُرْتَفِعةِ إِليه، وأَرْزَاقهم النّازِلَة من عِنْده، مَا يَرْفَعُ الوَزّانُ يَدَه ويَخْفِضُها عِنْد الوَزْنِ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لما يُقدِّرُه اللهُ تَعالَى ويُنْزِلُه.

أما القَسط بفتح القاف فهو الجور، والقسوط: العدول عن الحق، يقال قسط، إذا جار، يقسط قسطا. والقَسَطُ: انْتِصَابٌ فِي رِجْلَي الدَّابَّةِ، وذلِك عَيْبٌ خلقي فيقال لصاحبه الأَقْسَط، والنّاقَةُ قَسْطَاءُ، وتَقُول: اللهُ يَقْبِضُ ويَبْسطُ، ويُقْسِطُ وَلَا يَقْسُط،

فقسط وأقسط كلاهما مشتق من نفس المادة مع اختلاف حركة القاف، فَإِذَا قَالُوا: قَسَطَ بِمَعْنَى جَارَ أَرَادُوا أَنَّهُ ظَلَمَ صَاحِبَهُ فِي قِسْطِهِ الَّذِي يُصِيبُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ

(١) أحمد(٣ / ١٢٩) برقم١٢٣٢٩، ورواية أبي موسى في أحمد(٤ / ٣٩٦) برقم ١٩٥٥٩، وصححه الأرناؤوط لغيره، والمعنى الذي أذهب إليه في قوله ﷺ: «الأئمة من قريش» أن الأئمة بعده سيكونون من قريش؛ لأن العرب تسلم لهم، وذلك مقترنٌ بفترة زمنية محدودة يقوم فيها هؤلاء الأئمة بالشرط المذكور، وإلا فإنه لا يعني اشتراط أن يكون الحاكم قرشيًا كما ذهب إليه بعض العلماء، فكيف يستقيم ذلك، والنبي ﷺ ذاته يذكر إمكانية تولي الحكم لمن يكون حبشيًا؟.

(٢) صحيح مسلم (١ / ١١١) برقم ٤٦٣.

قَالُوا: قَاسَطْتُهُ إِذَا غَلَبْتَهُ عَلَى قِسْطِهِ، فَبُنِيَ قَسَطَ عَلَى بِنَاءِ ظَلَمَ وَجَارَ وَغَلَبَ، ومنه قول الله تعالى جده: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن: ١٥)، وَإِذَا قَالُوا: أَقْسَطَ فَالمُرَادُ أَنَّهُ صَارَ ذَا قِسْطٍ عَدْلٍ، فالهَمْزَةُ فِي (أَقْسَطَ) لِلسَّلْبِ والإزالة للظلم المفهوم من الفعل الماضي، ومثل ذلك: شَكَا وَأَشْكَى، فَإِنَّ أَشْكَاهُ بِمَعْنَى أَزَالَ شَكْوَاهُ، كما في حديث خَبَّابٍ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّلاَةَ فِي الرَّمْضَاءِ فَلَمْ يُشْكِنَا [1] أي لم يزل شكوانا، فقسط ظلم، فإذا دخلت الهمزة أزالت الجور، فيكون معنى أقسط أزال الظلم يعني عدل، ومن ذلك قول اللَّه تَعَالَى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)، فأقسط مثل أَنْصَفَ إِذَا أَتَى بِالنِّصْفِ وَالعَدْلِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَقَسْمِهِ.

وبذا رأيت أن القسط هو العدل في تقسيم الأنصبة الحيوية التي تتعلق باليتامى مالًا، ومعاملة، وسكنًا، وتعليمًا، وتأديبًا.

الحق التاسع: يجب التعامل المقسط مع اليتيمات بحمايتهن من أن يستغل الوصي سلطته لإجبارهن على ما لا يردنه مثل إجبارهن على الزواج دون رضا أو إقساط، فإنه يمكن لمن يريد الزواج منهن أن يتزوج سواهن مثنى وثلاث ورباع، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ (النساء:٣).

والمعنى: وإن خفتم ألا تقسطوا في إنكاح اليتيمات منكم أو من غيركم فاتركوهن وانكحوا ما طاب لكم في حدود الأربع:

وتبين المعنى الثاني لهذه الآية أم المؤمنين عائشة ١، فسألها عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عن هذه الآية فقَالَتْ: هِيَ اليَتِيمَةُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فِي إِكْمَالِ

(١) صحيح مسلم (٢ / ١٠٩) برقم ١٤٣٦.

الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ قَالَتْ: فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ أَنَّ اليَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا وَلَمْ يُلْحِقُوهَا بِسُنَّتِهَا بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ المَالِ وَالجَمَالِ تَرَكُوهَا وَالتَمَسُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ. قَالَ: فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا الأَوْفَى مِنَ الصَّدَاقِ وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا [١].

فالمعنى: إن كنتم لن تقسطوا لليتيمة في زواجها والتعامل معها فلا تستغلوا ضعفها وتجبروها على الزواج منكم بل ابحثوا عن غيرها؛ إذ يجوز لكم أن تتزوجوا مثنى وثلاث ورباع.

وهذا المعنى ذكرناه لأن عالمة الدنيا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكرته، مع أن فيه تخصيصًا لمفهوم اليتامى، واقتران الشرط.

الحق العاشر: يجب المحافظة على مال اليتيم، ولذا لا يجوز أن تجاوزوا الأربع في الزواج، وسبب المنع من الزيادة المحافظة على مال اليتيم، ولذا قرن التعدد بالإقساط في اليتيم، وهذا هو المعنى الثالث للآية:

فقد كان بعض أولياء اليتامى في قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدمًا، مال على مال يتيمه الذي في حجره، فأنفقه، أو تزوج به، فقيل لهم: إن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها، من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مُؤن نسائكم، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربعٍ، وإن خفتم أيضًا من الأربع أن لا تعدلوا في أموالهم، فاقتصروا على الواحدة، أو على

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١١).

ما ملكت أيمانكم، وهذا التفسير نقل عن ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير [١].

فهذه ثلاثة معانٍ للآية تبصرنا بثلاثة حقوقٍ لليتامى، وكلها بصرنا بها الاقتران العجيب بين الشرط وجزائه في الآية، وأنت ترى أنني شاركتك هذه المعاني الثلاثة هنا لأننا نريد ما يتعلق بحقوق اليتامى، وتبقى بقية معانٍ في الآية تأتي عندما نذكر حقوق النساء المالية في الزواج حيث بدأت بداية تفصيلية اعتبارًا من هذه الآية، فهل لك أن تصبر معي قليلًا فنرجئ الكلام عن حقوق النساء لنستكمل صورة الكلام عن حقوق اليتامى، وننتقل إلى الآية السادسة التي توضح بقية حقوق اليتامى، وعندما نتحدث عن حقوق النساء نحاول معرفة سبب قطع الاتصال بين ما سبق من حقوق اليتامى، وما ذكر في الآية السادسة.

الحق الحادي عشر: يجب أن تتعاضد قوى المجتمع ومنهم النساء على القيام بحقوق اليتامى وتأهيلهم، ويُبَصِّرُنا بذلك جليًّا التداخل المذهل بين حقوق النساء وحقوق السفهاء وحقوق اليتامى، فقبل ذكر حقوق اليتامى في تهيئة الآلية المناسبة لدفع الأموال إلى اليتامى جاء ذكر حقوقٍ للنساء وحقوقٍ للسفهاء.

وهنا تجد الاتصال المدهش، والانفصال اللافت في الوقت ذاتـه.. (إنه الإحكام القرآني):

هنا يدهشك هذا الانفصال بين حقوق اليتامى: إذ ذكرت الآية الثانية والثالثة حقوق اليتامى ثم جاءت الثالثة فدمجت حقوق النساء في حقوق اليتامى، فقال الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣) ثم استطرد فمضى في ذكر حقوق النساء في الآية الثالثة والرابعة، ثم تراه ذكر حقوق السفهاء في الآية الخامسة ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٥٣٤).

فِيهَا﴾ (النساء: ٥) ثم عاد لذكر حقوق اليتامى في الآية السادسة ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ (النساء: ٦). إنه حقًّا أمرٌ يدفعك للتساؤل: فلماذا فصل بين حقوق اليتامى بذكر حقوقٍ للنساء وحقوقٍ للسفهاء؟

أما إدخال الكلام عن حقوق النساء قبل إتمام حقوق اليتامى فالذي يظهر لي أن ذلك لأهمية العمل النسوي في القيام بحقوق اليتامى، ولأثرهن البالغ في تربية اليتامى وتأهيلهم.. فإن توفرت حقوقهن كان ذلك أحرى أن يقمن بواجبهن في صيانة حقوق اليتامى على أحسن وجه.. لا جرم فقد استحققن أن يدخل الكلام عن بعض حقوقهن قبل استكمال حقوق اليتامى الخاصة بآلية دفع أموالهم إليهم.

وأما إدخال الكلام عن حقوق السفهاء الذين لا يستطيعون التصرف الراشد في إدارة الأموال؛ فلأن الكلام عنهم مقدم على دفع الأموال لليتامى؛ إذ يدخل في السفهاء اليتامى الذين لا يستطيعون التصرف الراشد في الأموال، وهم يحتاجون إلى إشرافٍ خاصٍّ لئلا يفسدوا أموالهم ويفسدوا المجتمع معهم.. لا جرم إذن أن يتم تقديم الكلام عنهم قبل استكمال الكلام عن حقوق اليتامى، لئلا يظن المستمع أن الأوامر المتتابعة السابقة في رعاية اليتامى ودفع أموالهم لهم تعني أنه يجب أن تُدفع الأموال لهم ولو كانوا سفهاء، فاستحق الأمر تقديم الكلام عن حقوق السفهاء قبل إكمال حقوق اليتامى، فإذا تعاضدت قوى المجتمع ومنهم النساء على الإعانة في القيام بحقوق اليتامى يأتي الحق الذي تنص عليه الآية السادسة، وهو:

الحق الثاني عشر: يجب تأهيل الأيتام للتصرف الراشد، واختبارهم المرة بعد الأخرى للاطمئنان على تصرفهم المالي الراشد، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ (النساء:٦)، واليتامى أنموذجٌ لتأهيل غيرهم عند وجود الاستعداد الذاتي.

المناسبة في عدم اتصال هذا الحق بحقوق اليتامى السابقة، واتصاله بذكر حقوق

النساء في الزواج والمهر، وحقوق السفهاء:

تكلم ربنا -عزَّ جارُه- عن حقوق السفهاء قبل هذه الآية، فلماذا خص اليتامى هنا بالذكر مع أنه يمكن التعامل بالمثل مع السفهاء؟ والجواب:

أما أولًا: فلأن اليتامى أنموذج لتأهيل غيرهم عند وجود الاستعداد الذاتي.

وأما ثانيًا: فلأن اليُتْمَ ينتهي بالبلوغ، وغالبًا ما يوجد الاستعداد الذاتي عند اليتامى للتعلم والتأهل للتصرف الراشد، أما بقية السفهاء فقد يكون الاستعداد الذاتي عسرًا؛ إذا لازمتهم السفاهة في الكبر، فلذا خص الأيتام.

ومن هنا نعرف المناسبة والاتصال مع ما قبلها:

فبعد أن منع الله تعالى الأولياء والأوصياء من إعطاء السفهاء الأموال، ومنهم السفيه في التعامل المالي من الأيتام، فهل معنى هذا منع اليتيم من أخذ ماله مطلقًا؟

يجيء الجواب في هذه الآية استكمالًا لحقوق اليتيم، فمن حقوق اليتامى على المجتمع القيام على تأهيلهم أثناء فترة يُتْمهم؛ ليتمكنوا تدريجيًا من التصرف الحكيم في الأمور المالية، والحيوية، كما يعني الكف عن التعامل معهم باعتبارهم صغارًا فقط، بل يُنَمَّى الحس الراشد الناضج الذي معهم فيهم، حتى إذا حان الوقت المناسب، فصاروا أهلًا للتصرف فيها بالبيع والتجارة والاستثمار، أُعطوا أموالهم.

كيف يتم ابتلاء اليتامى؟

أولًا: يتم ذلك بأن يُدْفَعُ لِلْيَتِيمِ شَيْءٌ مِنَ المَالِ يُمْكِنُهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ، ويختبر في طريقة إدارته.. ويكون ذلك بما يتناسب مع ما ورثه كأن يعطى النفقة للدار شهرًا، أو التعامل مع الموظفين ورأس المال في الشركة التي ورثها لأشهر تحت إشراف لينظر كيفية فعله.

ثانيًا: وهذا يقتضي أن يقوم الوَلِيُّ بإحضار اليتيم ليشهد المُعَامَلَاتِ المَالِيَّةَ المختلفة، ويشارك مشاركة اختبارية في الصفقات التجارية والإدارية التي تتناسب مع حجم إرثه، ويختبره بتوجيه الأسئلة عن كيفية التصرف في المسائل المتشابكة، وعندها يتبين الرشد من الغي.

ثالثًا: ومثل ذلك إِنْ كَانَت بِنْتًا فيُفَوَّضُ إِلَيْهَا مَا يناسبها من التصرفات المالية، والتدبيرات المنزلية، والمشاركات المجتمعية الاقتصادية والاجتماعية، ويظهر عند ذلك مقدار وعيها لكيفية إدارة أموالها.

رابعًا: رأى الشافعي ضرورة الِاخْتِبَار فِي الدِّينِ أثناء ذلك بأن يتم التأكد من الحد الأدنى من محافظته على دينه، والظاهر وجوب ذلك ضمن الاختبار خلافًا للطاهر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ قد ظهر من أحوال غير المحافظين على الحد الأدنى من الدين تدمير مقدرات المسلمين.

الحق الثالث عشر: يجب أن تُدفع أموالُهم إليهم عند اكتمال تأهلهم، وليس قبل ذلك، ويُبَصِّرُنا بذلك الله -جل مجده- في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ (النساء:٦) ويظهر تأهلهم بتوفر شرطين.

الشرط الأول: شرط القدرة الجسدية، وعلامتها بلوغ القدرة على النكاح المذكور في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَۖ﴾ وذلك يختلف من شخصٍ لآخر:

أي حتى بلوغ القدرة الجسدية على النكاح، ، فقد يكون في عمر الثانية عشرة وعنده القدرة الجسدية على النكاح، وقد تأتيه القدرة الجنسية في غير هذا التوقيت، كما يختلف ذلك حسب الجنس فقد يكون بلوغ النكاح للأنثى أسرع، كما يختلف حسب اختلاف الزمان، إذ بلوغ النكاح يختلف من شخص لآخر، ويكون بلوغ النكاح عادةً عند وصول الإنسان إلى سن البلوغ، وحسب قول علماء الإنسان فإن

هذا السن هو الفترة التي تبدأ الغدد التناسلية فيها بإفراز هرموناتها الجنسية وتصبح لها المقدرة على إنتاج النطف المنوية «عند الرجل» والبويضات «عند المرأة» الأمر الذي ينتج عنه عددٌ من التغيرات الجسمية، والعمر الطبيعي لبداية البلوغ عند المرأة بين سن الثامنة والثالثة عشرة، بينما هو في الرجل بين سن التاسعة والرابعة عشرة حسبما يذكرون، والبلوغ عند الفقهاء له خمس علامات:

علامتان يشترك فيهما الذُّكُور وَالإِنَاث، وَهُما الِاحْتِلَامُ، وَنَبَاتُ الشَّعْرِ الخشن على العانة، وعلامتان تخْتَصَّانِ بِالنِّسَاءِ، وَهُمَا: الحَيْضُ وَالحَبَلُ، ولكن العلامات تبقى علامات والعبرة بالبلوغ الحقيقي؛ فإن لم توجد إحدى هذه العلامات فيتم البلوغ بالوصول إلى السن المخصوص لكلا الجنسين، والسن المخصوصة اختلف علماؤنا فيها:

فالشافعية والحنابلة وأبو يوسف ومحمد من الأحناف قالوا: سن البلوغ خمسة عشر عامًا، وذهبت المالكية إلى أن سن البلوغ عند عدم وجود باقي العلامات ثمانية عشر عامًا، وذهب أبو حنيفة في الرواية الأخرى إلى أن السن ثماني عشرة سنة للغلام وسبع عشرة سنة للجارية، وذهب ابن حزم الظاهري إلى أن أقصى سنّ البلوغ للذكر والأنثى هو إتمام تسع عشرة سنة، والحكمة في اعتبار هذا الحد العمري وقتًا للبلوغ ذكرها السيوطي في الأشباه والنظائر فقال: «والحكمة في تعليق التكليف بخمس عشرة سنة: أن عندها بلوغ النكاح وهيجان الشهوة والتوقان، وتتسع معها الشهوات في الأكل والتبسط ودواعي ذلك، ويدعوه إلى ارتكاب ما لا ينبغي، ولا يحجزه عن ذلك ويرد النفس عن جماحها إلا رابطة التقوى وتشديد المواثيق عليه والوعيد، وكان ذلك قد كمل عقله واشتد أسره وقوته، فاقتضت الحكمة الإلهية توجه التكليف إليه،

لقوة الدواعي الشهوانية، والصوارف العقلية، واحتمال القوة للعقوبات على المخالفة».

وتختلف هذه العلامات بالنسبة للناس حسب المناطق والأمزجة وتغير الثقافات في الأزمنة، وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: حدُّ ذلك أن يطيق الإنسان النكاح، ويختلف ذلك باختلاف الناس، ورأيي ألا يقاس ذلك بالسن بل بالعلامات فإن النضج الجسدي يختلف بين الأطفال اختلافًا واضحًا، وما ورد من زواج عائشة ﵂ فلا أرى أن يقاس عليه لأن زواجها كان أمرًا إلهيًا محضًا، ومعنى ذلك أنها كانت تملك النضج الجسدي الذي أعد إعدادًا خاصًا، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ- لَهَا: أُرِيتُكِ فِي المَنَامِ مَرَّتَيْنِ أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ -أي خرقة حرير خضراء- وَيَقُولُ هَـذِهِ امْرَأَتُكَ (إن هذه زوجتك في الدنيا والآخرة) فَاكْشِفْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ [(١)].

انظر للعظمة التشريعية القرآنية؛ فالشرط الأول لإيتاء اليتامى أموالهم: بلوغ النكاح، وقد رأيت أن ذلك لا يحدد بسنٍ معينة إلا إذا غابت العلامات الأخرى، فالتحديد بسنٍّ دون النظر في العلامات الأخرى بعكس الأفكار السطحية والمجازفة بالمتطلبات الجسدية للجنسين، بل قد يعكس ذلك أحيانا الأفكار المغرضة والمتاجرة التي تعمل على المستويات المحلية والدولية لتعبث بمصير الأجيال، وقد ينم ذلك عن السفه في التفكير أحيانًا، ومجازفة في وجود المبررات المنطقية.

الشرط الثاني: شرط القدرة العقلية، وعلامتها إيناس الرشد في التعامل المالي

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٧١) برقم ٣٨٩٥، والزيادة عند الترمذي (٥ / ٧٠٤) برقم ٣٨٨٠.

والحيوي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله -تعالى مجدُه-: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾:

وإيناس الرشد يكون بوجود الأنس بتصرفاته المالية السديدة لهذا الذي كان طفلًا، فإن الإيناس حدوث الأنس، وذلك يكون بالإبصار والمعرفة كما قال تعالى {وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٢٩)، فيشعر من حول هذا الذي كان طفلًا أنه قد وصل إلى التصرف الراشد، ويكون ذلك بأمرين:

الأول: أساسي، وهو الرشد العقلي، ويتم ذلك بالشعور بقدرة اليتيم على التصرف الرشيد في الأمور المالية، فينفق من ماله دون أن يقع فيه إِسْرَافٌ، ويظهر حرصه على ألا يُخدع أو يُغالط، ولذا جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الرُّشْدَ الصَّلَاحُ فِي العَقْلِ وَالحِفْظُ لِلْمَالِ.

الثاني: تفصيلي بظهور الرشد الخُلقي لديه، فلا بد أن يكون مستقيمًا، بأن يعلم أنه لا ينفق ماله في فسق أو بغي أو عدوان.. تصور ذلك وقارن مع سفهاء المسلمين الذين ينفقون أموالهم ليعتدوا على العالمين ثم يخصوا من ينتسب إلى دينهم بأوفر الحظ من الاعتداء.

واستنبطنا هذا التفصيل العجيب من تَنْكِيرِ كلمة ﴿رُشْدًا﴾ ليشمل أنواع الرشد المختلفة؛ فهي -عند الزمخشري- لِلتَّنْبِيه عَلَى أَنَّ المُعْتَبَرَ هُوَ الرُّشْدُ فِي التَّصَرُّفِ وَالتِّجَارَةِ، أَوْ عَلَى أَنَّ المُعْتَبَرَ هُوَ حُصُولُ طَرَفٍ مِنَ الرُّشْدِ، وَظُهُورُ أَثَرٍ مِنْ آثَارِهِ حَتَّى لَا يُنْتَظَرَ بِهِ تَمَامُ الرُّشْدِ.

وبذا نجمع بين اشتراط الشافعي الصلاح الديني، وعدم اشتراطه عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فيما نقلوا عنه، فإن أبا حنيفة لا يُظن به أنه يرضى أن يُدفَع مالٌ إلى من يستخدمه في الفسق والفجور، ويدل على أن هذا الرشد مطلوبٌ باعتباره شرطًا

لتسليمه المال أن الرشد نقيض الغي، وقد قَالَ تَعَالَى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البَقَرَةِ: ٢٥٦)، والغي هُوَ العصيان والضَّلَالُ وَالفَسَادُ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)، وقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ (هُودٍ: ٩٧) أي في مَصَالِحِ الدِّينِ والدنيا.

وكما يظهر لك فإن الله يخاطب هنا، فيقول: وابتلوا، آنستم، ادفعوا.. فالخطاب هنا لمن؟

إنه أمرٌ للأولياء وللمجتمع وللأجهزة الحكومية والمدنية بأن يدربوا اليتامى على البيع والشراء قبل الوصول إلى البلوغ ليستعدوا بذلك للوصول إلى مرحلة الرشد، وتعجب من بعض الناس الذين يقولون: دعهم يستمتعون فهم أطفال.. كم يظلم مثلُ هذا التفكير هؤلاء الأطفال؟ فإن تدريبهم على حياة الراشدين جزءٌ من المتعة.. أن تدربهم على التصرفات التي ستكف عنهم كل غوائل من خديعة غيرهم لهم أو من غوائل أنفسهم، فإذا بلغ الطفل التاسعة أو العاشرة يجب أن يتم تدريبه رويدًا رويدًا تدريجيًا على طريقة التصرف السديد في إنفاق المال، وبذا نجمع بين مذهب الشافعية والحنفية في جواز تصرف الصبي قبل بلوغه حيث منعه الشافعية وأجازه الحنفية، وقال في المنهاج: «ويختبر رشد الصبي، ويختلف بالمراتب فيختبر ولد التاجر بالبيع والشراء...» فيمكن القول بأنها فترة تدريب لولي الأمر فيها أو للمجتمع بمؤسساته الإشرافية والرقابية الاجتماعية.

والآن أعد الطرف في هذه الأوامر الصارمة الواردة في الآية لتجد أنها أوامر عجيبة تدل على مقدار الحيوية والنماء التي يبنيها الإسلام في مجتمع الصغار كما تدل على مقدار الحيوية والنماء التي تربيها الثقافة القرآنية في أنفسنا نحن، فأين الظلاميون الذين يعرضون عن القرآن ويذهبون إلى بعض الأفكار المحلية

والإقليمية أو إلى بعض الأفكار الدولية التي ترى أصحابها بأمس الحاجة إلى من يهديهم سواء السبيل.. وانظر كيف تضمنت الآية تدريب الصغار على معالي الأمور كما يظهر لك من الآية أهمية المال ومكانته في الإسلام، وتشعر بأنها تُحَسِّرنا في الوقت ذاته من واقع المسلمين هذه الأيام عندما ترى واقع المسلمين أبعد ما يكون عن التطبيق الواقعي للقرآن المجيد.

ومن خلال الآية: متى يدفع المال إلى اليتيم؟

الجواب: إذا توفر الشرطان معًا، وهنا ترى الصياغة الرائعة للشرطين؛ إذ لم يعطف بينهما بحرف عطف فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ (النساء: ٦) فلم يقل: حتى إذا بلغوا النكاح أو آنستم منهم رشدًا، بل دمج الأمران معًا كأنهما شرط واحد، وهذا أسلوبٌ لافتٌ من أساليب الاتصال مثله في ذلك مثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢، ٣) فكانت جملة هدى معبرة عن اتصالها بما قبلها وما بعدها مؤثرةً في المعنى عليهما معًا بصورةٍ بيانية مدهشة، فإنه يصح أن تجعلها خاصية من خصائص القرآن الكريم، ولك أن تجعلها في الوقت ذاته بداية كلامٍ لبيان المنتفعين بالكتاب الذي لا ريب فيه جوابًا عن سؤال لا بد منه: إذا كان لا ريب فيه، فينبغي أن يخضع له الجميع، فجاء الجواب: بل هو هدى للمتقين، فليس كل من رأى الحق أذعن له، ولا كل من علم الحقيقة اعترف بها.. الخلل ليس في الكتاب الذي لا ريب فيه بل في المحل الذي يستقبله.. غلبه المرض فلم يعترف به، بينما صفت قلوب المتقين فلم تكتف بالاعتراف به حتى انتفعت به، فصار هدى لهم، وأما أن تكون هذه الجملة متعلقة بما بعدها فواضحٌ بينٌ.

الحق الرابع عشر: يحرم الاحتيال الذي يؤدي إلى أكل أموال اليتامى مطلقًا

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ (النساء:٦)، ففي قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢) بَيَّنَ حرمةَ ضمِّ أموالِهم إلى أموال المجتمع، أما هنا فبَيَّنَ حرمة أكل أموالهم مطلقًا، وهنا تأتي السورة لتعالج الدوافع النفسية الخفية التي تدفع الأوصياء أو الأيادي الخاطفة للتلاعب في أموال الأيتام فيذكر الله تعالى جده أهم سببين يدفعان إلى ذلك، وهما:

السبب الأول: ﴿إِسْرَافًا﴾ أي احذروا أن تأكلوا أموالهم بسبب الإسراف في النفقات مثل تصرفٍ تزعمون أنه لصالح الأيتام، أو لحاجتكم في القيام على مصالحهم.. احترسوا أن تتجاوزوا حد الاعتدال في الإنفاق من مال اليتيم تلاعبًا، والإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ فِي كُلِّ عَمَلٍ كما قال -تعالى مجدُه-: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: ٣٢)، وَيُقَابِلُهُ القَتْرُ، وَهُوَ النَّقْصُ فِي النَّفَقَةِ عَمَّا يَنْبَغِي كما قَالَ -تعالى مجدُه-: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧)، وبينهما القَوَامُ كَالقِيَامِ، وهُوَ الحد المعتدل الَّذِي تدور عليه الحياة الحقيقية المتزنة.

السبب الثاني: ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾، أي فِي السِّنِّ، من كَبِرَ يَكْبَرُ - بِوَزْنِ عَلِمَ يَعْلَمُ، إِذَا كَبِرَتْ سِنُّهُ، وَأَمَّا كَبُرَ يَكْبُرُ - بِضَمِّ البَاءِ - فِي المَاضِي وَالمُضَارِعِ، فَهُوَ كَعَظُمَ يَعْظُمُ حِسًّا، أَوْ مَعْنًى، وَيُقَالُ: كَبُرَ عَلَيْهِ الأَمْرُ- بِضَمِّ المُوَحَّدَةِ- شَقَّ.

أي: تبتدر أياديكم بأكلها قبل أن يكبر الأيتام فيمنعوكم من التصرف في أموالهم.. هذا الهاجس النفسي ينصب الشيطان عنده الراية، فيجعلكم تحتالون بأنواعٍ من الحيل إما لإبقاء تلك الأموال تحت تصرفكم كالدخول في تجارات لا يمكنهم الفكاك عنكم فيها، وإما بأكلها والاستمتاع بها خوفًا من اليوم الذي تمنعون فيه من ذلك.. وقد يدعي بعض الأوصياء أن اليتيم ما زال يتيمًا وأنتم حريصون على استثمار ماله لمصلحة نفسه، وليس ذلك في حقيقة الأمر إلا

ستارٌ من أجل حماية مال الوصي بمال اليتيم، فيدخله شريكا وهو يعلم أن اليتيم لا يربح كثيرًا ولا قليلًا، والرابح الحقيقي هو الوصي.. ونحو ذلك من أنواع الاحتيال، فكأن الله جل في علاه يقول: لا ينبغي لكم أن تأخذوا من أموال اليتيم بدارًا قبل ألا تستطيعوا التصرف فيها عندما يبلغ النكاح ويؤنس منه الرشد، فتحتالون على ذلك بأنواعٍ من الحيل التي تبقيها بأيديكم كأنها لكم.

وبهذا التشريع الحقوقي تتم حماية مال اليتيم من أن تأكله الأيادي الخاطفة سواء أكانت لوصي أو لولي أو لقاضٍ أو لحاكم، فذكر الله تعالى هذين السببين اللذين يدفعان الوصي إلى أكل أموال اليتامى لأنهما من مواطن مخادعة النفس؛ والإنسان مجبولٌ على نقائص منها الطمع وعدم الشبع، لا سيما إن وجد غطاء شرعيًا؛ وهو بذلك ينبه تنبيهًا شديدًا إلى كمائن النفوس ووساوس الشيطان التي تتسلل إلى أعماق القلوب.. انتبهوا أيها الأولياء لأن الله عزَّ وجلَّ الذي وضع هذا القانون هو المطلع على قلوبكم ونفوسكم، وهو يعلم أن بعض الناس يعجل قبل ان يكبر اليتيم.. ألا ترى كيف تفضح هذه الجملة العجيبة بواطن النفوس عندما يدغدغها الشيطان بالارتياح في إنفاق أموال الأيتام واستهلاكها قبل انتهاء مدة الوصاية؟.

وأدب الله الإنسان الطامع بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ أي بعلة استحقاقكم لذلك بالعمل فيها [1] فيمكن للولي إذا أنكر عليه أحد إسرافه في صرف مال اليتيم، أو تصرفه به على نحوٍ ما أن يبادر إلى الإنكار بإظهار أحد أنواع الأعذار، فأراد الله -عزَّ ذكره- أن يذكره أن خفاء حقيقة الفعل عن البشر لا يعني غيابه عن رب البشر، وأن المرء تأتيه خطرات السوء وإرادات التلاعب فليحذر منها.

الحق الخامس عشر: من حق اليتيم أن تتم رعايته والتعامل الورع مع ماله،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٩٧).

ومن تمام رعايته إعفاف وصيه.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:٦).

فالأصل أن الوصي يُعطى راتبه من الجهات الحكومية أو الأهلية المختصة، فإن لم يتحقق ذلك، فإن الوصي له حالان:

الحال الأولى: حال الغنى، وفي هذه الحالة ينبغي أن يستعفف.

فهو غنيٌ يمكنه الاكتفاء بما عنده، فلا يحتاج إلى إعانة من مال اليتيم، فقال الله -جلَّ مجده- عنه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ (النساء: ٦)، من تعفف فإما أن تكون من طلب العفة، فالسين والتاء للطلب، وإما أن تكون من زيادة التأكيد على التعفف، فيقال: عَفَّ يَعِفُّ عِفَّةً وَعَفَافَةً وَعَفَافًا، والعُفَّةُ: بَقِيَّةُ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ، وَهِيَ أَيْضًا العُفَافَةُ، ومنه قَالَ الأَعْشَى:

لَا تَجَافَى عَنْهُ النَّهَارَ وَلَا تَعْ جُوهُ إِلَّا عُفَافَةٌ أَوْ فُوَاقُ

وَيُقَالُ: تَعَافَّ نَاقَتَكَ، أَيِ احْلُبْهَا بَعْدَ الحَلْبَةِ الأُولَى وَدَعْ فَصِيلَهَا يَتَعَفَّفُهَا، كَأَنَّمَا يَرْتَضِعُ تِلْكَ البَقِيَّةَ[1].

فقوله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي يطلب العفة أو يتعفف تعففًا مؤكدًا، والعفة اتّزانٌ في الميول والرَّغبات، وكبحٌ لجماح الشَّهواتِ في المحرمات بما يفضي إلى ترك بعض المباحات، فالأصل في كلمة (عفَّ) أنها بمعنى الكَفِّ عَنِ القَبِيحِ، وَالاكتفاء بالقليل المليح، وهذا يقتضي ترك مال اليتيم فلا يأخذ منه الوصي شيئًا أو لا يأخذ إلا لضرورة نفسه، وكيف يستعفف؟ بأن يبحث عن مصادر دخل بديلة ما استطاع إلى ذلك، ويرنو بعينيه إلى الدار الآخرة حيث ينتظر قول النبي ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣).

كهاتين» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى[١].

الحالة الثانية: حال الفقر

وفي هذه الحالة يجوز أن يأكل بالمعروف، فليست رعاية اليتيم قائمةً على التطوع المحض، بل يجوز للوصي إذا كان فقيرًا أن يأخذ شيئًا من مال اليتيم.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، وهذه الحال تجيب عن سؤالٍ: هل الحقوق السابقة والتشديد على حفظ مال اليتيم يعني أن رعاية اليتيم تقوم على التطوع المحض؟

التفصيل الذي ذكره الله جلَّ جلاله هنا يؤدي إلى حماية اليتيم من جهتين: من جهة إعفاف القائم عليه، وبذا تتم حماية المال من الخيانة، وحماية اليتيم من التقصير في تربيته، والقيام عليه بسبب انشغال الآخرين بواجباتهم في جمع النفقة على أسرهم

فانظر لهذه الحماية التامة لمال اليتيم، فلا يحل له أن يأخذ شيئًا من مال اليتيم إلا أن تكون عن طريق الشراكة المثمرة الحقيقية،

فأمر الله بالأكل بالمعروف ليقيد هذا الأكل بقيدين:

القيد الأول: مشروعية الأكل من مال اليتيم حال الحاجة لذلك، ولاحظ أنه عبر عن ذلك بصيغة الأمر لا بصيغة الماضي ولا المضارع ليدل على المشروعية التامة للأكل بالمعروف دون تحرج.. إنك لتعلم أن الوصيَّ إذا تحرج في الأكل بالمعروف مع فقره لربما أفضى به ذلك إلى أن يضيع القيام على حقوق الأيتام بسبب انشغاله بما يسد رمقه في معيشته، أو بسبب تحرجه.

القيد الثاني: أن يكون ذلك بالمعروف أي المتعارف على جوازه حسب زمانه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٠) برقم ٦٠٠٥، والزيادة عند أبي داود برقم٥١٥٢.

ومكانه وحالته وحالة يتيمه.

واختلف في مقدار المعروف الذي يجوز للولي أن يأكله من مال اليتيم، والأصل أن يشهد ذوو العقول والحجا ممن يعرف أوضاع الناس بمقدار المعروف، فيأتي الوصي ويقول: أنتم محكمون أو يذهب إلى القاضي ويقول: أنا فقير ووصي على يتيم تركته مقدارها كذا، وأريد أن تفرضوا لي فلدي من الأولاد كذا وكذا، وأخاف أن ذهبت للبحث عن مصادر أخرى للعيش أن أضيع حقوقه فافرضوا لي شيئًا بالمعروف، كما أن الأصل أن تضع الأنظمة القضائية تشريعات تفصيلية تحدد ما يتعلق بذلك،

والآن ينبغي أن نتساءل عن الجهة التي يأخذ منها المال؟

ترى أن الله ذكر جواز الأكل للفقير لكن دون أن يحدد الجهة التي يأكل منها المال، فقال: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، وعدم التحديد يجعلنا نفترض أن يأكل من الجهات التي يجب عليها رعاية الأيتام سواء أكانت جهات حكومية أم أهلية، فتبادر الحكومة والمجتمع المدني إلى إنشاء مؤسسات خاصة ترعى الأيتام، وتفرض المكافئات على رعايتهم، وفي حال عدم وجودها، فيجوز أن يأكل الوصي الفقير من مال اليتيم بقدرٍ.

بيت المال العام هو الجهة التي تقوم على إعطاء الأوصياء مكافأة مناسبة مقابل الرعاية:

الأصل أن الذي يمنح المكافأة مقابل رعاية الطفل واليتيم هو بيت المال العام (مثل وزارة المالية، ووزارة الخزانة، والمصرف المركزي، والمؤسسات القضائية)، ويبصرك بذلك القاعدة الدستورية العظيمة التي قال عنها النبي ﷺ: «أَنَا أَوْلَى بِالمؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا، فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا، فَلِوَرَثَتِهِ»، وفي رواية: «وَمَنْ تَرَكَ كَلًا، فَإِلَيْنَا»، وفي رواية: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلاَّ وَأَنَا أَوْلَى

بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلاَهُ» (١).

ولكن الآية تحدثك عن واقعٍ لا يكون فيه بيت المال العام متوفرًا لفعل ذلك أو لا يكون قادرًا على فعل ذلك، ويظهر لي هنا ضرورة أن نُعمِلَ جميعَ أقوال أهل العلم فيما يأخذه الوصي من اليتيم لرعايته، وذلك يختلف حسب الحالات المختلفة:

فالحالة الأولى: أن يكون مال اليتيم محدودًا غير مستثمرٍ استثمارًا ناجحًا، والوصي فقيرٌ محتاج، ولا يستطيع الجمع بين عملٍ يُدِرُّ عليه رزقًا وبين رعاية اليتيم، فنُعمِلُ هنا قول الفقهاء الذين رأوا أن ما يأخذه الوصي إنما يكون قَرْضًا يَأْخُذُهُ بِنِيَّةِ الوَفَاءِ، وَرُوِيَ هَذَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وَابْنِ عَبَّاسٍ - ﷺ - زاد سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَإِنْ حَضَرَهُ المَوْتُ، وَلَمْ يُوسِرْ يَتَحَلَّلُهُ مِنَ اليَتِيمِ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا يَتَحَلَّلُهُ مِنْ وَلِيِّهِ -أي الذي بعده-.

الحالة الثانية: أن يكون مال اليتيم محدودًا، والوصي فقير، ولا يظن نفسه يحدث له الإيسار، فعند ذلك يتناول أقل الكفاية، وعبر الشَّعْبِيّ عن ذلك فقال: لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ إِلَيْهِ كَمَا يُضْطَرُّ إِلَى المَيْتَةِ، فَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ شَيْئًا قَضَاهُ. وبالغوا في التنبيه إلى هذا حتى قال ابْن عَبَّاسٍ: يَأْكُلُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، وَوَضَّحَهُ السُّدِّيُّ، فَقَالَ: يَأْكُلُ مَعَهُ بِأَصَابِعِهِ لَا يُسْرِفُ فِي الأَكْلِ، وَلَا يَلْبَسُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الأَكْلُ بِالمَعْرُوفِ: هُوَ مَا سَدَّ الجَوْعَةَ وَوَارَى العَوْرَةَ.

ولكنك ترى أن هذا الذي ذكروه مبنيٌّ على المبالغة في حماية اليتيم ويظهر لي رجحانه في هذه الحالة.

(١) البخاري (٣/ ١٢٨).

الحالة الثالثة: أن يكون مال اليتيم كثيرًا كثرة ظاهرة، فيجوز أن يأخذ منه ما يكفيه بالمعروف الذي تحدده له الجهات المختصة، أو العدول المؤتمنون، وخاصة في زماننا الذي تزداد فيه متطلبات تربية الأطفال، فلا يكتفي الوصي بأن يأخذ ما يستر عورته فقط، وإنما يأخذ ما يظهر زينته من غير سرف، ولا يكتفي بأن يأخذ ما يسد الجوعة بل ما يقيم الصلب إلا أن ذلك يختلف حسب اختلاف التركة، والعرف بين الناس، ولكن اليتيم إذا كان غنيًا غنى ظاهرًا، فإنه يزاد للوصي حسب ما يحكم به ذوو عدل أو الهيئة القضائية المختصة.

الحالة الرابعة: أن يكون مال اليتيم ناميًا مستثمرًا، فيأخذ الولي مكافأته بأن يكون مِنْ غَلَّةِ المَالِ كَلَبَنِ المَاشِيَةِ، وَصُوفِهَا، وَثَمَرَاتِ الشَّجَرِ، وَغَلَّةِ الزَّرْعِ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْ رَقَبَةِ أي من أصله شَيْئًا.

ويظهر أنه لا بد أن يحدد للوصي الفقير ما يقابل قيامه على اليتيم، فيشهد العدول المعتبرون بأنه يستحق مقدارًا يناسب حالته وحالة يتيمه على ألا يفيض من المال الذي يأخذه شيئًا يدخره خارج احتياجاته الأساسية، ولخص الطبري ذلك تلخيصًا بديعًا فقطع بقوله قول كل خطيب، فقال: «إِنَّ الأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ عَلَى أَنَّ مَالَ اليَتِيمِ لَيْسَ مَالًا لِلْوَلِيِّ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَكِنْ لَهُ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مِنْهُ عِنْدَ الحَاجَةِ كَمَا يَسْتَقْرِضُ لَهُ، وَلَهُ أَنْ يُؤَاجِرَ نَفْسَهُ لِلْيَتِيمِ بِأُجْرَةٍ مَعْلُومَةٍ إِذَا كَانَ اليَتِيمُ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ، كَمَا يَسْتَأْجِرُ لَهُ غَيْرَهُ مِنَ الأُجَرَاءِ غَيْرَ مَخْصُوصٍ بِهَا حَالُ غِنًى وَلَا حَالُ فَقْرٍ»[1].

وهذا التوجيه القرآني يحمل التدقيق القانوني الحقوقي الفائق، وفيه إشارةٌ واضحةٌ لكل القائمين على التطوعات وأعمال البر والخير والجمعيات الخيرية، فدل هذا على جواز أن يكون للوصي الفقير راتبٌ محددٌ.

(١) الطبري٧/ ٥٩٤.

وفي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ (النِّسَاءِ: ١٠) ترهيبٌ شديد لمن يأكل أموال اليتامى، لكنه قيد الأكل بكلمة ﴿ظُلۡمًا﴾، وهذا التقييد تأسيسيٌ يدل عَلَى أَنَّ مَالَ اليَتِيمِ قَدْ يُؤْكَلُ ظُلْمًا وَغَيْرَ ظُلْمٍ، فالوصي المحتاج لا يأكله ظلمًا ما دام يأكل بالضوابط السابقة، وفي السنة بيان تفصيلي للمقدار الذي يأكله الولي بالمعروف، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: ليس لي مالٌ ولي يتيم. فقال: «كل من مال يتيمك غير مسرفٍ، ولا مبذرٍ، ولا متأثل مالا، ومن غير أن تقي مالك -أو قال- تفدي مالك بماله» [1]، ومن التصرفات أداء الزكاة، فعن ابن أَبِي رَافِعٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: كَانَ أَقْطَعَ أَبَا رَافِعٍ أَرْضًا، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو رَافِعٍ بَاعَهَا عُمَرُ بِثَمَانِينَ أَلْفًا، فَدَفَعَهَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَكَانَ يُزَكِّيهَا، فَلَمَّا قَبَضَهَا وَلَدُ أَبِي رَافِعٍ عَدُّوا مَالَهُمْ فَوَجَدُوهُ نَاقِصًا، فَأَتَوْا عَلِيًّا فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: أَحَسِبْتُمْ زَكَاتَهَا؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَحَسَبُوا زَكَاتَهَا فَوَجَدُوهَا سَوَاءً فَقَالَ عَلِيٌّ: أَكُنْتُمْ تَرَوْنَ يَكُونُ عِنْدِي مَالٌ لاَ أُؤَدِّي زَكَاتَهُ؟، وكان ابْن عُمَرَ عِنْدَهُ مَالُ يَتِيمٍ فَكَانَ يَسْتَقْرِضُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا ضَمِنَهُ وَكَانَ يُزَكِّي مَالَ اليَتِيمِ إِذَا وَلِيَهُ [2] أي أنه لا ينبغي للإنسان أن يستقرض من مال اليتيم إلا إذا غلب ظنه أنه سيسدده وإلا فلا يعرض مال اليتيم للهلاك.

وهناك تقارب بين الوقف وبين القيام على مال اليتيم، فعن ابْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا» فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لاَ يُبَاعُ، وَلاَ يُوهَبُ، وَلاَ يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الفُقَرَاءِ وَفِي القُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ

(١) أحمد(٢ / ٢١٥) وقال الأرناؤوط: إسناده حس.

(٢) سنن الدارقطني (٣ / ٧).

السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ. لاَ جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالمَعْرُوفِ وَيطْعِمَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ، وقيد ابْن سِيرِينَ ذلك فَقَالَ: غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا [١]، ويبين لنا عَمْرو بن دينار تفاصيل تصرفات ابن عمر في الوقف العمري عن ابن عمر: لَيْسَ عَلَى الوَلِيِّ جُنَاحٌ أَنْ يَأْكُلَ وَيُؤْكِلَ صَدِيقًا لَهُ غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا. فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ هُوَ يَلِي صَدَقَةَ عُمَرَ يُهْدِي لِلنَّاسِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ [٢]، ولكن هناك فرقًا بين الوقف والتصرف في مال الغير، فالوقف ليس مثل من أؤتمن على مالٍ لغير الصدقة فأعطى منه بغير إذن صاحبه شيئًا، فإنه لا يجوز له ذلك بإجماع العلماء [٣].

الحق السادس عشر: حق اليتيم (وغيره من متأهلي السفهاء) أن يتم الإشهاد على دفع المال إليهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، والإشهاد عبارة عن إعلانٍ عام عن تسليم مال اليتيم إليه بعدما صار أهلًا للتصرف، وبلغ الرشد اللائق بأن يدير المال والحياة.

فقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ يدل على حق اليتيم في أن تصحب عملية دفع المال إليه استشهاد الشهود وكذلك غيره من المتأهلين من السفهاء.

والإشهاد حقٌ لهم مع كونه واجبًا على المجتمع لأنه يحفظ حقه بدقة، ويجعل انفصاله عن عمل الولي في ماله محفوفًا بشيءٍ من الإعلان.. وقوله ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ **نستفيد منها ثلاثة أمور:**

الأول منها: حماية اليتيم في حقه حتى لا يحصل تلاعب قانوني من الولي أو

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٦٠.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٣٣)

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال - (٦ / ٤٥١)

غيره، ثانيًا: حماية الولي في سمعته، ثالثًا: كأنه يشبه مهرجانًا احتفاليًا يظهر فيه تكريمه وتكريم وليه مع فائق المحبة المتبادلة، والإشهاد مسألة مطلوبة معتبرة في المسائل العملية الحياتية تؤدي إلى تنمية الثقة، وتضمن الحقوق، وتقطع الخصومات، وتبطل المطالبات، وتقطع ضياع الأوقات، واستهلاك الطاقات في الإحن والعداوات، وانظر هنا إلى محاسن الإسلام وعظمته في شدة المطالبة بالتوثيق في التشريعات المالية والمعاملاتية والاقتصادية، ولذا فالإشهاد واجبٌ عند الشافعية والحنابلة، فعن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجد لقطة فليشهد ذوي عدل، وليحفظ عفاصها ووكاءها فإن جاء صاحبها فلا يكتم، وهو أحق بها وإن لم يجئ صاحبها؛ فإنه مال الله يؤتيه من يشاء» (١).

ويختم الله جل مجده هذا القسم بمادة قانونية حاكمة مُعَظِّمة: حيث عظَّم الله الحقوق السابقة، وجعلها محكومة في التطبيق بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء:٦):

فكأن الله يقول: أما أمري لكم بالإشهاد فذاك لإبراء الذمة أمام الناس، ولكن إبراء الذمة أمامي لا يتم إلا بمراقبتي في كل شيء تظهرونه أو تخفونه ويمكن أن تتلاعبوا أمام الناس؛ إذ كفى بي حسيبًا، فهذه الجملة المباركة تغرس في النفس أن الله أعظم من يراقِب ويحاسِب، فهي تتضمن معنيين:

المعنى الأول: الوعد الحسن، فإن أحسنتم في تطبيق الأوامر السابقة إحسانًا زائدًا على الواجب المطلوب كالتعفف التام مع الحاجة؛ فإن الله حسيبكم، والحسيب هنا بمعنى المحاسب فهو الذي يحاسبكم على إحسانكم الذي لا يضيع عنده جل في علاه، وذلك يعني الحث والترغيب، إن نقص عليكم شيء مع تعففكم، أو لم تجدوا شكرًا وإشعارًا بجميل ما قمتم ممن كنتم أوصياء عليهم فحَسِيبُكَم اللَّهُ أَيْ كَافِيكُم

(١) أحمد (٤ / ١٦١) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

اللَّهُ عنه وعن الخلق أجمعين.

المعنى الثاني: الوعيد والتهديد، وهو معنى مقابل للأول، أي إن تلاعبتم في الأوامر السابقة تلاعبًا يفضي إلى التحايل على التشريعات فتظهرون في العلانية التطبيق، وأنتم تتلاعبون بذلك في الحقيقة، فاعلموا أن الله حسيبكم، فهو يعلم الباطن كما يعلم الظاهر، وسيحاسبكم على ما قد يخفى على عباده.

مبدأ قرآني: (تأصيل الرقابة الذاتية) حيث تجده ظاهرًا في هذه الآيات:

نلاحظ أن هذه الحقوق رغم أن صياغتها صياغة قانونية إلا أنها ألبست الصياغة الوعظية أيضًا، فجمعت بين الصياغة القانونية وتنمية الرقابة الذاتية:

فتأصيل الرقابة الذاتية يظهر واضحًا من أول آية ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢)، وقوله تعالى أيضًا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦)، وكل ذلك يظهر

«أن هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات الإدارية فقط. ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات.. فنحن نعلم أن هناك مؤسسات دولية من أضخم المؤسسات متورطة في صفقات فساد عندما يفكر بها الانسان يشيب رأسه يتم التلاعب فيها بشعوب ودول، فالرقابة الذاتية الحقيقية هي التي تؤيد القانون وتعين على تطبيقه، أما مجرد وجود نصوص قرآنية فكم يتم التحايل عليها من أجل الإفساد، وهذه التقوى لا تجيش- تجاه التشريعات والتنظيمات- إلا حين تكون صادرة من الجهة المطلعة على السرائر، الرقيبة على الضمائر.. عندئذ يحس الفرد- وهو يهم بانتهاك حرمة القانون- أنه يخون الله، ويعصي أمره، ويصادم إرادته وأن الله مطلع على نيته هذه وعلى فعله.. وعندئذ تتزلزل أقدامه، وترتجف

مفاصله، وتجيش تقواه»[١].

فالله سبحانه وتعالى بدأ السورة بالرقابة الذاتية، وختم هذه الآية بالرقابة الذاتية ليعالج الموضوع من جوانب متعددة.

هذه الوصايا العظيمة، والحقوق الكبيرة الجسيمة التي يجب على الإنسانية مراعاتها مع اليتامى تجد إشارة غير تفصيلية في التوراة والإنجيل الموجودين حولها، ففي سفر الخروج: ٢١ وَلاَ تَضْطَهِدِ الغَرِيبَ وَلاَ تُضَايِقْهُ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٢٢ لاَ تُسِيءْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ. ٢٣ إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي إِنْ صَرَخَ إِلَيَّ أَسْمَعُ صُرَاخَهُ، ٢٤ فَيَحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ، وَأَوْلاَدُكُمْ يَتَامَى.

وفي المزامير٦٨: ٥أبو اليتامى وقاضي الأرامل الله في مسكن قدسه، وفي رسالة يعقوب: ٢٧ الدِّيَانَةُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ عِنْدَ اللهِ الآبِ هِيَ هذِهِ: افْتِقَادُ اليَتَامَى وَالأَرَامِلِ فِي ضِيقَتِهِمْ، وَحِفْظُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِلاَ دَنَسٍ مِنَ العَالَمِ.

وعندما تنظر التفصيل القرآني المدهش حول حقوق اليتامى والنساء تعلم مكانة البيان الخاتم للبيانات الإلهية السابقة.



(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٧٧.

القسم الثاني

من حقوق النساء العامة عند الزواج ليقمن بدورهن في رعاية الأطفال والجنس الإنساني (النساء:١، ٣-٤)

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١).

وقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء:٣-٤):

المناسبة والاتصال

وسبب التداخل بين حقوق اليتامى وحقوق النساء:

لتجدنَّ الترتيب في السورة سائرًا على صراط مستقيم، فذكر الله في بدايتها الأصل الإنساني حيث بثَّ البشرية من نفسٍ واحدةٍ وزوجها، وبنى علاقاتٍ رحمية بينهم، وابتدأ تنظيم بث الحياة الإنسانية بذكر حقوق الطفل؛وخصَّ اليتامى لأنهم الضعفاء الذين لا يوجد من يدافع عن حقوقهم في المجتمع، وربما يُستغلون من قبل أطرافٍ متعددة في المجتمع بما في ذلك أولياؤهم وأوصياؤهم، أو قد يزين الشيطان لأوليائهم أو أوصيائهم في المجتمع أن يتلاعبوا بهم وبحقوقهم، ونحن نرى أن الأطفال اليوم عرضة للبيع والمتاجرة باعتبارهم رقيقًا على مستوى العالم، بل تشمئز

وأنت تشاهد عددًا من النافذين على المستوى الدولي يمارسون خسفًا بالأطفال انتهاكًا لكرامتهم أو بيعًا لأعضائهم أو تجارة في دور الدعارة والاغتصاب، لذلك بدأ الله بهم في السورة بعد أن ذَكَّرَ بوشائج القربى والرحم بين الإنسانية جميعا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١)، وأثناء الكلام عن حقوق اليتامى جاء التداخل المدهش ليذكر الله حقوق النساء في الزواج المكرَّم والذمة المالية المستقلة عندما تكتسب مال المهر، وقد تتساءل: ما العلاقة بين حقوق النساء وحقوق اليتامى حتى تمَّ هذا الإدماج لحقوق الفئتين؟

أثناء الكلام عن حقوق الأطفال اليتامى جاء ذكر حقوق النساء في الزواج المكرَّم والذمة المالية المستقلة، ويفاجئك هذا الدمج للفئتين، ثم يزول عنك العجب عندما تتذكر أن حيازة النساء لحقوقهن يُسهم في أن يقمن بمهمتهن العظيمة في بث الحياة الإنسانية، وممارسة دورهن الكبير في إنجاب الأطفال ورعاية اليتامى، وليقمن بهذا الدور لا بد من حمايتهن من الاستغلال المباشر وغير المباشر، فإنك ترى المحافل الدولية والمحلية تستغل القضية النسوية من أجل الوصول إلى الأهواء والشهوات والعبث واللعب كما نرى الآن في عددٍ من المنابر الدولية، وتجد موضوع النساء ستارًا للأطماع الفردية وللانتهازيين العالميين الذي يلعبون دائمًا بورقة الأيتام والنساء لتدمير حقوقهم بدلًا من منحهم حقوقهم الحقيقية، كما نجد الآن كثيرًا من المنظمات التي تدعي نصرة النساء أو تعمل على رعاية حقوق الطفل تدعي ذلك وترى أحيانًا التدمير تحت هذا التبرير، لذا أمر الله تعالى أن تُعطى النساء حقوقهن في الزواج المكرم، وكذلك في استثمار المال الذي يأتيهن عبر المهور أو بأي وسيلة أخرى، وجعل الله لهن كمال الأهلية والتصرف فيه، ولا يُتعامل فيه معهن تعاملَ الوصي مع مال اليتامى بمنعهن من التصرف فيه، فلما ذكر القيود المفروضة على أوصياء

اليتامى، بين الله حقوق النساء، وذكر القيود المفروضة على من يريد التصرف في أموالهن، وأن من حقوقهن كمال التصرف في أموالهن.

وقد حثَّ النبي ﷺ على رعاية حقوقهن، وجعل له أعظم الدرجات التي تعادل القيام على الأمن العام، والرقي العبادي فقال: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمسْكِينِ كَالمجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ» (١)، فالسعي هو الحركة الدائبة في القيام على المتطلبات، والأرملة هي التي لا زوج لها، وجَمْعها: الأرَامل، والعَرَبُ تَقول للرَّجُل الَّذِي لَا امْرَأَة لَهُ: أَرْمَل، وقد قال جرير:

هذي الأرامِلُ قد قضَّيتَ حاجتها فَمَنْ لحاجةِ هذا الأَرْمَلِ الذَّكَرِ (٢)

ولأهمية الزواج في استقرارهن وتأثيرهن البالغ في المجتمع قدم ما يتعلق بحقوقهن في الزواج ليبين كرامتهن ومكانتهن في كل شيءٍ بينما كان العالم في الجاهلية الأولى يعدهن تجارة يتلاعب بها الرجال، وقد عادوا ضمن زيف الحضارة المعاصرة يتاجرون بهن وبحقوقهن ولكن بأغلفة زاهية براقة مخادعة.

المثاني المتداخلة في القرآن المجيد: لماذا تداخلت حقوق النساء مع حقوق اليتامى.

وقبل أن نبدأ في سرد الحقوق النسوية ربما ألح عليك أن تسأل عن سبب تداخل هذه الحقوق مع حقوق اليتامى.. أفما كان يمكن أن يذكر حقوق كلٍّ على حدة كما جرت عليه طبيعة التأليف في الأمور المتماثلة؟ أليس أنسب للفهم وأقرب لئلا يجور الفكر أو يستغلق العقل عند القراءة؟

لا تثريب عليك أن تنظر للأمر من هذه الزاوية؛ إذ تلك الفكرة العجلى التي

(١) البخاري (٧/ ٨٠).

(٢) العين (٨/ ٢٦٦)، تهذيب اللغة (١٥/ ١٤٨).

يقذفها الذهن الكليل بادي الرأي، لكنك ينبغي أن تعلم أن للكلام الإلهي الخاتم المعجز طبيعةً تليق بإعجازه؛ **فمن أسباب التداخل:**

أولًا: تكاثر المعاني في مجالين مختلفين تقاربًا أو تباعدًا.. ألم تر كيف استخرجنا خمسة حقوق من عبارة واحدة وهي قوله تعالى ذكره: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٢) ، وربما تباعد المجالان، وهذا ستراه ظاهرًا مثلًا في قوله -تعالى مجدُه-﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣) فإننا قد استخرجنا ثلاثة حقوقٍ لليتامى فيما سبق، وستندهش للمعاني المجيدة التي ستستخرجها من هذه الكلمات ذاتها لتكون حقوقًا للنساء والمجتمع.

ثانيًا: إشراك النساء بفاعليةٍ ليسهمن في القيام على حقوق اليتامى، وكيف يمكن أن يفعلن ذلك إن لم يحدث عندهن الاستقرار الحقيقي، ولذا كان لا بد من الكلام على حقوقهن قبل الوصول إلى المرحلة الأخيرة في دفع المال لليتامى عندما يصلون إلى مرحلة التأهل الحقيقي التي تجد إسهام النساء فيها بارزًا.

والآن هلم بنا لنغترف من المعين القرآني المذهل ما تم تثبيته من حقوق النساء في سورة النساء في هذا الموضع.

الحق الأول: حق التكريم الإنساني العام للمرأة.

وبَصَّرنا الله به في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١) فهي مخلوقة من النفس التي جعلها الله مصدر النسل البشري، ثم جعل المرأة مع الرجل المصدر الوحيد للتكاثر الإنساني، فهي ليست مخلوقًا يستنكف منه، بل هي أصلٌ للبشرية، ولها الدور العظيم في إعمار الحياة البشرية.

الحق الثاني: حق الزواج ولو ضمن إطار التعدد لتنال البشرية حقها في الانتشار

والاستقرار، وليتحقق للمرأة وجود الزوج الشريك صاحب المسؤولية الكاملة.

ويُبَصِّرُنا به هذا الاقتران العجيب بين الشرط وجزائه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء:٣) أي: إن تحرَّجتم في أن تأكلوا أموال اليتامى فأنتم ممدوحون على ذلك، فكذلك فتحرّجوا من الزّنا، وانكحوا النساء نكاحًا طيبًا مثنى وثلاث ورباع:

فذكر الله هذا الحق ضمن أوائل الحقوق النسوية لأهميته البالغة؛ لأن المرأة بعد أن تكبر لا تجد لها مكانًا لسكنها مثل بيت الزوجية، وترى أن الله ذكر هذا الحق في سورٍ متعددةٍ على هيئاتٍ مختلفة:

فمرة ذكره على سبيل الأمر الذي يتحمله المجتمع ويقوم عليه، وينشئ له الأجهزة الحكومية والمنظمات المدنية التي تقوم عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النور: ٣٢).

ومرة ذكره على سبيل الإنعام لأهميته لبقاء الحياة البشرية، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (النحل: ٧٢).

ومرة ذكره على سبيل البيان بكونه من الآيات الإلهية العظيمة الدالة على وحدانيته سبحانه، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١)، فبماذا تميزت سورة النساء وهي تثبت هذا الحق للنساء؟

تميزت هذه السورة بهذه الصياغة المبهرة للآية، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣).. إذن أثبتت السورة حق النساء في الزواج بهن ولو من خلال التعدد لمن التزم العدل

مع الزوجات كما ذكرنا في التزامه العدل مع اليتامى، وتحقق لنا هذا المعنى من خلال الاقتران العجيب بين فعل الشرط وجواب الشرط؛ فأتى بفعل الشرط ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ ثم نقلنا مباشرة إلى جوابٍ لا تعلق له به بادئ الرأي فقال ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، فاستشكل بعض الناس العلاقة بين الإقساط في اليتامى والتعدد، لكننا بينا أن هذه الصياغة المعجزة أظهرت لنا عددًا من المعاني الرائعة، سلف منها ثلاثة معانٍ أضاءت لنا إدراك مزيدٍ من حقوق اليتامى، فلنُعِد ذكرَها لتنتظم لنا المعاني التي يُبَصِّرُنا بها هذا الاقتران في حقوق النساء أيضًا:

المعنى الأول: إن كانت الزوجة ممن قد يسبب عدم الإقساط لليتامى، فاتركوها، وانكحوا غيرها مثنى وثلاث ورباع حتى تعلم الزوجة أنها ليست محور الكون، فترتدع عن عدم الإعانة على الإقساط إلى اليتامى، فيفهم هذا الارتباط بوجود حذفٍ في الآية.

المعنى الثاني: إن كنتم لن تقسطوا لليتيمة في زواجها، والتعامل معها، فلا تستغلوا السلطة التي لكم، ولا تستغلوا ضعفها لتجبروها على الزواج بغير رضا ولا إقساط في المهر، بل ابحثوا عن غيرها؛ إذ يجوز لكم أن تتزوجوا مثنى وثلاث ورباع، وقد بَيَّنَتْ هذا المعنى السيدة أم المؤمنين عائشة ﵂.

المعنى الثالث: جواز زواج التعدد إلى الأربع، والنهي عن نكاح ما فوق ذلك؛ للمحافظة على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم؛ وذلك أن قريشًا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدمًا، مال على مال يتيمه الذي في حجره، فأنفقه، أو تزوج به.

والآن ينتظم لنا من هذا الاقتران معنى رابع يتعلق بحقوق النساء يبينه الإمام مجاهدٌ، فيقول: إن تحرَّجتم في ولاية اليتامى وأكل أموالهم إيمانًا وتصديقًا، فكذلك

فتحرّجوا من الزّنى، وانكحوا النساء نكاحًا طيبًا مثنى وثلاث ورباع، ولا تجاوزوا ذلك ولا تجوروا معهن عند نكاحهن، كما لم تجوروا مع اليتامى في أموالهم، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم»[1]، وهذا التفسير نقل عن ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير، فكأن مجاهدًا رَحِمَهُ اللَّهُ يرشدنا إلى أن الله قرن الشرط بالجزاء ليكون الشرط مدحًا لهم، ويكون جزاؤه محذوفًا، والتقدير: كما خفتم من الجور في مال اليتامى، فخافوا كذلك من أن تزنوا، أو أن تقع نساؤكم في الزنى، فأشيعوا الزواج لإحصانهن، ولو ضمن إطار التعدد في حدود مثنى وثلاث ورباع.

وذلك لأن الزنى كان فاشيًا في الأوساط العربية بغير الحرائر، أما الشريفات من الحرائر وبنات العرب فكن يستنكفن من الزنا، وكان العرب يأنفون من ذلك ولا يتصورون أن تزني الواحدة منهم، لكن رجالهم كانوا يتساهلون في الزنى بذوات الرايات اللواتي أقمن بيوت دعارة لهن، فالله سبحانه وتعالى بين لهم ولهن أنهم كما يخافون الظلم في أموال اليتامى، فكذلك ينبغي أن يخافوا من الزنى، وأن يخافوا على نسائهم أن يقع منهن ذلك، والحل أن يشيعوا التعدد في النكاح مثنى وثلاث ورباع على ألا يجاوزوا ذلك ويتحروا العدل.

إن أردت معرفة شيوع الزنا بين رجال الجاهلية فإن أم المؤمنين عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ فَصَّلت ذلك، فذكرت أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّساء اليَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ، أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ

(١) الطبري (٧/ ٥٣٩).

هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاِسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِيَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ[1].

فالآية تدل دلالة عظيمة على حق المرأة في الزواج ولو ضمن إطار التعدد، وينبغي للمسلمين أن يسعوا في توفير الزواج للنساء كما يسعون في تزويج فتيانهم، والصحابة رضي الله عنهم خير مثال تطبيقي لذلك، فعن عبد الله بن عمر ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ حين تأيمت حفصة بنت عمر ﷺ من خنيس بن حذافة السهمي ﷺ - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدرًا توفي بالمدينة - قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر. قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي. فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكرٍ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر. فصمت أبو بكرٍ، فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم. قال: فإنه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ١٩) برقم ٥١٢٧.

لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتها [١].

والآن انظر إلى البيان القرآني في توضيح الأمر التشريعي في تعدد الزوجات لتسمع الله -جلَّ ثناؤه- يقول لك: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣).. ألا تغريك الصياغة لتسأل: لماذا أتى بالعدد بهذه الهيئة ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾؟

إن معنى صيغة ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ اثنتين اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وهذه الصيغة تحقق عدة أمور تشريعية تنظيمية في موضوع تعدد الزوجات:

الأمر الأول: الحث على التعدد باعتباره يقدم حلًّا لمشكلةٍ ما لليتامى من جهة، وللنساء من جهة ثانية، وللرجال من جهة ثالثة، وللإنسانية من جهة رابعة، وإذا كان الزواج ولو ضمن إطار التعدد يقدم حلًّا لمشكلة ما فمن باب أولى الزواج مطلقًا، وهذه الصيغة تحل محل كلام كثير طويل، والتقدير: فانكحوا ما طاب لكم من النساء، إما مثنى، وإما ثلاث، وإما رباع إن أمنتم الجور من أنفسكم فيما يجب لهن عليكم.

الأمر الثاني: ليبين الله -تعالى ذكرُه- أن المراد التخيير بين هذه الأعداد حسب الحاجة والواقع، وليس المراد الجمع لأنه لو أراد الجمع لقال: تسع، فالواو هنا لا تعني لغة جواز الجمع بين أنواع العدد المذكور حتى لا يظن أحد أنه يجوز التزوج بتسع نساء أو ثمانية عشر، فهذا غلط فاحش لا يقوله من يعرف اللغة العربية؛ فإنك لو قلت: اقسم هذا المبلغ بين الناس درهمين درهمين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا لا يعني أن تقسمه بينهم تسعة أوثمانية عشر.

---

(١) البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤٧١) برقم ٤٠٠٥ .

الأمر الثالث: لتفهمنا جواز التبديل ضمن العدد المحدد، فلو قال: فانكحوا ثنتين وثلاثًا وأربعًا لأفهم أنه لا يجوز التبديل بينهن في حال طلقت واحدة منهن أو ماتت.

الأمر الرابع: لتفهمنا تعميم التزويج للنساء، وعدم تركهن عوانس، وبذا يتم حل مشكلة العنوسة، فمعنى قوله ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣) أي لتكن النساء بينكم في الزواج اثنتين اثنتين، أو ثلاثًا ثلاثًا، أو أربعًا أربعًا، وذلك لتستطيعوا القيام بحقوقهن ورعايتهن، فلو قال: ثنتين وثلاثًا وأربعًا لأفهم الاكتفاء بوجود ذلك لا باقتسام الزواج منهن، ومثاله لوْ قُلْتَ لِلْجَمْعِ: اقْتَسَمُوا المَالَ الكَثِيرَ دِرْهَمَيْنِ لَمْ يَصِحَّ الكَلَامُ، فَإِذَا قُلْتَ: دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ، وثلاثة ثلاثة كَانَ المَعْنَى أَنَّ يتم تقسيم المال على الكل بأن يأخذ بعضهم: درهمين، وبعضهم ثلاثة حتى النفاد، وهذا أشار إليه عدد من المفسرين.

الأمر الخامس: لبيان اختلاف الرجال في قدرتهم المالية والجسدية، فبعضهم يمكنه نكاح اثنتين، وبعضهم يمكنه نكاح ثلاث، وبعضهم يمكنه نكاح أربع.

الأمر السادس: لتفهمنا جواز الإكمال حال النقص عن العدد المذكور، كأن يتزوج أحدهم اثنتين ثم طلقت إحداهما أو ماتت، يجوز أن يكمل ثانية وثالثة، فلو كان قال: (أو) فقد يفهم منه المنع.

وهكذا ظهر: لِمَ اختار الله العَطْف بِالوَاوِ دُونَ «أَوْ».

وهنا لا بد من أن تتذكر بأن هذا الحكم يجب أن يُؤخذ جميعًا أي التعدد والعدالة، فإن أخذت جزءًا من الحكم وهو التعدد وتركت العدالة شاع الفساد في الأرض، ومن الفساد التشكيك في حكم الله، والتمرد عليه وتشويهه.

الحق الثالث: حق المجتمع النسوي في نشر التعدد.

فهو شريعة السعادة الاجتماعية عندما يتم الالتزام فيه بالشرع، فينتشر التراحم والتكامل الاجتماعي، وتعدد الزوجات هو الحل المثالي الأول للواقع البشري الاجتماعي، ومعالجة الأنانية في النفوس البشرية، ويحقق حق النساء في إيجاد البديل عن العبث بالنساء ضمن تجارة البغاء والعلاقات المؤقتة.

فتعدد الزوجات هو الحل المثالي الأول للواقع البشري الاجتماعي ومعالجة المشاكل الأسرية، ومعالجة الأنانية في النفوس البشرية حال الانضباط بحدود الشرع، فلماذا يصر البعض على تدمير حقوق المرأة الواجبة على الرجل بمبدأ الخليلات (والجيرل فرند) الذي لا يعني إلا العبث بكرامة المرأة، وعدم تحمل مسؤولية الزواج، والقيام على الأسرة.

ونلحظ من الآية أن تعدد الزوجات جاء ليتلاءم مع الطبيعة البشرية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، وليكون هذا التشريع تهذيبًا للشرائع السماوية السابقة لأنها كانت تبيح التعدد مطلقًا، وكذلك ضبطًا للأهواء البشرية القديمة التي كانت تبيح لنفسها التعدد مطلقًا؛ وكذلك منعًا للأهواء البشرية اللاحقة التي تبيح تعدد الخليلات مطلقًا، فالله سبحانه وتعالى أنعم على البشرية بهذا الإنعام العظيم، وللأسف فإن مصيبتنا في عدم معرفة بعض المسلمين والمسلمات لهذه الفوائد أكثر من مصيبتنا في جهل غيرنا بديننا، فبعض المسلمين لا يدركون سره ولا عظمته ولا يباهون به ولا يُعَلِّمون الحيارى بالمحاسن التشريعية المذهلة التي تكتنزها التوجيهات القرآنية، والشريعة الإسلامية، وحتى نتبين هذا الموضوع كما ينبغي يجب أن نقرر أن أنبياء الكتاب المقدس من أكثر الناس تعددًا إلى حدٍّ يصعب تصديقه، ففي كتاب الملوك الأول عن سليمان عليه السلام:

١١ : ٣: وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري.

ونحن لا نعلم مدى صحة هذه الرواية لكننا نعلم أن التعدد المنضبط بأربع يحصلن على حقوقهن خيرٌ للمجتمع من أن تلاقي المرأة في كل فترةٍ واحدًا يعبث بها ثم يرميها عندما يقضي غرضه منها، ثم لا تجد أحدًا بعد أن تتجاوز السن المرغوب فيها.

وقد ذكر النبي ﷺ أيضًا كثرة زوجات سليمان عليه السلام ولكن ليس على وفق الوصف الذي جاء عند اليهود، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ - كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ» (١).

وتجد أن يعقوب عليه السلام ذُكِرَ له في الكتاب المقدس أربع زوجات، وذكر لإبراهيم عليه السلام ثلاث زوجات، وأما داود عليه السلام فمائة زوجة، وفي سفر التثنية ٢١: ١٥ «إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة..» فذكر أحكامًا تتعلق بالتعدد.

حتى في العهد الجديد الذي هو الإنجيل لا يوجد ما يدل على الاكتفاء بزوجة واحدة، بل جاء في إنجيل متى ٥:

١٧ لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨ فَإِنِّي الحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الكُلُّ. ١٩ فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الوَصَايَا الصُّغْرَى

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٧) برقم ٣٤٢٤.

وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ فَهَذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السماوات.

بل إنك تجد ظاهر عبارة عيسى عليه السلام في الإنجيل تدل على جواز التعدد المطلق، **ففي إنجيل متى٢٥**:

١ حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس٢ وكان خمس منهن حكيمات، وخمس جاهلات ٣ أما الجاهلات: فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتا ٤ وأما الحكيمات: فأخذن زيتا في آنيتهن مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطأ العريس، نعسن جميعهن، ونمن. ٦ ففي نصف الليل صار صراخ: هو ذا العريس مقبل، فاخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن، فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكن بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكن. ١٠ وفيما هن ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب ١١ أخيرًا جاءت بقية العذارى أيضًا قائلات: يا سيد، يا سيد، افتح لنا. ١٢ فأجاب وقال: الحق أقول لكن: إني ما أعرفكن.

وكذلك فعل البشر في تشريعاتهم لأنفسهم في الحضارات القديمة العربية والفارسية والرومية والشرقية، فالتعدد أمر معتاد في الحضارات البشرية، فجاءت الشريعة الخاتمة لمداواة جراحاتها وانتكاساتها وكآباتها تميزت بأنها شرعت التعدد وقيدت التعدد بأربع فقط وبينت شروطه، وحفته بعدد من الضوابط التي تجعله من أعظم النعم لو سلم النساء وسلم الرجال، لو تخلى النساء عن أنانيتهن وأن تبلغ الغيرة حدًّا لا يرضي الله ورسوله ﷺ، ولو قام الرجال بما ينبغي لهن، عند ذلك سيكون التعدد من أعظم النعم على البشرية، ولذلك روى ابن عمر ﷺ: أن غيلان بن سلمة

الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه فأمره النبي ﷺ أن يتخير أربعًا منهن [١]، وقال وهب الأسدي: (أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ): «اختر منهن أربعًا» [٢].

ومعلوم أن الكنيسة لم تمنع الزواج على قِسِّسيها إلا في وقتٍ متأخرٍ عن بعثة المسيح عليه السلام، وهي بدعةٌ غليظة مدمرة للحياة البشرية ابتدعوها مع أنها تنافي الفطرة البشرية، وتورث الفضائح التي لا تنتهي في الوسائل الإعلامية على أعلى مستويات الرتب الكنسية. أفما آن للكنيسة أن تراجع نفسها في هذه البدعة الغريبة التي أحدثتها، وسبب لها أكبر الفضائح الجنسية في العالم؟

ولمن يسأل عن حكمة تعدد الزوجات، نقول له: يكفي أن تعلم أن تعدد الزوجات هو الحل المثالي الأول للواقع البشري الأسري، كما أنه يمثل الحل المثالي للمشاكل الاجتماعية حال الانضباط بحدود الشرع:

فأما أولًا: فهو حلٌّ لإيجاد السكينة الحقيقية بين الرجال والنساء، فإن الرجل لا يسكن إلا بجوار امرأة، ويجب عليه أن يقوم بمسؤوليتها لا بالتمتع بها، والعبث بشبابها.

وأما ثانيًا: فهو الحل المثالي للإشراف على اليتامى ضمن جو أسري، فقد تكون أم اليتامى هي الزوجة الأخرى، وقد تكون إحدى الزوجات أشد الناس عونًا على تمكين الجو العائلي في حياة اليتيم.

وأما ثالثًا: فلحل مشكلة الكثرة النسائية أمام الرجال لا من الناحية العددية كما في غالب المجتمعات إما لطبيعة التناسل، وإما للحروب التي تعصف بالأرض، بل لوجود

(١) سنن الترمذي (٣ / ٤٣٥) برقم(١١٢٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (١٨٨٣).

(٢) سنن أبي داود (١ / ٦٨٠) برقم (٢٢٤١)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل برقم(١٨٨٥).

المطلقات والأرامل، ووجود هؤلاء النساء خارج إطار الزواج يعني أحد أمور أربعة:

۞ تعريض بقية النساء للضياع.

۞ أو إشاعة الخداع بالسفاح والزنا بجلب الخليل والخليلة في الحرام والظلام، ووفق قوانين الجاهلية المعاصرة المسماة بالأعراف الدولية في الشوارع والدروب والآكام، وعدم الالتزام بمسؤولية الزواج.

۞ أو إشاعة الطلاق بغير مبرر ليطلق المرء الأولى فيتزوج الثانية.

۞ أو إشاعة الجريمة والإفساد في الأرض؛ فإنك تسمع عن جرائم تخلص الأزواج من زوجاتهم أو خيانتهم لهن.

وأمام ذلك يأتي الحل الآمن وهو التعدد الذي يعني الالتزام بالتبعات الأسرية.

وأما رابعًا: فلأن التعدد وسيلةٌ لبث الحياة الإنسانية، وهو مقصدٌ تسعى إليه معظم المجتمعات إلا في بعض البلدان المسلمة التي اختُرِعَ لها أو اخترعت شيئًا سمته: القنبلة السكانية أو الانفجار السكاني.. ألا ترى أن دول العالم الأول تقدم إعانات بحسب عدد الأولاد وتشجع على ذلك، وإسرائيل تشجع على ذلك على سبيل المثال. وهل التكاثر السكاني إلا نعمة عظيمة لو وجد من يدير الوجود البشري إدارة حقيقية؛ إذ يحتوي على أثمن الطاقات وأعظم الثروات؟ وهذا المقصد أحد المقاصد الإسلامية الأصيلة في المجال الاجتماعي تكثيرًا للثروة البشرية، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهيًا شديدًا، ويقول: «تزوجوا الودود الولود؛ إني مكاثرٌ الأنبياء يوم القيامة» [1].

(١) أحمد (٣/ ١٥٨) برقم (١٢٦١٣) وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد قوي، وصححه الألباني في الإرواء برقم (١٧٨٤).

وأما خامسًا: فلأنه الإجابة الفطرية للطبيعة البشرية، فقد خلق الله ﷻ الرجل لتمتد فترة خصوبته إلى ما بعد السبعين، والمرأة لا تكاد تجاوز الخمسين، والتعدد لا يختلف فيه بنو الإنسان مهما كان مالهم أو موقعهم.. ألا يكفي أيضًا أن يشكل حماية ضخمة من التحرش بالأطفال والنساء في كثيرٍ من الأماكن.. أما يسمع الذين يضعون العقبات أمام الزواج عن الكم الهائل من الفضائح التي تعترف فيها الكنائس الكاثوليكية في العالم مما يتعلق بالتحرش بالأطفال، وآخر ذلك الخبر الذي نشرته الأسقفية الكاثوليكية لمنطقة بروكلين في مدينة نيويورك حيث نشرت لائحة لأسماء أكثر من ١٠٠راهب تحرشوا بالأطفال جنسيًا في كنائس المدينة، وفي آب٢٠١٨م كشف تقرير تعرض أكثر من ألف طفل في كنائس البلاد للتحرش من قبل رهبان تم التستر على جرائمهم، بل أعلن البابا فرانسيس تجريد أرفع مسؤول بالفاتيكان كبير أساقفة واشنطن السابق (ثيودور ماريك) من صفته الكنسية بعد إدانته بارتكاب اعتداءات جنسية.

وأما سادسًا: فالتعدد هو الحل أمام المشاكل الاجتماعية والصحية التي تجتاح العالم، فقد قُدِّرَ عَدَدُ المعددين من الأمريكيين إلى قبل عام٢٠٠٠م بنحو خمسين ألفًا، والفساد والانحلال الأخلاقي الذي نشأ من كثرة الزنا يعني ضرورة التعدد، وفي مجلة التايم البريطانية عدد ديسمبر ١٩٩٨م، ذكر أن هناك «١٢» مليون طفل غير شرعي، و«١٧» مليون شاذ جنسيا في أمريكا، وكل أسرة من ١٠ أسر أمريكية تمارس زنا المحارم، وازداد الأمر حتى أصبح أسرة من كل ٥ أسر، ويوجد ١٥ مليون شخص مصاب بالأمراض التناسلية في أمريكا، ومن الأسباب الرئيسية لانتشار هذه الأمراض الاتصال الجنسي خارج نطاق العلاقة الزوجية، علمًا بأن من يصاب بالإيدز وحده يوميًّا -حسب تقرير منظمة الصحة العالمية- نحو ٧٠٠ شخصًا.

وذكر محمد رشيد رضا أن إِحْدَاهُنَّ كتبت فِي جَرِيدَةِ (لندن ثروت) مُسْتَحْسِنَةً رَأْيَ العَالِمِ (تومس) فِي أَنَّهُ لَا عِلَاجَ لِتَقْلِيلِ البَنَاتِ الشَّارِدَاتِ إِلَّا تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ، فَلَوْ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مُبَاحًا لَمَا حَاقَ بِأُولَئِكَ الأَوْلَادِ وَبِأُمَّهَاتِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ الهُونِ، وَلَسَلِمَ عِرْضُهُنَّ، وَعِرْضُ أَوْلَادِهِنَّ، فَإِنَّ مُزَاحَمَةَ المَرْأَةِ لِلرَّجُلِ سَتُحِلُّ بِنَا الدَّمَارَ، أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ حَالَ خِلْقَتِهَا تُنَادِي بِأَنَّ عَلَيْهَا مَا لَيْسَ عَلَى الرَّجُلِ، وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ عَلَيْهَا، وَبِإِبَاحَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ تُصْبِحُ كُلُّ امْرَأَةٍ رَبَّةَ بَيْتٍ، وَأُمَّ أَوْلَادٍ شَرْعِيِّينَ»، وَنَشَرَتِ الكَاتِبَةُ الشَّهِيرَةُ (مِسْ أَنِي رُودْ) مَقَالَةً مُفِيدَةً فِي جَرِيدَةِ (الاسترن ميل) فِي العَدَدِ الصَّادِرِ مِنْهَا فِي ١٠ مِنْ مَايُو (أَيَارَ) سَنَةَ ١٩٠١م نَقْتَطِفُ مِنْهَا مَا يَأْتِي لِتَأْيِيدِ مَا تَقَدَّمَ: « أَلَا لَيْتَ بِلَادَنَا كَبِلَادِ المُسْلِمِينَ فِيهَا الحِشْمَةُ، وَالعَفَافُ، وَالطَّهَارَةُ رِدْءٌ، الخَادِمَةُ وَالرَّقِيقُ يَتَنَعَّمَانِ بِأَرْغَدِ عَيْشٍ، وَيُعَامَلَانِ كَمَا يُعَامَلُ أَوْلَادُ البَيْتِ، وَلَا تُمَسُّ الأَعْرَاضُ بِسُوءٍ. نَعَمْ إِنَّهُ لَعَارٌ عَلَى بِلَادِ الإِنْكِلِيزِ أَنْ تَجْعَلَ بَنَاتِهَا مَثَلًا لِلرَّذَائِلِ بِكَثْرَةِ مُخَالَطَةِ الرِّجَالِ، فَمَا بَالُنَا لَا نَسْعَى وَرَاءَ مَا يَجْعَلُ البِنْتَ تَعْمَلُ بِمَا يُوَافِقُ فِطْرَتَهَا الطَّبِيعِيَّةَ مِنَ القِيَامِ فِي البَيْتِ، وَتَرْكِ أَعْمَالِ الرِّجَالِ لِلرِّجَالِ سَلَامَةً لِشَرَفِهَا »[1].

وفي الوقت الحاضر ترى التشريع الشيطاني لا يعاقب على اتخاذ الخليلات في كثيرٍ من دول العالم إلا أنه يعاقب على تعدد الزوجات، فهل يوجد ظلم وإجرام وتلاعب بالمرأة أشد من ذلك؟ ما معنى أن تكون خليلة له يستمتع بها ما شاء حتى إذا كبر سنها ورق عظمها وذهبت قوتها ونضارتها يرميها ولا تجد من يسأل عنها؟

وقد نجحت طائفة المورمون الأميركية في الحصول على إذنٍ قضائي فيدرالي بالعيش المشترك لأكثر من زوجة في عام٢٠١٣م، وتم إنشاء منظمات لتعدد الزوجات في الولايات المتحدة منها منظمة تعدد الزوجات الإنجيلية المسيحية ولها موقعها

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٩٥).

على الإنترنت، فهي إحدى الجمعيات النشطة التي استطاعت أن تفرض وجودها داخل المحاكم، وفي الإعلام الأمريكي، ويقول مارك هينكل، مؤسس المنظمة: «إن الحق بتعدد الزوجات هو المعركة التالية للحقوق المدنية داخل المجتمع الأمريكي».

دعنا نعد إلى الجو العظيم لسورة النساء فقد سبق أن ذكرنا أن هذه السورة هي سورة الحقوق، وخاصة حقوق الضعفاء كاليتامى والنساء والمستضعفين من الرجال، فلماذا جاءت آية التعدد في أول السورة؟ إنه لفت نظر لحق المجتمع في إشاعة هذا التكامل الاجتماعي في أوساط الناس قبل أن يكون حلًا للإشباع الجسدي.. وكانت ثقافة التعدد شائعة بين المسلمين قبل أن تأتي التأثيرات الرديئة التي صحبت ما يسمى زورًا عصر النهضة، ولم تقابل ثقافة التعدد إلا بنوع من الغيرة المحمودة المنضبطة، وإذا كان الرجال يظهر اختبارهم في التسليم لحكم الله ﷻ بالصدقة في المال أو بذل الجهد في القربات مثل الإيثار ونحوه فإن النساء يُختبرن في التسليم لحكم الله ﷻ بقبول هذا الحكم الشرعي الواضح، وهنا تعلم سرًا من أسرار اجتماع آية التعدد في أول هذه السورة مع قوله تعالى في وسطها: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥)، وأصبح تناول هذا الموضوع في بعض الأوساط الاجتماعية مثيرًا للمشاكل بدلًا من أن يكون هو حلًا لها، والغيرة مطلوبة وبها تكون الأنثى أنثى، ولكن الغيرة التي تؤدي إلى الاعتراض على حكم الله ﷻ، والأنانية المفرطة في حق بقية النساء أمرٌ له حسابه وعواقبه، والله ﷻ يقول مقابل الثقافة الوافدة التلفزيونية في ختام هذه السورة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (النساء: ١٧٦).

الحق الرابع: حق المرأة في أن تطيب نفس الرجل بها وتطيب نفسها به، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾(النساء:٣)؛ إذ تدل على ضرورة

البحث عما طاب من النساء ليتم تأسيس الحياة الزوجية المستقرة، ولا تطيب المرأة للرجل إلا أن تكون راغبة فيه، لا مكرهة عليه، فكما تدل الآية على بحث الرجل عن الطيب من النساء كذلك تدل على حق المرأة في الطيب من الرجال:

فالأمر بنكاح ما طاب من النساء للمشروعية العامة ابتداء ثم يأخذ الأحكام الخمسة حسب الزمان والمكان والحال، فهذا حق مزدوج للاثنين يراد به تحقيق سعادتهما معًا، والأمر هنا بمعنى النهي الحاصر، أي: فلا تنكحوا إلا ما طاب لكم من النساء، وكلمة طاب [1] تعني لذَّ وزَكَا وترتب عليه ما يُرغب من خلاله به كما يقال: طَابَتِ (الأَرْضُ) طِيبًا: أَخْصَبَت وأَكْلَأَت، فالطيب ما تستلذه الحواس وتشتهيه النفوس، فهو المستلذ الزكي الشهي ظاهرًا وباطنًا، نفسًا وجسدًا، الصافي من خبث التحريم الشرعي، النقي من دنس النجاسة الحسية، الذكي في رائحته، المستملح في معايشته الذي يترتب عليه الرغبة به، فصارت الطيبة من النساء ما اجتمع فيها معنيان نصوغهما للرجل، وهما مطلوبان كذلك للمرأة حسب المناسب لها:

الأول: الطيب الشرعي، فالحلال منهن ضد الخبيث، فهذا الطيب الشرعي، واللواتي يحل الزواج منهن هن غير المذكورات في الآية ٢٢ وما بعدها في هذه السورة.

والثاني: الطيب الطبعي، أي اللواتي تستطيب أي تستلذ النفوس الاقتران بهن لخَلْقهن، ولخُلُقهن، حيث تطيب الحياة معهن وبهن ضمن ما أباحه الشارع ممن ذكر الله تعالى صفاتهن في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾(النساء: ٣٤)، وبين النبي ﷺ خصالهن في قوله: «وَنِسَاؤُكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ: الوَدُودُ الولود العَؤُودُ عَلَى زَوْجِهَا، الَّتِي إِذَا غَضِبَ جَاءَتْ حَتَّى تَضَعَ يَدَهَا فِي

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٣٥)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٣٠٨)، تاج العروس (٣/ ٢٨١).

يَدِهِ، ثُمَّ تَقُولُ: لَا أَذُوقُ غَمْضًا حَتَّى تَرْضَى» (١).

وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة، فإنها ينبغي أن تبحث عمن تطيب نفسها به، وأول صفات من تطيب نفسها به أن تكون راضية به غير مكرهة عليه، وتأتي السنة النبوية لتثبت هذا الحق، فعن بُرَيْدَةَ بن الحصيب ﷺ قال: جَاءَتْ فَتَاةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي خَسِيسَتَهُ .فَجَعَلَ النبي ﷺ الأَمْرَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنْ لَيْسَ إِلَى الآبَاءِ مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ (٢).

فانظر كيف بلغت حرية المرأة حدًا تقاضي فيه أباها غير هيابة من عادات المجتمع، ولا من سطوة الرجال.. ثم يدخل فيما تطيب نفسها به غير ذلك من الصفات التي تبحث عنها المرأة في الرجل.

وهنا تتساءل: لماذا تزينت العبارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بكلمة (ما) ولم يأت محلها كلمة (من)؟

لأن الكلام عن الصفات وليس عن الأشخاص، وهنا تثبت قضية الحقوق المجتمعية، والجمع بين مطلوب الرجل، وترقية الأنثى لتكون أهلًا للبناء الأسري، وتكميل الرجل، وإعانته على الخير، ومنعه من السوء، ليكون أهلًا لتطيب نفس الأنثى به، ولتوفير المعاني وتكثيرها، فكلمة «مَا» تَغْلِبُ فِي غَيْرِ العُقَلَاءِ إِذَا أُرِيدَ بِهَا الذَّاتُ لَا الوَصْفُ. فَيَقُولُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ فِي السُّؤَالِ عَنْ ذَاتِهِ، وَشَخْصِهِ وَتَقُولُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فِي السُّؤَالِ عَنْ صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ، فجاءت (ما) لتبين أن من الطيب الموافقة

(١) شعب الإيمان (١١/ ١٧١) برقم(٨٣٥٨)، وصححه بشواهده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٢٨٧.

(٢) سنن ابن ماجه (٣/ ٧٣) برقم (١٨٧٤)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٠٢)، وكذا قال الشيخ مقبل الوادعي: «صحيح على شرط مسلم»، انتهى من الصحيح المسند ص ١٦٠.

والتآلف بين الجهتين؛ أي: فانكحوا النساء نكاحًا طيبًا بأن تنكحوا ما طاب لكم شرعًا فهذا الحلال، وانكحوا ما طاب لكم طبعًا، أي: في الهيئة والخَلق والتعليم أو حسب ما ترونه أنسب لكم، وكذلك ينبغي ألا تنكحوا إلا الطيب في الخُلُق لا الخبيث.

وترى في هذه الآية من روائع البيان وعظمة القرآن شيئًا عظيمًا، وفيها من الإيجاز والإدماج لعددٍ من المسائل والحقوق ما لا يستطاع التعبير عنه إلا بكلامٍ كثير، فهي تنمي الحس الرقابي الإيماني بجعل الإنسان يراجع حياته الحاضرة؛ فإن قوله ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أي من واقعكم الذي تعيشونه، وكذلك الآية تجعلك تحسب أفعالك وخطواتك المستقبلية حسابًا واضحًا ضمن الميزان الإيماني، والمعنى ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أي في مستقبلكم، فاستقامت الكلمة مع المعنيين استقامة مذهلة.

الحق الخامس: حق المرأة في الاستمتاع الجسدي والنفسي العادل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ (النساء:٣):

أي فإن خفتم أن يسبب التعدد ظلمًا مع النساء أو مع اليتامى فاكتفوا بواحدة.

هنا يبني الله جل ذكره الرقابة الذاتية، فإن أردت أن تفعل فعلًا ينبغي أن تتنبه لهذا الفعل، وتحسب كيف ستحاسب عليه فيما بعد، والحق الذي تبصرنا به هذه الجملة المباركة أنه لا بد من العدل سواء كان الإنسان مُوَحِّدًا أو مُعَدِّدًا، فربما كانت الواحدة مظنة للجور، فالحل التعدد، وإن كان التعدد مظنة للجور فالحل أن يوحدوا وهكذا، فالمقصود هو وجود العدل حيثما كان، وهذا من أسرار ذكر العدل والقسط في أول الآية في الأمر بالتعدد، وفي آخر الآية في الأمر بالتوحيد ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ (النساء: ٣)، وهذه مادةٌ تشريعية تتعلق بأهمية العدل بين النساء، وتبين أن إباحة الزواج من أكثر من امرأة إلى أربع لا يعني أن يهرب الإنسان من الخوف من

جورٍ مستقبلي مع اليتامى، أو يهرب من ضعفٍ في إقامة حقوقه بزوجة واحدة إلى جور مستقبلي مع أكثر من زوجة، بل العدل مطلوب مع الزوجات، فلو خيف من عدم توفره فيجب الاكتفاء بواحدة، وذكر هذه المادة القانونية لضبط مسألة التعدد حتى لا يصبح التعدد دمارًا للإقساط بدلًا من أن يكون أداة له.

والمقصود بالعدل العدل في الأمور الظاهرة لا في الأمور القلبية لما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». قال أبو داود: يعني القلب[1].

الحق السادس: حق المرأة والأسرة في الحرص على وجود الاستقرار المعيشي، ويُبَصِّرُنا بهذا الحق هذه المادة المقاصدية الحاكمة المُعَظِّمة التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾، أي: أقرب ألا تعولوا، ولها معنيان:

المعنى الأول: العول هو الميل إلى الظلم زيادة أو نقصانًا، أي: ذلك أقرب أن لا تجوروا، فلا تميلوا للتعدد أو التوحيد، بل لما يحقق مقاصد الحياة الزوجية والإنسانية من الاستقرار والاستمتاع والعدل والنمو الإنساني والحرص على الأطفال واليتامى خاصة، والإشارة في كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعود على مجمل الأحكام في الآية، وليس على آخر مذكورٍ فيها، وكأنه يقول: فالتزامكم بالأحكام السابقة يؤدي إلى عدم الجور والظلم، فكلمة عال الرجل فهو يعول عَوْلا وعيالة، إذا مال وجار. ومنه: «عَوْل الفرائض»؛ لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص، عن عكرمة في هذه الآية: ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾، قال: أن لا تميلوا[2]، قال: وأنشد بيتًا من شعر زعم أن

(١) سنن أبي داود (١ / ٦٤٨) برقم(٢١٣٤)، وقال الأرنؤوط: « إسناده صحيح، كما قال ابن كثير في التفسير ٢/ ٣٨٢، إلا أنه اختلف في وصله وإرساله، ورجح الإرسالَ غير واحد من الأئمة، وقد روي من وجهٍ آخر عن عائشة بإسناد حسن» .

(٢) جامع البيان للطبري ت شاكر(٧/ ٥٥٠).

أبا طالب قاله:

بِميزَانِ قِسْطٍ لا يُخِسُّ شَعِيرَةً وَوَازِنِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ

المعنى الثاني: يعول أي: يفتقر، يُقَالُ: رَجُلٌ عَائِلٌ، أَيْ: فَقِيرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى:٨)؛ وهذا المعنى هو المنقول عن الشافعي والكسائي ومن قبلهما زيد بن أسلم[١]، ومنه يقال: عَالَتِ المَسْأَلَةُ إِذَا زَادَتْ سِهَامُهَا وكثرت، كما قال الشاعر[٢]:

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يَعِيل

بمعنى: يفتقر، ومن هذا المعنى يمكنك أن تقول: تعولوا: تقوموا بنفقة العيال، وهذا يوافق حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[٣] ، «أي بمن يجب عليك نفقته» يقال (عال) الرجل أهله: إذا (مانَهُم) أي قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة وهو أمر بتقديم ما يجب على ما لا يجب» [٤]

وعندي لها تأويلٌ حسنٌ بناء على هذا المعنى؛ إذ يكون اسم الإشارة عائدًا على الأمرين معًا: فالاكتفاء بواحدةٍ عند الخوف من عدم العدل أدنى ألا تفتقروا، وكذلك فالتعدد أعون لكم على عدم الافتقار لمساعدة نسائكم لكم في أعباء الحياة المادية والمعنوية، فالزواج في ظل التعدد أو في ظل التوحيد أدنى ألا تحتاجوا للقيام بنفقة العيال لأن تعدد النساء سيساعدكم على هذه النفقات أو التربية، أو ذلك الاكتفاء بواحدة سيساعد على ذلك، فاسم الإشارة صالح لأن يعود للاثنتين حسب كل إنسان.

(١) انظر: تفسير القرطبي(٥/ ٢١).

(٢) ينظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد (ص٢٧).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٣٩) برقم ١٤٢٦.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩ / ٥٠٠)..

فالتعدد المحقق لمقاصد الزوجية يعين على تجاوز الفقر كما هو معلومٌ إن توفر فيه التعاون والتكامل الذي يبديه أعضاء الأسرة، فقد يرزق الله ﷻ الحياة الزوجية بكثرة أفرادها نعمًا في التكامل لا توجد في حال الانفراد بزوجةٍ أو قلة أولاد، وذلك يختلف حسب الناس.

وكذلك فإن التوحيد حال الخوف من عدم تحقيق مقاصد الزوجية يعين على ألا تفتقروا؛ لأن التعدد يصبح مدعاة للتنازع وضنك الحياة، ومن إعجاز القرآن الإيجاز مع كمال البلاغة والبيان وتوفير المعاني، ولذا صح رجوع اسم الإشارة إلى الأمرين هاهنا.

الحق السابع: يجب تقديم الصدُقات، وهي المهور للنساء مقابل الزواج على أن يكون المهر عطيةً خالصة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ (النساء:٤):

الصَّدَاقُ: مهر المَرْأَةِ، ولعله سمى بذلك لأنه يُظهِرُ صدق الزوج في تأسيس أسرة، وفي قيامه على حقوق الزوجة ورعايته لها، وَيُقَالُ: صَدَاقٌ وَصُدْقَةٌ وَصَدُقَةٌ، والخِطَاب للمجتمع جميعًا بفئاته المختلفة:

۞ فهو خطابٌ للأزواج لبيان حرمة أن يأخذوا شيئًا مما آتوه بعد تمكنهم من النساء، ولبيان حرمة ابتزازهن من خلال حاجتهن للزواج لإيجاد كافل أو عائل، فتجعل هذه الحاجة سببًا للزواج منهن دون مهر.

۞ وهو خطاب لِأَوْلِيَاءِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ العَرَبَ كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَا تُعْطِي النِّسَاءَ مِنْ مُهُورِهِنَّ شَيْئًا، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِمَنْ وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ: هَنِيئًا لَكَ النَّافِجَةُ، وهي مَا يَأْخُذُهُ الرَّجُلُ مِنَ الحُلْوَانِ إِذَا زَوَّجَ ابْنَتَهُ، حيث ينْفُجُ مَالُه أَيْ يعظم ويكثر.

۞ ويمكن أن يكون الخطاب للأزواج والأولياء لئلا يجعل الزواج مشاغرة، يتم تبادل النساء فيما بينهم دون حقٍ يوضع في أيديهن.

۞ وهو خطاب للمجتمع جميعًا بمؤسساته الحكومية ومنظماته المدنية ليسنوا القوانين التي تحمي النساء في أموالهن من اعتداءات الرجال على أموالهن حتى لو كانوا آباء وإخوة وأزواجًا، ولإيجاد الثقافة القانونية والخلقية اللازمة لذلك، وللإشراف على تنفيذ ذلك دون بغيٍ أي دون أن يتعارض مع ما يقابله من حقوق الآباء والأزواج والآخرين، لذلك حريٌّ بأن يكون للنساء مؤسساتٌ تقوم بالإشراف على ذلك.

فهذه الآية تبين أن الزواج لا يكون إلا مقابل مهر يلتزمه الرجل للمرأة، فما معنى الإيتاء هنا؟

يحتمل أن يكون المراد الإعطاء المباشر، والمناولة للمال، ويحتمل أن يكون المراد الالتزام حيث قَالَ الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾ (التَّوْبَةِ: ٢٩)، أي عن قدرةٍ وطاقة، والمعنى حتى يلتزموا بسدادها في وقتها. وأما النحلة فلها معنيان:

المعنى الأول: نحلة أي فَرِيضَة، وأصلها لغة الدِّيَانَةُ وَالمِلَّةُ وَالشِّرْعَةُ وَالمَذْهَبُ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَنْتَحِلُ كَذَا إِذَا كَانَ يَتَدَيَّنُ بِهِ، وَنِحْلَتُهُ كَذَا أَيْ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ أَيْ آتُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ فريضةً عليكم، وشريعةً تلتزمون بها.

المعنى الثَّانِي: نِحْلَةٌ أَيْ عَطِيَّةٌ وَهِبَةٌ دون أن يكون لكم الحق في طلبها مرة أخرى، يُقَالُ: نَحَلْتُ فُلَانًا شَيْئًا أَنْحَلُهُ نِحْلَةً وَنُحْلًا، يُقَالُ: هَذَا شِعْرٌ مَنْحُولٌ، أَيْ مُضَافٌ إِلَى غَيْرِ قَائِلِهِ، وَانْتَحَلْتُ كَذَا إِذَا ادَّعَيْتَهُ وَأَضَفْتَهُ إِلَى نَفْسِكَ.

والمعنيان يدلان على حرمة أن تلجئوهن إلى أخذه بالمخاصمة والمطالبة؛ إذ هو حقٌّ لهنّ، وفريضة عليكم.

فإذا ما حاولت البحث عن الأساس المقاصدي للتعبير عن المهر بأنه ﴿نِحْلَةً﴾.

فإنك ستجد بأن التكريم الإنساني، والمحافظة على الكرامة البشرية، وتحقيق مصالحها.. اقتضى كل ذلك الحفاظ على الكليات الخمس التي هي الدين والعقل والجسد والعرض والمال، بالسير وفق مقتضيات العبودية؛ فإن المقصود من المعنيين الواردين في كلمة ﴿نِحْلَةً﴾ التكريم العظيم للنساء، أي يجب أن تعطوا النساء مهورهن فريضةً عليكم كفرض الواجبات الشرعية الأخرى، وعطيةً تلتزمونها كما ينحل أحدكم ولده الشيء ويهبه له، وهو لا يتوقع منه أن يرد له شيئًا في مقابله، فالتعبير بنحلة ليُعلم أن المرأة مهما أعطيتها من مهرٍ لا يمكن أن يكون مقابل الصلة والمودة والامتزاج العائلي الذي يتم بالزواج، بل المهر عطية رمزية للإكرام، فالصَّدُقَاتُ أَمَارَاتٌ على تَمَيُّز عَقْدِ النِّكَاحِ الشرعي عَنْ غيره من أنواع الاتصال الجنسي المحرمة التي نزَّه الله ﷻ عنها الطاهرات فقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ (النِّسَاء: ٢٥).

والمهور يعبر عنها القرآن بالصدُقات تارة وبالأجور، وهي بهذا التعبير ليست كأثمان العبث مع البغايا المشار إليهن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (النُّور: ٣٣)؛ فإن المهر علامةٌ على مكانة الزوجة ومنزلتها الحيوية، وأنها مخدومةٌ مكفية في نفقاتها على أن تقوم بواجباتها العائلية والأسرية المناسبة لها في البناء الحياتي، وبذا يتضح أن المهور التي يسميها القرآن صدُقات وأجورًا ليست مقابل المعيشة الزوجية فقط بل هو تعبيرٌ عن صدق المودة، والتزامٌ أولي بمكانة المرأة التي ستبني مع الرجل عش الزوجية كما قيل:

هي أنت التي خلقت لنحيا ... في ظلال من الوفاء الرشيد ؟
كحياة الأرواح تضفي حنانًا ... وهي تهفو في ظلها الممدود
فإذا الكون والحياة جمالٌ ... وإذا العيش فسحة في الخلود !

هي أنت التي أطافت بنفسي وتراءت في خاطري من بعيد ؟
حينما كنت هائمًا أتلقّى أغنيات الآمال شتى النشيد ؟
إذ تراءيتِ هالةً من رجاء هادئ ليِّنٍ رفيقٍ وئيد
ثم دانيتِ في دلالٍ وديعٍ ثم باعدت في دلال شَرود ؟
هي أنت التي تلاقيت روحًا مع روحي فهامتا في الوجود ؟
هي أنت التي تحدثت عنها خطراتي، في يقظتي وهجودي ؟
إن تكوني ! إذن فهاك فؤادي كلَّه خالصًا نقي العهود !
وتعالي نَبْغِ الحياة جهادًا عبقري التصويب والتصعيد !
أشعريني بأن قلبًا نقيًّا يرتجي ساعدي ويهوى وجودي
ثم سيري معي نخط طريقًا كمهاد في الصخرة الجلمود !
نظرة منك وابتسامة حُب تترك الصعب ليّنا كالمهود
لك مني عواطفي وعهودي لك مني رعايتي وجهودي !

الحق الثامن: حق المرأة في كمال الأهلية المالية لتتصرف في ممتلكاتها دون وصاية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤).

والآية تدل على أبعد من ذلك.. فهي لا تدل فقط على حفظ المهر، بل تدل على حماية الشريعة للأهلية المالية للمرأة؛ إذ يقول الله تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾(النساء: ٤)، فالمعنى: يحرم التصرف في شيءٍ من المهر إلا بطيب نفسٍ منهن، ويحرم أخذ شيء منه على سبيل القهر، أو بسيف الحياء، والخطاب لكل من يحاول أن يأخذ من مال المرأة سواء أكان وليًّا لها أم زوجًا، وَقَدْ ذكر الله ﷻ هذه الأهلية المالية للمرأة في طور معاشرتها كما ذكر هذه الأهلية للمرأة

في طور مفارقتها، فأما في طور معاشرتها ففي هذه الآية، وأما في طور مفارقتها فقَالَ جل ذكره: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٢٠)، فانظر لهذا التشديد في حماية مال المرأة، والتحذير من مساس مالها، حتى والإنسان يفارقها، فكيف في حال معاشرتها؟ وترى أن الله ﷻ ذكر في هذه الآية المباركة ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾(النساء:٤) ثلاثة قيودٍ للأخذ من مهر المرأة، ومثل ذلك مالها حسب الإعجاز البياني الرائع في الآية:

القيد الأول: طيبة النفس.

نجد هذا القيد في هذه الكلمة المباركة ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ فانظر لبيانها المشرق، وتقييدها الحقوقي لأموال النساء.

فكلمة ﴿طَابَ﴾ أي زكا ونما وتعني اتِّصَاف الشَّيْءِ بِالمُلَاءَمَةِ لِلنَّفْسِ مع زيادةٍ تنوف على مجرد الرضا، فلا بد من الرضا وزيادة عليه، ومن ذلك طيبُ الرَّائِحَةِ يدل على زيادة على مجرد الرضا، تصل إلى الاستحسان، وَالريح الطيب إذا كانت ترضي السائر في البحر، وتزيد على الرضا إلى الاستحسان كما في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يُونُس: ٢٢)، ومثل ذلك قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (البَقَرَة: ١٦٨) فضد الطيب الخبيث والرديء، وبذا فإن الآية تقرر أنه يحرم أخذُ شيءٍ من مهرها فضلًا عن بقية مالها سواءً أكان ذلك على سبيل القهر أم على سبيل الحياء.. كما أن الآية تَزَعُكَ لتسلك سبيل الاحتراز الشديد في التعامل مع مال المرأة، فأما إذا طابت أنفسهن بأن يعطينكم شيئًا من مالهن سواءً أكان من الصداق أم من غيره فكلوه هنيئًا مريئًا، وطيبة النفس تعني ألا تضيقوا عليهن.. تعني ألا تحرجوهن حتى يعطينكم إياه، فتقييد أخذ المال بطيبة النفس تقييدٌ شديدٌ يدل على ضرورة أن يتيقن الإنسان رضا المرأة عن ذلك الأخذ، فيمكنها أن تُظْهِرَ الرضا دون أن تطيب نفسها كالأم

التي يستأذنها ابنها في السفر فتأذن له دون طيبة نفسٍ منها.

وكلمة ﴿نَفْسًا﴾ تدل على ضرورة أن تتيقن أن رضاها ليس رضًا ظاهريًّا بل نبع من أعماقهن. وهذا القيد يبين قوة كمال الأهلية المالية للمرأة، وفيه حمايةٌ هائلةٌ لها وصيانةٌ عجيبةٌ لحقوقها، وقد روي عَنِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ مَعَ زَوْجِهَا شُرَيْحًا فِي عَطِيَّةٍ أَعْطَتْهَا إِيَّاهُ، وَهِيَ تَطْلُبُ الرُّجُوعَ فَقَالَ شُرَيْحٌ: رُدَّ عَلَيْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ﴾ فَقَالَ: لَوْ طَابَتْ نَفْسُهَا عَنْهُ لَمَا رَجَعَتْ فِيهِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا: أُقِيلُهَا فِيمَا وَهَبَتْ، وَلَا أُقِيلُهُ لِأَنَّهُنَّ يُخْدَعْنَ[1].

القيد الثاني: الإذن في التصرف بشيء من مال المرأة حال طيبة نفسها متعلق بأن يكون ﴿لَكُمْ﴾ لا لغيركم.

وهذا القيد بصَّرنا به قوله تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾:

فالكلمة ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ مقصودة، وإلا لكان اكتفى بأن يقول (طبن عن شيء)، ومعنى ذلك أنهن لا بد أن يذكرن أن الإذن في التصرف كان لكم لا لغيركم، وإلا فهو لمن أذنَّ له دون غيره، وهذا يدل على أنه قد تطيب أنفسهن بأن يعطين شيئًا من المال، وربما كان ذلك عطية وربما كان لأجل أن يُستَثمر لها مالها، ولكن ليس ﴿لَكُمْ﴾ لشكٍّ في كفاءتكم أو تردٍ في مدى حرصكم على ذلك المال. فلابد من التأكد أن تطيب أنفسهن لكم فقد تطيب لغيركم لحذقهم وكفاءتهم.

القيد الثالث: ألا تستغرق هذه العطية المال كله سواء أكانت عطية قرض أم استثمارًا أم عطية هبة.

وهذا يفهم بطريق الإشارة لا بصريح العبارة من قوله تعالى: ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾،

(١) انظر: تفسير الرازي(٩/ ٤٩٤).

فكلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ تدل على منع استغراق المعطى لكل مال المرأة، وهذا القيد يدل على زيادةٍ في بيان قوة التصرف في مالهن، ويؤيد ذلك كلمة ﴿مِن﴾ التي تدل على التبعيض، ولكن كلمة ﴿مِن﴾ عند الجمهور إنما هي لبيان الجنس لا للتبعيض، لذلك جوزوا للمراة أن تعطي للرجل مالها كله، ونازعهم الفريق الأول، فذُكِرَ عن الليث بن سعد عدم جواز أن تعطيَ المرأة الرجل أبًا كان أم زوجًا مالها كاملًا[1]، فالتبعيض مندوبٌ إليه ليتم التعفف عن قبول الكل من قبل الأب أو الزوج أو الرجل المُعطَى؛ وهو نفسه ينبغي أن يتورع إذا قالت له المرأة: خذه كله؛ لأن الله ﷻ قال ﴿مِّنۡهُ﴾ ولم يقل: (كله)، هذا مما ينبغي أن نشيعه في وعينا في المجتمع لماذا؟ لأن أخذ المال كاملًا قد يكون عن خداعٍ أو ضجرٍ، فربما أعقب ذلك أن تندم المرأة على الإعطاء، وربما ترتب على ذلك مشاكل في الحياة الزوجية، فإن شئت أن تسألني عن اختياري بين القولين فأخبرك أن الأمر عندي يحتمل الرأيين، فقد يجوز أن تعطي المرأة مالها كاملًا في بعض الأحوال، ولكن الأقوى أن التبعيض يدل على مشاركة المرأة للزوج أو للأب أو للأخ في أعباء الحياة استهلاكًا للمال أو استثمارًا، فهو حثٌّ لها على ذلك من جهة أن تطيب نفسها حتى يحصل نوعٌ من المشاركة، وإشارةٌ للرجل أبًا كان أو أخًا أو زوجًا للتعفف من جهة أخرى.

وهناك أمرٌ آخر مشاهَدٌ في واقع الحياة في موضوع التبعيض هو حماية صاحب المال من الاحتياج المستقبلي قدر الإمكان، فقد يتعثر مَنْ أخذ المال، فلا يستطيع رده أو المكافأة عليه، وقد يفشل في استثماره.

فانظر إلى هذا التفصيل العجيب، والتقنين الدقيق الذي حوته ثلاث كلماتٍ من القرآن الكريم، وفيها بيان لكمال حق المرأة في تصرفاتها المالية.

---

(١)انظر: الكشاف (١/ ٤٧١).

فماذا يترتب على توفر القيود الثلاثة السابقة؟

بيَّن الله ﷻ ما يترتب على توفر القيود الثلاثة السابقة فقال: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤)، فدلَّ ذلك على حلية التصرف فيما تعطيه النساء بعد توفر تلك القيود، وقرَّب إليك الله ﷻ هذه الحِلِّية لأخذ ذلك المال، وعبر عن أخذ هذا المال بأكله، فربما يظل المتورعون مترددين في التصرف بما طابت به أنفسهن بعد وجود هذه القيود الثلاثة، لكن الله ﷻ أخبرهم ألا جناح عليهم أن يتصرفوا إن أرادوا من خلال أكل هذا المال إن توفرت هذه القيود الثلاثة، فالتصرف في المال المعطى منهن حلالٌ بلا تردد، ولذا قال ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤)، وذكر الله ﷻ هاتين الصفتين لبيان أنه لا يكون عَلَى الآخذين تَبِعَةٌ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، والهَنِيءُ وَالمَرِيءُ: صِفَتَانِ مِنْ هَنُؤَ الطَّعَامُ وَمَرُؤَ، إِذَا كَانَ سَائِغًا لَا تَنْغِيصَ فِيهِ، فالهَنِيءُ مَا يَسْتَلِذُّهُ الآكِلُ، وأَصْله مِنَ الهَنَاءِ ويقال عيشة هنيئة، والهناءُ مُعَالَجَةُ الجَرَبِ بِالقَطرَانِ، فَالهَنِيءُ شِفَاءٌ مِنَ الجَرَبِ، وَالمَرِيءُ مَا يستساغ هضمه ونزوله فِي مَجْرَاهُ، ولذا سمي مَدْخَل الطَّعَامِ مِنَ الحُلْقُومِ إِلَى فَمِ المَعِدَةِ (المَرِيءُ) لِمُرُوءِ الطَّعَامِ فِيهِ وَهُوَ انْسِيَاغُهُ، وإنما ذكر ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ بعد ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لأن المرء قد يشعر بلذة المطعوم، ثم لا يستطيع أن يسيغه، وكذلك يجد الإنسان في المال المعطى هناءته وراحته مما يؤلمه، فقد يكون قضاء لدين أو إزاحة لهم، أو استثمارًا يستر نفسه بهيئةٍ معينةٍ.

وهنا نرى أنه عبر بالأكل عن حلية التصرفات، والتعبير بالأكل مستعملٌ في القرآن الكريم كثيرًا لبيان الجواز في جميع التصرفات، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ (النِّسَاءِ: ١٠) وَقَالَ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ (البقرة: ١٨٨)، وهذا التعبير القرآني الفريد يحقق هنا عدةَ أهداف:

الهدف الأول: ليكون الِانْتِفَاع بالمعطى تامًا لَا رُجُوعَ فِيهِ لِصَاحِبِ الشَّيْءِ المُنْتَفَعِ بِهِ، كالأكل الذي لا ينتفع به إلا آكله؛ فالأَكْلُ -كما يقول الطاهر بن عاشور[1] -: هُوَ أَقْوَى أَحْوَالِ الِاخْتِصَاصِ بِالشَّيْءِ لِأَنَّهُ يُحْرِزُهُ فِي دَاخِلِ جَسَدِهِ، وَلَا مَطْمَعَ فِي إِرْجَاعِهِ.

الهدف الثاني: لأن الأكل هو أعظم أوجه الانتفاع لضرورته للإنسان، ولبيان بناء جسده منه.

الهدف الثالث: ليشاكل المنع، فبين هنا أنه يجوز أكل هذا المال في مقابل المنع من قربان مال اليتامى في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢).

الهدف الرابع: ليطيب الانتفاع به كطيب المأكول في مقابل تبشيع الانتفاع بما لا يحل مما ورد في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢).

وقد تتساءل عن سبب التعبير بالتذكير في قوله ﴿مِّنْهُ﴾ ﴿فَكُلُوهُ﴾، ولم يقل منها أو كلوها مع أنه نسبة للصدُقات فلِمَ لَمْ يؤنث؟

فلا عجب؛ إذ أعاد الضمير على المال أو المهر فيكون المعنى: فإن طبن لكم عن المال أو المهر، فإذا جاز التصرف في المهر بناء على القيود الثلاثة جاز التصرف في غيره من مالها من بابٍ أولى.

وهنا ترى الكمال التشريعي المدهش في الشريعة الخاتمة؛ إذ يجمع الله ﷻ بين الحماية القانونية الصارمة للحقوق وبين المجال الرحب الواسع للفضل كما رأيت.



(١) انظر: التحرير والتنوير(٤/ ٢٢١).

القسم الثالث

حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال لتأهيلهم وجعلهم شركاء في البناء لا معاول للهدم (النساء:٥)

آية هذا القسم:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء:٥):

المناسبة والاتصال:

ليتم بث الحياة البشرية ذكر الله جلَّ ذكره حقوق الأطفال اليتامى أولًا، ثم ذكر الحقوق المالية للنساء في الزواج المكرم، فهن الأكثر كفاءة للقيام على حقوق الأطفال، وهنا يذكر حقوق السفهاء في المجتمع قبل أن يكمل حقوق اليتامى، وذلك لأن جزءًا منهم ينتمي إلى النساء واليتامى، فهذا الموضوع تكملة لحقوقهم، وليأخذ المجتمع على أيديهم لأجل مصلحة أنفسهم، فلا يكونون أداة تدميرٍ لأنفسهم ومجتمعاتهم، وبذلك يتم العمل على إخراج السفهاء من حالة السفه بتأهيلهم، وناسب أن يتكلم عن تأهيل اليتامى على إثر كلامه تعالى جده عن حقوق السفهاء باعتبارهم أنموذجًا لتأهيل بقية أفراد المجتمع، وثمة حكمة أخرى؛ إذ إن إعطاء اليتامى أموالهم والانتصار للكفاءة المالية للنساء ومثلهن الرجال لا يعني عدم إعانتهم على كيفية تثميره ولا يعني أن نترك ضعفاء التدبير منهم يهدرونه في السفه والعبث المدمر، ولذا فصل الله ﷻ هنا حقوق السفهاء المبعثرين للمال سواء أكان ذلك من جهة النساء أم من جهة الرجال.

ولاحظ أن السورة وهي تقرر الحقوق تذكر السفهاء ولكن باعتبار حقوقهم، فالكلام عن حقوق السفهاء وليس عن إجرامهم، وهذا شيءٌ نادرٌ وفريد أن يكون للسفيه حقوقٌ، فناسب أن يذكر حقوق السفهاء على الأمة، وتأهيلهم ليكونوا لبنة مجتمعية صالحة، وهنا تتعجب من جمال هذه الشريعة، وتتألم عندما ترى المسلمين عاجزين عن إبلاغ العالم الحائر التائه عن هذه المنظومات التي تفصل هذه الحقوق مع كثرة الفعاليات والأنشطة الدولية المحمومة التي تحاول البحث في حقوق الأطفال والنساء من الصين والشرق إلى الغرب.

ومصطلح السفيه في سورة النساء يختلف عن مصطلح السفيه الذي في سورة البقرة عند التفصيل مع وجود جامعٍ مشترك، ويتضح هذا عند تأملنا في كلمات القرآن الكريم، فمن حقوق السفهاء:

الحق الأول: يجب تحديد السفهاء في المجتمع ليحصلوا على حقوقهم في الرعاية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ (النساء:٥).

يمكنك أن تسمي هذه الآية: آية توظيف الأموال الاجتماعية، حيث يبين الله تعالى فيها وظيفة الأموال في المجتمع كما يبين حق المجتمع والأمة في تأهيل السفهاء الذين لا يحسنون التصرف في الأموال، وتراه في الوقت ذاته يبين حقوق السفهاء في حمايتهم وحماية أموالهم التي يجب أن يقوم المجتمع بتوفيرها لهم لمساعدتهم على تخطي عَقَبة التصرفات السيئة الناتجة عن سفههم. ولكن من هم السفهاء؟

السفهاء جمع سَفِيه، كالعلماء جمع عليم، والحكماء جمعُ حكيم، والسفه اضطراب في التفكير، واختلال في الرأي، ونقصان في العقل والتدبير، وضعف في إدراك المصالح والمفاسد، وقد يصحبه انحطاط في الخلق العام دون أن يشعر صاحبه بمستواه المتدني، ومن ذلك يقال: زمام سفيه، إذا كان كَثِيرَ الِاضْطِرَابِ،

وَيقال: ثَوْبٌ سَفِيهٌ، إذا كان رَدِيء النَّسْجِ، ويلخص الطبري معنى السفيه فيقول: «والسفيه: الجاهل، الضعيفُ الرأي، القليلُ المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ.. لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها» (١)، ويبلغ السفه أسوأ ردكاته، وتصل خفة العقل أحطَّ منازلها في أي إنسانٍ يعترض على ربه -تعالى مجدُه-، أو يتقول عليه الأكاذيب ناسيًا مقامه ونفسَه غيرَ قادرٍ ربه حقَّ قدره كما قال الله -عزَّ جارُه-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ (٧٢ الجن: ٤).

والسفهاء صنفٌ لا يخلو مجتمعٌ منهم، وقد يكونون من الأطفال، وقد يكونون من الرجال، وقد يكونون من النساء، وهذا الصنف ينعم الله ﷻ عليه بالأموال التي آلت إليهم بالوراثة، أو بالعطية، إلا أنهم لا يحسنون التصرف في إدارة أموالهم لنقص عقلٍ، وعَمَهِ تصرفٍ، ويدخل فيهم بعضُ الموظفين غيرُ الأمناء الذين يتصرفون في المالِ أو المسؤولية الملقاة على عواتقهم تصرفًا غير راشد تبذيرًا أو عبثًا أو لهوًا أو إنفاقًا مجحِفًا في غير اللائق من أمور الحياة، وحتى لا يفسدوا أموالهم، ويجرموا في حق أنفسهم، وحتى لا يفسدوا بأموالهم مجتمعاتهم، وحتى لا تتعطل أموالهم أيضًا من الاستثمار والتنمية.. لذلك كله أوجب الله ﷻ لهم عددًا من الحقوق التي تعينهم على اجتياز دهاليز الحياة، وتأخذ بيدهم لئلا يصبحوا عرضةً لعبث العابثين، أو ضحيةً لضعف تدبيرهم بين العالمين.

وربما قذفتك الأفكار بعيدًا، فتساءلتَ: هل وصف ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ هنا للذم أو لشيء آخر؟

(١) جامع البيان للطبري (١/ ٢٩٥).

فلا تعجب إن قلتُ لك: إنه ليس للذمِّ، بل هو هنا لقب قانوني يُراد به إعادة تأهيل هذه الفئة، وليس للذم المحض كما في سورة البقرة فلن ترى الهدف من إيراده مثل اللقب الوارد في قوله تعالى جده: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ (البقرة: ١٤٢) وإن أخذ المعنى ذاته، فإيراده في سورة البقرة مرادٌ به الذمُّ الخالصُ، إذ ترى من اتصفوا به يتصرفون تصرف من لا يملك عقلًا أو من ضعف عقله، بينما اللقب هنا قانوني لبيان حقوق هؤلاء السفهاء على المجتمع حتى لا يصبحوا أداة تخريبٍ دون أن يشعروا أنهم يخربون، وتجب رعايتهم من أجل ألا يفسدوا من حيث لا يعلمون أنهم يفسدون، فقد يبلغ بهم السفه أن يدمروا أموالهم، ويفسدوا في المجتمع حولهم وهم يظنون ذلك بطولة كما قال سَبْرَة بن عمرو الفَقْعسي[١]:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب فِي أثمانها ونقامر

وقال عمرو بن كلثوم[٢]:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا
مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِيْنَا
تَجُوْرُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِيْنَا
تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيْحَ إِذَا أُمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيْهَا مُهِيْنَا

واللبانة: الحاجة، والمراد أن الخمر تلعب به حتى يطيش عن قضاء حاجاته الحقيقية.

وهنا يجمع الله تعالى ذكره بين حق هؤلاء السفهاء وحق المجتمع وحق الأمة في

(١) شرح حماسة أبي تمام للفارسي(٢/ ١٦١).
(٢) المعلقات العشر (ص١٠٧).

إجراء عملية التأهيل لهذه الفئة ليفيد السفهاء من عملية التأهيل قبل غيرهم، وليصبحوا من الفئات التي تبني المجتمع بدلًا من أن تدمره بالعبث بمدخراتهم المالية كما يبين حقوق السفهاء في الوقت ذاته في استثمار أموالهم مع حمايتهم من أي استغلال من قبل غيرهم، وترى هنا الجمع بين الملكية الفردية والانتفاع المجتمعي، حيث قال الله تعالى جدُّه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

الحق الثاني: يحرم إعطاء السفهاء أموال غيرهم ليتصرفوا فيها لعدم أهليتهم للتصرف، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (النساء:٥).

فالمراد بأموالكم، أي: المال العام الذي هو حق المجتمع، أو المال الخاص الذي لك أنت أو لغيرك من الناس، فإعطاؤهم الأموال إفسادٌ لهم وللمجتمع حولهم، وتدميرٌ لمقدرات المجتمع الذي يعيشون فيه.. تدميرٌ لثرواتهم، فلا تؤتوهم الأموال بما أنهم لا يحسنون التعامل بها، فهذا الحق لهم كما هو للأمة حفاظًا على الثروة العامة، وحراسة لمقدرات الأمة، ولإعانتهم على ترك الظلم والسوء لأنفسهم، فكأن الله ﷻ يقول للمسلمين: قد تكونون بإعطائكم إياهم الأموال ممن تسببوا في دمارهم ودماركم؛ إذ سيقومون إما بإتلاف هذه الأموال وإما بتوجيهها لتكون دمارًا للإنسانية.. أما والأمر كذلك فإن السفهاء يستحقون الحَجْرَ هنا لئلا يؤذوا أنفسهم أو غيرهم، ومن أمثلة إعطائهم الأموال: أن يُعطِيَ الأبُ مالَه لابنه السفيه، أو يعطي الزوج زوجته السفيهة، أو تعطي الزوجة زوجها السفيه، ومن أبرز الأمثلة العجيبة في هذه الأيام: أن يتحكم سفيهٌ بالمال العام بدرجة وزير أو مدير أو خفير.. فانظر إلى هذه الآية كيف أنزلت.

لقد أنزلت تحرس أموال الأفراد.. نعم، ذلك وعزة ربك حقٌّ.. أتراها تحرس مال الفرد من قريبه السفيه أبًا كان أو أخًا أو ابنًا أو زوجة ثم لا تحرس الأموال العامة؟

ثم املأ قلبك بالإعجاب من هذه التشريعات التي نزلت في وقتٍ مُبَكِّرٍ من التاريخ البشري النسبي لتحميَ الإنسانية من التصرف الضعيف أو الفاسد في أموالها، واعجب بعد متأوهًا كيف تكون الأمة التي نزلت عليها هذه الآية أكثر أمم الأرض تضييعًا لأموالها، تصبر على سفهائها وهم يعيثون بأموالها في الأرض فسادًا، وتَسَلَّى بترديد قول إقبال رحمه الله [1]:

قد هبت الأصنام من بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصور
والكعبة العليا توارى أهلها ... فكأنهم موتى لغير نشور
وقوافل الصحراء ضل حُداتها ... وغدت منازلها ظلال قبور
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا ... في أنعُمٍ ومواكب وقصورِ
بل محنتي ألا أرى في أمتي ... عملًا تُقدمه صَداق الحُور

إن هذا التشريع سبقٌ قرآنيٌ مدهش يقدمه القرآن للعالم ليسبق بها النظم الاقتصادية كما يسبق به الاقتصاديين العالميين، وأذكر هنا أن ابن المبارك لما توفي رؤي في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي برحلتي في الحديث ثم قال: عليك بالقرآن، عليك بالقرآن، عليك بالقرآن، وهذا يذكرني بقول الشاعر القديم:

يَا قَوْمِ إِنَّ لَكُمْ مِنْ إِرْثِ أَوَّلِكُمْ ... عِزًّا قَدْ أَشْفَقْتُ أَنْ يُودَى فَيَنْقَطِعَا
لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلاَ دَخَلٍ ... فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ القَوْلِ مَا نَفَعَا

والعجيب أن الله ﷻ قد شدد في عدم إعطاء السفهاء الأموال حفاظًا عليهم وعلى المجتمع، ولئلا تكون وبالًا على السفهاء وغيرهم، ومما يؤكد هذا التشديد ما جاء

(١) فيلسوف الإسلام، وشاعر الإنسانية الهندي الباكستاني: محمد إقبال .

عن أبى موسى ﷺ عن النبِي ﷺ قال: «ثلاثةٌ يدعون اللَّه فلا يستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجلٌ كان له على رجلٍ مال فلم يُشهِد عليه، ورجلٌ آتى سفيهًا ماله وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾»[1].

الحق الثالث: يحرم إعطاء السفهاء المال الخاص بهم لعدم أهليتهم للتصرف فيه.

وهذا هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾(النساء:٥):

وهذا هو المعنى الثاني لكلمة ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾؛ إذ يجوز أن تكون بمعنى أموالكم كما في الحق السابق، ويحمل الكلام على الحقيقة، ويجوز أن تكون بمعنى أموالهم على سبيل المجاز، حتى تحافظوا عليها محافظة عظيمة كأنها أموالكم، فالسفيه هنا يملك لكنه لا يتصرف، وذلك كالأيتام أو الأولاد فلا يعطيهم الوصي أو الأب مالًا هو لهم إن لم يحسنوا التصرف فيه، وإنما نسب ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى المخاطبين للتنبيه على عدة أمور:

أولًا: ليتعاملوا معها كما لو كانت هي أموالَهم، إجراءً للوحدة بالنوع مجرى الوحدة بالشخص، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة:١٢٨) وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي إخوانكم كما في قصة الذين تابوا في قصة موسى عليه السلام، فجعل الأخ بمثابة النفس، كذلك جعل أموالهم بمثابة أموالكم، وقوله:﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٨٥).

ثانيًا: ليبين الله -عزَّ جاره- أنه إذا ضاع هذا المال، ولم يبق للسفيه من ماله ما ينفق منه عليه وجب على وليه أن ينفق عليه من مال نفسه، فبذلك تكون إضاعة مال السفيه مفضيةً إلى شيء من مال الولي، فكأن ماله عين ماله، وكذلك إذا أنفق الولي

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢ / ٣٣١) برقم ٣١٨١ وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (١٢ / ٣٣٣) برقم ٥٣٨٦.

قدرًا زائدًا على المحتاج إليه من مال اليتيم ترفهًا فإنه يضمنه من ماله.

ثالثًا: لأن الأموال وإن كانت أموالَهم إلا أن للمجتمع فيها حقًّا.. وقد تتساءل: ما الحقُّ الذي للمجتمع في أموالٍ خاصة؟

أجيبك بأن حق المجتمع في الأموال الخاصة أن يتصرف فيها مالكوها تصرفًا راشدًا لا تصرف السفهاء، بما يؤدي إلى تنمية المجتمع وتعميره لا إلى زلزلته وتدميره.

من المخاطب المكلف بتوفير هذه الحقوق للسفهاء؟

المخاطب في قوله تعالى ذِكرُه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أولياء الأزواج والزوجات والأوصياء كما هو السياق إلا أن عموم اللفظ يدل على أن المخاطب جميع الأمة.. ماذا يعني ذلك؟

إنه يعني أن تقوم الأمة بالرقابة اللازمة على من يتصرف بسفهٍ في الأموال سواء أكان في ماله الخاص، أم في مال الأمة العام.. وهذا يقتضي إنشاء مؤسسات أهلية وحكومية لحراسة الأموال العامة والخاصة من العبث والاستهتار.. وتعجب من أمة تنتشر فيها مقاطع العبث الصارخة بالأموال ثم لا توجد جهاتٌ تأخذ على أيدي السفهاء.. ولعلك رأيت مقطع وضع الأموال الطائلة مع علف الأنعام تأكله ضمن علفها.. ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، ولا يوجد من يذكرهم في مجتمعاتهم.

فماذا أنت قائلٌ فيما ترى من سفهٍ مجرمٍ مفسدٍ في أموال الأمة هذه الأيام؟.

والآية تدل على أن المنافع الكبرى للأمة لا تكون إلا إذا كانت الأموال في يد إدارة راشدة، يتصرفون فيها بما لا يليق بها لتقوم على حياتهم وتؤمن استقلالهم وكرامتهم، فإذا تحكم فيها السفهاء والعابثون كانت سببًا للدمار، والخراب، والإفساد

في الأرض.. ربَّنا فرِّج عن هذه الأمة المكلومة الحزنى يا أرحم الراحمين.

الحق الرابع: يجب الاهتمام بأموالهم وأموالكم العامة والخاصة، والحرص عليها؛ لأن الله جعلها لكم قيامًا أي جعل الحياة تقوم بها وعليها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ (النساء:٥).

فالآية تبصرك بأن المنافع الكبرى للأمة لا تتحقق إلا إذا كانت الأموال في أيدي الراشدين يتصرفون بها بما يليق بها، فإذا تحكم فيها السفهاء والعابثون كانت سببًا للدمار والخراب والإفساد في الأرض، وحتى تشعر بذلك ينبغي أن تعلم أن في قوله تعالى ذكره: ﴿قِيَـٰمًا﴾ [١] قراءتين توضحان مشهدين، وتدلان على مفاهيم:

المفهوم الأول: المال قوام المعايش الدنيوية، وهو الذي يتيح لكم أن تسيروا في العالم قائمين لا تنحني رؤوسكم أمام عواصف الحياة، وشدائها، وتقلباتها، وتوضحه قراءة الجمهور ﴿قِيَـٰمًا﴾: فهو مصدر قام قيامًا يوصف به الذي يقوم بالمصالح، فهو مَا يُقِيمُكَ، أو هي قائمة بأموركم، فأنتم تقومون بها، وهي تقوم عليكم، يقَالُ: فُلَانٌ قِيَامُ أَهْلِهِ، وَقِوَامُ بَيْتِهِ، وَهُوَ الَّذِي يُقِيمُ شَأْنَهُ، أَيْ: يُصْلِحُهُ، والقيام اسمٌ لما يقوم به الشيء، أي يثبت، كالعماد، والسناد، فإن ﴿قِيَـٰمًا﴾ مصدر، والإِخْبَارُ عَنِ الأَمْوَالِ بِهِ إِخْبَارٌ بِالمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ قَوْلِ الخَنْسَاءِ: فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ وَالمَعْنَى أَنَّهَا تَقْوِيمٌ عَظِيمٌ لِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَلَمَّا انْكَسَرَتِ القَافُ فِي قِوَامٍ أَبْدَلُوا الوَاوَ يَاءً، ومثله قراءة نافع وابن عامر ﴿قيمًا﴾ على قولٍ، فهما مصدران يصفان الأموال هنا، والكعبة في المائدة، ووصف الدين في الأنعام بالقِيَم والقَيِّم؛ أي: هو مستقيم قال حسان بن ثابت رضي الله عنه [٢]:

فنشهدْ أنكَ، عندَ الملي كِ أرسلتَ حقًا بدينٍ قيمْ

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص ٤١٢)، فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨٩)، التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٥).

(٢) ديوان حسان بن ثابت (ص: ٢٠٦).

والمعنى كما يقول الزمخشري: «أي تقومون بها، وتتعيشون، ولو ضيعتموها لضعتم»[١]. فقد قرر الله تعالى أنه لا يحصل قيامكم الحيوي إلا بالمال، فالمال هو قوام حياتكم، فأكلكم وشربكم وبناؤكم وحركتكم وتربيتكم وفق ما عندكم من المال، فلما كان المال سببًا للقيام والاستقلال سماه بالقيام إطلاقًا لاسم المسبَّب على السبب.. وكيف لك أن تؤدي أنشطتك الدنيوية إلا بالمال؟ «لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل ما يهمه من الدنيا، وما لم يتمكن من تحصيل ما يهمه من الدنيا لا يمكنه أمر الآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة ما يكفيه من المال؛ لأنه لا يتمكن في هذه الدار التي مبناها على الأسباب من جلب المنافع ودفع المضار إلا به، فمن أراده لهذا الغرض كان من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، ومن أراده لنفسه كان من أعظم المعوقات عن سعادة الآخرة»[٢]، ولتثبيت ذلك في العقلية المسلمة يحدثنا عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ دعاه فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني»، فأتيته وهو يتوضأ فصَعَّدَ فيَّ النظر ثم طأطأه، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» قلت: يا رسول الله! ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال: «يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح»[٣].

المفهوم الثاني: المال أساس الاستقلال الحقيقي، وبوابة التأثير الحر في التعامل المحلي والعالمي؛ إذ يمكنكم بواسطته التصرف الحرُّ أفرادًا وأممًا، وينمي هذا

(١)الكشاف (١/ ٤٧١).

(٢) نظم الدرر٥/ ١٩٥.

(٣)أحمد (٤ / ١٩٧) برقم ١٧٧٩٨، وصحح الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٢٩.

المعنى في نفسك القراءة السابقة، وكذلك قراءة نافع وابن عامر ﴿قِيَمًا﴾؛ إذ ذهب البصريون إلى أنها جَمْعُ قِيمَةٍ، كَدِيمَةٍ وَدِيَمٍ، أَيْ: جَعَلَهَا اللَّهُ قِيمَةً لِلْأَشْيَاءِ، وأثمانًا لها، أي فكيف تتصرفون إن أهدرها السفهاء؟

وإنك -وعزة الله- لتعجب إذ لا ترى لمن نزلت عليهم هذه الآية استقلالًا ماليًا، كيف إلى الآن لا يوجد لديهم مصانع يستقلون بها عن الاستيراد من الخارج.. مصانع حقيقية وليست مصانع تجميع، وهو أساس قدرتهم على الشراء والإثراء والتأثير في الواقع العالمي.

والاستقلال الفردي يجليه لك سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ حينما جاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله ! تمسك هذه الدنانير؟! فقال: اسكت، لولا هذه الدنانير لتمندل (يعني: لتمسح) بنا هؤلاء الملوك[1].

إن ورود هذه اللفظة ﴿قِيَمًا﴾ ضمن حقوق السفهاء يكاد يصرخ بهم ليسارعوا في البناء الاقتصادي لأنفسهم، وهذا مفهومٌ لا يتنافى مع الزهد.

فانظر قوة لفظة ﴿قِيَمًا﴾ هنا؛ إذ يتراءى لك أن معناها: التي تقوم بها حياتكم ومجدكم، ومثال ذلك هذه الخيرات المدهشة الموجودة في العالم الإسلامي من الطاقة الشمسية إلى الثروة الزراعية إلى السلاح النفطي والثروة السمكية، وأهم من ذلك كله الثروة البشرية.. أفلا يدل تضعضع الأمة ووهنها على أن سفهًا أصاب هذه الأمة فصار يتحكم بها؟ وحتى يظهر الأمر المبكي المضحك في هذه الأمة فاضرب لهم مثالًا بشركة سامسونج الكورية كبرى الشركات الالكترونية التي سجَّلت أرباحًا صافية خلال الربع الثاني من عام ٢٠١٥م بلغت ٥,٥ مليار يورو، ومعنى ذلك أن أرباحها السنوية تفوق بعض ميزانيات بعض الدول العربية الغنية.

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٨١).

فهذه الآية التي تبني الحياة الإسلامية ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (النساء: ٥) تشير إلى ضرورة المحافظة على الثروة العامة والاحتياطات المالية بهذا الوصف القرآني الفريد للمال ﴿قِيَٰمًا﴾، وعن ابن عباس ﷺ: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جُزْءًا من النبوة»[١]، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يَتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة، تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك»[٢].

فقارن هذا الحث الشديد على الاستثمار، وبيان أهمية المال، وخطورة الاقتصاد بما ورد في إنجيل متى:

«(١٩: ٢٣) إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات (٢٤) وأقول لكم أيضًا: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»،

وورد فيه أيضًا٦: ٢٤ لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون، وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. ٢٦ انظروا إلى طيور السماء: إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟

وهذا الكلام إن صح عن عيسى عليه السلام فله تأويله السائغ، والمسيح عليه السلام يلوم الغني الذي لا يؤدي حق ماله، أو يريد ألا يكون المرء عبدًا للمال، كما يريد أن

(١) أحمد(١ / ٢٩٦) برقم ٢٦٩٨ - وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٩٩٣.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٠٣) برقم ١٢٩٥.

نتوكل على الله حق توكله، وهذا الكلام العيسوي المبارك من المشكاة ذاتها التي خرج منها قول النبي الخاتم ﷺ: « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(١)، ولكننا لا بد أن نجمع بينها وبين البيان الإلهي الأخير الذي يمتاز بالوضوح الكافي الذي يزعج القلب إزعاجًا لأجل أن يهتم المخاطب بالمال ويدرك خطورة إدارته للحياة كما في هذا التعبير المدهش: ﴿قِيَمًا﴾ و﴿قِيَمَا﴾.

ومن المدهش أن ترى أتباع عيسى عليه السلام قد تركوا مثل هذا الكلام إلا خرافاتٍ ابتدعوها أو ابتدعوا معانيها يرضون بها غريزة التدين، ولذا ترى أممهم فاقت وارتفعت، وحدث عندنا العكس؛ إذ تركنا كتابنا فظلمنا أنفسنا والعالم حولنا، فأصابنا عذابٌ بَئِيسٌ بما تركنا من كتابنا.

الحق الخامس: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ (النساء:٥).

فعدم إعطاء المال لا يعني تركهم دون قيام على ما يكفل لهم الحياة الكريمة، ويقصد بالرزق هنا العطاء العام للأمور المحتاج إليها من الأشياء الحسية، والمعنوية كالطعام، والدراسة.

فلابد من الإنفاق عليهم حتى يوجب لهم الحياة الكريمة، وأول ذلك الطعام كما قال في آية المرضعات: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (البقرة:٢٣٣)، أي أعطوهم ما يشعرهم بحرية التصرف، دون أن يفضي ذلك إلى إعطائهم ما يزيد سفههم، وهذا يعني القيام عليهم بتوفير ما يحتاجون إليه، ومنعهم من التصرف غير المناسب إلى الوقت الذي يتمكنون فيه من التصرف في أموالهم، ومثال العطاء

(١) أحمد (١/ ٣٠) برقم ٢٠٥، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالله بن هبيرة فمن رجال مسلم».

الممنوع في أيامنا هذه: إعطاء الولد الذي يعلم عبثه أدوات تزيد طيشه -كالهاتف، والسيارة، ومعها مصروف (الجيب)- دون حساب.

الحق السادس: وجوب استثمار المال لهم.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ (النساء:٥).

يجب أن يرزقوا ما يحتاجون إليه، وينبغي استثمار أموالهم، وفهمنا استثمار أموالهم من قوله ﴿فِيهَا﴾، فأمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ (النساء:٥) بأمرين معًا: أن يتم الإنفاق عليهم، وأن تنمى أموالهم، فلم يقل (منها)، وذلك لأن المراد بقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ استثمارها وليس تنقصيها بالنفقة منها كما قال صاحب «الكشاف»: «أي اجعلوها مكانًا لِرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتتربحوا؛ حتى تكون نفقتهم من الربح لا من صلب المال»[1]، وهل يكون ذلك إلا بالاستثمار الحقيقي للمال، والبحث عن وسائل تنميته، وهذا يقتضي البحث عن المال، وتثميره، وعدم إهلاكه، وكذلك عدم إعطائه لمن لا يدرك قيمته، فيكون إعطاؤهم من الأموال حسب حاجتهم المعتادة، ويقوم المُعطِيَ بتنويع طريقة الإعطاء، فتارةً يعطيهم من ثمنها، وتارةً يعطيهم من رأسها، وتارة يعطيهم من ربحها.

الحق السابع: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ (النساء:٥).

وخصها من أنواع الرزق؛ لتساهل الناس فيها، والمراد الكسوة المعتادة لا الكسوة المبالغ فيها التي تعصف بأموالهم.

الحق الثامن: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ (النساء:٥).

أي قولوا لهم القولَ المعروفَ حُسْنَهُ قبل أن ترزقوهم، وتكسوهم، وبعد ذلك.

---

(١) الكشاف (١/ ٤٧٢).

والقول المعروف حسنه يدخل فيه:

۞ القول الحسن، فلا تغلظوا لهم القول، أو تقهروهم في الخطاب، أو تشعروهم بكونهم عبئًا عليكم، بل قولوا لهم قولًا معروفًا حسنُه وجمالُه من كل ما سكنت إليه النفس، واطمأنت، وشعرت بقيمتها ومكانتها.

۞ الوعد الجميل بالبر والصلة، فتعدونهم بالجميل إذا حصل الربح أو الفلاح كما يشير إليه ابن عباس ﷺ [١].

۞ التعليم والإرشاد بالأسلوب المتعارف على تأثيره وقوته، كتعليمهم ما يؤهلهم لاستلام أموالهم عند الرشد، ومن ذلك ما أشار إليه القفال: إن كان المولى عليه صبيًّا، فالولِي يعرفه أن المال ماله، وهو خازن له، وأنه إذا زال صباه، فإنه يرد المال إليه، ونظيره هذه الآية قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (الضُّحَى:٩)... وكذا قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (الإِسْرَاءِ:٢٨) وإن كان المولى عليه سفيهًا وعظه، ونصحه وحثه على الصلاة، ورَغَّبه في ترك التبذير والإسراف، وعرفه أن عاقبة التبذير الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى ما يشبه هذا النوع من الكلام[٢].

ولكن لماذا أمر الله ﷻ بالقول المعروف؟ لعلك تجد الجواب في أن العادة أن يستهين الناس بالسفيه.. فقد جرت العادة ألا يظهروا الاهتمام به، فأمر الله تعالى بالقول المعروف لهم ولا يستهان بذلك وإن لم يشعروا بذلك، ولأن القول المعروف أول الدرجات المعالجة التي تسهم في إزالة السفه؛ فالقول الجميل يؤثر في القلب، أما خلاف القول المعروف، فإنه يزيد السفيه سفهًا، والسوء قبحًا؛ لأنه

(١) تفسير الرازي (٩/ ٤٩٦).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٤٩٧).

إن زجر خالف كما قيل:

إذا نهي السفيه جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف

والآن بعد أن وجدت أن هذه الآيات الست فصلت لليتامى ستة عشر حقًا، وفصلت للنساء في موضوع الزواج فقط ثمانية حقوق، وفصلت للسفهاء ثمانية حقوق.. كل ذلك في صفحة واحدة تكونت من ست آيات.. بما تشعر إزاء ذلك؟ ألا يدهشك هذا التفصيل التشريعي الحقوقي؟

ألا تشعر بأنه يصل إلى حد الإعجاز؛ إذ نزل هذا الكلام على نبيٍّ أمي في أمة بعيدة عن الحضارة والثقافة والتشريع في زمانه؟ فلماذا لا نقدم هذه الرسالة العظيمة إلى المنظمات الدولية التائهة؟ لماذا لا نساعدها في التقنين الراشد لحقوق الفئات الإنسانية المختلفة؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للأيتام؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للنساء؟ لماذا لا نعقد اللقاءات بهم لنخبرهم عن الإيجابيات العظيمة والمكاسب الضخمة التي تكسبها الإنسانية لو طبقت هذه الشريعة الرائعة الربانية التي يقول الله -تعالى جده- عنها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

أغمض عينيك، وفكر في حال العرب واليهود في المدينة عندما نزلت هذه الآية وما قبلها وما بعدها، وقل لي: أليست الآية تمثل أنموذجًا للإعجاز القانوني الاقتصادي الاستثماري في القرآن الكريم؟ وهل كان المستوى الفكري للعرب وحتى اليهود يطيق أن يستوعب مثل هذا التفصيل؟

القسم الرابع

القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه (النساء:٧-١٠)

آيات هذا القسم:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:٧-١٠).

المناسبة والاتصال، وفكرة القسم:

بعد أن ذكر الله ﷻ الحقوق المالية لأهم الفئات المستضعفة في المجتمعات، وهم: اليتامى، والنساء، والسفهاء، جاءت هذه الآيات لتبين القوانين العامة في الحقوق الإنسانية في الإرث وغيره، ولماذا الإرث؟ لأنه أول مصادر الدخل المالي، والرافد المادي الجبري الذي تتكون الثروة من خلاله، وتبدأ آيات هذا القسم بقوله تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧)، ومن بداية القسم ترى الانتصار للنساء في استحقاقهن الإرث، ليرد على العادات الجاهلية الظالمة القديمة والحديثة التي كانت تحرم فئات معينة من الإرث، فقد ذهب بعضهم إلى حرمان النساء، وذهب بعضهم إلى حرمان الإيتام من الإرث، وترى البيان الإلهي العظيم الذي يقرر أن لغير الورثة

حقوقًا في الإرث كاليتامى والنساء ردًا على العادات الجاهلية التي كانت تحرمهم من ذلك.. وها هنا تبرق عيناك إذ تلوح لك مناسبة أخرى مع ما سبق في الآية السادسة من ذكر حقوق اليتامى؛ إذ أراد الله -عزَّ جارُه- أن يبين مصدر الأموال التي أوصى بأن تُسَلَّم لليتامى وكذلك للسفهاء بعد تأهليهم، وللنساء.. فقد يقول قائل: من أين اكتسبوا الأموال وهم يُسعى عليهم؟

فجاء الجواب ليبين استحقاقهم للإرث، وذكر الله ﷻ قوانين الإرث في قسمين:

هذا القسم العام الذي قرر الله ﷻ فيه القوانين العامة لنظام الإرث في الإسلام، والقسم الثاني حيث فصل الله جل ذكره نصيبَ كلِّ واحدٍ من الورثة، فالقوانين العامة التي ذكرها هنا هي الآتية:

القانون الأول: السبب الأساسي للإرث هو القرابة التي تضم النسب، والولاء بغض النظر عن الجنس والسن.

القانون الثاني: ينبثق عن السبب الأساسي سبب آخر في مقادير الإرث، وهو تكامل الجنسين وإثبات الحقوق لكل منهما.

فالحياة قائمةٌ على التكامل، وليس على التنازع، ويجب الاهتمام بتوزيع الإرث لأصحابه مهما قل المقدار، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء:٧):

وهذا القانون الأول أخذ الصبغة الدستورية العظيمة في إثبات حق الرجال الذين ربما كانوا ضعفاء، مثل الولد الذي ليس له جاه في المجتمع، وكذلك في إثبات حق النساء، وفرَّع عن هذا القانون العام الأنصبة وفق نظامٍ عادلٍ، بخلاف أهل الجاهلية

الأولى حيث كانوا يختارون من النسب ما يشاؤون، فيحرمون الصغار، والنساء، ويجعلون الوصية حاكمة في التوزيع حتى للحليف الذي يقولون عنه: الدم الدم والهدم الهدم، وربما كانت الوصية للمتبنى الذي يُعامل معاملة الولد، وهذا قريبٌ من الجاهلية المعاصرة التي تجيز استئثار الكلب بالوصية، فذِكْرُ استحقاقِ الرجال والنساء للإرث انتصارٌ للفئتين اللتين كانت تحرمهما الجاهلية الأولى والجاهلية المعاصرة من الإرث، وهما: من لا يرغب المورثون بأن يرثوا المال من الرجال والنساء، وأخبر عنهما الإمام عبد الرحمن بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «كان النساء لا يورَّثن في الجاهلية من الآباء، وكان الكبير يرث، ولا يرث الصغير وإن كان ذكرًا»[١]، فمارست الأنظمة البشرية القديمة والحديثة أبشع الظلم في توزيع الإرث.

وبهذه الآية يمكن تقرير أن الإسلام قرر أن أسباب الإرث الباقية ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء، ويبين لنا عكرمة أن الآية أعادت الحقوق المصادرة للنساء والصغار مما لم تكن تعرفه العرب ولا بقية الأمم غالبًا، فيقول: نزلت في أم كحلة (كُجَّة)، وابنة كَحْلة، وثعلبة، وأوس بن سويد، وهم من الأنصار، وكان أحدهم زوجها، والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفي زوجي، وتركني وابنته، فلم نورَّث! فقال عم ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرسًا، ولا تحمل كلًّا، ولا تنكأ عدوًّا، يكسب عليها، ولا تكتسب! فنزلت هذه الآية[٢].

لاحظ كيف منع الأم وابنتها من الإرث وجعله للذكور فقط أو للأكبر فقط؛ وجعل معيار الإرث هو القوة والغلبة.

وهذا قريب من بعض القوانين الدولية القائمة على عنصرية نظام الفيتو، وهل هذا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٥٩٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٥٩٨).

إلا شرع القوة الأقرب إلى أن يكون شريعة الغاب؟، وأما البنات عندهم.. عند كثيرٍ من العرب فلا يرثن شيئًا في ذلك النظام المجرم، وأما الزوجات فهن في الجاهلية القديمة موروثات لا وارثات، وفي الجاهلية المعاصرة يحتال على حرمانهن؛ لأن الأمر فقط قائم على وصية المورث.

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ بالمدى الذي تقوم فيه الشريعة بالاهتمام بحقوق النساء بصورة واضحة:

ولذا كرر النص عليهن؛ لأن المقام مقام إثبات حق منتزع ومغتصب أصلًا، فلا بد من الإطناب الواضح فيه، ولأنه قائم على العدالة فلا ينبغي أن يلعب الهوى بالأنصبة، ولا يجوز أن توجد المحاباة لأحد من الجنسين؛ إذ ذلك يؤدي إلى أن يعيث الشيطان فسادًا في النفوس، وهذا الانتصار العظيم لحقوق النساء لا يعني المحاباة لهن أيضًا على حساب الرجال، بل يأخذن من الإرث ما تقتضيه العدالة، وينتجه المنطق العقلي على وفق الواقع المتميز للحماية والرعاية مما تحظى به المرأة أمًا كانت أم زوجة أم أختًا، ويناسب أن نذكر من طرائف المسائل المسألة الدينارية الكبرى التي تسمى الشاكية أو الركابية، وسميت بذلك لأنهم زعموا أن امرأة جاءت إلى علي رضي الله عنه، فقالت: مات أخي عن ستمائة دينار، فلم أعط إلا دينارًا واحدًا.

فقال لها: لعل أخاك ترك زوجة وبنتين وأُمًّا واثني عشر أخًا وأنت.

فقالت: نعم.

فصوب قضاء شريح الذي قضى لها بذلك؛ إذ للزوجة: الثمن خمس وسبعون، وللبنتين: الثلثان أربعمائة، وللأم: السدس مائة، وللإخوة مع الأخت الباقي تعصيبًا وهو خمس وعشرون: للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقد تتساءل: إذا كان يريد إثبات حقوق الذكور من الأطفال، فما هي الدلالة البيانية للتعبير عن الذكور بالرجال في قوله تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء: ٧)، فالرجال جمع رجل وهو البالغ من الذكور أو المتصف بالرجولة الدالة على الكمال العقلي والنضج الجسدي في الذكور، فلم يقل للذكور، والنساء اسْمُ جَمْعٍ، لَا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، مثل قَوْم ورَهْط وفُلْك فلا مفرد لها من ألفاظها، ويغني عنها ما يقوم مقامها، والمقصود أن النساء هن البالغات من الإناث، وجعلوا لها صلة بالنَسوء وهي امرأةٌ مَظْنُونٌ بهَا الحَمْلُ، فلم يقل هنا للإناث مع أن الكلام هنا عن حقيقة الجنس، وليس عن الصفة.

والجواب: وانظر لجمال التعبير ودقته البالغة، إذ ذكر الرجال والنساء، ولم يذكر الذكور والإناث ليثبت الإرث للذكور وللإناث وفي الوقت ذاته ليحثَّ على تربية الصغار منهم وتأهيلهم حتى يبلغوا سن الرشد، وعندما يصبحون متصفين بالرجولية والنسوية التي يمكنهم معها حسن إدارة المال يُسلم لهم الميراث كما في الآية السابقة.

ربما يكون ذلك لتعطى لهم أموالهم عندما يتصرفون فيها تصرف الرجال، وإلا فسيبقون ضمن فئة السفهاء التي يرعى حقوقها المجتمع بدلًا من العبث فيها وتبديدها، وهنا تعرف لماذا كان هذا الترتيب المنطقي للآيات حيث جاءت هذه الآية لتثبت الحقوق الإرثية بعد أن ذكر في الآية السابقة متى يسلم اليتيم أمواله، فربما نشأ سؤال بعد أن آنسنا الرشد من اليتامى، وتم تسليم الأموال لهم والإشهاد عليهم، فمن الذي يستحق الأموال الموروثة؟ فتأتي الإجابة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

فتضمنت الآية إثباتَ حقوق الجنسين إجمالًا نصرةً للنساء وإنصافًا لحق الرجال

بما يناسب الدور الذي يؤديه كل واحدٍ منهما في الحياة البشرية.. إنه الإثبات العادل الذي يقوي الأسرة التي هي نواة المجتمع.

واقرأ الآية لترى فيها أنه نص على تقسيم ما قل أو كثر ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، وذلك لكي لا تتهاون في إعطاء كل ذي حقٍّ حقه، ولا تتأول نفسك أن فلانًا لن يأخذ نصيبه؛ لأنه قليل مستحقر، وأن فلانة لا تحتاج إلى أخذ نصيبها؛ لأنه لا يساوي شيئًا.. أمر الله ﷻ بتقسيم القليل والكثير حسب الأنصبة دون تردد، وذلك لأنه يخبرنا في هذه السورة أن الأنفس أُحضِرت الشح، فاحترس من حجب شيء من حقوق الناس، فيوقع الشيطان في أنفسهم ما لا يمكن رتقه من الألم وسوء الظن والغضب.

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا[1]

القانون الثالث: نظام الإرث الإسلامي قائمٌ على ستة مقاصد: بث الجنس الإنساني، والعدالة، والتكافل، والتكامل، والحقوق والواجبات، والإعانة للوارث حسب المسؤوليات القائمة والمستقبلية:

أراد الله -عزَّ جاره- أن يُهْديَ للبشرية نظام الإرث الذي يمثل الرحمة الحقيقية بالإنسانية ليبقى لها الاستقرار والبث والانتشار، فينتقل من ذوي القرابات بالرحم أو الولاء لتتكون الأسر المتعددة التي تكون المجتمع، ويقوم على العدل الذي يعني إعطاء كل ذي حقٍّ حقه، ومن أكبر وأبشع أنواع الاختراق الفكري في العصر الحديث أن يأتي من يحاول إبعاد كلمة العدل، ويجعل موضعها كلمة أخرى.. ما هي هذه الكلمة الأخرى؟ المساواة.. إن الإرث مثل سائر الأمور الحيوية والحقوقية يقوم على العدل، أما المساواة فقد تكون صورةً من صور العدل في موضعها، وقد تكون صورةً من صور الظلم.. واضرب لهم مثلًا بموظف يعمل أربعة عشر ساعة أو عشر

(١) القائل هو: زُفَرُ بنُ الْحَارث الْكلابِيُّ. انظر: حماسة البحتري (ص ٦٨).

ساعات.. هل تصر على مساواته بموظفٍ يعمل ساعةً واحدةً فقط حال كون الإنتاج من كلٍ منهما مختلفًا حيث ينتج كلٌّ منهما حسب ساعات عمله؟ فكيف يعقل بأن يأخذ الابن في الإرث ما تأخذه أخته مع أنه ينفق عليها وعلى أمه وعلى زوجته.. فالأساس الثاني لتقسيم الإرث بعد القرابة: العدل، وحتى يتحقق ذلك فلا بد من أصلٍ واضحٍ يعتمد عليه، فجعل الله ﷻ ذلك الأصل هو القرابة.

ثم تجد أن ثالث الأسس بعد العدل التكامل بين الجنسين في الحقوق، ورابع الأسس: الحقوق والواجبات التي كلف بها كل من الجنسين، فالحياة قائمة على التعاون وليس على التنازع، وعلى التكافل والتآزر البشري، وليس على شريعة الغاب والقوة، وهذا الأساس الخامس، وسادسها: المسؤوليات والتبعات القائمة والمستقبلية التي سيتحملها كل منهم في القيام على أسرته الصغيرة والكبيرة، وقد وضع المسلمون لذلك قاعدة فائقة استنبطوها من فقه المواريث وفقه المعاملات القرآني، وهي قاعدة الغنم بالغرم، وهذا عدل كامل، ولذا جعلت الشريعة على القرابة (العاقلة) حق الإعالة، والتضامن في الديات والنوائب، وبذا ينتظم موضوع التقابل العادل والمحسن في الحقوق والواجبات، فكان هذا القسم لنصرة المضطهدين في هذا الموضوع.

ومن أمثلة هذه القاعدة: رجل له زوجة وأولاد وأم وأخوات؛ فيجب أن ينفق على الجميع، فليس من العدل أن يكون نصيبه في الميراث أقل؛ لأنه غارم، وكذلك لو نظرنا للأم فسنلاحظ أن نصيبها في الميراث أقل من نصيب الولد؛ لأنها مُنْفَقٌ عليها.

فأنت ترى أن أول من يقوم بإعانة الإنسان فرعه، أو أصله، ثم بقية أقاربه، فإن لم يكفوا، أو لم يقوموا بما يجب عليهم، وجب على جماعة المسلمين التآزر والتعاطف؛ فهم كالجسد الواحد، ثم إن الدولة يجب عليها القيام بالبقية، بما يؤدي إلى سعادة

الإنسان، ورفعته، وكرامته، كما قال ﷺ: «أَنَا أَوْلَى بِالمؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا، فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا، فَلِوَرَثَتِهِ»(١)، وفي رواية: «وَمَنْ تَرَكَ كَلًا، فَإِلَيْنَا»، وفي رواية: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلاَّ وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلاَهُ»(٢).

وهذه الطريقة في توزيع الثروة تهدف إلى استيعاب جميع الحالات المحتاجة إلى التكافل، فإذا لم تكفِ هذه الخطوة يأتي دور الدولة المسلمة لتتولى عبء مسؤولية الرعاية التامة للعجزة أو الفقراء أو أصحاب البطالة الحقيقية، وهذا معنى قوله ﷺ: «وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلاَهُ».

القانون الرابع: الإرث ملك جبري يخرج جبرًا عن المورث، ويدخل في مال الوارث رغمًا عنهما ليتحقق للإنسانية البث والاستمرار فتوزع الثروة وتقسم بين الأجيال القادمة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ ويكفي أن ترى هذا الهدف العظيم لتتم التنمية في المجتمع؛ ولمنع أن يصبح المال دولة بين فئة محددة، واعتمد هذا التقسيم على المصدرية الإلهية الواضحة.

فالإرث مفروض أي مقطوع به من فارض له هو الله ﷻ، ومفروض عليه وهم البشرية مورثًا ووارثًا ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ (النور: ١)، فتوزيع الحقوق الإرثية فَرَضه وفرَّضه الله ﷻ؛ لأنه العليم الخبير بمن خلق وليست من عقولنا التي لا تستطيع أن تحيط بالتفاصيل، وبما أنه ذو مصدرٍ إلهي فلا ينبغي عند ذلك التنازع ولا الغضب، وتتعجب ممن يأتي بجهله ليحاول الطعن في علمٍ نتعلمه من

(١) صحيح البخاري ـ ترقيم فتح الباري (٣/ ١٢٨) برقم ٢٢٩٨.

(٢) صحيح البخاري ـ ترقيم فتح الباري (٣/ ١٢٨) برقم ٢٣٩٨، ٢٣٩٩.

الوحي.. تتعجب ممن يأتي بعجزه البشري، وإدراكه القاصر، وأهوائه ليحاول رد ما أخبر الله ﷻ به رحمة بالإنسانية.

القانون الخامس: ينبغي المسارعة في القسمة، ويبصرنا به الاتصال بين هذه الآية وما قبلها .

فعندما تنظر إلى الآية السابقة وهي قوله تعالى ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء:٧) ثم تقرأ الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ فكأنه يأمر بصورةٍ غير مباشرة بأن تتم المسارعة إلى القسْم فور موت الميت؛ إذ ذكر هذه القسمة قبل أن يبين أنصبة الإرث التفصيلية.

فما أجمل فوائد الاتصال، وما أحلى بصائر السياق الموضعي؛ تلوح لك هذه البصيرة الجديدة بمجرد رؤيتك الاتصال بين الآيتين، ويؤيد استنباط هذه البصيرة تأخر بيان تفصيل قسمة المواريث إلى الآية الحادية عشرة، فلا تؤخر القسمة حتى لا تتراكم الحقوق والمسائل وتتعقد وتتشابك، مع وجود الأجيال وتناميها، وقد تنشأ المشاكل المضنية بناء على تأخر توزيع الحقوق إلى أهلها، وتتولد العدوات، وتؤكل الأموال بالباطل كما هو مشاهد كثيرًا.

القانون السادس: قانون (الرضخ) وهو يعني الإهداء المصاحب لعملية توزيع الإرث، وذلك بإعطاء الفئات غير الوارثة من القرابة، وضعفاء المجتمع شيئًا من الإرث بشرط حضور القسمة، ويُبَصِّرُنا به قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء:٨):

فالآية السابعة مثلت دستورًا عامًّا فقال الله -جلَّ مجده-: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا

﴿مَّفْرُوضًا﴾ (النساء:٧)، ثم سيحدد الله ﷻ تفاصيل الذين يرثون في الآية الحادية عشرة والثانية عشرة، لكنه قبل أن يفصل كأنه يقول: لا تنسوا بأن هناك فئاتٍ ليست وارثةً، وقد تحضر القسمة فلا تحرموها من شيءٍ من الرزق من هذا المقسوم، فأثبت الله ﷻ لهذه الأصناف الثلاثة: (الأقرباء، واليتامى، والمساكين) حقين:

الحق الأول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾

فأثبت لهم حقًا في القسمة وليس نصيبًا مفروضًا منه، فيرزقون من الإرث لكنه لم يحدده، فيكون رضخًا لهم على سبيل الإهداء وتطييب الخاطر، وإطعامًا لهم على هيئة الاحتفال.

الحق الثاني: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾:

فعندما ترزقونهم من الإرث فليصحب هذا العطاء قول معروف، أي متعارف على حسنه وجماله، ومن القول المعروف ترك المن والأذى مع التلطف في العبارة عند العطاء.

فلماذا أمرهم بالقول المعروف؟

لأن طبيعة الإنسان أن يضيق عند حضور غيره في حقٍّ من حقوقه المالية كما قال -تعالى جده-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ١٩ - ٢١)، فأراد الله ﷻ تربية هذه النفس الإنسانية النافرة التي أحضرت الشح.. أراد تزكيتها وتهذيبها.. انظر كيف يربط الإسلام بين قلوب أفراد المجتمع.. فانظر لعَظَمة التربية القرآنية الواقعية في تهذيب النفوس وتربيتها.

ما حكم هذين الحقين؟

ويظهر لي أن هذين الحقّين واجبان كما ذهب إليه سعيد بن جبير ﷺ، وليسا

مندوبين كما ذهب إليه الجمهور، والظاهر أن حملها على الندب أقرب إلى أن يكون من تفسير القرآن بالرأي، فقد جعل ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآية ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ مُحْكَمَة، وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ، وإذا كانت بظاهر صيغتها أمرًا فما الذي صرف مقتضاه عن الوجوب أو التأكيد؟ ألأنه يتعلق بحقوق غير متوقعة للغير؟ أما ترى الأثر العظيم الذي يحدثه تطبيق هذا الأمر في تماسك المجتمع وتراحمه، ووحدته؟

وكما رأيت من التحرير السابق فقد ظهر لنا قولان: قولٌ بندب الرضخ، وقول يجعله واجبًا، ويبقى من الأقوال الواردة في الآية قولان:

القول الثالث: مال إليه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -إن صحت الرواية عنه- فذهب إلى أن هذا الحق المذكور في الآية حقّ وصية؛ فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قسم ميراث أبيه عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حية، فلم يدع في الدار مسكينًا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه، وتلا ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فذكر ذلك لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وانما هذه الآية في الوصية يريد الميت أن يوصي لهم [١].

الرابع: ما ذكر عن سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذه الآية يتهاون بها الناس. ثم قال: وهما وليَّان، أحدهما يرث، والآخر لا يرث. والذي يرث هو الذي أُمِر أن يرزقهم. -يعني يعطيهم- قال: والذي لا يرث هو الذي أمر أن يقول لهم قولًا معروفًا، وهي محكمة وليست بمنسوخة [٢].

وبغض النظر عن مدى صحة الروايتين إلا أنه لا يظهر صحة الرأيين الواردين؛ فإن الوصية التي نُسبت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إنما تأتي في باب آخر، وليس في الآية ما

(١) تفسير ابن أبى حاتم(٣/ ٨٧٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٨).

يدل عليها؛ والأصل فهم الآية على ظاهرها، وكذلك اللف والنشر الذي ارتضاه ابن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ لا يوجد ما يشير إليه، بل إن الآية تقرر قانون الرضخ والإعطاء للفئات غير الوارثة من القرابة وضعفاء المجتمع المعبر عنهم في الآية باليتامى والمساكين، فما أجمل ذلك! إنك تشعر أنه يتحقق بذلك عددٌ من الأهداف العظيمة في بناء المجتمع، وحماية حقوق الفئات المستضعفة فيه، ومنها:

الهدف الأول: زيادة تأليف ذوي القربى، وجبر الخواطر للقلوب المنكسرة، فإخوة الميت لا يرثون مثلًا في وجود الأولاد، وهم أعمام أولاد الميت.. أفلا يقوم أولاد الميت بتأليف نفوسهم، وجبر خواطرهم بشيءٍ من المال يصحبه لطيفٌ من القول؟ فيريد ربك أن توثق علاقتك بقرابتك، فتعطيه من الإرث شيئًا ثم تقول له إن كان عمك مثلًا: يا عم! أنت تذكرني بأبي، ونحو ذلك من لين القول.

الهدف الثاني: إدماج ضعفاء المجتمع ضمن الرعاية العامة، وإشاعة المحبة بينهم وبين أصحاب الأموال مهما قلت الأموال. فالهدفان يعنيان توثيق اللحمة الأسرية والمجتمعية.

الهدف الثالث: تعويد أصحاب الأموال على مجاهدة النفس في الإنفاق، اسمع ربي وربك يقول: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨)ـ وتتعجب من تغير الناس وعدم تحكيم شريعتهم في مثل هذه الآيات مع تقدم الزمان، ولذا روى الطبري عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «هي ثابتة، ولكن الناس بخلوا وشحوا»[1].

الهدف الرابع: إيجاد الحصن الواقي والأمن الذاتي والقومي للقرى والبلدان بالمشاركة المجتمعية لشيء من المال الموهوب من الله تعالى، أو ما ترى أن المنفَق

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٨).

عليهم سيظلون يدعون للميت وذويه الوارثين كلما ذكروا هذا الموقف غالبًا؟

ويبين ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ذلك بعبارة رائعة فيقول: «إِذَا حَضَرَ هَؤُلَاءِ الفُقَرَاءُ مِنَ القَرَابَةِ الَّذِينَ لَا يَرِثون، وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ قِسْمَةَ مَالٍ جَزِيلٍ، فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتُوقُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ، إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ، وَهُمْ يَائِسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطَوْنَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى -وَهُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ -أَنْ يُرضَخ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الوسَط يَكُونُ بِرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَجَبْرًا لِكَسْرِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ (الأَنْعَام:١٤١)، وَذَمَّ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ المَالَ خِفْيَةً؛ خَشْيَةَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمُ المَحَاوِيجُ وَذَوُو الفَاقَةِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنِ أَصْحَابِ الجَنَّةِ ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القَلَم:١٧) أَيْ: بِلَيْلٍ.

وَقَالَ: ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ (القَلَم:٢٣، ٢٤) ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ (مُحَمَّد:١٠) فَمَنْ جَحَد حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ عَاقَبَهُ فِي أَعَزِّ مَا يَمْلِكُهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «مَا خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ مَالًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ»[1] أَيْ: مَنْعُهَا يَكُونُ سَبَبَ مِحَاقِ ذَلِكَ المَالِ بالكلية»[2].

ويتأسف يحيى بن يعمر على إهمال العمل بمثل هذه الآيات التي تحقق الأهداف القرآنية في تزكية الأنفس، وتنظيم المجتمع وإشاعة المحبة في الدائرة القريبة من الإنسان فيقول: ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهن الناس: هذه الآية، وآية الاستئذان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ (النور:٥٨)، وهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (الحجرات:١٣)[3].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٦٦) برقم ٣٢٤٦، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، برقم ٥٠٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٢٢١).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٨).

والاتصال بين هذه الآية وما بعدها يؤكد وجوب الرضخ من الإرث لمن حضر القسمة من الأصناف الثلاثة خوفًا من التبعات المستقبلية في الذرية، فإن الله تعالى جده يقول بعدها: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩)، وهذا الاتصال ينبئك عن المعنى الأول في الآية التاسعة.

القانون السابع: يجب الحذر من التعدي على الورثة بالتحريض على التجاوز في الوصية أو على غير الورثة بمنع الوصية لهم.

فهذا هو المعنى الثاني الذي يُبَصِّرُنا به قوله تعالى ذكره: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩):

فكما يحب الإنسان أن يجد من يعطف على ولده، فليخش وليخف الذين يحضرون الموصي وهو يوصي أن ينهوه عن الوصية لغير الورثة من أقربائه، وأن يأمروه بإمساك ماله والتحفظ به فقط لولده أو لورثته، مع أنهم لو كانوا من غير الورثة لسرَّهم أن يوصي لهم.

فالأسباب التي تؤدي إلى تكوين الثروة المالية ترجع إلى نوعين:

سبب مادي: مثل الحصول على المال من الإرث.

وسبب شرعي: مثل أن تُعطى هذه الفئات الثلاث ابتغاء وجه الله وتتأمل من الله -عزَّ جارُه- أن يعوضك في أولادك كذلك أو أن تحض على أن يعطوا مالًا، وتتأمل من الله -عزَّ جارُه- أن يعوضك في ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٠) ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٣٠) فيكافئه الله بحماية ذريته من بعد. فالله سبحانه وتعالى

يقول: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا فحضروا هذا الرجل الذي سيموت، أو هذا الذي عنده إرث ويوصي فليخشوا على أولادهم، وكذلك ليخشوا على أولاده إذا هم نهوه عن أن يوصي لغير ورثته، فربما يمنعونه تَقَرُّبًا لأبنائه مثلًا أو لقراباته، ولا يعلمون أن الله قد يحرمهم خيرًا في مستقبل أيامهم بسبب هذا البغي.. وإذا فكروا بمستقبل أولادهم وأولاده فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا بإعانته على الإيصاء بالخير والمعروف والإحسان.

ويجب التوازن في نصح المورث بالوصية حسب الحق لكلٍ من الجهتين: الورثة، وغير الورثة:

أي: ليخف الذين يحضرون موصيًا يوصي في ماله أن يعينوه على تفريقه بعيدًا عن ورثته المستحقين له، فإن للحاضرين أولادًا.. أفيحبون أن ينالهم ظلمٌ من بعدهم؟

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ خافوا عليهم من أن يُتلاعب بميراثهم كذلك ينبغي أن يعاملوا أبناء هذا الميت بمعاملة الورثة، فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا صائبًا.

فهذا المعنى جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما فقال: فهذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه يوصي بوصية تضر بورثته، - فيقال له: «تصدق من مالك، وأعتق، وأعط منه في سبيل الله»- فأمر الله سبحانه الذي سمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يُصنع لورثته إذا خشي عليهم الضيَّعة[1]، ولما دخل رَسُول اللَّهِ ﷺ على سَعْد بْنِ أَبِي وَقَاصٍّ رضي الله عنه يَعُودُهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَة، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فالشَّطْر؟

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ١٩).

قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالثُّلُثُ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنك أن تَذر وَرَثَتَك أغنياء خَيْر من أَنْ تَذَرَهم عَالةً يتكَفَّفُون النَّاسَ»[1].

فانظر كيف سدد النبي ﷺ سعدًا رضي الله عنه ليحسن الوصية، فلا يضر بورثته.

وفقه ابن عباس رضي الله عنهما من ذلك أن يقلل المرء في وصيته عن الثلث فقال: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرُّبُعِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»، والظاهر أن الثلث يكون لمن كثر ماله، ودونه يكون لمن قل ماله، وهذا من التقوى والسداد المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي الذي يوازن بين حق الورثة وغيرهم، وذكر الفقهاء ضابطًا آخر فقالوا: إِنْ كَانَ وَرَثَةُ المَيِّتِ أَغْنِيَاءَ استُحب لِلْمَيِّتِ أَنْ يَسْتَوفي الثُّلُثَ فِي وَصِيَّتِهِ، وَإِنْ كَانُوا فُقَرَاءَ استُحب أَنْ يَنْقُص الثُّلُثَ.

دعني أذكرك أمام هذه الآية بكلامٍ متينٍ للباقلاني رحمه الله تعالى في كيفية تلقي العلوم، وتنمية المفاهيم: «تعلم أو استمع أو افهم بخفض جناحٍ وسكون طائر»، وعند تطبيق ذلك هنا نقول: ينبغي أن تتدبر هذه الآية وكل آية بما يليق بكلام الله تعالى ذكره؛ لأنك من خلال هذه الآية ستستخرج معانيَ كثيرةً، وأيضًا كما قال عبد القاهر البغدادي رحمه الله: ينبغي أن تجمع الخواطر، وينبغي أن تراجع فكرتك وتشحذ بصيرتك.

وإنما قدمت لك ذكر هذه المنهجية العلمية لأن الآيات المباركة تفيض بالمعاني التي تنير الحياة، فبصرنا اتصال هذه الآية بالآية التي قبلها مباشرة بهذا الإنذار؛ إذ المعنى المباشر للآيتين: ليحذر الذين لو تركوا من خلفهم ذرية يخافون عليهم ألا يُعطوا حقوقَهم أو يخافون عليهم أن يُظلموا أو يخافون عليهم ألا يوجد لهم من يبتسم لهم وينصفهم، ليحذروا من ألا يرزقوا الأصناف الثلاثة الذين تمت الإشارة

(١) صحيح البخاري ـ ترقيم فتح الباري (٢/ ١٠٣) برقم ١٢٩٥.

إليهم في الآية السابقة: أولي القربى واليتامى والمساكين من الإرث والمقصود بالكلام هنا: الورثة الذين اقتسموا وقصروا في إعطاء الأصناف الثلاثة حقوقهم، أو من كان مع الورثة ممن قد يؤلبهم على عدم إعطاء الأصناف الثلاثة شيئًا لأي حجة كانت. فانتبه لما ستعده للأحداث المستقبلية التي يمكن أن تصيب ذرية الإنسان، فكما تدين تدان، فما أحببت أن تُعامَل به ذريتك من الحُسْن فعامل به الخلق، فأعط هذه الفئات الثلاث ابتغاء وجه الله، وارجُ من الله -تعالى مجده- أن يعوضك في أولادك كذلك، ولكن ما معنى الخشية الواردة في قوله ﴿وَلْيَخْشَ﴾؟

ذكر الرَّاغِبُ بأن «الخشية: خَوْفٌ يَشُوبُهُ تَعْظِيمٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ بِمَا يُخْشَى مِنْهُ، وَلِذَلِكَ خُصَّ العُلَمَاءُ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (فاطر: ٢٨)[1]، ولكنك تستدرك على هذا الكلام بأن التعظيم مفقود في قول عنترة[2]:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُر لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَيْ ضَمْضَمِ

فلعل الخشية خوف خاص؛ إما أن يدل على تعظيم، وإما أن يدل على قلقٍ مصحوب بعاطفة خائفة من أمرٍ قادم. كذلك ينبغي لكم أنتم أن تخشوا أنكم إذا نهيتم هذا الذي يريد أن يوصي للفقراء أو للمساكين أو للقرابة غير الوارثين تنهوه أن يحوز الأموال ذو القرابة انتبهوا لأولادكم، كذلك هل تريدون أن يحدث هذا الإهمال لأولادكم؟

والمفعول في قوله ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ﴾ يحتمل أن يكون لفظ الجلالة (الله)، والتقدير: وليخشوا الله، ويحتمل أن يكون الفعل قاصرًا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ (عبس: ٨، ٩)، أي تملكه الشعور بالخشية تعظيمًا لله، وابتغاء

(١) المفردات للراغب (ص ١٤٩).

(٢) المعلقات العشر (ص ١٣٤).

لمعرفة مراده، أَوْ حَذَفَه ليكون المعنى ليخشوا نوائب الدهر في أولادهم، وتقلبه، وأن ما أتى غيرهم سيأتيهم.

فمعنى الآية: ليخش الله الذين لو تركوا من خلفهم ذرية خافوا عليهم، أو ليخشوا نوائب الدهر أن تحل بذريتهم، وحتى يحافظوا على ذريتهم بعد مماتهم ليتقوا الله في التعامل مع فئات المجتمع، وليقولوا عند الإحسان أو عند مقابلة أي إنسان قولًا سديدًا بالحض على الإطعام، وإقامة التكافل المجتمعي.

و»السديد» من الكلام، هو العدل والصواب، ولعله مأخوذ من سد الثغرة؛ لأن القول السديد تسد به الثغرات، وتقوم به الأخطاء، ومن أعظم السداد الحرص على نفع العباد، فقد قال ابن زيد: يقول قولا سديدًا، يذكر هذا المسكين وينفعه، ولا يجحف بهذا اليتيم وارث المؤدِّي ولا يُضِرّ به؛ لأنه صغير لا يدفع عن نفسه، فانظر له كما تنظر إلى ولدك لو كانوا صغارًا[1].

والآية تتضمن تحذير الناس من التعدي على المستضعفين من الرجال والنساء، والأطفال، والسفهاء، والموصى لهم، في مسائل الإرث وغيرها.

فهذا أمرٌ من الله -جلَّ شأنه- للناس أن يحسُبوا حساب الأحداث المستقبلية لأولادهم، فيتعاملوا مع غيرهم ممن هم مستضعفون بالنسبة لهم أي أقل منهم مالًا أو مكانة كما يحبون أن يُتعامل مع أولادهم، فالخطاب لكل ذي مكانة وجاهٍ وسلطان، ومنهم الأوصياء وولاة الحقوق، والحكومات المسؤولة عن الناس بل يشمل كل من له تأثيرٌ على القرار فيها، وقد روى يحيى بن أبي عمرو السَّيْباني الحميري ابن عم الأوزاعي قال: كنا بالقسطنطينية أيام مسلمة بن عبد الملك، وفينا (عبد الله) بن محيريز الجمحي و(عبد الله) ابن الديلمي، وهانئ بن كلثوم الكناني، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخر الزمان. قال: فضقت ذرعًا بما سمعت.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٢٦).

قال: فقلت لابن الدَّيلمي: يا أبا بشر، بودِّي أنه لا يولد لي ولدٌ أبدًا! قال، فضرب بيده على مَنْكبي، وقال: يا ابن أخي، لا تفعل، فإنه ليست من نسمة كتب الله لها أن تخرج من صلب رجل إلا وهي خارجة إن شاء، وإن أبى. قال: ألا أدلّك على أمرٍ إنْ أنت أدركته نجاك الله منه، وإن تركت ولدك من بعدك حفظهم اللهُ فيك؟ قال: قلت: بلى! قال: فتلا عند ذلك هذه الآية [١].

وهذا التذكير المزلزل المخوف حتى لا يتطامن الناس إلى ما هم فيه من عيش مريحٍ مترف فيتجرأوا على ظلم غيرهم، ولا يأخذ بعضهم على أيدي بعضٍ، فينهون بعضهم بعضًا عن الظلم؛ فإلف القبيح مفسدة للدين والعقل ومذهبة للأمن على المدى البعيد؛ إذ إن اعْتِيَادَ السُّوءِ يُنْسِي قبحه حتى تراهم يتباهون في عمله مثل التباهي على إيذاء ضعيف، أو التفاخر بظلم مسكين، فأراد الله -تعالى ذكره- أن يبين لهم أن ما حل بغيرهم قد يحل بهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا، ولا يركنوا إلى ما هم فيه من نعيم واطمئنان وترف.

القانون الثامن: يجب الحذر من التعدي على إرث الأيتام واستغلال طفولتهم وضعفهم.

ويُبَصِّرُنا بهذا القانون قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ (النساء: ١٠)، فهذا القيد ﴿ظُلۡمًاۖ﴾ يُبَصِّرُنا بحالتين:

الحالة الأولى: أن يكون الأكل عَلَى سَبِيلِ العدل والتَّرْبِيَةِ لا على سبيل الظلم:

فقد يأكل الوصيُّ المحتاج من مال اليتيم بالمعروف، واليتيم يحتاج لتفرغ الوصيّ لإتمام عملية التربية أو تحسينها أو لاستثمار أموال اليتامى لصالحهم، فَالأكل هنا قد يكون مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ البِرِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾،

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٥).

فقيد هذه العقوبة بأن يكون الأكل ﴿ظُلْمًا﴾، وذلك حتى يخرج الأكل الحلال الوارد في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:٦)، وانظر إلى مجتمع الصحابة النقي التقي كيف كان يجعل القرآن حاكمًا على حياته، مسيطرًا على سلوكه وتصرفاته، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الأنعام:١٥٢، الإسراء: ٣٢)، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠) انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ، فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٠)، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ [١].

الحالة الثانية: أن يكون أكل أَمْوَالِ اليَتَامَى عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ، فهو من الكبائر.

ويبين النبي ﷺ ذلك قارنًا أكل مال اليتيم بأعظم الموبقات التي تقشعر منها الأبدان فيقول: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ» [٢].

وأكد النبي ﷺ على ذلك في حجة الوداع، فعن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه ﷺ

(١) أبو داود (٣ / ٧٣) برقم ٢٨٧١، وقال الأرناؤوط:«إسناده ضعيف. عطاء -وهو ابن السائب- اختلط بأخرة، وجرير -وهو ابن عبد الحميد- ممن سَمع من عطاء بعد اختلاطه، وقد تابعه جماعة لم يُميّز سماعُ أحد منهم من عطاء، أكان قبل اختلاطه أو بعده»، وحسنه الألباني بمجموع طرقه . صحيح سنن أبي داود - ط غراس (٨/ ٢٢٤).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢) برقم ٢٧٦٦.

قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «إن أولياء الله المصلون، ومن يقيم الصلوات الخمس التي كتبهن الله عليه، ويصوم رمضان، ويحتسب صومه، ويؤتي الزكاة محتسبًا طيبة بها نفسه، ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها» فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله وكم الكبائر؟ قال: تسعٌ أعظمهن: الإشراك بالله، وقتل المؤمن بغير حق، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتًا. لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة إلا رافق محمدًا ﷺ في بُحبُوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب»[(١)].

والذي يفصل بين الحالتين هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو وحده المطلع على ما في صدور العالمين، سواء بالتعدية على ماله بالظلم، أم من أجل تربيته، أم استثمار ماله بحق. ويمتد التحريم هنا ليشمل كل من يمكن أن يأكل أموال اليتامى ظلمًا، سواء أكانوا من الأوصياء أم من غيرهم، كمسؤولي الدول، والجمعيات العاملة في تلك المجالات.

وترى التناسق في آيات السورة هنا، فقد حرم الله ﷻ سابقًا من أول سورة النساء أكل مال اليتيم، وهنا بين عقوبته.

وقد تتساءل: لماذا أَخَّرَ الله ﷻ عقوبةَ أكل مال اليتيم إلى هذه الآية ولم يجعله مقترنًا بحقوق اليتامى في أول السورة؟

الجواب: لأنه سبحانه وتعالى أراد وضع قوانين منظومةٍ تشريعيةٍ متكاملةٍ تأخذ

(١) رواه الطبراني في الكبير(١٧/ ٤٧)، وقال قال الهيثمي في مجمع الزوائد(١/ ٤٨): «عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ بَعْضُهُ، وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَرِجَالُهُ مُوَثَّقُونَ». وحسنه الألباني في إرواء الغليل(٣/ ١٥٢، ١٥٣). ووصف الوالدين بالمسلمين لا يعني جواز عقوق الوالدين غير المسلمين فإن الله ذكر بر الوالدين الكافرين في سورة لقمان.

بعض أحكامها بأيدي بعض، وليُشرِفَ المجتمع بحكامه وبمؤسساته الحكومية والمدنية على تنفيذ هذه القوانين من حقوق النساء والصغار وإقامة حقوق اليتامى والسفهاء، وبعد أن قرر التشريعات القانونية، ونبه في الآية السابقة إلى ضرورة الانتباه إلى الحسابات المستقبلية فقال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء:٩) ينبه هنا إلى العقوبات الأخروية.. فإن تلاعب أحدهم بالحقوق قضاءً، واستطاع التحايل على الناس، وعلى القوانين فلن يتمكن من التلاعب بها ديانة، ولا الهروب من مراقبة الحسيب العظيم.. فليعلم بأنه لن يفوت الله، جل شأنه، ولن يعجزه ولن يسبقه ولن يغلبه جل في علاه، فهناك عقوبة غيبية ربما تناله في الدنيا، وإلا جاءته في الآخرة، وناسب ذكر العقوبة هنا ضمن القوانين العامة للحقوق والميراث لتأكيد حقوق اليتامى فيه، وزجر من يفكر بأي تلاعبٍ أو احتيال، ولذا سمعت الله - جلَّ وعلا - بعد الخطاب عن القوانين العامة المباشرة التنفيذية يذكر عقوبة من سيتلاعب بكل القوانين السابقة فيقول هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾، وينبه النبي ﷺ إلى أهمية استحضار عدم الهرب من التبعات ديانةً لمن كان من الدهاة واستطاع التلاعب قضاءً، فيقول: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا» (١).

وقد تتساءل متلهفًا: فلماذا تكلم عن الذين يأكلون أموال اليتامى ولم يتكلم عن غيرهم؟

تعلم أنه إنما تكلم عن اليتامى باعتبارهم أضعف أفراد المجتمع لصغرهم،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٣٥) برقم ٢٦٨٠.

وكذلك يلحق بمن يأكلون أموال اليتامى ظلمًا مَنْ كان على شاكلتهم ممن يأكل المال ظلمًا، فذكر اليتامى من باب الضرب لأبرز مثال للفئات المستضعفة، ولأن اليتامى يمثلون الطفولة التي هي أساس بث الحياة الإنسانية، ويوضح ذلك قوله تعالى في الذين يأكلون المال الحرام مقابل الفساد العلمي للإفتاء أو الإشارات الكاذبة والظالمة والآثمة فذكر ذلك في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ (البقرة: ١٧٤)، فتشابهت عقوبة آكل أموال اليتامى ظلمًا مع آكل المال مقابل التزوير العلمي، والفساد التشريعي.

ولنعد إلى عقوبة آكل مال اليتامى ظلمًا لنسمع الله توعدهم بعقوبتين:

عقوبة باطنية: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ فهم يظنون أن أكل أموال اليتامى سيكون سببًا لراحتهم وتوسع معاشهم لكنهم يغفلون عن الحقيقة القادمة: فأكلهم لتلك الأموال سيجلب الندم والألم، وستشعل بطونهم بالنار..ستكون سببًا للمصائب الدنيوية والأخروية كما ستكون سببًا لتلف أموالهم كما تتلف النار ما تلقاه كما قال تَعَالَى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البَقَرَة: ٢٧٦)، ويذكر السدي صورةً محتملة لأكل النار فيقول: إذا قام الرجل يأكل مال اليتيم ظلمًا، يُبعث يوم القيامة ولهبُ النار يخرج من فيه، ومن مسامعه، ومن أذنيه، وأنفه وعينيه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم [١].

وعقوبة ظاهرية: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، عذاب ظاهر البدن، مأخوذ من (الصِّلاء بالنار، وهو التسخن بها، والصَّلى: اسم الوقود، وهو الصِلاء إِذَا كُسِرَتْ مُدَّتْ، وَإِذَا فُتِحَتْ قَصُرَتْ) كما قال الفرزدق[٢]:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٢٦).

(٢) شرح نقائض جرير والفرزدق (٢/ ٧١٨).

وَقَاتَلَ كَلْبُ الحَيِّ عَنْ نَارِ أَهْلِهِ لِيَرْبِضَ فِيهَا وَالصَّلا مُتَكَنَّفُ
وَجَدْتَ الثَّرى فِينَا، إِذَا يَبِسَ الثَّرَى وَمَنْ هُوَ يَرْجُو فَضْلَهُ المُتَضَيِّفُ

وكما قال الحارث بن عباد[1]:

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا، عَلِمَ اللهُ وَإِنِّي بِحَرِّهَا اليَوْمَ صَالِي

وجاء في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصَّافَّاتِ: ١٦٣) وَقَالَ: ﴿أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (مريم: ٧٠) وقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ (إبراهيم: ٢٩، ص: ٥٦، المجادلة: ٨).

وأما (السَّعير) المسعور، وهو شدة حر جهنم، ومنه قيل: (استعرت الحرب) إذا اشتدت، وأصل الكلمة (مَسعور)، ثم صرف إلى (سعير)، كما قيل: (كفّ خَضِيب)، و(لِحية دهين)، وإنما هي (مخضوبة)، صرفت إلى (فعيل).

والحذر من أكل أموال اليتامى ليس بشاعة للفعل في الدنيا فقط، وإنما حذرًا من عقوبة الآخرة التي تطال الآكل مسلمًا كان أم كافرًا.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(النساء: ١٠):

إذ تجد في هذا الموضع قراءتين تصوران مشهدين:

المشهد الأول: قرأ الجمهور: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ بفتح الياء على البناء للمعلوم، فهم سيصلون بأنفسهم سعيرًا؛ وذلك أنهم يريدون الفرار، فيتساءلون عن المفر: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ (القيامة: ١٠)، ويحاولون الفرار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ (غافر: ٣٣)، فيُرَدُّ عليهم: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (القيامة: ١١)، فيتأذون بضيق المقام وطوله يوم القيامة؛ وكيف لا يتأذون والنبي ﷺ ينبهنا إلى التعوذ منه، فقد حكت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يستفتح

(١) الأصمعيات (ص٧١).

قيام الليل بأن يكبر عشرًا، ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويهلل عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني. أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»(١).

وضيق المقام يوم القيامة شيء هائل حتى يتمنى الكافر الراحة من ذلك المقام، ولو إلى النار، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة، فيقول: أرحني ولو إلى النار» (٢)، فربما يصلاها بنفسه إذ لا مفر له غيرها، وقد برزت له، وقد قال الله عن حالة الاختيار في صليها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٨ - ١٩)، وقال جل مجده ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (الليل: ١٥، ١٦)، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ (الأعلى: ١١، ١٢)، فيتقدم ليصلاها، وعندما يجد شوبها، ويشعر بفداحة المصيبة في صليها ربما هرب، فتأخذه الملائكة وتقرنه بالأصفاد والأغلال، فتصليه سعيرًا، وهنا يأتي المشهد الثاني.. إنه:

المشهد الثاني المؤلم، وتصوره قراءة ابْن عَامِرٍ، وشعبة عَنْ عَاصِمٍ: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ بِضَمِّ اليَاءِ على البناء لما لم يسم فاعله، حيث توضح القراءة أن هناك من سيصليهم النار، فهي تصور لنا مشهد هؤلاء المجرمين وهم يصيبهم صَلى النار، فمن ذا يفعل بهم ذلك؟ ربما الملائكة التي قرنتهم في الأصفاد كما قال الله جل مجده: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ (إبراهيم: ٤٩)، فهي تجرهم

(١) سنن النسائي (٣/ ٢٠٨) برقم ١٦١٧، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) ابن حبان (١٦/ ٣٣٠) برقم٧٣٣٥، وقال الألباني في التعليقات الحسان (١٠/ ٣٥١): «منكر بزيادة: (فيقول: أرحني ...)»، وضعف الأرناؤوط إسناده، في حين ذكر محققو المطالب العالية(١٨/ ٥١٧) أنه حسن لغيره بمجموع طرقه، وأن معناه صحيح ثبت في أحاديث أخرى صحيحة.

وتسوقهم سوقًا مقرنين لرميهم في السعير ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم: ٨٦)، فتصليهم نارًا، ومن ذلك قَوله تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (المُدَّثِّر: ٢٦)، وربما كان الذي يصليهم النار جهنم ذاتها التي تكاد تميز من الغيظ يخرج عنقٌ منها في مشاهد القيامة فيصيب الجبابرة كما قال النبي ﷺ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ»[1].

وبذلك تجتمع القراءتان في تصوير هذا المشهد الرهيب المخيف، ويذكرنا الأَوْزَاعِيُّ بالعبرة في هذه الآية فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ! تَقَوَّوْا بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَصْبَحتُم فِيْهَا عَلَى الهَرَبِ مِنْ نَارِ اللهِ المُوْقَدَةِ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ، فَإِنَّكُم فِي دَارٍ، الثَّوَاءُ فِيْهَا قَلِيْلٌ، وَأَنْتُم عن قريبٍ مُرْتَحِلُوْنَ، وَخَلاَئِفُ بَعْدَ القُرُوْنِ، الَّذِيْنَ أكلوا مِنَ الدُّنْيَا زَهْرَتَهَا، كَانُوا أَطوَلَ مِنْكُم أَعمَارًا، وَأَقوى أَجسَامًا، وَأَعْظَمَ آثَارًا، فَجَذَّذوا الجِبَالَ، وَجَابُوا الصُّخُورَ بالواد، وَنَقَّبُوا فِي البِلاَدِ، مُؤَيَّدِيْنَ بِبَطشٍ شَدِيْدٍ، وَأَجسَامٍ كَالعِمَادِ، فَمَا لَبِثَتِ اللَّيَالِي والأَيَّامُ أَنْ طَوَتْ مُدَّتَهُم، وَعَفَّتْ آثَارَهُم، وَأَخْوَتْ مَنَازِلَهُم، وَأَنْسَتْ ذِكْرَهُم: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم: ٩٨)، كَانُوا بِلَهوِ الأَمَلِ آمِنِيْنَ، وَعن مِيْقَاتِ يَوْم الحق غَافِلِيْنَ، وَفي صَبَاحِ هلكةٍ نَادِمِيْنَ، ثُمَّ إِنَّكُم قَدْ عَلِمْتُم مَا نَزَلَ بِسَاحْتِهِم بَيَاتًا مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فَأَصْبَحَ كَثِيْرٌ مِنْهُم فِي دِيَارِهِم جَاثِمِيْنَ، وَأَصْبَحَ البَاقُوْنَ يَنْظُرُوْنَ فِي آثَارِ نِقَمِهِ، وَزَوَالِ نِعَمِهِ، وَمَسَاكِنَ خَاوِيَةً، فِيْهَا آيَةٌ لِلَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ العَذَابَ الأَلِيمَ، وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخشَى»[2].

بين التقنين البشري والتقنين الإلهي:

ترى ما يظهر لك الفرق بين التقنين البشري والتقنين الإلهي، فالتقنين البشري

(١) أحمد(٢ / ٣٣٦) برقم ٨٤١١، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ١١٧) بتصرفٍ في الكلام.

خاصٌّ بالدنيا، وهو غير شامل وغير كامل، وغير رادعٍ لمن يملك التلاعب به، وثغراته كثيرةٌ، ولا يمكن أن يضع حدًا للخبايا أو للخفايا، سل الهيئات الدولية كيف تتلاعب بها الدول المصدرة للسلاح مثلًا.

أما القانون الإلهي فهو كامل يشمل الحياتين الدنيا والآخرة، ويحيط بالخفايا والخبايا كما يتعامل مع الإسرار والإعلان، فإذا ما فاتت العقوبة في الدنيا أو ظن الناس أنها فاتت يخبرنا ربنا أن الأمر ليس كما يتوهمه المتوهمون فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٩)، هذا بالنسبة للكفار، أما لغيرهم من الظالمين فقد قال عنهم: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤) أن يسبقونا أي أن يستطيعوا الهرب منا، وهنا تعلم لماذا أعاد الكلام عن الأيتام وهو يقرر القوانين العامة في الإرث، فقد حرَّم الله سابقًا في أول سورة النساء أكل مال اليتيم، وهنا بين عقوبته الغيبية الرادعة التي لا يمكن أن يهرب منها لو استطاع الهرب من الفضيحة أمام الناس أو المؤاخذة أمام القانون، والتحريم هنا ممتدٌ ليشمل كل من يمكن أن يأكل أموال اليتامى ظلمًا سواء أكانوا من الأوصياء أم من غيرهم كمسؤولي الدول، والجمعيات العاملة في تلك المجالات.

بم تشعر بعد أن عشت مع القوانين العادلة السالفة التي تبني الحقوق الإنسانية دون جورٍ أو ميلٍ؟ بم تشعر؟ وقد رأيت في هذا القسم أن من الأصناف التي خصها هذا القسم بالذكر نصرةً لها لاستضعافها في المجتمعات:

الرجال (غير الأقوياء على انتزاع حقوقهم الإرثية)، النساء، أولي القربى من غير الوارثين، اليتامى، المساكين.

مبدأ (مصطلح) قرآني: أكل المال:

والآن عد مجددًا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤) ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، لتجد التعبير بالأكل عن التصرف المحرم في أموال اليتامى، وهذا من المصطلحات القرآنية البديعة تكرر في عدة مواضع من سورة البقرة وفي سورة آل عمران وهنا، واستخدم هذا المصطلح «أكل المال» -كعادة المصطلح القرآني المتميز- لتقديم صورٍ مختلفة تعلق في الذهن:

الأول: أن أكثر أموال اليتامى وقت نزول الآية كان من النعم وأمثالها أي من البقر والغنم وغيرها، فيزعم الوصاة إسعادهم باستهلاكها وهم يتلاعبون بها لصالح أنفسهم وأهليهم. فيه تحذير لهم بعدم التلاعب على هذه الطريقة، فأين يفرون من رقابة الله ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠).. فهذه الآية بمصطلحها وافق نزولها أغلب ما كان يستخدم أو أغلب ما كان يورث في زمانهم، ولأن الأكل أوثق أنواع التصرفات الشخصية التي لا يمكن المشاركة فيها أو استرجاعها، فلا يمكن رد ما يأكله المرء.

الثاني: لبيان بشاعة صورة الشره والطمع في استهلاك أموال اليتامى، كأن المتلاعبين بها يأكلونها أكلًا فعلَ الشره المتوحش الذي لا يذر شيئًا أمامه إلا أكله، حتى لو كان مال اليتيم نقودًا ذهبية أو فضية أو ورقية أو عقارًا.. إن هؤلاء الجشعين يأكلون كل ذلك أكلًا من خلال التلاعب به أو التساهل في صرفه، وهذا تصويرٌ يبشع حالهم، ويشنعه حتى يرهب هذا الذي يتلاعب بمال اليتيم.

فترى صورة المتصرف وهو يأكل المال، فيذهب مذهبه في البطن بلا عودة لليتيم؛ فتكون عاقبته من جنس عمله، حيث تبقى النار تأكل جسده، وكأنه لا يتصرف بهذا المال الحرام الذي أخذه من اليتيم بل كأنه يأكل أوراقًا مالية، أو أراضي، أو

عقاراتٍ مما هو في الحقيقة ملك لليتيم، وصورته وهو يأكل الأوراق المالية أو العقارات صورة وحش ينفر الإنسان السوي من النظر إليه فضلًا عن أن تتحول شخصية الإنسان إلى تلك الشخصية القبيحة.

وفي المقابل ذكر التصرف المباح مستخدمًا الفعل ذاته فقال: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، وقال عن مال النساء إذا طابت أنفسهن بإعطاء شيء منه: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤)، ليبين لك الحلِّية الواضحة للتصرف فيه بعد توفر تلك القيود، وعبر عن أخذ هذا المال بأكله، ليزيل التردد والورع في غير مكانه، فأخبرهم الله ألا جناح عليهم أن يَطَوَّفوا بأكل هذا المال إن توفرت هذه القيود الثلاثة، فالتصرف في المال المعطى حلالٌ بلا تردد، ولذا قال ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ٤)، وذكر الله هاتين الصفتين لبيان أنه لا يكون عَلَى الآخذين تَبِعَةٌ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، فالتعبير بالأكل ليكون الِانْتِفَاع بالمعطى تامًا لَا رُجُوعَ فِيهِ لِصَاحِبِ الشَّيْءِ الْمُنْتَفَعِ بِهِ، كالأكل الذي لا ينتفع به إلا آكله؛ فالأَكْلُ -كما يقول الطاهر بن عاشور[1]-: هُوَ أَقْوَى أَحْوَالِ الِاخْتِصَاصِ بِالشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُ يُحْرِزُهُ فِي دَاخِلِ جَسَدِهِ، وَلَا مَطْمَعَ فِي إِرْجَاعِهِ، ولأن الأكل هو أعظم أوجه الانتفاع لضرورته للإنسان، ولبيان بناء جسده منه، وليشاكل المنع، فبين هنا أنه يجوز أكل هذا المال في مقابل المنع من قربان مال اليتامى في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢)، وليطيب الانتفاع به كطيب المأكول في مقابل تبشيع الانتفاع بما لا يحل مما ورد في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢).



(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢١).

القسم الخامس

الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وتحقق العدل في بث الحياة الإنسانية (النساء:١١-١٤)

آيات هذا القسم:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ (النساء:١١-١٤).

المناسبة والاتصال:

جاءت المقدمة في السورة على نحوٍ مختصرٍ ومذهلٍ في الإعجاز في الوقت ذاته، إذ كانت المقدمة فقط في الآية الأولى وهي نحوٌ من سطرين، وبصرنا الله فيها بثمانية أسس عامة في علم الاجتماع الإنساني، ثم تجد في بقية آيات الصفحة: ستة عشر حقًا من الحقوق المالية لليتامى، وثمانية حقوق من الحقوق المالية المتعلقة بالزواج فقط للنساء، وثمانية حقوق من حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة أموالهم..

وبعد أن ذكر الله -جلَّ في علاه- القوانين العامة للإرث في القسم السابق كان من المنطقي في إحكام الكتاب أن ينبئك بالقوانين التفصيلية لتوزيع أنصبة الإرث.

الإعجاز التقنيني التشريعي المذهل في تقسيم الإرث:

في هذا القسم ترى بصورةٍ مدهشةٍ لمحةً من عَظَمة البينة القرآنية، وصورةً من صور الإعجاز القرآني المجيد، وحسبك أن ترى التفاصيل السابقة في صفحة مكونة من نحو خمسة عشر سطرًا.. فهل يمكن لنبيٍّ أميٍّ في حضارةٍ بدوية أن يأتي بهذا التقنين الدقيق من عند نفسه؟ وهل يقدر على هذه الصياغة التي ليست شعرًا ولا نثرًا بل أثبتت استقلالها عن الأمرين معًا لتكون قسيمًا ثالثًا لهما؟ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٣).

إنك لترى من خلال ذلك أن الصياغة القرآنية صياغة معجزة، سواء منها ما تعلق بالبناء اللفظي أو ما تعلق بالمبادئ التي تكتنزها هذه الصياغة.. إنها معجزةٌ من الناحية الدستورية التشريعية الحقوقية، وهي معجزة من ناحية إقامة العدل، وهي معجزة من ناحية الوعظ الذي يسري فيها، وهي معجزة من ناحية السبق في المبادئ، فبعد مرور عشرين قرنًا كما يزعمون من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام استيقظت البشرية لتقرر

حقوقا ومبادئ للإنسان بينما نزلت هذه السورة قبل نحو ألفٍ وأربعمائة عام لتعطيَ كل ذي حقٍّ حقَّه:

ففي ثلاث آياتٍ فقط في السورة تمت الإحاطة بجميع الحالات التي يمكن أن تكون في الدنيا في مسائل الإرث، وذلك في هذه الآية والتي بعدها وآخر آية من سورة النساء، وهنا ترى إعجازًا خاصًا؛ إذ يُفَصِّل الله هذا العلم -علم المواريث- في هذه الآيات الثلاث على نحو تقنينيٍّ تشريعيٍ معجزٍ وبصورةٍ مذهلة؛ إذ ذلك جاء في ثلاث آياتٍ!! نعم صدق أولا تصدق! فثلاث آيات فقط لا تزيد عن صفحة وربع يمكن أن تستخلص منها آلاف المسائل المفصلة للإرث، وكل هذا التفصيل القانوني بيانٌ للقانون الدستوري العام الوارد في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء:٧)، ولم يضف لهذه الآيات الثلاث إلا ثلاث آياتٍ حوت قوانين عامة تزيد في توضيح القوانين التفصيلية في الآيات الثلاث، وهذه الثلاث الإضافية في سورة النساء هنا، وهي قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٣٣)، وفي سورة الأنفال: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ (الأنفال: ٧٥)، وفي سورة الأحزاب: {﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦)، ثم جاءت السنة بنصوص توضيحية تزيد في فهمنا للآيات الثلاث، وأهم هذه النصوص قول النبي ﷺ قَالَ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ المُتَوَفَّى عَلَيْهِ الدَّيْنُ، فَيَسْأَلُ: «هَلْ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٨٧) برقم ٦٧٣٢.

تَرَكَ لِدَيْنِهِ فَضْلًا؟». فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ لِدَيْنِهِ وَفَاءً صَلَّى، وَإِلاَّ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: « صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُم» فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفُتُوحَ؛ قَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا؛ فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا؛ فَلِوَرَثَتِهِ»(١).

أسلوب العرض في آيات الميراث الثلاث اتخذ المعالم الآتية:

المعلم الأول: اتخذ العرض في الآيات الثلاث الأسلوب القانوني الدستوري الممتزج بالوعظ، والإشارة إلى مقاصد التشريع وهو عجيب جدًّا جمعه كله في هذه الآية فلسفة هذا التوزيع وحكمته.

المعلم الثاني: ذكر الله حقوق الورثة، وأشار إلى حقوق غير الورثة، ونبه تنبيهًا متكررًا بأساليب متميزة على الحقوق الإنسانية في الوصية.

المعلم الثالث: ما زالت آيات الإحكام والوحدة الموضوعية بينة واضحة أمامك؛ فإن تساءلت لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى الإرث من الآية الحادية عشرة ولم يذكره في بداية السورة؟ فإن الجواب واضحٌ على وفق العنونة التي رأيتها في أقسام هذه السورة المباركة؛ فالله جلَّ مجده قدَّم لهذا التفصيل بمقدِّماتٍ عظميةٍ بدأها بأسس الاجتماع الإنساني وظهر ذلك في المقدمة الحقوقية العامة التي رأيتها في الآية الأولى، وبصرتنا بثمانية أسس، ثم ذكر الله الحقوق المالية والتكريمية لليتامى والحقوق التكريمية والمالية المستقلة للنساء فيما يتعلق بالزواج ليسهمن إسهامًا فعالًا في القيام على اليتامى، والحقوق المالية والتكريمية للسفهاء ليكون وجودهم معينًا على البناء المجتمعي وليس هادمًا له، ثم ذكر القوانين العامة المتعلقة بالحقوق والإرث.

المعلم الرابع: ترتيب الورثة في الآيتين جاء على أحسن نسقٍ وأجمل نظام لِأَنَّ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٢٨) برقم ٢٢٩٨.

الوَارِثَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِالمَيِّتِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ أَوْ بِوَاسِطَةٍ، فَإِنِ اتَّصَلَ بِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ فَسَبَبُ الِاتِّصَالِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ النَّسَبَ أَوِ الزَّوْجِيَّةَ، فَحَصَلَ هَاهُنَا أَقْسَامٌ ثَلَاثَةٌ، ورتبت ترتيبًا منطقيًا:

فأول الأقسام ما كان سبب الِاتِّصَال فيه النسب، وذلك هو قرابة الولادة، وَيَدْخُلُ فِيهَا الأَوْلَادُ وَالوَالِدَانِ، وبدأ بذكر الأولاد لشدة الصلة بهم، ولأن أمر الميراث مما ينتقل إلى اللاحقين من السابقين.

وَثَانِيهَا: الِاتِّصَالُ الحَاصِلُ ابْتِدَاءً مِنْ جِهَةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَهَذَا القِسْمُ مُتَأَخِّرٌ فِي الشَّرَفِ عَنِ القِسْمِ الأَوَّلِ لِأَنَّ الأَوَّلَ ذَاتِيٌّ وَهَذَا الثَّانِي عَرَضِيٌّ، وَالذَّاتِيُّ أَشْرَفُ مِنَ العَرَضِيِّ، وَهَذَا القِسْمُ هُوَ المُرَادُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ الَّتِي نَحْنُ الآنَ فِي تَفْسِيرِهَا. وَثَالِثُهَا: الِاتِّصَالُ الحَاصِلُ بِوَاسِطَةِ الإكليل النسبي المحيط بالميت، وهم الأخوة، وأُعطي هذا الاتصال تسمية متميزة، وهي الكَلَالَة.

وقد آن الأوان ليفصل تلك الحقوق، فهلم لترى مظاهر العدل المدهش، والتفصيل الحقوقي الدقيق.

المعلم الخامس: وبدأت الآيات بأقرب الناس إلى الإنسان، وهم الورثة المتصلون به بسبب النسب دون واسطة، ولعل سبب فصل الآية الثالثة التي تتكلم عن الإخوة الأشقاء أو لأب عن الآيتين أن يبين الله تكامل الأنظمة الإسلامية التي تبني الحياة، وعدم إمكانية الحصول على نتائج كاملة العدالة إذا طبقنا جزءًا، وتركنا آخر، ولذا فصل بين آيات الإرث بذكر تحصين الأسرة المسلمة من جرائم الفاحشة، وبقية حقوق الزوجات، وأن يبين كيفية التعامل مع الزوجات الصالحات، ويبين كيفية التعامل مع الزوجة الناشز، وبيان واقع قيادة مجرمي العالم في التحالف على اشتراء الضلالة، وبيع الهدى بإنشاء المؤتمرات والقوانين التي تسهل الفاحشة وتدمر

الأسرة، وتتلاعب بالمرأة وترميها في الشوارع بعد ظهور ضعفها وضمور جمالها وكذلك تبين كيفية التعامل مع الزوج الناشز أيضًا.. وهكذا إلى أن جاءت الآية الثالثة للإرث في آخر السورة. حتى يبين أن نظام الإرث غير منفصل عن نظام الحقوق العام في المجتمع، وبالتالي يظهر لماذا الله فصل الميراث بهذه الطريقة. فهذا من حكم الفصل بين الآيات الثلاث.

وتبصرنا الآيات في هذا القسم بالقوانين الآتية:

القانون الأول: نظام الإرث الإسلامي تكريمٌ للإنسانية، ورحمةٌ بها، وإعانةٌ لها على (البث).

أي على الإظهار والاستقرار والانتشار، والتكاثر المؤدي للإعمار، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ (النساء: ١١) فيجب على الأجيال الحالية الاهتمام بالأجيال القادمة من الإنسانية، والوصية هنا عامة.

أنزل الله هذا النظام المدهش في الإرث؛ ليغيث الله البشرية به من الظلم الذي ملئت به المجتمعات بسبب الأنظمة غير العادلة في الإرث، وليثبت به عرى الرابطة النسبية، واللحمة الرحمية.

وهنا يحمل الله الإنسانية المسؤولية عن الاهتمام بإصلاح الأولاد:

من المخاطب المطالب بتنفيذ الوصية في قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾؟

الجواب: إنها الإنسانية التي خاطبها الله جل ذكره في أول السورة عند قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ (النساء: ١).. إن ربك تعالى مجده يخاطب الإنسانية جميعًا لتقوم بحقوق الأجيال القادمة، وأول من يدخل في هذه

المخاطبة وتلك المطالبة: الآباء والأمهات والأولياء والأقرباء.

يوصينا جلَّ مجده في أولادنا بماذا؟ فيمَ تكون الوصية؟

الوصية تشمل كل ما يؤدي إلى إصلاح أوضاع الأولاد، ومن أهم علامات الإصلاح أوضاعهم في الإرث، وهو الوارد في السياق إلا أن الأصل أن السياق لا يخص بل تستعمل قاعدة التعميم إيثارًا لتكثير المعاني في البيان القرآني، الوصية في الأولاد عامة في كل ما يصلحهم.

والأولاد جمع وَلَد، ويجمع على وُلْد، مثل أسد وأُسْد، ويدخل في الأولاد: الذكور والإناث، ويدخل أَوْلَاد البَنِينَ، فيقومون مَقَامَ وَالِدَيْهِمْ عِنْدَ فَقْدِهِمْ، وَعَدَمِ إِرْثِهِمْ مَعَ وُجُودِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّسَبَ لِلذُّكُورِ كَمَا قَالَ الشَّاعْرُ:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا، وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

إلا أن لفظ الآية يُشعرك بأن المراد الوصية في بني الإنسانية كلها، والأولاد يمثلونها، ولفظ (أولاد) تدل على الامتداد الإنساني زمانًا ومكانًا، فإن كان الآباء والأمهات هم المخاطبين فإنهم لا ينفردون بذلك بل يدخل المجتمعُ جميعه، فيقوم بذلك المكلفون المباشرون بإصلاح أوضاعهم وإعطائهم حقوقهم المادية والتربوية ومنها الإرث، ويكون بقية المجتمع بمؤسساته الحكومية والشعبية رقيبًا على ذلك، ومساعدًا في الوقت ذاته، فإن لم يقم بهذه الوصية أحدٌ من المباشرين أو تعسف في إقامتها قامت بتنفيذها على وجه القسط بقية مؤسسات المجتمع، وأخذت على يد الغافل أو المتلاعب لتُعطي كل ذي حقٍّ حقه، وهذا الذي ربى الله عليه البشرية، حيث نزلت الآية المباركة مبينة ذلك.

فعَنْ جَابِرِ بن عبد الله ﷺ قَالَ: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لاَ أَعْقِلُ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ: مَا

تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ (١).

والمعنى: يَفْرِضُ عليكم أن تهتموا بهم في كل شيء، ويفرض عليكم نظامًا دقيقًا محددًا في أولادكم، يجب عليكم أن تتبعوه، ولم يقل الله: يفرض، بل قال: يوصي؛ لأَن الوَصِيَّةَ من الله فَرْضٌ خاص يشعر بمدى العناية والرعاية للموصى بهم، والدليل على ذلك قوله تعالى جده: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ (الأنعام:١٥١)، والتعبير عن الفريضة بالوصية له لطفه وجماله، فالوصية مأخوذة من وصى، وهي كلمة تدل على وصل الشيء بالشيء، والوصية بذا صلة بين الناس، وربطٌ بين الأجيال المختلفة، وهي العهد الذي يسند فعله إلى الآخرين لتنفيذه بما فيه نفعه، أو نفع غيره، ففيه مصلحته، ومصلحة مجتمعه، وهذا القانون يعكس مدى رحمة الله بعباده، فهو يدل على أنه جل جلاله أرحم بخلقه من الوالد بولده. ألا تشعر هاهنا بدفء الأوامر الشرعية ورعايتها للمصالح الحقيقية للإنسانية؟، فمهما رأيت من حكمٍ شرعي فاعلم أنه لمصلحة البشرية، وقد تكرر ذكر ذلك في شريعة القرآن، وجاء عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ ثَدْيُهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا لاَ وَهْيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ فَقَالَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» (٢).

فالوصية بالأولاد عامة، لكن السياق يدل على أن أول ما يُعتنى بالأولاد فيه حفظ حقوقهم المالية من الإرث، وبدأ الله تفصيل الحقوق الإرثية بالوصية العامة بالأولاد؛ لأنهم سيستقبلون الحياة غالبًا عكس الآباء.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٤) برقم ٤٥٧٧.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٩) برقم ٥٩٩٩.

كانت أَسْبَابُ الإِرْثِ في الجاهليات القديمة والمعاصرة أربعة:

أَحَدُهَا: النَّسَبُ المتحكَّم به، فعبره ينال الإرث الرجال المحاربون، ويحرم منه النساء والولدان، ويتحكم في الوارث، فغالبًا يرث الولد القوي فقط، ويبقى بقية الأقارب بلا إرث، فقد قال ابْن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ المَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فنَسَخ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثُّلُثَ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ»(١).

ثَانِيهَا: التَّبَنِّي، فيتبنى الرجل طفلًا فيشب ويأخذ الميراث، وَقَدْ أَبْطَلَ اللهُ نظام التَّبَنِّيَ للمحافظة على الشجرة الإنسانية، ولكنه أقام مكانه أنظمة متعددة مثل نظام الكفالة، ونظام السعي على المستضعفين.

ثَالِثُهَا: الحَلِفُ وَالعَهْدُ، حيث كان الرجل يقول لصاحبه: الدم الدم والهدم الهدم تَرِثُنِي، وَأَرِثُكَ، وَتَطْلُبُ بِي وَأَطْلُبُ بِكَ. فَإِذَا تَعَاهَدَا عَلَى ذَلِكَ فَمَاتَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ الآخَرِ كَانَ لِلْحَيِّ مَا اشْتُرِطَ مِنْ مَالِ المَيِّتِ، وَأبطل هذا النظام بِآيَاتِ المِيرَاثِ، ولكنه حث على الوصية للحليف والصاحب.

رابعها: نظام الإرث بالوصية، حيث ينتقل المال إلى من تتم الوصية له، وفي الجاهلية المعاصرة اتخذ هذا الأمر منحى متطرفًا؛ فيكون الإرث للموصى له ولو كان كلبًا، وبقية البشر يئنون.. انظر إلى أي قاعٍ سحيق وصلت الإنسانية.

ألا كم يخسر المحاربون للشريعة الإسلامية من مصالح، وكم يفوتون على البشرية من منافع؟

القانون الثاني: تنحصر معايير توزيع الميراث في الرؤية القرآنية (شيء من

(١) صحيح البخاري ـ حسب ترقيم فتح الباري (٤/ ٤) برقم ٢٧٤٧.

الفلسفة المذهلة لنظام الميراث في البصائر القرآنية)، وعلاقته ببث الحياة الإنسانية:

نظام الإرث اتسم الإسلام ببناء نظامٍ فريدٍ مدهش ما زالت النظم القديمة والمعاصرة تحبو بعيدًا عن هدايته، وتغشاها الأنانية والكبر والعناد فتعمى عن رؤيته، فالبصائر القرآنية نظمت الإرث وفق المعايير الآتية:

المعيار الأول: بث الحياة الإنسانية، فالأجيال القادمة يتقدمون في حقوقهم في الإرث على الأجيال السابقة:

ولذا فحقوق الأولاد ذكورًا وإناثًا أعلى بكثير من حقوق الآباء والأمهات، فالبنت إن ورثت من أبيها النصف حال عدم وجود أخٍ ذكرٍ فإن والد الميت يرث السدس فقط في التقعيد العام، وكل ذلك لأن الأب قد أخذ وقته المناسب وازدادت خبرته في واقع الحياة، ونال فرصة لجمع قدرٍ من المال يقتات عليه، بينما ترى الجيل الجديد يستقبل الحياة بتحدياتها.. أليس هذا هو الأرشد والأهدى سبيلًا؟

أخبر بذلك ضعاف العقول الذين لا يعرفون الفلسفة الإرثية العالية في الإسلام.. يموت الميت فيخلف أمًا وأبًا وابنة، فترث الأم أقل من البنت التي ستحصل على النصف مع أن كلتيهما من جنسٍ واحدٍ: هذه أنثى وتلك أنثى، بل لو خلف الميت ابنتين لكان لهما الثلثان، فيسيطران على نسبة أعلى من الأبوين بل ضعف ما يكون للأبوين، ولو خلف الميت ابنًا ذكرًا ووالدًا وأمًا، فإن الأب يأخذ السدس مثل الأم فاستويا، والابن يأخذ الثلثين الباقيين.. لماذا مع أن الابن ذكر كالأب تمامًا؟

إنه النظر إلى الأجيال القادمة، ومراعاة حقوقها حتى لو كانت هذه الأجيال في مرحلة الرضاعة.

إنها المعايير العالية التي لا يعرفها الأنانيون المتكبرون.

المعيار الثاني: الأقرب نسبًا يقدم على النسب النازل عنه، ويعود ذلك بالمصلحة على بث الحياة الإنسانية:

فوالد الميت يتقدم في الإرث على إخوته؛ إذ إن الأب ينفق على الأجيال اللاحقة وعلى غيرهم، فأن يعطى النصيب الأوفر يعني ذلك إعطاء إخوة الميت أيضًا، ويرتبط الإرث هاهنا بنظام صلة الرحم، فمن تمام صلة رحم الميت أن يوصل ذووه وأصدقاؤه.

المعيار الثالث: العدل بالنظر إلى عبء الحياة القادم، فإن اتفقت درجة القرابة ينظر إلى العبء المالي المستقبلي، فهنا يكون للذكر مثل حظ الأنثيين؛ إذ الذكر سينفق على الأنثى وغيرها.. أفليس من العدل أن يأخذ ضعفها؟، ولكن المرأة قد تأخذ أضعاف ما يأخذه الرجل مثل ما تأخذه بنتان مع أخوين، فللبنتين الثلثان، والأخوان يقتسمان الثلث؛ فالبنتان يمثلان الجيل القادم، ولذا فإن المرأة قد ترث مثل الرجل، وقد ترث أكثر من الرجل، وقد ترث ولا يرث الرجل، ويرجع إلى هذه الحالات الثلاث أكثر من ثلاثين حالة، وقد ترث نصف ما يرث الرجل وليس ذلك إلا في أربع حالات.

كما تجد معاني دقيقةً تظهر التقسيم العادل لأقارب الميت الذين ارتبطوا به إما بالنَّسَب، وإما بالصِّهْر، وَإما بالوَلَاء، وذلك لتقوية الجانب الأسري الذي يشكل الخلية الحقيقية لبناء المجتمع، ووضع قواعد من أجل هذا الإرث مع اعتماد مبدأ التكافل والوصايا والمواساة والتعاون والتآزر بصورة إلزامية أحيانًا، وغير إلزامية أحيانًا أخرى.. أما الوصية فقد حثَّ الله عليها حثًا مؤكدًا وجعلها خاصة بغير الورثة، ليتم بها المشاركة المجتمعية مع بقية أفراد الإنسانية، ووازن بينها وبين حقوق الأرحام.

وقد جعل الله أساس التقسيم العدل، الذي يعني إعمال قانون الغنم بالغرم من جهة، وقانون الرعاية الإنسانية والاتصال بين الأجيال من جهة أخرى، ولم يُقِم نظامه

هنا أوهامًا يختلقها الإنسان لنفسه قد يسميها المساواة المطلقة.. فأنت ترى في واقع الحياة: من ذا الذي يرضى أن يعمل عشر ساعاتٍ ليساوى به من يعمل ساعة؟

ولقد ترى الإسلام أقام الحياة على العدل بين الرجل والمرأة، والصغير والكبير في أمور كثيرة: فإن أوجب على المرأة الحجاب، فقد حرم على الرجل لبس الذهب والحرير في المقابل، وإن زاد في سهم الرجل أو المرأة في الميراث، فقد قابل تلك الزيادة بزيادة المسؤولية المناسبة على من كان له مزيد ثروة من مال.. في سلسلة من التشريعات المنظمة التي تؤدي إلى العدل.

ومن يطعن في قوانين الإرث الإسلامية الرائعة ونظمه فإنما يخبر عن جهله بربه سبحانه من جهة، وعن جهله بنفسه من جهة ثانية، وعن جهله بالبشرية من جهة ثالثة.. إنه جهلٌ يثير الرثاء، ويبعث على الشفقة؛ لأن صاحبه يسعى في ظلم البشرية، وهو يظن أنه يدافع عن حقوقها، ولكننا يمكن أن نقرر أيضًا أن من يطعن في هذه القوانين فهو يطعن البشرية بقبضة ظالمة آثمة، ويعيدها لشريعة الغاب المجرمة.

في هذا النظام العادل للإرث يغيث الله البشرية من الظلم الذي تتخبط فيه عندما تحاول اختراع أنظمة في الإرث تمتلئ بالظلم إما للأفراد وإما للمجتمعات، وبهذا النظام الفريد هدم الله نظام الإرث الجاهلي المجحف الظالم المعتدي على الحقوق الإنسانية بأهواء مفرطة في الأنانية، فكل الأنظمة البعيدة عن التشريع الإسلامي الفريد تؤدي إلى ظلم المستضعفين، وإبقاء المال دولة بين الأقوياء والأغنياء، وإدراك هذا العلم يوسع أفقك في مدى رحمة الشريعة بالإنسانية، ولذا جاء الحث على تعلمه، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعِلْمُ ثَلاَثَةٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ»[1]، وقال عمر بن

(١) أبو داود (٣ / ٧٨) برقم ٢٨٨٥، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ٣٨٧١.

الخطاب ﷺ: تعلموا الفرائض واللحن والسنن كما تعلمون القرآن [١].

القانون الثالث: كل ولدٍ يرث والديه اللذين ينسب إليهما حسب القانون الأول، ولكنه يخص بثلاث صور:

هل القانون الأول في إرث الأولاد من الوالدين عام؟ هل يرث الأولاد مطلقًا؟

الأصل العموم، فكل ولدٍ يرث من والديه اللذين ينسب إليهما، إلا أنه الإسلام يراعي المصلحة الأعظم، وهي: بث الحياة الإنسانية، والعدل وبناء الإنسانية على التواصل والتراحم، فخص هذا القانون بمجموعة صور كلها ترجع إلى هذه المعاني، وأهم هذه الصور:

الصورة الأولى: القَاتِل المتعمد لا يَرِثُ من والده.. كيف يقتله ثم يرثه؟ وهل كان الإرث إلا علامة اتصالٍ إنسانيٍ بين الأجيال، فسعى الذي يوصى به إلى هدم تلك الصلة.. فما يكون جزاؤه؟

وللفقهاء تفصيلٌ حسب نوع القتل، فَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ ﷺ لَا يَرِثُ سَوَاءٌ كَانَ القَتْلُ عَمْدًا أم خَطَأً حتى لو كان مستحقًا للقتل كَالعَادِلِ إِذَا قَتَلَ البَاغِيَ، وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، لَا يَرِثُ فِي العَمْدِ وَالخَطَأِ إِلَّا أَنَّ العَادِلَ إِذَا قَتَلَ البَاغِيَ فَإِنَّهُ يَرِثُهُ، وَكَذَا القَاتِلُ إِذَا كَانَ صَبِيًّا أَوْ مَجْنُونًا يَرِثُهُ لَا من ديته ولا من سائر أمواله، وَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَرِثُهُ مِنْ دِيَتِهِ وَيَرِثُهُ مِنْ سَائِرِ أَمْوَالِهِ.

الصورة الثانية: لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، فذلك مقتضى العدل في اختيارهم الفكري؛ فإن كلًا منهما يكره إمداد الآخر بما يقضي على ملته، فعن جابر بن عبد الله

(١) سنن الدارمي (٤/ ١٨٨٥) برقم٢٨٩٢، قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح، وهو موقوف على عمر رضي الله عنه، والمراد باللحن إما العربية وإما الخطأ في العربية، وتعلمه ليتقى.

ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين» [١]، فأما الكَافِر فاتفقوا أنه لاَ يَرِثُ مِنَ المُسْلِم، لكنه يوصي له إن أحب، وأَمَّا المُسْلِمُ فَهَلْ يَرِثُ مِنَ الكَافِرِ؟.

استدل جمهور العلماء على منع التوارث بحديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْد ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ، وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ» [٢]، وذكر النووي رَحِمَهُ اللَّهُ بأن المسلمين أَجْمَعَوا عَلَى أَنَّ الكَافِر لَا يَرِث المُسْلِم، وَأَمَّا المُسْلِم فَلَا يَرِث الكَافِر أَيْضًا عِنْد جَمَاهِير العُلَمَاء مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدهمْ، وَذَهَبَتْ طَائِفَة إِلَى تَوْرِيث المُسْلِم مِنْ الكَافِر، وَهُوَ مَذْهَب مُعَاذ بْن جَبَل وَمُعَاوِيَة وَسَعِيد بْن المُسَيِّب وَمَسْرُوق وَغَيْرهمْ. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء وَالشَّعْبِيّ وَالزُّهْرِيّ وَالنَّخَعِيِّ نَحْوه عَلَى خِلَاف بَيْنهمْ فِي ذَلِكَ، وَالصَّحِيح عَنْ هَؤُلَاءِ كَقَوْلِ الجُمْهُور، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ «الإِسْلَام يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ»... وَرد عليهم الجمهور بأن المُرَاد بِهذا الحديث فَضْل الإِسْلَام عَلَى غَيْره، وَلَمْ يَتَعَرَّض فِيهِ لِمِيرَاثٍ، فَكَيْفَ يُتْرَك بِهِ نَصُّ حَدِيث «لَا يَرِث المُسْلِمُ الكَافِرَ» [٣]، قَالَ الشَّعْبِيُّ: قَضَى مُعَاوِيَةُ بِذَلِكَ وَكَتَبَ بِهِ إِلَى زِيَادٍ، فَأَرْسَلَ ذَلِكَ زِيَادٌ إِلَى شُرَيْحٍ القَاضِي وَأَمَرَهُ بِهِ، وَكَانَ شُرَيْحٌ قَبْلَ ذَلِكَ يَقْضِي بِعَدَمِ التَّوْرِيثِ، فَلَمَّا أَمَرَهُ زِيَادٌ بِذَلِكَ كَانَ يَقْضِي بِهِ وَيَقُولُ: هَكَذَا قَضَى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، وعن عَبْد اللَّهِ بْن بُرَيْدَةَ أَنَّ أَخَوَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ يَهُودِيٌّ وَمُسْلِمٌ فَوَرَّثَ المُسْلِمَ مِنْهُمَا، وَقَالَ حَدَّثَنِي أَبُو الأَسْوَدِ: أَنَّ رَجُلًا حَدَّثَهُ أَنَّ مُعَاذًا حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الإِسْلاَمُ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ». فَوَرَّثَ المُسْلِمَ [٤]، وقال ابن حجر: «وأخرج

(١) سنن الترمذي (٤ / ٤٢٤)، برقم ٢١٠٨ ، وصححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٩٤) برقم٦٧٦٤.

(٣) شرح النووي على مسلم (٥ / ٤٩٦).

(٤) أبو داود (٣ / ٨٥) برقم ٢٩١٢ وفتح الباري» (١٢ / ٥٠): «قال الحاكم صحيح الإسناد وتعقب بالانقطاع بين أبي الأسود ومعاذ ولكن سماعه منه ممكن وقد زعم الجوزقاني أنه باطل وهي مجازفة».

أحمد بن منيع بسند قوي عن معاذ أنه كان يورث المسلم من الكافر بغير عكس، وأخرج مسدد عنه أن أخوين اختصما إليه مسلم ويهودي مات أبوهما يهوديًّا فحاز ابنه اليهودي ماله فنازعه المسلم فورث معاذ المسلم، وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية نرث أهل الكتاب ولا يرثونا كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم، وبه قال مسروق وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وإسحاق، وحجة الجمهور أنه قياس في معارضة النص وهو صريح في المراد ولا قياس مع وجوده»[1].

وأنت خبيرٌ بأن الوصية تقوم مقام الإرث إن كان المورث كافرًا على اعتقاده، وكذلك فإن ما خلفه ينظر فيه حسب الزمان والمكان على أن اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أن المسلم يرث من الكافر، وأن الحديث المانع إنما ورد في الحربي.

الصورة الثالثة: لا يرث أولاد الأنبياء آباءهم، وذلك لصالح بث الحياة الإنسانية؛ فالأنبياء يمثلون القدوة العظمى للبشرية، فإن خلفوا مالًا فهو للبشرية أجمعها، فعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ لعلي والعباس بِمَحْضِرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: اتَّئِدَا. أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِى بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»؟. قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى العَبَّاسِ وَعَلِيٍّ فَقَالَ أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ الَّذِى بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، والحديث قريب من التواتر إن لم يكن متواترًا، فقد روى الخَبَر حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالعَبَّاسُ، وَعَلِيٌّ، وَعُثْمَانُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، ورضيت به فاطمة، وما انفرد به الزهري من ذكر غضبها فهو من انفراداته.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل: ١٦) أي النبوة ولم يقصد المال

(١) فتح الباري لابن حجر (١٢ / ٥٠).

أو الأمور الدنيوية، وهذا واضحٌ معلومٌ، وهل في ذكر إرث مال فائدة في مثل مقام الأنبياء؟ وكذلك في قوله تعالى في كلام زكريا عليه السلام: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم: ٦)، فلا يعقل أن نبيًا يريد ولدًا من أجل أن يورث ماله، وكم مال زكريا حتى يطلب ولدًا يورثه إياه؟ عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام.

القانون الرابع : في الإرث يقدم الأولاد، وفي التعظيم الدنيوي يقدم الوالدان؛ لأن الإرث امتداد للإنسانية التي ينبغي أن يعرف صغارها جميل كبارها.

ويُبَصِّرُنا بهذا القانون الترتيب المنطقي الذي تمت به صياغة قوانين الإرث، فبدأ الله أولًا بالنسب، فهو أقوى درجات العلاقة والقرابة، وبدأ بأقرب الأقرباء وهم الأولاد، ثم ذكر ما يتعلق بالمرتبة الثانية في القرابة وهي مرتبة الوالدين، وبعد أن تكلم عن قرابة النسب، انتقل إلى ما يتعلق بالأزواج لأن قدر الأزواج مقدم على قدر الأخوة، ثم تكلم عن الأخوة، وهذا هو الترتيب في الإرث، وهنا تبدأ بما أمر الله به، وأما من ناحية الحقوق في الحياة فالآباء مقدمون لماذا؟

لأنك أيضًا تبدأ بما بدأ الله به، وترى المنطق الواضح في ذلك، فالوالد كَبِرَ ويوشك أن يودع هذه الحياة، بينما الأولاد سيستقبلون الحياة، ويكون لهم مطلب في الأرض واسعٌ ذات الطول والعرض، فالولد أولى بأن يختص بالكلام عن الإرث، وأن يكون نصيبه من الإرث أكثر من غيره.. هنا ترى كمال العدل وكمال التكامل، وكمال المنطق، وكمال العقل، فهذا سر الترتيب.

القانون الخامس: للأولاد خمس حالات.

الحالة الأولى: حالة انفراد عن الوالدين، بأن يكون الأولاد ذكرانًا وإناثًا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ماذا ترى هنا؟ لقد جعل الله إرث النساء هو الأصل، فلماذا؟

جعل الله إرث النساء هو الأصل لبيان تأصل الإرث لهن ردًا على الجاهليين الذين كانوا يمنعون النساء من الإرث.

الحالة الثانية: حالة انفراد عن الوالدين، والأولاد إناث فقط دون أبناء ذكور، وهن فوق اثنتين، فقال الله -جلَّ مجده- عن هذه الحالة ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ (النساء:١١).

الحالة الثالثة: حالة انفراد عن الوالدين، والوارث أنثى واحدة فقط، فقال الله -جلَّ مجده- عن هذه الحالة: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ (النساء:١١).

الحالة الرابعة: حالة انفراد الأولاد عن الوالدين، والوارث اثنتان من الإناث: هنا لا بد من إعمال الفكر في تدبر كلام الله جل في علاه، فنصَّ على نصيب من هو أكثر من اثنتين، فيكون لهما الثلثان، وبين أن نصيب الأنثى النصف، وترك الثنتين دون نص، فألحقهما الجمهور بالجمع، وبينوا أن ذلك مفهوم من الآية **بإحدى طرق**:

الطريق الأولى: قال القَاضِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ: «إِذَا كَانَتِ البِنْتُ تَأْخُذُ مَعَ أَخِيهَا إِذَا انْفَرَدَ الثُّلُثَ فَأَحْرَى أَنْ تَأْخُذَ الثُّلُثَ مَعَ أُخْتِهَا».

الطريق الثاني: ذهب بعضهم إلى أن في الآيَةِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وَالتَّقْدِيرُ: فَإِنَّ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ فَمَا فَوْقَهُمَا فَلَهُنَّ الثُّلُثَانِ.

الطريق الثالث: أن هذا جارٍ على عادة القرآن الكريم في بلاغته وبيانه، ومن أعظم أوجه بيانه الاحتباك، وقد يُسَمَّى حذْفَ المقابل، وهو مشتق من الحَبْك الذي معناه الشدُّ والإحكام، وتَحسين أثر الصَّنعة في الثَّوب، والِاحْتِبَاك منتشرٌ في القرآن المجيد كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٧٢: ٢١) أَيْ لَا ضَرًّا، وَلَا نَفْعًا، وَلَا رَشَدًا،

وَلَا إِغْوَاءً، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٣) أَيْ لَا شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَرًّا، وَلَا زَمْهَرِيرًا، فاستغنى عن النظير بنظيره أو بما هو أولى منه.

والاحتباك قال فيه السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

قُلْتُ وَمِنْهُ الِاحْتِبَاكُ يُخْتَصَرْ مِنْ شِقَّيِ الجُمْلَةِ ضِدُّ مَا ذُكِرْ
وَهْوَ لَطِيفٌ رَاقَ لِلْمُقْتَبِسِ بَيَّنَهُ ابْنُ يُوسُفَ الأَنْدَلُسِي

فكيف جاء الاحتباك هنا؟ لقد أعطى الله الأُخْتَيْنِ فِي الآيَةِ الأَخِيرَةِ الثلثين، فقال: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ (النساء: ١٧٦)، ولم يذكر ما فوقهما، وذكر هنا ما فوق الثنتين من البنات، ويفهم من ذلك أن الثنتين من البنات أولى بالثلثين من الأختين، كما يفهم من ذلك أن لما فوق الثنتين من الأخوات الثلثين؛ إذ لسن أولى من البنات بذلك.

ودلَّت السُّنَّة على هذا الفهم الواضح في نصيب البنتين، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا تنكحان إلا ولهما مال.

واعجب لهذه المرأة العظيمة، ولهذه الدعوى الحقوقية التي تعلم الناس فيها كيفية المرافعة، وتدرس العالم طبيعة عرض الدعوى: فهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تسكت عن حقها، ولم تجعل حزنها على زوجها يصيبها باليأس من النظر في التعامل مع الحياة، فجاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهي مطمئنة إلى أن طبيعة الإسلام تأبى الظلم.. مطمئنة إلى أن صفات الله تنافي عدم القسط في الحقوق البشرية، مطمئنة إلى أن مؤسسة القضاء لا تظلم المستضعفين، ولا تميل مع كبراء المستكبرين، ولا يتلاعب بها أصحاب النفوذ،

(١) عقود الجمان في علم المعاني والبيان (ص: ١٠٧).

ثم عرضت دعواها، فتجردت عن حظوظ نفسها، وبينت واقع بنتيها، ونسبتهما إلى أبيهما الذي أظهر صدق بلائه في القيام على نصرة الحق حتى قدم نفسه ﷺ، ثم لم تقف عند ذلك، فنسبت المال إليهما لأنها تعلمت من الإسلام نصرة الإنسانية بعيدًا عن اعتبارات القوة والذكورة، ثم أضافت ما يدل على استيعابها أن من أهم مقاصد الإسلام بث النوع الإنساني في الأرض، ولا سبيل لتحقيق هذا البث الإنساني إلا بالنكاح، وأن من أعظم الصفات الخارجية المرغبة في نكاح المرأة المال.. فتأمل كيف ربى الإسلام هذه العظيمة النبيلة من نساء المسلمين.

فقال النبي ﷺ: «يقضي الله في ذلك»، واعجب لهذا التوقف من أعظم الناس علمًا على وجه الأرض؛ إذ توقف نبينا ﷺ عند أمر ربه، فلم يثبت ولم ينفِ، فنزلت آية الميراث، فبعث ﷺ إلى عمهما، فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك»[(١)].

الحالة الخامسة: الوارث ابن ذكر أو أبناء ذكور فقط.

فلهم الميراث بعد أن يأخذ ذوو الفروض فروضهم، فالابن الواحد يأَخذ كُلَّ المَالِ لقوله تعالى هنا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ ولقوله في آخر السورة: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ﴾ (النساء: ١٧٦)، فَلَزِمَ مِنْ مَجْمُوعِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ أَنَّ نَصِيبَ الِابْنِ المُفْرَدِ جَمِيعُ المَالِ ولما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[(٢)].

القانون السادس: حقوق الوالدين.

---

(١) الترمذي (٤ / ٤١٤) برقم: ٢٠٩٢، وقال: هذا حديث صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد رواه شريك أيضًا عن عبد الله بن محمد بن عقيل. قال الشيخ الألباني: حسن.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٨٩)

وهما الصنف الثاني، ويمثلان الأصول، ويكونان في المرتبة الثانية في القرب إلى الميت حيث يدليان إليه بلا واسطة، و لهما أربع حالات:

الحالة الأولى: مع وجود فرعٍ وارث، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾.

وهذه الحالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أَنْ يَكون مَعَ الأَبَوَيْنِ وَلَدٌ ذَكَرٌ وَاحِدٌ، أَوْ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، فَهَهُنَا الأَبَوَانِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ.

القسم الثاني: أَنْ يكون مع الأبوين بنتان أو أكثر، وهذا القسم مثل الأول.

وقد تتساءل: لماذا نقص نصيب الوالدين مع الأبناء مع أن حقهما أعظم؟

هذا مقتضى الحكمة والعدل والإحسان، فقد كبر الوالدان، ونفقتهما حال الاحتياج واجبة على الأولاد وفروعهم، بينما يستقبل الأبناء الحياة بكدها ومسؤولياتها، وتقع مسؤولية والدي الميت على الأولاد.

القسم الثالث: أَنْ يكون مَعَ الأَبَوَيْنِ بِنْتٌ وَاحِدَةٌ، فَهَهُنَا لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُمِّ السُّدُسُ وَلِلْأَبِ السُّدُسُ بِحُكْمِ هَذِهِ الآيَةِ، والسدس الباقي أيضًا للأب بحكم التعصيب.

الحالة الثانية: مع عدم وجود فرعٍ وارث، ولا يوجد أحد الزوجين، فيُبَصِّرُنا بذلك قوله جل جلاله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾.

وهذا يدل على أن الباقي وهو الثلثان لأبيه بمفهوم الكلام، ويزيده وضوحًا حديث التعصيب المشهور.

الحالة الثالثة: الأبوان مع أحد الزوجين (الغراوان):

ذهب بعضهم إِلَى أَنَّ الزَّوْجَ يَأْخُذُ نَصِيبَهُ ثُمَّ يُدْفَعُ ثُلُثُ مَا بَقِيَ إِلَى الأُمِّ، وَيُدْفَعُ البَاقِي إِلَى الأَبِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: يُدْفَعُ إِلَى الزَّوْجِ نَصِيبُهُ، وَإِلَى الأُمِّ الثُّلُثُ، وَيُدْفَعُ البَاقِي إِلَى الأَبِ، وَقَالَ: لَا أَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ثُلُثَ مَا بَقِيَ، وَعَنِ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ وَافَقَ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ فِي الزَّوْجَةِ وَالأَبَوَيْنِ، وَخَالَفَهُ فِي الزَّوْجِ وَالأَبَوَيْنِ، لِأَنَّهُ يُفْضِي إِلَى أَنْ يَكُونَ لِلْأُنْثَى مِثْلُ حَظِّ الذَّكَرَيْنِ، وَأَمَّا فِي الزَّوْجَةِ فَإِنَّهُ لَا يُفْضِي إِلَى ذَلِكَ، **وهاتان المسألتان** يسميهما الفَرْضِيُّونَ بِالعُمَرِيَّتَيْنِ، وَبِالْغَرَّاوَيْنِ، وَبِالغَرِيبَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: زَوْجَةٌ وَأَبَوَانِ: لِلزَّوْجَةِ الرُّبْعُ، وَهُوَ ٣ مِنْ ١٢ وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ البَاقِي عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَهُوَ ٣ وَلِلْأَبِ البَاقِي، وَهُوَ ٦ فَيَجْرِي حَظُّ الأَبَوَيْنِ عَلَى قَاعِدَةِ « لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ » ، وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ الأَصْلِ عَلَى رَأْيِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، وَهُوَ ٤ مِنْ ١٢ وَلِلْأَبِ البَاقِي، وَهُوَ ٥ فَلَا يَجْرِي عَلَى القَاعِدَةِ.

وَثَانِيَتُهُمَا: زَوْجٌ وَأَبَوَانِ: لِلزَّوْجِ النِّصْفُ ٦ مِنْ ١٢ وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ البَاقِي عِنْدَ الجُمْهُورِ ٢ مِنْ ١٢ وَلِلْأَبِ البَاقِي ٤ عَلَى القَاعِدَةِ، وَأَمَّا عَلَى رَأْيِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فَلِلْأُمِّ ثُلُثُ الأَصْلِ وَهُوَ ٤ مِنْ ١٢ وَلِلْأَبِ البَاقِي، وَهُوَ اثْنَانِ، فَيَكُونُ عَلَى عَكْسِ القَاعِدَةِ، إِذْ يَكُونُ لِلْأُنْثَى مِثْلُ حَظِّ الذَّكَرَيْنِ. فَرَأْيُ الجُمْهُورِ هُوَ المُوَافِقُ لِلْقُرْآنِ فِي القَاعِدَةِ الَّتِي تَقَرَّرَتْ فِي كُلٍّ مِنَ الأَوْلَادِ وَالإِخْوَةِ، وَفِي الوَالِدَيْنِ مَعَ الإِخْوَةِ، وَفِي الزَّوْجَيْنِ كَمَا فِي الآيَةِ التَّالِيَةِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ وَافَقَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ فَقَطْ.

ويحكي عكرمة موقفًا تربويًا جميلًا من زيد بن ثابت هنا يعلم آداب الاجتهاد، فقد أرسل ابن عباس ﷺ إلى زيد بن ثابت ﷺ : أتجد في كتاب الله للأم ثلث ما بقي؟ فقال زيد: إنما أنت رجل تقول برأيك وأنا رجل أقول برأيي[1].

(١) الدارمي٢/ ٤٤٤، برقم ٢٩١٧، قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

الحالة الرابعة: مع وجود الإخوة الأشقاء أو لأب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله -تعالى مجدُه-: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ (النساء: ١١) والباقي للأب:

فحدث من الأخوة حجب نقصان للأم، والمقصود بالأخوة اثنان فصاعدًا، وأما ما ورد عن شعبة مولى ابن عباس، عن ابن عباس ﷺ: أنه دخل على عثمان ﷺ فقال، لم صار الأخوان يردَّان الأم إلى السدس، وإنما قال الله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾، والأخوان في لسان قومك وكلام قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان ﷺ: هل أستطيع نقض أمرٍ كان قبلي، وتوارثه الناس ومضى في الأمصار؟ فهذا حديث ضعيف [١]، وأقل الجمع اثنان إلا أن العربية تفننت في التدقيق فجعلت المثنى بين المفرد والجمع عند التفصيل.

وقد تتساءل: ما نصيب الأخوة مع حجبهم للأم؟

ذهب ابن عباس ﷺ إلى أنهم يأخذون السدس الذي أنقصوه من الأم، وقيل لا شيء لأَنَّ الحَاجِبَ قَدْ يَكُونُ مَحْجُوبًا، فيَأْخُذُ الأَبُ كُلَّ البَاقِي وَهُوَ خَمْسَةُ أَسْدَاسٍ، سُدُسٌ بِالفَرْضِ، وَالبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ. فعن قتادة قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، أضرُّوا بالأم ولا يرثون [٢]، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث، ويحجبها ما فوق ذلك.

ما الحكمة في هذه الزيادة المعتبرة للأب؟

والآن ستتساءل: لماذا نقصت الأم في هذه المسألة دون الأب؟ والجواب يظهر من خلال شعورك بالعدل والحكمة وأن البصائر القرآنية الشرعية منظومة متكاملة يكمل بعضها بعضًا.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٤٠).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٤٤).

إنه قانون العدل والقسط في الحقوق والواجبات، والرحمة بأفراد المجتمعات.. إنها القوانين الحقيقية التي تحتاجها الحضارة المعاصرة المبنية على قوانين القوة المتوحشة.. تحتاجها أكثر مما احتاجتها الجاهلية الأولى، فانظر للمسألة بوضوح وشعور بعظمة التشريع الإسلامي، فلما مات الميت وخلف أبًا وأُمًّا وإخوة؛ فإن الأخوة حجبوا أمهم من الثلث إلى السدس ليأخذ الأب إما الثلثين ويأخذون هم السدس، أو ليأخذ الخمسة أسداس الباقية لأنه مسؤول مباشر عن رعايتهم، وهو الذي يقاسي الآلام في النفقة عليهم، وعليه مُؤَنهم والقيام على رعايتهم وسد خللهم حتى بعد نكاحهم واستقلالهم كما هو معلوم من حال المجتمعات المتماسكة، وكل ذلك يجب على الأب دون الأم كما هو معلومٌ.

فالتقسيم بُنِيَ على قانون العدل والقسط؛ إذ هي منظومة من العلاقة الإسلامية يؤسسها الإسلام من حيث تبقى الأسرة متماسكة ولا يكون كلٌّ واحدٍ مستقلًّا عن الآخر.

القانون السابع: قانون يتعلق بحق المجتمع في الإرث.

ويُبَصِّرُنا به قوله جل مجده: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ (النساء:١١):

تكرر هذا القانون أربع مرات في آيتين؛ وذلك لتتم الموازنة التامة، وتظهر العدالة الحقيقية في النظر إلى حقوق الورثة من جهة، وحقوق المجتمع الذي يضم غير الورثة من جهةٍ أخرى، فذكر الله جل وعز حقَّين للمجتمع:

الحق الأول: حق أصحاب الديون، وهو الذي يجب أن يُبتدأ به؛ لأن لأصحاب الديون فضلًا حقيقيًا واضحًا على الميت، وأقل ما يجب نحو فضلهم رد أموالهم إليهم، وقد قرر النبي ﷺ القيمة الكبرى للدين في الذمة الإنسانية، مهما بلغت أعمالها الصالحة، وألزم الدولة بأدائه؛ إن لم يتمكن الورثة من أدائه؛

فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟ قَالُوا: لاَ، فَصَلَّى عَلَيْهِ.. ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: ثَلاَثَةُ دَنَانِيرَ، قَالَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ [1]، وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ: «أَنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ إِلاَّ الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِي ذَلِكَ»[2].

إن الدين ذمة عظيمة في الرقبة الإنسانية يمثل حقًا غير مقضي لإنسانٍ آخر، وحقوق البشر قائمة على المشاحة، وحقوق الله قائمة على المسامحة، والسورة قائمة على بث الإنسانية في الأرض، وتقسيم حقوقها فيما بينها بالقسط، ولذا لا بد أن يؤدى الدين أولا قبل توزيع الميراث.

وأما الحق الثاني: حق المجتمع غير الوارث من الذين خصهم الميت بالوصية:

فجعل الله الموصى لهم شركاء الورثة فيما بقي بعد قضاء الدين، ما لم تجاوز الوصية الثلث، وذلك لبقاء العدالة قائمة، وعدم إغفال الأقارب الذين تتكون منهم الأسرة المتماسكة التي تسعد المجتمع، فإن جاوز ذلك ثلثه، جعل الخيار في إجازة

(١) البخاري- ترقيم فتح الباري (٣ / ١٢٤) برقم ٢٢٨٩.

(٢) صحيح مسلم (٦ / ٣٧) برقم ١٨٨٥.

ما زاد على الثلث من ذلك أو ردِّه إلى ورثته: إن أحبوا أجازوا الزيادة على ثلث ذلك، وإن شاءوا ردوه، فأما ما كان من ذلك إلى الثلث، فهو ماضٍ عليهم.. هكذا قال الله جل في علاه مقررًا هذا القانون العظيم: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

وفي قوله تعالى جده: ﴿يُوصِي﴾ قراءتان **تصوران مشهدين**:

المشهد الأول: تصوره قراءة ابْن عَامر وَابْن كثير وَشعبة عن عَاصِم ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ بِفَتْح الصَّاد فِي هذه الآية والتي تليها، ووافقهم حفص في الثانية على أن البناء لما لم يُسَمَّ فاعله ليظهر التركيز على الوصية لا على الموصي، وكأن الوصية مطلوبةٌ في ذاتها فلا ينبغي تركها.

المشهد الثاني: تصوره قراءة الجمهور ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ بِكَسْر الصَّاد فيهمَا ليُظهِرَ الله بها تنبيه الـمُوَرِّث بأن يهتم بالإيصاء، ولا يُغفله، فهو حق المجتمع الإنساني.

ولكنك تلاحظ في الآية أمرًا عجيبًا: ترى تقديم الوصية على الدين، وتأمل في هذا القانون، وأخبرني: أيهما أولى الدين أم الوصية؟ إذ ظاهر الآية تقديم الوصية على الدين مع أن ذلك خلاف المأمور به، فعن الحارث الأعور، عن عليّ رضي الله عنه قال: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، وإنّ رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية [1]، فما المعنى الذي يريده الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ؟ وكيف جاء منطوق الآية بتقديم الوصية على الدين، ومن حيث العمل تجد أمر النبي ﷺ ومن بعده بإنفاذ الدين قبل الوصية، فما المعنى؟ هذا من الجمال القرآني من البيان القرآني الذي إذا وقف الإنسان عنده فكأنه يشرب سقيا عذبةً يتلذذ بها، فالمعنى أن تقديم الوصية ورد في اللفظ في الذكر الحكيم، ولكنه ليس مرادًا في العمل بدليل أنه عطف عليه بقوله ﴿أَوۡ﴾و(أو) لا تفيد الترتيب البتة، وإنما قدمت

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٧/ ٤٦).

الوصية ظاهرًا مع أنها في الحقيقة عملٌ مؤخرٌ عن الدَّين: للإيجاز مع الإعجاز، وهو إيجازٌ قائمٌ على عدم الإلغاز؛ إذ الوصية مالٌ يؤخذ بغير عوض، وعادةً يكون شاقًّا على الورثة، بعكس الدَّين فالورثة يعطونه لأنهم مضطرون، وعادة الورثة أن يشق عليهم أن يخرجوا مقدار الوصية حسب طبيعة النفس الإنسانية التي أحضرت الشح، ولأن النفس الإنسانية كذلك أكد الله إخراج الوصية بتقديمها على الدين مع أهمية الدين من الناحية الفعلية وتقديمه، وذلك لمعالجة النفس الإنسانية، وتنبيهًا لنا أن الوصية في الإخراج تكون مثل الدين؛ إذ إن الدين حق لآدمي يطالب به، وكذلك الوصية بات مضمونها حقًا لجهاتٍ إنسانيةٍ أخرى، فالدين يطلبه أصحابه أما الوصية فقد يتساهل الورثة في إخراجها، ولذلك قال ﴿أَوَ﴾، والدين تستشنع النفوس ألا تخرجه، فكذلك ينبغي أن تستشنع ألا تخرج الوصية، والوصية مندوب إليها وليست واجبة ولكن على الإنسان أن يبادر لها ويسرع لها لتشوف الشارع لأن ينفع الإنسان نفسه بالوصية بعد الموت.

القانون الثامن: يجب أن نستوعب أسس التفصيل الإلهي للإرث لتكون حاضرة في الاعتزاز بهذا النظام الفريد.

وهذه الأسس يفرقها الله جل جلاله ويبثها في ثنايا كلامه لتأتي مثبتة لخلقه على نظامه، ومعينة لهم على الشعور بجمال الحكمة وراء أحكامه.

وقد ذكر هنا ثلاثة أسس:

الأساس الأول: هذا التقسيم الدقيق قائمٌ على العلم الإلهي بالأحوال البشرية المختلفة، وبالقسط الذي ينبغي أن يكون في موضعه، وبما يحقق بث النوع الإنساني في الأرض، وبطبيعة كل فردٍ ومدى نفعه لقريبه. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله الله جل مجده: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ (النساء: ١١).

وهذا خبرٌ عن مبتدأٍ محذوفٍ كقوله[١]:

فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زلّت

بَعْدَ قَوْلِهِ:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَدَانَتْ مَنِيَّتِي أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

والمعنى: هم آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا في الدنيا والآخرة، فأيهما أنفع للمرء: الآباء أم الأبناء؟ هذا شيءٌ لا يمكن أن يعلمه البشر مهما كان؛ فقد يكون الأب صالحًا محسنًا، والعكس، وقد يكون الابن صالحًا محسناً والعكس، ووضع نظام الإرث بهذه الطريقة الرائعة يكفل التقسيم العادل، ويقوي الآصرة الأسرية، ويبقي الحياة عامرة، ويعين الإنسانية على استمرار البث الإنساني في مواجهة مصاعب الحياة، فأراد الله سبحانه أن يسكب في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمره، فهذه قسمته التي فرضها بناء على علمه، وهم لا يدرون أي الأقرباء أقرب لهم نفعًا، ولا أي القسم أقرب لهم مصلحة: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾[٢]، فهذه الجملة تبين أن من أهم الحكم الإلهية المؤسسة لتفصيل الإرث العلم الكامل بالأحوال البشرية.

الأساس الثاني: ضرورة الإلزام والالتزام القانوني بأوامر الله، وعدم التراخي في تنفيذها، وعدم ترك الأمر فوضى أو قائمًا على الأهواء المتغيرة والأفكار المتعصبة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تقديرًا مفروضًا، فبعد إثبات العلم بأحوال البشر يأتي ما يترتب عليه وهو حق التشريع، فلله جل مجده الحكم الكامل.

الأساس الثالث: الشعور بالثقة بمشرع هذه التشريعات، فهي صادرة عن العليم

(١) الأمالي لأبي علي القالي (١/ ٤٠).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٥٩٣).

الحكيم، وليس عن البشر الذين يصيبهم الخلل في المنطق والتفكير، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

وتشعرك هذه المقاصد بأن بعض العرب اعترض على هذا التقسيم عند نزوله فقال: تُعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير؛ وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة؟!، أي ولا يكتسب أو يعمل، فرد الله على هذا المنطق الجاهلي القديم والحديث بهذه الجملة المباركة فقال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

كأنه يقول: أيها العالم الحائر لا تحاول أن تضع لك قوانين يظن عقلك أنها نافعة لك بينما هي تؤلمك وتشقيك.. أيها الناس إن الإِلَه الحَكِيم الرَّحِيم هو العليم بمصالحكم وأوضاعكم فاتْرُكُوا تَقْدِيرَ المَوَارِيثِ بِالمَقَادِيرِ الَّتِي تَسْتَحْسِنُهَا عُقُولُكُمْ، وَكُونُوا مُطِيعِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ فِي هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا لَكُمْ، لماذا تتعبون أنفسكم الكليلة عقولها في محاولة الإحاطة بالمصالح التي لا يحيط بها إلا الله؟ إن الإسلام قام على نظامٍ متوازنٍ حكيم.. فكلف المجتمع بكفالة المرأة بنتًا، وأختًا، وزوجة، وأمًا، فمن الطبيعي أن العادل سبحانه وتعالى يعطى من يكفلها نصيبًا أعلى منها إرثًا؛ إذ هي المنتفعة به بعد ذلك، فهذا داخل في معنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾، ولكن انظر إلى الجملة لترى أن الله أخبر عن نفسه بصيغة الماضي، فلماذا؟

لأن ﴿كَانَ﴾ كما تأتي للمضي كذلك تأتي لبيان الحقائق الثابتة في الماضي المستمرة الدائمة فيما يتعلق بحق الله تعالى، والسر في ذلك أن الزمان والمكان يتعلق بنا نحن، أما الله فهو ملك الزمان جل في علاه، ولذا قَالَ الخَلِيلُ: «الخَبَرُ عَنِ اللَّهِ بِهَذِهِ الأَلْفَاظِ كَالخَبَرِ بِالحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الدُّخُولِ تَحْتَ الزَّمَانِ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: القَوْمُ لَمَّا شَاهَدُوا عِلْمًا وَحِكْمَةً وَفَضْلًا وَإِحْسَانًا تَعَجَّبُوا، فَقِيلَ

لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بهذه الصفات»[١].

فإذا كان الخبر عن الله بالماضي كالخبر عن الحال والاستقبال، فلماذا خصص الماضي؟ ترى الجواب بيِّنًا ظاهرًا عند التأمل؛ فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده، فذكر الماضي يدل على أن صفاته الحسنى مقترنة بأوليته، فليست صفاتٍ حادثة جل في علاه.

القانون التاسع: حقوق الأزواج، وهم الصنف الثالث.

بعد أن ذكر الله عمود النسب في القرابة، وأساس الأسرة، وهم الفروع والأصول مبتدئًا بذكر الفروع ثم الأصول بين فرائض الزوجين، وذكر أن لكلٍ منهما حالتين تتناسبان مع الحفاظ على الكيان الأسري، والعدالة في التوزيع، وحق الزوجين في الإرث من الحقوق التي تلاعبت بها الجاهلية الأولى والأخرى؛ فقد كان أهل الجاهلية الأولى لَا يُوَرِّثُونَ الزَّوْجَيْنِ، فالرجل يصير أجنبيًا بِمَوْتِهَا، وَأَمَّا المَرْأَةُ فَلَا تَرِثُ زَوْجَهَا بَلْ تكون جزءًا من الميراث، فلننظر إلى التقسيم العادل، والنظام الرائع المتكامل الذي وضعه الله لبيان حق الزوجين في الإرث، فلكل واحد من الزوجين حالتان في الإرث، حالةٌ مع وجود أولاد للمتوفى، وحالة مع عدم وجود أولاد:

الحالة الأولى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ الميت هو الزوجة والوارث الزوج، ولا يوجد ولد، فيكون للأزواج النصف، والآية تدل على أن رابطة الزوجية تبقى بعد الموت.

الحالة الثانية: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢).

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ٥٢٠).

الميت الزوجة، والوارث الزوج، ويوجد ولد، فللزوج الربع.

الحالة الثالثة: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

الميت الزوج، والوارث الزوجة، ولا يوجد ولد، فللزوجة الربع.

الحالة الرابعة: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢).

الميت الزوج، والوارث الزوجة، ويوجد ولد فللزوجة الثمن.

القانون العاشر: حقوق الأخوة من أم.

إرث الأخوة إنما يكون في حالة الكلالة، فـ «الكلالة» هم الذين يرثون الميت، وليسوا بأصول ولا فروع كما قيل:

ويسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة
لا والد يبقى ولا مولود انقطع الأحفاد والجدود

وتطلق الكلالة على المورث والوارث، اشتق لهما هذه الوصف من قولهم رَجُلٌ كَلَالَةٌ، وَامْرَأَةٌ كَلَالَةٌ، وَقَوْمٌ كَلَالَةٌ، لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ كَالدَّلَالَةِ وَالوَكَالَةِ، مأخوذة من كلَّت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة، وكل الرجل يكل إذا أعيا وانقطع، قال الأعشى[1]:

فآليتُ لا أرثي لها من كَلالَةٍ ولا من حَفىً حتّى تُلاقي محمّدا

فَأَطْلَقُوا على البعيد من القرابة الكَلَالَةَ عَلَى طَرِيقِ الكِنَايَةِ، وَاسْتَشْهَدُوا لَهُ بِقَوْلِ مَنْ لَمْ يُسَمُّوهُ[2]:

(١) العين (٣/ ٣٠٦).

(٢) تهذيب اللغة (٩/ ٣٣١).

فَإِنَّ أَبَا المَرْءِ أَحَمَى لَهُ وَمَوْلَى الكَلَالَةِ لَا يُغْضَبُ

فكأن المورث كلَّ عن أن يوجد له أصول أو فروع يعينونه على الحياة، أو يبقون ذكره، وكأن الوارث كلَّ عن الوصول إلى المورث إلا عندما انقطع عن المورث أصوله وفروعه.

ويحتمل أن تكون الكَلَالَةُ من تكلل إذا أحاط، وَمِنْهُ الإِكْلِيلُ لِإِحَاطَتِهِ بِالرَّأْسِ، وَمِنْهُ الكُلُّ لِإِحَاطَتِهِ بِمَا يَدْخَلُ فِيهِ، وَيُقَالُ تَكَلَّلَ السَّحَابُ إِذَا صَارَ مُحِيطًا بِالجَوَانِبِ، فمَنْ عَدَا الوَالِدِ وَالوَلَدِ إِنَّمَا سُمُّوا بِالكَلَالَةِ، لِأَنَّهُمْ كَالدَّائِرَةِ المُحِيطَةِ بِالإِنْسَانِ وَكَالإِكْلِيلِ المُحِيطِ بِرَأْسِهِ، أما قرابة الوِلَادَةِ، فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ فِيهَا يَتَفَرَّعُ البَعْضُ عَنِ البَعْضِ، وَيَتَوَلَّدُ البَعْضُ مِنَ البَعْضِ، كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ الَّذِي يَتَزَايَدُ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

نَسَبٌ تَتَابَعَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ كَالرُّمْحِ أُنْبُوبًا عَلَى أُنْبُوبِ [1]

ويدل على هذا التفسير لمعنى الكلالة التخصيص الشرعي المفهوم من السياق، وفهم الصحابة ﷺ، وتساعد على ذلك اللغة:

فأما السياق: فسياق الآية يدل على أن الكلالة من خلا من الوالد والولد؛ لأنه ذكر أحوال الفروع والأصول، فدل ذلك على أن الكلالة حالة مختلفة.

وأما فهم الصحابة ﷺ، فقد ذهب الصديق إلى تفسيرها بذلك، فعن الشعبي قال: قال أبو بكر ﷺ: إني قد رأيت في الكلالة رأيًا، فإن كان صوابًا فمن الله وحده لا شريك له، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه بريء: أن الكلالة ما خلا الولد والوالد. فلما استخلف عمر ﷺ قال: إني لأستحيي من الله تبارك وتعالى أن أخالف أبا بكر في

(١) تفسير المنار ٤/ ٤٣٦.

رأي رآه [١]، وعن القاسم بن ربيعة قال: قرأت على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ قال سعد: «لأمه» [٢] أي قال سعد ذلك مبينًا للقارئ المراد، فظنه بعض الناس قراءة.

وقد نزلت هذه الآية مبينة للكلالة، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ لاَ أَعْقِلُ فَتَوَضَّأَ، وَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنِ المِيرَاثُ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةٌ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ[٣]. ويظهر لي أنه يعني بآية الفرائض الآيات الثلاث، ولعل الأولى منها نزلت قبل الأخريين، والقرينة التي اعتمدنا عليها في ذلك أن جابرًا رضي الله عنه ذكر الآية الأولى في رواية أخرى للبخاري فقال: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ: لاَ أَعْقِلُ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللهِ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [٤]، وهذا على ترجيح ظاهر الراوية وأن أحدًا من الرواة لم يجتهد، وإلا فلك أن تقول: إن الآية الأولى نزلت قبلهما حين سألت عن الأمر زوجة سعد بن الربيع رضي عنها وعنه، ثم نزلت مجددًا مع ما بعدها، ومع آية الكلالة في آخر النساء، وذلك لأن أخوات جابر إنما هن أخواتٌ له من أبيه على الأقل فيما يظهر من كلام جابر وأبيه رضي الله عنهما قبيل أحد.

والإخوة إما أن يتصلوا بالميت من جهة الأم فقط وهم الأخياف، فأمهم واحدة وآباؤهم شتى، وإما أن يتصلوا بالميت من جهة الأب فقط وهم العَلَّات فأبوهم واحدٌ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٥٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٦٢).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٦٠) برقم ١٩٤.

(٤) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٥٤) برقم ٤٥٧٧.

وأمهاتهم شتى، وإما أن يتصلوا بالميت من جهة الأبوين وهم الأعيان، وقد ذكر الله في هذه الآية الأخياف أي الذين يتصلون بالميت من جهة الأم، وأخر الكلام عن الأخوة الأشقاء أو لأبٍ إلى آخر السورة، وربما كان ذلك إِبْطَالًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ إِلْغَاءِ جَانِبِ الأُمُومَةِ أَصْلًا، فبدأ بنقيض ما يفعلون لتأكيد أهميته ولبيان العدل في القسمة ولبيان إظهار التماسك الأسري، وذكر للأخوة لأم حالتين:

الحالة الأولى: قال الله عنها ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

أن يكون الأخ فردًا واحدًا ذكرًا أو أنثى حال كون الوارث كلالة فلكل واحدٍ منهما السدس.

الحالة الثانية: قال الله عنها ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ (النساء: ١٢).

إذا كانوا أكثر من فردٍ، فيشتركون في الثلث الذكر والأنثى في ذلك سواء، ويشاركهم فيه العلات، والأعيان -إن وجدوا- فخالف الإخوة لأم بقية الورثة من وجوه:

أحدها: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، وهذا هو العدل بالنسبة لهم، وذلك لأن الإرث الذي يؤول إليهم إنما يأتيهم من أخٍ من أمٍ، فلا يكون معهم في الميراث أبٌ منفق.

والثاني: أنهم لا يرثون إلا أن يكون ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن.

والثالث: أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم.

وَاخْتَلَفَ العُلَمَاء فِي المَسْأَلَة المُشْتَرَكَة وَهِيَ زَوْج وَأُمّ أَوْ جَدَّة وَاثْنَانِ من الأخوة

لْأُمّ وَوَاحِد أَوْ أَكْثَر مِنْ الأخوة لأبوين فَعَلَى قَوْل الجُمْهُور لِلزَّوْجِ النِّصْف، وَلِلْأُمِّ أَوْ الجَدَّة السُّدُس، وَلِوَلَدِ الأُمّ الثُّلُث، وَيُشَارِكهُمْ فِيهِ وَلَد الأَب وَالأُمّ بِمَا بَيْنهمْ مِنْ القَدْر المُشْتَرَك وَهُوَ أُخُوَّة الأُمّ، وَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ المَسْأَلَة فِي زَمَان أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر فَأَعْطَى الزَّوْج النِّصْف وَالأُمّ السُّدُس وَجَعَلَ الثُّلُث لِأَوْلَادِ الأُمّ فَقَالَ لَهُ أَوْلَاد الأَبَوَيْنِ: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ هَبْ أَنَّ أَبَانَا كَانَ حِمَارًا؟ أَلَسْنَا مِنْ أُمّ وَاحِدَة؟ فَشَرَّكَ بَيْنهمْ، وَصَحَّ التَّشْرِيك عَنْ جمع من الصحابة وأهل العلم، فهو مَذْهَب مَالك وَالشَّافِعِيّ وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ، وذكروا أن عَلِيًّا بْن أَبِي طَالِب ﷺ لَا يُشْرِك بَيْنهمْ بَلْ يَجْعَل الثُّلُث لِأَوْلَادِ الأُمّ وَلَا شَيْء لِأَوْلَادِ الأَبَوَيْنِ وَالحَالَة هَذِهِ لِأَنَّهُمْ عَصَبَة، ولا أدري مدى صحة ذلك عنه.

وربما كان عدم ذكر الإخوة لأب أو لأبوين هنا سبب الإشكال عند عمر ﷺ حتى راجع النبي ﷺ في الكلالة، فعَنْ سَعِيدِ بن المسيب قال: إن عمر ﷺ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ نُوَرِّثُ الكلالة فقال ﷺ: أو ليس قَدْ بيّن الله تعالى ذَلِكَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ إلى آخرها، فكأن عمر ﷺ لَمْ يَفْهَمْ فأنزل الله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ فكأن عمر ﷺ لَمْ يَفْهَمْ، فقال لحفصة ﷺ: إذا رأيت من رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَيِّبَ نَفْسٍ، فَاسْأَلِيهِ عَنْهَا، فَرَأَتْ مِنْهُ طِيبَ نَفْسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا. فَقَالَ ﷺ: «أَبُوكِ كَتَبَ لَكَ هَذَا مَا أَرَى أَبَاكِ يَعْلَمُهَا أَبَدًا» فكان عمر ﷺ يَقُولُ: مَا أُرَانِي أَعْلَمُهَا أَبَدًا وَقَدْ قَالَ ﷺ مَا قَالَ [1].

القانون الحادي عشر: ينبغي الموازنة بين حق المجتمع وحقوق الأقرباء الورثة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.

فأعاد ذكر الوصية والدين لأنهما يتعلقان بحق المجتمع، ولكنه جل مجده أضاف هنا هذا القيد ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾؛ وهذه الكلمة مدهشة وأظنها من مبتكرات

(١) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٨ / ١٧)، وقال ابن حجر: صَحِيحٌ إِنْ كَانَ ابْنُ المُسَيِّبِ سَمِعَهُ من حفصة رَضِيَ الله عَنْها.

القرآن المجيد؛ إذ تحتمل معنيين يتعلق كل منهما بجهة مختلفة:

الجهة الأولى: تنبيه المورث الموصي ألا يسبب الضرر لورثته، فمضَارّ هنا اسم فاعل بتقدير كسر الراء الأولى المدغمة في الراء الثانية، فأصلها (مضارِر)، أي ينبغي أن يكون الوارث الموصِي غير مضارٍ ورثتَه في ميراثهم عنه؛ فهذا القيد لضمان حق الأقرباء الورثة، فلا يطغى عليهم حق المجتمع بكثرة الوصايا أو التعسف في تنفيذها، فإن ظهر من وصيته الإضرار أبطلت الوصية، فعن ابن عباس ﷺ قال: الضرار في الوصية من الكبائر [١]،وعن أبي الضحى قال: دخلت مع مسروق على مريض، فإذا هو يوصي قال: فقال له مسروق: اعدل لا تضلل [٢]، وكلمة يوصي فيها قراءتان يصح فيهما هذا المعنى: بكسر الصاد للجمهور ليكون التنبيه للمورِّث الموصي، وبفتح الصاد لابن كثير وابن عامر وعاصم ليحتمل ذلك، وليحتمل أيضًا الأوصياء أو من يقومون بتنفيذ الوصية.

الجهة الثانية: تنبيه الورثة ألا يضاروا الوصية أو الموصى لهم: فتكون ﴿مُضَآرٍّ﴾ أصلها مضارَر بفتح الراء أي غير مضارر الموصى لهم أو غير مضارَرٍ هذا الإيصاء من قبل الورثة، فلا يطغون هم عليه بأخذ شيء من الوصية، أو التلاعب بها كما يصح أن يعود نفي الضرر على من ينفذ الوصية؛ إذ قد يجد الأذى من الجهتين: الورثة والموصى لهم.

وتعال بنا مجددًا للنظر في آيتي الميراث هاتين:

لقد جاء هذا القيد ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ متأخرًا متصلًا بميراث الكلالة دون أن يتصل بميراث الأولاد أو الوالدين في الآية الحادية عشرة، ودون أن يتصل بميراث الأزواج في الآية الثانية عشرة، فاختلف نظر الناظرين في سبب ذلك، فذهب بعض المفسرين

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٦٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٦٧).

إلى أن ورود هَذَا القَيْدِ فِي وَصِيَّةِ إِرْثِ الكَلَالَةِ دُونَ مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ القَصْدَ إِلَى مُضَارَّةِ الوَالِدَيْنِ، أَوِ الأَوْلَادِ وَكَذَا الأَزْوَاجُ نَادِرٌ جِدًّا، فَكَأَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، والذي يظهر لي أن هذا القيد يشمل جميع المواضع السابقة لأنها متحدة الحكم والسبب، وإنك لترى في الواقع محاولة بعض المورثين حرمان أقرب الناس إليهم لشيءٍ ما، وعلى هذا ناسب أن يكون هذا القيد ختاميًا ليشمل المواضع السابقة، وناسب أيضًا أن يتصل بميراث الكلالة من الأخوة والأخوات لأم لزهد كثيرٍ من الناس في توريثهم، ولبعدهم النسبي عن مواقع التأثير والاتصال النسبي المباشر.

وبقي أن تسأل كيف يمكن أن يحدث ذلك الإضرار في الورثة أو في المجتمع؟ أجيبك بصورٍ تمثيلية متعددة غير حاصرةٍ، ومنها [١]:

الصورة الأولى: أن يَتَجَاوَزَ المُوصِي بِوَصِيَّتِهِ ثُلُثَ مَالِهِ، فالآية وإن دلت على جواز الوصية بكل المال فقد خصصت السنة ذلك بالثلث لأجل الورثة، فعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ مَرَضٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى المَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ. أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لاَ». قَالَ: فَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟. قَالَ: «الثُّلُثُ يَا سَعْدُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ آجَرَكَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ» [٢].

فإذا لم يوجد الورثة جازت الوصية بكل المال.

الصورة الثانية: أن ينوي الإضرار لا القربة، وكيف ذلك؟ يكون ذلك بأن يحتال

(١) الرازي ٩/ ٥٢٤.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٨٧).

بطريقة خفية ليحقق مأربه، كَأَنْ يُقِرَّ بِكُلِّ مَالِهِ أَوْ بِبَعْضِهِ لِأَجْنَبِيٍّ لأجل أن يضر ورثته أو أن يضر المجتمع الذي يحتاج إلى الوصية.

الصورة الثالثة: أَنْ يُقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ بِدَيْنٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ دَفْعًا لِلْمِيرَاثِ عَنِ الوَرَثَةِ.

الصورة الرابعة: أَنْ يُقِرَّ بِأَنَّ الدَّيْنَ الَّذِي كَانَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ قَدِ اسْتَوْفَاهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ.

الصورة الخامسة: أَنْ يبيع شيئًا بثمن بخسٍ أَوْ يَشْتَرِيَ شَيْئًا بِثَمَنٍ غَالٍ، كُلُّ ذَلِكَ لِغَرَضِ أَنْ لَا يَصِلَ المَالُ إِلَى الوَرَثَةِ.

الصورة السادسة: أَنْ يُوصِيَ بِالثُّلُثِ لَا لِوَجْهِ اللَّهِ لَكِنْ لِغَرَضِ تَنْقِيصِ حُقُوقِ الوَرَثَةِ، فَهَذَا هُوَ وَجْهُ الإِضْرَارِ فِي الوَصِيَّةِ.

ولا بد أن نذكر بأنه يدخل ضمن الدين: الزكاة والحج وصوم النذر عند بعض أهل العلم، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ (نذر) أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ: فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى[1]، وعن عبد الله بن الزبير قال جاء رجل من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقال: أن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب عليه أفأحج عنه؟ قال: «أنت أكبر ولده؟» قال: نعم. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان ذلك يجزئ عنه» قال: نعم قال: «فاحجج عنه»[2].

قال النووي رحمه الله: «اِخْتَلَفَ العُلَمَاء فِيمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْم وَاجِب مِنْ رَمَضَان، أَوْ قَضَاء أَوْ نَذْر أَوْ غَيْره، هَلْ يُقْضَى عَنْهُ ؟ وَلِلشَّافِعِيِّ فِي المَسْأَلَة قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ: أَشْهَرُهُمَا: لَا يُصَام عَنْهُ، وَلَا يَصِحّ عَنْ مَيِّت صَوْم أَصْلًا.

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٤٦) برقم ١٩٥٣.

(٢) أحمد (٤ / ٥) برقم ١٦١٧٠، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح دون قوله: « أنت أكبر ولده.

وَالثَّانِي: يُسْتَحَبّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَصُوم عَنْهُ، وَيَصِحّ صَوْمه عَنْهُ وَيَبْرَأُ بِهِ المَيِّتُ، وَلَا يَحْتَاج إِلَى إِطْعَام عَنْهُ، وَهَذَا القَوْل هُوَ الصَّحِيح المُخْتَار الَّذِي نَعْتَقِدُهُ، وَهُوَ الَّذِي صَحَّحَهُ مُحَقِّقُو أَصْحَابنَا الجَامِعُونَ بَيْن الفِقْه وَالحَدِيث لِهَذِهِ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة الصَّرِيحَة، وَأَمَّا الحَدِيث الوَارِد «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَام أُطْعِمَ عَنْهُ» فَلَيْسَ بِثَابِتٍ، وَلَوْ ثَبَتَ أَمْكَنَ الجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الأَحَادِيث بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى جَوَاز الأَمْرَيْنِ، فَإِنَّ مَنْ يَقُول بِالصِّيَام يَجُوز عِنْده الإِطْعَام، فَثَبَتَ أَنَّ الصَّوَابَ المُتَعَيِّنَ تَجْوِيزُ الصِّيَام، وَتَجْوِيز الإِطْعَام، وَالوَلِيّ مُخَيَّرٌ بَيْنهمَا، وَالمُرَاد بِالوَلِيِّ القَرِيب، سَوَاء كَانَ عَصَبَةً أَوْ وَارِثًا أَوْ غَيْرَهُمَا... وَلَا يَجِب عَلَى الوَلِيّ الصَّوْم عَنْهُ، لَكِنْ يُسْتَحَبّ [١].

القانون الثاني عشر: ينبغي الشعور بقوة هذه التشريعات وبيانها لإصلاح الواقع الإنساني.

فهي تعكس الوصية الإلهية التي تحمي المصالح الإنسانية العليا، وفيها يبين الله أسس هذا التقسيم الدقيق، وتبصرنا بهذه الأسس بقية الكلمات القرآنية ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٢- ١٤).

المناسبة والاتصال:

هذا هو الأسلوب القرآني المميز، فبعد أن يذكر الله مجموعةً من القوانين والأحكام يأتي بالفاصل العاصم المحفز للإفادة المثلى من الآيات السابقة وبيان أسرارها، وللتمهيد للآيات اللاحقة وبيان مقاصدها والمصالح الضخمة التي تقيمها

(١) شرح النووي على مسلم (٤ / ١٤٤).

في الحياة البشرية، وهكذا لا بد يأتي القرآن باستراحة مثمرة، وفاصلٍ مكمِّلٍ، وقنطرةٍ مشرقة بين المحور السابق لتوضيحه، والمحور اللاحق للتمهيد له في عرضٍ متكررٍ يحفز النفوس للتعامل الأمثل مع المحور السابق واللاحق.. إنه أسلوبٌ رائعٌ، وعرض مميز لا تجده في الكتب السابقة للقرآن المجيد، ولا المؤلفات البشرية اللاحقة كما لا تجده في المعلقات الشعرية العربية.. إنه القرآن المذهل تنتمي الحروف فيه والكلمات والتراكيب إلى الطرق البشرية في الكلام، لكنه كما ينتمي لها يتميز عنها في الوقت ذاته ليظهر الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق حتى في العرض، وهنا يحقق غرض البيان لأسس التشريعات السابقة وعظمتها، ويمهد لأن يتشوق المرء لسماع تنظيمات جديدة تحفظ الحياة البشرية، وتحميها.

الأساس الأول:

يُبَصِّرُنا به قوله -تعالى مجدُه- ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهذا التقسيم وصية الله أي عهده الذي افترض على عباده أن يأخذوا به، وينقلوه إلى الأجيال بعدهم، يتواصون به، ويشعرون بالثقة الكاملة فيه فهو من الله وليس من الاجتهادات البشرية.

والوصية منه تدل على رحمته بعباده، وحبه لإقامة مصالحهم، ورفقه بهم حيث اختصر لهم مسافة ما ينفعهم فدلهم عليه بدلًا من أن يتعبوا في سبيل الحصول على معرفته، وبدلًا من أن يجربوا السبل المختلفة للاطلاع عليه ثم تراهم لا يصلون إليه.

وقد تتساءل: لِمَ جَعَلَ الله خَاتِمَةَ الآيَةِ الأُولَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وَخَاتِمَةَ هَذِهِ الآيَةِ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ؟

والجواب: يكون ذلك للتفنن من جهة، ومن جهةٍ أخرى: قلِّبْ الطرف في الآيتين الحادية عشرة، والثانية عشرة لترى أنهما يمثلان كتلة متكاملة بدأت بقوله تعالى ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ (النساء: ١١).

ألست ترى أن من الحسن الجميل بعد هذا الكمال في التفصيل أن يقول لنا الملك -عزَّ جارُه-: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فكل ما سبق من القوانين وصيةٌ للبشرية من الله، والوصية العهد المتناقل بين الأجيال المختلفة لينتفعوا به.. وتأمل كيف يرحم الله العبد حيث لا يرحم العبد نفسه، وكيف يستره حيث لا يستر العبد نفسه، وكيف يعينه حيث ينأى عن مصلحته بجانبه، وإن كانت الوصية البشرية واجبة المراعاة، فالوصية من الله آكد وأقوى في المراعاة.

ومن جهة ثالثةٍ: يمكن النظر لهذين الختامين في الآيتين بنظر آخر؛ فلَفْظُ الفَرْضِ أَقْوَى في بيان تحديد الأنصبة والتقسيم بين المستحقين، وناسب ذلك ما يتعلق بالأولاد والوالدين؛ إذ قد تأخذ المرء عاطفة البر، فيحاول أن يميل مع والديه أكثر من أولاده، والله يبين له أن هذا التقسم فريضة مفروضة أي مقطوعة قطعًا باتًّا من الله جل في علاه، وقد فرضها وفق الأسس الغائية الأولى في السورة، ومنها الحفاظ على النوع الإنساني ليتم له البث في الأرض، وحتى يحدث ذلك لا بد من إعانة الأجيال القادمة على مواجهة الحياة.. ذاك ما نستحضره في هذه السورة دائمًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١).. أما لفظ الوصية فختمت بها هذه الآية لتناسب الكلام عن إرث الأزواج والأخوة لأم، وقد كانت الزوجات يحرمن من الإرث، وكان الأخوة لأم لا إرث لهم في النظام الجاهلي، فناسب أن يختم ذلك بلفظ الوصية الإلهية لبيان رعايتهم والاهتمام بهم، وعدم الاستنكاف عن تقديم نصيبهم في الإرث.

الأساس الثاني:

قيام هذا التقسيم الفرائضي الدقيق على العلم الكامل، وعلى الحلم الذي يقابل الخلل التطبيقي الذي يطرأ منكم، ليمدكم بالفرص المتتابعة عسى أن تصلحوا

أوضاعكم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله -عزَّ جارُه- ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، فوصف نفسه العلية جل في علاه بصفتين:

الصفة الأولى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي والله ذو علمٍ بمصالح خلقه ومضارِّهم، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومن يحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسمًا [1]، فأقام هذه القواعد الدقيقة العميقة في المواريث على أساسٍ من العلم بمصالحكم وما ينفعكم، ويظهر أن صيغة المبالغة أو الصفة المشبهة ﴿عَلِيمٌ﴾ تدل على أن علمه كاملٌ وذاتي كما أشار إليه الطبري حيث قال: العالم من غير تعليم.

والصفة الثانية: ﴿حَلِيمٌ﴾ فاعل من حَلُمَ، والحليم الذي لا يُعجِّل بالعقوبة والانتقام، ولا يحبس إنعامَه عن عباده لأجل الذنوب العِظام، بل يرزق العاصي كما يرزق المُطيع، وهو ذو الصَّفح مع قدرته على عقوبة عباده.

وأردف العلم بالحلم لأن العلم يحمل معنى الخبرة التامة بما ينفع الناس كما يحمل معنى الاطلاع على التطبيق الناقص أو المشوه، أو من يظلم منهم في استيفاء هذه الحقوق، فكلمة ﴿عَلِيمٌ﴾ تتضمن أمرين: أنه أعلم بمصالحكم، وأنه العليم بأفعالكم وهنا تتضمن الإنذار والوعيد للمخالف، فأراد أن يبين أن عدم نزول العقوبة لمن خالف ليس دليلًا على الغفلة عنه، لذا أردف ذلك بقوله ﴿حَلِيمٌ﴾، فالحلم فتحٌ لسعة رحمته لمن أذنب وفرط، وفتحٌ للباب لمن أراد أن يراجع نفسه.

الأساس الثالث: ضمان الكرامة الفردية، والسلامة البشرية، والسعادة الإنسانية في الحياة الدنيا عند الالتزام بالتنظيم الحقوقي الدقيق الذي تجد حدوده واضحة في التشريع الإسلامي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فاسم الإشارة هنا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٦٨).

للتفخيم والتعظيم والاعتزاز.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ الحدود جمع حد.. فما الحد في اللغة؟

والحدود جمع حد وهو ما فصَل بينه وبين غيره، فمنع ما قبله عما بعده،.. لماذا سمى الله توجيهاته وفرائضه حدودًا؟ لأن حدود الله تشريعاته المنظمة للحياة التي تفصل بين الإنسانية وبين الخسارة والدمار، وبناء على البقاء ضمن هذه الحدود يتحدد المصير المستقبلي الخالد.. فتظهر عظمةَ الحدِّ في أنه يوضح النظم، ويمنع من التباس الحقوق، وتداخلها، كما يمنع أن يتجاوزه أحد إلا أن يكون مجرمًا في حق نفسه أو حق غيره. ولذلك قيل لحدود الدار وحدود الأرضين: «حدود»، لفصلها بين ما حُدَّ بها وبين غيره، وجعل الله فرائضه حدودًا لأن البشر يجهلون بدقة مدى نفع كل واحد منهم للآخر، ولذا ربما غضب أحدهم على ابنه فمنعه الإرث ومنحه للكلب، فبين الله تعالى التقسيم الدقيق للإرث لتنمو الإنسانية وتتوزع الثروة على النساء والرجال بصورة دقيقة تضمن ألا يكون المال دولة بيد أفراد معدودين، ويقابل مقدار التوزيع مدى أفعالهم وطرق استثمارهم.

تذكر الآن: فحدود الله هي جميع فرائضه الشرعية، وتشريعاته المنظمة للحياة.. لا يغرنك أن استعمل الفقهاء هذا المصطلح في العقوبات؛ فإن حدود الله تعني تشريعاته في الإيمانيات.. تشريعاته في العبادات...تشريعاته في المعاملات.. تشريعاته في البيوع والمعاوضات والاقتصاديات.. حدوده تعني تشريعاته في العقوبات.. فحدود الله تشمل جميع التشريعات الإسلامية. ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ جملة تثير في نفسك ضرورة الشعور بعظمة التشريعات والتنظيمات السابقة، والتشريعات والتنظيمات اللاحقة.. فليشرب في قلبك التعظيمَ لكلام العلي الرحيم فإنه يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ فما مغزى اسم الإشارة هنا؟

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى التشريعات القانونية التي احتواها القرآن المجيد هداية للعالم، ولتعظيمها أشار إليها باسم الإشارة الدال على البعد.. إنه البعد في المكانة والمنزلة.. فإن اسم الإشارة الدال على البعد يؤتى به لغة تفخيمًا للمشار إليه أو تهويلًا وتشنيعًا لحاله:

فأما التشنيع فمثل قوله الملك الحق المبين جل جلاله: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾ (هود: ٥٩) تلك عادٌ في قوة خلقها، وعظمة حضارتها وشناعة تفكيرها وبؤس اختيارها.

وأما في التعظيم والتفخيم فمثل قول الله -عزَّ جارُه-: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ (البقرة: ٢) في عظمة منزلته، وجلالة مكانته، وكماله مصدرًا ومظهرًا ومخبرًا، ومثل قوله جل في علاه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ (غافر: ٦٤) في عظمته وكماله وجلاله.

وهنا يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي في عظمتها القانونية، وحراستها لمصلحتكم، وقيامها بحقوقكم..﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ التي توازن بين حقوقكم العقلية وحاجاتكم العاطفية.. ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ التي تجمع بين شهواتكم الجسدية وأشواقكم الروحية.. فإن الحقوق الإنسانية ينبغي التوازن فيها، فقد آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ. قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ: نَمْ. فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ. قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ فَصَلَّيَا. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِن لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِن لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «صَدَقَ سَلْمَانُ» [1]، وزاد النبي ﷺ في ذكر التوازن بين

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٣ / ٤٩) برقم ١٩٦٨.

الحقوق في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ -أي لضيفك- عَلَيْكَ حَقًّا (زاد مسلم: وإن لولدك عليك حقًا)» [1].. تلك حدود الله التي تجدون فيها التوازن الذي دمرته أهواء الحضارات الأنانية القديمة والمعاصرة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ لماذا أضافها إلى اسمه المعظم جلَّ في علاه؟ لم يضفها إلى الرب كما رأيته في أول السورة عند قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١)؟ لأن الإضافة إلى الاسم العظيم (الله) يفيد الإجلال القانوني والشعور بالاعتزاز عند مقارنتها بالحدود التي وضعتها الاجتهادات البشرية.. هذا مقتضى الاسم العظيم (الله).. هذا عطاء هذا الاسم المبجل كما أن مقتضى اسم (الرب) التربية العامة للعاملين بما تقتضيه من الإيجاد والإعداد والإمداد.

وهذه الجملة الدستورية الذهبية تجد مثلها في الكتب السابقة؛ إذ الكل خرج من مشكاة واحدة، ففي سفر اللاويين (١٨): ١ وكلم الرب موسى قائلا ٢ كلم بني إسرائيل، وقل لهم: أنا الرب إلهكم، ٣ مثل عمل أرض مصر التي سكنتم فيها، لا تعملوا، ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آت بكم إليها، لا تعملوا، وحسب فرائضهم، لا تسلكوا، ٥ فتحفظون فرائضي وأحكامي، التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها، أنا الرب.

وبناء على التزام تلك الحدود تجد الضمان للسعادة والفوز العظيم في الحياة الأخرى، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (النساء:١٣).

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٣/ ٥١) برقم ٥١٩٩.

لماذا ذكر طاعة الرسول مع أنها داخلةٌ في طاعة الله؟

في هذه السورة المباركة وفي القرآن المجيد ترى الله ﷻ يذكر نفسه العلية، ويذكر نبيه ﷺ آمرًا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ على ثلاثة أنحاء:

الأول: الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ بفعلٍ واحدٍ مثل هذه الآية، وذلك تأكيدًا على دخول طاعة الرسول ﷺ في طاعة الله جل ذكره، وللرد على النابتة التي علم الله -تعالى مجده- أنها ستنبت منكرة للسنة، وما أكثر من يتكلم عن السنة المقبولة إما بجهلٍ وغباوة، وإما بحقدٍ؛ لأنه يعلم أنه إذا استطاع أن يطعن في السنة فإنه يلغي التطبيق الحقيقي للقرآن المجيد، وعند ذلك يلعب اللاعبون ويعبث العابثون كما يحبون.

الثاني: الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بفعلين مثل قول تعالى جده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩).

الثالث: الأمر بطاعة الرسول ﷺ منفردًا مثل قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (النور: ٥٦).

ومن أهم مقاصد الشكل الثاني والثالث من الأمر بطاعة الرسول ﷺ: أن يبين الله جل ذكره -بالإضافة إلى الأول- مصدرية السنة النبوية في التشريع، ولإظهار أن الله جل ذكره فوض رسوله الله ﷺ في الاجتهاد في مسائل في الحياة الإنسانية، فيجب أن تصير البشرية إلى هذا الاجتهاد؛ إذ لو كان مخالفًا للأصوب لقومه الله وسدده، ويفصل أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رضي الله عنه لك قصة تبين عظمة التشريع النبوي فيقول: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا. فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ

يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الإِزَارِ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اتَّقِ اللَّهَ. قَالَ: «وَيْلَكَ! أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ» قَالَ: ثمَّ وَلَّى الرَّجُلُ. قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: «لاَ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُقَفٍّ. فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»[1].

كما أن تعدي حدود السلامة التي وضعها الله لعباده يؤدي إلى الشقاء في الآخرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل مجده: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٤).

فمدار الطاعة على البقاء ضمن دائرة تلك الحدود، ومدار المعصية على الاعتداء على تلك الحدود وتجاوزها، فالله هو الذي يشرع للمجتمعات أحكامها ويبين حدودها ومعالمها، فأقام لها هذا النظام الدستوري القانوني الذي يراعي أصل تكوين الأسرة البشرية من نفس واحدة. فلا يحرم امرأة ولا صغيرًا لمجرد أنه امرأة أو صغير؛ لأنه مع رعايته للمصالح العملية- كما بينا في الفقرة الأولى- يرعى كذلك مبدأ الوحدة في النفس الواحدة. فلا يميز جنسًا على جنس إلا بقدر أعبائه في التكافل العائلي والاجتماعي، وهو نظام يراعي الفطرة كما يراعي توزيع الثروة على أساس من العدالة الاجتماعية الحقيقية.

ومن أمثلة الخروج عن حدود السلامة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٣/ ٥١) برقم ٥١٩٩.

إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة، قال: ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا ان شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [1]. وتراه جل مجده ذَكَرَ أَهْلَ الجَنَّةِ ووصفهم بالخلود فقال: ﴿خَالِدِينَ﴾ بينما أفرد أهل النار عند وصفهم بالخلود فقال: ﴿خَالِدًا﴾.. فلماذا هذه المغايرة؟

دار الحوار بين أبي إسحاق الشاطبي وبعض مشايخه حول ذلك، ويحكي الشاطبي في الإفادات والإنشادات ذلك فيقول: قال لي الأستاذ الجليل أبو سعيد بن لب حفظه الله: سئلت عن قوله تعالى في سورة النساء ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية فجمع قوله ﴿خَالِدِينَ﴾ وقال بعدُ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ فأفرد قوله ﴿خَالِدًا﴾؟

قال: وأجبت أن الجنة لما كان لأهلها فيها اجتماعات، وليس فيها فرقةٌ، ولا توجد، جاء قوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ اعتبارًا بالمعنى الحاصل في الجنة من الاجتماع، ولما كان أهل النار على الضد من هذا وكل واحد منهم في تابوت من نار، حتى يقول أحدهم: إنه ليس في النار إلا هو جاء قوله ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ اعتبارًا بهذا المعنى.

ويظهر لي أن في ذلك نظرًا، فإنهم يجتمعون في بعض أحوال التعذيب لا ليأنس بعضهم ببعض، بل ليلعن بعضهم بعضًا، ويزدادون رعبًا برؤية العذاب المشترك الذي يقمعهم، ويدل على هذا الاجتماع مواضع من القرآن المجيد منها قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ

(١) أحمد (٢ / ٢٧٨) برقم ٧٧٢٨، وقال الأرنؤوط: «إسناده ضعيف آفته شهر بن حوشب فإنه قد انفرد به وقد ضعفه غير واحد»، واستدرك بعض المحققين على من ضعف شهرًا ﷺ.

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الصافات: ٢٧ - ٢٩) وقوله تعالى جده: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (ص: ٦٤)، **وعقب السيد علي القديمي وفقه الله**: ويمكن ان يقال يجمع بينهما، فقال ﴿خَٰلِدًا ﴾ للإشعار بالانفراد كمن يهدد بسجن انفرادي، فإنه أشد، ولأن التعذيب الانفرادي أشد، فالاجتماع في العذاب يخفف العذاب، ولا مانع من ذكره اجتماعهم في بعض الاوقات للتلاعن والتخاصم، فهذا قليل بالنسبة لحال انفرادهم أو أن التخاصم والتلاعن ليس عذابًا بالنسبة لما يحصل لهم.

فلنتابع المسائلة بين الشاطبي وأشياخه رحمهم الله:

قال الشاطبي: فعرضت على شيخي الإمام الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار هذا السؤال فأجاب عنه بأنه تعالى ذكر في الأولى جنات متعددة لا جنة واحدة فقال: {ندخله جنات} والضمير المنصوب في {ندخلهُ} وإن كان مجموعًا في المعنى فهو في اللفظ مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة معًا، فجاء ﴿خَٰلِدِينَ ﴾ ليرفع ذلك الإيهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية، وإن كان المعنى صحيحًا، وأما الآية الثانية فإنما فيها نار مفردة، فناسبها الإفراد في « خالدًا ».

ولعلي أستلذ في المعنى أن أصحاب الجنة يكون من كمال نعيمهم الاجتماع بأحبائهم أهلًا وأصحابًا؛ فإن البعد عن الحبيب محزنة لأصحاب العيش الرطيب، فنعيم الأنس له جماله.. فيا لذة اللقاء بالأحبة محمدٍ ﷺ وحزبه، وقد قَالَ المَعَرِّي:

ولو أنّي حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا لمَا أحبَبْتُ بالخُلْدِ انفِرادا
فلا هَطَلَتْ عَلَيّ ولا بأرْضي سَحائبُ ليسَ تنْتَظِمُ البِلادا

على أن الخلة المؤمنة تنفع في بعض أحوال القيامة، وفي رفعة الدرجات في الجنات كما قال الملك الوهاب رب الأرض والسموات: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧)، وقال في الانتفاع والارتفاع ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ (الطور: ٢١) بينما لا يغني اجتماع أهل النار عنهم شيئًا كما قال تعالى ذكره: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٤٣: ٣٩).

وانظر كيف يخوف عباده من هذه النهاية المأساوية، فينوع في ذكر العذاب المنتظر، فذلك أن المتعدي للحدود يدخل نارًا، وذلك أمرٌ يقشعر منه البدن، ثم بين أن مصيبته تكبر؛ إذ هذه النار لن يدخلها ثم يخرج منها، بل هو خالدٌ فيها، ثم زادك طلبًا للفرار من ذلك المصير بأن أضاف للنار وهي تعذيب رهيب.. أضاف لها وجود نوعٍ آخر من التعذيب هو العذاب المهين.. وهذا التصور للعقوبات التي تضمنتها الآية أولى مما حاول أن يقرره الطاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن الذي يستحق النار والخلود صنف، والذي يستحق الإهانة صنفٌ آخر، مع بقاء الاحتمال لقوله.

كما أنك تجد قراءة نافع وابن عامر بالنون ﴿ندخله جنات- نُدْخِلْهُ نَارًا﴾ تعظيمًا للأمر، وتنشيطًا للمخاطب عن طريق الالتفات، وقراءة الجماعة بالياء عظيمة أيضًا لانسجامها ولبنائها على الاسم الأعظم.

المحور الثاني

التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج(الأسرة المركزية)

تقصيدًا لانتشار الحياة (النساء:٥١-٥٢)



المناسبة والاتصال:

استغرق المحورُ الأولُ الآيات (النساء:٢-١٤) في هذه السورة.. ولقد متعت ناظريك فيه؛ إذ رأيته يهتم بصورةٍ مدهشة بإعطاء الحقوق الفردية الإنسانية لمرحلة ما قبل نشوء الأسرة، ففَصَّل الله فيه الحقوق المالية للفئات المستضعفة في المجتمعات: (الأطفال، والنساء، والسفهاء)، وأدمجهم ضمن تقسيم الإرث على أسسٍ عادلةٍ، والعلاقة بين الثلاثة واضحة؛ إذ للنساء دورٌ مؤثرٌ في تأهيل الفئتين الأخريين ليكونا في حيز الرشد، ورأيتَ فيه تشريعاتٍ مذهلةً تهدف إلى المحافظة على الكرامة الإنسانية الفردية وتوازن بينها وبين حقوق المجتمع ليحدث البث الإنساني في الأرض، وفَصَّلَ الله فيه قضايا الإرث لأنه مصدر الدخل الأول الذي يشكل الثروة، ويؤسس لحركة المجتمع.

وهناك رأيت السبق الفريد بل الطَرْقَ الحقوقي الوحيد عندما فصل الله لنا حقوق السفهاء وأدمجهم جميعا ضمن أنصبة الإرث.

وبعد منح أفراد الإنسانية (أطفالًا ونساء وسفهاء ورجالًا) حقوقهم المالية من الجيل السابق يأتي الانتقال السلس في هذا المحور لترشدك البصائر القرآنية إلى تكوين الأسرة من الزوجين ابتداء من الآية الخامسة عشرة.. إنه محورٌ جديدٌ يفصل ربنا سبحانه وتعالى لنا فيه أهم قوانين الزواج وحدوده التي تحمي البناء الأسري، وتحافظ على بث الحياة الإنسانية، وهنا تجد تشريعاتٍ مذهلةً تحافظ على الأسرة المركزية باعتبارها نواة انتشار الجنس الإنساني.

وانظر الإحكام والترابط وكيف كانت الآية الأولى مركزًا مكثفًا انبثقت عن بقية الآيات.. كانت الآية الأولى آية مفتاحية لكل قضايا هذه السورة، فاستحقت أن تمثل المقدمة.. وتلذذ بقراءتها مجددًا لتسمع ربك يقول لك فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١)، وبناء على بث الكثير من الرجال والنساء نشأت أخوة عامة هي الأخوة الإنسانية، كما نشأت أخوة خاصة هي أخوة ذوي الأرحام، وهنا تنشأ الأسرة المركزية التي تتكون من الزوج والزوجة والأطفال لتتكون منها الأسرة المتوسطة وهم ذوو الأرحام، وتبث الإنسانية من خلال ذلك.

أما والأمر كذلك فقد آن الأوان للكلام عن مؤسسة الزواج، فكان هذا المحور الذي حوى الأقسام الآتية:

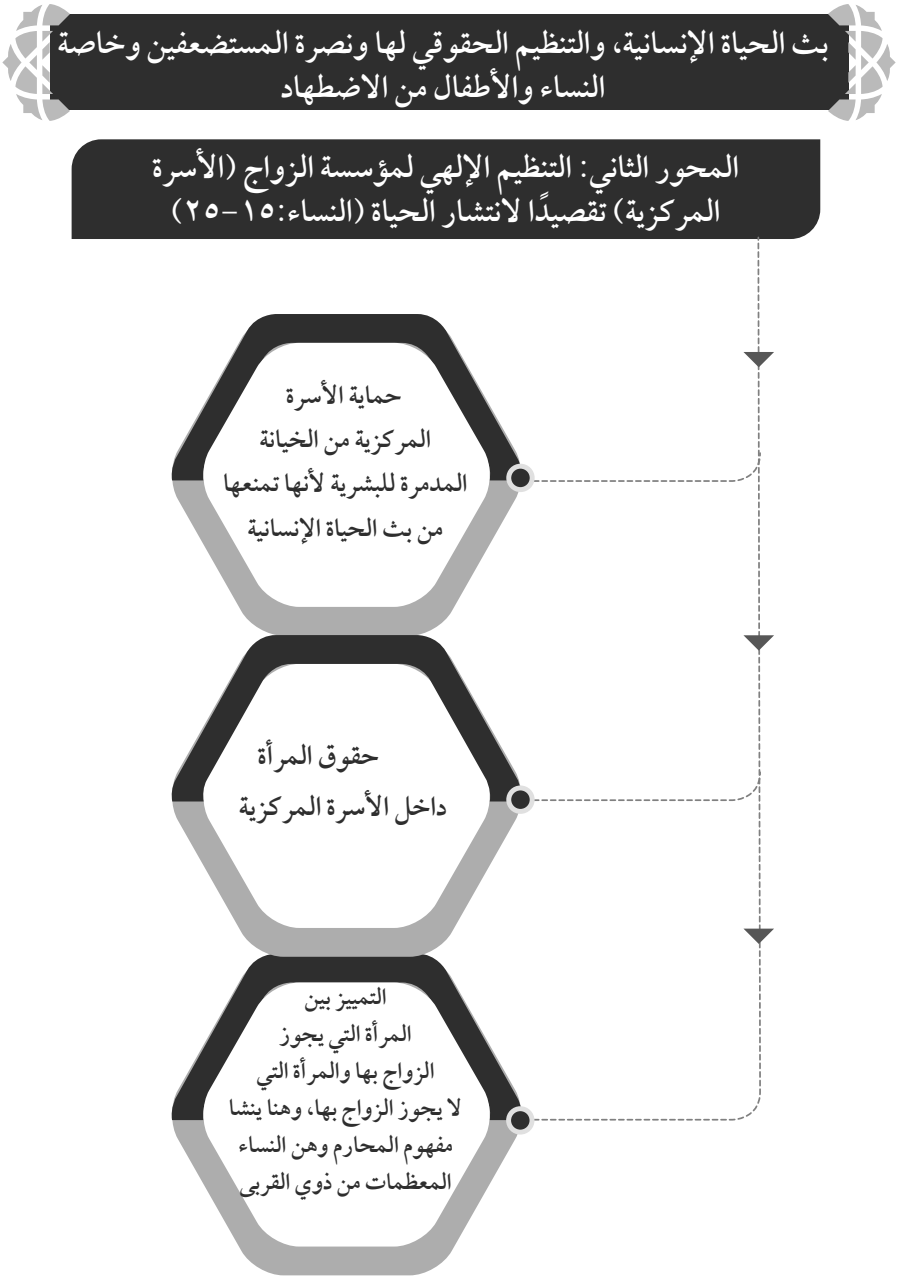
القسم الأول: الحقوق التي تحمي نظام الزواج من العبث، وتعيد تأهيل المتجاوزين لحدود النظام الأسري، والسلامة المجتمعية (النساء:١٥-١٨).

القسم الثاني: حقوق الزوجة، وتحذير الزوج من التعسف معها (النساء:١٩-٢١).

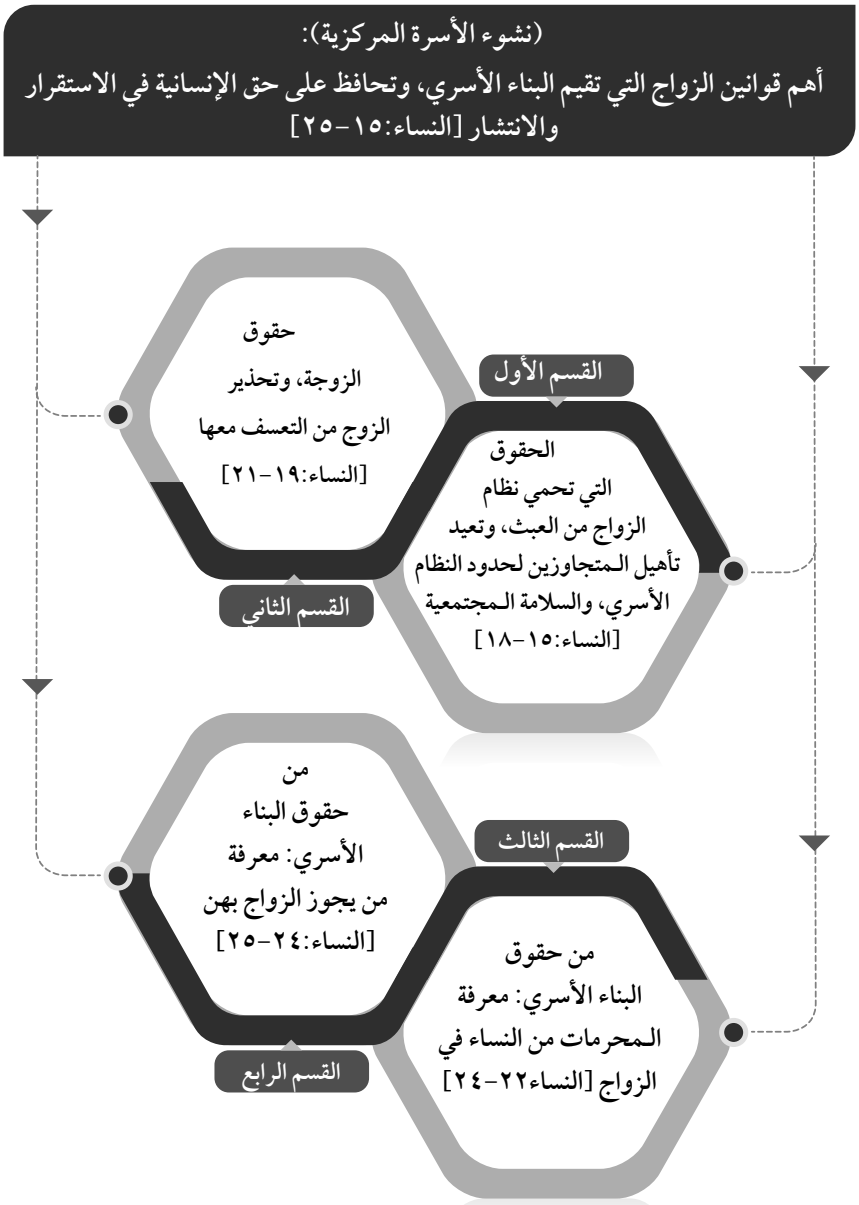
القسم الثالث: من حقوق البناء الأسري: معرفة المحرمات من النساء في الزواج (النساء٢٢-٢٤).

القسم الرابع: من حقوق البناء الأسري: معرفة من يجوز الزواج بهن (النساء:٢٤-٢٥).





شكل (٥) صورة توضح أقسام المحور الثاني



شكل (٦) صورة توضح أقسام المحور الثاني

القسم الأول

القوانين التي تحمي نظام الزواج من الخيانة، وتعيد تأهيل الخونة المتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة المجتمعية (النساء:١٥-١٨)

آيات هذا القسم:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ (النساء:١٥-١٨).

القانون الأول: يجب المحافظة المركزية على بث الحياة الإنسانية من خلال تكوين الأسرة المركزية التي لا يمكن أن تنشأ بصورةٍ طبيعية موافقة لنظام الكون إلا بوجود ذكرٍ وأنثى، ولا يمكن أن تستقر صحيًا ونفسيًا إلا بزواجٍ شرعيٍّ حقيقيٍّ بينهما.

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾(١٥) وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ (١٦) فأخبر أن إتيان الرجال أو النساء للفاحشة يسيء للإنسانية؛ إذ سماها فاحشة أي أمرًا بشعًا يستشنع ذكره، فاجمع هاتين الآيتين مع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ

﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١) لترى أنه تعالى مجده أخبر أن بث الحياة الإنسانية يعتمد على وجود نفسٍ وزوجها، وذلك لا يكون وفق قواعد الخطاب العربي إلا بوجود ذكرٍ وأنثى.

فلا يمكن أن يكون كلٌّ منهما نوعًا إنسانيًا واحدًا: أنثى وأنثى، ولا يمكن أن يكون الأول ذكرًا والثاني ذكرًا.. كيف سيحدث الانتشار الزمني والمكاني للجنس الإنساني إذًا؟ وحتى لو زعم بعض أبناء الإنسانية من أنه يمكن أن يوجد مصانع (للنطاف)؛ فإنك ترى في الواقع كذب هذه الدعوى؛ إذ معظم من يتبع شهواته يكون أنانيًا إزاء وجود نسلٍ بشري.

فلا بد من وجود عنصرين أحدهما ذكر والآخر أنثى، وقد عبر الله عن هذا تعبيرًا دقيقًا ليبين شدة الامتزاج بينهما فقال: {خلق منها زوجها} ولماذا هذا التعبير الذي لم يصرح فيه بنوع كل واحدٍ؟ لماذا لم يقل خلقكم من آدم وخلق من آدم زوجه، أو خلقكم من حواء وخلق من حواء زوجها؟

لعل من أهم أسباب ذلك أن يعتزيَ كل منا للذكر والأنثى دون تمييزٍ أو تحيزٍ لأحدهما ضد الآخر، وليبين أن كلًا منهما ذو كرامة معتبرة مستقلة، يعتزي الإنسان إلى الأب الذي نشأ منه، ويرجع الإنسان إلى الأم التي انبثق عنها، ويفتخر بأبيه الذي ينسب إليه وبأمه التي ولدته، هكذا نشأت مؤسسة الزواج، وقامت الأسرة منذ خلق الله آدم عليه السلام.

المناسبة والاتصال بين هذا القسم والقسم الذي كان في آخر المحور السابق:

ذكر الله في نهاية المحور السابق أنه نَظَّم الحياة، وجعلها حدودًا دقيقة، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٣)، فالحد هو التشريع الفاصل المنظم للحياة للمصلحة الإنسانية، الضامن لحقوق الإنسان، وللسلامة والأمن في المجتمع

البشري وليس المقصود بالحد ما اصطلح عليه الفقهاء من أنه العقوبات، فيدخل في الحدود الإيمانيات والعبادات، والعلاقات الاجتماعية، والبيوع والمعاوضات، والاستثماريات، والجنايات، وتدخل فيها السياسات الداخلية والخارجية. ، فيكافئ الله من يلتزمها بالجنة في الآخرة..

بهذا ترى اتصالًا عجيبًا وبديعًا بين المحور الأول وبين هذا المحور، فإن ختم ذلك المحور بالكلام عن الحدود، فقد حَسُن أن ينتقل من هناك ليبين لنا الحدود الضابطة للبناء الأسري، وهي الحدود التي تحميها من التفكك الذي بدأ الله تعالى شأنه فيه بالكلام فيه عن الحدود التي تحمي مؤسسة الأسرة، وتأخذ على أيدي من يخترق هذه المؤسسة، وذلك حتى لا تدمر ولا تصبح ضحية أهواء النساء والرجال، وحتى لا تضيع المصالح الإنسانية الكبرى، وتصبح في مرحلة شيخوخة الحضارات، فتفقد دورها في الاستقرار والانتشار، ثم يبين الله بعد ذلك سبل المعاشرة الناجحة بين الزوج وزوجته، ويحمي ذمتها المالية من أن يطغى عليها الزوج أو يمسها بسوء، ويبين من يحرم الزواج منهن، ومن يجوز لتتكون الأسرة الخاصة والعامة.

القانون الثاني: يجب التوازن في التعامل بين حق المجتمع في حماية نفسه من انتشار الفاحشة للمحافظة على الجنس الإنساني من خلال مؤسسة الزواج وبين حق العناصر المتبعة للشهوات المحرمة في إعادة التأهيل لأنهم تجاوزوا حدود السلامة البشرية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

مَنْ يتجاوز حدود الزواج وأنظمة بناء الأسرة قد يسبب تدميرًا للإنسانية من خلال فعل الفواحش وإتيانها؛ ولذا لا بد من إعانته على ترك هذا العبث الذي يدمر الأسرة، فذلك حقٌ له أكثر مما هو عقوبة؛ من أجل ألا يقع في هاويةٍ في الدنيا والآخرة، ولا يسبب المآسي للجنس الإنساني عندما يصر على أنانيته باتباع

شهواته الخاصة، ولذا ذكر الله مجموعة من القوانين الحقوقية لحدود النظام الأسري، وهذا هو القانون الأول.

فعندما يصر بعض البشر على العلاقات خارج الزواج تنشأ المتعة الوقتية لكن تنشأ معها في الوقت ذاته الآلام المختلفة، والشهوات الأنانية، والارتباك في تكوين الأسرة المتكاملة المتعاونة، ويزداد البعد عن إقامة حق الإنسانية في الانتشار عندما يميل نوعٌ من الجنس البشري إلى نوعه، ويؤدي ذلك إلى حرمان البشرية من أهم خصائصها في الاستقرار والانتشار بسبب الأنانية التي اتسم بها من أتى الفاحشة، وقد يؤدي هذا إلى القضاء على البشرية، هنا ينبغي أن نوازن بين حق البشرية في الاستقرار والانتشار، بأن يتكاثروا وبين حقوق هؤلاء المساكين الذين يصرون على تجاوز حدود السلامة الإنسانية، فمعالجة سورة النساء لهذا الموضوع قائمة على التوازن بين الجهتين، فقال الله -جلَّ مجده-: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ فبين الله -عزَّ جاره- أن أهم ما يؤدي إلى الخلل في المحافظة على سلامة الأسرة هو إتيان الفاحشة، فما معنى الفاحشة؟

الفاحشة هي الفعلة الشديد قبحها، فقد فحش أمرها، واستفظعها سامعها، فتطلق على الذنوب الفظيعة مطلقًا كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (الأعراف: ٢٨)، وَمن الفاحشة الزِّنَا وغيره من الأمور التي يفحش ذكرها، ولكنها غالبًا تطلق على الاتصال الجنسي غير المشروع.

إما بين الرجال والنساء كما قال جل شأنه ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ (الإسراء: ٣٢)، وإما بين الرجال والرجال كما قال تعالى ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠)،

فذكر الله في هذه الآية الكيفية المناسبة لإعادة تأهيل من يأتي الفاحشة من النساء، فمن حق المجتمع على أفراده أن تتم حمايته من انتشار الفاحشة المهددة لكيانه وسكينته، وكيف لا وهي تنافي الفطرة، وتخالف الخلقة المجبولة على إنكارها، واستفظاع شأنها حتى عند أكثر البشر بهيمية كما هو معلوم وإن كابر بعضهم.

وتعالج سورة النساء هذا الموضوع لا من منطلق العقوبة الصارمة، وإنما من منطلق إعادة التأهيل، مبدأ مهم في المعالجة وفي فهمنا لإشكاليات الجمع بين الآيات؛ لأن بعض الناس عندما حاول أن يجمع بين الآيات جعل أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، الأمر ليس كذلك، الأصل إعمال القرآن، إعمال جميع آياته في جميع مناحي الحياة.

والمناسبة والاتصال واضحان، فهذه الآية تتمم ما بدأه في المقدمة حيث ذكر أن البث الإنساني إنما يتم بالزواج.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١) بيان حقوق المجتمع والتربية لأفراده وحمايتهم من استمراء الشرور التي تنبعث من نفوسهم، ففي الآيَاتِ المُتَقَدِّمَةِ: ذكر بعض حقوق النساء في الزواج والاستقلال المالي، وتملك الحقوق الإرثية، وفي هذه الآيات بيان التَّغْلِيظِ على من يأتي الفاحشة من الرجال والنساء حماية لهم وللمجتمع.. من أجل ذلك بدأ الله بيان الحدود الضابطة للبناء الأسري بذكر الشيء المستنكر وهو إتيان الفاحشة، ولكن الله يبين لنا جهتين للحق المجتمعي هنا: الجهة الأولى المجتمع الذي ينبغي حمايته من انتشار التلوث الخلقي في أرجائه، والجهة الثانية الأفراد الملوثون المدنسون بهذه الفاحشة، فلهم حقٌّ على المجتمع في إصلاح أوضاعهم، وإعادة تأهيلهم بالعلاج الناجع بدلًا من المضي في ذلك الوحل والعفن الذي يوشك أن يدمرهم ويدمر مجتمعهم.

فصار هذا الحق المجتمعي يوازن بين حقوق المجتمع الإنساني وبين حقوق النساء وحقوق الرجال الذين يتجاوزون حدود السلامة الأسرية فيأتون الفاحشة، ويدمرون النظام الأسري، ويتسببون في جرائم ضد الإنسانية بصورةٍ حقيقية، وقد جعل الله من مقاصد الشريعة حماية المجتمع والبشرية، فحمى العرض والنسل حتى يتم البث الإنساني الذي جعله من أعظم النعم في الآية الأولى ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١).

عندما يريد أحدهم أن يطعن في مؤسسة الزواج نقول له: أنت لا تطعن إلا من باب الأنانية، تملكتك شهوة مرضية في الاستجابة لشهوتك الخاصة دون النظر في حقوق المجتمع حولك، وأنت الآن تعتقد أن هذه مسألة عادية، وتظن أنك تعبر عن حق طبيعي.. لكن ما أدراك؟ ربما يكون ما تطلبه عاهة مرضية، وعندها: يتساءل محتجًا: هل يعقل ذلك؟

نقول: ما رأيك عندما تميل إلى التدخين؟ أليس الميل إلى التدخين شهوة لكنها شهوة في المكان الخاطئ؟ أليس الميل إلى المخدرات شهوة لكنها شهوة مدمرة للفرد والمجتمع؟

إن الكفار قبل المسلمين يميلون إلى منع التدخين وتحريمه، والتضييق عليه بأشد ما تكون الوسائل، ونجحت مجموعة من الدول غير المسلمة في تقليص نسبة المدخنين من الانتشار بخلاف كثيرٍ من الدول المسلمة للأسف، فإذا كنت تميل إلى الدخان، وتشتهيه، فهل تعتقد أن الميل إلى التدخين أو المخدرات صحيٌّ أو مرضي؟ لا أظن أن يختلف اثنان في أن ذلك عارضٌ مرضيٌّ، وإذا كان الأمر كذلك فتأمل أنت في الإصرار على الشهوات خارج مؤسسة الزواج، فينبغي أن تفكر أنت في نفسك إلى ماذا يؤدي؟ ألا يترتب عليه تقلص الانتشار الإنساني، وإظهار أنانية

الرجل الذي يريد الاستمتاع بالمرأة مثلًا لكن دون أن يتحمل التبعات الأسرية؟.. أليس التلاعب بعواطف نوعٍ إنسانيٍ دون تحمل التبعات الأسرية أشبه بأن يكون جريمة ضد الإنسانية؟ خذ فقط مثلًا في التلاعب بالنساء في فترة شبابهن ثم نبذهن بعد ذلك، وانظر إلى البلدان التي شاع فيها ذلك كيف يؤشر المنحنى السكاني إلى الانخفاض المخيف، وتعاني من شيخوخة الحضارات، وفناء المجتمعات.

ولأجل ذلك ترى سورة النساء لم تعالج إتيان الفاحشة باعتبارها جريمة لها حد، أي لها عقوبة محددة، وإنما عالجتها باعتبارها مرضًا يحتاج أصحابه إلى إعادة التأهيل، فهذا الذي بدأ الله به القسم الأول من هذا المحور، وهي الآية الخامسة عشرة وما بعدها قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾. فجعل هذا قسمًا مستقلًا ذكر فيه الحقوق التي تحمي نظام الزواج من العبث وتعيد تأهيل المتجاوزين لحدود السلامة البشرية فيه.

هذه المعالجة المثمرة في سورة النساء لمن يأتي الفاحشة لا نجد مثلها في التوراة؛ إذ تحكم التوراة على من يأتي الفاحشة بالقتل فورًا.

ففي سفر اللاويين (٢٠:١٠-١٢): وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ. وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ، فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَبِيهِ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كِلاَهُمَا. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ كَنَّتِهِ، فَإِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كِلاَهُمَا. قَدْ فَعَلاَ فَاحِشَةً. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا.

وفي التثنية ٢٢:٢٢: «إِذَا وُجِدَ رَجُلٌ مُضْطَجِعًا مَعَ امْرَأَةٍ زَوْجَةِ بَعْل، يُقْتَلُ الاثْنَانِ: الرَّجُلُ المُضْطَجِعُ مَعَ المَرْأَةِ، وَالمَرْأَةُ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ إِسْرَائِيلَ».

القانون الثالث: الشرط الأول لتطبق استراتيجية إعادة تأهيل اللاتي يأتين الفاحشة إثبات الاختيار في فعل النساء للفاحشة، فلا عقاب على المكره، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله

جل مجده: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، فقوله: ﴿يَأۡتِينَ﴾ يدل على أنهن جئن لها باختيارهن ولم يجبرن عليها.

فلا يتم إعادة التأهيل ولا المعاقبة إلا بناء على أنهن أتين الفاحشة ولم يُكرَهن عليها، فالذي يتم إعادة تأهليه عن طريق الحزم والعقوبة الرادعة هو الذي فعل الفاحشة مختارًا من عند نفسه، راغبًا من تلقاء ذاته، وهذا سر التعبير عن فعل الفاحشة بالإتيان، حيث قال تعالى ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، فهذا الإتيان يدل على الاختيار لا على الاضطرار، ومن التعبير القرآني المصطلحي الدال على ذلك قوله تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ (مَرْيَمَ: ٢٧) وَقَالَ: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ (مَرْيَمَ: ٨٩) ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ (الكهف: ٧٤) فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ (الأعراف: ٨١)، وأحيانًا يقولون: جاء بفاحشة، إذا استعظموا الأمر الذي فعله كأن الفاحشة جاءت معه، لكن قوله: أتى الفاحشة يدل على مقدار اختياره وقصده لتلك الفعلة الشنيعة، فيجب إثبات إتيانهم للفاحشة حتى يتم إعادة تأهيلهم، وتطبيق هذه العقوبة التي هي عبارة عن إصلاح لواقعهم.

القانون الرابع: الشرط الثاني ليتم تطبيق إعادة التأهيل: لا بد أن تكون الفاعلة من نساء المؤمنين؛ لأنهن يعلمن حدود دينهن، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، ولتعودهم على الثقافة الحقيقية لمفهوم العِرْض بخلاف كثيرٍ من الثقافات الأخرى.

القانون الخامس: الشرط الثالث ليتم تطبيق إعادة التأهيل: إقامة البينة القاطعة على وقوع الفاحشة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي لم يتواطؤوا على الكذب، وهذا شرطٌ شديد يدل على محبة الشريعة للستر على من يأتي الفاحشة.

وهذا القانون لحماية المتهم نفسه مع مراعاة حماية المجتمع.

فالبينة يجب ألا تقل هنا عن أربعة شهداء. ولابد أن يأخذ القاضي أقوالهم منفردين بحيث تتطابق أقوالهم حتى يتأكد القاضي من أنهم لم يتواطؤوا على الكذب، وإذا اتفق ثلاثة ونكص الرابع أو لم تثبت شهادته، يقام الحد على الثلاثة.. أي حد؟ حد القذف إن وصل الأمر إلى القاضي وإلا تم الستر عليهم.. وهذا من عجائب التدقيق والاحتياط لحقوق الأفراد والمجتمع، ويشترط في الشهود الأربعة أن يكونوا مسلمين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﴿مِنكُمْ﴾، أي من بيئة المسلمين الثقافية والاجتماعية التي تعرف طبيعة هذه الأحكام، وتعرف ما يترتب عليها لأن الثقافات الأخرى قد تبيح مثل تلك الأفعال ولا تدرك التفاصيل الدقيقة لما ينبغي الشهادة به أو عليه.

وهذا التدقيق في البينة يجمع بين حماية المجتمع وحماية المتهم، فإذا توفرت أدنى شبهة في القضية درأ ذلك عن صاحبة الشأن التأهيل المطلوب، فقوله:﴿مِنكُمْ﴾ للأمرين: ليكون ذلك أيضًا عبارة عن حق من حقوق هذا العاصي قبل أن يعاد تأهليه.

وانظر لدقة الحكم، فقد اشترط أربعة شهود ولم يكتف باثنين كما في بقية الحدود لتغليب جانب حماية المتهم نفسه مع مراعاة حماية المجتمع، ولذلك اشترط الأربعة الشهود فلا يكفي الواحد أو الاثنين أو الثلاثة فربما رأوا شيئًا فظنوه زنا، والمحقق هنا لا بد أن يستفصل حتى يشعر بالصدق التام للشاهد الذي رأى أدق التفاصيل، كما بين النبي ﷺ عندما استنطق ماعز الأسلمي، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَهُ لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ قَالَ: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، فراجعه أربع مرات كل ذلك يقر على نفسه [1]، فلذلك اشترط أربعة من الشهود.

القانون السادس: يجب السَتر على اللواتي أتين الفاحشة، وعدم إيصال أمرهن إلى القضاء، والبحث عن طرقٍ مناسبة لإعادة تأهيلهن تهدف لمنعهن من فعل

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٢٠٧) برقم ٦٨٢٤.

الفحشاء مرة أخرى، وكل ذلك يتم بإمساكهن في البيوت، والبيوت هي الأماكن التي يتم فيها العزل والتأهيل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

هنا ترى التوازن الواضح بين المحافظة قدر الإمكان على السلامة الأسرية، وبين تأهيل المريضات اللواتي عبثت الرغبة الشيطانية الآثمة بعقولهن، وهذا يدل على عدم جعل الغضب هو أساس التعامل في مثل هذه الحالات.

فهذه الآية تتكلم عن حالةٍ فريدةٍ وهي الحالة التي تثبت البينة على امرأةٍ أنها أتت الفاحشة، فعند ذلك ينبغي إعادة تأهيلها بعزلها عن المجتمع من خلال الإمساك في البيوت. لماذا؟ من أجل حماية المجتمع من اللوثة التي أصيبت بها، ومن أجل حمايتها هي حتى لا تجد فرصةً لتكرر الأمر ذاته.

والذي يحقق في القضية باعتباره ولي أمر أو غير ذلك له خياران:

الخيار الأول: أن يرفع الأمر إلى القاضي بعد أن يتأكد من حالة الاختيار، ويتأكد من وجود البينة الصحيحة القاطعة.

والخيار الثاني: ألا يرفع الأمر للقاضي ويغلب جانب السَتر إذا كان هو ولي هذه المرأة، فيقوم بإمساكها في البيت ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ فما زالت حالة الستر قائمة، ولكنه ليس سترًا مجردًا بل سترٌ مع إعادة تأهيل حتى تجد لها سبيلًا لاحقًا لعودة الانخراط في المجتمع مع الاستقامة على الفضيلة، وهذا يعنى أنه لا ينبغي أن يرفع الأمر إلى القاضي، بل إذا وصل الخبر إلى القاضي ثم رجع المتهم عن اعترافه قُبل منه، فعن نعيم بن هزال عن أبيه قال: كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جاريةً من الحي، فقال له أبى: ائت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت لعله يستغفر لك. وإنما يريد بذلك رجاء ان يكون له مخرج فأتاه، فقال: يا رسول الله! إنى زنيتُ

فأقم عليَّ كتاب الله، فأعرض عنه، ثم أتاه الثانية، فقال: يا رسول الله! إنى زنيت فأقم عليَّ كتاب الله، ثم أتاه الثالثة، فقال: يا رسول الله! إنى زنيتُ فأقم عليَّ كتاب الله، ثم أتاه الرابعة فقال: يا رسول الله! إنى زنيتُ، فأقم عليَّ كتاب الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنك قد قلتها أربع مراتٍ فبمن؟» قال: بفلانة. قال: «هل ضاجعتها؟» قال: نعم. قال: «هل باشرتها؟» قال: نعم. قال: «هل جامعتها؟» قال: نعم.

ثم ذكر الراوي هروبَ ماعزٍ عند تنفيذ العقوبة وملاحقة المنفذين لها، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه؟» وقال رسول الله ﷺ لهزال حين رآه: «والله يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيرًا مما صنعت به» [(١)]. انظر! كيف يتشوف النبي ﷺ ليعيد المذنب تأهيل نفسه، والتوبة فيما بينه وبين ربه.

فالمقصود من العقوبة ليس الانتقام أو الثأر، إنما المقصود إعادة التأهيل لهذه المرأة أو لذاك الرجل، ليعود من جديد فيكون فردا صالحا في المجتمع، بعد أن تلوث بهذه الفعلة الشنيعة التي قد يدمن عليها إن لم يؤدب عليها.

ولذا جاء الأمر هنا بعزل العناصر الملوثة من مخالطة المجتمع لفترة مناسبة ليتم إعادة تأهيلها لئلا ينتشر السوء ويكثر. وهنا تدرك أن ما يسمى بقانون العقوبات الصارم في الأنظمة الوضعية تجده في الإسلام إعادة تأهيلٍ غالبًا إلا في الجرائم المستعصية.

لاحظ أن العقوبة في قوله تعالى ذكره: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥) ليست عقوبة حقيقية.

فلم يأمر بقتلهن بل لم يأمر يسجنهن بل أمر بإمساكهن في البيوت، والبيوت

(١) أحمد(٥ / ٢١٦) برقم ٢١٩٤٠، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن.

جمع بيتٍ، فيحتمل أن يُراد بها أن تقابل جمع النساء اللواتي أتين الفاحشة، فلكل واحدةٍ بيتها الذي تمسك فيه، ويحتمل أن يراد التنويع أي تمسك في هذا البيت ثم تنقل إلى بيتٍ آخر ما دام يحقق ذلك مصلحة تأهيلها كما يحتمل أن تكون البيوت أماكن تدريس وتدريب وتأهيل.

ولماذا الإمساك في البيوت؟

لأن شهوة الفاحشة إن جربها المرء مرة اشتاقت النفس لفعلها مرات، وفي كل مرة يحسب صاحبها أنه سيتركها وأنها ستكون الأخيرة، ولكنها لا تزداد إلا اضطرامًا فيصبح المرء مدمنًا عليها، فذاك حال هذه الشهوة، فلا تعجبن أن تسمع الصمة القشيري يقول:

حننْتَ إلى ريَّا ونفسكَ باعدتْ مزارَكَ من ريَّا وشَعْباكما معَا
فما حسنٌ أن تأتيَ الأمرَ طائعًا وتجزعَ أن داعي الصَّبابةِ أسمعَا
قِفا ودِّعا نجدًا ومن حلَّ بالحمَى وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يُودَّعا
ألا ليسَ أيَّام الحمَى برواجعٍ عليك ولكن خلِّ عينيكَ تدمَعَا
بكتْ عينيَ اليُسرَى فلمَّا زجرتُها عن الجهلِ بعد الحلْمِ أسبَلَتا معَا
وأذكُرُ أيَّامَ الحمَى ثمَّ أنْثَني على كبِدِي من خشيةٍ أنْ تصدَّعا

ولعسر الإقلاع الفردي عن هذه الفعلة القبيحة كان لا بد من مد يد المساعدة لمن وقع فيها إذا كان من النساء، بأن يتم إمساكها في البيوت التي تمكنها من إعادة تأهيل نفسها فيها، وأما الرجال فسيأتي ذكر ما يتعلق بهم في الآية التالية.

والإمساك في البيوت لا يعني السجن المعاصر، وذلك لأن الإمساك هنا لا يعني السجن في مكان ضيق -كما يقول ابن تيمية- وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، ويقال هنا: ومنع من وقع في هذه الفعلة من النساء من المخالطة

حتى يتم التأكد من قدرتها على الاندماج في المجتمع دون الوقوع في السوء، ففرقٌ عظيم بين التعبير عن إعادة التأهيل هنا بالإمساك في البيوت، وبين السجن الظالم الآثم المذكور في قول امرأة تتوعّد نبي الله يوسف عليه الصلاة و السلام على عفته: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢)، وفي قول فرعون وهو يهدد موسى عليه الصلاة والسلام على توحيده: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩).

وهذا التعبير ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ يشعرك بأن العُمْرَ مقسمٌ إلى أقسامٍ، فتأخذ الأيام والأزمان منه كل لحظة قسمًا، وتسلبك جزءًا إِلَى أَنْ يتم استيفاؤه كله كما قَالَ طَرَفَةُ:

أَرَى العُمْرَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدُ

وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ:

إِذَا مَا تَقَاضَى المَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

القانون السابع: السماح لهن بالعودة إلى الحياة المعتادة خارج البيوت، بعد التأكد من صلاح نفوسهن، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٥)، فالسبيل يكون بالتوبة النصوح أو بالنكاح مع التوبة، أو بالعقوبة الحدية التي يجب درؤها أن أمكن ذلك.

السماح لهن بالحياة المعتادة خارج البيوت بعد التأكد من صلاح نفوسهن، فقال الله جلَّ جلاله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥).

فهنا خياران: إما عدم العودة إلى الحياة الطبيعية النفسية فتبقى في بيت التأهيل إلى وقت الموت، وإما أن يجعل الله لها سبيلًا فقال الله-جلَّ مجده-: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، ويتصور السماح لهن بالعودة إلى الحياة خارج البيوت بوجود السبيل الذي يهيئه الله لهن، وهذا السبيل الذي يجعله الله لهن يظهر في صور:

الصورة الأولى: أن يكون السبيل بالتوبة النصوح الظاهرة منهن، ولو لم تُقم العقوبة؛ ولذا ذكر الله التوبة بعد هذا، وقد قال طارق بن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: أراد رجل أن يزوج ابنته، فقالت: إني أخشى أن أفضحك، إني قد بغيت، فأتى عمر، فأخبره، فقال: أليس قد تابت؟ قال: نعم، قال: فزوجها [(١)].

الصورة الثاني: أن يكون السبيل بالنكاح، وذكر الزمخشري هذا المعنى فجعل السبيل النكاح الذي يستغنين به عن السفاح [(٢)]، وذلك حال علمنا بتوبتها، فلا ينبغي للإنسان أن يزوجها وهو يعلم أنها تعود إلى تلك الفعلة؛ لأن الله جلَّ مجده قال: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣)، وقد روى الشعبي قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين إني وأدت ابنة لي في الجاهلية، فأدركتها قبل أن تموت فاستخرجتها، ثم إنها أدركت الإسلام معنا، فحسن إسلامها، وإنها أصابت حدًّا من حدود الإسلام، فلم نفجأها إلا وقد أخذت السكين تذبح نفسها، فاستنقذتها وقد خرجت نفسها، فداويتها حتى برأ كلمها، فأقبلت إقبالًا حسنًا، وإنها خطبت إليَّ، فأذكر ما كان منها؟ فقال عمر: هاه لئن فعلت لأعاقبنك عقوبة. قال أبو فروة: يسمع بها أهل الوبر وأهل الودم. قال إسماعيل: يتحدث بها أهل الأمصار. انكحها نكاح العفيفة المسلمة[(٣)]، وفي رواية: فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويتها حتى برأت ثم أقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب إلى قوم فأخبرهم من شأنها بالذي كان؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه، والله لئن أخبرت

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٣).

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٥١٨).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٦ / ٢٤٦) برقم ١٠٦٩٠.

بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار انكحها نكاح العفيفة المسلمة.

الصورة الثالثة: أن يكون السبيل بإقامة الحد العلني الشرعي إن ظهر عدم قدرة المرأة على إعادة التأهيل، وأقيمت البينة الظاهرة عليها كما قال ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، ثلاث مرات، قد جعل الله لهن سبيلًا...» ثم ذكر ﷺ العقوبة باختلاف حال البكر والثيب [1]، ولكن لا يقيم العقوبة إلا سلطة شرعية، فلا يقيمها الأفراد، ولا الجماعات، كما أنه لا بد من درء هذه العقوبة ما استطاع المجتمع إلى ذلك سبيلًا، وإذا تقرر ذلك فإن العقوبة هنا تكاد أن تكون وقائية رادعة.

وبهذا التقرير يتضح لك أن الحديث لم ينسخ حكم الآية البتة بل بيَّنها وأوضح بعض صورها كما ترى.. وإنك والله لتطرب للشعور بجمال هذه المعالجة القرآنية الفريدة التي تؤهل الشاردين عن الفطرة لتعيدهم إلى مرابع الآمنين المطمئنين الذين يسعون لإقامة الحياة الإنسانية كما أرادها الله جل في علاه، وما زال الاحتياج إلى الإمساك في البيوت قائمًا بل هو الأصل لإعادة التأهيل، أما الإصلاحات الجنائية العقابية فلا تكون إلا إذا لم ينفع التأهيل، وكان لا بد من إيصال الأمر إلى القضاء، ووجدت البيئة القانونية المناسبة، وساد الوعي القانوني بتفاصيل الإصلاح الجنائي، على أنه لا ينبغي أن يصل الأمر إلى القضاء إلا عندما تعيا الحيل، ويصل الأمر إلى حد الإدمان أو حب إشاعة الفاحشة لدرجة المجاهرة المفتخرة المتباهية، وأنت ترى هنا حرص الشرع على الستر والإصلاح، فلما ذكر الله إتيان الفاحشة ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ (النساء: ١٥)، والفعل لا يدل على الاعتياد بالضرورة بينما ترى التعبير القرآني واضحًا عند ذكر إقامة الحد؛ إذ

(١) مسلم، وأحمد اللفظ له (٥/ ٣١٧).

ذكره بصيغة اسم الفاعل الدال على الاعتياد بل على الرسوخ في الفعل كما هو معلوم، فقال الله-جلَّ مجده-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢)، والرسوخ الذي يعبر عنه اسم الفاعل يدل على الإدمان الذي لا يذهبه إلا قوة قاهرة، ومعلومٌ أن مثل هذه العقوبة اتخذتها بعض المراكز الصحية سبيلًا للعلاج من الإدمان كما نشرت ذلك جريدة الجارديان.

القانون الثامن: يجب ردع الفاعلين للفاحشة من الذكور، وإعادة تأهليهم مع الستر عليهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾، والإيذاء يعني سلوك ما يؤدي إلى الردع وإعادة التأهيل فيدخل فيه الحبس والتغريم والإمساك في إصلاحية.

أتى باللفظ المذكر المثنى ليشمل الصور المختلفة لارتكاب الفاحشة ويجمعها:

الصورة الأولى: إتيان الرجال الفاحشة مع الجنس المماثل أي والذكران اللذان يأتيان الفاحشة فآذوهما.

الصورة الثانية: إتيان الرجال الفاحشة مع النساء، ويعم ذلك الصنف المحصن، والصنف غير المحصن.

والإيذاء المراد به فعل اللازم الذي يؤذي الفاعل على ألا يصل إلى إقامة العقوبة النهائية، بل يسلك معهما سبيل الإيذاء الرادع المصلح، فقد يكون الإيذاء باللسان: بالتَّوْبِيخ، وَالتَّعْيِير، وقد يكون باليد، وقد يكون بالسجن في إصلاحية، وقد يكون بغير ذلك فيُفعل الأصلح للحال، وقد يكون أمام جمهور محدود، وقد يكون مقتصرًا على الأسرة أو المجموعة الصغيرة، وليس المقصود بالإيذاء هنا إقامة العقوبة النهائية؛

لأنها ليست مجرد إيذاء، ولأن الله جل ذكره ذكر التوبة بعد، والعقوبة النهائية لا تسقط بالتوبة [١].

لماذا هذا الضبط لانتشار الفاحشة؟

إنه لمصلحة الإنسانية ليحفظ رابطة المحبة بين الأزواج، وليحفظ البشرية من الفناء وشيخوخة المجتمعات؛ فهو الضبط الذي يحفظ بث الجنس الإنساني واستمراره، ولا يكون ذلك إلا بالتقاء الرجل مع المرأة لقاء شرعيًا يترتب عليه الالتزام بالمسؤوليات والتبعات في نقل القيم من جيلٍ إلى جيل، وكيف يمكن ذلك مع الأنانية المفرطة التي تكون مع أنواع الفاحشة.. وكذلك لمصلحة الإنسانية الصحية؛ فقد نشرت وسائل الإعلام أن بحثًا جديدًا أظهر أن البالغين المثليين وثنائيي الجنس، لديهم «مخاطر عالية» للإصابة بأمراض القلب وغيرها من المشاكل القلبية عند مقارنتها بالأسوياء.

وركز الباحثون في عيادة بابتيست هيلث ساوث فلوريدا في ميامي على سبع مناطق من صحة القلب التي يمكن السيطرة عليها، وقال مؤلف الدراسة الدكتور آنشول ساكسينا: «النتائج التي توصلنا إليها، تشير إلى خطر عال للإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية لهذه الأقليات الجنسية»، وقد تم تقديم هذا البحث في

(١) هذا ما ينسجم في التفسير وفق ترتيب الآيات، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية السابقة في السحاقيات وهذه الآية فيمن يأتي الذكران من العالمين، وأشار محمد رشيد رضا -٦- إلى أن ذلك هو السر فِي جَمْعِ (اللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ)، وَتَثْنِيَةِ (اللَّذَيْنِ يَأْتِيَانِهَا)، والسر أَنَّ النِّسَاءَ لَمَّا كُنَّ لَا يَجِدْنَ مِنَ العَارِ فِي السِّحَاقِ مَا يَجِدُهُ الرَّجُلُ فِي إِتْيَانِ مِثْلِهِ كَانَتْ فَاحِشَةُ السِّحَاقِ مَظِنَّةَ الشُّيُوعِ وَالإِظْهَارِ بَيْنَ النِّسَاءِ، وَفَاحِشَةُ إتيان الذكران مَظِنَّةَ الإِخْفَاءِ حَتَّى لَا تَكَادَ تَتَجَاوَزُ اللَّذَيْنِ يَأْتِيَانِهَا، فَفِي التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المُثَنَّى إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَتَقْدِيرٌ لِكَوْنِ فَاحِشَةِ إتيان الذكران عَارًا فَاضِحًا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ كُلُّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اخْتِلَافُ التَّعْبِيرِ بِالجَمْعِ، وَالتَّثْنِيَةِ مِنْ بَابِ التَّنْوِيعِ فَذَلِكَ مَعْهُودٌ فِي الكَلَامِ البَلِيغِ مَعَ الأَمْنِ مِنَ الِاشْتِبَاهِ.

اجتماع لجمعية القلب الأمريكية. وقال أكاديميون مستقلون، إن الأبحاث السابقة أظهرت مستويات أعلى من تعاطي الكحول والتعرض للإجهاد لدى المثليين، ووجدت الدراسة أن اولئك الذين تم تحديدهم كمثليين كانوا أقل بنسبة ٣٦ عن المدى الصحي.

القانون التاسع: ينبغي حثهما على التوبة، وقبول توبتهما، إذا أظهرا الصلاح، وتطبيع حياتهما في المجتمع، ويُبَصِّرُنا بهذا قوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٦).

وبذا يتم إعادة التأهيل للخارجين عن قانون الأسرة؛ من أجل أن يستأنفوا حياتهم الطبيعية، ويظهر لي أن هاتين الآيتين وما بعدهما كلام لمن يجدي معه عدم إقامة العقوبة الرادعة التي سميت حدودًا، وأنت ترى أن الله سمى تشريعاته حدودًا فقال قبل هذا القسم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ (النساء: ١٣)، فالأصل التعامل معه وفق هذه الآليات، فهذه الحدود المذكورة في الآيتين تحمي المجتمع، وتساعد المذنبين على التخلص من عبودية الشهوات المحرمة.

وقد ورد عن جمعٍ من المفسرين كابن عباس ﷺ وقتادة ومجاهد وغيرهم أن هذه الآية وما قبلها منسوخة بتقرير العقوبة القصوى المذكورة في سورة النور وفي الأحاديث الصحيحة، ولكن هذا التقرير غير واضحٍ لي، والأصل إعمال آيات القرآن جميعًا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وليس إهمالها بادعاء النسخ، وكما ترى فإن إعمال هذه الآية دال على أن ذلك من محاسن الشريعة. وليس القول بالنسخ وإن قال بالنسخ أئمة من أئمة الإسلام الذين تعتبر أقوالهم، فمن أراد ترجيح أقوالهم فهذا تفسير معتبر، ولكن هذا لا يلغي ما يظهر من الآية، فالصحيح أن النسخ الوارد على ألسنة السلف هنا تخصيصٌ بلغة الصحابة وليس نسخًا كليًا؛ إذ يمكن إعمال

كلا الحكمين، فيمكن إعمال ما في سورة النساء في الحالات الفردية المستترة، ويتم إعمال ما في سورة النور في الحالات التي تصل القضاء أو يشتهر أصحابها بإشاعة الفاحشة في المجتمع فعليًا وإعلاميًا.

وهنا لا بد أن تبحث عمن يأتيك بسلطان مبين حول الأهداف السليمة لهذه الحدود الضابطة لأمن المجتمع، فلا تعجل حتى تتأمل لترى أن هذه الحدود تضمن سلامة المجتمع كما تضمن سلامة الخارجين عن قوانين السلامة البشرية، إذ ترى فيها الحفاظ على المصلحة البشرية العامة في التكاثر والتناسل والتنمية، فالله بث من الزوجين الأولين رجالًا كثيرًا ونساء، فلا ينبغي أن تسيطر الرغبات الأنانية لبعض البشر على أنفسهم، ليتلاعبوا بطريقة التكاثر الإنساني، فبعضهم يبحث عن وسيلة خارج نطاق الزواج، وبعضهم يخترع وسيلة شاذة لإرضاء شهواته بما لا يؤدي إلى التكاثر الإنساني، وانظر هنا كيف تم التوازن الشرعي بين إرضاء الشهوات الإنسانية وبين مقصد البث البشري في الأرض، والتكاثر الإنساني المستمر، ولو شاعت الفاحشة في المجتمع لاختل واختل أمنه، وتقاتل أهله وذووه، وضاعت أنسابه، وتخلخل نظامه، وأصبح في غاية من التقزز، وبعض المجتمعات التي سادت فيها الرغبات الشهوانية الأنانية خارج نطاق الزواج لا تصدق أن تصل الحياة البشرية فيهم إلى ما هو أسوأ من البهيمية، حتى تسمع أن فتاة على قناة فضائية تتكلم عن الزواج بأبيها، وما الذي يترتب على ذلك شيخوخة الحضارة، وانقراضها كما ترى هذا الخلل الفظيع للتناسل في عددٍ من المجتمعات المتقدمة تقنيًا، بينما تضمن هذه الحدود الضابطة إبقاء الفطرة الإنسانية على سموها ورقيها، وجبلتها الطاهرة، وإبعادها عن أن تنزع نحو البهيمية الحيوانية، وكما ترى ففيها ضمانة بإعادة التأهيل للعناصر المنحرفة ليستأنفوا حياتهم الطبيعية، فهي تحمي المجتمع من جهة، وتساعد المذنبين على التخلص من عبودية الشهوات المحرمة من جهة

أخرى، ولكن الذين يتبعون الشهوات ينشطون لنيل الحريات البهيمية أكثر حتى من نيل حرياتهم الأساسية، ولذلك تجدهم يحاولون التشويش على هذا النظام الإلهي الذي يملأ المجتمعات بالسعادة.. انظر إليهم وإلى سعارهم المحموم كيف يعقدون المؤتمرات وينفقون الأموال ويوزعون الهبات لقلب فطرة الإنسان وتحليل المحرمات، ويسمون أفعالهم: خدمة للإنسانية، وإيجادًا للحرية التقدمية، وإقامة للمسائل الحقوقية، ويتهمون المحافظين على السلامة البشرية بالسفه العقلي ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٢)، وهؤلاء ينبغي إعادة تأهيلهم الفكري، لينظروا إلى المصلحة البشرية لا إلى رغباتهم الأنانية.

وتلمس مما سبق أن الله سبحانه وتعالى ذكر شروط التوبة في هذه الآيات وجعلها حقوقًا لا بد من معرفتها، وعند النظر إلى هذه الآية والآيتين بعدها **نستنبط أن شروط التوبة:**

الشرط الأول: الرجوع عن الذنب، وبصرنا به قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾

الشرط الثاني: إصلاح العمل بعد التوبة، وبصرنا به قوله جل جلاله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾

كيف يصلح الإنسان العمل؟ قال تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢) فيصلحه بالرجوع إلى ربه، ويصلحه بإظهار الندم، والتوبة والاستغفار ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ١٠)، ويصلح الذنب بكثرة الحسنات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤)، ويصلح الذنب إذا كان متعديا بأن يذهب إلى غيره فيطلب منه الصفح والسماح، فهناك أنواع متعددة لإصلاح الذنب.

القانون العاشر: باب التوبة مفتوح من كل أنواع الذنوب، ولكل البشرية، سواء ارتكبت المعاصي عمدًا أم سهوًا، فكلها جهالة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ (النساء:١٧):

هنا تنتقل القوانين إلى حماية مبدأ التوبة من المنع أو التلاعب والاستغلال وذلك يظهر لك جليًا في الآيتين (النساء:١٧-١٨)، وترى المناسبة والاتصال في وضوحٍ تامٍّ:

فلما ذكر الله التوبة باعتبارها سبيلًا للخروج من ورطة إتيان الفاحشة، أراد أن **يفصل ما يتعلق بالتوبة لأمرين:**

الأول: من أجل فتح باب التوبة على هؤلاء الذين دنسوا أنفسهم بتلك الجرائم التي هي جرائم ضد الإنسانية، وبفتح باب التوبة لهم لن يبقوا على أوساخهم، ولن يُصِرُّوا على سوئهم، ولن يستمروا على فواحشهم، بل سيحرص المحبون للإنسانية منهم أن يبيضوا صفحاتهم.. سيقبلون بتوبة حسنة ليكونوا جزءًا من المجتمع.

الثاني: ليحمي باب التوبة من الاستغلال والتلاعب، فلا يحاول أحدٌ أن يستغل باب التوبة المفتوح ليزداد قبحًا بأفعاله، ويعتذر بأن باب التوبة مفتوح، فقد ذكر الله فيما سبق حقوق المجتمع في حمايته من إشاعة الفاحشة الحرام، وحقوق الفاعلين للفاحشة في حماية أنفسهم من نوازعهم السيئة، ورغباتهم الشريرة، وهنا يفتح لهم الباب واسعًا لينالوا حقهم في التوبة، وليبدءوا الحياة الصادقة المستقيمة، فذكر الله عددًا من القوانين الحقوقية المتعلقة بمبدأ التوبة لحمايته من المنع لمن يستحقه، ولحفظه من الاستغلال ممن يمكن أن يتلاعب فيه، وبذا يظهر لك مدى عظمة هذا الشرع المجيد، مما يجعل العالم يقبلون لينهلوا من مورده الصافي، وليشربوا من مائه العذب النمير، وليسعدوا

بنشر نوره، فتحتمي به الإنسانية من شقاء يحيط بها، فلماذا يطعن بعض من أبناء الإنسانية في هذه الحقوق التي تثيرها البصائر القرآنية، كما قال ابن فضال:

وإخوانٌ حسبتهمو دروعًا فكانوها، ولكن للأعادي
وخلتهمو سهامًا صائبات فكانوها، ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوبٌ لقد صدقوا ولكن من ودادي

فالسوء هو: القبيح الذي يسوء فاعله، والجهالة من الجهل، والجهل له معنيان: إما أن يكون ضد العقل والحلم، وإما أن يكون ضد العلم، والمراد به هنا ضد العقل والحلم، فيشمل ما وقع من الإنسان -عمدًا كان أو جهلًا-، فهو وصفٌ كاشفٌ لعمل السوء، فكل سوء جهالة، ولذا قال ابن عباس ﷺ: من عمل السوء فهو جاهل، من جهالته عَمِلَ السوء، قال قتادة اجتمع أصحابُ رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصِيَ به فهو «جهالة»، عمدًا كان أو غيره، وعن مجاهد قال: كل من عمل بمعصية الله، فذاك منه بجهل حتى يرجع عنه [1]، وقال ابن زيد: «الجهالة» كل امرئ عمل شيئًا من معاصي الله فهو جاهل أبدًا حتى ينزع عنها، وقرأ: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ (يوسف: ٨٩)، وقرأ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣) قال: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته [2]، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هُودٍ: ٤٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (البَقَرَةِ: ٦٧).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٨٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٨٩).

القانون الحادي عشر: «التوبة القريبة» زمانها مفتوحٌ ما دامت قريبة الزمن من الذنب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٧)، وهذا التعبير الرائع ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ يفتح الباب للتوبة من الذنب لتكون في زمانها على مرتبتين:

المرتبة الأولى: الزمن القريب من الذنب، حيث يذنب العبد فما هو إلا أن يفرغ منه حتى يشعر بآلامه، فذكر الله هذا القيد هنا ليبين حال العبد الذي ضعف أمام الذنب فقارفه، وما إن قضى منه وطره حتى أصابه وخز الضمير، ورجَّه ألم العصيان، وأضناه موافقة الشيطان، فرجعَ يبحث عن سبيلٍ لإرضاء الرحمن، فالله يصف حاله إذ ندم فرجع وتاب من قريب، أي من بعض زمان ﴿قَرِيبٍ﴾ من زمن المعصية، فهو في صراعٍ دائمٍ يوقعه الشيطان والضعف المتأصل في الإنسان في الذنب، فيوقع العبد نفسه في الندم والألم من خلال (التوبة القريبة)، والألم يدل على أنه لم يطبع على قلبه، وقد فتح النبي ﷺ الآمال واسعةً في قبول التوبة القريبة مهما تكررت، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ ذَنْبًا قَدِ اعْتَادَهُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبًا لَيْسَ بِتَارِكِهِ حَتَّى يَمُوتَ، أَوْ تَقُومَ عَلَيْهِ السَّاعَةُ، إِنَّ المُؤْمِنَ خُلِقَ مُذْنِبًا مُفَتَّنًا خَطَّاءً نَسَّاءً فَإِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[1].

فقوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ تشير إلى إمكانية حدوث صراعٍ حقيقيٍ داخل الإنسان إذا ضعف ووقع في العصيان؛ إذ ينبغي له أن يسارع فيغالب ضعفه ويرجع إلى الرحمن، فمهما عاد الشيطان ليغريه بالعصيان عاد مستغفرًا إلى الرحمن، دون أبطاء أو تأخير أو توانٍ، فكلمة ﴿قَرِيبٍ﴾ تفتح باب الأمل مهما تكرر الذنب. وتدل على ضمير المؤمن بالله ومراقبته لله وشعوره بالحساب وخوفه من الوقوف بين يدي الملك الوهاب.

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد - (١ / ٢٢٥).

والآن تعال بنا ننظر في بلاغة هذه الكلمة «ثم» في الجملة وموقعها.. إنها تبين شدة إمساك هذا الذنب بنفس المذنب.. تشير إلى سوء واقع هذا المذنب بوقوعه في شَرَك هذه المعصية التي لا يخلص منها إلا بعسر، فقال: ﴿ثُمَّ﴾ فهي تشير إلى التراخي في الإقدام على التوبة.. وكيف يكون هناك تراخٍ، ونحن نقول: إذا قضى المؤمن وطره من الذنب سارع إلى التوبة؟ التراخي هنا تعبيرٌ عن الإنسان إذا وقع في شباك المعصية وأفخاخها؛ إذ لا يخلص منها غالبًا إلا بعد عسر، فلابد له من المكابدة حتى لو تأخر، حتى لو أمسكه الذنب واستهواه واستحلاه؛ لأن طبيعة الهوى لا ينزع عنه إلا وهو يميل إليه.. لذلك يسمى الذنب (هوى)، فالذنب يمسك بتلابيب الإنسان، وربما يكون الإنسان قد استمرأه، واستلذه لكنه ينازعه ما في قلبه من خوف ربه، فينزع عنه، وذا قد يستغرق وقتا فعبر عنه بكلمة ﴿ثُمَّ﴾، وتجد النبي ﷺ يحث على هذه التوبة القريبة التي ترغم الشيطان فيقول: «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم قال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» [١]، ويوضح النبي ﷺ أنموذجًا لهذا الصراع بين العبد والشيطان والتوبة القريبة فيقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ: قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» [٢].

(١) أحمد(٣ / ٢٩)، وقال الأرناؤوط: حسن

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٧٨).

المرتبة الثانية: زمن الحياة الدنيوية كاملًا، فمهما أذنب وتأخر في التوبة، فما زال الوقت قريبًا ما دام حيًا، فهذا التعبير يفتح الباب للتوبة ما دام العبد لم يغرغر، فإنه يظل في حيز (القرب)، وهو تعبيرٌ رقيق يستحث الله فيه العبد المذنب البعيد عن ربه ومولاه ليرجع إليه ويراجعه مهما طال الزمان وتباعدت عن الرحمن خطاه إذا لم تبدأ روحه بمفارقة جسده، فالقرب هنا كنايةٌ عن عدم الإصرار إلى الموت وَسَمَّى تَعَالَى هَذِهِ الْمُدَّةَ قَرِيبَةً لأَنَّ الأَجَلَ آتٍ وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ. ولِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ عُمْرِ الإِنْسَانِ وَإِنْ طَالَتْ فَهِيَ قَلِيلَةٌ قَرِيبَةٌ مَحْفُوفَةٌ بِطَرَفَيِ الأَزَلِ وَالأَبَدِ-كما يقول الرازي-وليتوقع الإِنْسَانَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ نُزُولَ الْمَوْتِ بِهِ، فعَنْ عِكْرِمَةَ فِي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قَالَ: الدُّنْيَا كُلُّهَا قَرِيبٌ، كُلُّهَا جَهَالَةٌ[1].

وعن عَبْد اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعَامٍ تِيبَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ تِيبَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمُعَةٍ تِيبَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ تِيبَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَاعَةٍ تِيبَ عَلَيْهِ. فقيل لَهُ: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ فَقَالَ: إِنَّمَا أُحدِّثك مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[2]، أي فهذه تفسيره ﷺ لمعنى كلمة ﴿قَرِيبٍ﴾.

فإذا خلص العبد من الذنوب فتاب عظم الله مكانته، وأشاد به فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فأتى باسم الإشارة الدال على بعد المكانة والمنزلة ليبين عظيم رتبة التائبين، وبعد مكانة المستغفرين، وقبوله لهم فقال ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

القانون الثاني عشر: من وسائل حماية حق الناس في التوبة من الاستغلال

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣ / ٥٧٠) برقم٣٦٦١.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي (٤/ ٤١) برقم ٢٣٩٨.

والتلاعب بها أن التوبة لا تقبل في حالتين:

الحالة الأولى: عندما ييأس المرء من الحياة، ويُبَصِّرُنا بها قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾:

فتمتنع التوبة عندما يقع الإِيَاسُ مِنَ الحَيَاةِ، وَيعَاين الإنسان الـملَكَ، وتحشرج الرُّوحُ، ويضيق بِهَا الصَّدْرُ، ثم تتحرك فتبلغ الحُلْقُومَ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (الواقعة: ٨٣ – ٨٧)، وتغرغر النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الغَلاصِم -فَلَا تَوْبَةَ مُتَقَبَّلَةٌ حِينَئِذٍ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ (غَافِرٍ: ٨٥)، وقَالَ فِي صِفَةِ فِرْعَوْنَ: {﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (يُونُسَ: ٩٠، ٩١)، فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّه تَوْبَتَهُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ العَذَابِ، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بِذَلِكَ الإِيمَانِ قَبْلَ تِلْكَ السَّاعَةِ بِلَحْظَةٍ لَكَانَ مَقْبُولًا؛ إذا كان في حالة لم يشعر فيها بالموت، أما إذا شعر به فلن يقبل منه، وقال تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ (المُؤْمِنُونَ: ٩٩، ١٠٠)، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المُنَافِقُونَ: ١٠، ١١).

وهذه الآية مع ما قبلها تبين أن الناس في التوبة على صنفين:

الصنف الأُول: من يكون وقوعه في الذنب بسبب الضعف النفسي أمام الشهوة فَيَقَعُ فِي الذَّنْبِ، وَقَلْبُهُ غَائِبٌ عَنِ الوَعِيدِ غَيْرُ مُتَذَكِّرٍ لِلنَّهْيِ، وَإِذَا تَذَكَّرَهُ يَكُونُ ضَعِيفًا

كَنُورٍ ضَئِيلٍ يَلُوحُ فِي ظُلْمَةِ ذَلِكَ البَاعِثِ المُتَغَلِّبِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ أَوْ يَخْتَفِيَ، فَإِذَا سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ أَوْ سَكَتَ عَنْهُ غَضَبُهُ وَتَذَكَّرَ النَّهْيَ وَالوَعِيدَ نَدِمَ وَتَابَ، وَوَقَعَ مِنْ نَفْسِهِ فِي أَشَدِّ اللَّوْمِ وَالعِتَابِ، وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ العِقَابِ، وَصَاحِبُهُ جَدِيرٌ بِالنَّجَاةِ فِي يَوْمِ المَآبِ.

الصنف الثاني: من يُقْدِم عَلَى الذَّنْبِ جَرِيئًا عَلَيْهِ مُتَعَمِّدًا ارْتِكَابَهُ عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُؤْثِرًا لَهُ عَلَى الطَّاعَةِ بِتَرْكِهِ لَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ تَذَكُّرُ النَّهْيِ وَالوَعِيدِ عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ حَتَّى آثَرَ طَاعَةَ شَهْوَتِهِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَصَدَقَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١) [1]، وترى في الآية أن الله جمع السيئات في هذا الموضع لأن الإِصْرَارَ عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِ الذُّنُوبِ يُغْرِي صَاحِبَهُ بِأَفْرَادٍ أُخْرَى مِنْ نَوْعِهَا، أَوْ جِنْسِهَا، وَالشَّرُّ دَاعِيَةُ الشَّرِّ، كَمَا أَنَّ الخَيْرَ دَاعِيَةُ الخَيْرِ.

وكذلك ترى من الأسلوب البياني البديع في تقرير ذلك التقييد بكلمة ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾.. والتقييد يكشف عن هذه النفسية المتلاعبة المصرة، فهي تفضح العبث بحق التوبة، وتبين كلمة ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ خطورة ضحك الإنسان على نفسه؛ إذ يأتي فيقول تبت الآن، وهو قد بدأ بالتخطيط للعودة إلى الذنب والعصيان. وفي بيان ذلك يقول عبد الرحمن بن البيلماني: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم سمعت رسول الله ﷺ يقول: أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم فقال الثاني أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم فقال الثالث أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول أن

(١) تفسير المنار (٤/ ٣٥٤).

الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة قال الرابع أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه [1].

ما سبب التعبير عن هذه الحالة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾؟ لِـمَ لَـمْ يَقُلْ (حتى يموت)؟ وما مدى وقع التأثير في هذه العبارة؟

لعل هذا التعبير سببه أن الموت يأتي بغتة، فهو يهجم هجومًا ويأتي حضورًا، فربما رأيت أحدهم يستمتع في أكل الحرام ويزعم أن ذلك سيكون قليلًا ثم يتوب، فما أدراه؟ قد يأتيه الموت من حيث لا يشعر، فحضر هنا يدل على المباغتة:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ قَدْ غَرَّهُ طُولُ الأَمَلِ
المَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً وَ القَبْرُ صُنْدُوقُ العَمَلِ
وَ لَمْ تَزَلْ فِي غَفْلَةٍ حَتَّى دَنَا مِنْكَ الأَجَلُ

وعندما تجمع بين الآيتين السابقة وهذه ترى أن الله ذكر التوبة إذا كانت من قريب وذكر عدم قبولها إذا كانت عند الموت فما حكمها فيما بين ذلك؟

والجواب: معنى (التوبة القريبة) ما ذكرناه سابقًا، فتراه يشمل ذلك، ويمكن أن يقال إن ما بين هذين الوقتين مسكوتٌ عنه، وقد أشار رشيد رضا إلى هذه الجوهرة في التدبر، فما بين الوقتين هو مَحَلُّ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ، فَكُلَّمَا قَرُبَ وَقْتُ التَّوْبَةِ مِنْ وَقْتِ اقْتِرَافِ الذَّنْبِ كَانَ الرَّجَاءُ أَقْوَى، وَكُلَّمَا بَعُدَ الوَقْتُ بِالإِصْرَارِ، وَعَدَمِ المُبَالَاةِ، وَالتَّسْوِيفِ كَانَ الخَوْفُ مِنْ عَدَمِ القَبُولِ هُوَ الأَرْجَحُ؛ لِأَنَّ الإِصْرَارَ قَدْ يَنْتَهِي قَبْلَ حُضُورِ المَوْتِ بِالرَّيْنِ، وَالخَتْمِ، وَإِحَاطَةِ الخَطِيئَةِ، وهذا التقرير هو المتوافق مع توفيق

(١) أحمد(٣ / ٤٢٥) وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن البيلماني وبقية رجاله ثقات رجال الشيخي.

الله وفضله وأسمائه التي ترجع إلى المغفرة والرحمة والعطاء، كما أن ذلك متوافق مع أسمائه التي تدل على الملك والعدل والجزاء، وذكر مثل هذا يمنع المجترئين من أن يقتحموا الذنوب متوكلين على التوبة قبل الموت ظانين أنهم قادرون عليها، فإذا ما لجوا في طغيانهم واجترائهم منعهم الله التوبة أحوج ما يكونون رغبة فيها ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (محمد: ١٦) ولهذا اقترنت التوبة بالعمل الصالح كما في قوله تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢) وَقَوْلِهِ فِي حِكَايَةِ دُعَاءِ المَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ (غافر: ٧) [1] كما قال ابن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ:

فدونك الصّلاح أَو فَسَادًا ... أَو سخطا أَو تَقْرِيبًا أَو إبعادا
وزن بِحكم الشَّرْع كلَّ خاطر ... فَإِن يكن مأموره فبادر
وَلَا تخف وَسْوَسَة الشَّيْطَان ... فَإِنَّهُ أَمرٌ من الرَّحْمَن
فَإِن تخف وُقُوعه مِنْك على ... منهى وصف مثل إعجاب فَلَا
وَإِن يَك استغفارنا يفْتَقر ... لمثله فاننا نَسْتَغْفِر
فاعمل وداو العجب حَيْثُ يخْطر ... مُسْتَغْفِرًا عساه أَن يكفر
وَإِن يكن ممَّا نهيت عَنه ... فَهُوَ من الشَّيْطَان فاحذرنه
فَإِن تمل إِلَيْهِ كن مُسْتَغْفِرًا ... من ذَنبه عساه أَن يكفرا
فَيغْفر الحَدِيث للنَّفس وَمَا ... هم إِذا لم يعْمل أَو تكلما
فَجَاهد النَّفس بِأَن لَا تفعلا ... فَإِن فعلت تب وأقلع عجلا
وَحَيْثُ لَا تقلع لاستلذاذ ... أَو كسل يَدْعُوك باستحواذ
فاذكر هجوم هادم اللَّذَّات ... وفجأة الزَّوَال والفوات

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٣٤٠).

وَأعْرض التَّوْبَة وَهِي النَّدَم على ارْتِكَاب مَا عَلَيْك يحرم

الحالة الثانية: التوبة بعد الموت، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾:

والمقصود بهم الكفار الذين يبعثون يوم القيامة فيحاولون التوبة، وإظهار الرجوع فيقولون عندها: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ١٢)، ويصيحون فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ (٢٣: ١٠٧)، وقد قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة عبده، أو يغفر لعبده، ما لم يقع الحجاب، قالوا: يا رسول الله، وما الحجاب؟ قال: أن تموت النفس وهي مشركة» [(١)]. وتعال لهذا التدبر الجميل البديع للإمام الربيع وهو الربيع بن أنس البكري من أئمة المفسرين من تلاميذ أبي العالية الرياحي والحسن البصري، فهو يبين ارتباط هذه الآيات فيقول: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب}، قال: نزلت الأولى في المؤمنين، ونزلت الوسطى في المنافقين يعني: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات}، والأخرى في الكفار يعني: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [(٢)].

ولهاتين الحالتين تكون العقوبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٨)، ومعنى «أعتدنا»: أعددنا من العذاب، «أفعلنا» من «العَتَاد»، أي: أعددنا.

وذكر لنا رسول الله ﷺ شيئًا من محاولة أولئك الذين كتب الله عليهم النار أن يتوبوا يوم القيامة.. لقد ذكر حالة مخيفة هي حالة أبي إبراهيم عليه السلام الذي هو آزر، فإن النبي ﷺ يحكي بأنه أي آزر يلتقي بابنه إبراهيم عليه السلام فيقول له

(١) أحمد (٥ / ١٧٤).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٠٠).

إبراهيم عليه السلام: ألم أقل لك: لا تعصني؟ أي في عرصات يوم القيامة، فيقول له آزر: اليوم لا أعصيك، وإبراهيم من رحمته يعود إلى ربه، فيخبره عن أبيه رجاء أن يقبله: فيقول: يا ربّ إنك قد وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أن يلقى أبي في النار، فيقول الله عزو جل: يا إبراهيم إنه قد سبق القول مني ألا يدخلها أي الجنة إلا نفس مؤمنة، يا إبراهيم انظر تحت قدميك، كأنه ينظر إلى أبيه في مكان على هيئة ذيخٍ (ضبع) ملطخٍ بالدم، أي يمسخه الله ضبعًا، ثم يؤمر به فيسحب على قوائمه فيلقى في النار.



القسم الثاني

حقوق الزوجة، وتحذير الزوج من التعسف في التعامل معها

(النساء:١٩-٢١)

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ (النساء:١٩-٢١).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله فيما سبق القوانين التي تضبط حقوق المجتمع وتضبط حقوق أسارى الشهوات المحرمة المتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة المجتمعية، وهنا يبين كيف يتم بناء الكيان الأسري بالاهتمام بحقوق الزوجات في المعاشرة، وهي:

الحق الأول: حق الكرامة البشرية الكاملة للمرأة، فهي ذات أهليةٍ كاملةٍ في التصرف، فلا تُملَك، ولا تُورَث، ولا يتم إكراهها على أي نوعٍ من أنواع التصرفات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ على الفتح لكلمة ﴿كَرۡهًا﴾:

كلمة {كرهًا} فيها قراءتان:

فـ«حمزة والكسائى وخلف» قرأوا بضم الكاف في كلمة ﴿كُرْهًا﴾ هنا، والباقون قرأوا بفتحها، فذهب بعضهم إلى أنهما مصدران للإجبار، والمشقة [1]، ولعلي أميل إلى ترجيح الفرق تبعًا لبعض المحققين:

فالفتح: الإجبار والإكراه؛ أي ما أُكرِه عليه الإنسانُ، والضم: المشقة، ويدل على التفريق اتفاق القراء على قراءة هذه الكلمة بالضم في مواضع وبالفتح في أخرى،

فمما اتفق القراء على فتحه قوله جلَّ في علاه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١)، فكرهًا هنا بمعنى مكرهة مجبرة، ونحوه قوله جل مجده: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران: ٨٣)؛ أي طائعين ومُكْرَهين مجبرين.

ومما اتفق القراء على ضمه قوله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦)؛ أي مشقةٌ لكم.

فيكون معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تجعلوا النساء متاعًا ترثونه كما ترثون الأموال الأخرى على كرهٍ منهن (على قراءة الفتح)، وعلى مشقةٍ وعنتٍ تصيب نفوسهن (على قراءة الضم)، فتجبرونهن على أن يتم التصرف بهن بدلًا من أن يتصرفن بمحض إرادتهن.

والكلام على إرث النساء كرها قائم على فكرة جاهلية إذ أراد الله -جلَّ مجدُه- إزالتها، وخلاصتها أن الرجل إذا مات عن زوجة له أولاد من غيرها، فإن أولاده يرثونها، أي يجعلونها ضمن المتاع الذي يورث، وكأنها دابة من الدواب أو قطعة

(١) شرح طيبة النشر للنويري (٢/ ٢٦٦).

من التراب، وهذا الحق تفصيلي قائم على الحق المذكور في أول آية من هذه السورة المباركة التي أعطت الكرامة الإنسانية المطلقة للمرأة.

والإِرْث حَقِيقَتُهُ انتقال للملكية من شخص إِلَى شَخْصٍ بعده، وَقد يُطْلَقُ الإِرْثُ مَجَازًا عَلَى تَمَحُّضِ المِلْكِ لِأَحَدٍ بَعْدَ ادِّعَاءِ الشركة فِيهِ، وَمِنْهُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (مريم: ٤٠)، فقال: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فعدى فعل (يرث) إلى النساء لأنهم جعلوهن بمثابة المال الموروث.

وبين ابْن عَبَّاسٍ ﷺ ذلك فقَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لَمْ يُزَوِّجوها، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ.

وعن عطاء بن أبي رباح: أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجلُ فترك امرأة، حبسها أهلُهُ على الصبيِّ يكون فيهم -أي منعوها من أن تتصرف في نفسها بل يجبرونها على أن تنتظر صبيًا من صبيانهم حتى يبلغ فيتزوجها أو يتصرف فيها- فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ الآية [1]، وكان رجالٌ من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم ألقى ثوبه على امرأته، فورث نكاحها، فلم ينكحها أحد غيره، وحبسها عنده حتى تفتدي منه بفدية، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ١٩) [2].

وقال عكرمة: نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم، من الأوس، توفّي عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، لا أنا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٠٦)

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٠٨).

ورثت زوجي، ولا أنا تُركت فأنكح! فنزلت هذه الآية [١].

وَمِنْ أَشْهَرِ حوادث أن يرث الرجال زوجات آبائهم فِي الجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ وَلَهَا أَوْلَادٌ مِنْهُ: العِيصُ، وَأَبُو العِيصِ، وَالعاصُ، وَأَبُو العَاصِ، وَلَهُ أَوْلَادٌ مِنْ غَيْرِهَا مِنْهُمْ أَبُو عَمْرِو بْنُ أُمَيَّةَ، فَخَلَفَ أَبُو عَمْرٍو عَلَى امْرَأَةِ أَبِيهِ، فَوَلَدَتْ لَهُ: مُسَافِرًا، وَأَبَا مُعَيْطٍ، فَكَانَ الأَعْيَاصُ أَعْمَامًا لِمُسَافِرٍ وَأَبِي مُعَيْطٍ وَإِخْوَتَهُمَا مِنَ الأُمِّ [٢].

يا لرزية الجاهلية الأولى.. ويا لمصيبة الجاهلية الحديثة.. تتلاعب الجاهليتان بالنساء تلاعبًا.. كان الجاهليون إذا مات زوج المرأة صار ولده أو قريبه أولى بها من نفسها يتصرف بها تصرفه بالمتاع والأثاث والشياه.. ثم إن شاء تزوجها وإن شاء أعضلها وإن شاء زوجها من شاء، وكأن الزوج ملك بضعها حيًا وميتًا فورَّث ما ملك لأقربائه، وكأنها ليست من البشر بل من البضائع والبهائم.. بماذا يذكرك هذا؟ نعم إنه يذكرك كيف تتصرف الجاهلية الحديثة المعاصرة التي باسم حقوق المرأة جعلت المرأة سلعة للبيع والشراء في سوق نخاسة الإعلانات ومحلات دور الأزياء وصالونات الإغراء.

الحق الثاني: حقهن في المحبة لحياتهن، ومن ذلك محبة الزوج لهن. ويُبَصِّرُنا بذلك قراءة الضم لقوله تعالى ذكره: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ (النساء:١٩).

أي: لا تتزوجوا بهن حال كون ذلك فيه مشقة عليهن لرفضهن لكم، أو لا تتزوجوا بهن رغبة في الإرث، مع أنكم كارهون لهن، فقد ذهب البقاعي إلى أن معنى ﴿كَرْهًا﴾ أي: كارهين لهن، لا حامل لكم على نكاحهن إلا رجاء الإرث؛ فقد كانوا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٣).

ينكحون المرأة لمالها الذي حازته وورثته، وليس لهم فيهن رغبة إلا تربص الموت لأخذ مالهن ميراثًا، وهذا المعنى الثاني على قراءة الضم وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، أي: لتحصلوا على الإرث منهن حال كون هذا الإرث يصيبهن بالمشقة والإعنات بدلًا من الاطمئنان والسعادة.

الحق الثالث: عدم إكراه المرأة وإعناتها على ما لا يليق بكرامتها الإنسانية، ويُبَصِّرُنا بذلك ظهور أن قيد الكره السابق إنما هو للتوضيح لا للتأسيس.

فهذا القيد ﴿كَرْهًا﴾ صفة توضيحية، كاشفة للواقع، مبينة للحالة النفسية التي تكون عليها كل امرأةٍ سوية، وليس هو صفةً تأسيسية؛ إذ لا تعني أنهن لو رغبن في أن يجبرن على التلاعب بهن أو التصرف في أحوالهن يجوز ذلك، ولأنها صفةٌ توضيحية فقد أكسبتنا تعميم المفهوم في كل التصرفات المتعلقة بحياتهن.

أي حتى لو رغبن في أن يكن مسترقات أو أي أمر لا يليق بكرامتهن البشرية فلا يجوز لكم إجابتهن.

فالكراهة والمشقة في كلا الحقين وعلى كلا القراءتين صفة إيضاحية، وذلك يعني أنهن حتى لو لم يكرهن أن يكن متاعًا يتلاعب به الآخرون، وحتى لو لم يشق ذلك عليهن فلا يحل لهن ولا لكم هذا التصرف المقيت معهن؛ لأنه ينافي الكرامة الإنسانية.

وهنا تعلم: لماذا ابتدأ ذكر هذا الحق للنساء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

إنه النداء التاسع عشر في القرآن الكريم حسب الترتيب المصحفي، وهو يوافق الآية التاسعة عشرة في السورة، وهذا النداء المهيب يبين المقتضيات التي تترتب على الإيمان، وليعم الخطاب كل الأمة، فيدخل في الخطاب الأزواج والأولياء،

ويدخل الأرحام وسائر المجتمع بكل مؤسساته الحكومية والمدنية، كلٌ بحسبه، فهم مسؤولون عن وقوع أي خلل في أي تطبيق لهذا الحق بالنسبة للمجتمع النسوي.

فإن فعل أحدهم ذلك المكروه وجب على الباقين الأخذ على يديه، ومنعه مما هو فيه.

فهو تحضيض على أن تقوموا بمقتضيات إيمانكم، ومن ذلك أن تحموا حقوق النساء حتى يتم بناء المجتمع الأسري كما أراد الله -تعالى ذكره- له أن يُبْنَى، ويستقرُّ المجتمع وتسوده الطمأنينة، كما ترى فيه تحضيضًا واضحًا ليقوم المجتمع المدني المؤمن المكون من الذكور والإناث على مساعدتهن للحصول على هذه الحقوق، وكل ذلك جزءٌ من الأمن القومي.

الحق الرابع: حق التملك لمالها، ومنه: المهر، دون استغلال أو ضغوط. ويُبَصِّرُنا بهذا الحق قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

فالعضل هو المنع، ومنه الداء العضال، ومعناه هنا: لا تحبسوهن ولا تمنعوهن من ممارسة حياتهن حتى تضطروهن إلى أن يفتدين أنفسهن بمالٍ يملكنه، وقد يكون الحابس لهن أزواجُهن وقد يكون الحابس لهن أولياؤهن، والمقصود: لا يحل الاحتيال على المرأة والتضييق عليها بعضلها لأخذ شيءٍ مما أُعطي لها فضلًا عن شيءٍ تملكه، والخطاب للأزواج، وكذلك للورثة الذين يستغلون ضعف النساء فيمنعونهن من الزواج حتى تفتدي منهم بترك إرثها، وللأولياء الذين يفعلون الأمر ذاته، وللمجتمع ليقوم بالحراسة والمراقبة والتأكد من وصول هذه الحقوق للنساء.

ومن صور العضل الممنوعة ما حكاه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ قال: كَانَ العَضْل فِي قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، ينكحُ الرجلُ المَرْأَةَ الشَّرِيفَةَ فَلَعَلَّهَا لَا تُوَافِقُهُ، فَيُفَارِقَهَا عَلَى أَنْ لَا تزوّج

إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَيَأْتِي بِالشُّهُودِ فَيَكْتُبُ ذَلِكَ عَلَيْهَا وَيُشْهِدُ، فَإِذَا خَطَبَهَا الخَاطِبُ فَإِنْ أَعْطَتْهُ وَأَرْضَتْهُ أَذِنَ لَهَا، وَإِلَّا عَضلها.

وقال عبد الرحمن بن البيلماني: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، قال: نزلت هاتان الآيتان: إحداهما في الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام، قال عبد الله: لا يحل لكم أن ترثوا النساء في الجاهلية، ولا تعضلوهن في الإسلام [1]، والذي يظهر أن كلا الأمرين منهيٌّ عنه، وكلٌ منهما حدث في الجاهلية الأولى، ويحدث في السلوكيات الخاطئة في الجاهلية الأخرى.

وهل يمكن أن يسقط حقهن في عدم (العضل)؟

نعم! إذ حل الظلم؛ فأنت ترى أن أهم الأصول التعاملية التي تقوم عليها السورة هي القيام بالقسط، وباختصار فإنه عندما يحل الظلم محل العدل يسقط حقهن في عدم العضل، فقد استثنى الله من حق عدم العضل أن تأتي المرأة بفاحشة مبينة ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، فيسقط هذا الحق عندما يأتين بفاحشة مبينة، والفاحشة المبينة هي الفعلة الفظيعة المستكرهة المستقبحة الشنيعة كأن تأبى القيام بواجباتها ومسؤولياتها في بناء الأسرة، فتعرض الأسرة للدمار زوجًا أو أبناء أو أقرباء، أو تأتي بما هو أشد وأقبح من ذلك كالزنا والسرقة، ولكن التربية القرآنية قيدت الفاحشة التي تبيح عضل النساء بكونها ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾، وقوله ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾فيها قراءتان تصوران مشهدين مختلفين:

المشهد الأول: تصوره القراءة بفتح «الياء»، وقرأها بذلك ابن كثير وشعبة، وهذه القراءة تصور الفاحشة التي اتهمت بها المرأة وقد بُيِّنت لكم، وأُعلنت وأُظهرت بشهادة شهود أو قرائن حقيقية، أو الاطلاع عليها حال فعلها، فالفَاحِشَةَ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١١٢).

لَا فِعْلَ لَها فِي الحَقِيقَةِ، ولكن اللَّه تَعَالَى هُوَ الَّذِي بَيَّنَها بشهادة الشهود المناسب عددهم لفعل الفاحشة، وهذه القراءة تؤكد على حق المرأة وحمايتها من التهم والظنون الكاذبة حتى تأتي البينة الحقيقية التي تكشف هذه الفاحشة، وتدل هذه القراءة على منع الرجل من الحكم على المرأة بإتيانها الفاحشة إلا أن يظهر هو البينة أو تظهر له.

المشهد الثاني: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بكسر «الياء» وقرأها بذلك بقية العشرة، بمعنى أنها ظاهرة استبان للناس أنها فاحشة، وبلغ من شدة بيانها أن يتصور الناس أنها هي المتكلمة، فالعلامات والشهادات تصبح أَسْبَابًا لِلْبَيَانِ، فهي التي بينت الواقع، فهذه القراءة الأولى، وكأن المطلوب أن يرتقي بيانها حتى لا يخامره شك كأن الفاحشة هي المتكلمة.

وعلى القراءتين فإن سبب تقييد الفاحشة بالمبيِّنة والمبيَّنة للتأكيد على ضرورة عدم الاعتماد على الظن والقول الباطل، فقد يكون الرجل غيورًا فيبادر إلى ظلم المرأة بمجرد فعل الهَفْوَة وَاللَّمَم، أَوْ بِمُجَرَّدِ سُوءِ الظَّنِّ وَالتُّهَمِ.

الحق الخامس: وجوب المعاشرة بالمعروف المتعارف على حسنه ماديًّا وجسديًّا وذلك أمرٌ أعم من المعاملة بالمودة فقط، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

بعد أن نهى الأزواج عن الأمور السلبية مع النساء، وبين حقوقهن في دفع الظلم الواقع عليهم جراء الممارسات الخاطئة من قبل بعض الرجال أو بعض أفراد المجتمع أمر بالواجب لهن فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ومعنى عاشرَه آخاه، وجعله من عشيرته، والمعنى: ما أحببتم أن يصنعن لكم من جميل القول والفعل فاصنعوا لهن مثله بما يليق برجولتكم، كطيب الكلام، وجميل الفعال وحلو الابتسام، وتحسين

الهيئة، والمداعبة المستملحة، وخفض الجناح، وإحسان الصوت والخطاب، وهذا تفصيلٌ لقوله تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البَقَرَة:٢٢٨)، وترى أنه جل مجده لم يأمرك أن تعاشر امرأتك بمقتضى المودة؛ إذ قد لا تجد الحب المستولي على قلبك نحوها، وكذلك الأمر بالنسبة لها إزاء زوجها.. إنه تعالى جده يأمرك أن تعاشرها بالمعروف، وهي لفظة أوسع بكثير وأعم في الفعل الصغير والكبير من المعاملة بمقتضى المودة، وترى النبي ﷺ أعظم الناس خُلُقًا في ذلك؛ إذ يقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُم لأَهْلي» (١).

وَكَان من أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيل العِشْرَة، دَائِمُ البِشْرِ، أحسن الناس مخاطبة، وأجملهم لأهله مداعبة، يَتَلَطَّفُ بِأهله، ويتكلم معهم بالأقاصيص السابقة، ويذكرهم ربهم، كما يعطيهم ما يمن الله عليه به من نفقة، ويُضاحِك نساءَه، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ. قَالَتْ: سَابَقَنِي رسولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَقْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أحملَ اللَّحْمَ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حملتُ اللحمَ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هذِهِ بتلْك»، وَيَجْتَمِعُ نِسَاؤُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَبِيتُ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ العَشَاءَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، ثُمَّ تَنْصَرِفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَكَانَ يَنَامُ مَعَ المَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، يَضَعُ عَنْ كَتِفَيْه الرِّداء وَيَنَامُ بِالإِزَارِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى العِشَاءَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ يَسْمُر مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ، يُؤانسهم بِذَلِكَ ﷺ، وكان يستدفئ بالتي هو في بيتها، ويسارع إلى إعطائها ما أفاء الله من طعام غير ملتفت إلى ادخار، وكان من أعذب أنواع معاشرته ملاطفته وتبسمه وعدم إظهار غضبه من أمرٍ ربما يسوء ما دام ضمن شأن الدنيا لا الدين.. فما أحلى أحاديث رسول الله ﷺ مع أزواجه لا ينافي ذلك حسن عبادته، ولا جلالة خشوعه على حد قول القائل بعد أن قضوا الحج:

(١) الترمذي (٥ / ٧٠٩) برقم ٣٨٩٥، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وصححه الألباني.

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدَّتْ على حُدْب المطايا رحالنا ولا يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث واشتفت بذاك صدور مُنْضَجَات قرائح
ولم نخش ريب الدهر في كل حالة ولا راعنا منه سنيح وبارح

وَقَدْ قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

الحق السادس: الصبر عليها، ورحمتها، وعدم النفور منها لبعض العيوب التي تسبب كراهيتها. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩).

وهذا قانونٌ حياتيٌ كبيرٌ: أن يتبصر المرء عواقب الأمور، ولا يغتر ببوارق العوارض الظاهرة، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يَفْرَك مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُلُقا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» [(١)].

فلأجل الصبر على ما يبدر من المرأة من أخطاء وهنات وضع الله هذه القاعدة الجليلة الكبيرة وهذه قاعدة عظيمة، وحكمةٌ ذات فوائد حياتية وتربوية عميمة تشمل كل جوانب الحياة، فينبغي للمرء أن يتبع مراد الله وأمره ولو كان هواه في غيره، فهو لا يعلم مقدار الخير الذي سيجده في ذلك، فعن سَهْل بْن حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ: اتَّهِمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ [(٢)]، ويتحمل كل منهما نقص الآخر عندما يكون قابلاً لذلك، فعن كهمس الهلالي قال: كنت عند عمر فبينما نحن جلوس عنده إذ جاءت امرأة فجلست إليه فقالت: يا أمير المؤمنين! إن زوجي قد كثر شره وقل خيره، فقال لها:

(١) مسلم (٤ / ١٧٨) برقم ٣٧٢١، ومعنى يَفرك: يبغض.
(٢) صحيح البخاري - ط. المكنز (١٤/ ٨١).

من زوجك؟ قالت: أبو سلمة، قال: إن ذاك رجل له صحبة، وإنه لرجل صدق، ثم قال عمر لرجل عنده جالس: أليس كذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين! لا نعرفه إلا بما قلت، فقال لرجل: قم فادعه لي، فقامت المرأة حين أرسل إلى زوجها فقعدت خلف عمر، فلم يلبث أن جاءا معًا حتى جلس بين يدي عمر، فقال عمر: ما تقول هذه الجالسة خلفي؟ قال: ومن هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه امرأتك، قال: وتقول ماذا؟ قال: تزعم أنه قَلَّ خيرك وكَثُرَ شرُّك، قال: بئسما قالت يا أمير المؤمنين! إنها لمن صالح نسائهم، أكثرهن كسوة، وأكثرهن رفاهية بيت، ولكنَّ فَحْلَها بَلِيَ -أي ضعف زوجها عن أمور النكاح- فقال عمر للمرأة: ما تقولين؟ قالت: صدق، فقام عمر إليها بالدرة فتناولها بها، ثم قال: أي عدوة نفسها! أكلت ماله وأفنيت شبابه، ثم أنشأت تخبرين بما ليس فيه! قالت: يا أمير المؤمنين! لا تعجل؛ فوالله لا أجلس هذا المجلس أبدا، فأمر لها بثلاث أثواب، فقال: خذي هذا بما صنعت بك، وإياك أن تشتكي هذا الشيخ! قال: فكأني أنظر إليها قامت ومعها الثياب، ثم أقبل على زوجها فقال: لا يحملك ما رأيتني صنعت بها أن تسيء إليها! فقال: ما كنت لأفعل، قال: فانصرفا[1].

فالمقصود من هذا القانون الحيوي الكبير أن يبصر المرء في عواقب الأمور، ولا يغتر ببوارق العوارض الظاهرة، ولا يصر على فعل الملائم له، أو الرائق لعقله وهواه.. لا ينبغي أن يقدم رغباته ونزواته، ولذا قيل: أَوَّلُ وَصْلِ العَبْدِ هِجْرَانُهُ لِنَفْسِهِ، وَأَوَّلُ هِجْرَانِ العَبْدِ لِلْحَقِّ تَعَالَى مُوَاصَلَتُهُ لِنَفْسِهِ، والمقصود أن ينهى نفسه عن الهوى المهين يبتغي بذلك رفعتها وكرامتها، وهذا القانون العام يتم فهمه فيما يتعلق بمعاشرة النساء بأن يقال: فإن كرهتموهن فلا تبادروا إلى المضاجرة والمنافرة والمفارقة، بل اصبروا عليهن واذكروا محاسن أخلاقهن الأخرى، التي قد تكتنز الخير الكثير كأن

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٦ / ٥٥٥) برقم ٤٥٨٦٠.

يعطف عليها، فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا.

وهذا القانون ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ «وهذه اللمسة الأخيرة في الآية، تعلق النفس بالله، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح. فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى. العروة الدائمة. العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربه، وهي أوثق العرى وأبقاها» [1].

وقد بين عمر بن الخطاب في تربيته القرآنية الأوابة المخبتة للمجتمع المسلم ما يترتب على هذا القانون، وهو النظر إلى الرحمة بين الزوجين، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى المودة التي هي المحبة، فعن ابن أبي عزرة الدؤلي، وكان في خلافة عمر يخالع النساء التي يتزوج منهن، فطار له في الناس من ذلك أحدوثة فكرهها، فلما علم بذلك، قام بعبد الله بن الأرقم حتى أدخله بيته، فقال لامرأته، وابن الأرقم يسمع: أنشدك بالله، هل تبغضينني؟ فقالت امرأته: لا تناشدني. قال: بلى. فقالت: اللهم نعم. فقال ابن أبي عزرة لعبد الله: أتسمع. ثم انطلق حتى أتى عمر، ثم قال: يا أمير المؤمنين، يحدثون أني أظلم النساء، وأخلعهن، فاسأل عبد الله بن الأرقم عما سمع من امرأتي، فسأل عمر عبد الله، فأخبره، فأرسل عمر إلى امرأته، فجاءت، فقال لها: «أنت التي تحدثين زوجك أنك تبغضينه ؟»، قالت: يا أمير المؤمنين، إني أول من تاب، وراجع أمر الله، إنه يا أمير المؤمنين أنشدني بالله، فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: «نعم، فاكذبي -أي قولي كلامًا فيه مدارة له، وليس المراد استحلال الكذب- فإن كانت إحداكن لا تحب أحدًا، فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام،

(١) في ظلال القرآن (١/ ٦٠٥).

والإحسان» [(١)]، والمراد هنا ليس نفي البحث عن الحب بل الصبر على الحياة الزوجية مادامت الحياة في ظلها ممكنة.

الحق السابع: حقها في المفارقة الحسنة عند اقتضاء ذلك، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

إذ يجوز أن يكون المعنى الذي أشار إليه قانون التنوير السلوكي في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ما ذهب إليه مجاهد من أن المعنى: فإن كرهتموهن ففارقوهن حتى لو كرهتم الفراق أي فيكون حسنًا لكم ولهن أن يفارق بعضكم بعضًا.

الحق الثامن: عدم جواز أخذ شيء منها عند فراقها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٢٠) وهذا تتمة لما تمَّ تقريره في الآية الرابعة من كمال ذمتها المالية، واستقلالها في التصرف بل إن سورة البقرة أثبتت لها متعة مالية أو عينية أي هدية تستحقها عند الفراق:

تدبر جمال الاتصال بين هذا الحق والذي سبقه، فلما بين حق الزوج في عضل الزوجة إذا أتت بفاحشة مبينة في الآية السابقة بين عدم جواز عضلها لأخذ شيءٍ منها إن لم تأت بفاحشة مبينة هنا، وكذلك إن لم يعضلها بل أراد استبدال زوجٍ مكان زوجٍ، فعند ذلك يحرم على الزوج أن يأخذ من مهرها أو مالها المهدى لها بعد الزواج أو مالها الذي كسبته منه، أو من غيره.. لا يجوز أن يأخذ شيئًا إذا كرهها الزوج ونشز

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير مختصرًا (٤/ ١٥٢)، والفسوى في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٩٢)، وابن جرير الطبري في تهذيب الآثار: مسند علي بن أبي طالب ﷺ: (١٤٢) رقم (٢٣٦).

عليها وأراد فراقها، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ جديدة تعلق قلبكم بها ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ سابقة قد رغبتم عنها، وشعرتم ألا قدرة لكم على مواصلة عشرتها مع أنها لم تأت بفاحشة مبينة ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، حتى لو أعطاها قنطارًا من المال، والقنطار المال الكثير، فلا يضايقها احتيالًا على أخذ مالها، ولا يتعسف في استعمال حقوقه؛ ولا يسيء في استعمال الضوابط الشرعية في العلاقة الزوجية لمجرد رغبته في تركها والزواج بغيرها.

لم يقف الحد عند هذه الحماية للمرأة من سيطرة الرجل، بل إن الله جلَّ ذكره أمر الرجلَ الْمطلِّقَ أن يمتع المرأة، فالمتعة اسمٌ لمال يدفعه الرجل لمطلقته التي فارقها، بسبب إيحاشه إياها بفرقة لا يد لها فيها غالبًا، فقد قال تعالى جده: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢٤١)، وقال تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨)، وهذه المتعة يختلف مقدارها اختلافًا عرفيًا حسب الزمان والمكان والحال، ويبين لنا ذلك قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ (البقرة:٢٣٦)، وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:٢٤١)، فهذه المتعة قد تكون هدية معتبرة أو مالًا مثمرًا أو غير ذلك، وذلك لتبقى العلاقة بعد الفراق قائمة على التواصل والاحترام لا التفاصل والعدوان والإجرام.

فإن كان الأمر كذلك فكيف يتجرأ الأزواج أن يتلاعبوا بالذمة المالية للمرأة؟ فانظر كيف ينكر الله على الأزواج الاحتيال لأخذ مال الزوجات، فيقول: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فإن أخذ شيء من ذلك المال بُهْتَان وَإِثْم مُبِين، والبُهْتَانُ هو: الكَذِبُ الذي يستعظمه الإنسان حتى يُبهت إذا سمعه، أي: يتحير منه لِعَظَمَتِهِ، ووجه البهتان هنا أنهم أخذوا مالًا ليس مالهم، ولا يحل لهم أخذه، فقد كذبوا كذبًا عظيمًا

بلغ حد البهتان على استحلالهم له.

ولا ينبغي أن يفهم من الآية جواز المغالاة في المهور؛ لأمرين:

الأمر الأول: جواز أن يكون القنطار تَكَوَّن لهن من أمرٍ آخر، كالهدايا.

والثاني: لأن ذكر الأمر لا يدل على جواز فعله، كما قال النبي ﷺ: «وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ، فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا يُودَى، وَإِمَّا يُقَادُ» [(١)]، ولا يلزم من ذلك جواز القتل.

وهذا ردٌ على المرأة التي اعترضت عمر فيما رواه أبو يعلى عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: رَكِبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا إِكْثَارُكُمْ فِي صُدُقِ النِّسَاءِ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابه، وإنما الصدقات فِيمَا بَيْنَهُمْ أَرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ فَمَا دُونَ ذَلِكَ. وَلَوْ كَانَ الإِكْثَارُ فِي ذَلِكَ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ أَوْ كَرَامَةً لَمْ تَسْبِقُوهُمْ إِلَيْهَا. فَلا أعرفَنَّ مَا زَادَ رَجُلٌ فِي صَدَاقِ امْرَأَةٍ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ فَاعْتَرَضَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَهَيْتَ النَّاسَ أَنْ يَزِيدُوا النِّسَاءَ صَدَاقَهُمْ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي القُرْآنِ؟ قَالَ: وَأَيُّ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٢٠) قال: فقال: اللَّهُمَّ غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ. ثُمَّ رَجَعَ فَرَكِبَ المِنْبَرَ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدَاقِهِنَّ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ. قَالَ أَبُو يَعْلَى: وَأَظُنُّهُ قَالَ: فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ [(٢)].

فذكر القنطار لا يعني الندب إلى إعطائه، بل ورد في السنة ما يدل على التيسير

(١) البخاري (٩ / ٦).

(٢) وجدته عند البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٣٣) وقال: منقطع، وقال ابن كثير عن بعض رواياته: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

في المهور ومتعلقات الزواج، فعَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً» (١)، وعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ يُمْنِ المَرْأَةِ أَنْ تَتَيَسَّرَ خِطْبَتُهَا، وَأَنْ يَتَيَسَّرَ صَدَاقُهَا وَأَنْ يَتَيَسَّرَ رَحِمُهَا». قَالَ عُرْوَةُ يَعْنِي يَتَيَسَّرَ رَحِمُهَا لِلْوِلاَدَةِ (٢).

والآن لنعد للتأمل في الآية ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٢٠) هل يعني ذلك أن تحريم أخذ شيء من مالها ينبغي أن يكون مقيدًا بإرادة استبدال زوج أخرى مكان السابقة؟ لا بل يحرم أخذ شيء من مالها مطلقًا، ولكن القيد هنا لبيان بعض الصور، ولتصوير الواقع مع عموم الحكم.

وهنا تعلم التوفيق الذي أوتيه الحسن البصري رحمه الله عندما سأله رَجُلٌ فقال: إِنَّ عِنْدِي ابْنَةً لِي وَقَدْ خُطِبَتْ إِلَيَّ فَمَنْ أُزَوِّجُهَا؟ فأجابه الحسن: «زَوِّجْهَا مَنْ يَخَافُ اللَّهَ، فَإِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمْهَا».

الحق التاسع: تقديس رابطة الزواج.

فلا يتعامل معها إلا وفق مقتضيات الميثاق الغليظ الذي جمع الله به بين الزوجين، والتحذير الإيماني والقضائي من تعسف الزوج في استعمال حقوقه الشرعية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء:٢١):

فالاستفهام في قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ تعجبيٌّ من جهة، وإنكاريٌّ

(١) عشرة النساء للنسائي (١ / ١٩٧)، وجود إسناده العراقي.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٧ / ٢٣٥)، وجوَّد إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١ / ٣٨٦).

تغليظيٌّ من جهة أخرى على من يأخذ شيئًا من مالهن، فهن قد بذلن أنفسهن لكم، فكيف تقدر نفوسكم على استباحة مالهن بعد ذلك الاتحاد والامتزاج؟، وانظر هنا لشدة المنافحة عن حقوق المرأة، بل تأمل في الدفاع عنها وعن واقعها مهما استضعفها المستكبرون.

وهنا هَيَّج حنان الرجال وشجاعتهم ورجولتهم لئلا يقعوا في ظلم المرأة بأخذ شيءٍ من مالها من خلال أمرين:

الأمر الأول: ذكر لفظ الإفضاء دون قيد:

والإفضاء المباشرة، والمراد هنا وصول بشرة الرجل إلى المرأة بالجماع، والعرب تستخدم الكنايات للدلالة على الأغراض التي لا تريد التصريح بها كقول الشاعر:

(بَلِينَ) بِلًى أَفْضَى إِلَى (كُلِّ) كُتْبَةٍ بَدَا سَيْرُهَا مِنْ بَاطِنٍ بَعْدَ ظَاهِرِ

فالكُتبة الخرزة التي يوصل بها بين جانبي القربة، والمراد أن الفساد والبلى وصل إلى الخُرَز، وكذلك هنا؛ فإن من أجمل الكنايات المستخدمة في القرآن الكنايات الواردة في موضوع العلاقة الجنسية؛ إذ يصورها للإنسان تصويرًا مدهشًا يجمع بين إفهام الإنسان لجمال تلك العلاقة وبين الأدب الراقي في الذكر، وذلك من خلال كنايات تعكس مقدار الجمال الذي في التعبيرات القرآنية، فكنَّى هنا عن الجماع بالإفضاء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾، وبين ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى الإفضاء هو المباشرة وما بعدها فقال: الإفضاء المباشرة، ولكنّ الله كريم يَكْني عما يشاء، ويدل على أن الإفضاء هو الجماع ما ثبت فِي الصَّحِيحَيْنِ في مناسبة مشابهة لموضوع أخذ مال المرأة، حيث قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ بَعْدَ فَرَاغِهِمَا مِنْ تَلَاعُنِهِمَا: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ» ثَلَاثًا. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، مَالِي -يَعْنِي: مَا أُصْدِقُهَا- قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ إِنْ كُنْتَ صدَقْت عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا».

ويبقى السؤال: لماذا لم يتعد الإفضاء بمفعول يناسبه؟

الجواب: لأن كلمة ﴿أَفْضَىٰ﴾ تدل على الاتساع والانفساح، ومن ذلك الفضاء، وإنما لم يقل: وأفضى بعضكم إلى بعض بالجماع، لتبين الآية أن المراد الجماع، وكل جوانب العشرة التي لا تخفى، فجعل الله الفعل ﴿أَفْضَىٰ﴾ بلا مفعول محدد لتشع كل معانيه أمام سامعيه، ولتنسكب كل إيحاءاته التي يشعرها المرء في دلالاته، فلا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، والقرآن «يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمان.. وفي كل اختلاجة حب إفضاء. وفي كل نظرة ود إفضاء. وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء. وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء. وفي كل شوق إلى خلف إفضاء. وفي كل التقاء في وليد إفضاء..

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب:

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.. فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف»[1].

وها هنا بصيرة أخرى في العلاقة الرائعة التي يصفها القرآن بين الرجل والمرأة

(١) في ظلال القرآن (١/ ٦٠٦).

حيث جاء التعبير بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ مع أنه كان يمكن أَنْ يَقُولَ: وَقَدْ أَفْضَيْتُمْ إِلَيْهِنَّ، أَوْ أَفْضَى أَحَدُكُمْ إِلَى الآخَرِ، وذلك ليبين أن كُلّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِمَنْزِلَةِ جُزْءِ الآخَرِ وَبَعْضِهِ المُتَمِّمِ لِوُجُودِهِ، فَكَأَنَّ بَعْضَ الحَقِيقَةِ كَانَ مُنْفَصِلًا عَنْ بَعْضِهَا الآخَرِ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ بِهَذَا الإِفْضَاءِ وَاتَّحَدَ بِهِ، ومَعْنَى الزَّوْجِيَّةِ هِيَ أَنَّهَا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى كُلٌّ مِنْهُمَا نِصْفُهَا؛ وَلِذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا لَفْظُ «زَوْجٍ» لِاتِّحَادِهِ بِالآخَرِ وَإِنْ كَانَ فَرْدًا فِي ذَاتِهِ، وليظهر أن كلًا من الطرفين كان يجد لذته بعلاقته الجنسية ومعاشرته المعيشية من الطرف الآخر، وقد قالت إحداهن تعاتب زوجها:

وَبِتْنَا وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ثَالِثٌ كَزَوْجِ حَمَامٍ أَوْ كَغُصْنَيْنِ هَكَذَا
فَمِنْ بَعْدِ هَذَا الوَصْلِ وَالوُدِّ كُلِّهِ أَكَانَ جَمِيلًا مِنْكَ تَهْجُرُ هَكَذَا؟

الأمر الثاني: ذكر الميثاق الغليظ حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

الميثاق مِفْعَالٌ وَهُوَ يَكُونُ لِلْآلَةِ كَمِرْقَاةٍ وَمِرْآةٍ وَمِحْرَاثٍ، ويكون للمصدر نَحْوَ المِيلَادِ وَالمِيعَادِ، وهو كلمة مشتقة من وَثِقْتُ بفلان أثق به ثِقةً، فهي كلمة تدل على عقد وإحكام، وبه سميت الوثيقة، وهي العهدة المكتوبة التي يوثق بما فيها، والوَثِيقُ: المحكم، ومنه الوَثاقُ وهو الحبل، فالميثاق: العهد المحكم الشديد إحكامه حتى كأنه شدَّ بوثاق أي بحبلٍ يوثقه فلا يمكن فكه، كما قَالَ الكُمَيْتُ يمْدَحُ مَخْلَد بنَ يَزيد بن المهلَّب:

وخَلائِق منْه إليّ جميلَة حسْبي، ونِعْمَ وَثيقَةُ المُسْتَوثِقِ

فانظر إلى هذا الوصف العميق للعلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة: (الميثاق الغليظ).. يا له من وصفٍ شديد الوقع على سامعيه:

فالميثاق العقد المحكم المؤكد بمؤكدات مثل اليمين، ومنه قول يعقوب عليه السلام: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (يوسف:٦٦)، وإن كان الميثاق في ذاته عقدًا شديد الإحكام فإنك تندهش عندما تجد الله يصفه بأنه غليظ، فهذا إحكامٌ مضاعف؛ فالغليظ هنا صفةٌ مشبهةٌ من غَلْظ إذا كان صلبًا شديدًا، تصور عظمة العهد الذي يكون بين الرجل والمرأة في العقد الشرعي للعلاقة بينهما... كل ذلك لبيان عظمة هذا اللقاء الزوجي بين الزوج والزوجة ليكونا الأسرة المركزية، فهذه الأسرة المركزية ستكون حجر الزاوية في بث الحياة الإنسانية، وتكون نواة أساسية مع الأسر الأخرى للاستقرار والتكاثر والإعمار والازدهار، وكأني بالزوج يذكر زوجته بهذا الميثاق الغليظ عند النزاع، فيقول لها:

أنت يا ساكنة القلب لماذا تهجرين؟؟ ولماذا تسرقين الأمل المشرق من قلبي وعني تهربين؟

ولماذا تسكتين؟ ولماذا تغمدين السيف في القلب الذي تمتلكين؟؟ ولماذا تطلقين السهم نحوي..

سهمك القاتل لا يقتلني وحدي..فهل تنتحرين؟؟ مؤلم هذا السؤال المر.. نار في قلوب العاشقين.. فلماذا تهجرين؟؟

وأنا.. طفل على باب الأماني ينتظر.. شاعر يشرب كأس الحزن.. يدعو يصطبر

أنا نهر الأمل الجاري الذي لا ينحسر...لم أحرك مقلة اليأس، ولم انظر بطرف منكسر

أنا يا ساكنة القلب الذي لا تجهلين.. شاعر يمسح بالحب..دموع البائسين.. شاعر يفتح في الصحراء دربا..

للحيارى التائهين.. أنا يا ساكنة القلب الذي يفهم ما تعني الإشارة.. أنا من لا يجعل الحب تجارة

أنا من لا يعبد المال. ولا يرضى بأن يخلع للمال إزاره.. أنا من لا يبتني في موقع الذلة داره..أنا من لا يلبس الثوب لكي يخفي انكساره.. أنا.. من لا ينكر الود ولا يحرق أوراق العهود.. ما لأشواقي حدود..لهفتي تبدأ من أعماق قلبي

وإلى قلبي تعود.. راكض.. والأمل الباسم يطوي صفحة الكون ويجتاز السدود.

ولم يسمِّ الله عهدًا بالميثاق الغليظ إلا ثلاثة عهود أو ثلاث اتفاقيات:

العهد الأول: الميثاق الغليظ الذي أخذه الله جل جلاله على أنبيائه ليبلغوا رسالة الرحمة والإنقاذ للبشرية إلى العالم، وقال عن هذا الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧، ٨)

العهد الثاني: الميثاق الغليظ المشدد المأخوذ على بني إسرائيل في عموم دينهم، وفي خصوص السبت حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ١٥٤)

فانظر كيف طابق وصف هذين العهدين مع العهد الثالث، في تسمية كل منهم ميثاقًا غليظًا.. إنه العقد الشرعي للعلاقة بين الزوج والزوجة.. وإنك لتشعر بهيبة هذا العهد، وضخامة تبعاته، فهل يعقل الزوجان ذلك؟

ويدخل ضمن الميثاق الغليظ ما التزمه الزوج من المعاشرة بالمعروف أو التسريح بإحسان، وبذلك فسره قتادة حيث قال: والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد كان في عقد المسلمين عند

إنكاحهم: «آلله عليك لتمسكنَّ بمعروف أو لتسرحن بإحسان» [١].. فقد جعل الله مستند الميثاق الغليظ كلمة الله.. إنها الكلمة التي ينبغي للمسلم أن يعظمها فوق كل كبيرٍ وشريف عنده، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها فِي خُطبة حِجة الوَدَاعِ، فقال: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُروجهن بِكَلِمَة اللَّهِ».

الحق العاشر: التحذير الإيماني والقضائي من نشوز الزوج وتعسفه في استعمال الحقوق الشرعية المعطاة له.

ويُبَصِّرُنا بذلك هذه الآية التي تعالج نشوز الزوج معالجة مبكرة، وتخوفه من مراقبة الله له بالاستفهام الإنكاري:

وهذه الآية معالجة مبكرة بالنسبة لبقية أحكام السورة لموضوع نشوز الزوج؛ فإن النشوز إما أن يكون من قبل الزوج وإما أن يكون من قبل الزوجة، فهذه الآية بينت بعض مظاهر نشوز الزوج التي بها يحاول الاحتيال على أخذ مال امرأته قبل مفارقتها، وآية سورة البقرة بينت جواز أخذ شيء من المال إذا كان النشوز من قبل الزوجة في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فهذه الآية محكمة غير منسوخة تحمي النساء من تعسف الرجال في استعمال حقوقهم، وتذكرهم بضرورة الالتزام بشرف الكلمة التي يعطيها المتزوج مسندًا فعله إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يجوز للرجل أن يأخذ شيئًا من المرأة عند طلاقها، وأما الخلع الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٩) فجائز ولا يتعارض مع هذه الآية لأن المحرم في

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٢٧).

سورة (النساء) غير المباح في سورة (البقرة)، فالمحرم أخذُ ما آتاها منها إذا كان هو المريدَ طلاقَها، وأما الذي أباح له أخذَه منها فهو إذا كانت هي المريدةَ طلاقَه وهو له كاره، وبذا يتضح أن المُطَلَّقَاتِ أَرْبَعة أنواع:

النوع الأول: مُطَلَّقَةٌ مَدْخُولٌ بِهَا قَدْ فُرِضَ لَهَا مَهْرٌ فَلَهَا كُلُّ المَفْرُوضِ، وَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٢٠).

وإنما أعاد ذكر استحقاقها هنا لأن سورة البقرة ذكرت الأمر عامًا، وسورة النساء ذكرت قانون تعدد النساء، فربما ظن أحد أن التعدد يسول للنفس أخذ شيء من مال الزوجة الأولى أو السابقة، فحرم الله ذلك وأكد على استقلال ذمة المرأة المالية.

النوع الثاني: مُطَلَّقَةٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ بِهَا وَلَا مَفْرُوضٍ لَهَا، فَيَجِبُ لَهَا المُتْعَةُ دون مهر حسب قدر المطلق ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦).

النوع الثالث: مُطَلَّقَةٌ مَفْرُوضٌ لَهَا غَيْرُ مَدْخُولٍ بِهَا فَلَهَا نِصْفُ المَهْرِ المَفْرُوضِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

النوع الرابع: مُطَلَّقَةٌ مَدْخُولٌ بِهَا غَيْرُ مَفْرُوضٍ لَهَا، وَلَهَا مَهْرُ مِثْلِهَا بِلَا خِلَافٍ، ويُبَصِّرُنا بذلك قَوْلهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤) مَعْنَاهُ: فَأَعْطُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ بِالفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُسَمًّى، وَالعُمْدَةُ فِي التَّقْدِيرِ مُسَاوَاتُهَا بِأَمْثَالِهَا عَلَى الأَقَلِّ.

والمطلقات جميعًا ينبغي إكرامهن بمتعة يفيض بها كرم الزوج حيث قال جل ذكره: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١)، وخاصة غير المدخول عليهن حيث قال تعالى شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

القسم الثالث

من حقوق البناء الأسري

معرفة المحرمات من النساء في الزواج

(النساء٢٢-٢٤)

آيات هذا القسم:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء٢٢-٢٤).

المناسبة والاتصال:

حدَّدَ الله جلَّ ذكره في القسم الأول كيفية معالجة الفاحشة المبينة التي تهدد البناء الزوجي، بإعادة تأهيل الفاعلين لها من الناحية الجسدية، ومن ناحية التوبة

القلبية والفعلية، وفصل تعالى جده في القسم الثاني: حقوق الزوجة، وحذر الزوج من التعسف معها، وبين أن اللقاء بينهما سببه الميثاق الغليظ، ها هو جل جلاله يحدد لك في هذا القسم الآصرة الرحمية التي تهتم بها باعتبار الرحم الأسري، ولا يجوز لك أن ترتبط بأحد من نسائها ارتباط الزوجية ليكتمل التنظيم الأسري الرائع الذي يسهم في البناء المجتمعي، وبذا تظهر الأسرة المركزية، والأسرة المتوسطة على أجمل صورة، وفي أبهى زينة، حيث يفصل الله لنا المحرمات من النساء، فيذكر الله خمسة عشر نوعًا منهن:

سبعة أنواع من النسب، وهن في قوله تعالى جده: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ (النساء: ٢٣)، وثمانية أنواعٍ من غير النسب: منهن اثنتان بسبب الرضاع، وست بسبب المصاهرة، أولهن زوجات الآباء اللواتي ذكرن في قوله تعالى جده: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٢٢)، ثم ذكر ستًا في قوله تعالى ذكره: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٢٣)، والثامنة في قوله عز شأنه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ (النساء: ٢٤).

ومن أهم الأعمدة التي أقام الله عليها هذه السورة:

الأول: أنه خلق البشرية من زوجين حيث بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، والثاني: جعل العلاقة بينهم قائمة على صلة الرحم، وإقامة الحقوق بالقسط، ولأن أساس

البث البشري هو إقامة الأسرة، فقد حدد الحقوق المختلفة لأطراف الأسرة ليحميها، وينميها، وبدأ ذلك ببيان كيفية الإقساط في التعامل مع اليتامى، ومع الحقوق المالية للمرأة المتزوجة، وكيفية التعامل مع السفهاء، وفصل الحدود التي تضبط الحقوق الدقيقة للورثة، ثم انتقل إلى ذكر المحافظة على طرفي الأسرة من الانحراف والشذوذ عن النظام الإنساني الذي يتم من خلاله بث البشرية في الأرض دون اختلاط أو عبث، ثم حدد حقوق البناء الأسري التي تكفل التعامل المقسط مع المرأة، وإذا كان للزوجة هذه المكانة في تشكيل الأسرة فلا بد من معرفة المرأة التي يجوز نكاحها والمرأة التي يحرم نكاحها...

وقد جمعت هذه الآيات خمسة عشر نوعًا ترجع إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: المحرمات بالمصاهرة: فذكر أولًا زوجات الأب، وقدمها على محرمات النسب لقرب الكلام عن إرث النساء كرهًا.

وكأنه يقول لهم: كما أنكم تحترزون وتستعظمون أن تتزوجوا بأمهاتكم، وبناتكم، كذلك ينبغي أن تستعظموا الزواج من زوجات الآباء، فقال تعالى عزه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (النساء:٢٢):

فقد ورد عن عكرمة أن هذه الآية نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلفَ على أمِّ عبيد بنت صخر، كانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خَلَف على بنت أبي طلحة بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسَد، وكانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن زبّان، وكان خلف على مُليكةِ ابنة خارجة، وكانت

عند أبيه زَبَّان بن سيّار [١].

والصحيح أنها نزلت عامة في هذا الزواج الجاهلي، وهذه الحوادث دخلت ضمن المعنى الذي حددته، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾ النكاح يأتي بمعنى العقد، ويأتي بمعنى الوطء، فهو من المشترك:

فمن مجيئه بمعنى العقد هذا الموضع، فهو هنا بمعنى العَقْدِ الشرعي بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ عَلَى المُعَاشَرَةِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِالمَعْنَى الصَّحِيحِ شَرْعًا، فتحرم زوجة الأب بمجرد أن يَعْقدَ عليها، وابن عباس ﷺ يجلي المعنى فيقول: كل امرأة تزوجها أبوك وابنك، دخل أو لم يدخل، فهي عليك حرام [٢].

ومن مجيئه بمعنى الوطء قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البَقَرَةِ: ٢٣٠)، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ (النساء: ٦).

فإن تساءلت: فما الذي يحدد لنا المعنى أن تكون هذه بمعنى العقد أو الوطء؟ السياق والأحكام الأخرى المعروفة شرعًا.

والآية تمنع منعًا مقطوعًا به من أن ينكح المرء زوجة أبيه، إلا أنك تلمس في الآية أن النُظُمَ القرآنية والأوامر الإلهية تتم صياغتها في القرآن الكريم مصحوبة بشيء من التوجيه والتربية، وهنا ترى الإشارة إلى التحذير الشديد من أفعال الجاهلية الأولى والأخرى وتقاليدها وطقوسها، فكلمة ﴿مَا﴾ جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بدلًا من كلمة ﴿مِّنَ﴾ لتدل على إعجازٍ بيانيٍ مدهش؛ إذ هي **تدل على معنيين:**

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٣٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٣٦).

المعنى الأول: لا تنكحوا اللواتي نكحهن آباؤكم من النساء، فـ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى (التي).

المعنى الثاني: ولا تنكحوا نكاح آبائكم في الجاهلية أي على نظمهم الفاسدة التي لا يجوز مثلها في الإسلام، فـ﴿مَا﴾ مصدرية، وهذا المعنى أعم من الأول وتلمس منه الإشارة إلى التحذير من أفعال الجاهلية الأولى وتقاليدها وطقوسها. ويكون المعنيان كقول القائل للرجل: «لا تفعل ما فعلتُ»، أي: لا تفعل الذي فعلتُه، أو لا تفعل فعلي.

والمراد من الاستثناء في قوله﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الاستثناء من الإثم لمن وقع في نكاح زوجات الآباء قبل التحريم، وقد ذُكِر بِأَنَّ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِثْنَاءُ المَاضِي مِنَ المُسْتَقْبَلِ، وَالمَعْنَى: لَكِنَّ مَا سلف قبل أن تعلموا فَإِنَّ اللَّه تَجَاوَزَ عَنْهُ لأنكم لم تكونوا تعلمون، ويمكن جعل «إلا» هاهنا بِمَعْنَى بَعْدَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الدُّخَانِ: ٥٦) أَيْ بَعْدَ المَوْتَةِ الأُولَى.

وبمعرفة الحكم في الآية يجب المفارقة الفورية للزوجة كما يدل ذلك على ثبوت أحكام النسب لمن حدث منه ذلك سابقًا. ثم ترى الأمر لا يقف عند التحريم المحض حتى يلحقه الله بما يدلُّ على تشنيع الأنكحة الجاهلية (الأولى والمعاصرة):

فقد وَصَفَ الله نكاح الآباء (وأنكحة الجاهلية مثله) بِأُمُورٍ شنيعة ثلاثة، وهذه الأمور القبيحة الثلاثة قال الله عنها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٢٢) وهي:

الأول: ذلك النكاح وأمثاله فَاحِشَةٌ، أي أمرٌ يفحش ذكره، ويقبح نشره، فزَوْجَة الأَبِ تُشْبِهُ الأُمَّ فَكَانَتْ مُبَاشَرَتُهَا مِنْ أَفْحَشِ الفَوَاحِشِ، وكذلك كل نكاح فاسد والإصرار على تشريعه هو من أفحش الفواحش.

الثاني: ذلك النكاح وأمثاله مَقْتٌ، والمقت عِبَارَةٌ عَنْ بُغْضٍ مَقْرُونٍ بِاسْتِحْقَارٍ، فهُوَ أَمْرٌ شنيعٌ كبيرٌ يُؤَدِّي إِلَى مَقْت الِابْن أَبَاهُ بَعْد أَنْ يَتَزَوَّج بِامْرَأَتِهِ؛ وتنزل قيمته ومكانته عنده، والشريعة جاءت بتعظيم الأب وتوقيره، ومقتًا من قبل فاعليه لآبائهم أو لأقربائهم، وكذلك مقتًا إذا جعلنا الأنكحة الفاسدة أي أنه يسبب المقت والبغض والاستحقار من بقية أفراد المجتمع، لهذا الذي فعل النكاح السيء، وكما أنه مقتٌ في نفسه فهو يسبب مقت الله تعالى.

الثالث: ذلك النكاح وأمثاله ساءَ سَبِيلًا، فـ«سَاءَ» فعلٌ لازمٌ وَفَاعِلُهُ مُضْمَرٌ، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييز يفسر ذَلِكَ الفَاعِل، وذلك مبالغةً في الذم، ويقابله المبالغة في المدح في قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النِّسَاءِ: ٦٩)، أي ساء طريقًا أن يبحث الإنسان عن إفراغ شهوته بأن يتزوج زوجة أبيه، فتعظم شناعته ألا يجد طريقة لإفراغ شهوته إلا تلك الطريقة كما أنه ساء سبيلًا لأن يقيم المرء له أسرة أو تظهر له صحة جسدية معه.

وهذه الأمور الثلاثة استوعبت مَرَاتِبَ القُبْحِ الثلاثة، وهي: القُبْحُ فِي العُقُولِ، وَفِي الشَّرَائِعِ، وَفِي العَادَاتِ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ إِشَارَةٌ إِلَى القُبْحِ العَقْلِيِّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَقْتًا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى القُبْحِ الشَّرْعِيِّ لأنه يسبب مقت الله -جل وعلا-، وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى القُبْحِ فِي العُرْفِ وَالعَادَةِ، وَمَتَى اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الوُجُوهُ فَقَدْ بَلَغَ الغاية في القبح، ولقبح هذا النكاح الجاهلي وفساده جعل النبي ﷺ على فاعل حدًّا قضائيًا، فعن البراء رضي الله عنه قال: مر بي خالي أبو بردة بن نيار ومعه لواء فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن آتيه برأسه [1].

(١) سنن الترمذي (٣ / ٦٤٣)، وقال حسن غريب، وصححه الألباني.

ما الذي يُبَصِّرُنا به هذا التشنيع الثلاثي لأنكحة الجاهلية؟ يُبَصِّرُنا ببعدٍ دعويٍ غالٍ بضرورة بيان الرجس الذي يعيش فيه الناس في ظل الجاهلية المتوحشة، فينبغي أن نبين للعالم الجهات التي تستبيح مثل هذه الأنواع من الأنكحة، ونقول لهم: أنتم الآن تدمرون أنفسكم ومجتمعاتكم كما يجب أن نبين لهم التأثيرات الخبيثة لهذه الأنكحة الفاسدة على المستوى البشري، وأن نهاجم الفساد والعفن الذي يرين على الواقع المحلي والعالمي، وأن نظهر نتائجه السيئة في الواقع الاجتماعي.

الصنف الثاني: محرمات قرابة الدم (النسب):

فذكر منهن سبعًا (فصار المجموع ثمانية أنواع من الأنكحة المحرمة)، حيث قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ (النساء: ٢٣).

ويكون المعنى: حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم، وإنما لم يذكر الفعل، واكتفى بذكر الأعيان لأنه بدهي واضح في المراد منه، فهو بحسبه، كما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ (المائدة: ٣) مرادٌ به الأكل.

وقوله ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم» مراد به حلية سفكه وإراقته أي قتل صاحبه، وليس المقصود أن يتبرع لمريض بشيء من دمه مثلًا، فالعرف اللغوي يحكم المعنى، فإذا أُسند التحريم إلى النساء، علم المخاطب أن المراد تحريم النكاح، وإذا أسند إلى الطعام أو الأنعام فقد حرم الأكل، أي حرم عليكم أن تنكحوا أمهاتكم وما ذكر بعدهن.

وهذا الصنف ينتمي إليه الأنواع الآتية:

النوع الأول: الأمهات .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، فما المقصود بالأمهات؟

الأُمَّهَاتُ جَمْعُ أُمَّةٍ أَوْ أُمَّهَةٍ، وَالعَرَبُ أَمَاتُوا أُمَّهَةً المفرد وَأَبْقَوْا جَمْعَهُ، وأَبْقَوْا (أُمَّ) مفردة وَأَمَاتُوا جَمْعَهُ، فقل استعمالهم لكلمة (أُمَّاتُ)، وقد قيل بأن الأمات جمع لما لا يعقل، والأم كُلُّ امْرَأَةٍ رَجَعَ نَسَبُكَ إِلَيْهَا بِالوِلَادَةِ مِنْ جِهَةِ أَبِيكَ أَوْ مِنْ جِهَةِ أُمِّكَ بِدَرَجَةٍ أَوْ بِدَرَجَاتٍ، بِإِنَاثٍ رَجَعْتَ إِلَيْهَا أَوْ بِذُكُورٍ فهي أمك، فدخل في الأمهات كل أصوله الإناث مهما علوا.

النوع الثاني: البنات، وهكذا كل فروعه مهما نزلوا، فكُلُّ أُنْثَى يَرْجِعُ نَسَبُهَا إِلَيْكَ بِالوِلَادَةِ بِدَرَجَةٍ أَوْ بِدَرَجَاتٍ، بِإِنَاثٍ أَوْ بِذُكُورٍ فَهِيَ بِنْتُكَ. ثم ذكر فروع أبويه وهن ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾

فالنوع الثالث: الأخوات

والنوع الرابع: العمات، ويمكن تحديدهن بأن كُلّ ذَكَرٍ رَجَعَ نَسَبُكَ إِلَيْهِ فَأُخْتُهُ عَمَّتُكَ، وَقَدْ تَكُونُ العَمَّةُ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ وَهِيَ أُخْتُ أَبِي أُمِّكَ.

والنوع الخامس: وخالاتكم، ويمكن تحديدها بأن كُلّ أُنْثَى رَجَعَ نَسَبُكَ إِلَيْهَا بِالوِلَادَةِ فَأُخْتُهَا خالتك، وَقَدْ تَكُونُ الخَالَةُ مِنْ جِهَةِ الأَبِ وَهِيَ أُخْتُ أُمِّ أَبِيكَ.

النوع السادس: وبنات الأخ.

النوع السابع: وبنات الأخت.

الصنف الثالث: محرمات الرضاع.

فذكر منهن نوعين (فصار المجموع عشرًا) ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ (النساء: ٢٣)

فالنوع الأول: الأم من الرضاع هي كل أنثى انتسب باللبن إليها فهي أمك، وهي من أرضعتك، أو أرضعت امرأة أرضعتك، ويكون أبوك رجلًا أرضعك بلبانه من

زوجته أو أم ولده.

والنوع الثاني: الأخت من الرضاع، وفي بيان هذا التحريم تقول عَائِشَة: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الوِلاَدَةِ»، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «يَحْرُم مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُم مِنَ النَّسَبِ».

وعَنْها قَالَتْ: إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي القُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ بَعْدَ مَا نَزَلَ الحِجَابُ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّ أَخَا أَبِي القُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ. فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَتُهُ قَالَ: «ائْذَنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ» قَالَ عُرْوَةُ: فَبِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَب [1].

---

(١) البخاري (٨ / ٤٥)، عن ابن عباس ﷺ: أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والآخرى غلاما أيحل للغلام أن يتزوج بالجارية؟ فقال: لا اللقاح واحد. قال الترمذي (٣ / ٤٥٤): وهذا الأصل في هذا الباب وهو قول أحمد و إسحق،وفي تحفة الأحوذي (٣ / ٢٢٧): «ومعنى (اللِّقَاحُ وَاحِدٌ): اللَّقَاحُ بِالفَتْحِ اِسْمُ مَاءِ الفَحْلِ، أَرَادَ أَنَّ مَاءَ الفَحْلِ الَّذِي حَمَلَتْ مِنْهُ وَاحِدٌ، وَاللَّبَنُ الَّذِي أَرْضَعَتْهُ كُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا كَانَ أَصْلُهُ مَاءَ الفَحْلِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اللِّقَاحُ فِي هَذَا الحَدِيثِ بِمَعْنَى الإِلْقَاحِ، يُقَالُ أَلْقَحَ الفَحْلُ النَّاقَةَ إِلْقَاحًا وَلَقَاحًا كَمَا يُقَالُ أَعْطَى إِعْطَاءً وَعَطَاءً، وَالأَصْلُ فِيهِ لِلْإِبِلِ ثُمَّ اُسْتُعِيرَ لِلنَّاس، ورأى بعضهم أن لقاح الرجل لا يحرم، ففي مسند الشافعي (١١٦٤) عن أبي عُبَيْدَةَ ابنِ عبدِ اللَّهِ بنِ زَمعَةَ: أن أُمَّهُ زيْنبُ بنتُ أبي سَلَمَةَ أرْضَعَتْهاَ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ امرأةُ الزُّبَيْرُ بنِ العَوَّام فقالت زيْنبُ بنتُ أبي سَلَمَةَ: وكان الزُّبَيْرُ يدخلُ عَلَيّ وأنا أمْتَشِطُ فيأخُذُ بقَرْنٍ من قرُونِ رأسِي، فيقولُ: أقْبِلِي عَلَيَّ فَحَدِّثِيني أراهُ أنهُ أبي ومَا ولدَ فَهُمْ إخوتي ثمَّ أنَّ عبدَ اللَّهِ بن الزُّبير قبل الحرة أرسل إليَّ، فخطبَ إليَّ أُمَّ كُلْثُوم ابنتي عَلَى حَمْزَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، وكان حَمْزَةَ لِلكَلْبِيَّةِ، فقالت زينبُ لرسولهِ: وهل تُحِلُّ لَهُ؟ إنَّمَا هيَ ابنةُ أُخيهِ، فأرسل إليَّ عبدَ اللَّهِ بن الزُّبير إنما أردتُ بهذا المنعَ لـمَا قبلَك ليسَ لك بأخٍ. أنَا وما ولدتْ أسماء فهمْ إخوتُكَ وما كان من ولدِ الزُّبَيْر من غير أسماءَ، فليسوا لك باخوةٍ فأرسلي، فَسَلي عن هذا. فأرسلتُ وسألتُ وأصحابُ النبيَّ ﷺ متوافرون وأمهاتُ المؤمنين، فقالوا لهاَ: إنَّ الرضاعةَ من قِبَلِ الرجال لا تُحرمُ شيئًا فأنكحتها إيَّاهُ فلم تزلْ عندهُ حتى هلكَ».

ولكن ما الرضاع الذي تثبت به الحرمة؟

هو الغِذَاءُ الَّذِي لَا غِذَاءَ غَيْرُهُ لِلطِّفْلِ يَعِيشُ بِهِ، فَكَانَ لَهُ مِنَ الأَثَرِ فِي دَوَامِ حَيَاةِ الطِّفْلِ مَا يُمَاثِلُ أَثَرَ الأُمِّ فِي أَصْلِ حَيَاةِ طِفْلِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِي ﷺ: «إِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ» (١)، واخْتَلَفوا فِي عَدَدِ الرَّضَعَاتِ المُحَرِّمَةِ، فَذَهَبَ مالك إِلَى أَنَّهُ يُحَرِّمُ مُجَرَّدُ الرَّضَاعِ لِعُمُومِ هَذِهِ الآيَةِ، وعَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ شَيءٍ مِنْ أَمْرِ الرَّضَاعِ فَقَالَ: لاَ أَعْلَمُ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ الأُخْتَ مِنَ الرَّضَاعَةِ. فَقُلْتُ: إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ لاَ تُحَرِّمُ الرَّضْعَةُ وَلاَ الرَّضْعَتَانِ وَلاَ المَصَّةُ وَلاَ المَصَّتَانِ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: قَضَاءُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قَضَائِكَ وَقَضَاءِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَعَكَ (٢)، ولا نطيل بذكر هذه المسألة الفقهية فحسبنا أن نذكر أن الشافعي ذهب إلى أنه لَا يُحَرِّمُ أَقَلُّ مِنْ خَمْسِ رَضَعَاتٍ، لحديث عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ القُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ. ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ (٣) ولعلها تعني إما أن يكون لها حكم التلاوة، وإما أن تكون من منسوخ التلاوة.

ثم رجع إلى الصنف الأول ليكمل فيه المحرمات بالمصاهرة: وذلك لتعظيم مكانة الزواج، وتوثيق الروابط بين أسر الزوج والزوجة، فذكر منهن خمسة أنواع:

ودخل فيهن النوع الأول فصار المجموع أربعة عشر:

النوع الأول: زوجات الآباء: وتقدم ذكرها.

النوع الثاني: أصول الزوجة مهما علون، حيث يقول الله تعالى: ﴿**وَأُمَّهَٰتُ**

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٢٢٢) برقم ٢٦٤٧.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٧ / ٤٥٨).

(٣) صحيح مسلم (٤ / ١٦٧) برقم ٣٦٧٠.

﴿نِسَآئِكُمْ﴾، سواء كانت الأم المباشرة أم التي بعدها التي نسميها: جدة، وجمعهن ليدل على أنه ليس المقصود فقط أم الزوجة المباشرة، وإنما كل من تنسب إليها الزوجة بولادة وهي أنثى.

النوع الثالث: ذكرهن الله بقوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ وهن فروع الزوجة، أي بنات الزوجة مهما نزلن أي البنت وبنت الابن وبنت البنت وهكذا، فما معنى قوله ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾؟ الربائب جمع ربيبة وهي ابنة زوجة الرجل من غيره، يقال لها ربيبة لأنه يربيها بنفسه، فتصبح ربيبة له، فهي من التربية، ومعنى كلمة ربيبة فعيلة بمعنى مربوبة لمن رباها وهو زوج أمها، مثل كلمة حبيبة أي محبوبة كذلك ربيبة مربوبة، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ أي لا يجوز لكم أن تتزوجوا ببنات الزوجة سواء أكانت ابنتها المباشرة أم غير المباشرة، وما سبب قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾؟ ما سر اختيار هذا اللفظ التربوي المُلْهِم دون الوصف القانوني المباشر «بنات زوجاتكم»؟

يكمن سر الاختيار لهذا المصطلح التربوي المدهش في اطراد الأسلوب القرآني الذي يقتضي توفير المعاني وإكثارها، ففي الوقت الذي يريد الله تثبيت المعنى القانوني في منع نكاح بنت الزوجة، فإنه في الوقت ذاته يريد أن يُلزِم زوج الأم بالاعتناء ببنت الزوجة كما لو أنها ابنته أي بنات أزواجكم اللواتي تقومون بتربيتهن كما تربون بناتكم؛ فإذا تزوج الإنسان بالمرأة وجب أن يُرَبيَ ابنتها في حجره، ولذا قال: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾والحجور جمع حجر، يجوز أن يفتح الحاء أو بكسرها، والمراد بقوله ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، كأنه أخذها في حجره أي في حضنه، فالإنسان إذا عطف على طفلٍ يحضنه ويجعله في حضنه، والإقعاد في الحجر دلالة على المحبة عند العرب، وعلى شدة الحرص والحفظ... إنه جل شأنه يخبرنا عن الوصف

القانوني الذي يمنع من الزواج ببنت الزوجة، وينبئنا في الوقت ذاته بضرورة أن تهتموا بتربيتهن كما تهتمون بأولادكم، ومن ذلك أن تقوموا بمعاملتهن بأشد الأوصاف حنانًا كأن تحضنونهن، وتضعونهن في حجوركم، وترغبون في الالتصاق بهن، فلتمتلئ مشاعركم بأن بنت الزوجة مكانتها مثل مكانة أولادكم.. فأشار إلى الأمرين: إلى التربية في قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾، وإلى المحبة في قوله: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، وإلى العطف والحنان من خلال اللفظين.

لقد جمع الله بين أمرين: تحريم نكاح بنت الزوجة، ووجوب تربيتها التربية الحسنة، فلم يقل بنت الزوجة وإنما قال: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾، وهذا من أسلوب القرآن الفريد، وإعجازه البياني المدهش، ففي الآية استدرارٌ شديد لعاطفة زوج الأم.

وعد بنا إلى موضوع التحريم لتجد هنا صفتين: أن تكون بنت الزوجة، وأن تربيها عندك ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٣)، فهل يعني ذلك أن هاتين الصفتين لا بد منهما في التحريم؟

فإذا لم يقم الزوج بتربية بنت الزوجة بأن نشأتْ عند أبيها مثلًا أو كانت كبيرة، فهل يجوز الزواج بها؟ وكذلك إذا لم تكن في حجرك، فلم تحسن إليها ولم تجعلها في حضنك.. هل يعنى ذلك أنه لا يحرم الزواج منها؟

الإجابة عن ذلك تجعلنا نعود إلى قاعدة في أصول التفسير تحدثنا عن الفرق بين الصفة الإيضاحية والصفة السببية، وقد فصلت ذلك في كتابي: الأساس في أصول التفسير، ولتطبيق هذه القاعدة نقول:

إن قررنا بأن قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ صفةٌ إيضاحية أي بيان واقع فقط، فإن ذلك يعني: سواء كانت كذلك أم لم تكن فهي محرمة بمجرد

كونها بنت الزوجة، وهذا رأي الجمهور، وإذا قلنا بأنها تأسيسية فإن ذلك يعني اعتبار مفهوم المخالفة، فلا بد أن يُشترط في المحرمة من بنات الزوجة أن تكون ربيبة أو في الحجر، فيجوز الزواج بمن لم تتوفر فيها هذه الصفة، وقد نقل خلافٌ ضعيف بين أهل العلم، فنقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الصفة تأسيسية، فإن لم تكن الفتاة في حجر زوج الأم جاز الزواج بها، فعن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة فتوفيت وقد ولدت لي، فوجدت عليها أي حزنت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك؟ قال توفيت المرأة، فقال علي: لها ابنة، قال: نعم، وهي بالطائف قال: كانت في حجرك؟ قال: لا! هي بالطائف، قال: فانكحها، قال: فأين قول الله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ قال: إنها لم تكن في حجرك، إنما ذلك إذا كانت في حجرك [1]، وعلق ابن كثير على إسناد ابن أبي حاتم فقال: «هَذَا إِسْنَادٌ قَوِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ جِدًّا، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَحَكَاهُ أَبُو القَاسِمِ الرَّافِعِيُّ عَنْ مَالِكٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ حَزْمٍ، وَحَكَى لِي شَيْخُنَا الحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الذَّهَبِيُّ أَنَّهُ عَرَض هَذَا عَلَى الشَّيْخِ الإِمَامِ تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَاسْتَشْكَلَهُ، وَتَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ» [2]، ففهم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الصفة هنا تأسيسية لابد من توافرها، وبالتالي إذا لم تتوفر يمكن للإنسان أن يتزوج، والجمهور على أنها إيضاحية لبيان الواقع الغالب، ولا يجوز الزواج من بنات الزوجة مطلقًا، وهذا الذي عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فالله جل جلاله أراد أن يضيف لموضوع التحريم زيادة استدرار العطف فذكر كلمة ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ للحث على التربية وإضفاء الحنان على بنات الأم، فالمقصود بنات الزوجة مطلقًا، ومما يدل عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن

(١) مصنف عبد الرزاق (٦ / ٢٧٨) برقم ١٠٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير.

﴿لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فعلَّق رَفْعَ الجُنَاحِ بِمُجَرَّدِ عَدَمِ الدُّخُولِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ المُقْتَضِيَ لِحُصُولِ الجُنَاحِ هُوَ مُجَرَّدُ الدُّخُولِ، ولِأَنَّهُ تَفْرِيعٌ لِبَيَانِ مَفْهُومِ مَا قُيِّدَ بِهِ التَّحْرِيمُ، فَلَوْ كَانَ الكَوْنُ فِي الحُجُورِ قَيْدًا أَيْضًا لَقَالَ: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، أَوْ لَمْ تَكُنْ رَبَائِبُكُمْ فِي حُجُورِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم[1]، والمقصود بالدخول الجماع، وذكر عن عطاء أنه مقدماته.

ذكر تعالى هذين النوعين، ولكنه ذَكَرَ شَرْطًا بعدهما وهو قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ هنا ذكر صفة جديدة ولكن في أم البنت..

فتحرم بنت الزوجة إذا تم الدخول بأمها، فقوله: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إشارة إلى اللقاء الزوجي وهو الجماع، وهنا ينشأ لنا سؤال جديد بنفس الطريقة، وهو: هل لابد من اشتراط الدخول في تحريم الربيبة؟ الجواب واضح لأنه تتمة، فذكره في الآية فقال: {فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم} أي يجوز الزواج بالربيبة حال عدم الدخول بأمها.

عد بنا إلى نظم الآية لترى أن الله ذكر لنا هنا صنفين من المحرمات بالمصاهرة، الصنف الأول: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، والصنف الثاني: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾، ثم قال في الأخير: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾.

فكلمة ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ هل تعود على الصنفين أم تعود على الصنف الأخير فقط؟.

يطلق ابن عباس ﷺ على هذا النوع (المبهم) وهو غير المعين أو المقيد، فسئل عن قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ ولم يبين الله الدخول بهن، أجاب فقال: هذا من

(١) المنار (٤/ ٣٩١).

مبهم التحريم، الذي لا وجه فيه غير التحريم، سواء دخلتم ببناتهن أو لم تدخلوا بهن، فأمهات نسائكم حرمن عليكم من جميع الجهات، والجمهور على ذلك، فمَنْ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ أُمُّهَا سَوَاءٌ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ، وذهب بعضهم إلى أن تحريم الأم إنما يكون بالدخول لا بمجرد العقد، فروى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَطَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، أَيَتَزَوَّجُ أُمَّهَا؟ قَالَ: هِيَ بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيبَةِ، وكذا روى عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: إِذَا مَاتَتْ عِنْدَهُ وَأَخَذَ مِيرَاثَهَا كُره أَنْ يَخْلُفَ عَلَى أُمِّهَا، فَإِذَا طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَإِنْ شَاءَ فَعَلَ، وروى ابْنُ الْمُنْذِرِ أَنَّ بَكْرَ بْنَ كِنَانَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ أَنْكَحَهُ امْرَأَةً بِالطَّائِفِ قَالَ: فَلَمْ أُجَامِعْهَا حَتَّى تُوُفِّيَ عَمي عَنْ أُمِّهَا، وَأُمُّهَا ذَاتُ مَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ أَبِي: هَلْ لَكَ فِي أُمِّهَا؟ قَالَ: فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ فَقَالَ: انْكِحْ أُمَّهَا. قَالَ: فَسَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: لَا تَنْكِحْهَا. فَأَخْبَرْتُ أَبِي مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ، فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَخْبَرَهُ فِي كِتَابِهِ بِمَا قَالَ ابْنُ عُمَر وَابْنُ عَبَّاسٍ فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ: إِنِّي لَا أُحِلُّ مَا حَرم اللَّهُ، وَلَا أُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ. وَأَنْتَ وَذَاكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ. فَلَمْ يَنْهَ وَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَانْصَرَفَ أَبِي عَنْ أُمِّهَا فَلَمْ يَنْكِحْهَا [1].

النوع الرابع: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ نحن نلاحظ في هذه الآية بأنه وصف المحرمات من النسب بالصفة النسبية المباشرة فقال: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾، ولكن جل شأنه عندما تكلم عن المحرمات بالمصاهرة تكلم عن الصفة المباشرة وذكر صفةً وصفيةً، فذكر مثلًا في الربائب صفةً وصفية، وذلك لتحقيق أمرين:

بيان تحريم البنات، وفي الوقت ذاته للإشارة إلى أنه لابد من التربية، وكذلك كلمة ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾ فبدلا من أن يقول وأزواج أبنائكم قال ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾، والحلائل

(١) ابن كثير (٢/ ٢٥٠).

جمع «حليلة»، وهي امرأة الابن، وقيل: سميت امرأة الرجل «حليلته»، والآن لا بد من معرفة الظلال الجميلة لهذا الاستخدام القرآني؟ لماذا قال حلائل ولم يقل أزواج أو زوجات؟

الحَلِيلة فعيلة بمعنى حلت فَتَكُونُ بِمَعْنَى الفَاعِلِ: إما لأنهما يَحُلَّانِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فصارت حالة في الثوب أو في النفس لأن الله تعالى قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، فهما كالجسد الواحد محبة، وهما يحلان فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ نومًا وقربًا لِشِدَّةِ اتِّصَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالآخَرِ، وكُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حل في قلب الآخر لشديد الألفة والمحبة والتباذل.

وإما أن تكون كلمة {حليلة} بمعنى المفعول مِنَ الحِلِّ الَّذِي هُوَ الإِبَاحَةُ، فَالحَلِيلَةُ تَكُونُ بِمَعْنَى المُحَلَّةِ أَيِ المُحَلَّلَةِ، فقد حلت له، وحل بها كما يحل الإنسان في مكانٍ حلالٍ له.

والآية تدل على أن حليلة الابن لا يحل الزواج منها، وكذا حلائل الأبناء من الرضاع، وحلائل الأبناء من الأصلاب، سواء في التحريم.

وإنما قال: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾.. قَيَّدَ عز ذكره الأبناءَ بمن كان من الأصلاب؛ لأن معنى ذلك: وحلائل أبنائكم الذين ولدتموهم، دون حلائل أبنائكم الذين تبنيتموهم، فالتقييد ليس لإخراج الرضاع فهذه الصفة تأسيسية يفهم منها أن الأبناء الذين ليسوا من الأصلاب يجوز الزواج على زوجاتهم إن طلقن أو مات عنهن أزواجهن، والأبناء الذين ليسوا من الأصلاب هم الأَدْعِيَاء الَّذِينَ كَانُوا يَتَبَنَونهم فِي الجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ الآيَةَ (الأَحْزَابِ: ٣٧).

النوع الخامس: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٢٣):

فحرم الله الجمع بين الأختين، وقام التطبيق العملي من النبي ﷺ مقام البيان القاطع لهذا الفهم، فعن أُمَّ حَبيبة ا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ -وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: عَزَّةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ-قَالَ: «أَوْ تُحِبِّينَ ذَلِكَ؟ « قَالَتْ: نَعَمْ، لَسْتُ لَكَ بمُخْلِيَة، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي. قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحل لِي». قَالَتْ: فَإِنَّا نُحَدثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ. قَالَ: بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ؟ « قَالَتْ نَعَمْ. قَالَ: إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَة. فَلَا تَعْرِضْن عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «إِنِّي لَوْ لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي» [١].

فإن تَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا، ثُمَّ تَزَوَّجَ الأُخْرَى بَعْدَهَا، فَهَهُنَا يُحْكَمُ بِبُطْلَانِ نِكَاحِ الثَّانِيَةِ، لِأَنَّ الدَّفْعَ أَسْهَلُ مِنَ الرَّفْعِ، ولكن إن أسلم ومعه أختان تخير أحدهما، فعن فيروز الديلمي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ! إني أسلمت وتحتي أختان. فقال رسول الله ﷺ: «اختر أيتهما شئت» [٢].

وقد قال عَلِيٌّ ﷺ : إِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْكَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الحَرَائِرِ إِلَّا العَدَدَ -أَوْ قَالَ: إِلَّا الأَرْبَعَ-ويَحْرُم عَلَيْكَ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ النَّسَبِ [٣].

وقد ختمت الآية بقوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ والغفران معناه التغطية أي تغطية السيئات ويطلق على إزالتها توسعًا، والمغفرة لكم لما حدث

(١) البخاري (٧/ ١٢) برقم ٥١٠١.

(٢) سنن الترمذي (٣/ ٤٣٦).

(٣) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار (٥/ ٤٣٠).

منكم في الجاهلية فهو معفو عنه، وإذا كانت المغفرة تدل على تكفير السيئات أو إزالتها أو سترها، فإن الرحمة تدل على جلب الخيرات، أي إذا التزمتم بهذه القوانين ستنزل عليكم السكينة في مجتمعاتكم بالبناء الأسري، فالمغفرة والرحمة على أن تستقيموا بعد إذ دخلتم الإسلام، واجمع بين هذه الآية وآخر ما جاء في السورة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ فأراد الله -عزَّ شأنه- أن يقول قد غفر الله لكم جهلكم لكن هذا لا يعني ألا تتعلموا بعد أن جاءكم العلم وتسعوا إليه.

وبما سبق يظهر أن عدد المحرمات من النساء أربع عشرة امرأة قال عنهن ابن عباس ﷺ: حُرّم من النسب سبعٌ، ومن غير النسب سبع أيضًا من المصاهرة والنسب تبدأ بزوجات الآباء سبعٌ. ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ حتى بلغ: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، قال: والسابعة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (١).

وهنا ينبغي معرفة أن كُلّ امْرَأَةٍ حَرَّمَ اللَّه نِكَاحَهَا لِلنَّسَبِ وَالرَّحِمِ، فَتَحْرِيمُهَا مُؤَبَّدٌ لَا يَحِلُّ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وقد يكون التحريم من غير النسب مؤبدًا كزوجة الأب أو مؤقتًا كأخت الزوجة.

وقد ذكر المؤرخون أن الأُمّ ما كانت حَلَالًا لِابْنِهَا قَطُّ مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتِ الأُخْتُ التَّوْأَمَةُ حَرَامًا وَغَيْرُ التَّوْأَمَةِ حَلَالًا، ثُمَّ حَرَّمَ اللَّهُ الأَخَوَاتِ مُطْلَقًا مِنْ عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ حُرِّمَتْ بَنَاتُ الأَخِ، وَيُوجَدُ تَحْرِيمُهُنَّ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَقِيَ بَنَاتُ الأُخْتِ حَلَالًا فِي شَرِيعَةِ مُوسَى، وَثَبَتَ تَحْرِيمُهُنَّ عِنْدَ العَرَب.

وسبب الفصل بين المحرمات بالنسب والمحرمات بالمصاهرة: أن المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز التزوج بهن هن المحرمات في الجاهلية إلا نوعين هما:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٤٠).

زوجات الآباء والجمع بين الأختين، فكانت الأنظمة الجاهلية تسوغ الزواج بهن.

الصنف الرابع (النوع الخامس عشر): ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ **(النساء:٢٤):**

فهذه الجملة المباركة عُطِفت على ما قبلها. أي وحرمت عليكم المُحْصَنَاتُ من النساء كذلك بالإضافة إلى ما سبق، والمحصنات جمع «مُحْصَنة» مأخوذة من الحِصن، وهو الجدار الحامي المانع، أو المكان المحمي المنيع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ (الأَنْبِيَاءِ: ٨٠) {صنعة لبوس لكم} إما أدرعٌ لتحرزكم وتمنعكم وتحميكم في القتال في ساعة البأس وهي الحرب، وإما ثيابٌ قوية لأجل أن تحميكم من حالات الطقس المتعبة المتقلبة، كالبرد أو العواصف، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ (الحشر: ١٤) أي ممنعة بحصونها، والمحصنات معناها: المحميات الممنوعات، والإحصان **يطلق في القرآن على أربعة معانٍ**، وكلها تدل على المنع والحماية:

المعنى الأول: العفيفات، فإن العفة حامية من الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ (النور: ٤)، وحَصُنت هي فهي تَحْصُن حَصَانة وهي حصانٌ حاصنٌ إذا عفَّت، ومثلها العفيفة إذا حفِظت فرجها من الفجور كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحريم: ١٢) وصفها الله سبحانه وتعالى هذا الوصف الذي يكاد أن يبلغ السماء من جماله، وهو أنها أحصنت فرجها أي منعت نفسها، وفي هذا إشارة لمتطرفي اليهود الذين افتروا على مريم بهتانًا عظيمًا، والعجيب هذا الوصف بحد ذاته يكفي النصارى أن يفكروا بمقدار ما نعظم به رموزهم فلماذا يصر متعصبوهم على مقابلة ذلك بالإساءة والتعصب؟ كما قال حسان:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

المعنى الثاني: المسلمات. فإنها أحصنت نفسها بالإسلام، وصار لها ذمة مزيدة، ولذلك لم تدخل النساء اللواتي أسلمن في الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش؛ لأن النساء يحتجن إلى مزيد اعتناء فهن محصنات محميات بالإسلام.

المعنى الثالث: الحرائر ويقابلهن المملوكات، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥).

المعنى الرابع: المزوجات؛ لأن الزوجية أحصنتها سواء كان ذلك في المسائل المعيشية أو أحصنوهن من الآخرين الذين يطلبون الاعتداء، أو في أمور السكن، فالزوج يتحمل مسؤولية امرأته، فهو الحامي لها، يقال «أَحْصَن الرجلُ امرأته فهو يُحْصنها إحصانًا» فكأن الزواج حصنٌ لهما من سوء الأفعال.

وَعَنْ ثَعْلَبٍ أَنَّ المَرْأَةَ العَفِيفَةَ يُقَالُ لَهَا: مُحْصَنَةٌ بِفَتْحِ الصَّادِ، وَمُحْصِنَةٌ بِكَسْرِهَا، وَأَمَّا المَرْأَةُ المُتَزَوِّجَةُ فَيُقَالُ لَهَا: مُحْصَنَةٌ بِالفَتْحِ لَا غَيْرَ.

والمعنى المقصود في الآية من المعاني الأربعة: المُزَوَّجَاتُ، ولذلك جاءت على صيغة المفعولية، بالفتح وليس بالكسر على صيغة الفاعلية، وهنا اجتمع القراء على قراءتها بصيغة المفعولية؛ لأن أزاوجهن قد أحصنوهن، فالمرأة المتزوجة لا يحل الزواج عليها، فأبطل هنا مبدأ تعدد الأزواج، وقد شاع هذا في الجاهلية الأولى، ثم إن بعض الذين يتبعون الشهوات يحاول تقنينه بصورةٍ حيوانية مدهشة في الجاهلية الأخرى، وقد ذكرت العالمة الموفقة عائشة رضي الله عنها أنواع أنكحة الجاهلية، فأَخْبَرَتْ عروة بن الزبير أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ، أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا ، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى

فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِيَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ رَابِعٍ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ البَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْم [1].

فألقِ عصا الغفلة، وتدبر في قول الله جل شأنه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فلماذا قال: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مع أن لفظة محصنات كافٍ في الدلالة على أن المراد النساء؟

لأن لَفْظَ المُحْصَنَاتِ قَدْ يُرَادُ بِهِ العَفِيفَاتُ، أَوِ المُسْلِمَاتُ، فَلَوْ لَمْ يَقُلْ هُنَا: مِنَ النِّسَاءِ، لَتَوَهَّمَ أَنَّ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ إِنَّمَا يَحْرُمُ نِكَاحُهُنَّ إِذَا كُنَّ مُسْلِمَاتٍ، فَأَفَادَ هَذَا القَيْدُ العُمُومَ وَالإِطْلَاقَ، أَيْ المحصنات من النساء مسلمات أو كافرات، فعَقْد الزَّوْجِيَّةِ مُحْتَرَمٌ مُطْلَقًا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ المُؤْمِنَاتِ وَالكَافِرَاتِ، فَيَحْرُمُ تَزَوُّجُ أَيَّةِ امْرَأَةٍ فِي عِصْمَةِ رَجُلٍ وَحِصْنِهِ، ولو قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ لتوهم أن المحصنات ما أجتمع فيه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ١٩).

أن تكون متزوجة وأن تكون مسلمة، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أن المحصنة هي المتزوجة، فزوجة الكتابي مثلًا تحرم على المسلم؛ لأنها زوجة كتابي، هذا ما ذكره بعض المفسرين، وبدا لي من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أن هذا القيد ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ له دلالة أخرى إذ نص على النساء ليظهر لنا أن {من} بيانية. لماذا؟ لأنك يمكن أن تقول: المحصنات وتعني الأنفس المحصنات فيدخل فيها الرجل، أي عندما يحصن نفسه بدليل قوله تعالى ﴿مُحْصِنِينَ﴾، فلا يدخل فيها الأنفس من الرجال؛ لأنه لا مدخل لهم في المعنى هنا.

فكلمة المحصنات لأجل هذين الأمرين.



القسم الرابع

من حقوق البناء الأسري: معرفة من يجوز الزواج بهن (النساء:٢٤-٢٥)

آيات هذا القسم:

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النساء:٢٤-٢٥).

المناسبة والاتصال:

بعد أن بنى الله الأسرة المركزية فذكر في القسم السابق حقوق الزوجة في المعاشرة والذمة المالية، وحصر المحرمات من النساء ليكن جزءًا من الأسرة المتوسطة التي تتكون من ذوي القربى، يبين في هذا القسم من يحل الزواج بهن، وذلك وفق القوانين الآتية:

القانون الأول: يجوز نكاح أسيرات الحروب لتكريمهن وصيناتهن من الضياع والسجن

ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله عز وجل عنهن: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فبدلًا من أسرهن وسجنهن يتم تكريمهن باتخاذهن في مرتبةٍ تقترب من الزوجية جمعًا بين تكريمهن وإعادة تأهيلهن والضرورة الأمنية:

فاستثنى من المتزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يَعْنِي: إِلَّا مَا مَلَكْتُمُوهُنَّ بسبب أنهن تحولن إلى ضحايا نظرًا للحروب التي سعرها أزواجهن، ثم لما وضعت الحرب أوزارها بقيت هؤلاء النساء خلف أزواجهن، فبدلًا من التعامل العسكري معهن يتم تكريمهن بجواز نكاحهن، فعن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يقول: كل امرأة لها زوجٌ فهي عليك حرام، إلا أمةٌ ملكتها ولها زوجٌ بأرض الحربِ، فهي لك حلال إذا استبرأتَها [1]، والصحابة ﷺ بعقلية الرحمة ونفسية السلام كفوا عن النساء اللواتي يخلفن في الحروب، وشعروا بالحرج من التعامل معهن، فأحل الله نكاحهن بعد استبراء الرحم، وذلك للتأكد من خلوه من ولد رجل آخر، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ؛ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَصَابُوا سَبَايَا يَوْمَ أَوَطَاسَ، لَهُنَّ أَزْوَاجٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، فَكَأَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَفُّوا وَتَأَثَّمُوا مِنْ غَشَيَانِهِنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [2].

وهنا يأتي السؤال الذي يلح عليك: ما الحكمة التشريعية من وجود فكرة ملك اليمين في ذلك الوقت؟

اسمع للحكمة التكريمية المدهشة وراء استبقاء هذا النظام ضمن شروط إسلامية صارمة:

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٥٢).

(٢) صحيح مسلم (٤ / ١٧٠) برقم ٣٦٨١.

هذا النظام مثل أعظم أوجه التكريم الكامل للنساء في الحروب، حيث تتم صيانتهن من التعامل العسكري الذي قد يفضي بهن إلى السجن، كما يحافظ عليهن من أن يتحولن إلى متسولات بين المعسكرين، ففعلت بهن الشريعة الأصلح معهن والأرفق بهن، فبدلًا من أسرهن وسجنهن يتم تكريمهن باتخاذهن في مرتبةٍ زوجية تتعدى مرحلة (الجيرل فرند) وتقترب من الزوجية الكاملة؛ وتتوافق مع حفظ الأسرار العسكرية في الحروب؛ إذ الغالب في الحروب أن يقتل أزواج السبايا، أو أن يفروا فتبقى المرأة في أرض المعركة، وهنا يجب على المسلمين أن تكفل، ويحرم عليهم أسرها أو وضعها في السجن، جمعًا بين تكريمهن وإعادة تأهيلهن والضرورة الأمنية، وأكرم أنواع الكفالة أن تكون بمنزلة الزوجة التي في البيت، ولكن الزوجة تبقى لها مكانتها، ولا يمكن أن نكلف الزوج فوق طاقته بأن يعامل هذه المسبية معاملة الزوجة بصورة كاملة، فيكون في ذلك حيفًا على الزوج، بل وربما تسبب ذلك في أن تقوم النساء بتحريض أزواجهن على ترك القيام بالتبعات الأمنية والعسكرية التي يحتاج لها المجتمع، كما أنه يشق على المسبية وعلى الأسرة أن تصبح مجرد موظفة تعمل خادمة في البيت، فكان ملك اليمين وفق الآداب الإسلامية أشرف أنواع التعامل مع أسرى النساء حيث تتوفر الكفالة التامة لهن، وتتم حمايتهن من الفسوق في الوقت ذاته، وتدمج ضمن الوضع العام في المجتمع، ولا تكره على ترك دينها، فسل دول العالم المتحضر كيف جعلن النساء سلعة للتلاعب المهين في العالم، وقارن ذلك بحال الجواري في العصر الإسلامي.

وقد تعترض بأنه كان يمكن منع هذا المبدأ (ملك اليمين) حينها.. ففكر وقدر، وانظر آلام الحرب وأوزارها التي كانت حينها لترى أن إبقاء هذا المبدأ مع الحث الشديد على العتق كان لحماية النساء من الضياع من جهة، ولحماية المجتمع من الإجرام الشنيع الذي يرتكبه أعداؤه إن لم يلوحوا بالمعاملة بالمثل، فقد قال الله

تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤) فلو منع المسلمون من سبي أعدائهم لاجترأوا على المسلمين. فكر بقريش وكيف كان مكرها بالمسلمين حينها مثلًا.. فإذا كان الإسلام قد منع المسلمين من التعامل بالمثل في موضوع التمثيل بالأعداء، أو قتل من لا يقاتل، فإنه قد أباح بالتعامل على المثل في أمور مثل هذه، ومبدأ المعاملة بالمثل في هذا الموضوع ضرورة حربية، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ:

حِذَارًا عَلَى أَنْ لَا تُنَالَ مَقَادَتِي وَلَا نِسْوَتِي حَتَّى يَمُتْنَ حَرَائِرَا[1]

وملك اليمين كان موجودًا في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت؛ كما أن القوانين العالمية حينها كانت تشرعه، إلا أن القرآن المجيد جعل حقوق النساء هنا أكرم وأبعد في التكريم مما كان في الكتاب المقدس في عهده القديم، حيث تعددت نصوص ملك اليمين، فمنها:

في سفر الخروج ٢٠: ١٧: لا تَشْتَه بيت قريبك. لا تَشْتَه امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك.

وفي سفر التثنية الإصحاح ٢٠: (١٠) حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح (١١) فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك (١٢) وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها (١٣) وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (١٤) وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.

وفي سفر التثنية٢١ ١٠: إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك

(١) تهذيب اللغة (٩/ ١٩٣) أعطيتُ فلَانا مَقادَتي، أَي: انقدْتُ لَهُ.

إلى يدك وسبيت منهم سبيًا (١١) ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة (١٢) فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها (١٣) وتنزع ثياب سبيها عنها وتقعد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهرًا من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة (١٤) وإن لم تسرّ بها فأطلقها لنفسها. لا تبعها بيعا بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذللتها.

ولسنا نذكر ملك اليمين؛ لأن القوانين العالمية كانت هي الأصل، وليس لأن ذلك ذُكر في العهد القديم إنما أردنا أن نعطي خلفية عن ذلك عن الواقع العالمي في ذلك، فكانت القوانين العالمية تشرع ذلك بينما ترى الإسلام ارتقى بالإنسانية ارتقاء رائعًا، وارتفع بهم ليتساموا على غيظ الحروب، فَكَرَّم المرأة لئلا تصبح أسيرة، ومنع أن تصبح مرمية في السجن، كما حافظ على ضرورات الأمن العسكري، فقد تكون هذه المرأة جاسوسة، وحرس الأسرة من أن تتفكك بمجيء زوجة أخرى.. فكيف جمع بين هذه المصالح الثلاث؟

جعل أسيرة الحرب جزءًا من بيت من بيوت المسلمين تأوي إليها بما أنها قد فقدت أهلها وزوجها ويكون لها حقوق زوجية قريبة من حقوق الزوجية الكاملة.

وبذا يتضح أن التعامل مع ضحايا الحروب من النساء لا يخلو من ثلاثة أمور:

إما ترك المرأة لتضيع بعد ذهاب من يقوم عليها ويرعاها، وربما تحولت إلى التسول والأعمال السيئة طلبًا للمعيشة، وإما سجنها فتذهب كرامتها، وإما جعلها بمنزلة الزوجة، فربما ثقل هذا على الزوج والزوجة الأولى، فكانت هذه المرتبة وفق الآداب الإسلامية الصارمة أفضل المراتب تكريمًا لهن، وهنا يتم حمايتها من المجتمع كما يتم حماية المجتمع منها إذا كانت ممن يثير الفسق أو يعمل في التجسس، فعندما تكون في مرتبة قريبة من مرتبة الزوجية الكاملة تتعود على التطبيع

الثقافي والاقتصادي كما تتأهل إلى نيل مرتبة الزوجية أو التفكير في اختيارٍ آخر تريده.

القانون الثاني: الله الذي له الخلق له الأمر، فلنثق في المصدرية الإلهية لتشريعاته المنظمة للحياة، فهي أساس الخبرات الإنسانية النافعة، والعلاقات البشرية السليمة

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ (النساء:٢٤) أي الزموا كتاب الله عليكم، فقد كتب ذلك عليكم كتابًا مفروضًا موثقًا لا ينبغي لكم تركه:

فهذه الجملة المباركة النافعة ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ (النساء: ٢٤) يظهر من عطائها وسخاء معانيها أصلان عظيمان تنطلق منهما التشريعات الإسلامية المنظمة للحياة:

أحدهما: المصدرية الإلهية لهذه التشريعات المنظمة للحياة، فكأنه يقول: اعلموا أن هذا التنظيم الدقيق لم يأت عن طريق الخبرات الإنسانية المجردة، بل كان بعلم العليم الخبير وليس العبث البشري والتجارب الخاضعة للأمزجة والأهواء والشهوات، وهذا الأصل يدل على مدى الجرم الذي يقترفه المشرِّعون الشاردون عن ربهم عندما يناقضون هذه التشريعات، والله سبحانه وتعالى يقول في سورة الشورى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١)، أي لا تجهدوا أنفسكم بخبرات إنسانية وبشرية من أجل الروابط الاجتماعية والنكاح والطلاق؛ لأني قد شرعت لكم هذا تفصيلًا، أي فلا تتعبوا أنفسكم والزموا ما كتبته عليكم، أي الزموا كتاب الله عليكم.

الثاني: الحصانة الشرعية الإلهية للتشريعات الإسلامية المنظمة للأسرة، فقد بَيَّن الله تعالى ذكره أن التشريعات المنظمة للأسرة تعبديةٌ محضةٌ لعلم الله تعالى بما يصلح لكم وما لا يصلح، فقال الله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ (النساء: ٢٤) أي كتب الله ذلك عليكم كتابًا مفروضًا موثقًا لا ينبغي لكم تركه أو التنازل عنه، أو المساومة حوله، وحصنوا هذه التشريعات من أن ينالها العبث، أي التزموا كتاب

الله، أو كتب الله عليكم كتابه فالتزموا بما فيه ولا تحاولوا أن تدخلوا اجتهاداتكم، فمثلًا الإرث أنا قد فصَّلته لكم، فلا يأتي أحد يقول للرجل كذا وللمرأة كذا، كذلك محرمات النكاح قد فصلتها لكم، فلا تحاولوا أن تدخلوا كأن تقولوا من أجل صالح الرجل أو من أجل صالح المرأة سنحرم هذا وسنحلل هذا، لا تفعلوا هذا لأن الأمر كما قال النبي ﷺ: «رفعت الأقلام، وجفت الصحف» [1].

وهذا التأكيد لالتزام الشرع في هذه المسائل الأسرية -مع أن كل فرائض الله المكتوبة ينبغي عدم تركها- يدل على مزية هذه التعاليم في مجال العلاقات الأسرية ووجوب التمسك بهذه الفرائض مهما كانت الظروف؛ إذ هي الحصن الأخير لإبقاء الأساس الإسلامي عصيًا على التذويب أمام هجمة التغييرات الجاهلية التي يؤزها الشيطان أزًّا. هنا تعلم لماذا أورد الله فيها هذه التفاصيل العديدة التي لم يوردها في غيرها من الفرائض، ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى الهجمة الهمجية التي سينفذها أولياء الشيطان ضد هذا النظام الاجتماعي المبهر، فهاهم يحشدون كل المؤسسات الدولية للعمل على تمزيق النسق الاجتماعي الذي جاء به الأنبياء، ويحاولون تدمير نظام الأسرة، وقد بدأت الهجمة المعاصرة على النظم التشريعية الراسخة في مجال الأسرة منذ الهجمة الهائلة على الحجاب سنة ١٨٩٩م التي شهدت تأليف كتاب: (تحرير المرأة) لاستدراج المرأة للبدايات الأولى لتغيير النمط الحيوي لحياتها، ثم جاءت الخطوة الأسوأ بتأليف كتاب: (المرأة الجديدة) وكلاهما لقاسم أمين، وفي عام ١٩١٩م بدأ مشروع نزع الحجاب كلية من خلال برامج هدى شعراوي وأوليائها، ولما تمكن الذين يتبعون الشهوات والسماعون لهم من نزع الحجاب من كثيرٍ من المجتمعات الإسلامية انتقلوا خطوة أكبر لتدمير الأسرة نفسها، وكانت نواة ذلك في

(١) سنن الترمذي (٤ / ٦٦٧) برقم ٢٥١٦.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تم إرساؤه عام ١٩٤٨م الذي يمثل مرجعية «أيدلوجية المرأة الجديدة» حيث جعلت قضية المرأة قضية عالمية تقوم بهندستها المؤسسة الدولية التي أدارت إلى الآن كل أطماع الدول الكبرى للتلاعب بالأمم المستضعفة.

فهذه الجملة المباركة﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ تأتي في موضعها الرائع لتحذرنا من المؤتمرات التي يحاول أتباع الشهوات أن يثيروها من أجل التدخل في هذه القضايا المحسومة، وذلك مثل ما وقع في عام ١٩٧٥م حيث عقدت الأمم المتحدة مؤتمرًا في المكسيك يدعو ليس إلى إنصاف النساء اللاتي يتم التلاعب بهن في وسائل الإعلام، ولا إلى كفالة النساء اللاتي يبعن أعراضهن مقابل الحياة المعيشية ثم يمتن في الطرقات بعد انتهاء الصلاحية الجسدية، ولا إلى وضع الحلول المناسبة للموظفات ليجمعن بين واجب الأمومة والزوجية ومتطلب الوظيفة، بل يدعو إلى حرية الإجهاض للمرأة، والحرية الجنسية للمراهقين والأطفال، وضبط عدد السكان في العالم الثالث، وتوالت المؤتمرات المشبوهة لتأكيد القضية ذاتها مثل مؤتمر في «نيروبي» عام ١٩٨٥م بعنوان: «استراتيجيات التطلع إلى الأمام من أجل تقدم المرأة» ثم كان مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية الذي عُقد في سبتمبر ١٩٩٤م، ثم مؤتمر المرأة في بكين الذي عُقد عام ١٩٩٥م تحت عنوان: «المساواة والتنمية والسلم»، وأعد المؤتمر وثيقته الخاصة التي مثلت العقيدة الجديدة (أيديولجيا) للمرأة المعاصرة في (١٧٧) صفحة و(٣٦٢) مادة حيث وضعت مطالبات تؤدي إلى (تغيير خلق الله) ولو تم تكييفها بموضوعية فإن من وضعها يدعو إلى إبادة الجنس الإنساني شعر أو لم يشعر حيث:

۞ دعت الوثيقة إلى الحرية الجنسية الآمنة للفتاة مع من تشاء وفي أي سن

تشاء، وفي الوقت ذاته إلى منع الزواج قبل سن ثمانية عشر، مع ضرورة توفير الثقافة الجنسية قبل ذلك.

۞ كفلت حق الإنسان في تغيير هويته الجنسية من ذكر إلى أنثى ومن أنثى إلى ذكر أو أن يختار أن يكون بينهما، ولذا ذكرت الوثيقة حق الاعتراف بالشواذ.

۞ تطالب الوثيقة الحكومات بالاهتمام بتلبية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين ليتمكنوا من معالجة الجانب الجنسي في حياتهم معالجة إيجابية ومسؤولة، وتطالب بحق المراهقات الحوامل في مواصلة التعليم دون إدانة لهذا الحمل السِّفَاح.

۞ اختارت الوثيقة بدلًا من «الزوج» كلمة أوسع وأعم Partner أي الزميل أو الشريك، وأظهرت مصطلحًا جديدًا هو عملية (الاغتصاب الزوجي).

۞ أما الوالدان فهما مجرد راعيين للطموحات المحرمة لأولادهما إلى أن تنتهي فترة الصلاحية بالنسبة لهما أيضًا.

۞ وطالبت الوثيقة بخفض الإنفاق العسكري لا لصالح التعليم بل لصالح برامج العقيدة النسوية الجديدة المدمرة للواقع الأسري بمساعدة أسوأ وزيرين من وزراء السوء الاقتصادي العالمي وهما مؤسستا: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

فهذه الجملة ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ تتمة لآياتٍ سابقة، وهناك آيات في القرآن تأتي في أثناء التوجيهات، نستطيع أن نسميها الآيات الحاكمة المعظمة.. إنها الآيات التي تذكرك بأن تشهد الإعجاز القرآني في حماية الإنسانية من هذه التجارب الخاطئة المدمرة حيث أنزل الله مجموعةً من الآيات المحددة للمقاصد الحيوية في التشريع الإسلامي في هذه السورة، وهي تقدمه للعالَم:

فمثلًا: ذكر الله الإرث وتوزيع الأنصبة فيه في الآيات السابقة ثم انظر: ماذا قال؟

لقد قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٣، ١٤)، والحدود التشريعية مثل الحدود التي تكون بين البلدان، أو تكون بين الأراضي وتكون بين الجيران يجب أن لا يتعداها الإنسان.

ومن هذه الآيات التي تذكرك بعظمة التشريع الإلهي قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ (النساء: ٢٤)، وقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦)

ومنها في آخر السورة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

هذه الآيات الحاكمة المعظمة تجعلنا نقبل على تطبيق ما شرعه الله لنا، ونحن في غاية الاطمئنان أنه سيؤدي إلى غاية السعادة البشرية، وبعض الناس يختلط عليهم الأمر، فيقولون:

لماذا تطبقون هذه التشريعات؟ ألأنكم تعبدون الله؟ ثم يتمادون فيقولون: العبادة عبارة عن غل وقيد ونحن نريد الحرية للإنسان هكذا يزعمون، فنخبرهم بأن العبادة أعظم أنواع الحرية؛ لأنها استجابة للخالق الذي يعلم كل شيء مما ينفعنا ويصلحنا، استجابة للتنظيمات التي وضعها الله سبحانه وتعالى.

فهذا التنظيم الإلهي الدقيق للعلاقات البشرية، يؤدي إلى تقوية الأواصر الأسرية، وحمايتها من الفساد وعوامل تدمير الأسر؛ ولئلا يتحرج المرء من الدخول على

محارمه من النسب والصهر، والتعامل بما يليق بكل واحدة منهن، وفي ذلك أبلغ الرد على عبث التجارب البشرية في مجال العلاقات الأسرية والزوجية مما يروج له أتباع الشهوات المحرمة.

القانون الثالث: من أهم مقاصد حصر المحرمات من النساء.

وقد تتساءل: لماذا ذكر الله المحرمات من النساء في النكاح؟ ما مقاصد ذلك؟ لماذا جاء ذلك وبهذا التفصيل الذي لم يوجد حتى للصلوات الخمس؟! ألا ترى أن الصلوات الخمس لم توجد تسميتهن صراحة في القرآن، بل ورد بيانهن عبر النبي ﷺ أما المحرمات من النساء في النكاح فقد فصلهن تفصيلا. فهذا الذكر التفصيلي للمحرمات من النساء في النكاح يشعرنا بعظمة الإعجاز القرآني وجمال التشريع القرآني؛ إذ لو بقيت البشرية آلاف السنين تبحث عن مثل هذه الدقة في التشريع في غير تشريعات الله فلن تجدها، فتعال لنتعرف إلى بعض مقاصد ذلك:

المقصد الأول: تنظيم المجتمع البشري تنظيمًا صادرًا من الله جل في علاه فهو من يطلع على حكمته بدقة، ويعلم أسراره بشمول:

فهو الذي خلق المجتمع وهو الذي يعلم ما ينفعه، وهذا المجتمع في فترة من الفترات البشرية، كتنظيم المجتمع في عهد آدم عليه السلام يختلف عما تلته من العصور التي بعده؛ لأننا نرجع إلى أب واحد وأم واحدة، فبعد أن انتشر البشر، شرع الله بأن تنكح أصناف مخصوصة من النساء وحرم نكاح أصناف مخصوصة أخرى، كل ذلك؛ لأن له الخلق والأمر، ولله الحكمة البالغة التي لا نطلع على تفاصيل كثيرٍ من أسرارها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقد نظم الله المجتمع هذا التنظيم الدقيق الذي يسعد به المجتمع، وتحريم نكاح هذه، وإباحة تلك مسألةٌ يعلمها من خلق الزوجين الذكر والأنثى. والمؤمن يذعن بمحبة واهتمام

لذلك ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، فلماذا أباح الله الزواج من ابنة العم وحرم الزواج من العمة؟ إنه الله الذي له الخلق وله الأمر، فلا نلجأ إلى تنظيم غير تنظيمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ (الليل: ١ - ٣)، فهو خلق الذكر والأنثى وهو يعلم ما يصلح الذكر والأنثى، فالأسس المقاصدية لتحريم نكاح هذه، وإباحة تلك مسألة يعلمها من خلق الزوجين الذكر والأنثى.

المقصد الثاني: المحافظة على الجنس البشري، وتكاثره ونموه، والعمل على سلامته، والجمع بين الاستمتاع بوجود أنس الزواج، وعبير الاجتماع الأسري:

حيث يتم تكوين الأسرة التي يقوم عليها عبء النسل، ورعايته، وهي أساس المجتمع، ومصدر نموه، وهذا المقصد يعني التقوية والانتشار؛ أي تقوية الصلات الإنسانية القريبة (الأسرة والأرحام) والإسهام في البث الإنساني، فهذا التنظيم يكفل لنا حماية المجتمع من الاختلال والانحلال في العلاقات الاجتماعية، حيث يقوم أعضاء الأسر بالحقوق اللازمة لتقوية أسرهم كلٌ على حسب مدى قربه من الإنسان مثل القيام على محرمات النكاح صيانة وحماية وتوقيرًا، فلا ينظر الفرد إليهن نظرة شهوة؛ لأنه قد استقر في قلبه أنهن لا يُنكحن، بينما ينظر إلى الأخريات نظر عارفٍ أنهن يمكن أن تتخذ الواحدة منهن زوجة.

فهناك حكم خاصة واضحة ورائعة تؤدي إلى تقوية الأواصر الأسرية، وتبين عظمة التنظيم الأسري، وذلك لأن المحرمات إما للقرابة النسبية أو للقرابة من الرضاع أو القرابة من الصهر، وإجازة الزواج من واحدة منهن تؤدي إلى الإفساد بين الأسر، وتدمير علاقات المحبة العاطفية التي يفترض تبادلها بين هذه الأطراف، ومن أعظم

المقاصد الشرعية الكلية حفظ العرض وحفظ النسل، وذلك من أعظم مَظَاهِرِ الرُّقِيِّ البَشَرِيِّ، والوجود الحضاري، ولتمام الحفاظ على هذين المقصدين الكليين شرع الله الزواج، ولكن للزواج غرض آخر هو اللهو والمتعة، والزواج يتردد بين هذين المقصدين: حفظ العرض والنسل، واللهو والتلذذ والتمتع العابث الذي تصان منه الأم والمحرمات من النساء لتبقى الهيبة والتعظيم، فحرمت الأمهات، وسرى وَقَارُ الآبَاءِ إِلَى أَخَوَاتِ الآبَاءِ، وَهُنَّ العَمَّاتُ، وَوَقَارُ الأُمَّهَاتِ إِلَى أَخَوَاتِهِنَّ وَهُنَّ الخَالَاتُ، وحميت البنت عن الزواج بها صيانة للعرض ومثل ذلك زوجة الابن، فـ«لَوْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى المَرْأَةِ أَبُو الرَّجُلِ وَابْنُهُ، وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَى الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ وَابْنَتُهَا، لَبَقِيَتِ المَرْأَةُ كَالمَحْبُوسَةِ. وَلَتَعَطَّلَ عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ أَكْثَرُ المَصَالِحِ، وَلَوْ كَانَ الإِذْنُ فِي دُخُولِ هَؤُلَاءِ دُونَ حُكْمِ المَحْرَمِيَّةِ فَقَدْ تَمْتَدُّ عَيْنُ البَعْضِ إِلَى البَعْضِ وَتَشْتَدُّ الرَّغْبَةُ فَتَحْصُلُ النُّفْرَةُ الشَّدِيدَةُ بَيْنَهُنَّ، وَالإِيذَاءُ مِنَ الأَقَارِبِ أَشَدُّ إِيلَامًا، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ التَّطْلِيقُ، أَمَّا إِذَا حَصَلَتِ المَحْرَمِيَّةُ انْقَطَعَتِ الأَطْمَاعُ، وَانْحَبَسَتِ الشَّهْوَةُ، فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ الضَّرَرُ، فَيَبْقَى النِّكَاحُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ سَلِيمًا عَنْ هَذِهِ المَفْسَدَةِ» كما يقول الفخر الرازي[1].

المقصد الثالث: ضبط المحرمات ضبطًا واضحًا منضبطًا يعرفه القريب والبعيد والعالم والجاهل.

فيتم حصر هؤلاء المحرمات ليبقى من عداهن داخلًا ضمن دائرة التحليل، ومن ثم يلغي الإسلام كل أنواع القيود الأخرى كالقيود التي تمليها العنصرية المقيتة، كالعنصرية اللونية أو الترابية أو النسبية أو القومية المتعصبة، ولذا قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢٤).

المقصد الرابع: الجمع بين الإجمال والتفصيل: حيث يتم إدخال الحكم

(١) تفسير الرازي (١٠/ ٢٠).

التفصيلية الواضحة الرائعة التي تؤدي إلى تقوية الأواصر الأسرية، وتبين عظمة التنظيم الأسري، وذلك لأن المحرمات إما أن يكن كذلك للقرابة النسبية وإما أن يكن كذلك للقرابة من الرضاع أو للقرابة من الصهر، وإجازة الزواج من واحدة منهن تؤدي إلى الإفساد بين الأسر، وتدمير علاقات المحبة العاطفية التي يفترض تبادلها بين هذه الأطراف.

فهذه آياتٌ محكماتٌ واضحات في التقنين والتقعيد الدستوري الذي يحفظ المجتمع، وهنا تتذكر ملك الروم هرقل تزوج مرتين، الأولى من فابيا إيدوكيا، وبعد وفاتها تزوج من ابنة أخته مارتنيا. وأنجب منها تسعة أطفال توفي اثنان منهما في الصغر، في حين كان فابيوس فلافيوس مصابًا بالشلل في الرقبة، وثيودوسيوس كان أصمَّ أبكمَ، وقد فُسِّرَ ذلك بأنه عقابٌ أو لعنة إلهية لكون زواج هرقل من ابنة أخته غير مشروع.

والعجيب أنه كان من قسس أهل الكتاب، فهو لم يكن ملكًا فقط، وإنما كان من قسسهم، وعندما أرادوا منعه وأنكر عليه أهل الكنيسة تحداهم أن يخرجوا نصًا يحرم الزواج منها، فكل مسألة فقهية مال إليها أحدهم في ذكر شروط أخرى في المتزوج بها ينبغي محاكمتها إلى هذه الآية المحكمة.

وكل مسألة حيوية اجتماعية مال إليها أحدهم في ذكر شروط أخرى في المتزوج بها ينبغي محاكمتها إلى هذه الآيات المحكمة.. يا لله، كم تذيب هذه التشريعات الرائعة في الآية النتنَ المنبعث من عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء مما قال عنه سيد الأنبياء ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣)» [١].

والعُبِّية هي الفخر والتعاظم بالآباء، ولذا زوج النبي ﷺ زينب بنت جحش الهاشمية بزيد بن حارثة رضي الله عنه، والمقصود من هذا أن الرسول ربط بين تدمير الأغلال العنصرية الفخر العنصري المقيت التعاظم الجاهلي، ربط الرسول ﷺ بين هذا التدمير الذي يفتت المجتمعات وبين خلق الإنسان من آدم من تراب وهذا الذي بدأت به هذه السورة المباركة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ (النساء: ١).

والتحريم الوارد في هذه الآيات كان ثابتًا قبل الإسلام لكل تلك الأنواع فيما عدا حالتين اثنتين: ما نكح الآباء من النساء، والجمع بين الأختين، فقد كانتا جائزتين- على كراهة من المجتمع الجاهلي.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما يَحْرُم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين. قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾ ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ [٢].

القانون الرابع: يحل الزواج من كل امرأة خارج نطاق المحرمات الخمس عشرة، أو الملحق بهن، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ﴾ (النساء:٢٤).

فهذا القانون يرينا كيف جعل الله الحلال أوسع بكثير من الحرام؛ إذ يعنى أن جميع من لم يذكر ضمن المحرمات الخمس عشرة يجوز الزواج منهن بغض النظر عن النسب واللون، ولكن الشريعة تُرَغِّب في الصالحات والقانتات كما سيأتي.

---

(١) الترمذي (٥ / ٣٨٩) برقم ٣٢٧٠، وقال: غريب، وصححه الألباني.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٣٣).

وكلمة ﴿وَأُحِلَّ﴾ فيها قراءتان تصوران مشهدين[١]:

المشهد الأول: تصوره قراءة الفتح ﴿وأَحَلَّ﴾ وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة أي أن الله هو الذي أحل لكم ما وراء الذي ذكرته لكم من الأصناف الخمسة عشر، والقراءة توضح أن الله جل شأنه هو المشرع للحلال والحرام في العلاقات الاجتماعية.

المشهد الثاني: ﴿وَأُحِلَّ﴾ بِضَمِّ الهَمْزَةِ وَكَسْرِ الحَاءِ على البناء لما لم يسم فاعله، وقرأ بها أَبُو جَعْفَرٍ وَحَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَحَفْصٌ، وذلك ليدخل في التشريع تشريع النبي ﷺ فيكون له الحكم المماثل لحكم الله سبحانه وتعالى، ولذا رأيت هذا التعميم المستفاد من الآية مخصوصًا بسبعة أصناف:

الصنف الأول: الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها لثلاث جهات:

الجهة الأولى: ورود النص النبوي الذي هو مبينٌ للقرآن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ يُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلاَ بَيْنَ المَرْأَةِ وَخَالَتِهَا**»[٢].

الجهة الثانية: أن قوله تعالى: {﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ (النساء: ٢٣) يقتضيه؛ لأن هذا يؤدي إلى الاضرار بالنواحي الأسرية التي بين الأخت والأخت، إذا فهي علة قد تتعدى فنقول وكذلك إذا جمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أدى هذا إلى الافساد في العلاقة النسبية التي بين المرأة وعمتها أو خالتها؛ إذ ثبت فِي أُصُولِ الفِقْهِ أَنَّ ذِكْرَ الحُكْمِ مَعَ الوَصْفِ المُنَاسِبِ له، يدل بحسب اللفظ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ الحُكْمِ مُعَلَّلًا بِذَلِكَ الوَصْفِ، وحرمة الجمع بين الأختين سببه أن القَرَابَة القَرِيبَة مَانِعَةٌ مِنَ الجَمْعِ فِي النِّكَاحِ، وَهَذَا المَعْنَى حَاصِلٌ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا، لِأَنَّ العَمَّةَ

(١) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه (ص: ١٢٢).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧/ ١٥) برقم ٥١٠٩.

وَالخَالَةَ يُشْبِهَانِ الأُمَّ لِبِنْتِ الأَخِ وَلِبِنْتِ الأُخْتِ، وَهُمَا يُشْبِهَانِ الوَلَدَ لِلْعَمَّةِ وَالخَالَةِ.

الجهة الثالثة: أَنَّهُ نَصَّ عَلَى حُرْمَةِ التَّزَوُّجِ بِأُمَّهَاتِ النِّسَاءِ فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ (النساء: ٢٣)، وَلَفْظُ الأُمِّ قَدْ يَنْطَلِقُ عَلَى العَمَّةِ وَالخَالَةِ من باب الاحترام، أَمَّا عَلَى العَمَّةِ فَلِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ مُخْبِرًا عَنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ (البقرة: ١٣٣) فَأَطْلَقَ لَفْظَ الأَبِ عَلَى إِسْمَاعِيلَ مَعَ أَنَّهُ كَانَ عَمًّا، وكذلك الأم، وَأَمَّا إِطْلَاقُ لَفْظِ الأُمِّ عَلَى الخَالَةِ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (يوسف: ١٠٠) وَالمُرَادُ أَبُوهُ وَخَالَتُهُ فيما ذكروه، فَإِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مُتَوَفَّاةً فِي ذَلِكَ الوَقْتِ.

الصنف الثاني: المُطَلَّقَة ثَلَاثًا؛ فإنها لَا تَحِلُّ لقوله تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

الصنف الثالث: المُعْتَدَّةِ لقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، والشريعة تتشوف للجمع بين الرجل والمرأة وعدم تدمير النسيج الأسري لذلك تبقى المعتدة في حكم المتزوجة حتى تنتهي.

الصنف الرابع: أدخل الجمهور مَنْ كَانَ يمكنه نكاح حُرَّة لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالأَمَةِ، فالقَادِرُ عَلَى طَوْلِ الحُرَّةِ لَا يَجُوزُ لَهُ نِكَاحُ الأَمَةِ، ومن أعظم حكم ذلك الخوف من أن تشيع العنوسة، وَدَلِيلُ هَذَا التَّخْصِيصِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ (النِّساء: ٢٥).

الصنف الخامس: يَحْرُمُ عَلَيْهِ التَّزَوُّجُ بِالخَامِسَةِ، للتحديد الوارد في قَوْلُه تَعَالَى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣).

الصنف السادس: من فارقها بالمُلَاعَنَةُ: لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المُتَلَاعِنَانِ

إذا تفرقا لا يجتمعان أبدا» [١].

الصنف السابع: المشركة والمرتدة والزانية.

القانون الخامس: يجب التزام ضوابط الزواج الناجح مما ذكره الله تعالى هنا بالإضافة إلى ما تقدم في سورة البقرة:

فجاء الحنان القرآني على البشرية بعد ذكر من يحل الزواج منهن ليبين عددًا من ضوابط الزواج الناجح غير ما تقدم في سورة البقرة، **فذكر الله الضوابط الآتية:**

الضابط الأول: وجود المهر، ويُبَصِّرُنا به قوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾:

أي أن تطلبوا النكاح عن طريق أموالكم التي تدفعونها مهرًا للمرأة التي رغبتم فيها.

الضابط الثاني: أن يكون النكاح للرغبة في إحصان الزوج والزوجة وإعفافهما بالاستمتاع الحلال بالنكاح الشرعي، وبصرنا به قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، كأنه يقول: ضعوا أنفسهم وزوجاتكم في حصنٍ بهذا الزواج من الزنا والفسق، وسفح الماء في غير محله:

فأطلق الإحصان ولم يقيده، فكلمة الإحصان تجمع لنا ثلاثة مفاهيم:

المفهوم الأول: أن تحصنوا أنفسكم وتُحصنوا زوجاتكم بهذا الزواج من العبث بالزنا أو الفسق، وهذا يؤدي إلى **مفهوم آخر**: ينبغي أن تبتغي بمالك المرأة التي تعينك على هذا الاحصان، فابحث عن ذات الدين، وذات الخُلُق، وذات الهيئة المناسبة لك، وصاحبة الألفة الاجتماعية المتوافقة مع حياتك، وهنا يأتي **المفهوم الثالث**: أن تقوم هي بإحصانك فهي محصِنة كما تقوم أنت بإحصانها فأنت محصِن، فالزواج

(١) سنن الدارقطني (٤ / ٤١٦) برقم ٣٧٠٦.

ليس شكليًا أو كما يسميه بعضهم (البريستيج) بل من لوازمه أن يقوم كل طرفٍ بما يحقق الإحصان، ولكن الكلام هنا عن الرجال ﴿مُحۡصِنِينَ﴾ وذلك يقتضي أن يحقق الرجل الاستمتاع اللائق حتى يتم الإحصان أي محصنين لأنفسكم ولمن ترغبون بنكاحها، وينتظر في مقابل ذلك أن تقوم المرأة بالأمر ذاته، فالزواج من أغراضه العظيمة قصد إحصان الزوجة، وحتى لا يظن أن الاستمتاع مطلوبٌ في ذاته مطلقًا دون قيد أردفه بقوله: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي غير زناة تطلبون المتعة المطلقة دون ضوابط والتزامات، فالسِّفَاحُ وَالمُسَافَحَةُ مِنَ السَّفْحِ، وَهُوَ صَبُّ الماء في المنحدر الواطئ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ (الأنعام: ١٤٥)، وَفُلَانٌ سَفَّاحٌ لِلدِّمَاءِ أَيْ سَفَّاكٌ، وذلك لأن غرض الزاني سفح النطفة، وهو هنا مفاعلة لأنه يؤدي إلى إراقة قوة الماء عند الرجل والمرأة هدرًا دون ابتغاء ما كتب الله للإنسان من الإعفاف، والولد، ونمو البشرية، فهذا الضابط يحمل نهيًا متعاظمًا عن أن يكون النكاح متعة مطلقة، فلا يحصن الطرفين من الإثم والدنس، ولا يحصن الذرية من الإعدام والتلف، ولا يحصن البيت من الخراب والبوار! وانظر لهذا السفاح في العلاقات الجنسية العابرة التي تروجها الثقافة الغربية على أوسع نطاق، كما أنك تجد معناها واضحًا فيما سمي نكاح المتعة!

والآية تقرر أن النكاح للسفاح خارج الإطار الزوجي جريمة في ذاته لأنه يؤدي إلى التلاعب بالجنس البشري وصولًا إلى إبادته، وكذلك أي تهوينٍ من اللقاء الشرعي، أو توهينٍ لقيام الأسرة الشرعية هو جريمةٌ ضد المجتمع ثم ضد الإنسانية وليس جريمة شخصية محدودة.

وهذا الشرط أو الضابط للنكاح عجيبٌ في آفاقه، وهو يقدم دليلًا على الحل الإسلامي الرائع لأوضاع البشرية كما يدل على اقتران الحل الإسلامي بملء الحياة

البشرية بالسعادة والمتعة؛ فإن الإحصان يقتضي أن يقوم كل من الزوجين بواجبه في إعطاء الآخر متعته عند الاتصال به حتى يتم التحصن، فيحصنوا أنفسهم وأزواجهم من النظر إلى من لا يحل.

كما أن هذا الشرط يفضح الجهود المؤسسية التي تروم تدمير الأسرة، والأسرة تمثل حصن البشرية الحقيقي في النمو والاستمتاع، وما أكثر الصراخ الجائر والعواء المجرم الذي ينبعث من أروقة بعض المؤسسات الدولية المعاصرة ليجعل لقاء المخلوقات لقاء استمتاع ولذة فقط، وليس لقاء يجمع الحفاظ على الإنسانية والاستمتاع المنظم معًا.

الضابط الثالث: تحقيق المتعة في الزواج، ويُبَصِّرُنا بهذا الضابط قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾، فجمع بين الإحصان والمتعة ومنع السفاح إشارة إلى منع المتعة المجردة التي يقصد منها السفاح فقط:

وانظر جمال البناء القرآني للحياة الزوجية حيث جعل الحياة الأسرية متعةً حقيقية، وليس مجرد التقاء، أو استعباد، والاستمتاع هو المنفعة المصاحبة بلذة مؤقتة يقضي بها المرء حاجته، ويسكن اضطرابه الجسدي الذي يزعج نفسه، وَجَمِيعُ مَنَافِعِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرَّعْد: ٢٦)، ولكنه يظل متاعًا مؤقتًا، فكلمة متاع تدل على أمرين: وجود اللذة من جهةٍ ولكن هذه اللذة مؤقتة، ويدل أيضًا على التأقيت؛ فهو مأخوذٌ من متع النَّهارُ متوعًا، وذلك قبل الزّوال. ومتع الضّحى إذا بلغ غايته عند الضحى الأكبر كما قيل:

وأدركْنا بها حَكَمَ بنَ عمرٍو وقد مَتَعَ النَّهارُ بنا فزالا

وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضرورة الشعور بالمتعة في التقاء الرجل والمرأة ضمن الرباط الشرعي، ولذا لا بد من التغاضي عن بعض الخلل والزلل في

المعاشرة، فقال: عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المَرْأَةُ كَالضِّلَعِ، إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ» (١).

الضابط الرابع: تسليم المهر (الأجر) كله يصبح فريضة لازمة إذا تم المس، ولو مرةً واحدةً، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي مقدرًا لازمًا:

فالمهر يجب بمجرد اللقاء الجنسي، وكلمة ﴿فَرِيضَةً﴾ هنا إما أن تكون بمعنى اللزوم، وإما أن تكون بمعنى التقدير، والمهر يتصف بالأمرين معًا: اللزوم، والتقدير، فلا بد أن يكون مقدرًا، ويدخل في ذلك نكاح التفويض، وهو النكاح مع السكوت عن المهر، وهو جائزٌ؛ لأن المهر حينئذٍ يتقدر بما هو مماثلٌ لحالتها، ويبين ابن عباس رضي الله عنهما معنى ذلك في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فيقول: «إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صَداقها كلُّه» ، و«الاستمتاع» هو النكاح، وهو قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (سورة النساء: ٤ » (٢)، وهذا الأمر بمنح النساء الصداق كله أحد الأحكام المتعلقة بالمهور، فهو أمرٌ بمنحهن الصداق يتمم الله به قَوْله جلَّ ذكره: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النِّسَاءِ: ٢١) وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ (البقرة: ٢٢٩).

الآن أعد النظر في النص لتلحظ أن الله سمَّى المهرَ هنا (أجرًا)، وذلك لِأَنَّهُ بَدَلُ المَنَافِعِ، وَلَيْسَ بِبَدَلٍ مِنَ الأَعْيَانِ، هو مقابل الاستمتاع، ولكنه لا يدل على التملك المطلق، وهذه المتعة تكون ضمن اللقاء الشرعي، وليست المتعة خارج اللقاء الشرعي.

(١) صحيح البخاري (٧/ ٢٦)، برقم (٥١٨٤) .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٧٥).

وهذا الضابط ردٌّ على من جعل المرأة يُتلاعب بها أو تورث وراثةً؛ لأنه سبق وأن تحدثنا بأن الجاهليين كانوا يرثون المرأة كأن يرث الابن أباه حتى في أخذه لزوجة أبيه، وفي هذه الأيام يتلاعبون بهن، ولذلك تتعجب في الحضارة المعاصرة يأتون بتعبير عجيب، فيقول لمن تحته من الموظفين: قد ملكتك.. ما له؟ هو لا يمكن أن يملكه، حتى في التعبير الإسلامي في حال عقد الزواج أجاز بعض العلماء في حال صيغة القبول بين الزوج وولي الأمر أن يقول: ملكتك إياها، وهذا اللفظ عندهم عام يراد به الخصوص وهو الاستمتاع بها في حدود النكاح، وقد يتم التلاعب بالمرأة بأن تصبح سلعة للمقايضة كزواج الشغار، فأثبت لها أن تُعطى حقَّها لا أن تكون سلعة.

الضابط الخامس: تبصرنا الآية بحرمة التمتع الوقتي المشروط؛ لأنه سفاح، ووفق هذا التفسير، فلا تنطبق هذه الآية؛ لأن الله ذكر ضابط النكاح، فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

ونكاح المتعة على اسمه سفاحٌ واضحٌ، يجعل أصحابه يتمتعون بمن شاءوا وقتما شاءوا، فلا يمكن أن تكون إحصانًا، فكما ترى فإن تفسير هذه الجملة المباركة يدل على منع ما سُمِّي بنكاح المتعة الذي يقرب في تصوره من الزنا، وقد تتساءل: لماذا لا تنطبق هذه الآية على نكاح المتعة مع أن الله قال ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾؟

الجواب: لما اتضح لك المعنى المراد وهو الاستمتاع في حدود النكاح لا في نطاق السفاح، والشريعة الإسلامية شريعة متكاملة فنأخذ هذه الجملة مع ما قبلها ومع ما بعدها، فإذا أخذتها منفصلة عن سياقها ضللت ولم تكن من المهتدين، فانظر السباق واللحاق، ثم انظر النصوص القرآنية الأخرى، مع أن معنى الآية واضح بين، ولا يمكن أن تنطبق على نكاح المتعة؛ **للأسباب الآتية**:

السبب الأول: أن الله أباح الوطء استمتاعًا بالزَّوْجَةِ أَوِ المَمْلُوكَةِ، فقال تعالى

ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ (المؤمنون: ٥ - ٧)، والذين ينكحون متعة لا يسمونها زوجة أو ملك يمين، فماذا ستكون؟ لن تكون إلا الثالثة وهي الزنى.

السبب الثاني: لأن الله ذكر ضابط النكاح قبل هذه الجملة، فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، والمتعة سفاحٌ واضحٌ يجعل أصحابه يتمتعون بمن شاءوا وقتما شاءوا، فلا يمكن أن تكون إحصانًا، فلو أجزنا أن يدخل نكاح التمتع في هذه الجملة لتناقضت الآية، ولذا سأل رجلٌ ابن عمر ﷺ عن المتعة فقال: حرام. فقال: إن فلانا يقول فيها. فقال: والله لقد علم أن رسول الله ﷺ حرمها يوم خيبر وما كنا مسافحين [١].

السبب الثالث: ما ورد في تحريمها من الأحاديث الصريحة يمنع من أن تدخل ضمن الآية، فعن الرَّبِيع بْن سَبْرَةَ الجُهَنِيِّ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلاَ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» [٢].

السبب الرابع: اتفق الصحابة على تحريمها[٣]، ولـمَّا نهى عمرُ ﷺ لم يرد الصحابة رضي الله عنهم كلامه مع أنهم كانوا يردون عليه فيما هو أهون كما في موضوع المهر.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٩ / ١٦٩) وقال: «ويؤيد ظاهر حديث على ما أخرجه أبو عوانة وصححه».

(٢) صحيح مسلم (٤ / ١٣٢).

(٣) انظر: الجصاص في تفسيره ٢/ ١٥٣، والنووي في صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ١٨١، وابن حجر في فتح الباري ٩/ ٧٨-٧٩.

السبب الخامس: السياق: فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والقرآن والسنة متناصران على بيان الشريعة، فتقدمت الإشارة إلى السياق، وتعال فانظر في اللحاق؛ إذ بعد هذه الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (النساء: ٢٥) فلو كان يجوز له نكاح المتعة لما كان لهذه الآية فائدة أو أثر، فيمكنه أن يتمتع يوميًّا وفق مفهوم التأقيت لنكاح المتعة، وقد أباح الله نكاح الإماء عند العجز عن نكاح الحرائر فكيف تباح المتعة؟

وأما ما ذكر عن ابن عباس ﷺ، فلم يستدل بهذه الآية، وإنما كان يجيزها للمضطر حالها في ذاك كحال النكاح المؤقت في النفس لا في العقد، فعن ابْن شِهَابٍ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَامَ بِمَكَّةَ فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا أَعْمَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ يُفْتُونَ بِالْمُتْعَةِ -يُعَرِّضُ بِرَجُلٍ- فَنَادَاهُ فَقَالَ: إِنَّكَ لَجِلْفٌ جَافٍ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتِ الْمُتْعَةُ تُفْعَلُ عَلَى عَهْدِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ - يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَجَرِّبْ بِنَفْسِكَ فَوَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَهَا لأَرْجُمَنَّكَ بِأَحْجَارِكَ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي خَالِدُ بْنُ الْمُهَاجِرِ بْنِ سَيْفِ اللَّهِ أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ رَجُلٍ جَاءَهُ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَاهُ فِي الْمُتْعَةِ، فَأَمَرَهُ بِهَا فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي عَمْرَةَ الأَنْصَارِيُّ: مَهْلًا. قَالَ: مَا هِيَ وَاللَّهِ لَقَدْ فُعِلَتْ فِي عَهْدِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ. قَالَ ابْنُ أَبِي عَمْرَةَ: إِنَّهَا كَانَتْ رُخْصَةً فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ لِمَنِ اضْطُرَّ إِلَيْهَا كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ثُمَّ أَحْكَمَ اللَّهُ الدِّينَ وَنَهَى عَنْهَا. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي رَبِيعُ بْنُ سَبْرَةَ الْجُهَنِيُّ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ: قَدْ كُنْتُ اسْتَمْتَعْتُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ بَنِي عَامِرٍ بِبُرْدَيْنِ أَحْمَرَيْنِ، ثُمَّ نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُتْعَةِ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَسَمِعْتُ رَبِيعَ بْنَ سَبْرَةَ يُحَدِّثُ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَنَا جَالِسٌ [(١)].

وَزَادَ فِي آخِرِهِ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يُفْتِي

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٣٢) برقم (١٤٠٦).

بِالمُتْعَةِ، وَيُغْمِصُ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ فَأَبَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنْ يَنْتَكِلَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى طَفِقَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ يَقُولُ:

أَقُولُ لِلشَّيْخِ لَمَّا طَالَ مَجْلِسُهُ يَا صَاحِ هَلْ لَكَ فِي فُتْيَا ابْنِ عَبَّاسِ
يا صاحِ هَلْ لَكَ فِي بَيْضَاءَ بَهْكَنَةٍ تَكُونُ مَثْوَاكَ حَتَّى مَصْدَرِ النَّاسِ

قَالَ: فَازْدَادَ أَهْلُ العِلْمِ بِهَا قَذَرًا وَلَهَا بُغْضًا حِينَ قِيلَ فِيهَا الأَشْعَارُ [١].

وقال سَعِيد بْن جُبَيْرٍ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَاذَا صَنَعْتَ ذَهَبَتِ الرَّكَائِبُ بِفُتْيَاكِ وَقَالَتْ فِيهِ الشُّعَرَاءُ؟ فَقَالَ: وَمَا قَالُوا؟ فذكره. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا هَذَا أَرَدْتُ وَمَا بِهَذَا أَفْتَيْتُ فِي المُتْعَةِ. إِنَّ المُتْعَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لِمُضْطَرٍّ. أَلاَ إِنَّمَا هِيَ كَالمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ [٢].

ويظهر لي أن ابن عباس ﷺ لم يصرح في أي رواية بإباحة المتعة مطلقًا، ودفاعه بوقوعها في زمن إمام المتقين لا يعني إباحته لها؛ إلا أن ما كان بينه وبين الزبير من حدة الكلام منع من بيان قوله على التفصيل كما هو بين، ولكن العبارة ابتداء خرجت منه بشيء من التساهل الذي لم يفهم منه السامعون إلا الإباحة المطلقة، فَشنَّع عليه ابن الزبير؛ إذ كان بينهما ما بين الأقران، وقد سبق ابن الزبير علي بن أبي طالب في التشنيع عليه، فقد ذكر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ، وقال لابن عباس ﷺ: إِنَّكَ رَجُلٌ تَائِهٌ نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [٣].

ويزيد الأمر وضوحًا في أن ابن عباس ﷺ فهم جوازها للمضطر: ما رواه مُحَمَّد بن كَعْبٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتِ المُتْعَةُ فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ، وَكَانُوا يَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ (النساء: ٢٤) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ البَلَدَ

(١) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٧ / ٢٠٥) برقم(١٤٢٧٧).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٧ / ٢٠٥) برقم ١٤٢٧٨.
(٣) أخرجه البخاري (٥ / ١٣٥) برقم (٤٢١٦)، ومسلم (٤ / ١٣٤) برقم (١٤٠٧).

لَيْسَ لَهُ بِهِ مَعْرِفَةٌ، فَيَتَزَوَّجُ بِقَدْرِ مَا يَرَى أَنَّهُ يَفْرُغُ مِنْ حَاجَتِهِ، لِتَحْفَظَ مَتَاعَهُ، وَتُصْلِحَ لَهُ شَأْنَهُ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء:٢٣) إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وَنُسِخَ الأَجَلُ وَحُرِّمَتِ المُتْعَةُ، وَتَصْدِيقُهَا فِي القُرْآنِ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٦)، فَمَا سِوَى هَذَا الفَرْجِ فَهُوَ حَرَامٌ [١].

وقد اشتهر بين الناس أن عمران بن حصين ﷺ أسند تحريم المتعة إلى عمر بن الخطاب، وهذا النقل من الأخطاء الفادحة؛ فإن عمران إنما تكلم عن متعة الحج أي عن حج التمتع، و لم يتكلم عن نكاح التمتع، ولذا بوب البخاري ضمن أبواب الحج:

باب التمتع، ثم أسند عَنْ عِمْرَانَ ﷺ قَالَ: تَمَتَّعْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ القُرْآنُ قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ [٢].

وبوب أيضًا: باب ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾، ثم أسند عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُنْزِلَتْ آيَةُ المُتْعَةِ فِي كِتَابِ اللهِ فَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُنْزَلْ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا حَتَّى مَاتَ قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ [٣].

وفي مسلم أصرح من ذلك، وذكر معها نكاح المتعة، فلعل ذكره للقضيتين أحدث لبسًا عند بعض السامعين، فخلط بينهما، فعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِالمُتْعَةِ وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَنْهَى عَنْهَا قَالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ عَلَى يَدَيَّ دَارَ الحَدِيثُ تَمَتَّعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُحِلُّ لِرَسُولِهِ مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ وَإِنَّ القُرْآنَ قَدْ نَزَلَ مَنَازِلَهُ

(١) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ١٩٧).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٧٦).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٣٣).

فَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ، وَأَبِتُّوا نِكَاحَ هَذِهِ النِّسَاءِ فَلَنْ أُوتَى بِرَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلاَّ رَجَمْتُهُ بِالحِجَارَةِ[1]، وفي رواية لمسلم تبين تفريقه في الحكم بين الأمرين، وأن نهيه عن متعة الحج اجتهاد لصالح العبادة، وأما متعة النكاح فتحريم، حيث قَالَ فِي الحَدِيثِ: فَافْصِلُوا حَجَّكُمْ مِنْ عُمْرَتِكُمْ فَإِنَّهُ أَتَمُّ لِحَجِّكُمْ وَأَتَمُّ لِعُمْرَتِكُمْ[2].

الضابط السادس: التراضي على أي شيءٍ غير المهر جائز، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

وهذا الضابط الجامع يقتضي أمرين:

الأول: إذا تم الاتفاق على الفريضة المالية المقدمة للزوجة مهرًا فلا جناح عليكم، أيها الناس، أن تتراضوا أنتم ونساؤكم على أمورٍ مالية أخرى على سبيل الإهداء أو الهبة أو الصلح لعارضٍ بدا، أو لأجل الفراق، فالمهر هو الفريضة، وما زاد الله لا تمنعون منه.

الثاني: أي لا حرَج عليكم أيها الأزواج، إن أدركتكم عُسرة بعد أن فرضتم لنسائكم أجورَهن فريضة، فيما تراضيتم به من حطٍّ وبراءة، أو تأخيرٍ ووضعٍ بعد الفرض كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النِّساء: ٤) وَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

القانون السادس: يجب الشعور بعظمة التشريعات القرآنية فهي صادرة عن علم كامل وحكمةٍ مطلقة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:٢٤) وهو قانونٌ تأسيسي حاكم معظم.

---

(١) صحيح مسلم (٤ / ٣٨).

(٢) صحيح مسلم (٤ / ٣٨).

وهذا القانون التأسيسي الحاكم المعظم يجيب على الأسئلة الآتية:

ما مزية هذه الأحكام والتشريعات؟ من أين تكتسب أهميتها وقوتها وتفوقها على الأحكام الصادرة عن الخبرة البشرية؟ فهذه الجملة المباركة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٢٤) تبين أن هذه الأحكام والتشريعات المنظمة للحياة الاجتماعية الإنسانية صادرة عمن جمع أهم صفتين يحددان المشرع الكامل الذي لا يفوته أدنى تفصيل، وهما: صفتا العلم الكامل والحكمة المطلقة، بينما يتسم التشريع البشري بالوقتية والتغير حسب المستجدات والمصالح المتغيرة، وهنا تعجب لماذا لا تقوم الأمة الإسلامية بإخبار العالم عن هذا النور في المنابر التائهة للأمم العالمية.

إلى متى تبقى أمة الإسلام متهربة من تقديم الحلول الإسلامية لهذا العالم التائه الحزين المليء بالشقاء في ظلم الأطفال والرجال والنساء؟ وإلى متى تصر القيادات العالمية في مؤتمرات السكان على الابتعاد عن الحلول الحقيقية للواقع البشري المليء بالمآسي بينما لا نعرض لهم نحن الحلول التي يقدمها لنا ولهم العليم الحكيم؟ وما النتيجة من عدم البلاغ لهذه القواعد القانونية القرآنية العالية؟ النتيجة ما نراه من هذا الكم الهائل من الآلام والشقاء وتغيير الطبيعة البشرية بل والعمل على إبادة البشرية من خلال التضييق على الزواج واستبداله بالعلاقات المحرمة.

القانون السابع: الأصل أن يكون الزواج من حرة للقضاء على العنوسة وسطهن، فهن الأقرب رحمًا، والأولى أن يُقدمن على غيرهن، ويجوز عقد الزوجية الكامل من ملك اليمين بثلاثة شروط: اثنين في الناكح، وواحدٍ في المنكوحة، ومن أسباب هذا الزواج إدماج هذه المرأة ضمن الحياة الطبيعية للمجتمع.

الشرط الأول: ألا يملك فضلًا أو غنى يساعده على الزواج من حرة، فيجوز الزواج من ملك اليمين، ويُبَصِّرُنا بهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن

يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

فالِاسْتِطَاعَةُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ فِي طَوْعِكَ، لَا يَتَعَاصَى عَلَى قُدْرَتِكَ، وَالاستطاعة أَوْسَعُ مِنَ الإِطَاقَةِ، والطَول أصله من الفضل والقدرة، من طال طولًا، فهو طائل؛ لأن الطويل يؤتى قدرة يصل بها إلى ما لا يصل إليه غيره، ويناول ما لا يناول غيره، فيقال: تطاول لكذا، وقالوا: وأين الثريا من يد المتطاول، ومنه قولهم:

لقد زادني حبًا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

والطَّول أمران:

الأمر الأول: الغنى والمال، ويعطيها المال اللائق بها وهذا الذي ذهب إليه الكثير من العلماء.

والأمر الثاني: الهوى؛ وهو الحب، أي من لم يستطع منكم قدرة أن ينكح المحصنات المؤمنات لتعلق هواه بفتاة مؤمنة من الإماء فلينكحها؛ فإنه قد يكون ذا مالٍ وغنى ولكن قلبه اتجه إلى محبة أمةٍ، ولم يصبر على ذلك، فيجوز له الزواج منها كما روى ذلك الطبري عن ابن زيد: كان ربيعة يليِّن فيه بعض التليين، كان يقول: إذا خشي على نفسه إذا أحبَّها – أي الأمة – وإن كان يقدر على نكاح غيرها، فإني أرى أن ينكحها.

فمعنى الآية: ومن لم يستطع منكم قدرة في المال أو في الحال على نكاح المحصنات العفيفات الحرائر المؤمنات جاز له الزواج من الفتيات المؤمنات، وهذه القدرة في المال أو في الحال غير مقيدة بزوجة واحدة على الصحيح؛ لأن الاحتياج إلى زوجة ثانية قد يكون لأسباب متعددة لا تسدها زوجة واحدة.

الشرط الثاني: أن تكون الأمة المنكوحة مؤمنة، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (النساء:٢٥):

فالفَتَيَاتُ هن المَمْلُوكَات جَمْعُ فَتَاةٍ، وَالعَبْدُ فَتًى، وهذا الوصف يختصر الحقوق الكثيرة التي ضمنتها الشريعة لفئة المملوكين لئلا يكون رقهم حائلًا بينهم وبين حقوق الكرامة البشرية، فقد نهت الشريعة أن ينادوا بما يكرهون، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلاَيَ، وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي» (١)، وفي رواية لمسلم: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي» (٢).

فهذا الحق حقٌّ دالٌّ على تكريم المملوكين، والتقييد بالمؤمنات وصف تقييدي تقريبي.

فأما أنه تقييدي فذلك يعني أن له مفهومًا على الراجح أي فلا تلجأوا إلى الكافرات من الحرائر والإماء للحذر الإيماني والأمني في الوقت ذاته، وأما إباحة الحرة الكافرة الكتابية في آية المائدة فمن باب التسامح، وعند ظهور الحفظ الحقيقي من الناحية الإيمانية والأمنية، وإلا فالأصل عدم الزواج من الكافرة، وهنا يتضح لك تكامل النظرة التشريعية القرآنية، فالله تعالى جده أجاز الزواج من الحرة من أهل الكتاب لأن الغالب أن تكون هذه الحرة جزءًا من المجتمع لم تأت من خارجه، فقد تعايشت معه، على أن الحاكم قد يمنع هذا لضرورات سياسية وللمصلحة العامة، كما حدث مع سيدنا عمر بن الخطاب حيث منع عددًا من الصحابة من الزواج بالكتابية خوفًا من الاختراق القومي للبلد المسلم، وكان هذا من نظراته الثاقبة الإدارية الفذة.

وأما كونه تقريبيًا فذلك يعني أن إزالة الحاجز الطبقي والاجتماعي بالعلاقة

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٩٦).

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٤٦).

الإيمانية التي تقرب بين الناس أجمعين.

الشرط الثالث: أن يخشى على نفسه الفتنة في العزوبية، ويُبَصِّرُنا بهذا الشرط قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ (النساء:٢٥).

والظاهر أن كلمة خشي العنت، أي: المشقة من أن يبقى الإنسان عزبًا، فهو ليس شرطًا في الزواج بالأمة، بقدر ما هو حث للإنسان إذا شعر بالفتنة، فعليه أن يبادر بالتزوج.

القانون الثامن: المؤمنون والمؤمنات إخوة يحرم أن يتكبر أحد منهم على أحد أو يغتر بمركزه أو حاله، فقد تكون الأمة خيرًا من الحرة أو الحر، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(النساء:٢٥)، وهذا قانون تعليلي مقاصدي مُعَظِّم.

هنا يذكر الله -تعالى مجدُه- عدةَ حكمٍ مقاصدية لهذه الأحكام التفصيلية، وهذا أسلوب القرآن الدائم لا يأتي بالأحكام جافة، بل يشعر الإنسان بأن هذه الأحكام ما هي إلا وسائل نحو المصلحة الإنسانية التي لا توجد كما توجد في العبودية لله والحرية من أن يتملكه آخرون من البشر، فيمتلئ القلب بعظمة هذه الأحكام وجمالها ورقيها ويشعر بالإعجاز التشريعي لها.

فهذه الجملة المباركة: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢٥) تقتضي مفاهيم متعددة أهمها:

عدم تكبر أحدٍ على أحدٍ أو اغتراره بعبادته أو حريته، فقد يكون من دونه حرية أو من دونه عبادة أعظم منه إيمانًا. إنها التربية القرآنية، والتزكية الإلهية التي تهذب النفس الإنسانية التي قد يتغلب عليها الغرور، ويستولي عليها الكبر، كما يعني

ذلك العمل بالظواهر والله يتولى السرائر، فقد يغتر أحدهم بفتاةٍ تظهر الإيمان، وليست كذلك، وقد يقع في نفسه عدم المبالاة بمن يظهر منه التقصير مع أن شأنه في سره عند ربه كبير، فلا ذنب عليه بعد التحري، ومثل ذلك في سائر الأمور، وكذلك فإن قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ يظهر الوحدة الإيمانية والتأكيد عليها وتعظيم شأنها، فلا يتكبر الحر على الفتى أو الفتاة، فالعمل بالظواهر، والله يتولى السرائر، وقد يكون الفتى أو الفتاة أعظم إيمانًا من الحر، والإيمان جعلكم أمة واحدة، فلا اعتبار للأمور الأخرى، فالغني أخو الفقير، والسيد أخو المملوك، والحرة أخت الفتاة، فلا تستنكفوا أو تستكبروا أن تنكحوا الأمة لأنكم أحرار، ولا تسألوا عن النسب، ما دام نسب الإيمان قد لاح، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ (التَّوْبَةِ: ٧١) وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحُجرات: ١٣).

القانون التاسع: أحكام الزواج بالفتاة المؤمنة.

الحكم الأول: إذن أهلها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾، وهذا يدل على مقدار الكرامة لها كالحرة، فيدخل في المراد بكلمة ﴿أَهۡلِهِنَّ﴾: أهلها الذين تنتسب إليهم، ومواليها، وهذا من أعظم حقوقها، فهو حق لها لحمايتها لا لتقييدها:

وترى هنا أن الله جعلها فردًا من العائلة التي انتمت إليها دلالة على أن فترة ملك اليمين فترة تطبيع حيوي مع المجتمع الذي تعيش فيه حيث قال ربنا جل ذكره: ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾، ولم يقل: من أسيادهن، دلالة على العلاقة الوثيقة بينها وبين ذويها، وفي الوقت ذاته تبصرنا الجملة المباركة بأن المرأة لاتزوج نفسها، لا تقييدًا لحريتها وإنما حفاظًا على حقوقها، وقيامًا معها في وجه الغدر الذي يشيع في المجتمعات،

ويبين ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزوج المرأة المرأة. ولا تزوج المرأة نفسها. فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» [1]، وذلك كله للهدف العظيم الذي وضعته الشريعة في ترابط الأسرة، وقيام ذوي الفتاة بحماية حقوقها من الغدر البشري.

الحكم الثاني: إعطاؤها مهرها حسب المتعارف عليه في أوساط الناس، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ .

والإيتاء لهن، لا لأهلهن، فالمهر من أجل أن تصلح نفسها، وتستعين به على إتمام شأنها في بيت الزوجية، وظاهر الآية يمنع أهلها من أن يستولوا على المهر وإن كانت موظفة أو عاملة يحق لهم التصرف في مالها، لكن المهر بصفة خاصة بحسب الآية يمنع من أن يتم الاستيلاء عليه.

الحكم الثالث: ينبغي للفتاة المسلمة تنمية صفاتها اللائقة بكمالها الأسري، وأهم ذلك العفة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء:٢٥) فتحصن فرجها بالعفاف وأخلاق السؤدد، وتمتنع من زنا العلانية بالسفاح، وزنا السر باتخاذ أخدان أي أخلاء أو أصدقاء:

فذكر لهن ثلاث صفات يساعد الزواج على تحققها:

الصفة الأولى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي: ينبغي أن تعامل نفسها معاملة التي أحصنت فرجها، فهي سيدة البيت الآن، تحفظ نفسها وبيتها وزوجها وذمتها وذمته، فتحصن نفسها، كما تجد معنى آخر في كلمة ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي أنتم تحصنونهن فتعطوهن المكانة التي يصرن بها محصنات، فجمعت ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أن يكن فاعلات بأنفسهن من حيث التأديب، أو محصنات من حيث فعلكم أنتم لهن حيث تنقلوهن نقلة

(١) سنن ابن ماجه (١ / ٦٠٦) وقال: صحيح دون جملة الزانية.

عظيمة إلى الإحصان.

الصفة الثانية: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ وهذا تنصيصٌ مهم؛ لأنها ربما ظنت أن كونها من ضحايا الحرب فليس عليها أن تلتزم بالآداب، فنبهنا الله سبحانه وتعالى ونبهها بأن تكون غير مسافحة، والصيغة الواردة ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ يدل على ضرورة مساعدة المجتمع لها على ذلك لا أن يكون سببًا في بيعها لعرضها، و {المسافحات} من سفح الماء فالمسافحات هن المعلنات بالزنا.

الصفة الثالثة: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ والخدن هو الخليل، والمقصود: اللواتي قد حبسن أنفسَهن على الخليل والصديق، للفجور بها سرًّا دون الإعلان بذلك، ويبين ابن عباس ﷺ تلاعب الجاهلية الأولى بالنساء فيقول: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، المسافحات المعالنات بالزنا {ولا متخذات أخدان} ذات الخليل الواحد قال: كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، يقولون: «أما ما ظهر منه فهو لؤم، وأما ما خفي فلا بأس بذلك»، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأنعام: ٥١) [1].

وهذه الجاهلية الأولى عادت في الجاهلية الأخرى حيث تجد إتيان الزنا ساريًا في بعض البلدان تقليدًا للإجرام المعاصر المتوحش في حق النساء، وهم أصناف فمنهم من يبيحه سرًا، ومنهم من يقترفه علانية، ومنهم من يقننه، ويضرب عليه الضرائب، فانظر للهو الشياطين ببني آدم.

لماذا ذكر هذا في صفاتهن بينما لم يذكره في صفات الحرائر؟

لأن الواقع العربي حينها قام على تنزه الحرائر من هذا السوء، فهن مطبوعات

(١) الطبري تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ١٩٣).

على التعفف، ويرين إتيان الفاحشة من أعظم ما يستبشع، فالزنا حسب ذاك يستقبح من النساء ولا يأنف الرجال مما كان منه سرًا، ولذا قالت عَائِشَة: جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِتُبَايِعَهُ، فَنَظَرَ إِلَى يَدَيْهَا فَقَالَ لَهَا: اذْهَبِي فَغَيِّرِي يَدَكِ، قَالَ: فَذَهَبَتْ فَغَيَّرَتْهَا بِحِنَّاءٍ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ تَسْرِقِي وَلاَ تَزْنِي، قَالَتْ: أَوَ تَزْنِي الحُرَّةُ؟ قَالَ: وَلاَ تَقْتُلَنَّ أَوْلاَدَكُنَّ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ، قَالَتْ: وَهَلْ تَرَكْتَ لَنَا أَوْلاَدًا نَقْتُلُهُمْ؟ قَالَ: فَبَايَعَتْهُ ثُمَّ قَالَتْ لَهُ وَعَلَيْهَا سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ: مَا تَقُولُ فِي هَذَيْنِ السِّوَارَيْنِ ؟ قَالَ: جَمْرَتَانِ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ [1].

الحكم الرابع: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (النساء:٢٥).

فيجب إقامة العقوبة الجنائية على الفتاة المؤمنة لمقارفتها الفاحشة، وفق الضوابط الصارمة لإثبات ذلك عليها، وتكون عقوبتها التأهيلية والتأديبية على النصف من الحرة، ويجري عليها من التأهيل ما سبق ذكره في الآية (١٥)، والتعبير هنا بـ(أتين) يدل على أن العقوبة الجنائية لا تقام عليهن إلا برضاهن، فهن من جئن للفاحشة وبالفاحشة من غير إكراه. أما إذا أكرهن فبعضهم لا يأخذ بالتكريم الإنساني الذي وضعه لهن الإسلام عند ذلك ليس عليهن شيء.

ومفهوم الشرط في قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: هل يعني أن غير المتزوجة (العَزْبى) إن زنت لا عقوبة عليها؟

الجواب: لا بل غير المتزوجة تقام عليها العقوبة الشرعية، وذلك ليس لأن المفهوم غير معتبر بل لأنه غير معمول به للأدلة الآتية:

(١) مسند أبي يعلى (٤ / ٣٨٣) برقم ٤٧٥٤.

الدليل الأول: القراءتان الواردتان تدلان على حالتين مختلفتين:

الحالة الأولى: توضحها القراءة الأولى (بضم الهمز، وَكَسْرِ الصَّادِ) في (أحصن) مبنيًا لما لم يُسَمَّ فاعله بمعنى محصنات المفتوح الصاد، وبها قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبُ: أي تزوجن؛ لأنهن تزوجن غيرهن فأحصنهن الزواج، فالعقوبة الجنائية هنا على المتزوجة.

الحالة الثانية: توضحها القراءة الثانية بفتح الهمز في (أحصن) وبها قَرَأَ حَمْزَةُ، وَالكِسَائِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَخَلَفٌ (بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وَفَتْحِ الصَّادِ)، وَهُوَ مَعْنَى مُحْصِنَاتٍ بِكَسْرِ الصَّادِ: أي أسلمن، ولو لم يتزوجن، فهن اللواتي أحصن أنفسهن بعفتهن التي شدد عليها الإسلام، ولذا فسرناه بأن معناه أسلمن، فالعقوبة الجنائية هنا على العزبى والمتزوجة.

والقاعدة التفسيرية أن القراءات الثابتة المتعددة تقوم مقام الآيات المتعددة، فتدل على أحوال مختلفة.

فالعقوبة الجنائية تستلزم وجود الصفتين: الإسلام، والزواج، على أن الأصل عدم العقوبة بل أن يُعاد تأهيلها وفق ما ذكره الله في القسم الأول من هذا المحور، وأما غير المسلمة فتؤدب بأنواع مناسبةٍ تليق بحالها، أو بما يقتضيه دينها، ولا تكون عقوبة منفرة، بل منبهة معلمة.

الدليل الثاني: رواه الطبري عن النعمان بن عبد الله بن مقرّن، سأل عبد الله بن مسعود عن أمةٍ زنت ولم تحصن، فأمره بإقامة العقوبة المناسبة عليها، وقال: إحصانُها إسلامها[1].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٠٠).

الدليل الثالث: روى زَيْد بْن خَالِدٍ وَأَبو هُرَيْرَةَ، ﷺ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ الأَمَةِ تَزْنِي وَلَمْ تُحْصَنْ قَالَ: اجْلِدُوهَا... [(١)].

الدليل الرابع: عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَقِيمُوا عَلَى أرقَّائكم الحَدَّ مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُحْصَن، فَإِنَّ أَمَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَنَتْ فَأَمَرَنِي أَنْ أَجْلِدَهَا، فَإِذَا هِيَ حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِنِفَاسٍ، فَخَشِيتُ إِنْ جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتُلَهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ، اتْرُكْهَا حَتَّى تَماثَل[(٢)].

وعلى ذلك عمل المذاهب الأربعة. قال ابْنُ شِهَابٍ: فَالأَمَةُ المُتَزَوِّجَةُ مَحْدُودَةٌ بِالقُرْآنِ، وَالأَمَةُ غَيْرُ المُتَزَوِّجَةِ مَحْدُودَةٌ بِالسُّنَّةِ، وعن رباح قال: زوجني أهلي أمة لهم رومية فوقعت عليها فولدت لي غلامًا أسود مثلي فسميته عبد الله، ثم وقعت عليها فولدت لي غلامًا أسود مثلي فسميته عبيد الله، ثم طبن لها غلام لأهلي رومي يقال له يوخنس فراطنها بلسانه. قال: فولدت غلامًا كأنه وزغة من الوزغات -أي أبيض قريب من البرص-؟ فقلت لها: ما هذا؟ قالت: هو ليوخنس. قال: فرفعنا إلى أمير المؤمنين عثمان ﷺ فسألهما فاعترفا، فقال: أترضيان أن أقضي بينكما بقضاء رسول الله ﷺ. ثم جلدها وجلده وكانا مملوكين [(٣)].

وقد ظهر أن عقوبة الفتاة المؤمنة إن أتت الفاحشة على النصف من عقوبة الحرة المؤمنة، والعقوبة هي التي ذكر الله أنها العذاب ﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، وحد المحصنة من العذاب هو الجلد، وأما عقوبة المحصنة المتزوجة فليست عذابًا، فلا يأتي الكلام عنها هنا، وقد فرَّق الله بين العذاب وإزهاق الروح

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في (٥ / ١٢٥) برقم (١٧٠٥) (كتاب الحدود، باب تأخير الحد عَنْ النفساء) بدون لفظ تماثل وفي لفظ لمسلم حتى تماثل.

(٣) أخرجه أبو داود في (٢ / ٢٥٠) برقم: (٢٢٧٥) وأحمد في (١ / ١٤٠) برقم: (٤٢٣).

في قوله تعالى ذكره على لسان سليمان عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ٢١)، ولذا لا يرد هنا قول الطاعنين في السنة إن حد المحصنات لا يمكن تنصيفه، وهذا يعني عدم وجوده، فإن المنصف هو التعذيب الذي هو الجلد، وليس حد المحصنات الذي نصت عليه التوراة، وأثبته النبي ﷺ بقوله وفعله.

ثم ختم الله ذلك بمادة مقاصدية معظمة للأحكام السابقة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: لمن خاف منكم ضررًا في دينه، وَبَدَنِه:

وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر، فهو يدل على مشقةٍ شديدةٍ مؤلمةٍ وضررٍ بين، وَقَيَّدَهُ الرَّاغِبُ بِمَا يُخَافُ مِنْهُ الهَلَاكُ، والظاهر عدم تقييده بالهلاك وإنما بالمشقة الشديدة، ألم ترَ أن الله -تعالى مجدُه- قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٠)، أي لأحدث لكم ما يؤذيكم؟، وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وقد يؤدي إلى الإثم، فتفسير العنت بالإثم تفسيرٌ بالنتيجة، وقد ورد في سؤال نافع بْن الأَزْرَقِ سَأَلَهُ عَنِ العَنَتِ، فَقَالَ: الإِثْمُ، قَالَ نَافِعٌ: وَهَلْ تَعْرِفُ العَرَبُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

رَأَيْتُكَ تَبْتَغِي عَنَتِي وَتَسْعَى مَعَ السَّاعِي عَلَيَّ بِغَيْرِ ذَحْلِ

والإشارة ترجع إلى كل ما سبق أي: تلك الأحكام لمن خشي الحرج الكبير بالوقوع في الإثم إن لم يتزوج، والوقوع في الشقاء إن تزوج بغير من يجد عندها سكن نفسه إن فسرنا (الطول) بالهوى، وذلك لمن خشي الحرج إن لم تُقَم العقوبة على من أتت بفاحشة مبينة.

وقد جعل علماؤنا ﷺ مقتضى هذه الجملة المباركة ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ شرطًا في نكاح الفتيات المؤمنات، والظاهر أنها تشير إلى وجود المشقة في حياة

الإنسان عندما يتعرض لحالة من الأحوال السابقة، فينبغي له أن يبادر إلى الزواج أيًا كان الـمُتزَوج بها سواء أكانت حرةً أم كانت من الفتيات المؤمنات، وتكون الإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الأحكام التي تشرع الزواج وتنظمه، وما بعدها وهو قوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي أن تصبروا عن الفاحشة فتعفوا، وكلمة{خير} اسم جمعها خيور، وليس اسم تفضيل، وذلك مثل قوله تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤) ومثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥).

ودلت هذه الجملة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ على أن التشريعات التي أخبرتكم بها مثلًا من أول السورة ستزيل العنت أي المشقة والشقاء والبؤس الحقيقي من الأُسر، ويزيل الضياع البشري الذي يسود هذه الأيام إذا اتبعتموها.

ولكنك يمكن أن تُجري الأمر على الظاهر القريب، فتجعل ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدًا للقريب، ويكون المعنى، وذلك الزواج من الفتيات المؤمنات خير لكم، وأن تصبروا لتجدوا زوجة من الحرائر خير لكم؛ إذ لهن الأولوية في نزع مرض العنوسة من المجتمع.

وأما قوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النساء:٢٥):

ذكر الـمفسرون أن معناها: أن تصبروا عن نكاح الإماء، خير لكم من نكاحهن، وهذا هو المعنى الأول، ولذا قال الشاعر:

إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي مَنْزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

ولكنك ترى أن ظل هذه الكلمات المباركات ممتدٌ فسيحٌ ليتسع للمعاني الثلاثة:

أن تصبروا على تنفيذ التأديب لهن عند إتيانهن الفاحشة، أو أن تصبروا عن

نكاح الفتيات إن لم تستوثقوا من تأهيليهن الإيماني، أو أن تصبروا عن نكاحهن حال كونهن فتياتكم، وذلك يعني ضرورة إعتاقهن أو العمل على ذلك

فهذه الجملة -في رأيي- تدل على إيقاف العقوبة إذا رأيتم أن الأدب بغيرها؛ إذ قد تكون الفتاة أعظم كفاءة من الناحية الخلقية والخُلقية من الحرة، وهذا هو المعنى الثاني وهو معنى جليل: وهو أن تصبروا على إقامة الحد إذا رأيتم أن الأدب قد يحصل بعدمه، فلا يلزم إقامة الحد إلا عندما يصل إلى الوالي، وهنا تلمس جمال الختام؛ إذ يقول ربنا جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كما يغفر لكم خطيآتكم وأنتم تقعون في الذنوب وأنتم بشر فيغفر لكم ويرحمكم، فكذلك انظروا إلى من يقع في الذنوب من الأحرار والفتيان المؤمنين، فعاملوهم بالمعاملة التي تحبون أن تعامَلوا بها، والله غفور يكفر السيئات ويغفر الزلات، ورحيم يجلب الخيرات، ويسبغ البركات.

كما ترى في هذه الآية حثًّا شديدًا على عتق الفتيات المؤمنات ليصبحن حرائر؛ إذ لو صبَّرهم عن الزواج بالفتيات المؤمنات مع رغبتهم فيهن، فلا يعني ذلك إلا المبادرة لعتقهن.

ملخص حقوق الفتيان والفتيات ومظاهر التكريم الإلهي لهم:

ظهر التكريم الإلهي للفتيان والفتيات في هذه الآية بصورةٍ رائعة، وهو تكريمٌ يضمن الارتقاء بهم من حضيض المعاملة المهينة التي يجدها الأرقاء في الحضارات الأخرى إلى التكريم الإنساني اللائق الذي خلق الله عليه البشر، وبينه الله -تعالى جده- بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، ومن الحقوق التي تبين مظاهر هذا التكريم في هذه الآية المباركة:

الحق الأول: تسميتهم المميزة (فتى- فتاة) حتى لو كبرت سنهم، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق الثاني: تقرير أن الاختلاف الوظيفي الإنساني لا يعني التفاضل في الأصل الإنساني، فقد يكون الرقيق أعظم إيمانًا من الحر، ويدل على هذا الحق ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق الثالث: بيان العضوية المطلقة للفتيان المؤمنين والفتيات المؤمنات في المجتمع حتى كأنهم أحد أعضاء الجسد الواحد، ويُبَصِّرُنا الله بذلك بقوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق الرابع: العلاقة مع السادة ليست علاقة بين سيد ورقيق بل علاقة بين الإنسان وأهله، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق الخامس: تكريم الفتاة المؤمنة المنتسبة لفئة الأرقاء عند الزواج بمهرٍ شأنُها في ذلك شأن الحرة في أصل الموضوع، واسمع إلى الله يبين هذا الحق فيقول: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق السادس: أن تتم تربية الفتيات على أساس أخلاق الحرائر ومكانتهن وشرفهن، ويُبَصِّرُنا الله بذلك بقوله:﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق السابع: تخفف عن الفتاة العقوبة مراعاةً لطبيعة الحياة التي كانت فيها وصارت إليها، وتدرجًا في عملية الإدماج المجتمعي، والله يقول عن هذا الحق: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥).

الحق الثامن: التعجيل والمبادرة بإعتاق الإماء، وهذا الحق بصرنا به قوله -تعالى مجدُه-:﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النساء: ٢٥)، فالواقع التاريخي يثبت كثرة الإماء اللواتي تتم الرغبة في نكاحهن.. فإن كان الله يحث عباده على

الصبر عن نكاحهن فلا يكون لذلك معنى إلا إشاعة الإعتاق لهن ليتم الزواج بهن باعتبار الأهلية الكاملة.

وهذا المظهر يدل على مدى الاحتياج العالمي لهذه الشريعة الإسلامية العظيمة التي لا يمكن أن تداوي الإنسانية جراحها بدونها، فأنت ترى في هذا التشريع مدى مناسبته للأوضاع الاجتماعية المختلفة في زمنٍ عومل فيه الأرقاء بامتهان، فكرمهم الله تكريمًا إنسانيًا لائقًا، فإن وقعوا في جريمة خفف العقوبة على عكس الشرائع المستغلة التي تزيد العقوبة كلما ازداد فقر الإنسان وانحطت رتبته الاجتماعية، وينقل رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القانون الروماني الشهير بمدونة جستنيان ينص على الآتي: «ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء، فعقوبته- إن كان من بيئة كريمة- مصادرة نصف ماله. وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض».

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه «منو» وهو القانون المعروف باسم «منوشاستر» أن البرهمي إن استحق القتل، فلا يجوز للحاكم إلا أن يحلق رأسه. أما غيره فيقتل! وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمي يدًا أو عصًا ليبطش به قطعت يده... الخ، وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد.

فكانت هذه العقوبة على الإماء في مكانها المناسب، فلم تلغ العقوبة تمامًا حتى لا يكون ذلك ذريعة لانتشار الرجس، ولم تعامل معاملة الحرة مراعاة للوضع الجديد الذي انتقلت إليه هذه الأمة بالعيش في المجتمع المسلم، ثم في القيام بتبعات الزواج.

المحور الثالث

التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية

(النساء:٦٢-٣٤)



وفيه: تنظيم الأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين الموارد المالية والنفسية للتماسك الأسري

المناسبة والاتصال:

تمضي السورة على سحبٍ من الجمال والجلال في التفصيل الذي يليق ببث الحياة الإنسانية؛ حيث ذكر الله جل ذكره في المحور الأول مرحلة ما قبل نشوء الأسرة، فأثبت الله تعالى جده الحقوق المالية للفئات المستضعفة في المجتمعات: (اليتامى، والنساء، والسفهاء)، والقوانين التي تدمجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة وهو الإرث، دون إخلال بالحقوق التي لغيرهم، وكان ذلك في الآيات (النساء:٢-١٤)، ثم كان الانتقال طبيعيًا منطقيًا إلى الكلام عن كيفية بناء الأسرة المركزية التي تشكل النواة الأساسية لبث الحياة الإنسانية، وذلك في المحور الثاني وفيه ذكر الله فيه أهم قوانين الزواج التي تقيم البناء الأسري، وتحافظ على الأسرة من الخيانة الزوجية المدمرة، وميز من يحرم الزواج بهن ومن يجوز، وكان ذلك في الآيات (النساء:١٥-٢٥)، وهنا في المحور الثالث انتقل بصورةٍ منطقية سلسة إلى الحصون التي تحفظ الاستقرار الأسري، وتقيم العلاقة المتوزانة بين الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وهذه الحصون تبين المصداق الحقيقي لقوله جل ذكره في المحور الثاني: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤)، فوصف الرجال بأنهم محصنين من خلال تأسيس الأسرة على الزواج الشرعي، ووصف النساء كذلك بالإحصان فقال:﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥)، ووصف الفتيات المؤمنات بذلك يجعل سائر المؤمنات أولى بوصف الإحصان.. فما الحصون التي تحرس الأسرة المركزية، فيُحصِنُ بها الرجل نفسه وزوجه،

وتُحصِنُ بها المرأة نفسها وزوجها، وبها يُحافَظُ على التماسك الأسري، ويتحقق هدف بث الحياة الإنسانية؟

يذكر الله في هذا المحور تسعة حصون:

الحصن الأول: إدراك الرحمة الإلهية في التشريعات القرآنية لحماية الحياة الإنسانية، حيث يُظهِرُ الله لك المقاصد الكلية العظمى للتشريعات الإلهية التي تنظم الواقع الأسري، والـمجتمعات البشرية (النساء٢٨-٢٦).

الحصن الثاني: التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة (النساء:٢٩).

الحصن الثالث: المحافظ على الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس أو كبائر الذنوب المدمرة (النساء: ٢٩-٣١).

الحصن الرابع: الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء؛ فالحياة ليست صراعًا بينهما، ولذا يجب نبذ التمني المذموم عند الجميع، وتنمية الطموح لنيل الفضل الإلهي (النساء:٣٢).

الحصن الخامس: الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم على النصرة والولاء (النساء: ٣٣).

الحصن السادس: إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها (النساء: ٣٤-٣٥).

الحصن السابع: القيام بحقوق الأسرة الإنسانية المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة (النساء:٣٦).

الحصن الثامن: الحذر من الصفتين اللتين تدمران التماسك الأسري، وتقضيان على بث الحياة الإنسانية، وتَحْطِمان النظام الاجتماعي، وهما الفخر والخيلاء، ومعالجة نفسيات أصحابها (النساء:٣٧-٤٢).

الحصن التاسع: الاستمتاع الحقيقي بالصلاة؛ لأنها تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، وذلك بتعظيم الصلاة وأماكنها، فالصلاة المعظمة من أقوى أسس بث الحياة الإنسانية (النساء:٤٣).

وهنا ترى التنظيم الإلهي للأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين أسس الموارد المالية والنفسية والعملية للحفاظ على التماسك الأسري:

المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣):

وفيه: تنظيم الأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين الموارد المالية والنفسية للتماسك الأسري

الحصن الأول

إدراك الرحمة الإلهية في التشريعات القرآنية لحماية الحياة الإنسانية حيث يُظهر الله لك المقاصد الكلية العظمى للتشريعات الإلهية التي تنظم الواقع الأسري، والمجتمعات البشرية [النساء٢٨-٢٦]

الحصن الثاني

التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة [النساء:٢٩]

الحصن الثالث

المحافظ على الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس أو كبائر الذنوب المدمرة [النساء: ٢٩-٣١]

الحصن الرابع

الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء؛ فالحياة ليست صراعًا بينهما، ولذا يجب نبذ التمني المذموم عند الجميع، وينبغي الطموح لنيل الفضل الإلهي [النساء:٣٢]

الحصن الخامس

الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم على النصرة والولاء [النساء: ٣٣]

الحصن السادس

إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها [النساء: ٣٤-٣٥]



شكل (٧) يوضح حصون استقرار الأسرة المركزية وعلاقتها بالأسرة المتوسطة والعامة ليتحقق بث الحياة الإنسانية، وتبين التماسك الأسري



الحصن الأول

إدراك الرحمة الإلهية في تشريعات القرآن لبث الحياة الإنسانية حيث يُظهِرُ الله لك المقاصد الكلية لهذه للتشريعات

(النساء٢٨-٢٦)

آيات هذا الحصن:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء٢٨-٢٦).

مكانة هذه الآيات:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات العظام الثلاث ستة مقاصد غائية أنزل الله القرآن لأجلها، وقال ابْن عَبَّاسٍ ﷺ: (ثمان آيات نزلَت في (سورة النساء)، هي خيرٌ لهذه الأمَّة مما طلعَت عليه الشمس وغربت:

أولاهـنَّ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء: ٢٦). **والثانية**: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧). **والثالثة**: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨). **والرابعة**: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء: ٣١). **والخامسة**: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا

وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠). **والسادسة:** قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨، و١١٦). **والسابعة:** قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠). **والثامنة:** قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٢). فأخبرهم ثمَّ أقبل يفسِّرها ابن عباس ﷺ في آخر الآية: (وكان الله للذين عملوا الذنوب غفورًا رحيمًا) [1].

ولماذا لهذه الآيات الثلاث بالذات هذه المكانة؟ لأن الله ذكر في هذه الآيات العظام الثلاث ستة مقاصد غائية أنزل الله القرآن لأجلها، وهي الآتية:

المقصد الأعظم الأول: التبيين الإلهي لما تحتاجه البشرية مما لا تستطيع أن تدركه بنفسها بسهولة، وربما لا تستطيع إدراكه أبدًا. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾.

ولذا أظهر الله الهدف الأعظم من التشريعات الإلهية سواء في المواريث أو في حقوق السفهاء أو في حقوق النساء، ليتم التكريم الرباني للإنسان، فالتوجيهات الإسلامية هدفها البيان لما يحتاجه الإنسان من نظمٍ تشريعية في المجالات الحيوية الأولى والأخرى بيانًا لكيفيتها، وتفصيلًا لوسائلها وأهدافها، وتمييزًا لصورها وحقائقها، وتحديدًا لعوامل السعادة الفعلية والقولية وما يضادها، وانظر كيف أراد الله البيان التفصيلي لذلك، فقال:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي فصل لكم الأحكام السابقة في هذه السورة وفيما قبلها، وسيفصل لكم الأحكام اللاحقة في هذه السورة وفيما بعدها.. كل ذلك هدفه

(١) شعب الإيمان ٩/ ٣٤٦.

وغايته أن يبين لكم، أن يملككم المعرفة الحقيقية لما تجهلونه، ويخبركم عن العلم الحق لما لم تعلموه، فتكون اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ دالةً على محذوفٍ يبين قوة التعبير القرآني، والتقدير: أنزل الله لكم هذه الآيات، ووضع لكم هذه التشريعات ليبين لكم، أو أن يكون أقام (اللام) مقام (أن) كما قال الله جل ثناؤه: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١) أي أن نسلم، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ (الأنعام: ١٤)، وكما قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ (الصف: ٨)، ثم قال في موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ (التوبة: ٣٢)، ومنه قولهم:

أَرَدْتَ لِكَيْمَا أَنْ تَطِيرَ بِقِرْبَتِي فَتَتْرُكَهَا شَنًّا بِبَيْدَاءَ بَلَقْعِ

المقصد الأعظم الثاني: تكوين المعرفة التاريخية الحقيقية بسنن الأولين في الجوانب الإيجابية والسلبية لتهتدوا في ظلمات الحياة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

معنى ليهديكم أي يدلكم ويرشدكم فهي بمعنى البيان الذي سبق في قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، إلا أن المقصد الأول بيان عام لما تحتاجون من المعارف والسلوك والتنظيم، والهداية في هذا المقصد بيانٌ مصحوب بالحرص على الإرشاد، وقد يصحبه التوفيق والإعانة على العزم، وخصها بالمعرفة التاريخية، فهذا المقصد المأخوذ من هذه الجملة المباركة يعني أن يستفيد المسلمون من رصيد الخبرة البشرية المتراكمة في الجوانب الإيجابية ليكون عندهم أحسن ما آلت إليه التشريعات والتجارب السابقة، وليتقوا ما وقعت فيه الأمم من الخلل والزلل قبل مجيء النبي الخاتم ﷺ، ومن المعاني التي تظهر من هذه الجملة المباركة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بيان الدين الواحد عند الله، وهو الإسلام، وهو الدين الذي جاء

به كل الأنبياء، وهذا الهدف هدفٌ معرفيٌ فيه حثٌّ شديد على استكشاف الحضارات السابقة في جوانبها الإيجابية والسلبية، فهو -عزَّ جارُه- يريد أن يرينا أن أصول ما جاء به الأنبياء أصولٌ متحدة؛ لأن الدين عند الله الإسلام، ومن هنا تعجب من هذه النبرة العَدائية التي يشنها أتباع اليهودية والنصرانية على المسلمين، كما تنظر بعين الريبة إلى تحالفهم مع القوى الباطنية والمنافقة والمستبدة التي تريد تفجير الإسلام من داخله، فالله يريد لنا المعرفة لسنن المنعم عليهم من السابقين لنحتذي بها، والمعرفة لسنن المغضوب عليهم والضالين لنتقيها.. الله يريد لنا تحصيل معرفة الخير والشر، وليس أن يحجب عنا المعرفة كما تروج الخرافات المضللة التي يشيعها الإعلام الكاذب المعادي للمصالح البشرية الضخمة التي يمنحها الوحي الإلهي، ومن المعرفة التي يريد الله أن نتعلمها المعرفة بتجارب الآخرين ليتم التراكم المعرفي، وتنضج الخبرة البشرية، ويستفيد الناس من الإيجابيات، ويجتنبوا السلبيات.

ومن إرادته البيان لنا وهدايتنا سنن الذين من قبلنا ما شرعه لنا من الأحكام في المجالات الحيوية المختلفة ليُبَصِّرُنا بالطرق التي بها تصلح المجتمعات، وتنمو عن طريقها السعادات، ومن ذلك تنظيم المسائل الحقوقية والأمور الاجتماعية، والمسائل الفرضية الإرثية، وإنصاف الفئات المستضعفة في المجتمع كاليتامى والنساء، ولذا فإن سبب نزول السورة في المقام الأول هو إنصاف الأيتام والنساء فعن جَابِر بْن عَبْدِ الله ﷺ قال: مَرِضْتُ مَرَضًا فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا مَاشِيَانِ فَوَجَدَانِي أُغْمِيَ عَلَيَّ فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ فَلَمْ يُجِبْنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ المِيرَاثِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[1]،

(١) أخرجه البخاري في (١ / ٥٠) برقم: (١٩٤)

وكان له تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث [١]، وعَنْه ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً بِالأَسْوَافِ، وَهِيَ جَدَّةُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَزُرْنَاهَا ذَلِكَ اليَوْمَ، فَفَرَشَتْ لَنَا صَوْرًا -أي عيدان نخل- فَقَعَدْنَا تَحْتَهُ بَيْنَ نَخْلٍ، وَذَبَحَتْ لَنَا شَاةً، وَعَلَّقَتْ لَنَا قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَحَدَّثُ جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ هَاتَانِ بْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدِ اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا إِلاَّ أَخَذَهُ فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ» فَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ وَفِيهَا ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ادْعُوا لِيَ المَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا» فَقَالَ: «لِعَمِّهِمَا أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِيَ فَلَكَ» [٢].

فكانت هذ السورة المباركة أهم دستور حياتي تم من خلاله التوزيع الحقوقي للفئات المجتمعية المختلفة، وأنصف النساء على وجه الخصوص، وسبق أدعياء العالم في وضع القوانين الحقوقية التي يجب على المجتمع رعايتها بالنسبة لهن، وهذا الإنصاف الحقوقي الذي بينته سورة النساء أوصى الله بقريب منه فيمن كان قبلنا، فأوصى في التوراة ببعض ذلك، لكنك لا ترى فيه كمال العدالة المسطرة في نور القرآن المجيد، فهل ذلك لتحريفٍ طارئ، أم لطبيعة التفاوت بين الوحي السابق والوحي الخاتم، فقد ورد في سفر العدد٢٧:

٦ فكلم الرب موسى قائلًا: ٧ بحق تكلمت بنات صلفحاد، فتعطيهن ملك نصيب بين إخوة أبيهن، وتنقل نصيب أبيهن إليهن. ٨ وتكلم بني إسرائيل قائلا: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته.

---

(١) سنن الترمذي (٤ / ٤١٧).

(٢) سنن الدارقطني (٥ / ١٣٧)، وأصل الحديث في سنن الترمذي (٤ / ٤١٤).

وانظر كيف يهدينا الله سنن من قبلنا لنأخذ الإيجابيات ونترك السلبيات، بينما تجد عمومًا محتملًا في العبارة التوراتية الواردة في سفر اللاويين ١٨:

١ وكلم الرب موسى قائلا: ٢ كلم بني إسرائيل، وقل لهم: أنا الرب إلهكم. ٣ مثل عمل أرض مصر التي سكنتم فيها، لا تعملوا، ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آت بكم إليها، لا تعملوا، وحسب فرائضهم، لا تسلكوا. ٤ أحكامي تعملون، وفرائضي تحفظون؛ لتسلكوا فيها، أنا الرب إلهكم. ٥ فتحفظون فرائضي وأحكامي، التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها، أنا الرب. ٦ لا يقترب إنسان إلى قريب جسده؛ ليكشف العورة، أنا الرب.

فالنص التوراتي ينهى عن تقليد الكافرين في مصر وكنعان، ولا شك في صحة ذلك، لكن العبارة القرآنية فصلت ذلك لنأخذ الإيجابيات ونترك السلبيات من خلال هذه العبارة المبهرة ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

المقصد الأعظم الثالث: التوبة عند حدوث الإخفاقات، أو ارتكاب السيئات، ويُبَصِّرُنا بهذا المقصد قوله تعالى ذكره ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (النساء:٢٦).

فهو سبحانه يريد التوبة علينا، ولا يريد الانتقام منا، وقد يسر سبيل التوبة، فجعلها تتم إما عن طريق إقامة الحد والعقوبة لمن بلغت جنايته أن يعاقب، ورغب في التطهير، وإما أن يطهر نفسه بالتوبة المباشرة بينه وبين ربه، دون أن يفشي ذنبه لأحد.

وتجد التعبير عن التوبة يأخذ ثلاث مراحل:

الأولى: يريد الله أن يتوب عليك قبل أن تفكر في التوبة، فيزينها لك، وعندها تأتي المرحلة الثانية لتكون المبادرة منك: فتتوب أنت من ذنبك، ثم المرحلة الثالثة:

حيث يتوب الله عليك بعد أن تبت أنت من ذنبك، أي يقبل توبتك، فتوبة الله على عباده تحف به ابتداء وانتهاء، وتوبتك بين توبتين لله عليك، ومن ذلك قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

وانظر هذا المعنى الجليل: الله يريد أن يتوب عليك، لذا شرع لك التوبة من الذنوب والسيئات، ولم يتركك دون قدرة على محو تلك الخطايا، وهنا تعرف معنى الجريمة في حق البشرية عندما يدعي بعض الخلق أن هناك خطيئة أصلية لزمت البشر؛ لأن أباهم آدم عليه السلام وقع فيها.. وما ذنبهم؟ لقد سببت هذه الفكرة إلحادًا في أوساط الناس، وآخر من صرح بتهافت هذه العقيدة الباطلة المعتدية الرئيس الفلبيني رودريغو دوتيرتي المحسوب على النصارى حيث قال: «لم تكن ولدت وقتها، ولكنك اليوم مدنّس بالخطيئة الأولى، ما هذا الدين؟ لا أقبل هذا؟».

المقصد الأعظم الرابع: بناء الثقة بمصدر التشريع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:٢٦).

هنا تعيد اكتشافك للمعجزة القرآنية.. إن ختم الآيات وتذييلها ليس مجرد مسألة تبعية تجميلية، بل الختم جزء أساسي من الآية يحقق هدفًا مقصودًا، وهنا فإن الله عليم بالجوانب الإصلاحية للحياة البشرية في الأمور الدينية، والدنيوية، وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويقيمها في مراتعها، حكيم في تنزيل ما يعلمه صالحًا لهم في وقته المناسب، ومكانه المناسب، يصلح عباده في دينهم ودنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويذَرون مما أحل أو حرم عليهم، حافظ ذلك كله عليهم، فإذا سمعتم تشريعاته التنظيمية والوقائية والعقابية ستثقون فيها، وستأتي الأوقات التي تبين لكم أنه لا يوجد أفضل منها مهما حاولتم، ولقد حاول بعض المتسرعين

أو المستكبرين انتقاد بعض أنواع العقوبات التأهيلية في القرآن المجيد لكنك عندما تبحث في التجارب البشرية لا تملك إلا الإعجاب بالتقدم الذي أحرزه هذا التأهيل القرآني للمذنب، وللمجتمع معًا، وينبئك عن ذلك أن تقرأ ما نُشِر مؤخرًا حول شكل جديدٍ وغريبٍ من العلاج النفسي حيث يدعو إلى علاج مدمني الشراب (الخمر) والمخدرات والجنس عن طريق ضربهم بعصا كبيرة، حيث يمكنهم في ذلك المستشفى مقابلة مستشار للحصول على ما يصل إلى ٦٠ جلدة بعصا، وأعلن عن العلاج بالضرب الشديد بالعصا في علم النفس من قبل خبراء خلال محاكمات في سيبيريا بروسيا، ففي موعدٍ خاص يتم منح المرضى علاجًا بالضرب الشديد قبل أن يخضعوا لجلسات تقليدية يتم خلالها الكلام والتعبير عن مشاعرهم بطريقة بسيطة وعادية، وتم اقتراح هذا العلاج من قبل الدكتور سيرجي سبيرانسكي، مدير الدراسات البيولوجية في معهد نوفوسيبيرسك للطب، والذي أقر أن الضرب كعلاج يمكننا اعتباره مضادًّا للنوبات المعبرة عن الاكتئاب، مضيفًا أن المرضى يرون أن هذا العلاج فعالٌ إذا فشلت كلُّ الطرق الأخرى في العلاج.

المقصد الأعظم الخامس: حماية الناس من أتباع المحرم من الشهوات ومدمري المجتمعات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧).

الله تعالى ذكره، وجل مجده يريد لنا التنظيم المجتمعي، ويريد للأرض التطهير، ويريد التيسير أما أتباع الشهوات المحرمة فإنهم يعملون على سفك الدماء والإفساد في الأرض، ويرتكبون أحط الجرائم التي تؤدي إلى إبادة الإنسانية مخالفين القوانين الإلهية التي حددها خالق الإنسانية لحمايتها، وهذا المقصد تمت صياغته بصورة رائعة مدهشة حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ .

فقد يقول قائل: لماذا جدد ذكر إرادته لأن يتوب على عباده مع أنه قد ذكرها في الآية السابقة؟

والجواب: لعدة مفاهيم كبرى، ومنها:

المفهوم الأول: ليذكرنا بأن الله يملك الكون، فله الملك المطلق والإرادة المطلقة إلا أن مقتضى الحياة الدنيا مقابل الحياة الأخرى الاختبار، ومقتضى الاختبار إيجاد الاختيار، ولذا ذكر إرادته الكونية والتشريعية مقابل إرادة أتباع الشهوات لا لأن إرادة أصحاب الشهوات غالبة أو ثالبة، بل لطبيعة حرية الاختيار التي تكفل العدل في نتائج الاختبار، وبذا بين أن هناك إرادتين: إرادة الله القاضية، والإرادة التي جعلها لخلقه فاختار بعضهم أن يحارب بها إرادة الله جهلًا وسفهًا وعدوانًا على نفسه وبني جنسه، إذ لو أراد الله تدمير معارضه لفعل ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ (الكهف: ٥٨).

المفهوم الثاني: ليذكرك بالطبيعة البشرية التي تجدد الوقوع في المعصية، وأن الإرادة الإلهية قائمة على التوبة الدائمة على أصحابها، بينما يريد أتباع الشهوات الميل العظيم.

المفهوم الثالث: التوبة هي الرجوع إلى الله بترك الذنب على أجمل الوجوه، فجدد ذكرها ليبين الحماية الإلهية من وقوع البشرية في أيدي أتباع الشهوات الذين يزينون الوقوع في آلام الخطيئات فهمًا أو عملًا، فكأن البشرية تسير على جسر النجاة الحامي لها من السقوط فيأتي عُبَّاد الشهوات في ظلام الغفلة ليزينوا لها الميل عن الطريق القويم الواضح أمامها لتسقط في الهاوية الكبيرة.

فانظر كيف عبر عن هذه الحماية من أتباع الشهوات بإرادته أن يتوب على عباده.

وهذه الشهوات قد تكون شهوات مالية وقد تكون شهواتٍ جسدية وقد تكون شهواتٍ عقلية، وهذه الشهوات هي التي أوقعت العالم في التشريعات المجرمة العنصرية، وأوقعتهم في جاهليتهم الأولى والمعاصرة في تشريع إبادة البشرية من خلال إباحة الإجرام الجنسي مع الرجال والنساء الذي تراضوا على تسميته بالحرية الجنسية.

ويدخل في الذين يتبعون الشهوات كل من انطبق عليه الوصف من اليهود والنصارى والوثنيين والمنافقين ومرضى القلوب ممن ينتسب إلى المسلمين.

المقصد الأعظم السادس: إرادة الرحمة بالإنسانية بتشريع الأرفق بها، والأيسر عليها، والأخف لتتبعه؛ فتجد الحياة الدنيوية الطيبة، والسعادة الأخروية المنتظرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨):

فتشريعه لها في كل المجالات أخف عليها من كل النظم والتشريعات، وأوفق لفطرتها وطبيعة خلقها مهما بلغت خبرتها، ووصلت تجاربها، والإصرار على عدم تحكيم الشريعة تكلف الإنسان المشقات الحياتية الهائلة، وتجلب على البشرية الشقاء.. هل تريد الدليل؟ انظر حولك في هذا العالم الحزين كيف يموت الملايين في الحروب، والجوع والمرض فيما دهاقنة المنظمات الدولية، وكهان الأمم المتحالفة يجتمعون، ويأكلون ويشربون ويُصرِّحون ويتاجرون.

فالآية تدل على إرادة الله أن ييسر للإنسان أقصر الطرق في حياته من الأحكام والنظام؛ إذ الإنسان أضعف من أن يجد هذا الطريق اليسير بنفسه مباشرة فإن الإنسان يلجأ إلى الاستفادة من تراكم الخبرات بعد الخبرات عبر الأجيال للبحث عن نظمٍ

أمثل أو أفضل وأحيانًا عن نظمٍ أشد مكرًا، وأخسر أمرًا، والله سبحانه يريد لنا التشريع لما نحبه بأخصر الطرق، وهذا المقصد الكبير يكرر الله ذكره في القرآن الكريم بأساليب مختلفة كقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وَقَوْله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وَقَوْله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وبين الله سبب تعليمه لنا ما يوجب التخفيف فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وضعف الإنسان يستبين في جهات:

الجهة الأولى: ضعفه الذاتي أمام المعرفة الكونية نظرًا لعمره المحدود، وضعف خلقه مقارنة بما في الكون: فالإنسان فردًا لا يستطيع تعلم كيفية التعامل مع أبناء جنسه بسهولة، فكيف يطيق معرفة التشريعات اللازمة للتعامل مع الكون من حوله؟ بل إن الأجيال يحتاجون إلى تراكمٍ كبير في الخبرات على مدى القرون للوصول إلى بعض الحقائق الكونية ليقيموا عليها بناء تشريعيًا مناسبًا، فخفف الله عنا ذلك بأن بين لنا أهم التشريعات اللازمة لتحقيق النصر والنجاح على المستوى الفردي والجماعي.

الجهة الثانية: ضعف الإنسان أمام الإغراء الشهواني الجنسي حتى يغلبه على عقله؛ إذ داعية الشهوة قوية جدًا عنده بالنسبة للشهوات الجنسية، حتى روى ابن أبي حاتم عن طَاوُس: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ «أَيْ: فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، وَقَالَ وَكِيعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ»، والمقصود شدة رغبة النساء في الرجال، ورغبة الرجال في النساء، وأنت ترى أن الشهوة تغلب على عقل المرء فربما تناول ما يضره ويدمره عندما يأخذ المحرمات، فبين الله الأحكام المناسبة للحفاظ على الحياة البشرية،

والتي تحقق له الإشباع الشهواني في غير مضرة تعود عليه، وقيد الحصول على الشهوات المختلفة بما يجعل الحصول عليها سبيلًا للذة الدائمة لا المؤقتة الزائلة.

الجهة الثالثة: ضعف الإنسان أمام الشهوات المالية والزعامة الشخصية والجاه والتصدر مما يجرئه على السرقة والتلاعب المالي والاختلاس والفساد في التعامل مع المال العام والخاص.

فخفف الله عنه هذه الأثقال الهائلة التي يجدها بسبب ضعفه بأن شرع له التشريعات الصادرة عمن أحاط بالكون علمًا، ووضع له الأحكام المناسبة للحفاظ على الحياة البشرية، والتي تحقق له الإشباع الشهواني في غير مضرة تعود عليه

وهنا لا بد من ذكر قاعدة تفسيرية مهمة هي: العموم التقعيدي لا يحصره ضرب المثال التفصيلي، ويمكنك أن تقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السياق:

فعموم الألفاظ تجعلنا نحملها على عمومها، وورود مثال تفصيلي في السياق لا يعني حصر العموم عليه، ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى ذكر أحكام النكاح والتخفيف في إلزام الحر بنكاح الحرة ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، فأوهمت عبارة الطبري أن ذلك من أجل آخر حكم في السياق فقال: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾، يريد الله أن يُيسر عليكم، بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم تستطيعوا طولا لحرة ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، يقول: يسَّر ذلك عليكم إذا كنتم غيرَ مستطيعي الطوْل للحرائر؛ لأنكم خُلِقتم ضعفاء عجزةً عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العَنَت على أنفسكم، ولم تجدُوا طولا لحرة، لئلا تزنوا، لقلّة صبركم

على ترك جماع النساء» [١].. ولكن الصحيح أن هذه الآية تقعيدٌ عام لكل ما ورد قبل الآية مما يتعلق بأحكام الشؤون الاجتماعية وأحكام الأسرة وحقوق اليتامى في سورة النساء، وكذلك أحكام الأموال والشؤون الاستثمارية والعلاقات الأسرية والدولية التي بعدها.. بل إن هذه الآية تتعلق بالتشريعات الواردة في القرآن كله، فلا يقيد السياق لفظها، ولذا روى الطبري نفسه في هذا الموضع عن مجاهد: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يُسر» [٢].

وهنا ربما تتساءل بلهفة: لماذا جاءت المقاصد في هذا الموضع من سورة النساء وبعد ذكر كثيرٍ من الأحكام التي تتعلق بهن؟ لماذا لم تذكر في أول القرآن المجيد أو في أول السورة بصورةٍ مباشرة؟

إنه الإعجاز القرآني في سرد الألفاظ والمعاني؛ فالسورة تتحدث عن الجنس الإنساني، وبثه في الأرض، وأتباع الشهوات يسيرون بالإنسانية نحو الدمار في الإباحية الكاملة، أو إشباع الشهوات في التجارة بثروات الأرض، وإيجاد الحروب لتزدهر تجارة الأسلحة في العالم،

وكذلك ترى الموضع المناسب لهذه المقاصد؛ إذ جاءت بعد الحديث عن ضوابط تكوين الأسرة التي ينبث منها الجنس البشري لأن الموضوع الشهواني أكبر موضوع يتم التلاعب به في زخرفة أتباع الشهوات الشيطانية.. ألا تراهم يزيفون الحقائق على الناس من خلال تزيين قضاء الشهوات بناء على رضا الطرفين، ورتبوا عليه التخفيف على البشر في القيود بإباحة الشيوع الجنسي، والعمل على

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢١٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢١٥)، وكذا بين عموم هذه الآيات لما ورد في هذه السورة وغيرها ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات في٢/ ٢٦٧.

الإشباع الشهواني، فكانت النتيجة شيخوخة المجتمعات، ونقصان عدد السكان في تلك الدول، فأراد الله أن يبين أن التخفيف في شرعه لا في شرع الذئاب البشرية، والمصلحة الإنسانية تكمن في النظام القرآني الضابط للعلاقات الاجتماعية الموازن بين جميع المصالح الجسدية والنفسية والعقلية والعاطفية، وليس بالغلو في جهة دون جهة.



الحصن الثاني

التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة

الحصن الثالث

المحافظ على الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس وكبائر الذنوب المدمرة (النساء: ٢٩-٣١)

آيات هذا الحصنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ (النساء:٢٩-٣١).

المناسبة والاتصال بين الحصن السابق وبقية حصون هذا المحور:

تجد اتصالًا مبهرًا بين الحصن السابق والحصون القادمة، فتأمل الإبهار القرآني؛ إذ قرر الله جل جلاله في الحصن السابق أن إدراك المقاصد الكلية للتشريعات الإلهية ينبئك عن حقيقة هذه الحياة، وحقيقة ما شرعه الله لتنظيمها، فهذه التشريعات ترجع إلى حماية الإنسانية والرحمة بالعالم، وفيما يلي ذلك من الحصون تجد تطبيقاتٍ تتعلق بإدارة الحياة الأسرية كالسعي عليها من خلال إدارة الأموال، فلا بد من الإنفاق

على الأسرة، وذكر -تعالى مجدُه- المحافظة على النفوس الإنسانية من الأخطار النفسية والخارجية، ثم خفف جل جلاله على الإنسانية عند وقوعها في السيئات الطارئة إن اجتنبت كبائر الذنوب العقدية والفكرية والمالية والاجتماعية ليحميها من القنوط واليأس، وانتقل بعد ذلك إلى تعويد الطرفين اللذين يكونان الجنس البشري على الرضى بالطبيعة والشريعة في الحياة الإنسانية ليؤدي كل واحدٍ دوره في انسجامٍ وتعاون وتكامل.

ثم قسَّم الله الواجبات على الزوجين في الحياة الأسرية، وحدد صفات المرأة التي تقوم بمسؤولياتها، فتكون موئلًا للإنسانية، وأخبرنا عن كيفية معالجة المرأة الناشز، والشقاق الطارئ بين الزوجين حتى لا يؤثر تأثيرًا سلبيًا على الأسرة وعلى المجتمع الإنساني، ثم ذكر حقوق الأسرة الكبيرة خارج الإطار الزوجي ابتداء بالوالدين ووصولًا إلى الغريب الذي يمثله ابن السبيل، بل وصولًا إلى التعامل مع ضحايا الحروب وبين حقوقهم في الإحسان إليهم حتى لو كانوا في الأصل من جهاتٍ معادية، وهنا ينقلك البيان القرآني المدهش إلى حصنٍ جديد يحميك فيه من الوقوع في صفات الذين يمنعون الناس حقوقهم لخيلائهم وفخرهم وبخلهم أو لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أو لعدم خوفهم من دقة الحساب في الآخرة، أو لعدم قلقهم من مجيئ الشهود عليهم، وبعدها ينقلك البيان القرآني إلى حصن الاستمتاع بالصلاة باعتبارها المفتاح الأساسي لمنع حالة السكر العقلي الذي يسببه الغرور أو الطيش أو الغفلة، وبذا تكون الصلاة واقية للفرد والأسرة من الوقوع في التلاعب بالحقوق الإنسانية كما ناسب ذلك أن يكون سبب نزول آيتها العلاقة الحميمة العظيمة التي تجمع بين طرفي الأسرة النبوية أعني بين النبي ﷺ وزوجه السيدة عائشة رضي الله عنها.

وكما رأيت فإنك ترى تلاحمًا مدهشًا، وتتابعًا عظيمًا متدفقًا في الأفكار، وترى تنوعًا يزيل عنك السآمة التي ربما جثمت عليك لو كان الذي يتم نقاشه نوعًا واحدًا من المواضيع.

هلم بنا الآن إلى التشريعات التي ذكرها الله في الحصنين الثاني والثالث:

التشريع الأول: يحرم أكل المال بالباطل:

وذلك ليبين لنا جل مجده نوعًا من التعامل المالي الممنوع، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾:

انظر إلى هذا التعبير الآسر: يناديهم بنداء الإيمان {يا أيها الذين آمنوا} لماذا؟

ليستفزهم ليقوموا بمقتضيات الرقي الذي بلغوه بإيمانهم، ويتنزهوا عن ظلم المجتمعات الجاهلية وانحطاطها.. كيف يزعمون الإيمان، وهم يصرون على أكل الأموال بالباطل؟ كيف يَدَّعون الإيمان وهم يصرون على العدوان بالربا، والقروض الشخصية والعالمية التي تمتص دماء الأفراد والشعوب والمجتمعات؟

ولاحظ الترتيب والاتصال: ذكر الحقوق المالية لليتامى والنساء والسفهاء، وتفاصيل توزيع الإرث، والحقوق المالية المدفوعة في النكاح، ثم ذكر المقاصد التشريعية العامة، وبعد ذلك ذكر تحريم أكل الأموال بالباطل لماذا؟ ليأتي بتقعيد عامٍّ يبين المشروع والممنوع في الكسب المالي والتجاري، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾، فبعد الأحكام المالية الجزئية السابقة التي تتعلق بأحكام تفصيلية ذكر هذا التقعيد العام، وليكون هذا التقعيد مثالًا تطبيقيًّا للمقاصد التشريعية العليا السابقة المذكورة في قوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ (النساء: ٢٦)، ولأن الكسب المالي أهم مقوِّم لحياة الأسرة، وكرامتها؛ إذ من خلاله

تستطيع التعامل مع بقية أفراد الإنسانية، ومن خلاله تنجز أعمالها، وتحمي نفسها من الاستغلال، ولذا كان لا بد من التحذير من أن يكون الكسب بالباطل، أو الإنفاق بالباطل، فجاء هذا التعبير المميز: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ليعبر عن الكسب والإنفاق، وإذا كان الله حرم أكل مهور النساء بالباطل، وحرم أكل أموال اليتامى ظلمًا، فإنه الآن يعمم القضية على كل أكلٍ ظالم باطل للمال بعد أن ذكر التنظيم الاجتماعي الأسري تمهيدًا لبيان واجب الزوج في الاكتساب والإنفاق على أسرته، وإنك لتكتسب في هذا التعبير القرآني المبارك ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ أربعة معانٍ:

المعنى الأول: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ التي تملكونها، فيحرم على الإنسان أن يأكل أمواله بالباطل، كأن يتلاعب بها أو يصرفها في السفه واللعب والسوء والقمار وإيذاء الآخرين، والاعتداء على العالمين.

المعنى الثاني: يحرم عليكم أن تأكلوا أموال غيركم، فكلمة ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ أي أموال غيركم؛ لأن أموال الآخرين بمثابة أموال النفس، وإنما قال ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾؛ لأن أموال الآخرين بمثابة أموال النفس، فقد عظَّم الإسلام حقوق المجتمع حتى جعل مال كل واحدٍ كأنه مال الإنسان نفسه، فالبصيرة القرآنية المأخوذة من هذه الكلمة: المسلمون في مصالحهم المشتركة، وحياتهم المتآخية كنفسٍ واحدة.

المعنى الثالث: أن يستأثر الغني بمال الله الذي استخلفه عليه غير شاعرٍ بواجبات الجسد الواحد في الأمة الواحدة أو في الرحم الإنسانية الواسعة، فيستأثر به على المحتاجين، ويمنعهم إقراضًا أو إعانة، أرايته صار عبد الدينار ونسي أن المسلمين كالجسد الواحد؟ بل أما يذكر الإنسان أن امرأة دخلت النار في هرة؟ وهل يُلزم الإنسان بالتبرعات لبقية أفراد الأمة؟ الآية تحذره من أن الإسراف والتبذير والنفقة المبالغ فيها في الكماليات نوع من أكل الأموال بالباطل، ولذا يحثه على التطوع في

المجالات الإغاثية أو التي تبني الأمة بعد أن تؤخذ منه الواجبات من الزكاة والنفقات الواجبة.. وهذا بناء على أن الحث الشديد على بذل الأموال تطوعًا لا بناء على الإلزام المدمر الذي اقترفته الاشتراكية التي بدأت خاطئة، وانتهت تافهة، وهي واحدة من البنات غير الشرعيات للمسيحية المحرفة [١].

المعنى الرابع: لا تأكلوا المال العام بينكم بالباطل أي بدون وجه حق واضح عندكم فيه برهانٌ بيِّن، فإن النبي ﷺ جعل للعمال والموظفين والولاة مقدارًا محددًا من المكافآت والحوافز ولخصها في قوله: «من ولي لنا عملًا وليس له منزل فليتخذ منزلًا، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادمًا، أو ليست له دابة فليتخذ دابة. ومن أصاب شيئًا سوى ذلك فهو غال» [٢]. ويبين النبي ﷺ خطورة استعمال المال العام بالباطل فيقول: «لاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ، وَلاَ أَنْ يَبْتَاعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقْسَمَ، وَلاَ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا مِنْ فَيْءِ المُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ رَدَّهُ فِيهِ، وَلاَ يَرْكَبَ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ المُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ» [٣]. فانظر لثراء هذه الكلمة القرآنية {أموالكم} بالمعاني التي تفهم من خلال السياق، وبموجب هذا القانون القرآني لا يتصور وجود فقير في البلاد الإسلامية المستقرة؛ فإن وجد كما هو الحال الآن فذلك لخلل في تطبيق الإسلام.

تعال معي الآن إلى هذا التعبير القرآني الجميل: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لماذا خصص الأكل دون سائر التصرفات؟

---

(١) وصف الاشتراكية بذلك نيتشه.

(٢) أحمد (٤ / ٢٢٩) برقم ١٨٠٤٤، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة.

(٣) أحمد (٤ / ١٠٨) برقم ١٧٠٣١، وقال الأرناؤوط صحيح بطرقه وشواهده.

لأن الأكل أساس التصرفات، فالمراد لا تنفقوا هذه الأموال بالباطل، ولا تنتفعوا بها بالباطل، والتعبير عن الانتفاع بالأموال بأكلها شائع في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (النِّسَاء: ٤) وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النِّسَاء: ٦).. وفي كل موضع نجد مناسبة خاصة لهذا التعبير الفريد بعد بيان أن الأكل أساس التصرفات، فسبب التعبير هنا بالأكل: تبشيع الصورة، فكأنكم عند الإنفاق السيء قد أكلتموها، واستمتعتم بتلك الطريقة في الإنفاق.. تخيل إنسانًا يأكل النقود المالية مباشرة!

وكذلك يفيد هذا التعبير استشناع الأفعال الرديئة في الإنفاق، فكأن المنفق للمال عند تلاعبه بأموال اليتامى مثلًا يأكل هؤلاء اليتامى، وكأن المنفق في اللهو واللعب يأكل ما يلهو به ويلعب.

ماذا تبقى من البصائر المدهشة في المعاني المتسلسلة في هذه الجملة من الآية؟..

بقي لنا أن نعرف كيف يتم الأكل بالباطل، ولنتعرف إلى كيفية أكل المال بالباطل لا بد أن نتعرف على معنى كلمة (الباطل) أولًا، فالباطل مشتق من بَطَلَ الشيءُ بُطْلًا وبُطُولًا وبُطْلانًا، بضمِّهنّ إذا ذَهَب ضَياعًا وحسرة وخُسْرًا، وَمِنْه قولُه تعالَى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [1] فالباطل الضياع والخسار، وبذا يكون المراد من الآية: لا يجوز أكل المال ضياعًا وخسارًا دون مقابلة شيء حقيقي نافع.. إذن المعرفة القرآنية تقوم على حفظ أموال الناس، وهذا يدل على نهضة الشريعة في إيجاد حركة التبادل التجاري الحقيقي في المجتمع المسلم، وتحريم الأكل بالباطل يشمل كل أنواع الباطل، والآية تنظم طريقة التعامل المالي، وتبني الواقع الاستثماري على الحق والحقوق، وليس على الأكل بالباطل، والأكل بالباطل يرجع إلى ثلاثة أنواع:

(١) تاج العروس (٢٨/ ٨٩).

النوع الأول: التعامل الاستثماري المحرم كالرّبا والقمار والبخس والظلم والغصب والتغرير والجهالة.

والنوع الثاني: التعامل المالي التجاري الممنوع لوصف شرعي زائد منع منه كالبيع بعد الأذان الثاني من يوم الجمعة، أو بيع البعض على البعض، أو البيع قبل القبض كما جاء عن ابْن عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَنِ ابْتَاعَ طَعَام فَلاَ يَبِعْهُ حَتَّى يَقْبِضَهُ[1].

النوع الثالث: أن يأكل إنسان مال آخر بغير عوض بغير طيبة نفسه، كأن يأكله على سبيل الحياء، أو على سبيل الغصب والإكراه، أو على سبيل المغالبة في القوة والجاه، ولذا قال النبي ﷺ: «إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه»[2]، وهذا المنع لأكل المال بغير عوض عام في كل إنسان سواء أكان حاكمًا أم محكومًا، فالآية تبني الاستثمار العام والخاص، وتحمي المال العام والخاص، إلى الحد الذي يمنع فيه الشارع أن يأكل الضيف مال غيره من إخوانه فوق مقدار الضيفة المقررة شرعًا دون مبرر سائغ، ولذا روى الطبري ما يدل على الحساسية الإيمانية المخبتة للصحابة ﷺ عندما سمعوا هذه الآية وعلى تطبيقهم المشرق لما يظهر في الآية من مفاهيم وأرادوا الاجتهاد في تطبيقها، فعن عكرمة والحسن البصري قالا في هذه الآية: فكان الرجل يتحرّج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، فنسخ ذلك بالآية التي في «سورة النور»، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فكان الرجل الغنيّ يدعو الرجلَ من أهله إلى الطعام،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٨٩) برقم ٢١٣٣.
(٢) أحمد(٥ / ٧٢) برقم ٢٠٦٩٥.

فيقول: «إني لأَتَجَنَّح»! و«التجنح» التحرّج، ويقول: «المساكين أحق به مني»! فأحل من ذلك أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأحلّ طعامَ أهل الكتاب [١].

التشريع الثاني: الحث على الاستثمار المشروع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ (النِّسَاء: ٢٩)، فالتجارة المرضية كلوها أي تصرفوا في أرباحها لا بالباطل:

انظر الآن إلى الكمال القرآني في صياغة الكمال الحياتي.. بعد أن بين أن التطبيقات للمقاصد الشرعية العظمى تحريم أكل الأموال بالباطل ينقل الناس إلى البديل الشرعي الذي يملأ حياتهم بعيدًا عن الباطل، وهو التجارة المشروعة، ولذا قال: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}، فالاستثناء هنا يمكن أن يكون منقطعًا، والتقدير: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولكن إذا كانت تجارة عن تراضٍ منكم جاز لكم الأكل لا بالباطل، والاستثناء المنقطع مشهور في الاستعمال العربي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي لكن من تولى ﴿وَكَفَرَ﴾.

ويحتمل أن يكون الاستثناء متصلًا، والتقدير: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وإن تراضيتم على ذلك إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ شرعي بينكم فكلوا أرباحه، فالتجارة المتراضى عليها يجوز أن يأكل الإنسان فيها المال، أما الأكل بالباطل فلا يجوز حتى لو تم التراضي عليه [٢]، وستسأل: لماذا اختار أداة الاستثناء لتكون بيانًا للتجارة المشروعة، مع أنه كان يمكن اختيار أسلوبٍ أكثر وضوحًا؟ هنا تأتيك بعض أنباء هذا الاختيار القرآني:

فمنها أن يدخل التسامح في الأكل بالباطل حال التجارة إذا كان يسيرًا مما يشق

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢١٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٠/ ٥٧).

على المرء تركه، ومنها أن الأداة الموهمة للاستثناء تدل على البديل المخالف لأوصاف المستثنى منه المحرم.

ويبصرك ذلك بأن الإسلام يمنع من إطلاق اسم التجارة على كل تعاملٍ ماليٍّ باطل، ومما يدل على أن العرف القرآني يجعل الاستثناء يعود إلى الباطل اللغةُ القرآنية المجيدة، فهي تنفي اسم التجارة عن كل تعاملٍ مالي باطل، فقد قال الله -تعالى مجدُه-: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، فجعل البيع مقابل الربا، وقد جعل الله البيع أخص من التجارة، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ (النور: ٣٧)، فصارت الأقسام أربعة: تجارة وبيع وربا وأكل للمال بالباطل، فالتعامل المالي الباطل لا يسمى تجارة ولا بيعًا، ولو سماه الناس بذلك.

ففي هذه الجملة المباركة تشريع التعامل الاقتصادي النزيه الحلال، والحث على إدارة التجارة والتفوق الاستثماري فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾، فإذا انتفى التعامل المالي الباطل فليربح في الدرهم ألفًا إن استطاع في غير غبنٍ ولا خديعة للناس؛ إذ ذلك أكل بالباطل.

أتعلم أن هذه الآية التي تحث بمفهومها على إقامة المراكز التجارية على أوسع نطاق، وترد بذلك على ثلاث فئاتٍ:

أما الفئة الأولى: فالشيوعيون؛ إذ قد تأتي الشيوعية المعاصرة لتسأل باستنكار: إن التجارة تعني وجود ربح، فلماذا يبيح القرآن أخذ الربح بدلًا من المساواة بين الناس؟ فنبئْهم -أيدك الله- أن التشريع القرآني جاء وفق الفطرة البشرية لإقامة السعادة الحياتية، ولذلك أباح الأكل الزائد في التجارة للترويج لأكل السلع، وإلا نام الاستثمار، وتعطلت مصالح الناس، ويدل لذلك ما فِي «المُوَطَّأِ» عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِي احْتِكَارِ الطَّعَامِ «وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ عَلَى عَمُودِ كَبِدِهِ

فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ وَيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ».

وأما الفئة الثانية: فالكسالى الخاملون القدماء والمعاصرون الذين يزعمون أنه لا داعي للسعي والتجارة، وأن كتابة الرزق عند الله مغنية عن طلبه.

وأما الفئة الثالثة: زاعمو الزهد الذين ينسون هذه الآية، ويعرضون عن قول عبد الرحمن بن عوف ﷺ لصاحبه سعد بن الربيع ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ» [(١)].

وأشار لهذه الفئة الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، وأخبر أن الآية رد عليهم، فقال: «ففي هذه الآية إبانةٌ من الله تعالى ذكره عن تكذيب قول الجهلة من المتصوِّفة المنكرين طلبَ الأقوات بالتجارات والصناعات، والله تعالى يقول: ، اكتسابًا منا ذلك بها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾»[(٢)].

وقد فهم كبار المفسرين من الآية هذا التشريع التجاري العظيم الذي يحرك عجلة التنمية المجتمعية، فقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: (التجارةُ رزقٌ من رزق الله، وحلالٌ من حلال الله، لمن طلبها بصدقها وبرِّها. وقد كنا نحدَّث: أن التاجرَ الأمين الصدوقَ مع السبعة في ظلّ العرش يوم القيامة) [(٣)].

وهذا القانون: (مشروعية التجارة عن تراض) ينبثق عنه أنظمة تنظيمية تفصيلية ضابطة للتجارة، ومنها: خيار الرؤية، وخيار المجلس عند الشافعي، وما ذكره فهمه الصحابي التاجر حَكِيم بْن حِزَامٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٦٩) برقم ٢٠٤٩.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٢٠).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٢١).

لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» (١).

وهذه الآية على قصر ألفاظها استنبط منها الشافعي بفهم دقيق عدم جواز بيع المعاطاة حتى يثبت الرضا بالأقوال احتياطًا من حدوث نزاع لاحق، واختيار الأئمة جوازه بدلالة الحال استنباط دقيق مقابل، ويمكن إعمال الأمرين في حالاتٍ لائقات بكل منهما.

التشريع الثالث: حماية النفس الإنسانية.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء:٢٩):

تعال الآن إلى سبق تشريعي بأسلوب قرآني بياني معجز، فهذه الجملة القرآنية الدستورية تتضمن عددًا من المعاني الحافظة للمجتمع:

المعنى الأول: ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملة واحدة، ودعوة واحدة، فالضميران فيه على التوزيع، فأنتم كنفس واحدة، فمن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه، وهذا مصطلح قرآني فريد مدهش نوجهه لأمة فعل بعض أبنائها بها ما لم تفعله الوحوش الضارية بفرائسها، فانظر لمكانة الأخ المسلم من أخيه، حيث جعل المؤمنين كنفس واحدة، ولذا تقول العرب: قُتِلْنَا وَرَبِّ الكَعْبَةِ إِذَا قُتِلَ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ قَتْلَ بَعْضِهِمْ يَجْرِي مَجْرَى قَتْلِهِمْ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١) على قراءة حمزة.

المعنى الثاني: لا تقتلوا أنفسكم بالانتحار مهما كانت الآلام والهموم والغموم والقلق، ولا تقتلوا أنفسكم بالاكتئاب والحزن، بل يجب على المجتمع أن يخففوا

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ٧٦) برقم ٢٠٧٩.

عنكم تلك الآلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» (١)، وعَنِ الحَسَنِ، حَدَّثَنَا جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فِي هَذَا المَسْجِدِ وَمَا نَسِينَا مُنْذُ، حَدَّثَنَا وَمَا نَخْشَى أَنْ يَكُونَ جُنْدُبٌ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» (٢).

حتى لو كان الانتحار بمجرد الامتناع عما يحتاجه الجسد كما قال الجصاص: «وَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ المُبَاحِ حَتَّى مَاتَ كَانَ قَاتِلًا نَفْسَهُ مُتْلِفًا لَهَا عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ العِلْمِ وَلَا يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُمْ حُكْمُ العَاصِي وَالمُطِيعِ. بَلْ يَكُونُ امْتِنَاعُهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ الأَكْلِ زِيَادَةً عَلَى عِصْيَانِهِ» (٣).

وإنك لتعجب من سعة هذه الرحمة الإلهية بالبشرية؛ فإن القلق والاكتئاب سببٌ أساسي للانتحار في البلدان الغنية أكثر من البلدان الفقيرة.

المعنى الثالث: لا تقوموا بالجرائم التي تعاقبون عليها بالعقوبة القصوى لتحموا أنفسكم والمجتمع من انتشارها، مثل جريمة الخيانة العظمى التي فيها تدمير للإنسانية وبثها في الأرض.

المعنى الرابع: لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب المعاصي التي تسبب البؤس الفردي، والدمار الجماعي، وتهلك عقولكم وأرواحكم، وقد جعل النبي ﷺ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ١٨١)، ومسلم١/ ٧٢.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٠٨).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١/ ١٥٥).

غشيان المعاصي إحراقًا للنفس، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الفَجْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا» (١).

المعنى الخامس: لا تقتلوا أنفسكم بفعلٍ يؤدي إلى إيذاء النفس أو إزهاقها حتى لو كان الفعل طاعةً إلا أن تكون طبيعته مقتضية لذلك مثل الدفاع عن الإيمان والبلدان والمستضعفين، ويدل لهذا فقه عمرو بن العاص ﷺ في معنى الآية.. إنه فقهٌ أقره عليه النبي ﷺ لما بعثه عام ذات السلاسل حيث قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قلت: نعم يا رسول الله. إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا (٢).

المعنى السادس: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم في تحصيلها بل ابحثوا عن الكسب المشروع على رضا وهون، وهذا معنى جميل يظهر من السياق الخاص.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩ / ١٤٨) برقم: (٨٧٣٩) وفي «الأوسط» (٢ / ٣٥٨) برقم: (٢٢٢٤) وفي «الصغير» (١ / ٩١) برقم: (١٢١) . وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » ٢ / ٣٣ (رواه الطبراني في الثلاثة إلا أنه موقوف في الكبير ورجال الموقوف رجال الصحيح ورجال المرفوع فيهم عاصم بن بهدلة وحديثه حسن) .

(٢) أحمد(٤ / ٢٠٣).

المعنى السابع: لا تقتلوا أنفسكم باتباع الأنظمة الجاهلية.. لا تقتلوا أنفسكم بتقديم الأهواء الغوية على تشريعات الكتاب الخاتم.. تتوهمون السلامة في تلك الأفكار والتشريعات وتبتعدون عما أمر به رب الأرض والسموات فإذا أنتم قد وقعتم في الهلكة والدركات، وهو أيضًا معنى معتبر يدل عليه السياق العام.

فالآية تدل على تحريم قتل النفس والاعتداء عليها وتحريم كل ما يؤدي إلى ذلك من الوسائل التي تدمر النفس دينيًا أو دنيويًا سواء أكانت نفس الإنسان، أم نفس أخيه فهي بمثابة نفسه التي بين جنبيه.

وختم ما سبق بهذه الكلمات الحاكمة المعظمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ (النساء:٢٩):

هذا التذييل للآية، والإكمال لها يدل على التعليل للأوامر والنواهي والتشريعات السابقة، ويمكننا أن نجعله ضمن المقاصد الكبرى للتشريعات القرآنية أن الله يريد الرحمة بالبشرية بخبرته الكاملة وعلمه الشامل، بينما لا تعرف الإنسانية التشريعات المناسبة إلا من خلال خبرةٍ غير تامة مهما تقادم الزمان، ولذا قال جل ذكره: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ (الأنعام: ١٥٧)، ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٥٢)، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ (الإسراء: ٨٢)، فكل التشريعات سببها إرادة الرحمة بالبشرية، فالله أرحم بالعبد من العبد لنفسه، فهو خلقه حيث لم يكن شيئًا، ثم أعطاه وحباه بكل ما يحتاجه من الأجهزة الجسدية والأعضاء العضوية، وهو فقيرٌ معدم، حيث هداه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبين له كيف يسلك في حياته الطريق الأسلم.

التشريع الرابع: حق البشرية في ردع المجترئ على العدوان بالعقوبة المناسبة،

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٣٠):

فهذه الآية تبصرك بأن وجود العقوبة يردع الإنسان عما يسبب الفساد في الأرض، فكلمة ذلك في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كل المذكور القريب، وهو أكل أموال الناس بالباطل، وقتل الأنفس، ويجوز عودته إلى كل المنهيات في الشرع كانتهاك حقوق اليتامى والأطفال وإشاعة الفاحشة، وانتهاك المحرمات، وأكل الأموال باطلًا، والقتل بغير الحق.. وقد توعد الله المجترئين على انتهاك حدود الله سابقًا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٨)، فهذا التكرار لذكر العقوبات مقصود ليحدث التكامل بين المخاطبة العاطفية التي توقظ القلوب، وتبني الضمير والرقابة الذاتية، وفي الوقت ذاته يتم تنبيه العقول أن هناك عواقب تترتب على الأفعال الخاطئة والتصرفات المنحرفة، وانظر إلى ظهور الرحمة التشريعية القرآنية هنا، فقد قيد فاعل تلك المنهيات بأمرين: العدوان والظلم:

فأما العدوان فهو التعدي على الحق، وهذا القيد لبيان أن أكل المال مثلًا قد يكون حقًا لا اعتداء مثل: الدية، وأداء الحقوق، وكذلك قتل النفس قد يكون حقًا كما في القصاص.

وأما الظلم فذلك قيدٌ لبيان أن مرتكب الذنب يكون مصرًا عليه ظالمًا لنفسه فيه بخلاف التائب، فالظالم يقترف الجرم لا على أنه زلة عابرة فتستر، ولا خطيئة طارئة يتوب منها فتغفر له، بل إصرارًا يدل على حب الظلم والاعتداء والانحراف عن فطرة الأسوياء.

وانظر لهذا النظام القرآني الدقيق المدهش؛ فإن تلك الجرائم لا يستحق صاحبها

العقوبة القصوى إلا إذا جمع بين العدوان والظلم، فأما العدوان دون ظلم فيترتب عليه عقوبة تأديبية تنبيهية كأن يقتل الإنسان غيره خطأ فهذا عدوان لم يقترن به إرادة الظلم، وإن كان قد اقترف أمرًا عظيمًا، لكن عقوبته لا تصل إلى عقوبة من جمع بين العدوان والظلم.

فإذا توفر الشرطان: الاعتداء والظلم تحتمت العقوبة على الظالمين المعتدين؛ لذا قال الله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ليبين أن العقوبة آتيةٌ لا محالة، وإن بدا للظالم المعتدي أن عمره يتطاول دون رقيب، وإن إجرامه لا يؤاخذ عليه.. فسوف يأتي يوم عقوبته، وهذه الكلمة ﴿فَسَوْفَ﴾ التي تدل على المستقبل تبين أن الوقت الذي ستأتي فيه العقوبة هو المستقبل مهما كان بعيدًا، ولكنها لا تدل على عدم العفو لمن أراد الله أن يعفو عنه، بل تدل على أن المستهتر هو المعتدي الظالم، فلا يظنن الإمهالَ له كان غفلةً عن أفعاله، ولذا قال بعد ذلك ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ .. لا بد أن تحتفيَ بهذا الختام الذي يجيب على أسئلة الحائرين: لماذا لا يعاقب الله الظالمين على الفور؟

إن معاقبة الله للمعتدين الظالمين يسير عليه في الدنيا والآخرة إن شاء.. لا تظنن أن ما يقع من الظلم في الأرض بين البشر يغيب عن عظيم العلم والقوى والقدر؛ فإن معاقبتهم أمرٌ يسير عليه، ولكنها الإرادة الإلهية ليمهلهم وليتوب عليهم عسى أن يتوبوا فيقبل توبتهم.

فيسير على الله أن يعاقبهم فلا يقولن أحد كما قال الغافلون من قبل: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٥)، وَلَا يَنْخَدِعُوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ

التشريع الخامس: حق تكفير سيئات من اتقى المهلكات

ويُبَصِّرُنا به قول الله جل ذكره: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء:٣١):

إنه مثالٌ تطبيقيٌّ عظيمٌ يدل على المقاصد التشريعية الرحيمة بالإنسانية الواردة في قوله : تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦)، فهذه الآية من الآيات التي تفيض بالرفق والرحمة بالإنسانية.. ألا تجد أن الطبيعة البشرية تميل إلى الهوى، وتقع في الغواية والشهوة وردئ العمل، وتسقط في شباك الزلل والخلل.. قد رحم الله ضعفها، فجعل لها حدًّا فاصلًا بين نوعين من المعاصي، وفرق لها في الذنوب والخطايا، وفصل بين الجرائم الكبيرة والجرائم الصغيرة.

لقد أراد جل جلاله حقًا أن يتوب علينا وأن ييسر لنا سبيل الانتصار أمام حرب الشيطان المستعرة؛ فإن خسرنا معركة أمامه لم يدفعنا ذلك إلى اليأس والإحباط والقنوط، والاستسلام للإرادة الخبيثة للذين يتبعون الشهوات.

انظر إلى جمال هذا النظام الإسلامي وواقعيته! ارتشف هذه النسمات العبقة من السماحة الإسلامية، ومناسبتها للطبيعة الإنسانية، فبعد أن وضع الله النظم والتشريعات، وأقام موازين الحقوق والواجبات التي تحفظ الإنسانية من أهواء المفسدين فيها، وأدناس عباد الشهوات، وبعد أن حذر من اجتياز منظومة الحدود والقوانين الضابطة للحياة الإنسانية.. بعد ذلك كله شرع ما يناسب الضعف البشري الأصيل، وأخبر عما يوازي التقلب البشري بين النشاط والفتور، والقبض والبسط، والإقبال والإدبار، وكما نبَّه بالتحذير على ضرورة الاتباع للنظم الإسلامية الحافظة للحياة الإنسانية، فقد أتبع ذلك بالتبشير لمن عيي أو زل أو تردد واختل، وحتى

لا ييأس العاصي، ولا يقنط المذنب؛ لأن البشر كلهم ذوو خطأ، ففتح الله أبواب الرحمة مشرعة فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

فمعنى ﴿تَجْتَنِبُوا۟﴾ تتركوا الشيء جانبًا لا تقربونه، والأمر باجتناب الشيء أبلغ من تحريم الشيء؛ إذ الأمر باجتناب الشيء يعني مباعدته مباعدةً يختفي معها وجوده من بصر الإنسان، وهنا تعلم لماذا قرن الله الاجتناب بأفظع المنهيات مثل قوله جل ذكره: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ (الحج: ٣٠)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

فقسم الله الذنوب إلى كبائر وسيئات، فانظر لهذا البيان إذ قابل بين الصفة في قوله: ﴿كَبَآئِرَ﴾ والموصوف في قوله {سيئات}، وإذا أعملنا مبدأ الاحتباك البلاغي هنا يكون المعنى: إن تجتنبوا الذنوب الكبائر، نغفر لكم السيئات الصغائر، فالكبائر هي الفعائل العظيمة، والذنوب الجسيمة التي يستعظم الإنسان وقوعها أو رؤيتها أو السماع عنها أو فعلها، والسيئات ما تسوء صاحبها أو تسوء غيره عاجلًا أو آجلًا، وهذا التقسيم قد تكرر في القرآن في مواضع مثل قوله -تعالى مجدُه-: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القَمَر: ٥٣)، وقال جل ثناؤه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩) وقوله جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم: ٣٢)، واللمم هو الصغائر أو مقدمات الكبائر دون فعلها من ألمت النخلة إذا قاربت الإرطاب، وألم الصبي إذا قارب البلوغ.

واسمع التقسيم إلى كبائر وصغائر بصورةٍ أخرى أكثر تفصيلًا؛ إذ يقول تعالى

جده: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحُجُرَاتِ: ٧)، فالمنهيات ثلاثة: كفر، وفسوق، وعصيان، فإذا وقع الذنب فلا تجزع جزعًا يصل إلى اليأس.. بل قل كما قال أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعًا إن الذي تحذرين قد وقعا

ثم افزع إلى الله، وقل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (القصص: ١٦)

فجعل الله العلامة التي تدل على بذل طاقتك في الطاعة اجتناب الكبائر، وحتى الكبائر جعل الله لها طريقةً للمحو والإزالة بالتوبة والأوبة الصادقة إلى الله فقال تعالى جده: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، بل من الواقعية العظيمة لهذا الدين أن وصف فاعلي ذلك بالمتقين.. صَدِّق هذا الخبر واحمد الله.

ووعد الله جل مجده مجتنب الكبيرة بأمرين: الأول: تكفير السيئات، والتكفير التغطية والستر وذلك يعني سترها عن الخلق، وعدم إيقاع العقوبة، والثاني: المدخل الكريم، وله صفتان:

الصفة الأولى: تبينها قراءة نافع وأبي جعفر: ﴿مَدخلًا﴾ بالفتح، أي مكان دخولهم سيكون كريمًا، ووصفه بالكريم يقتضي أن يكون نفيسًا في نوعه يجذب الأنظار في طيبه وحسنه، مكرَّمًا بنفي الآفات والعاهات عنه، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخول الكدر في عيش من دَخله.

الصفة الثانية: تبينها قراءة الجمهور ﴿مُّدْخَلًا﴾ بالضم، أي: سيكون إدخالهم كريمًا، أي: لائقًا بهم في أعلى درجات التشريف لما سيجدونه من الإكرام، فوَصَفَ الإِدْخَالَ بِالكَرَمِ بِمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ الإِدْخَالَ يَكُونُ مَقْرُونًا بِالكَرَمِ كما قال

تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ (مريم: ٨٥) عَلَى خِلَافِ مَنْ قَالَ اللَّه فِيهِم: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧)، ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ (الفرقان: ٣٤)، ونلاحظ في الآيات تكرر الدمج الرائع بين التربية والتشريع على الطريقة القرآنية الفذة بعيدًا عن اللغة القانونية الجافة المحضة، ونأيًا عن اللغة النفسية التربوية المستضعفة بعدم وجود إلزام قانوني، لتكون الشريعة بهذا التكامل الفذ هي الوحيدة الواقعية المناسبة للنفس الإنسانية التي تجمع الهوى والتقوى.

وإذا كانت الصغائر تكفر باجتناب الكبائر، فإن الكبائر تكفر بالتوبة كما سبق في حقوق العصاة إذا عادوا إلى دفء الاستقامة، ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ: قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[1]، بل إن الله يبدلها حسنات كما قال جل ذكره: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠)، وهنا ترى جمال إعمال الترتيب المصحفي؛ إذ النساء في الترتيب المصحفي قبل الفرقان، وفي النساء الوعد بتكفير السيئات بناء على اجتناب الكبائر، وفي الفرقان الوعد بتبديل السيئات حسنات بناء على التوبة والفزع إلى العمل الصالح.

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٧٨) برقم ٧٥٠٧.

وربما اشتقت إلى معرفة عدد هذه الكبائر التي تمثل الجرائم الكبرى في الحياة الإنسانية.. هذا علمٌ تستحق الإنسانية معرفته.. فلو رجعنا إلى القرآن الكريم، والسنة الشارحة له لوجدنا تنصيصًا على العدد سبعة، فعن أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ قالا: خطبنا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «والذي نفسي بيده» ثلاث مرات ثم أكب، فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى فكانت أحب إلينا من حمر النعم ثم قال: «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة فقيل: له ادخل بسلام» [(١)]..إنه المدخل الكريم.. اللهم اجعلنا من أهله.

ولكنك تجد في مواضع أخرى تنصيصًا على العدد تسعة، ويمكن جعل هذه التسع أمهاتٍ للجرائم العظمى في المجتمع، ويتفرع عنها ما يقرب من سبعين، فقد جاء رجل إلى ابن عباس ﷺ فقال: أرأيت الكبائرَ السبع التي ذكرهن الله؟ ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منها إلى سبع [(٢)].

ولعل ابن عباس ﷺ وعلماء التربية الإيمانية إنما ذكروا أنها أقرب إلى السبعين لئلًا يهونوا من أمر القبيح، ولئلا يفهم الناس الخطأ عندما يسمعون قلة ما يُعدُّ من الكبائر، فيغريهم ذلك على اقتراف السوء، وإتيان المعصية بزعم أنها ليست كبيرة، والأمر صحيح، فإن التأفف أو التضجر غير الظاهر من الوالدين مثلًا قد ينتمي إلى الصغائر، فيظن بعض الغافلين أن انتماءه إلى الصغائر يسوِّل فعله أو تكراره، عندها يقع في شَرَك الشيطان وكمينه، فيصبح التضجر أو عدم التبسم أمام الوالدين عادة، فما ذاك إلا السوء المبين، والكبيرة حقًا، باعتياد المرء، وتهوينه من أمرها لا بفعله لها فعلًا عارضًا.

(١) سنن النسائي (٥ / ٨) ورواه الطبري وصححه شاكر.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٤٥).

وهنا ربما تساءلت عن المعيار الذي به تكون الكبيرة كبيرة.. كذلك تساءل العلماء من قبل، فاعلم -وفقك الله- أن الذي يجعل الكبيرة كبيرةً إما الاستهانة بفعل السيئات، وإما النص على الكبيرة في الكتاب والسنة:

فأما الاستهانة فإنك تبصره من التعبير عن مقابل الكبيرة بالسيئة في هذه الآية حيث قال الله -تعالى جده- ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١) فما تكون السيئة؟

السيئة هي الفعلة التي تسوء، وهذا التعريف يصدق على الكبيرة والصغيرة، فقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١) فالذين اجترحوا السيئات هنا يقابلون المؤمنين الذين عملوا الصالحات، فيدخل في مجترحي السيئات الكفار، كما يدخل أصحاب الكبائر، ومما يبين المصطلح القرآني لكلمة السيئة قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (النساء: ١٨)، فلعله لاح لك أنه يمكن تقرير أن السيئة المرادة في آيتنا هنا: التي لم تقترن باستهانة، وتصبح السيئة الصغيرة كبيرة إن اقترنت باستهانة واستخفاف بها، أو إصرارٍ عليها؛ لأن الإصرار يدل على عدم المبالاة.

وإذا كانت الاستهانة بالمعصية تجعل الصغيرة كبيرةً، فإن الفزع من الذنب يورث الندم فيتوب الإنسان منه، وهنا قالوا: لا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، فإن ارتكب المعصية بسبب ثورة شهوة غضبية أو جسدية أو فكرية مع كون صاحبها يخاف الله واليوم الآخر فنرجو أن يدخل في قول ربنا جل ذكره: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء:٣١).

وأما النص على فعل بأنه من الكبائر فقد وضع ابن عباس ﷺ ضابطًا لها فقال:

«الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعْنة، أو عذاب» [١]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَإِمَامِ الحَرَمَيْنِ، وَالغَزَالِيِّ وَاسْتَحْسَنَهُ الرَّازِيُّ: إِنَّهَا كُلُّ مَا يُشْعِرُ بِالِاسْتِهَانَةِ بِالدِّينِ وَعَدَمِ الِاكْتِرَاثِ بِهِ، وَهُوَ قَوْلٌ مَقْبُولٌ قَرِيبٌ مِنَ المَعْقُولِ [٢]،

وقد سمَّاها النبي ﷺ الكبائر تسمية معبرة مدهشة؛ إذ سماها المقتلة، فعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: أ«تدري ما يوم الجمعة»؟ قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم. قال: «لكني أدري ما يوم الجمعة. لا يتطهر الرجل فيحسن طُهوره ثم يأتي الجمعة، فينصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة» [٣].. لا بد لنا أن نأخذ أمثلة على هذه الكبائر التي يجب اجتنابها فهي التي تمثل مقتلة الإنسان:

فيدخل في الكبائر: تَطْفِيفُ الكَيْلِ وَالمِيزَانِ وَإِخْسَارُهُمَا، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١)، والتطفيف يَصْدُقُ على القَلِيلِ وَالكَثِيرِ، وَالهَمْزُ وَاللَّمْزُ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة : ١)،

ومنها ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيّ ﷺ فقال: ما الكبائر؟ قال: الشرك بالله. قال: ثم مَهْ؟ قال: وعقوق الوالدين. قال: ثم مَهْ؟ قال: واليمين الغَموس. قلت للشعبي: ما اليمين الغَمُوس؟ قال: الذي يقتطع مالَ امرئ مسلم بيمينه وهو فيها كاذب [٤]، وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكئ، فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وفرارٌ من الزحف، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغُلول،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٤٦).

(٢) تفسير المنار٥/ ٤١.

(٣) أحمد(٥ / ٤٣٩)، وصححه الأرناؤوط.

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٤٩).

والسحر، وأكل الربا. فقال رسول الله ﷺ: فأين تجعلون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (سورة آل عمران: ٧٧) ؟ [١]، وكأن النبي ﷺ كان يدربهم على استنباط الكبائر، فلفت نظرهم إلى ما فيه وعيد شديد، وأنه حريٌّ أن يدخل في الكبائر مثل اليمين الغموس، وعن محمد بن سهل بن أبي حثمة، عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد، مسجد الكوفة، وعليٌّ يخطب الناسَ على المنبر، فقال: (يا أيها الناس، إن الكبائر سبعٌ)، فأصاخ الناس، فأعادها ثلاث مرّات ثم قال: ألا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هي؟ قال: (الإشراك بالله، وقتلُ النفس التي حرّم الله، وقذفُ المحصَنة، وأكلُ مال اليتيم، وأكلُ الرّبا، والفرارُ يوم الزحف، والتعرُّب بعد الهجرة). فقلت لأبي: يا أبهْ، ما التعرّب بعد الهجرة؟ كيف لحق ههنا؟ يقصد: لماذا جعل النبي ﷺ البداوة بعد الهجرة من الكبائر؟ فقال: يا بنيّ، وما أعظم من أن يهاجر الرجل، حتى إذا وقع سَهمه في الفيء، ووَجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه، فرجع أعرابيًّا كما كان!! [٢].

وهذه المقاتل المذكورة بيَّن عبيدُ بنُ عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا توجد منهن كبيرةٌ إلا وفيها آية من كتاب الله:

فتجد الإشراك بالله في آيات كثيرة، مثل قول ربنا جل ذكره: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الحج: ٣١)، وتجد قتل النفس في آياتٍ كثيرة مثل قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان: ٦٨)، وتجد أكل اليتيم في قول ربنا تعالى جده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٥١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٣٥).

(النساء: ١٠)، وتجد أكل الربا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وتجد رمي المحصنات في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ (النور: ٢٣)، وتجد الفرار من الزحف في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ (الأنفال: ١٥)، وتجد التعرب بعد الهجرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ (محمد: ٢٥) [١]، وزاد عبيدة السلماني البهتان، قال ابن عون: فقلت لمحمد: فالسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرًّا كثيرًا [٢]، وزاد ابن عمر ﷺ: الإلحاد في الحرم، والسحر، وبكاء الوالدين من العقوق، فعن طيسلة بن مياس قال: كنت مع النَّجَدات، فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر! فلقيت ابن عمر فقلت: أصبتُ ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر! قال: وما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا. قال: ليس من الكبائر. قال: لشيء لم يسمِّه طيسلة قال: هي تسع، وسأعدُّهن عليك: الإشراك بالله، وقتل النَّسَمة بغير حِلِّها، والفرار من الزحف، وقذفُ المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وإلحادٌ في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق. قال طيسلة: لما رأى ابن عمر فَرَقِي قال: أتخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم! قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم! قال: أحيٌّ والداك؟ قلت: عندي أمي. قال: فوالله لئن أنت ألَنْت لها الكلام، وأطعمتها الطعامَ، لتدخلنّ الجنة ما اجتَنَبْتَ الموجِبات [٣].

ومنهن: لعن الوالدين، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٣٧).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٣٥).

قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ [١].

ومنهن: سباب المسلم وقتاله، فعَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ، عَنِ المُرْجِئَةِ فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ [٢].

ومنها: ما ذكره ابن مسعود ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، والقنوط من رَحْمَةِ اللَّهِ، والإياس من رَوْحِ اللَّهِ، والأمن من مكر اللَّهِ» [٣]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ» [٤].

قال ابن كثير: «وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ إِلَى تَكْفِيرِ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ﷺ: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: مَا أَظُنُّ أَحَدًا يَنْتَقِصُ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَهُوَ يُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ» [٥].

ومن الكبائر شرب الخمر بل هي إحدى أمهات الكبائر، فعن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ﷺ : أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ وناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم فيها علم ينتهون إليه فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو ﷺ أسأله عن ذلك، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر فأتيتهم فأخبرهم فأنكروا ذلك ووثبوا إليه جميعًا حتى أتوه في داره فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قال: إن ملكًا من ملوك بني

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٣).

(٢) صحيح البخاري (١ / ١٩).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٤٢).

(٤) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٢)برقم ٢٧٦٦.

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٤).

إسرائيل أخذ رجلًا، فخيره بين أن يشرب الخمر أو يقتل نفسًا، أو يزني، أو يأكل لحم الخنزير، أو يقتلوه إن أبى، فاختار أن يشرب الخمر، وأنه لما شربها لم يمتنع من شيء أرادوه منه، وأن رسول الله ﷺ قال لنا مجيبًا: «ما من أحد يشربها، فيقبل الله له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت وفي مثانته منها شيء إلا حرمت عليه بها الجنة، فإن مات في أربعين ليلة مات ميتة جاهلية» (١).

الأثر التربوي الإداري للتقسيم الذي ذكرته الآية: استيعاب المجتمع، والرحمة بالمذنبين، وذاك من محاسن الشريعة:

التقسيم إلى صغائر وكبائر يبين العظمة التشريعية الإسلامية، فهو يقيم التربية الشخصية على التوبة، والاستيعاب لأبناء المجتمع وإن أذنبوا، فالصغائر لا يقام النكير عليها بالقدر ذاته الذي يُقام على غيرها، وليس لها حد يتم بموجبه العقاب عليها، وإقامة النكير عليها بذلك القدر الذي يقام على غيرها يمكن أن يؤدي إلى الاضطراب في المجتمع، واسمع لهذا الفقه العمري في إدارة الدولة، وتربية النفوس، وهو فقه ينبثق عن الإفادة من هذه الآية في تقسيم الذنوب إلى كبائر، وصغائر، فعن الحسن: أن ناسًا لقوا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أمرَ أن يُعمل بها، لا يُعمل بها، فأردنا أن نلقَى أمير المؤمنين في ذلك؟ فقدم وقدموا معه، فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا. قال: أبإذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف ردّ عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ ناسًا لقوني بمصر فقالوا: «إنا نرى أشياءَ من كتاب الله تبارك وتعالى، أمر أن يعمل بها ولا يعمل بها»، فأحبُّوا أن يلقوك في ذلك. فقال: أجمعهم لي. قال: فجمعتهم له قال ابن عون: أظنه قال: في بَهْوٍ فأخذ أدناهم رجلا فقال: أنشدكم بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم.

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٤ / ١٦٣) وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢٦٩٥.

قال، فهل أحصيته في نفسك؟ قال، اللهم لا! قال: ولو قال: «نعم» لخصَمَه قال: فهل أحصيته في بصرك؟ هل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك؟ قال: ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلتْ عمر أمُّه! أتكلِّفونه أن يقيمَ الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات. قال: وتلا ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾. هل علم أهل المدينة أو قال هل علم أحدٌ بما قَدِمتم؟ قالوا، لا! قال: لو علموا لوعَظْت بكم [1].

تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر من محاسن الشريعة وأوجه كمالها:

وترى هنا أن الله قسم -رحمةً بعباده- الذنوب إلى كبائر وصغائر، وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية، فعن زياد بن مخراق، عن معاوية بن قرة قال: أتينا أنس بن مالك ﷺ فكان فيما حدثنا قال: لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا، ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال! ثم سكت هنيهة، ثم قال: والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك! لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر! فما لنا ولها؟ ثم تلا ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [2].

فهمنا من الآية أن اجتناب الكبائر يكفر السيئات، ولكن هل يمكن تكفير السيئات لو لم تجتنب الكبائر؟ نعم إن شاء الله وأراد بفضله ورحمته فقد قال جل مجده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨)، وأما تقييد تكفير السيئات باجتناب الكبائر فهو لا يدل على عدم التكفير عند عدم الاجتناب، بل يدل على الحث على الاجتناب، ويمكن تقريب فهم ذلك بضرب المثال بقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

(١) تفسير الطبري - ت شاكر (٨/ ٢٥٤) وقال ابن كثير: «إسناد صحيح ومتن حسن، وإن كانت رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر، فتكفي شهرته». وقال السيوطي: «أخرج ابن جرير بسند حسن»..

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٥٥)..

(البقرة: ١٧٢)؛ فَالشُّكْرُ وَاجِبٌ سَوَاءٌ عُبِدَ اللَّه أَوْ لَمْ يُعْبَدْ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَنَتَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣) وَأَدَاءُ الأَمَانَةِ وَاجِبٌ سَوَاءٌ ائْتَمَنَهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ.

إلا أنه لا ينبغي الاعتماد على ذلك على أن التكفير قد يحصل بالمشيئة الإلهية دون سعي لتوفير أسباب هذه المغفرة فقد حكى الله عن الموفقين الراغبين في المغفرة الإلهية فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨).

تكفير السيئات بالحسنات:

وأنفع ما ينبغي للمرء فعله تكفير السيئات بالحسنات، وذلك ليتم إِذْهَاب أَثَرِهَا السَّيِّئِ مِنَ النَّفْسِ وَهُوَ الأُنْسُ بِالبَاطِلِ وَالشَّرِّ، وَالرَّغْبَةُ في قضاء الشهوة، فإذا اعتاد فعل الحسنات، واجتهد فيها خفتت اللوعة إلى تلك المهلكات، وهذا الإرشاد هو الذي نجده في قوله تعالى جده: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤)، وبينه النبي ﷺ في قوله: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[1]،

وفصَّل الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك فقال: «وَأَمَّا المَعَاصِي فَيَجِبُ أَنْ يُفَتِّشَ فِي أَوَّلِ بُلُوغِهِ عَنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَلِسَانِهِ وَبَطْنِهِ وَيَدِهِ وَفَرْجِهِ وَسَائِرِ جَوَارِحِهِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِي جَمِيعِ أَيَّامِهِ وَسَاعَاتِهِ، وَيُفَصِّلَ عِنْدَ نَفْسِهِ دِيوَانَ مَعَاصِيهِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى جَمِيعِهَا صَغَائِرِهَا وَكَبَائِرِهَا، ثُمَّ يَنْظُرَ فِيهَا فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَظْلَمَةِ العِبَادِ كَنَظَرٍ إِلَى غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَقُعُودٍ فِي مَسْجِدٍ مَعَ الجَنَابَةِ، وَمَسِّ مُصْحَفٍ بِغَيْرِ وُضُوءٍ، وَاعْتِقَادِ بِدْعَةٍ، وَشُرْبِ خَمْرٍ، وَسَمَاعِ مَلَاهٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَعَلَّقُ بِمَظَالِمِ

(١) سنن الترمذي (٤ / ٣٥٥).

العِبَادِ فَالتَّوْبَةُ عَنْهَا بِالنَّدَمِ وَالتَّحَسُّرِ عَلَيْهَا، وَبِأَنْ يَحْسِبَ مِقْدَارَهَا مِنْ حَيْثُ الكِبَرِ، وَمِنْ حَيْثُ المُدَّةِ، وَيَطْلُبَ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ مِنْهَا حَسَنَةً تُنَاسِبُهَا، فَيَأْتِيَ مِنَ الحَسَنَاتِ بِمِقْدَارِ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ، فَيُكَفِّرُ سَمَاعَ المَلَاهِي بِسَمَاعِ القُرْآنِ وَبِمَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَيُكَفِّرُ القُعُودَ فِي المَسْجِدِ جُنُبًا بِالِاعْتِكَافِ فِيهِ مَعَ الِاشْتِغَالِ بِالعِبَادَةِ...

فالمَقْصُودُ سُلُوكُ الطَّرِيقِ المُضَادَّةِ، فَإِنَّ المَرَضَ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ فَكُلُّ ظُلْمَةٍ ارْتَفَعَتْ إِلَى القَلْبِ لَا يَمْحُوهَا إِلَّا نُورٌ يَرْتَفِعُ إِلَيْهَا بِحَسَنَةٍ تُضَادُّهَا، وَالمُتَضَادَّاتُ هِيَ المُتَنَاسِبَاتُ، فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تُمْحَى كُلُّ سَيِّئَةٍ بِحَسَنَةٍ مِنْ جِنْسِهَا...»[1].

(١)إحياء علوم الدين (٤/ ٣٥).

الحصن الرابع

الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء؛ فالحياة ليست صراعًا بينهما، ولذا يجب نبذ التمني المذموم عند الجميع، وتنمية الطموح لنيل الفضل الإلهي (النساء:٣٢)

آية هذا الحصن:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢).

المناسبة والاتصال:

في الحصنين السابقين بين الله جل مجده الموارد المالية المشروعة والممنوعة لتتمكن الأسرة من مواجهة أعباء الحياة، وربط ذلك بالمحافظة على حياة أفرادها مهما كانت الآلام، كما حصنها من الوصول إلى اليأس عند الوقوع في المعاصي المهلكات، وفتح لها أفق تكفير السيئات، والترتيب المنطقي يفرض أن يأتي بعد ذلك الحصن الخاص بمعرفة الدور المحدد للرجال والنساء في الحياة؛ إذ إن هذه المعرفة تورث الاستقرار النفسي عند النظر إلى القسمة الإلهية للحقوق والواجبات الإنسانية، وهل يمكن للأسرة أن تستقر إذا لم يشعر الزوج بدوره ويرضى به؟ هل يمكن للأسرة أن تستقر إذا لم تعلم الزوجة بدورها وترضى به؟ فإذا وصلت الأسرة إلى الاستقرار النفسي وصلت الإنسانية إلى الإعمار؟ هنا جاء الكلام في هذا الحصن

عن أسس الاستقرار الأسري ليكون استقرار الأسرة أساسًا لاستقرار المجتمع كاملًا، وأهم هذه الأسس:

الأساس الأول:

الرضا بالطبيعة، والشريعة، وترك تمني الممنوع. ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ (النساء:٣٢).

بناء الحياة قائم على تكامل نوعي الجنس البشري، ولذا يجب الرضا بالطبيعة، والرضا بالشريعة التي تحكم هذه الطبيعة، ويحرم تمني ما فُضِّلَ به كلُّ جنسٍ على الآخر. لماذا يجب ألا يتمنى أحدنا ما فضل الله به الآخر؟

لأن الله لما خلق الخلق زوجين ينتميان إلى جنسٍ واحدٍ هو الجنس البشري لكنهما نوعين مختلفين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩) فاشتراكهما في الجنس يقتضي وجود مشتركاتٍ حيويةٍ بينهما، واختلافهما في النوع يقتضي تميز كلٍّ منهما بمزايا حقوقية وواجباتٍ وظيفية لا توجد عند الآخر، وهذا التنوع يُحْدِث التكامل بينهما، والمساواة في هذه الحالة ظلمٌ عظيم لكلٍ منهما، وتدميرٍ لواجب بث الجنس البشري في الأرض، ولكن العدل الحقيقي أن يكمل أحدهما الآخر فلا يتنافسان، ولا يتحاسدان، ولا يتقاتلان، وقد فضل الله بعضهم على بعض بصفاتٍ أو هباتٍ وعطايا خاصة ليتم الاختبار، ولتتحقق السعادة المجتمعية، وكلُّ منهما يملك صفاتٍ مميزة، وخصائص عظيمة، فلا خصائص الأنثى تشكل عيبًا، ولا خصائص الذكر تشكل سمعة سيئة، بل إعمال كل واحدٍ منهما ما خُلِق به لما خُلِق له يعني الوصول إلى الكمال النوعي في كل واحدٍ منهما، كما قيل:

ولو كُنَّ النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

فلا التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

وأَضرب مثلًا لتكامل الأدوار بين النوعين بالليل والنهار، فهما نوعان لجنسٍ واحدٍ هو الزمان الذي هو ظرفٌ للأحداث، فالنهار حركة وانبعاث وبناء ونهضة، والليل سكون وراحة وسبات، ولا يمكن لانبعاث النهار أن يؤدي دوره إلا بالراحة التي توجد في سكون الليل، ولا يمكن لليل أن يؤدي دوره إلا إذا وجد سبح النهار، ولعل ذلك سبب ذكر الله جل جلاله لهذين النوعين في الحركة الكونية، مع هذين النوعين في الجنس البشري.

وهنا تعلم لماذا نهى الله جل مجده كلًا منهما عن تمني ما اختص به غيره فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ (النساء: ٣٢)، فالجنس البشري يدل على اشتراك النوعين في أعمالٍ محددة، وتنوع الجنس البشري إلى نوعين يدل على اختصاص كل نوعٍ بعملٍ مناسبٍ يختص به، وإصرار أحد النوعين على طلب ما يختص بالآخر إفساد للواقع البشري، وحريٌّ به أن يكون جريمة ضد الإنسانية التي أراد الله لها البث والتناسل.

فمن المفضل ومن المفضول هاهنا؟

ومن الإعجاز البياني: عدم تحديد الفاضل والمفضول في قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ يُبَصِّرُنا بأن كل واحدٍ من النوعين البشريين فاضل في شيء مفضول عليه في شيء آخر، فلا يوجد تفضيلٌ مطلقٌ لأحدهما، والتعبير بالبعضية عن كل نوعٍ يمنحك معنى التكامل الحقيقي، ويمنع التمييز العنصري الجاهلي بين النوعين، فليس نوعٌ منهما يمثل الكل، بل كلٌّ منهما يمثل بعضًا من الحياة الإنسانية، وهما معًا يكوِّنان الكل، على أن التعبير بالبعضية يبين التفاضل في أفراد النوع الواحد أيضًا.

وتعجب لجمال التعبير ودقته حيث قال: ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ ولو أراد تفضيل أحد النوعين مطلقًا لقال: والله فضل الرجال على النساء، ولكنه لم يقل: ما فضل الله الرجال على النساء ولا ما فضل النساء على الرجال.. فماذا ترى -أيدك الله-؟ لقد عمَّى الله ذلك ليعلم كلُّ واحدٍ أن طبيعته الخلقية أكسبته مزية لا توجد عند الآخر، فليجتهد في محاولة تنمية ما فُضِّل به ليقوم بدوره في الحياة.. إنه يبين لك التكامل التام بين النوعين في استمرار الجنس البشري وفق الطبيعة التي خلق الله بها كل نوعٍ، فلا تفتخر الرجال على النساء، ولا النساء على الرجال، فليس نوعٌ منهما يمثل الكل، بل كل منهما يمثل البعض، وهما معًا يكونان الكل.

والتمني هو رجاء حدوث ما ليس عندك، ويتعلق غالبًا بِتَشَهِّي حصول ما يستحيل الحصول عليه في العادة، أو التلهف على تحقق ما يصعب تحقيقه، وهذا التمني منه المشروع ومنه الممنوع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ إشارة إلى النهي عن التمني الممنوع، وبذا لا بد أن نعرف الفرق بين المشروع والممنوع:

النوع الأول: التمني المشروع: أن يتمنى المرء فضل الله المطلوب شرعًا أو قدرًا من غير إضرار بالغير، وهذا هو الغبطة أو الحسد المحمود، وَمن أمثلته قول البُخَارِيّ: «باب الاغتباط في العلم والحكمة وباب تمني الشهادة»، وَذَكَرَ حَدِيثَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ»، ومن ذلك قول النَّبِي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله ثمَّ أحيا ثُمَّ أقتل ثمَّ أُحيا ثُمَّ أُقْتَلُ، ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»، ومن أمثلة التمني المشروع تمني رؤية الصالحين، فقد قال النبي ﷺ: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا». قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ

أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» (١).

ومن التمني المشروع ما يتعلق بتمني خيري الدنيا والآخرة من خلال الدعاء كقول رَسُول اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ» (٢).

والتمني المشروع إما أن يترتب عليه تحقق الأمنية، وإما أن يترتب عليه ثبوت الأجر حتى لو لم تتحقق الأمنية، فعن أَبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ». قَالَ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ» (٣).

النوع الثاني: التمني الباطل الممنوع، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، ويجمعه تمني (الفضل) المذكور في الآية، فقد سبق تقرير أن الفضل معناه الزيادة، وهنا يعني المزية التي بها امتاز الذكر عن الأنثى، والأنثى عن

(١) مسلم (١ / ١٥٠).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٨١).

(٣) سنن الترمذى (٩ / ١١١) برقم ٢٤٩٥، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الذكر، فالقدر المشترك بينهما يتعلق بكونهما نوعًا من الجنس الإنساني، ولكن المميز لكل منهما النوعية التي جعلت الذكر ذكرًا، والأنثى أنثى.

ومن الصور التي توضح هذا المعنى الجامع لتمني الفضل الذي ليس عند كل نوعٍ من الجنس الإنساني:

الصورة الأولى: تمني خلاف القسمة القدرية، فيترتب على تغييرها الفساد في الأرض، ومن ذلك التغيير الخَلْقي الذي لا مدخل فيه للكسب، كأن يتمنى رجالٌ ما فضل الله به رجالًا آخرين، وأن يتمنى نساء ما فضل الله به نساء أخريات، أو يتمنى رجال أن يكونوا نساءً، وتتمنى نساء أن يكنَّ رجالًا، فهذا اعتراضٌ تام على الله في خلقه وقسمته، وإكبار للحياة الدنيا، ونسيان لحكمة الابتلاء ونسيان للآخرة.. أتعلم ماذا يترتب على ذلك؟ إنه الإبادة للجنس البشري، وقضاء على الهوية البشرية.. الآن ماذا تقول عندما ترى الشيطان يؤزُّ المنظمات الأممية لتعمل على هذه الإبادة البشرية باسم الحرية؟

الصورة الثانية: تمني خلاف القسمة الشرعية المحددة كتمني تغيير مقادير الوارثين، والاستئثار بأموال اليتامى، وحرمان النساء من الميراث، أو انتقاص الرجال من الميراث، أو أن يتمنى الرجال منازل النساء في العمل لأنه أسهل، أو تتمنى النساء منازل الرجال في العمل والكد لأنه يظهر البطولات.. هذا اعتراض على الله في شرعه، وبدلًا من التمني الممنوع يجب أن يشمر الإنسان إلى المسارعة إلى العمل ليحوز الملك العريض في الآخرة قبل أن تتملكه الأماني، ويستحوذ عليه الضجر من قسمة الله وابتلائه.. وقد حدث مثل هذا التمني من بعض النساء في عهد رسول الله ﷺ، فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال مجاهد:

وأنزل فيها ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ (الأحزاب:٣٥)، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة [١].

فالله لم يوجب الجهاد على المرأة ولم يحرمه عليها، وإنما لم يفرضه عليها بخلاف الرجال؛ لأنها مهيأةٌ لجهادٍ عظيمٍ ينتج عنه أن تؤسس المؤسسة التربوية الحقيقية التي تنشئ المجتمع، وهل هذا أمر يسير؟

نعم لم يجعل الله المرأة مساوية للرجل في الميراث في بعض من الحالات؛ بل فضلها عليه أحيانًا، وفضله عليها أحيانًا؛ لأن هذا مقتضى العدالة الحقيقية؛ فالغُنم بالغُرم، والمرأة هي المحفوظة المصانة التي يلتزم الرجال والمجتمع بتوفير ما تحتاج إليه لا أن تُرمى في الشوارع ذليلة مستجدية كما تفعله معها عفونات الحضارة المعاصرة.

الصورة الثالثة: التمني الذي يدل على الحسد المذموم، وهو أن يتمنى الرجل ما اختص الله به غيره مما لا يكون له، كأن يتمنى عين ماله، أو عين أهله، ولا يكون ذلك إلا بتمني زواله عن صاحبه، فهذا هو الحسد المذموم الذي كان الجريمة الأولى التي عُصِي الله بها في السماء عندما حسد إبليس آدم ثم قام يتأول، وفي الأرض عندما حسد أحد ابني آدم أخاه، وقد أشار ابن عباس ﷺ إلى هذا المعنى في تفسير الآية، فعن ابن عباس في معنى هذه الآية قال: لا يتمنى الرجل يقول: «ليت أنّ لي مالَ فلان وأهلَه»! فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله [٢].

والحظْ أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يدل بطرفٍ خفي على أن التمني المتطلع ملازم للإنسان، فالحسد جزء من الطبيعة

(١) الترمذي(٥ / ٢٣٧) وقال: «هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا وكذا»، وصححه الألباني.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٦١).

الإنسانية، فما تفعل معه أيها الموفق؟

لا بد أن تجاهده بأمرين: بالاستغفار للمحسود، ومجاهدة نزعة الحسد لئلا يصل إلى مرحلة البغي، وقد كشف النبي ﷺ عن ذلك في معالجةٍ واقعية فقال: « ثَلاثٌ لازِمَاتٌ لأُمَّتِي: الطِّيَرَةُ، وَالحَسَدُ، وَسُوءُ الظَّنِّ»، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا يُذْهِبُهُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّنْ هُوَ فِيهِ؟ قَالَ: «إِذَا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّقْ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ» [١]، وقال ﷺ: «في المؤمن ثلاث خصال: الطيرة والظن والحسد، فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع، ومخرجه من الظن أن لا يحقق، ومخرجه من الحسد أن لا يبغي» [٢] وقد نهى الله سبحانه عن المقدمات المؤدية إلى الحسد أو الأفعال المحققة له، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلاَ يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَلاَ تَسْأَلُ المَرْأَةُ طَلاَقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِي إِنَائِهَا [٣]، فهذه الأفعال تحقق البغي المترتب على الحسد.

وسبب المنع من الحسد تعميم الخير على البشر، وإظهار مصلحة الإنسان، وكذلك تعظيم الرحمن، فهو ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، وهو أعلم بمصالح خلقه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيأتيهم النبأ عن تفصيل ذلك يوم القيامة، وقد قال التِّهَامِيِّ:

إِنِّي لِأَرْحَمُ حاسديَّ لِفَرْطِ مَا ... ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الأَوْغَارِ

نَظَرُوا صَنِيعَ اللهِ بِي، فَعُيُونُهُمْ ... فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نارِ

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٣٧٢).

(٢) التوبيخ والتنبيه (١/ ٤٤).

(٣) البخاري (٣/ ٩١).

الأساس الثاني:

التكامل بين الرجال والنساء يعني تحقيق الثواب الكامل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾ (النساء:٣٢):

وهذه الجملة ترسم لنا حقين للمجتمع: حق التكامل، وحق الثواب الكامل على الاكتساب المناسب لطرفي المجتمع حسب الخلقة والطبيعة.

فعن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: كان أهل الجاهلية لا يورِّثون المرأة شيئًا ولا الصبيَّ شيئًا، وإنما يجعلون الميراث لمن يَحْترف وينفع ويدفع. فلما نَجَزَ للمرأة نصيبها وللصبيّ نصيبه، وجَعل للذكر مثل حظّ الأنثيين، قال النساء: «لو كان جعل أنصباءَنا في الميراث كأنصباء الرجال»! وقال الرجال: «إنا لنرجو أن نفضَّل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهن في الميراث»! فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾، يقول: المرأة تُجزى بحسنتها عشر أمثالها، كما يُجْزى الرجل، قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ﴾ [1]، وقَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ المَوَارِيثِ قَالَ الرِّجَالُ: نَرْجُو أَنْ نُفَضَّلَ عَلَى النِّسَاءِ فِي الآخِرَةِ كَمَا فُضِّلْنَا فِي المِيرَاثِ، وَقَالَ النِّسَاءُ: نَرْجُو أَنْ يَكُونَ الوِزْرُ عَلَيْنَا نِصْفَ مَا عَلَى الرِّجَالِ كَمَا فِي المِيرَاثِ فَنَزَلَتِ الآيَةُ [2].

لا تستهلك الأماني الباطلة حياتكم، بل ينبغي أن تسارعوا إلى التفوق فيما للكسب فيه مدخل، وهذا المبدأ {﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾ يبني الحياة الإنسانية ويكمل بين جنسيها، ويجمع في العقل المسلم بين الرضا بفطرة الله وخلقته، والاطمئنان إلى شرعه وحكمته، وبين التنافس في الكسب

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٦٥).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ٦٦).

والاكتساب، والإعمار للحياة الدنيا ابتغاء القربى والثواب، فللرجال طبيعتهم الخلقية ووظيفتهم المجتمعية المتناسبة مع ذلك، وكذلك للنساء، والرضى بأن ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ يؤدي إلى التكامل الوظيفي بين الأطراف المختلفة، وإلى السكينة في المجتمعات بين الرجال والنساء، ولن يحدث التنازع والتهارش والتصارع الذي تصر عليه المنظمات النسوية والذكورية التي تتبع الشهوات، أو تسمع لمن يتبعون الشهوات ويريدون بالناس الموبقات ويريدون بالمجتمع القلاقل والصراع، فليست الحياة صراعًا بين الرجال والنساء كما تحاول الثقافات الشيطانية أن تصور الأمر حتى شجعوا بعض المغامرين والمغامرات على تجاوز الحدود التي وضعها الله.. الحياة توزيع وتنويع، وتكامل وعدل ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ كما أن هذا المبدأ المتقدم ينصف المرأة ويحررها من الرق الذي تمارسه عليها الحضارة المعاصرة، «فقد منحها الإسلام هذا الحق ابتداء وبدون طلب منها، وبدون ثورة، وبدون جمعيات نسوية، وبدون عضوية برلمان.. يذكر الدكتور عبد الواحد وافي في حقوق الإنسان كيف تحولت المرأة وفق المنظومة الدستورية الغربية إلى حالة الرق المدني، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدني الفرنسي. إذ تقرر أن: «المرأة المتزوجة- حتى ولو كان زواجها قائمًا على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها- لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد، أو موافقته عليه موافقة كِتَابِيَّة!».. وأورد نصها الفرنسي.

«ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات، فيما بعد، فإن كثيرًا من آثارها لا يزال ملازمًا لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر.. وتوكيدًا لهذا الرق المفروض على المرأة الغربية تقرر قوانين الأمم الغربية، ويقضي

عرفها، أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم اسرتها، فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان بل تحمل اسم زوجها» [١].

فمن حقوق العلاقات المجتمعية النهي عن أساس هذه الجرائم الظاهرة، وهو الحسد، وتمني ما لا يجوز تمنيه مما يمثل الجرائم الباطنة، وهذا التمني هو الذي عمل الشيطان على تأسيس مؤسساتٍ له، وإيجاد نظريات كاملة تخدمها دول ومؤسسات وتتبناها منظمات مشبوهة وفي مقدمتها الأمم المتحدة؛ إذ تصر على عدم مراعاة الخلقة الطبيعية للرجال والنساء، وإظهار الأمر على أساس المساواة الكاملة مع تبني نظرية الصراع بدلًا من العدل والتكامل، وفي هذه الآية بيان واضح للرحمة بالنساء، والإكرام لهن، وحفظ مقامهن من عبث العابثين، وحمايتهن من السخرة والرق الأبيض.

وبهذا التكامل نصل إلى السعادة التي لا تتحقق كاملة إلا في مراتبها الثلاثة:

المرتبة الأولى: السَّعَادَاتُ النَّفْسَانِيَّةُ، وهي نوعان:

أَحَدُهُمَا: مَا يَتَعَلَّقُ بِالقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ، وَهُوَ: الذَّكَاءُ التَّامُّ وَالحَدْسُ الكَامِلُ، وَالمَعَارِفُ الزَّائِدَةُ عَلَى مَعَارِفِ الغَيْرِ بِالكَمِّيَّةِ وَالكَيْفِيَّةِ.

وَثَانِيهِمَا: مَا يَتَعَلَّقُ بِالقُوَّةِ العَمَلِيَّةِ، وَهِيَ: العِفَّةُ الَّتِي هِيَ وَسَطٌ بَيْنِ الخُمُودِ وَالفُجُورِ، وَالشَّجَاعَةُ الَّتِي هِيَ وَسَطٌ بَيْنِ التَّهَوُّرِ وَالجُبْنِ، وَاسْتِعْمَالُ الحِكْمَةِ العَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ البَلَهِ وَالخبث، وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الأَحْوَالِ هُوَ العَدَالَةُ.

المرتبة الثانية: السَّعَادَاتُ البَدَنِيَّةُ، وهي الصِّحَّةُ وَالجَمَالُ، وَالعُمْرُ الطَّوِيلُ فِي ذَلِكَ مَعَ اللَّذَّةِ وَالبَهْجَةِ.

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٤٥).

المرتبة الثالثة: السَّعَادَاتُ الخَارِجِيَّةُ، وهِيَ كَثْرَةُ الأَوْلَادِ الصُّلَحَاءِ، وَكَثْرَةُ العَشَائِرِ، وَكَثْرَةُ الأَصْدِقَاءِ وَالأَعْوَانِ، وَالرِّيَاسَةُ التَّامَّةُ، وَنَفَاذُ القَوْلِ، وَكَوْنُهُ مَحْبُوبًا لِلْخَلْقِ حَسَنَ الذِّكْرِ فِيهِمْ، مُطَاعَ الأَمْرِ فِيهِمْ،

وَبَعْضُ أسباب السعادة فِطْرِيَّةٌ لَا سَبِيلَ لِلْكَسْبِ فِيهِ، وَبَعْضُهَا كَسْبِيَّةٌ، وَكلها مَحْضُ عَطَاءِ اللَّه وفضله، فهو الذي أوجد الدَّوَاعِيَ وَأزال العَوَائِقَ [1].

الأساس الثالث:

الشعور بلذة اللجوء إلى الله، مع بذل الأسباب المادية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (النساء:٣٢).

فلا يغني بذل الأسباب المادية عن سؤال فضل الله ورحمته، فالجأ إلى سؤال الله من فضله بدلًا من الحسرات المتتابعة في الحسد، والمؤامرات على المحسودين، وعدم الرضا بقضاء الله، وعدم القيام بواجبات الحياة وتبعاتها، وتمني ما لا يحل فإن ذلك يورث سوء الظن بالله، والحرص على العدوان على الآخرين كما حدث من إخوة يوسف عليه السلام، ويوشك صاحب ذلك أن ينخلع عن الدين كما حدث من حساد بني إسرائيل حينما حسدوا النبي الأمي.. هنا يأتي الانطراح بين يدي الله ليسأل من فضله سبحانه، ويبين عبد الله بن مسعود ﷺ جمال هذا السؤال فيروي عن النبي ﷺ قوله: «سلوا الله من فضله فإن الله عزَّ وجلَّ يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج» [2]، وقد حرص النبي ﷺ على تربية الأمة على سؤال الله من فضله العظيم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ

(١) تفسير الرازي ١٠/ ٨٣.

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٥٦٥)، وأشار إلى ضعفه.

مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ، وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ، وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ» (١)، ويشعر الإنسان بجمال هذا السؤال وهو يواجه الحياة، فعن أبي حميد وأبي أسيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك» (٢)، ومن القصص التطبيقية للنبي ﷺ في هذا السؤال ما ذكره عَبْد اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: ضَافَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَزْوَاجِهِ يَبْتَغِي عِنْدَهُنَّ طَعَامًا، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، فَإِنَّهُ لا يَمْلِكُهَا إِلا أَنْتَ»، فَأُهْدِيَتْ إِلَيْهِ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَقَالَ: هَذِهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ (٣).

الأساس الرابع:

الثقة بالمصدر القرآني، والنظام الحقوقي الذي انبثق عنه، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

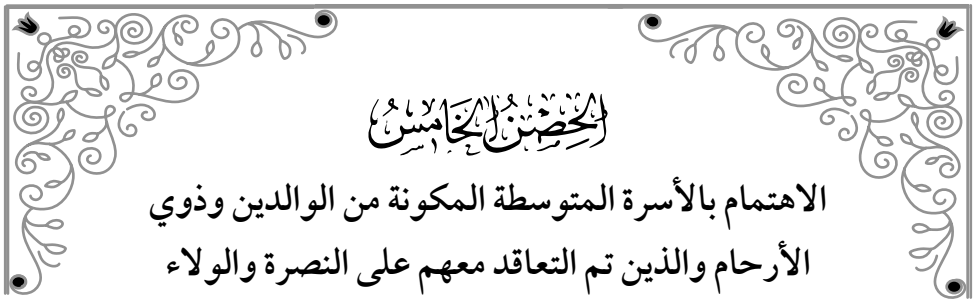
وبعد أن تمتعت برؤية المعرفة القرآنية تقرر هذه الأسس الثلاثة في نظام العلاقات الإنسانية تؤكد المعرفة القرآنية توثيقها في صدرك لتزداد ثقة بها وإيمانًا بمقتضياتها، فتأتي هذه المادة الحاكمة المعظمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢)، فكأنك بعد أن سمعت الأسس الثلاثة: الأساس الأول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ الأساس الثاني: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾، الأساس الثالث: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، سألت: لماذا هذه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ٧٠).

(٢) سنن النسائي (٢ / ٥٣).

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٩ / ٢٣)، وقال في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١١ / ٢٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن زياد البرجمي وهو ثقة»، وصححه الألباني.

الأسس؟ فيأتيك الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ لتزداد ثقة بالمصدر القرآني، والنظام الحقوقي الذي انبثق عن المعرفة القرآنية، فالله عنده خزائن كل شيء ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ (الحجر: ٢١).



الحصن الخامس

الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم على النصرة والولاء

(النساء: ٣٣)

آية هذا الحصن:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء:٣٣):

المناسبة والاتصال:

بعد الإدراك النفسي للطبيعة التكاملية بين الرجال والنساء هنا يذكر الله لك الأسرة المتوسطة التي تسهم في إيجاد الاستقرار المتبادل لها وللأسرة المركزية، وقد حدد الله لذلك الأسس الآتية:

الأساس الأول:

كل شيء مما تركه الوالدان والأقربون، جعل الله (موالي) أقرباء يرثونه، فلا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم علىٰ بعض، ويُبَصِّرُنا بذلك اتصال ما سبق مع قوله: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء:٣٣) **فالإرث جبريٌ فلا اختيار لكم في منعه.**

هذه الجملة المباركة قاعدة قانونية تؤسس لعددٍ من الأحكام التي نستنبطها من معانيها.. تأمل في هذا الأساس لتجد أن الله يبين فيه بعض أسرار التقسيم للوظائف والأدوار بين الذكور والإناث في المجتمع، كما تراه يبين نوعًا من التخفيف والبيان

للإنسانية التائهة، وتعال نفصل ذلك من خلال معنى الآية، فالله يقول: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، فقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ أتى بتنوين العوض ليعوض بها عن كلمة محذوفة، فقد يكون التقدير: «ولكل إنسانٍ جعلنا»، أو «ولكل شيءٍ جعلنا»، وكلمة جعل هنا من الجعل التشريعي، أي شرعنا أن يكون لكلٍ موالي، والورثة موالي الرجل، ونصراؤه، ويكون معنى الآية:

وَلِكُلِّ وَاحِدٍ يموت جَعَلْنَا وَرَثَةً فِي تَرِكَتِهِ، ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الوَرَثَةُ؟ فَقِيلَ: هُمُ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ، أو لكل شيء مما تركه الوالدان والأقربون جعلنا موالي يرثونه، فلا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، ولكن لماذا أطلق على الورثة موالي؟ لأن الموالي الورثة والأقرباء من أبناء العم والخال، ومنه قول الفضل بن العباس:

مَهْلا بَنِي عَمِّنَا مَهْلا مَوَالِينَا لا تنبشوا بيننا مَا كانَ مَدْفُونَا

ويكون المعنى: الإرث جبريٌ فلا اختيار لكم في منعه، فعَنْ دَاوُدَ بْنِ الحُصَيْنِ، قَالَ: كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى أُمِّ سَعْدٍ بِنْتِ الرَّبِيعِ - وَكَانَتْ يَتِيمَةً فِي حِجْرِ أَبِي بَكْرٍ - فَقَرَأْتُ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فَقَالَتْ: لاَ تَقْرَأْ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حِينَ أَبَى الإِسْلاَمَ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلاَّ يُوَرِّثَهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَم أَنْ يُؤْتِيَهُ نَصِيبَهُ [1].

الأساس الثاني:

لكل إنسان حق تكوين الأسرة، والمحافظة علىٰ العشيرة، والقبيلة بجامع نَسَبي ليتم التعاضد والتناصر والموالاة، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنىٰ الثاني لقوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ (النساء:٣٣) وهنا يشير الله إلىٰ الأسرة المتوسطة أي إلىٰ ذوي القربىٰ والأصدقاء.

(١) سنن أبي داود (٣ / ١٢٨) برقم ٢٩٢٣.

فالمعنى: لكل إنسان جعلنا نصراء ومعاونين من الأمور التي تركها الوالدان والأقربون، وهؤلاء النصراء والمعاونون أصناف عديدة يجمعهم القرابة النَسَبية الرحمية، أو علاقة الولاء، فَتَكُونُ الآيَةُ مُشِيرَةً إِلَى إِرْجَاعِ الأَمْوَالِ إِلَى العَصَبَةِ عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَإِلَى ذَوِي الأَرْحَامِ عِنْدَ بَعْضِ الفُقَهَاءِ، وَذَلِكَ إِذَا انْعَدَمَ الوَرَثَةُ الَّذِينَ فِي آيَةِ المَوَارِيثِ السَّابِقَةِ [1]، فقد قرر الله تَعَالَى جده ذلك في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥). وقد بين النبي ﷺ ذلك في قوله: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»، وَقَوْلُهُ: «ابْنُ أُخْتِ القَوْمِ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» وَقَوْلُهُ: «الخَالُ وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ». وهذه المعاني نستنبطها من المعاني المتعددة التي لكلمة (موالي) فهي جمع مولى، والمولى **لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ مَعَانٍ:**

أَحَدُهَا: المُعْتِقُ (السيد)، لِأَنَّهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ فِي عِتْقِهِ، وَثَانِيهَا: العَبْدُ المُعْتَقُ، وَهَذَا كَمَا يُسَمَّى الطَّالِبُ غَرِيمًا، لِأَنَّ لَهُ اللُّزُومَ وَالمُطَالَبَةَ بِحَقِّهِ، وَيُسَمَّى المَطْلُوبُ غَرِيمًا لِكَوْنِ الدَّيْنِ لَازِمًا لَهُ. وَثَالِثُهَا: الحَلِيفُ لِأَنَّ المُحَالِفَ يَلِي أَمْرَهُ بِعَقْدِ اليَمِينِ. وَرَابِعُهَا: القريب وخامسها: الناصر كما قال تَعَالَى جده: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ١١) وسادسها: القائم على حقوق الناس، ويدل له قول النبي اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلاَّ وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلاَهُ»[2].

الأساس الثالث:

حق التعامل الحسن معنويًا وماديًا مع الحلفاء، والنصراء كالموظفين، فلهم

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٣٤).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣/ ١٥٥).

حقوق خارج الإرث، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنىٰ الثالث لقوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾.

هذه الأسس تُعَجِّبُك من البناء الإسلامي الشامخ الراسخ، وسعة بناء الحقوق المجتمعية على أفرادها، وربطهم كأنهم أسرة واحدة؛ إذ المعنى: والذين عاقدت أيمانكم فكونتم معهم حلفًا خاصًا لا يعارض أحكام الأخوة الإيمانية، وقد ينتمي إليها، وقد يكون أوسع منها فآتوهم نصيبهم من النصر والولاء والمشورة، كما مال إليه مجاهد، ويمكن أن يقال: وآتوهم نصيبهم من المال لا على التقدير بل على الرضخ، فلا تنسوهم ليزداد عقد اليمين قوة، وآصرته إحكامًا، وهذا كما قال تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ (النساء: ٨)، فهو على سبيل التحفة والهدية، وهذا التفسير هو المنسجم مع نظم الآية. ونستنبط من هذه الجملة: حق التعامل الحسن معنويًا وماديًا مع الأصدقاء المقربين وهم المعبر عنهم بالذين عقدت أيمانكم [1].

وذكر أن هذه الآية منسوخة فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ : ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ قَال: وَرَثَةً ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ قَالَ: كَانَ المُهَاجِرُون لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ نَسَخَتْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إِلاَّ النَّصْرَ وَالرِّفَادَةَ وَالنَّصِيحَةَ وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ [2]، وقال عَاصِمٌ: قُلْتُ لأَنَسٍ ﷺ ، أَبَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَا

(١) قد ذكر علماؤنا أن الآية متصلة والكلام عن الوالدين والأقربين والأزواج والزوجات، ولكن ذلك تكرارًا لا تظهر فائدته والله أعلم.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٢٥).

حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ فَقَالَ: قَدْ حَالَفَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالأَنْصَارِ فِي دَارِي[١]، وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلاَمُ إِلاَّ شِدَّةً» [٢]، وعن قتادة وغيره: كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية فيقول: «دمي دمُك، وهَدَمي هَدَمك، وسلمي سلمك، وحربي حربك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم. فنسخ ذلك بعد في «سورة الأنفال» فقال الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الأنفال: ٦) [٣].

الأساس الرابع:

بناء الضمير الذاتي باستشعار الرقابة الإلهية علىٰ السلوكيات، ويُبَصِّرُنا بهذا الأساس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ (النساء:٣٣).

ولماذا ذكر الله هذا الأساس بعد تلك الأسس؟ لأن القانون الجزائي المباشر لا تحل معه جميع المسائل، ولا يضبط كل شيء..

مهما وضعت من عقوبات على ترك الأفعال الواجبة أو الفاضلة فيمكن للمحتال التملص منها، والتلاعب بها، والاعتذار بتركها، ولكن الرقابة الإلهية التي لا تنفك عن الإنسان تجعله يحقق الصلاح في الأخلاق والأقوال والأفعال، ولذا ختمت هذه الأسس بهذا الأساس العاصم الحازم.



(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٢٦).

(٢) صحيح مسلم (٧ / ١٨٣).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٧٥).

الحصن السادس

إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها (النساء: ٣٤-٣٥)

آيات هذا الحصن:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ (النساء:٣٤-٣٥).

المناسبة والاتصال:

بعد أن مَهَّدَ الله السبيل لإنشاء الأسرة فذكر في المحور الأول حقوق الأطفال والنساء، وذكر في المحور الثاني: الحدود الضابطة لإنشاء الأسرة، وقرر في المحور الثالث الحصون التي تحفظ الأسرة، وتحدث التكامل بين طرفيها، وبين فيها المصادر المالية المكتسبة للإنفاق على الأسرة، وجعل الرضى بالقسمة القدرية والشرعية أساس السعادة الأسرية والتكامل.. آن الأوان بعد ذلك أن يبين الحصن السادس للتماسك الأسري، وهو القوانين التي تبين كيفية إدارة الشؤون الأسرية بين الطرفين، وذلك ليتم التكامل، ويذهب التنازع والتجادُل، ويظهر بين الزوج والزوجة

التماسك والمحبة والتباذل، كما يبين الله القوانين الضابطة لإدارة النزاع بينهما عندما ترتفع المرأة عن القيام بواجباتها الأسرية.. وهذه القوانين تسهم في استقرار الأسرة، ومن خلالها يتجدد التماسك الأسري، وينعكس ذلك على المجتمع؛ إذ الأسرة تمثل حجر الزاوية في الاستقرار المجتمعي، فهل يمكن للأسرة أن تقوم دون أن يعرف طرفاها من الرجال والنساء النظام التفصيلي الذي يحكم علاقاتهما وواجباتهما، والسبيل الذي تكون به العلاقة حال التنازع؟ هنا يأتي البيان المدهش في ذكر تفصيل هذه العلاقة مما لا نجد له مثيلًا مشابهًا في الكتب الإلهية السابقة فضلًا عن الدساتير الوضعية المتضخمة ولكن بالأوهام، ولعل سبب ذلك أن الرسالة الإسلامية الخاتمة ختمت ما قبلها، وستستقر البشرية عليها، فأخذت الرسالة القرآنية بيدها لتصل إلى أعلى درجات النضج، ولذا فرض الله فيها كل ما تحتاجه البشرية ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨).

والآن تعال بنا إلى الإدهاش الحقيقي لترى كيف تمت صياغة ما يتعلق بالقوانين المنظمة للأسرة المسلمة سلمًا ونزاعًا في آيتين على النحو الآتي:

القانون الأول: يجب على الرجال القيام على توفير الحياة الكريمة للنساء زوجات وأمهات وبنات وأخوات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

نعم! السياق يخصص الرجال والنساء هنا بالأزواج والزوجات، لكن إعمال العموم اللفظي أمرٌ تشهد له القواعد الشرعية الأخرى، فإن الله أوجب على الرجال القيام المضني على احتياجات النساء مهما كانت درجة القرابة، فيجب على الرجل أن يقوم على احتياجات أمه وزوجته وابنته وأخته، ولكلٍّ منهن خصوصية في مدى القيام على احتياجاتها، فإن لم يوجد الذي يقوم على النساء من الأقرباء انتقل الواجب إلى

المجتمع بمؤسساته الحكومية والأهلية، فالأصل القيام على احتياجات النساء وعدم تعريضهن لتعبٍ أو نصبٍ في سبيل إقامة متطلباتهن الحيوية، وهذه نظرة مدهشة تعكس لك مكانة المرأة في الإسلام.. فأخبرني بنظامٍ في الأرض قديمًا أو حديثًا يقدم مثل ذلك للمرأة.

وكلمة (قَوَّام) لا يمكن أن تقوم مقامها أي كلمةٍ، وظلمٌ لهذا المصطلح القرآني (قوام) بما حمله من دلالات أن نجعل مكانه غيره؛ فصيغة قوَّام مبالغة من قائم، وتفسير بعض المفسرين -رحمهم الله- لها بـ(الإمرة)، تفسيرٌ أذهب زينتها وبغى عليها.. فاستمع لها، وتذوق وقعها وقرعها.. فكلمة (قوَّام) وصفٌ تكليفي يقتضي التعب الشديد، والمسؤولية الجسيمة، فقوام من قام قيامًا وقِيَمًا وقِوامًا، وهي بمعنى واحد، و«القِيام» أصله «القِوام» أبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها كما يقال: «صُمْت صِيامًا»، والقيام يدل على الحركة، وعدم الراحة كما تلمس ذلك في هذه الكلمة الرائعة، فقَيِّمُ القَوْم: من يسوس أمرهم، ويُقَوِّمُ على احتياجاتهم ونظامهم، ويُقَوِّمُ نقصهم واعوجاجهم، وقِوَامُ الشَّيْءِ: عِمَادُهُ الَّذِي يَقُوم بِهِ. يُقَالُ: فُلان قِوام أَهْلِ بَيْتِهِ، وَقَامَ الرجل على المَرْأَة: صانها، وتكفل باحتياجاتها المادية المختلفة، وَإِنَّهُ لقوام عَلَيْهَا: مائنٌ لَهَا[1]، وبذا فهذا المصطلح الفريد يدل على تضاعف المسؤولية على الرجل بشأن القيام على أسرته، والمحافظة عليها، والسعي على ما يصلحها بالرعاية والحماية والكفالة، ولذا يشعر بالامتنان الشديد إن أعانته المرأة على ذلك، ومن الإعانة الكبيرة القيام بوظيفتها في الأمومة والزوجية على خير وجه، وهذا المصطلح القرآني الفريد في وصف قيادة الرجل للأسرة يبين طبيعة وظيفته التي تميل إلى تغطية الاحتياجات الخارجية للبيت أكثر مما يبين إمرته للأسرة، فهو قوام أي عظيم القيام؛

(١) الطّبريّ في تفسيره (٤ / ١٦٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٥٩٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٢٤).

لأن المهتم بالأمر كثير القيام بل تراه مستوفزًا متحركًا قائمًا على الأمر الذي هو مهتم به، وكأنه لا يجد راحةً بسبب طول قيامه وكثرة تكرر ذلك القيام، والقيام هنا هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ:

يَقُتْنَ جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

وعلى الطريقة القرآنية الرائعة في بيان التعليل للأحكام الشرعية، وإظهار المناسبة التشريعية للحياة البشرية والمصالح الإنسانية يُلخص الله لنا سبب مسؤولية قيام الرجال على النساء في سببين:

السبب الأول: المناسبة الخَلْقية لكلٍ منهما، ويُبَصِّرُنا به قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فهو سببٌ خلقي فطري:

الآن لا تقف عند هذا التأمل وعد بنا إلى نص الجملة القرآنية؛ فالله عز وجل يقول في الآية: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولم يقل بما فضل الله الرجال على النساء.. لقد عاد التعبير بالبعضية في هذه الآية كما طرق سمعك من قبل في الآية (٣٢)، فلماذا؟ هنا ترى آيات البيان الصادقات:

تأمل لتجد أنه يدخل في هذا التعبير غير المحدد ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: لم يقل ربنا بما فضل الرجال على النساء أو بما فضلهم عليهن، بل قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ليبين أن مسألة التفضيل تتعلق بكلا النوعين البشريين، فكلٌّ منهما فاضلٌ ومفضول عليه في الوقت ذاته:

فالرجال فضلوا على النساء بالصفات الجسدية والفكرية المناسبة للمهام الأسرية الخارجية، وهذا يناسب القوامة، والنساء فضلن على الرجال بالصفات الجسدية والفكرية المناسبة للمهام الأسرية الداخلية والاحتواء العاطفي، والسيطرة على مقاليد البيت، والقدرة الفريدة الفذة على الحمل والرعاية والسكن وإدارة شؤون البيت في

المقابل فلا يوجد فاضلٌ بإطلاق، ومفضول عليه بإطلاق، وبناء على هذا الإعداد النوعي كانت التبعات الخارجية على الرجال لا على النساء، فأدمج هذا التعبير {بعضهم على بعض} النوعين البشريين مختصرًا مزايا كل منهما فيما يليق به، «فأَمَرَ اللَّه الرِّجَالَ أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِنَّ المَهْرَ، وَيُدِرُّوا عَلَيْهِنَّ النَّفَقَةَ فَصَارَتِ الزِّيَادَةُ مِنْ أَحَدِ الجَانِبَيْنِ مُقَابَلَةً بِالزِّيَادَةِ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ، فَكَأَنَّهُ لَا فَضْلَ البَتَّةَ» كما يقول الرازي، والحقيقية أن التفضيل موجودٌ بنص الآية، ولكنه تفضيلٌ خلقي لكل واحدٍ بما يناسبه[1].

فالقدرة الجسدية للرجل واضحة التفوق في مجال التحرك خارج نطاق البيت، ومواجهة المصاعب الخارجية، وبناءً على هذه القوة الجسدية والاستيعابية ظهر تقدم الرجال في الحزم العاطفي غالبًا، وَالقُوَّةِ، والمغالبة، وَالفُرُوسِيَّةِ، والاكتساب، ومواجهة مصاعب الحياة، ولذا تم تكليفه بما لم تكلف به المرأة من القيام بالوظائف التي تحفظ الأمن العام، وتكوُّن الالتحام الاجتماعي مثل تَحَمُّلِ الدِّيَةِ فِي القَتْلِ وَالخَطَأِ، وبذا فقوامة الرجل تعني التحمل لأثقال التعايش الخارجي للأسرة، هنا تعلم لماذا خص الله الرجل بذكر شقائه عندما يهبط إلى الأرض مع أن الكلام كان عنه وعن زوجه في قوله -عزَّ جارُه-: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾

(١) قال شيخ المعاصرين في صنعة التفسير في «التحرير والتنوير» (٥/ ٣٩): «وَمِنْ بَدِيعِ الإِعْجَازِ صَوْغُ قَوْلِهِ: بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فِي قَالَبٍ صَالِح لِلمصدرية وللموصولية، فَالمَصْدَرِيَّةُ مشعرة بأنّ القِيَامَة سَبَبُهَا تَفْضِيلٌ مِنَ اللَّهِ وَإِنْفَاقٌ، وَالمَوْصُولِيَّةُ مُشْعِرَةٌ بِأَنَّ سَبَبَهَا مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنْ فَضْلِ الرِّجَالِ وَمِنْ إِنْفَاقِهِمْ لِيَصْلُحَ الخِطَابُ لِلْفَرِيقَيْنِ: عَالِمِهِمْ وَجَاهِلِهِمْ، كَقَوْلِ السَّمَوْأَلِ أَوِ الحَارِثِيِّ:

سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُم فَلَيْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وَجَهُولُ»

وعلى جمال ما قال، والتردد في التعقيب على قوة المقال إلا أنك ترى أن إبهار الصنعة البلاغية المترتبة على التقدير النحوي قد حجب عن التدبر في سر الإغماض في قوله: ﴿بعضهم على بعض﴾ مما قررناه أعلاه.

(طه: ١١٧).. انظر قال: فلا يخرجنكما لكنه بعد ذلك قال: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ إنه يبين مقدار التبعات التي تلحق الرجل نظرًا لوجوب اهتمامه بالواجبات الحيوية الخارجية لحماية الأسرة، ورعايتها مقابل الاهتمامات الواجبة على المرأة داخليًا.

فكون الرجل يصبح قائد الأسرة في البيت مسألة طبيعية غالبًا بسبب ضرورة التنظيم لاجتماع الاثنين تحت سقف واحد، ولذا لا بد من أن يتولى أحد الفردين القيادة، وقد أُهِّلَ الرجل ليتولى ذلك الدور، ولكن كلمة (قوام) تدل على الثقل الذي يضطلع به ليقوم بمسؤوليات مقابلة، وأول أوجه تلك المسؤولية أن عليه أن يقدم مهر المرأة إشارة إلى تجشمه لعناء الإنفاق على الأسرة، فيجب على الرجل القيام المسؤول على الأسرة وتوفير الاحتياجات المعيشية لها، كما يجب عليه أن يتحمل تبعات تمثيلها الخارجي، وكلُّ هذا يفهم من صيغة (قوام) في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ولكن هذا التكليف يحمل في طياته المسؤولية يعني إقامة التفاهم الدائم مع الطرف الآخر.

ويبين النبي ﷺ مسؤولية القوامة التي كلف بها الرجل وتبعاتها وأجرها، وأنها تساوي حماية البلدان جهادًا في سبيل الله، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جِلَدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وُلْدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ» (١).

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣ / ٤٩١) برقم ١٥٦١٩، وفي «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٤ / ٣٧٧): «رواه الطبراني في الثلاثة ورجال الكبير رجال الصحيح»، وصححه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم ١٩٥٩.

السبب الثاني: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، فهذا سببٌ كسبي إلزامي، فيجب على الرجل أن يتحمل الإنفاق على الأسرة.

ومسؤولية القوامة على الأسرة تقتضي أن يقوم الرجل بما يجب عليه من الإنفاق على الأسرة، ولا يجب على المرأة أن تتحمل شيئًا في مقابل ذلك، حتى لو كانت غنية.

القانون الثاني: فمن الطرفان الأساسيان في تكوين الأسرة في الرؤية الإسلامية الراشدة؟

الطرفان هما: الزوج والزوجة، فالنظام الأسري الذي تنبث من خلاله الحياة الإنسانيةلا بد أن يكون طرفاه الرجل والمرأة، فالله الذي خلق البشرية جعل «الزوجية» إحدى السنن الملازمة للخلق عمومًا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وهما يكونان نفسًا واحدة كما ينبثق عنهما الانتشار البشري ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء: ١)، وتصور التعبير المدهش!

إنهما شطران يكوِّنان نفسًا واحدة.. كيف يكون حال إنسان قطع جزء من جسده؟ فكيف حاله إذا قطع شطره؟ إن الزواج يجمع بين شطري النفس الواحدة لتكتمل صورة الجمال، وتسكن النفس الواحدة باكتمال أجزائها المتناغمة، وتهدأ الأعصاب، وتطمئن الأرواح، وترتاح الأجساد، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١)، ثم يحدث الإحصان المتبادل، فيعف كل منهما عن الحرام الذي يفسد البشرية﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، وتكتمل أفراحهما بقيام كل بدوره في بث الجنس البشري﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ

طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (آل عمران: ٣٨)، ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٠، ١٠١).

«ومن تساوي شطري النفس الواحدة في موقفهما من الله، ومن تكريمه للإنسان، كان ذلك التكريم للمرأة، وتلك المساواة في حقوق الأجر والثواب عند الله، وفي حقوق التملك والإرث، وفي استقلال الشخصية المدنية» (١).

القانون الثالث: يجب على المرأة في المقابل أن تكون صالحة في الواقع الأسري والمجتمع، وحتى تكون صالحة فينبغي أن تتوفر فيها صفتان: أن تكون قانتة، وأن تكون حافظة للغيب بما حفظ الله، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (النساء: ٣٤):

فقوله جل ذكره: فالصالحات يبين مكانة المرأة في المحافظة على إدارة الحياة على الوجه الصالح، وذلك يعني المكانة المتميزة لها في منع الفساد في الأرض من خلال منع الفساد في الأسرة: فالفاء في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ فاء الفصيحة، والتقدير الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم الواجب عليهم أن ينفقوها ليقوموا بحقوق الأسرة، فإذا تساءلتم: ماذا أوجب الله على النساء في مقابل ما أوجب على الرجال؟ فاعلموا أنه أوجب عليهن أن يكنَّ صالحات، والصالحات قانتات حافظات للغيب، فالرجال قوامون على النساء في بناء الأسرة واحتياجاتها، والنساء يقمن بمسؤولياتهن في البناء الأسري، وأفضلهن في ذلك الصالحات الصلاح (الإيماني والزوجي).

المرأة الصالحة خير ما يجده المرء في الدنيا، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٤٨).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» (١)، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء» (٢).

وبين النبي ﷺ تفصيل هذا الصلاح.. لقد بينه بيانًا مدهشًا تعجب مقابله من تقصير المرأة في الوفاء بما بينه النبي ﷺ لتكون صالحة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُمْ. فَانْطَلَقَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الآيَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلاَّ لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ المَوَارِيثَ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ». فَكَبَّرَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ المَرْءُ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ» (٣)، والنبي ﷺ يفصل ذلك، وهو يفسر هذه الآية على وجه الخصوص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النساء امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سرَّتك، وإذا أمرَتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية (٤).

والتي تسره بالنظر إليها هي التي تجمع الصفات اللافتة للنظر، والجمال النسبي والتجمل مما يسره عند النظر فقد روى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٧٨) برقم ٣٧١٦.

(٢) صحيح ابن حبان بتحقيق الأرناؤوط (٩ / ٣٤٠) برقم ٤٠٣٢، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٣) أبو داود (٢ / ٥٠).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٩٥).

خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» قال جابر: فخطبت جارية من بني سلمة فكنت أختبئ لها تحت الكرب حتى رأيت منها بعض ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها[١]، وعن المغيرة بن شعبة ﷺ: أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» [٢] أي أحرى أن تدوم المودة بينكما كما فسره الترمذي.

ولكن الجمال ليس هو الذي يسر المرء في المرأة إذا نظر إليها فحسب؛ إذ الجمال صفة متغيرة زائلة، فإذا اجتمع مع سوء الخلق وقلة الدين أصبح صفة منفرة، فالمراد بسروره عند النظر إليها الصورة الكاملة، فالتزين للزوج جزء مما يلفت النظر لكنه ليس كل شيء، ومن أعظم ما يلفت نظره إليها أن يرى فيها المرأة التي تنوء بحمل الواجبات الأسرية الداخلية، ويرى فيها المرأة المدبرة الحريصة على استيعابه ومطاوعته بدلًا من منازعته، ولذا ترى النبي ﷺ يؤكد على أن يظفر المرء بذات الدين في قوله: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» [٣]، وهذا يؤيد الحديث الضعيف الذي فيه أن النبي ﷺ قال: «إياكم وخضراء الدمن»، فقيل: يا رسول الله، وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء» [٤].

انظر بعد ذلك لترى أن الله يفصل أهم تفاصيل صلاح المرأة، فلخص الله معايير الصلاح في الصفتين الأخريين اللتين ينبغي أن تتسم بهما المرأة عند حضور الزوج وغيبته، هي أم الصفتين الأخريين، فالصلاح صفةٌ شاملةٌ تتضمن الصفتين الأخريين:

(١) أحمد(٣/ ٣٣٤) برقم ١٤٦٢٦، وحسنه الأرناؤوط.

(٢) سنن الترمذي (٣/ ٣٩٧) برقم ١٠٨٧، وقال: حسن، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧/ ٩) برقم ٥٠٩٠.

(٤) مسند الشهاب القضاعي (٣/ ٤٦٩) برقم ٨٩٠.

الصفة الأولى: قانتات، والقنوت صفة تدل على الهدوء، والصبر، والتذلل، وانظر كيف أمر الرجال والنساء بالقنوت في الصلاة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، فأي هدوء تراه وتذلل فيها.. ما أجمله، كذلك يجب أن تكون المرأة الصالحة في التعامل مع الأسرة والمجتمع:

والقنوت دوام الخضوع.. مهلًا لا تظنن المعنى دوام خضوع المرأة للرجل على معنى العبودية.. حتى يتجلى لك الأمر تجد أن الله أمر الرجال والنساء بالاتصاف بهذه الصفة، فقال للفريقين: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، وبين لمريم عليها السلام أن الاتصاف بهذه الصفة من علامات الكمالات فقال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ (آل عمران: ٤٣)، وبذا فليس القنوت هنا يراد به دوام الخضوع بأن تكون المراة أمة للرجل، بل دوام الخضوع لربها، وذاك يكسبها الهدوء والمشي في الأرض هونًا، ومطاوعة الرجل لا مغالبته، وهذه الصفة من أهم تفاصيل صلاح المرأة، وذلك عند حضور الزوج، وهذه الصفة تعني طاعة الله، وعدم منازعة الزوج، والمطاوعة له عن رغبة ومحبة وود، ويجمع قنوت المرأة أربعة أشياء: الإمساكُ عَنِ الكَلَامِ الذي لا داعي له فضلًا عن الكلام الذي يوغر الصدر، ودعاءُ الله لاستجلاب الصلاح الأسري، والخُشُوعُ والإقرارُ بالعُبودية والتفكر في الأمور الأخروية، والقيامُ بِالطَّاعَةِ المحبة لله ثم للزوج فيما أمرها به من معروف. من أعظم مواضع القنوت ترك الغضب، وها أنت ذا ترانا اليوم في ثقافة تلفزيونية حديثة يكون الغضب فيها جزءًا من التكوين الأسري للزوج وللزوجة، وبعض الناس يعتبر هذا جزءًا من التدين تظهر من خلاله قوته وعزته سواء كان من جهة الزوج أو من جهة الزوجة، ولذا يحرص العزيز منهما أو المستعز على أن يرفع صوته.. ساء تفكيرًا الذي يهدي لمثل هذا، فأين وصية النبي ﷺ بعدم الغضب مرارًا، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ في آيات تتكلم عن دروس غزوة أحد: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤). إن ترك الغضب يدل على الصفة الأساسية لتربية الأولاد التربية الصالحة، ويؤدي إلى صلاحهم.

الصفة الثانية: حفظ غيب الرجل والأسرة؛ وذلك عند غيبته، في الوقت الذي يجب على الرجل حفظ الله في حق المرأة:

وهذه الصفة رقيقة عظيمة في الوقت ذاته.. فليت النساء يعرفن معناها ويفقهن مغزاها، وليت الرجال يدركون مرماها، فالحِفْظُ كما يقرر علماء اللغة: نَقِيضُ النسْيَان، وَهُوَ التَّعاهُد وقِلَّةُ الغفْلةِ، وإنما ذكر حالة الغيب لبيان أن قيامها على مسؤولياتها بإخلاصٍ حال غيبة الرجل يدل على قيامها بذلك بصورةٍ أكثر إتقانًا حال حضوره، فحال الغياب مظنة للغفلة والنسيان والتساهل.. لنأخذ بعض الصور الداخلة في الحفظ:

الصورة الأولى: الحفظ لمَا يُسْتَحْيَا مِنْ إِظْهَارِهِ أمام الناس، أَيْ: حَافِظَاتٌ لِكُلِّ مَا هُوَ خَاصٌّ بِأُمُورِ الزَّوْجِيَّةِ الخَاصَّةِ بِالزَّوْجَيْنِ، فَلَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْهُنَّ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا هُوَ خَاصٌّ بِالزَّوْجِ، ويدخل في ذلك أحاديث الرَّفَثِ وأفعاله، فتكون هذه العبارة {حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ} من أبلغ كنايات النزاهة كما يسميها محمد رشيد رضا، ويقول: تَقْرَؤُهَا خَرَائِدُ العَذَارَى جَهْرًا، وَيَفْهَمْنَ مَا تُومِئُ إِلَيْهِ مِمَّا يَكُونُ سِرًّا، وَهُنَّ عَلَى بُعْدٍ مِنْ خَطَرَاتِ الخَجَلِ أَنْ تَمَسَّ وِجْدَانَهُنَّ الرَّقِيقَ بِأَطْرَافِ أَنَامِلِهَا، فَلِقُلُوبِهِنَّ الأَمَانُ مِنْ تِلْكَ الخَلَجَاتِ الَّتِي تَدْفَعُ الدَّمَ إِلَى الوَجَنَاتِ، نَاهِيكَ بِوَصْلِ حِفْظِ الغَيْبِ.

الصورة الثانية: حفظ ما يحدث بينهما من تبادل الأحاديث أو الأفعال العامة أو الخاصة مما يكره الرجال بلوغه إلى الآخرين.

الصورة الثالثة: المراقبة لنفسها لئلا تقع فيما يكره الزوج، والمراقبة لماله، ورغباته، وتركته، وأولاده، وانظر لفعل هاجر عليها السلام، وقول النبي ﷺ: «فَجَاءَ

إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ» [١]، فينبغي أن تراقب غيب زوجها، فلا تتكلم إلا بخير ما يأمل منها، ولا تفعل إلا أفضل ما في وسعها له، وهذه الصفة تبين أهم واجبات المرأة من رعاية الزوج إن غاب فكيف إن حضر؟

وهذه الصفة تستلزم أن تكون المرأة متيقظة منتبهة لمتطلبات أسرتها وزوجها، فلا تكثر من قول نسيت؛ لأن كلمة نسيت لا تدل على الحفظ بل تدل على الغفلة [٢]..

وهذه الصفات الرائعة تجعل المرأة في المقام الأعلى من القيام بالحقوق الأسرية؛ فهي مكمن راحة الأسرة، وطمأنينتها، ومحل تخفيف آلامها، وبذهاب آلام الزوج تقل آلامها، وتذهب معاناتها؛ ولذا خففت عنها الواجبات العبادية الأخرى مقابل ذلك؛ واسمع إلى هذا التبجيل العظيم لها لو حققت تلك الصفات فيها، فعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت» [٣] كما قال بشار بن برد:

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٧٤).

(٢) في «مساوئ الأخلاق» لأبي بكر الخرائطي ص ١٩٠ عن ابن أبي عزرة الدؤلي، وكان في خلافة عمر يخلع النساء التي يتزوجها، فطار له في الناس من ذلك أحدوثة فكرهها، فلما علم بذلك قام بعبد الله بن الأرقم حتى أدخله بيته، فقال لامرأته، وابن الأرقم يسمع: أنشدك بالله، هل تبغضينني ؟ فقالت امرأته: لا تناشدني. قال: بلى. فقالت: اللهم نعم. فقال ابن أبي عزرة لعبد الله: أتسمع. ثم انطلق حتى أتى عمر، ثم قال: يا أمير المؤمنين، يحدثون أني أظلم النساء، وأخلعهن، فاسأل عبد الله بن الأرقم عما سمع من امرأتي، فسأل عمر عبد الله، فأخبره، فأرسل عمر إلى امرأته، فجاءت، فقال لها: «أنت التي تحدثين زوجك أنك تبغضينه ؟ »، قالت: يا أمير المؤمنين، إني أول من تاب، وراجع أمر الله، إنه يا أمير المؤمنين أنشدني بالله، فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: «نعم، فاكذبي، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدا، فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام، والإحسان ».

(٣) أحمد(١ / ١٩١)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة.

مُشْرِقاتُ الوُجُوهِ يَسْبحنَ لِلَّهْ وِعُيُونًا مَكْسُورةً بفُتُورِ
حَافِظَاتٍ على الأَخِلَّةِ ما طا ب وأبرقن كالسَّرابِ الغرور
يتساقينَ بالمضاحكِ كالشَّه دِ مَشُوبًا بِمَاءِ مُزْنٍ نَمِير
ورضيتُ القليل منهنَّ إنِّي مِنْ قَلِيلٍ لَواثِقٌ بِكَثِير

تلك وظيفة المرأة الأساسية، ومن خلالها تقوم بالحقوق الأسرية التي بها يصلح المجتمع.. أين ما يُدعى ظلامًا إذن؟ أين المؤسسات العالمية لتتعلم من هذا المعين الصافي.. إنك لتعجب من هؤلاء الذين يبغون الحياة عوجًا يزعمون أن تحقق المرأة بهذه الصفات، وتخلقها بها يعني عبودية المرأة للرجل، ولا بد من تحريرها من ذلك!! إنه اللعب بالألفاظ لتدمير الحياة، لماذا إذا ذكر موضوع طاعة الزوجة لزوجها اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، واشمأز معهم السماعون لهم؟ وهل الموظف عندما يطيع مديره نقول له: يجب أن يتمرد عليه لأن ذلك عبودية للمدير؟ انظر إلى تصور العوج التي يروج لها بعض من نبذ دينه وعبد الغرب.

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ قراءتان توضحان مشهدين مختلفين:

كما أنه يمكن أن نقدر (ما) أحد تقديرين: إما مصدرية وإما موصولة، فتنتج لنا المعاني الآتية:

المشهد الأول: تدل عليه قراءة الجمهور برفع اسم «الله»، و «مَا» يمكن أن تكون مَصْدَرِيَّةً، والمعنى: أَنَّهُنَّ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بحفظ الله إياهن؛ إذ صيَّرهن كذلك، ويمكن أن تكون موصولة على معنى بالذي حفظهن الله به أَيْ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُنَّ حِفْظٌ للغيب إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّه، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ المَصْدَرِ إِلَى الفَاعِلِ، أو بالمنهج الذي حفظهن الله به، فالقراءة توضح أنهن اجتهدن في الرغبة فيما عند الله، فصدقن في تصرفاتهن ونياتهن ومجاهدتهن نوازع السوء في أنفسهن، فصدقهن الله بأن

حفظهن، وأعانهن على القيام بمسؤولياتهن.

المشهد الثاني: تدل عليه قراءة أبي جعفر يَزيد بن القَعْقاع المدني ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بالنصب، فهي تصور مشهدًا آخر مقابلًا، وهو مشهد الرجل يحفظ الله في نفسه، ويراقبه في ذاته، فيحفظه الله بأن يوفق أهله لحفظه في غيبه، ويتآزر المشهدان في القراءتين على بيان ضرورة أن يحفظ الرجل الله، وأن تحفظه المرأة ليكافأ كلٌ منهما بأن يحفظه الله جل في علاه.

فإذا وجدت النساء العظيمات اللاتي امتلكن هذه الصفات، فيجب الإحسان إليهن، والقيام على شؤونهن، ففي الكلام متروكٌ استُغْنِيَ عنه بدلالة ظاهر الكلام؛ إذ المعنى: فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، فأحسِنوا إليهن وقوموا بالواجب في حسن عشرتهن، وهذا ما جاء عن ابن مسعود ﷺ في تفسيره، وعدَّه الناس قراءة، فروى الطبري عن طلحة بن مصرف قال: في قراءة عبد الله: (فالصالحات قانتات للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهن)، ويدل على أنها قراءة تفسيرية أن الطبري روى بعد ذلك عن ابن عباس ﷺ ما يشبه ما ذكره عن ابن مسعود ثم صرح بكونه تفسيرًا، فعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، فأصلِحوا إليهن، ثم أسند أيضًا عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إذا كن هكذا، فأصلحوا إليهنّ [1].

ولقد أدركت المرأة العربية في الجاهلية شيئًا من هذه الصفات بسبب تربيتها على الصفاء الفكري المأخوذ من الفطرة النقية ومن بقايا ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيذكرون أنه لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف بن محلم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٢٩٨).

الشيباني، وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة من بني كندة يقال لها: عصام، وذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف.

فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي أمامة بنت الحارث، فأعلمتها بما قَدمَتْ له.

فأرسلت أمامة إلى ابنتها، وقالت: أي بنية! هذه خالتك، أتتك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك.

فدخلت إليها، فنظرت إلى ما لم تر قط مثله!

فخرجت مِن عندها وهى تقول: «ترك الخِداعَ مَنْ كَشَفَ القناع»، فأرسلتها مثلًا.

ثم انطلقت إلى الحارث، فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قالت: (صَرَّح المَحْضُ عن الزبد) تعنى بالزبد: رغوة اللبن، وبالصريح: اللبن الذي تحته المحض، وهذا مثل يُضرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون.. ثم وصفتها بما يحسن.. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها، فزوجها إياه، وبعث بصداقها، فجهزت.

فلما أراد أن يحملوها إلى زوجها، قالت لها أمها:

أي بنية! إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الخروج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال.

أي بنية! إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا.

فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا.

يا بنية! احملي عنى خصالًا عَشْرًا، تكن لك ذخرًا وذِكْرًا.

۞ الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

۞ والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود.

۞ والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مبغضة.

۞ والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمِه وعياله، وملاك الأمر في المال حسنُ التقدير، وفي العيال والحَشَم حسن التدبير.

۞ ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التَقصير، والثانية مِن التكدير.

وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون إكرامًا.

وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت، والله يَخير لك.

فَحُمِلَتْ فَسُلِّمَتْ إليه، فَعَظُم مَوْقِعُهَا منه، وولدتَ له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

القانون الرابع: قانون (نشوز المرأة) ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ ﴾ :

الزوجات صنفان:

الأول: قائمات بمسؤولية الأسرة، وهن الصالحات فيُحسن إليهن، كما قال ابن عباس ﷺ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾، يعني: إذا كن هكذا، فأصلحوا إليهنّ،

الثاني: الناشزات المتعاليات عن القيام بواجبات الأسرة: فحماية الأسرة تقتضي أن يقوم الرجل بمعالجة أمر المرأة التي يُخاف نشوزها، فبعد أن ذكر الله الصالحات، ذكر غير الصالحات، فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

وذلك لخطورة الأمر على واقع الأسرة، وهذا الوصف المعجز ﴿تَخَافُونَ﴾ يبين واقع التخلخل الأسري، ويدل على ضرورة معالجة حال هذه المرأة الناشز على وفق مرحلتين:

المرحلة الأولى: ما قبل وقوع النشوز، فعند ذلك تبدأ المعالجة لواقع المرأة سريعًا ومباشرة إن ظهرت أمارات نشوز المرأة للرجل، ولمس ذلك من خلال عاطفته التي خبر بها واقع المرأة، وعقله الذي يقيس الأمور.. من أين أفدنا هذه المرحلة؟ لقد بصرتنا بها كلمة ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾.. اقرأ الآية مجددًا ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، فكلمة ﴿تَخَافُونَ﴾ على بابها أي أنها تدل على «الخوف» الذي هو خلاف «الرجاء»، فتخافون العواقب السيئة التي يحدثها النشوز، ورأيتم أماراتٍ تؤدي إلى النشوز، فما أمارات النشوز التي يمكن أن تخيف الأزواج؟ قد تظهر له دلالات النشوز من خلال القول بأن كانت تلبيه إذا دعاها، وتظهر أحسن الخلق إذا خاطبها ثم تغيرت، وقد تظهر له دلالات النشوز من خلال الفعل بأن كانت تقوم إليه إذا دخل إليها، أو كانت تسارع إلى طلبه، وتبادر إلى فراشه باستبشارٍ إذا التمسها، ثم تغيرت فحينئذ يظن نشوزها، وقد تظهر أمارات النشوز بنظرها إلى ما لا ينبغي، أو فعلها لما لا ينبغي، فعند ذلك

لا بد من معالجة الواقع، وليس المقصود المغاضبة والاستعصاء المعتاد؛ فإنه قلما يخلو منه بيت.

والتعبير بالخوف هنا يدل على ضرورة معالجة أسباب المشكلة كالأفكار السيئة، والخلفية الرديئة التي قد تكون عند بعض النساء في فهم الواقع الحياتي، فبادروا إلى حل المشكلة عندما تلمحون أمارات ظهورها، ولا تنتظروها حتى تتفاقم وتطل بقرنيها.

المرحلة الثانية: بعد وقوع النشوز، فتزداد الضرورة الحياتية قوة لمعالجة عوج المرأة إن استبان للإنسان إصرارها على العوج؛ إذ إن معنى كلمة ﴿تَخَافُونَ﴾ هنا تعلمون، وهذا تفسيرٌ باعتبار المآل حيث وقع الخوف أولًا من أمر ثم تحقق ما يُخاف منه كما قال أبو محجن:

وَلا تَدْفِنَنِّي فِي الفَلاةِ فَإِنَّنِي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لا أَذُوقُهَا

معناه: فإنني أعلم.

تأمل جمال ذلك، فكلمة تخافون جاءت في السياق القرآني لتدل على الأمرين معًا: ما قبل وقوع النشوز، وما بعده.

ولكن ما معنى النشوز الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؟

النشوز يعني الانزعاج في ارتفاع واستعلاء، ومنه قيل للمكان المرتفع من الأرض: «نَشْز» و«نَشَاز»، فعبر عن صفة المرأة المتعالية التاركة لمسؤوليتها الأسرية بالناشز لأن نشوز المرأة يدل على استعلائها على زوجها، وارتفاعها عن القيام بمسؤولياتها الأسرية، وعندما يحين موعد أي من مسؤولياتها تنزعج منها، وتتركها، وتظهر بين الزوجين المخالفة والإعراض والتجادل بدل المطاوعة والتباذل، وإظهارها السياسة الخرقاء التي تظهرها الثقافات الوافدة على الحياة الإسلامية التي تقوم على التكامل،

وقول بعضهن: تتغدى به قبل أن يتعشى بها، ونحو ذلك من عفونات الثقافات السيئة، فتستعلي عن القيام بمسؤوليتها الأسرية التي لخصتها الصفات السابقة.

والآن قل لي من هو المخاطب في قوله: ﴿تَخَافُونَ﴾؟

المخاطب إما أن يكون الأزواج، وإما أن يكون المجتمع، فيدخل في هذا الخطاب: الأزواج، وأسرتا الزوجين، والمنظمات الحكومية العاملة في المجال الأسري التي تعمل على السعادة الأسرية، والاستقرار المجتمعي، وهذا يدل على أن السعادة الأسرية لكل أسرة جزء من مسؤوليات المجتمع بإنشاء المؤسسات والوزارات التي ترعاها وتنميها.

القانون الخامس: لإبقاء التماسك الأسري لا بد من استخدام الوسائل العلاجية لنشوز المرأة، وهي وسائل للعلاج لا للثأر والظلم، وتختلف حسب مقدار النشوز

وهذه الوسائل هي:

الوسيلة الأولى: الوعظ وهو تذكيرٌ رقيق مقترن بالتخويف من المآلات المستقبلية الدنيوية والأخروية، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾:

قوموا بتذكيرهن وحوارهن بموعظةٍ حسنة تذكرونهن فيها بحقيقة الحياة، وقيامها على التكامل، وبأن طاعة الله في الأسرة هي مِلاك النجاح في الاختبار الدنيوي، وبتخويفهن وعيدَه في اتخاذ الحياة عوجًا، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[1].

وهذا يقتضي تعليم المرأة العلم، وتعويدها على مجالس الخير، ويدخل ضمن التذكير والوعظ المصارحة والمكاشفة بالفعل الذي يدخل الريبة والشك على

(١) سنن الترمذي (٣/ ٤٦٥).

التصرفات، وهذا ما غرسته المعرفة القرآنية في أساتذة التربية السلوكية، فعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا رأى الرجل خِفّةً في بَصرها، ومدخلَها ومخرجَها.

قال يقول لها بلسانه: «قد رأيت منك كذا وكذا، فانتَهِي»! فإن أعْتَبت، فلا سبيل له عليها. وإن أبت، هَجر مَضجعها[١].

الوسيلة الثانية: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ إن لم ينفع الوعظ يتم الانتقال في تدرجٍ لافتٍ إلى مرحلةٍ أقوى هي مرحلة الهِجران، وذلك لينبئ المرأة بخطورة سلوكها، وليعلمها بأن إهمالها، واستعلاءها أوصل الأمور إلى حالةٍ أسوأ في الحياة:

فهجر الرجل لزوجته بسبب تصرفاتها السيئة مسألة خطرة على الحياة الاجتماعية ويقابلها في خطورتها هجر الرجل لزوجته بسبب نشوزه هو، أي بسبب عدم قيامها بمسؤولياته مما سيذكره الله في الآية (١٢٨) من هذه السورة.

ويبين رَسُول اللهِ ﷺ خطورة ذلك على قلب المرأة الناشز ووعيها وحياتها، فيقول: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» [٢].

وفي لفظ للحديث يبين أن هذا الوعيد الرهيب يطلق على ما هو أعم من أن تأبى، بل يشمل ذلك ما لو هجرها هو لضيق من عدم شعورها بالمسؤولية؛ فقد قال النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «إِذَا بَاتَتِ المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» [٣].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٠١).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٤١).

(٣) صحيح مسلم (٤ / ١٥٦).

والهجر في المضجع يحتمل **خمسة صور**:

الصورة الأولى: أن يكون الرجل وامرأته على فراش واحد لا يجامعها، فهجره لها في ذلك يجعلها تتساءل عن السبب، وربما هبطت مِنْ نَشَزِ المُخَالَفَةِ إِلَى صَفْصَفِ المُوَافَقَةِ.

الصورة الثانية: يباشرها مع هِجران كلامها.

الصورة الثالثة: العكس.

وهذا الإجراء (الهجر في المضاجع) وسيلة للمعالجة وليس الإذلال، فلا ينبغي أن يكون في البداية هجرًا ظاهرًا في غير مكان خلوة الزوجين.. لا يكون هجرًا أمام الأطفال، يورث نفوسهم شرًا وفسادًا.. ولا هجرًا أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزًا. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ولا إفساد الأطفال. نعم قد يتطور إذا لم ترتدع الزوجة فينتقل إلى الهجر في المضاجع، ولكن في المنزل، ويترتب عليه أن يلاحظ الأولاد أن هناك خللًا ما. وهذه هي الصورة الرابعة.

الصورة الرابعة: هجر الفراش والنوم في مكان آخر، ومنع بعض المفسرين من هجر غرفة النوم؛ لأن الله أباح الهجر في المضجع، ولكن الآية تحتمل هذه الصورة لأن هذه الجملة العجيبة من كنايات النزاهة، ولأن النبي ﷺ: «تطعمها إذا أكلت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر الا في البيت» [1].

(١) أحمد (٤ / ٤٤٦).

الصورة الخامسة: هجران المنطق بإغلاظ الكلام لها، وإظهار الجفاء، وجاء هذا المعنى عن عكرمة.

والآية تحتملها فيصنع الأنفع المؤثر حسب حالتها لتترك غيها[1].. وذكروا أن هذه العبارة من كنايات النزاهة، وليس هجر المضجع ذاته، وأن هجر الزوجة بخروج الزوج أو خروجها خارج غرفة النوم عقوبة لم يأذن بها الله، إلا أن التأمل يجعل الصور السابقة كلها محتملة كما هو واضحٌ.

الوسيلة الثالثة: المس الجسدي الغاضب باليد دون أن يترتب عليه إيذاء مادي ظاهر في الجسد، ويبصرنا الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾، فالضرب إيقاع شيء على شيء بسرعة حتى يلتصق به، وهذه الوسيلة لينبه زوجته على خطورة نشوزها على مستقبل الأسرة، وخص النبي ﷺ استعمال هذه الوسيلة بوصول النشوز إلى مرحلة الفاحشة، ووصفه النبي ﷺ بأنه (غير مبرِّح)، وقد أخطأ كثير من

---

(١) في تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٠٦) فصل معنى الهجر تفصيلًا فريدًا ثم اختار رأيًا غريبًا فقال: «ولا معنى لـ «الهجر» في كلام العرب إلا على أحد ثلاثة أوجه.

أحدها: «هجر الرجل كلام الرجل وحديثه»، وذلك رفضه وتركه، يقال منه: «هَجر فلان أهله يهجرُها هجرًا وهجرانًا».

والآخر: الإكثار من الكلام بترديد كهيئة كلام الهازئ، يقال منه: «هجر فلانٌ في كلامه يَهْجُر هَجْرًا»، إذا هذَى ومدّد الكلمة «وما زالت تلك هِجِّيراه، وإهْجِيرَاه»، ومنه قول ذي الرمة:

رَمَى فَأَخْطَأَ، وَالأَقْدَارُ غَالِبَة فَانْصَعْنَ وَالوَيْلُ هِجِّيرَاهُ وَالحَرَبُ

والثالث: «هَجَر البعير»، إذا ربطه صاحبه بـ «الهِجَار»، وهو حبل يُربط في حَقْويها ورُسغها، ومنه قول امرئ القيس:

رَأَتْ هَلَكًا بِنجَافِ الغَـــبِيط فَكَـــادَتْ تَجُـــدُّ لِذَاكَ الهِجَارَا

فأما القول الذي فيه الغلظة والأذى، فإنما هو «الإهجار»، ويقال منه: «أهجر فلان في منطقه» : إذا قال «الهُجْر»، وهو الفحش من الكلام ، يُهْجر إهجارًا وهُجرًا.

ورجح الطبري أن المراد الربط بالهجار في المنازل، ولعل ذلك لإبقائهن في منازلهن وعدم الإذن لهن بالخروج، أو لفعل ما تمنعن منه، وَسَمَّى الزَّمَخْشَرِيُّ هَذَا التَّفْسِيرَ بِتَفْسِيرِ الثُّقَلَاءِ.

الناس في تحديد المعنى الدقيق لهذه الكلمة، وتُرجمت خطأ لعدم وجود مقابلٍ دقيق لهذا المعنى الدقيق، وبسبب عدم الجمع بين الكتاب والسنة في فهمها.

إن لم تنفع الوسيلتان السابقتان لتنبيه المرأة الناشز بخطورة مسلكها على الأسرة المركزية وتأثيره على الأسرة المتوسطة والعامة فحينها يُلجأ إلى هذه الوسيلة عساها تنتبه أن الأمور وصلت إلى مرحلة مسدودة وخطيرة في ظل عدم مبالاتها بمعالجة الوضع. ولا بد أن يكون هذا الإجراء شرعيًا، وليس عرفيًا، ومن الخطورة ترجمة الكلمة حرفيًا إلى غير العربية مع اتساع دلالتها عندنا، وتخصيص دلالتها الشرعية بالسنة، وحتى يكون هذا الإجراء شرعيًا لا بد أن يقترن به بضوابط:

أولها: هذا الإجراء لا يجوز أن يقترن بالعنف، فيجب أن يكون غير مؤثر ولا مؤلم: ألا تتأمل أنه جاء بعد الوسيلتين السابقتين: الوعظ والهجر في المضجع؟ فلماذا جعل هذا الإجراء وسيلة ثالثة؟

لا يصل إليه الزوج إلا وقد ذهب كثيرٌ من غيظه وتعلم الحلم والصبر في التعامل مع الموقف، ولذا بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: باب مَا يُكْرَهُ مِنْ ضَرْبِ النِّسَاءِ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ [1]، أي غير مؤثر، فقد اتفقت كلمة المفسرين على أن المراد بالضرب هنا الضرب غير المبرح كما فسَّره النبي ﷺ، وقوله ﷺ: «غير مبرِّح» «بكسر الراء المشددة ومعناه: غير شديد الأذى، وعن قتادة: غير شائن، وعن الحسن البصري: غير مؤثر» [2]، وعن عطاء قال: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرّح؟ قال: السواك وشبهه، يضربها به [3].. ماذا تسمع؟ السواك؟ نعم، وماذا يكون الضرب بالسواك؟ إنه الضرب غير المؤثر، والتمثيل بالسواك يدل على أن المراد

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧ / ٤٢).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٩ / ٤٦٩).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣١٤).

بالضرب الضرب الرمزي الذي يعلمهن أن سلوكهن قد بلغ مبلغًا لا يمكن قبوله.

والضرب الشرعي هنا لا يكاد يتفق مع الضرب العرفي هذه الأيام، فالضرب الشرعي أخبر عنه عطاء [١]، فهو ليس ضربًا موجعًا، بل ضرب تنبيهي، يفعله المداعب الممازح، فيفرح صاحبه، ويفعله الغاضب، فينتبه صاحبه.

ولا تعجب مني، مبديًا اعتراضك على ذلك.. لا تقل: بأن ما قررته هنا يخالف معنى الضرب.. أطالبك بذلك لأنه ينبغي أن تراجع معنى كلمة (ضرب) لغة، وهلمَّ بنا لننظر فيها:

تكررت كلمة (ضرب) في القرآن المجيد أربعًا وخمسين مرة، والضرب [٢] عرفه ابن فارس تعريفًا واضحًا، فذكر أنه «إيقاعُ شيءٍ على شيء، ولتصوّر اختلاف الضّرب خولف بين تفاسيرها، كَضَرْبِ الشيءِ باليد، والعصا، والسّيف ونحوها»، ويمكننا أن نقول: هو إيقاع شيء على شيء بسرعة حتى يلتصق به، فهو المس الضاغط المتجه سريعًا، ومنه الضرب في الأرض للتجارة كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (المزمل: ٢٠)، أو للسفر كما قال جل ذكره: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (النساء: ١٠١)، فهو إيقاع القدم على الأرض، وقد يكون الضرب في الأرض خروجًا محضًا بأن توقع أقدام الإنسان أو الدواب على الأرض، وقد يصاحبه السرعة حسب السياق، فمن الإسراع إلى السير قوله:

فإن الذي كنتم تحذرون أتتنا عيون به تضرب

ثم يحدد السياق نوعه، فقد يكون مؤلماً مهينًا وجيعًا كما في قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ

(١) الطبري (٨/ ٣١٤).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٣٩٨)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/ ٨)، تاج العروس٣/ ٢٤٤.

﴿ٱلْحَرِيقِ﴾ (الأنفال: ٥٠)، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ (الصافات: ٩٣)

وقد يكون خفيفًا رفيقًا غير مؤذٍ: {﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ (البقرة: ٦٠) ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة: ٧٣)، ومنه هذه الآية المباركة ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤)، ومن ذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤)، ويقال: أضربت الناقة: أنزيت عليها الفحل.

وقد يكون ماديًا كما في كل ما سبق، وقد يكون معنويًا بإيقاع أمرٍ على أمرٍ حتى يشعر به مثل قوله جل ثناؤه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ (آل عمران: ١١٢) ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

فوضحت السنة أن العنف لا يصحب هذا الإجراء أو هذه الوسيلة.

وثاني هذه الضوابط: أن يكون لتنبيه المرأة الغافلة عن خطورة الوضع الأسري نظرًا لإهمالها، وترفعها عن القيام بمسؤولياتها الأسرية، لا للانتقام المؤلم:

فهو أخف من أن يتم تدمير الأسرة، وتشتيت الأولاد بفعل نشوز المرأة وإصرارها على الاستعلاء وترك مسؤولياتها الأسرية، وخاصة أن نشوز المرأة كنشوز الرجل الذي سيتم معالجته في الآية (١٢٨) إن لم يكن معه تنبيهٌ قويٌّ لكليهما بخطورة أفعالهما يبقى هذا السلوك الخطير (النشوز) حتى بعد الطلاق.

وثالثها: هذا النوع من المعالجة جعله النبي ﷺ خاصًا بنوعٍ خطيرٍ من نشوز النساء يتعلق بالتساهل في إدخال من يكره الرجل دخوله إلى البيت: على أن النبي ﷺ أكد على أن يكون غير مبرّح أيضًا، والمراد به أن تعلم المرأة أنه قد يترتب عليه اللجوء إلى الجهات المجتمعية لحل الإشكال أو الفراق بينهما، فقال ﷺ موصيًا بالنساء في

حجة الوداع التي ذكر الله فيها أهم القواعد الشرعية المحكمة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ» (١)، وفي رواية الترمذي: «ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يُطِئن فراشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»، وذكر في بعض ألفاظ هذا الحديث «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» ثم بين ﷺ أن ذلك يعالج بهذه الوسيلة الثالثة لكنه قيدها تقييدًا واضحًا فقال: «غَيْرَ مُبَرِّحٍ» وقد سبق شرح معناه.

ورابعها: تركه بالكلية أولى وخاصة إن عُلِم أنه لا يؤثر في تنبيه المرأة إلى خطورة نشوزها على المستقبل الأسري، إذ ليس المراد به الانتقام بل التنبيه، وعند ذلك يلجأ المجتمع إلى حل المشكلة بينهما بالتحكيم كما في الآية الآتية، فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذئاب قال: قال النبي ﷺ: « لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد ذئر النساء على أزواجهن. فأمر بضربهن. فضربن. فطاف بآل محمد النبي ﷺ طائف نساء كثير. فلما أصبح قال: «لقد طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة. كل امرأة تشتكي زوجها. فلا تجدون أولئك خياركم» (٢)، وفي رواية: «وَلَنْ يَضْرِبَ خِيَارُكُمْ» (٣)، وقد روي عن عَطَاء قَالَ: لاَ يَضْرِبُ الزَّوْجُ امْرَأَتَهُ وَلَكِنْ يَغْضَبُ عَلَيْهَا. قَالَ ابْنُ العَرَبِيِّ: هَذَا مِنْ فِقْهِ عَطَاءٍ وَفَهْمِهِ الشَّرِيعَةَ وَوُقُوفِهِ عَلَى مَظَانِّ الِاجْتِهَادِ عَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ بِالضَّرْبِ هُنَا أَمْرُ إِبَاحَةٍ، وَوَقَفَ عَلَى الكَرَاهِيَةِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى كَقَوْلِ النَّبِي ﷺ «وَلَنْ يَضْرِبَ خِيَارُكُمْ»، والظاهر أن عطاء قصد أن الضرب لم يبح إلا في أحوال مخصوصة

(١) صحيح مسلم (٤ / ٣٩) برقم ٣٠٠٩، والزيادة من سنن الترمذي (٣ / ٤٦٧) برقم ١١٦٣.

(٢) أبو داود (٢ / ٢١١) برقم ٢١٤٨، سنن ابن ماجه (١ / ٦٣٨) ومعنى (ذئر النساء) أي نشزن واجترأن.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٧ / ٣٠٤).

جدًا يعلم منها أن المرأة لا تدرك حجم الخطر الذي وصلت إليه إلا به، فإن لم تعلم به لم يجز الاسترسال فيه لأن الغرض منه لم يتحقق، وإن استرسل فيه صار معتديًا، ولذا أمر الله بالتحكيم إن استطال الأمر وظهر الشقاق بينهما، ولذا يجوز للولاة أن يمنعوا من لا يحسن استخدام هذه الوسائل.

بل إن المرأة إن تأذت من زوجها عندما يتعسف في استعمال هذا الحق يكون لها الحق في رفع قضية عليه، والانتصاف منه كما في آية التحكيم اللاحقة، وكما في الآية (١٢٨) التي ذكرت نشوز الزوج في المحور القضائي.

والآن وفقك الله: لا تخبرنا هاهنا بقول الفقيه الفلاني محتجًا على آيةٍ أوضحت السنة المرادَ بها، مع أن قول الفقيه يحتمل الخطأ والسنة واضحة في المراد والتطبيق، هذا فهمي والله أعلم.

وورود هذه الكلمة لا تجعل المسلم قلقًا أمام ضغط القوى المستكبرة التي تحاول أن تُلبِس الآية ما ليس لباسًا لها، فإن الشريعة القرآنية تحافظ على الإنسانية من أن تميل ميلًا عظيمًا، ومن أهم علامات هذه المحافظة إبقاء الأسرة متماسكة يقوم كل طرفٍ فيها بواجبه، وإنك لتستكبر أن ينكر بعض الناس طرق معالجة المرأة الناشز، «وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ تَنْشُزَ وَتَتَرَفَّعَ عَلَيْهِ، فَتَجْعَلَهُ وَهُوَ رَئِيسُ البَيْتِ مَرْءُوسًا بَلْ مُحْتَقَرًا، وَتُصِرُّ عَلَى نُشُوزِهَا حَتَّى لَا تَلِينَ لِوَعْظِهِ وَنُصْحِهِ، وَلَا تُبَالِيَ بِإِعْرَاضِهِ وَهَجْرِهِ، وَلَا أَدْرِي بِمَ يُعَالِجُونَ هَؤُلَاءِ النَّوَاشِزَ؟ وَبِمَ يُشِيرُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ أَوْ يُعَامِلُوهُنَّ بِهِ؟ لَعَلَّهُمْ يَتَخَيَّلُونَ امْرَأَةً ضَعِيفَةً نَحِيفَةً، مُهَذَّبَةً أَدِيبَةً، يَبْغِي عَلَيْهَا رَجُلٌ فَظٌّ غَلِيظٌ، فَيُطْعِمُ سَوْطَهُ مِنْ لَحْمِهَا الغَرِيضِ، وَيَسْقِيهِ مِنْ دَمِهَا العَبِيطِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبَاحَ لَهُ مِثْلَ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الضَّرْبِ، وَإِنْ تَجَرَّمَ وَتَجَنَّى عَلَيْهَا وَلَا ذَنْبَ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ غِلَاظِ الأَكْبَادِ مُتَحَجِّرِي الطِّبَاعِ، وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَأْذَنَ بِمِثْلِ هَذَا الظُّلْمِ أَوْ يَرْضَى بِهِ، إِنَّ مِنَ

الرِّجَالِ الجَعْظَرِيَّ الجَوَّاظَ الَّذِي يَظْلِمُ المَرْأَةَ بِمَحْضِ العُدْوَانِ»[١].

القانون السادس: يجب أن تُعطى المرأة الناشز التي رجعت إلى القيام بمسؤوليتها حقها في نسيان الماضي الذي أخطأت فيه

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤):

﴿فَلَا تَبْغُوا﴾ أي فلا تلتمسوا ولا تطلبوا طلبًا يؤدي بكم إلى البغي عليهن، من قول القائل: «بغَيتُ الضالة»، إذا التمستها، ومنه قول الشاعر في صفة الموت:

بَغَاكَ وَمَا تَبْغِيهِ، حَتَّى وَجَدْتَهُ
كَأَنَّكَ قَدْ وَاعَدْتَهُ أَمْسِ مَوْعِدَا

فكفوا عن إيذائهن بأدنى سبيل من كلمة أو نظرة فما فوقها، «فاتقوا الله أن تظلموهن وتبغوا عليهن سبيلًا. وهن لكم مطيعات، فينتصر لهن منكم ربُّكم الذي هو أعلى منكم ومن كل شيء، وأكبر منكم ومن كل شيء»[٢].

لماذا ختم الآية بذكر هاتين الصفتين العظيمتين: عليًا كبيرًا؟

لأن الكلام القرآني قائمٌ على الإدهاش في ظهوره البياني؛ وفي معالجته لنفس الإنسان؛ إذ كل شيءٍ في موضعه، فذكر الله هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا المَوْضِعِ؛ لأن المقصود منع الرجال من التعسف في استخدام حقوقهم في معالجة نشوز النساء، ومنع النساء من التمادي في غرورهن وتكبرهن عن القيام بالمسؤوليات الأسرية، فالله أعلى وأكبر من الجميع، وهو مع علوه وكبريائه يغفر للجاني، ويعود على

(١) تفسير المنار (٥/ ٦١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣١٤).

التائب، وكذلك ينبغي أن يكون الحال بينكم.

القانون السابع: للمرأة الحق في محدودية تطبيق الوسائل الثلاث في معالجة النشوز الذي يعني عدم القيام بمسؤولياتها

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ (النساء:٣٥).

فما معنى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾؟

إذا كان للرجل الحق المطلق في استعمال الهجر والضرب مثلًا ستصبح مستعبدةً له، وإذن لا يمكنها الشقاق الذي ذكره الله هنا، فهل تصبح المرأة مجرد شيء يفعل به ما شاء... كلا!

هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الوسائل الثلاث ليست مطلقة بل محدودة زمنًا وفعلًا، فإذا لم تنفع تلك الوسائل، فليس له سلطة كاملة عليها، بل لها أن تشاقه، وإذا كان الشقاق سيبدأ بينهما فيجب أن يتدخل المجتمع، والشقاق يعني أن لها القدرة أن تكون في شقٍّ مكافئ للشق الذي يكون زوجها فيه، فأين تمكينه من أن يقسو عليها أو يعتدي على كرامتها أو جسدها؟ تجد الآية المباركة عجيبة في منع الرجل من التمادي أو التعسف في استخدام الوسائل الثلاث.

وهنا يبرز الحق السابع من الحقوق الأسرية:

القانون الثامن: يجب على المجتمع والزوجين أن يحافظوا على الكِيان الأسري قدر الإمكان، فإن لم يستطيعوا فرقوا بين طرفي الأسرة بما يُبقي العلاقات الاجتماعية بين الأسر صالحة قائمة. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥).

إن للجنس البشري حقًّا في المحافظة على الاستقرار الأسري لكي يواصل نموه وانتشاره الإنساني في الأرض، فالزَّوْجِيَّة -كما يقول رشيد رضا- أَقْوَى رَابِطَةٍ تَرْبُطُ اثْنَيْنِ مِنَ البَشَرِ أَحَدَهُمَا بِالآخَرِ، فَهِيَ الصِّلَةُ الَّتِي بِهَا يَشْعُرُ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِأَنَّهُ شَرِيكُ الآخَرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُؤَاخَذُ بِالآخَرِ عَلَى دَقَائِقِ خَطِرَاتِ الحُبِّ، وَخَفَايَا خَلَجَاتِ القَلْبِ، يَسْتَشِفُّهَا مِنْ وَرَاءِ الحُجُبِ، أَوْ تُوحِيهَا إِلَيْهِ حَرَكَاتُ الأَجْفَانِ، أَوْ يَسْتَنْبِطُهَا مِنْ فَلَتَاتِ اللِّسَانِ، إِذَا لَمْ تُصَرِّحْ بِهَا شَوَاهِدُ الِامْتِحَانِ، فَهُمَا يَتَغَايَرَانِ فِي أَخْفَى مَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ، وَيَكْتَفِيَانِ بِشَهَادَةِ الظِّنَّةِ وَالوَهْمِ عَلَيْهِ، فَيُغْرِيهِمَا ذَلِكَ بِالتَّنَازُعِ فِي كُلِّ مَا يُقَصِّرُ فِيهِ أَحَدُهُمَا مِنَ الأُمُورِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمَا، وَمَا أَكْثَرَهَا، وَأَعْسَرَ التَّوَقِّي مِنْهَا، فَكَثِيرًا مَا يُفْضِي التَّنَازُعُ إِلَى التَّقَاطُعِ، وَالتَّغَايُرُ إِلَى التَّدَابُرِ، فَإِنْ تَعَاتَبَا فَجَدَلٌ وَمِرَاءٌ، لَا اسْتِعْتَابَ وَاسْتِرْضَاءَ، حَتَّى يَحُلَّ الكُرْهُ وَالبَغْضَاءُ مَحَلَّ الحُبِّ وَالهَنَاءِ» [1].

فإذا لم ترجع المرأة بعد تطبيق الوسائل السابقة، فقد يكون الخلل من الرجل، وفي هذه الحالة يتدخل المجتمع لإصلاح الأوضاع بإقامة حكمين في هذه القضية، وفي كل قضية مجتمعية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥) .

وكلمة ﴿خِفْتُمْ﴾ تنبئنا بضرورة تدخل المجتمع القريب أو البعيد في مرحلتين زمنيتين:

المرحلة الأولى: عند الخوف المبكر من انهيار الأسرة لظهور بوادر الشقاق بين طرفيها، فقبل وقوع الشقاق ينبغي أن يتدخل المجتمع في محاولة ضرورية للإنقاذ

(١) تفسير المنار (٥/ ٦٥).

قبل أن يتحول العيش بين الزوجين إلى كارثة تحطمهما وتحطم معهما الأولاد، وتصبح تلك الأسرة سمعة سيئة في الإحباط، والتعاسة.

المرحلة الثانية: عند اليقين والتأكد من وجود الشقاق بعد استفحاله، فخفتم بمعنى علمتم.

مهلًا قبل ذلك ينبغي أن نعلم ما معنى كلمة (الشقاق)؟

الشقاق أن يكون كل واحدٍ من الطرفين في شق، فيقترف من الأفعال ما يشق على الآخر من الأمور، وهذه الكلمة مشتقة من قول القائل: «شاقَّ فلان فلانًا» إذا أتى كل واحدٍ منهما إلى صاحبه ما يشق عليه من الأمور، «فهو يُشاقُّه مشاقَّة وشقاقًا»، والشقاق يدل على أن كلًا منهما قد صار جزءًا من الآخر، فالشقاق إحداث شقٍ بينهما يجعل كل واحدٍ منهما في جهة، فإذا وجدت المشاقة بين الرجل والمرأة فلا يجوز للرجل التمادي في تطبيق الوسائل الثلاث؛ لأن المقصود منها إصلاح الأوضاع.. أما والمشاقة قائمة فمعنى ذلك أن الخلل قد يكون منه لا منها، وقد يكون منهما معًا، وعند ذلك ماذا يكون الحل؟ قال الله: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ (النساء:٣٥).

والآن تدبر قول الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾.. من الذي يبعث الحكمين؟

هذا الموضع من معجز القرآن، فلكي تحتمل الكلمة المحامل المختلفة اللائقة بها تأتي في القرآن المجيد مجملة؛ إذ الذي يبعث الحكم لإصلاح أوضاع الزوجين هو:

أولًا: الزوجان، فيجب أن ينتبه كل منهما لمقتضيات إسلامه، فإذا كانت الوسائل العلاجية الثلاث لنشوز المرأة لم تجد شيئًا فيمكن أن يكون الخلل من الزوج.. عندها يتفاهمان على أن يلجأ كل منهما إلى تحكيم فرد من جهته عسى

أن يتوصلا إلى التعامل مع الإشكالات الواردة بينهما بما يعيد إلى كل منهما سكينته وسعادته.

ثانيًا: الحاكم أي الحكومة القائمة، وهو ما عبر عنه أهل التفسير بالسلطان، وهذا معناه بكل وضوح وجود مؤسسات أو وزارات خاصة بمتابعة حالة السعادة الأسرية والتماسك الأسري.

ثالثًا: يجوز أن يكون المخاطب كل فردٍ صالحٍ في المجتمع يخشى انهدام البيت الأسري، وخاصة أقارب الزوجين ومن له علاقة بهما، وهذا يعني إنشاء المنظمات الحكومية والمدنية القائمة على السعادة الأسرية، فهنا تتدخل الأسرة الكبيرة لحفظ الأسرة الصغيرة التي هي نواة المجتمع.

الآن انظر إلى التنظيم الدقيق الذي توفره المعرفة القرآنية، حيث يقول الله -جل مجده-: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾:

فاشترط أن يكون الحكمان من أهله وأهلها؛ لأنهما سيكونان أحرص على لم الشمل، وجمع الأسرة، والنظر إلى ما هو الأصلح لكل من الزوجين والأطفال بعيدًا عن الانفعالات الغاضبة، والأحاسيس المتألمة، كما أنهما المؤتمنان على أسرار الزوجين.

ويوضع للحكمين لائحة تنظيمية لعملهما أساسها قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾، والضمير يعود على الزوجين أي إن يُرِدِ الزوجان إصلاحًا يوفق الله بينهما من خلال الحكمين، ويصح أن يعود على الحكمين، ليجددا نيتهما في الإصلاح بين الزوجين، ويظهرا رغبتهما الصادقة في المحافظة على هذا الكيان الأسري، أو يخففا من الآثار السيئة لتفرقه.

وكلمة ﴿حَكَمٗا﴾ هل تدل على القضاء؟

نعم تدل على القضاء، ولكن أهل التفسير بينوا بأن التحكيم هنا لا يدل على الإلزام التام، فإما أن يستوثق الحكمان التنفيذ من قبل الزوج والزوجة فيما سيصلان إليه، وإما ألا يستوثقا ذلك وهنا لا بد من تدخل السلطات القضائية للفصل في الأمر، وقد يكون الفصل هو الطلاق ويكون خيرًا من البقاء، إن رأى الحكمان أن البقاء قد يؤدي إلى تدمير شامل للأسرة نفسيًا واجتماعيًا.

فإذا اجتمع الحكمان وأرادا إصلاحًا وفق الله بينهما، والإصلاح قد يكون بعودة الأمور بين الزوجين إلى نصابها وفق شروط محددة، وقد يوصي الحكمان بالتفريق بينهما، فعن عبيدة قال: جاء رجل وامرأته بينهما شقاقٌ إلى علي رضي الله عنه، مع كل واحد منهما فِئام من الناس، فقال علي ﷺ: ابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها. ثم قال للحكمين: تدرِيان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرِّقا أن تفرقا، قالت المرأة: رضيت بكتاب الله، بما عليَّ فيه ولي. قال الرجل: أما الفرقة فلا. فقال علي ﷺ: كذبتَ والله، لا تنقلب حتى تقرَّ بمثل الذي أقرَّت به [1].

ولكن الفرقة لا تكون بأيديهما إلا أنهما يوصيان بها إن وجدا أن ذلك هو الأصلح لهما، وبذا نجمع بين هذا القول، وقول من قال: إن الذي يبعث الحكمين هو السلطان، غير أنه إنما يبعثهما ليعرفا الظالم من المظلوم منهما، ليحملهما على الواجب لكل واحد منهما قِبَل صاحبه، لا التفريق بينهما، فإن سألت عن كيفية ذلك فاعلم أن الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينها فيما رواه عن قيس بن سعد قال: وسألت عن الحكمين، قال: ابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فما حكم الحكمان من شيء فهو جائزٌ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾. قال: يخلو حكم الرجل بالزوج، وحكم المرأة بالمرأة، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: «اصدقني ما

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٢٠).

في نفسك». فإذا صَدق كل واحد منهما صاحبه، اجتمع الحكمان، وأخذ كل واحد منهما على صاحبه ميثاقًا: «لتصدقني الذي قال لك صاحبك، ولأصدقنك الذي قال لي صاحبي»، فذاك حين أرادا الإصلاح، يوفق الله بينهما. فإذا فعلا ذلك، اطَّلع كل واحد منهما على ما أفضى به صاحبه إليه، فيعرفان عند ذلك من الظالم والناشز منهما، فأتيا عليه فحكما عليه. فإن كانت المرأة قالا: «أنت الظالمة العاصية، لا ينفق عليك حتى ترجعي إلى الحق وتطيعي الله فيه». وإن كان الرجل هو الظالم قالا «أنت الظالم المضارّ، لا تدخل لها بيتًا حتى تنفق عليها وترجع إلى الحق والعدل». فإن أبت ذلك كانت هي الظالمةَ العاصيةَ، وأخذ منها ما لها، وهو له حلال طيب. وإن كان هو الظالمَ المسيءَ إليها المضارَّ لها طلقها، ولم يحلّ له من مالها شيء. فإن أمسكها، أمسكها بما أمر الله، وأنفق عليها وأحسن إليها [١].

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة ابنة عتبة، فكان بينهما كلام. فجاءت عثمان فذكرت ذلك له، فأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقنَّ بينهما! وقال معاوية: ما كنت لأفرّق بين شيخين من بني عبد مناف! فأتياهما وقد اصطلحا [٢].

ولا يجوز لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقة إلا بتوكيل الزوج إياهما بذلك، ولا لهما أن يحكما بأخذ مال من المرأة إلا برضى المرأة، ولهما أن يصلحا بين الزوجين، ويتعرفا الظالم منهما من المظلوم، ليشهدا عليه إن احتاج المظلوم منهما إلى شهادتهما [٣].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٢٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٢٨).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٣١).

وتعال معي إلى الآية لتسمع الله جل وعلا يقول هنا: ﴿إِنْ يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ فربما تساءلت عن سبب عدم ذكر الطلاق..

هنا الجمال في الحكم القرآني، فاجتماع الحكمين ينبغي أن يكون هدفه الإصلاح، والإصلاح يتم بمحاولة التوفيق بين الزوجين، وإن كان قد يكون الطلاق من الإصلاح للطرفين، ولكن السورة قائمةٌ على بث الحياة الإنسانية وذلك يعني التواصل والائتلاف دون التباعد والاختلاف، وعلى التواصل والتواد دون التفاصل والتراد [١].

ويختم الله الآية بتذكير الزوجين والمجتمع بالرقابة الإلهية من جهة، والشعور بالثقة بهذه التشريعات الدقيقة التي لم يوجد إلى الآن ما يماثلها لا في كتابٍ منزل ولا في كتابٍ قانونيٍّ، ويُبَصِّرُنا الله بذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥):

ماذا ترى في هذه التفاصيل التشريعية الدقيقة؟

لا ترى في هذه التفاصيل الدقيقة إلا الحماية المدهشة لحقوق المرأة في المقام الأول، ولحقوق الأسرة في المقام الثاني، ولحقوق المجتمع في المقام الثالث في توازن عجيب. والآن أخبرني عن شعورك إزاء هذا التنظيم الإسلامي المذهل للحقوق الأسرية.. دعني أخبرك عن رأي مارسيل بوزار المفكر الفرنسي الذي يقول: «أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها حامية حقوق المرأة» [٢].

إن ذلك ينبئك بأن أولئك الذين يرفعون رايات حقوق المرأة بإبعادها عن هذه التشريعات الرائدة إنما يظلمونها بجهل أو بعلم، فليذهب الإنسان إلى دور العجزة،

---

(١) نظم الدرر ٥/ ٢٧٦.

(٢) إنسانية الإسلام ص١٤٠.

وإلى النساء اللاتي يمتن في بيوتهن دون أن يسأل عنهن أحد نتيجة لتدمير المفهوم الأسري في الغرب، ما يندى له الجبين وهل يسمى ذلك قيمًا أو أخلاقًا؟

فانظر كيف ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فالعلم يتعلق بالمعارف، والخبرة تتعلق بدقائق الأحوال، وجمع الله بين هاتين الصفتين ليزرع أمرين مترابطين:

الأول: بيان أنه عليم خبير بأحوال الزوجين، وأحوال الحكمين، وأحوال المجتمع.. هل يريدون الإصلاح أم الإفساد؟

الثاني: الثقة التامة بالمصدرية التشريعية الإسلامية، فهي مصدرية إلهية، فلنحاور هؤلاء الذين وضعوا التشريعات في المحاكم المدنية، والتفصيلات في النظم الأسرية، ولنسألهم:

من أين أتيتم بها؟ سيقولون من التجارب الإنسانية التي راكمت المعرفة الإيجابية عبر التاريخ، فالحضارة اليونانية كانت تنظر إلى المرأة نظرة سيئة قبيحة، ثم تطوروا رويدًا رويدًا حتى بدأوا يعترفون بحقوق المرأة، فاستفادوا تشريعاتهم من التجارب الإنسانية التي استمرت آلاف السنوات، نقول لهم: لكن الله العليم بخلقه الخبير بما يصلحهم أهدانا تشريعات دقيقة تصلح بها الإنسانية، ونحن لا نجدكم وصلتم إلى ما يقرب منها في الحسن.. أفلا تريحون أنفسكم والإنسانية معكم بأن تنظروا في جمالها وإعجازها؟

وقوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ كلمة كان تدل على الحقيقة المحتمة أي هذه صفاته الحسنى اللازمة له دون أن يحصرها زمان، فلا أول لها ولا آخر؛ إذ إن الله هو الأول والآخر، فهو الذي يملك الزمان، وهو عليم بذاته ولا يحتاج إلى التجارب ليتعلم جل في علاه، والإنسان هو الذي يحتاج إلى تجارب وتجارب ليجد الأحسن والأجمل في التصرفات والتدبيرات والتشريعات، وقد تمر الأجيال وتموت

الأمم ليتعلم الإنسان المسألة الواحدة، فالله جل ذكره يصف نفسه بالعلم التام والخبرة الكاملة، والخبرة تتعلق بلطيف العلم ودقيقه، والعلم قد يكون وهبيًا وقد يكون كسبيًا بالنسبة للمخلوقات، أما بالنسبة لله عزَّ وجلَّ فهو علم ذاتي، والخبرة قد تتم عن تجارب، لكن خبرة الله سبحانه وتعالى وصف ذاتي لا يحتاج إلى تجارب، ومهما علم البشر فإن علمهم لا يساوي شيئًا يذكر أمام علم العليم الخبير، ويعبر العبد الصالح الخضر عن ذلك لموسى عليهما الصلاة والسلام عندما جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً، أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ فَقَالَ الخَضِرُ: «يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ» [1]، فما الذي أنقصه من ماء البحر؟

هنا تجد الله -عزَّ جارُه- يزرع في قلوب المسلمين الثقة في المصدرية التشريعية حتى لا يتخذوا الشرائع المحلية والدولية وشرائع الغاب والتراب مكان شريعة الملك العلام الجليل الوهاب سبحانه وتعالى، فهذا هو السر في الختم المهاب الجليل لهذه التشريعات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ عليما وخبيرا للدلالة على لطف علمه ودقة هذا العلم التفصيلي.

نلاحظ بأن الختم نوعٌ من الاعجاز القرآني المدهش المذهل، وهو يتناسب مع الآية ومع طبيعة تفصيلاتها التشريعية، ففي الآية السابقة في ختامها أراد أن يبين للمرأة والرجل أن ربهما علي كبير، فالمرأة الناشز يجب أن تذكر أن الله علي كبير، فلا تستكبر وراء نفوذها إن كانت ذات نفوذ مثلًا، ولا تستقوي بجاهها على إيذاء الرجل، وفي المقابل أراد الله أن يبين للرجل الذي أعطاه الحق في المعالجة وفق ضوابط محددة أنه جل شأنه علي كبير، فلا يتعسف في استخدام حقوقه لتتحول إلى أدوات ظلم للمرأة، فإن فعل فإن ربه علي كبير، وهذا يذكرنا بأبي مَسْعُودٍ البَدْرِيُّ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤٢).

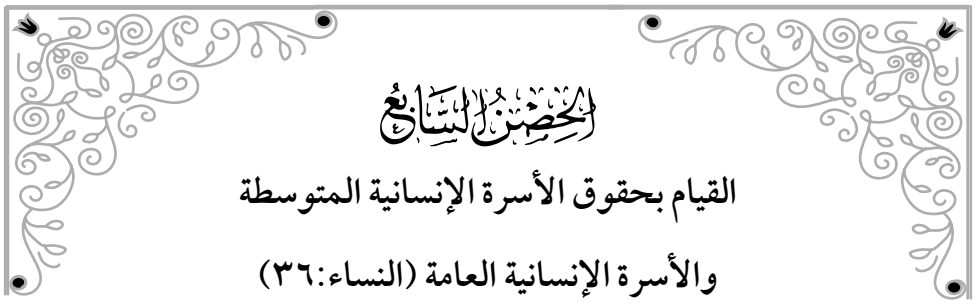
بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ». فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّى إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ». قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِى فَقَالَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلاَمِ». فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا، فقلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» (١).

إن أبا مسعود ذكر الله العلي الكبير.. وما له لا يذكره وهو من الجيل الذين يقول الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٣).

فانظر جمال الختام لآية معالجة نشوز المرأة بقول ربنا -عزَّ جارُه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ لتناسب فحوى الآية ومضامينها، وكذلك في آية الصلح بين الزوجين عن طريق الحكمين رأيت المناسبة العالية لتختم بقول ربنا جل شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ لتناسب أيضًا فحوى الآية ومضامينها، وتزرع الثقة في التشريعات السابقة جميعًا، فكأن الله جل جلاله يبين مهما لجأتم إلى المحاكم الدستورية عندكم، مهما لذتم بكبراء رجال القانون والخبراء في العالم الإنساني فلا يمكن أن يكون عندهم العلم التام الذي عند ربكم، ولن تجدوا عندهم الخبرة الدقيقة التي عند مولاكم العليم الخبير.



(١) صحيح مسلم (٥ / ٩١) برقم ٤٣٩٦.



الحصن السابع

القيام بحقوق الأسرة الإنسانية المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة (النساء:٣٦)

آية هذا الحصن:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ (النساء:٣٦).

المناسبة والاتصال:

بعد أن فصل الله في القسم السابق القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا ذكر الله حقوق الأفراد الذين ينتمون إلى المجتمع خارج إطار الأسرة الخاصة، وذلك ليظهر التناغم والانسجام بين الأسرة الخاصة والأسرة المجتمعية العامة، فلا تصبح الأسرة الخاصة مركزًا للشح والبخل، وأساسًا للإخفاق في إقامة حقوق الأسرة الإنسانية العامة، كما أن الأسرة المجتمعية لا ينبغي أن تكون مُلهية له عن الواجبات بالنسبة للأسرة المركزية الخاصة، وقد لاحظت أن المجتمع له دوره في إصلاح الشقاق داخل الأسرة المركزية، وقد بينت هذه الآية حقوق الأسرة الكبرى أي المجتمع وهي:

الحق الأول: تعظيم حقوق البشرية بوصفها حقوقًا تعبدية في المقام الأول، فهي داخلة ضمن عبادة الله تعالى.

وبذا يتضح لماذا بدأ الله هذه الحقوق بالحق الكوني الأعظم وهو عبادة الله تعالى ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ (النساء: ٣٦)، ويضاف هذا الفهم إلى التأكيد على أن حق البشرية في معرفة ربهم وتوحيده في عبادته أساس حصولهم على حقوقهم الإنسانية، وسعادتهم الكاملة:

أي اتبعوا أنظمة العبادة لله التي تعني اللجوء إليه، والإقبال عليه، والخضوع لأحكامه وقوانينه، ولا يكفي ذلك، بل لا بد ألا تجعلوا له شريكًا في الانقياد والإذعان تعظمونه كما تعظمون ربكم سواء أكان هذا الشريك وثنًا أم دستورًا أم نظامًا؛ فالله قد بين لكم نظام الحياة، ومنهاج العبادة الذي تتم به السعادة الإنسانية، فاعبدوه ولا تشركوا به شَيْئًا.. وأتى بهذه الكلمة منكرة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ ليظهر للعقل الإنساني أن الله ينهاه عن الإشراك به ولو كان شيئًا صغيرًا ضَعِيفًا كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ (المَائِدَة: ٤٢).

وانظر مرة أخرى إلى قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ لتجد الآية تحثك على أن تجمع بين الإثبات والنفي: إثبات العبادة لله، ونفيها عمن سواه؛ فقد يعبد الإنسان ربه ويشرك به في الوقت ذاته، والإشراك يتفاوت بين الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، كالذين كانوا يعبدون الله ويسمون أنفسهم حنفاء في بلاد العرب، فقد كانوا يعبدون الله ولكن كانوا يشركون معه غيره، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)، وكذلك قد يعبد الإنسان ربه ويشرك مع عبادة ربه عبادة الشيخ، أو عبادة الحاكم أو عبادة القسيس والعالم، أو عبادة المال.. فالمال قد يكون معبودًا، والنبي ﷺ يحذر من ذلك فيقول: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ

وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [١].

فإثبات العبادة لله لا يكفي بل يجب ألا تجعلوا له شريكًا في الانقياد والإذعان تعظمونه كما تعظمون ربكم، وهذه الأيام اتخذ الإشراك صورًا مدهشة، ونحن في غفلة عنها كالاستجابات للضغوطات الداخلية، أو الخارجية على المستويات الفردية والجماعية في المجالات العبادية والتقاليد وفي المجالات التشريعية، والاستجابة لها بمثابة العصا التي تضرب بها القوانين المنبثقة عن الشريعة الإسلامية. إنه نوع من الإشراك وقد يصغر أو يكبر، وقد يمتد ويتسع، فربما كان هذا الشريك وثنًا وربما كان دستورًا وربما كان نظامًا لم يأذن به الله؛ وقد بين الله هذا في سورة الشورى بدقة واضحة، نلاحظ أنه بين ذلك في سورة الشورى حتى لا تكون تشريعات تضار شريعة الله قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١).

بدأ بيان حقوق الأسرة المجتمعية الكبيرة بعبادة الله ما سبب هذه العلاقة بعبادة الله ونحن نتكلم عن العلاقات الأسرية؟

لأن محور الارتكاز في إقامة الحقوق هو أن يكون الإنسان عبدًا لله، وليس عبدًا لأهوائه وذاته ورغباته وشهواته؛ لأنه لو كان كذلك لفصل من الأمور ما يشاء، فيعطي والديه شيئًا ربما يكون أقل مما يجب عليه، وربما لا يعطي لبقية مجتمعه شيئًا، لكنه إذا وثق بأنه عندما يتعامل مع المجتمع أنه يتعامل من منطلق الوظيفة التي خلقه الله تعالى ليسير عليها وهي الوظيفة التعبدية، عند ذلك سيعطي كل ذي حق حقه، فذكر هذا الحق الكوني الأعظم قبل كل شيء لبيان مكانة حق الله تعالى في عبادته، وأن هذا الحق تنبثق عنه سائر الحقوق، فمهما اختلفت القوانين البشرية المنظمة

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٤١) برقم ٢٨٨٦.

لتلك الحقوق فإن الله يطالب عباده بهذه الحقوق لأن هذه الحقوق تعبدية قبل أن تكون حقوقًا مجتمعية، وترى اطراد هذا التقديم في سور القرآن كثيرًا كسورة البقرة مثلًا كقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة: ٨٣)، فقدم حقه على حق الوالدين ومن بعدهم، ومن أهم مغازي هذا التقديم ومراميه أن الإنسان لا يعرف عنه إن كان بارًا بوالديه في البيت أم لا؟ هل يعرف عنه أنه بار بذوي القربى أم لا؟ وحتى لو علم أنه عاق لا تقام عليه عقوبة جنائية محددة مثل عقوبة السرقة، والقاضي لا يتدخل إلا في حالات تفصيلية محددة، فلذلك ربط كل هذه الحقوق بعبادة الله، كأن الله يخبر العالم بأن إعطاء البشرية حقوقها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعبادة الله وعدم الإشراك به، فيا من تصلي في الصف الأول انتبه لنفسك، أنت تصلي في الصف الأول ولكنك لا تقيم الحقوق، يا أيها الحاكم المفسد حقوق الناس هناك خلل عظيم انتبه فربما لا تشعر به، فتزعم الإصلاح لكن الذي تزعم أنك تعبده يحصي عليك ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ (الأعراف: ٧).

فالحقوق المجتمعية الكبرى مرتبطة بفهمنا لمعنى العبادة الواسع الذي يعني: القيام بحقوق الله، والأداء لحقوق الخلق، أو تعظيم الحق جل ذكره، والقيام بحقوق الخلق، فمهما اختفت القوانين البشرية المنظمة لتلك الحقوق، فإن الله يطالب عباده بهذه الحقوق لأن هذه الحقوق تعبدية قبل أن تكون حقوقًا مجتمعية، وقد أكد النبي ﷺ على عظمة هذا الحق، فعَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ: فَقَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. فقَالَ: «يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا

بِه شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» (١).

بذاك ترى مدى الشمول العظيم للإسلام لأحوال الحياة، وتجد كيف نظمها الله لتقدم أتم درجات السعادة الإنسانية، كما يستبين من ذلك مدى ترابط النظم الإسلامية المختلفة، فلا يظهر نور الإسلام كما ينبغي إلا أن ينعكس توحيد الله في العبادة على توحيده في التوجيه والتشريع للعلاقات الاجتماعية والدولية، وللأخلاق البينية، وللأوضاع الاقتصادية. ولا يمكن إقامة سائر الحقوق إلا بإقامة هذا الحق ولا يمكن إقامة هذا الحق إلا بإقامة سائر الحقوق، فصارت العلاقة اطرادية متبادلة بين هذا الحق وسائر الحقوق التي ستأتي.

الحق الثاني: حق الوالدين.

ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾:

أي أحسنوا إليهما إحسانًا أو أوصيكم بهما إحسانًا بالغًا على أقصى درجات الوصف من غير أن يبلغ حد العبادة، وقدمهما على من عداهما لعظمة مكانتهما بالنسبة للزوجين، ويفترض أنه لا يوجد تعارض بين حق أحد الزوجين وحق الوالدين إلا بظلم من أحد الطرفين وخروج عن تعاليم الإسلام، بل تجد بين حقوق الزوج وحقوق الزوجة التآلف والتكامل والتعاضد والتآزر، وقد قَرَنَ الله إِلْزَامَ بِرِّ الوَالِدَيْنِ بِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ فِي أربعة مواضع:

أَحَدُهَا: فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣) وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٣٥)، صحيح مسلم (١ / ٤٣).

(لقمان: ١٤)، ورابعها في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة: ٨٣) وَكَفَى بِهَذَا دَلَالَةً عَلَى تَعْظِيمِ حَقِّهِمَا وَوُجُوبِ بِرِّهِمَا وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا.

والحظْ أنه عدَّى الإحسان بِالبَاءِ والتقدير: ووصينا الإنسان إحسانًا بوالديه ليضمن الإحسان معنى البر والعطف والرحمة، والتقدير: وأمرناكم أن تبروا بالوالدين وتحسنوا لهما إحسانًا لائقًا بهما، فاكتسبنا معنى إضافيًا عند التعدية بالباء، كما أن الباء تلصق البر والإحسان بالوالدين إلصاقًا لا ينفك.

ولكن ما تفاصيل الإحسان المطلوب في تقديمه للوالدين؟

ترك هذا ليتفنن كل واحد حسبما تيسر له، كالقيام بِخِدْمَتِهِمَا، وبذل ألطف الكلام معهما، والسعي في تنفيذ مطالبهما دون عبوس أو ألم، وفصل الله بعض ذلك في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٢٥).

وقَلِّبْ الطرف في العالم لترى أن هناك قصورًا عظيمًا، بالنسبة لتعظيم حق الوالدين، فما ترى للأسف وزارات أو مؤسسات خاصة برعاية الوالدين، لماذا نقول هذا؟ لأننا أقمنا وزارت خاصة لشيء أقل من ذلك، فكيف لا يكون للوالدين مما ينبغي أن نباهي به الأمم، وزارة ترعى شؤونها وتلفت النظر إلى حقوقهما، والحضارة الغربية المعاصرة التي تفرض هيمنتها على سائر الثقافات القائمة، تراها عوراء في موضوع حقوق الوالدين، فهي تنظر إلى حقوق الأطفال بصورةٍ نسبية، ولكنها لا تكاد تلفت إلى حق الوالدين إلا لمامًا.. ويصحح النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهمنا

للجهاد ليبين طبيعته وحقيقته، وأنه بذل الجهد على قدر الاستطاعة في إقامة حقوق الآخرين، وأولهم الوالدين، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ فَقَالَ: (أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» (١).

وقد يسأل السامع عن سبب توصية الله بالوالدين دون الأولاد، فلعل ذلك للأسباب الآتية:

السبب الأول: أنه قد سبقت التوصية بالأولاد في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ (النساء: ١١).

السبب الثاني: أن الاهتمام بالأولاد جزء من الوظيفة النفسية الذاتية للأبوين، لكن الاهتمام بالآباء والأمهات يحتاج إلى تذكير ومجاهدة ومعاناة مع النفس الإنسانية.

السبب الثالث: أن الوالدين يمثلان السبب المباشر لوجودك، وهذا السبب يوصلك إلى السبب الأول الأعلى لوجودك، وهو الله جل شأنه، فإنك وجدت بسببهما، وهما وجدا بسبب والديهما، وهكذا حتى نصل إلى النفس الواحدة التي وجدت مع زوجها، فبث الله منهما رجالًا كثيرًا ونساء.. فمن السبب الأعلى في وجودك ووجود أجدادك؟ إنه الله، وهنا تشعر بعظمة الله؛ إذ جعل الكلام هنا تفصيلًا للأسس التي أرساها في أول السورة حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء: ١).

الحق الثالث: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، أي وبالوالدين إحسانا وبذي القربى إحسانًا أيضًا.

وذو القربى أي صاحب القربى، فبينك وبينه قرابة رحمية، فذوو القربى هم ذوو الأرحام القريبون من الأسرة المركزية، وحقوقهم ينبغي تأديتها الأقرب فالأقرب،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٧١) برقم٣٠٠٤.

وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِإِعَادَةِ حَرْفِ الجَرِّ بَعْدَ العَاطِفِ. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ تُؤَكَّدْ بِالبَاءِ فِي حِكَايَةِ وَصِيَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (البَقَرَة: ٨٣) لأن الخطاب في سورة النساء في المقام الأول للمسلمين لأمة خاتم الأنبياء ﷺ، بينما كان هناك الخطاب والكلام عن بني إسرائيل، فالنبي الخاتم ﷺ أتى بتثبيت الحقوق للبشرية بما لا تحتاج معه إلى نبي مجدد، ومن ذلك توثيق العرى الإنسانية بين ذوي الأرحام... انظر إلى رعايا الحضارات المعاصرة.. لترى شيئًا عجيبًا يدل على انتكاسة الفطرة الإنسانية، وأنا أتعجب من بعض مسؤوليها عندما يتفاخرون عن القيم الحضارية، كيف تكون هناك قيمٌ تسمى قيمًا ينال فيها الكلاب والقطط أكثر من الحقوق البشرية؟ حسبك أن تنظر في الميزانيات التي تنفق على الحيوانات أو على وسائل الترفيه في الشرق والغرب وبلاد المسلمين، وتقارن ذلك بميزانيات بعض الدول التي تكثر منها الهجرة.

وصلة ذوي الأرحام لها فضيلة مضاعفة، فقد قال النبي ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»[1].

وصلة الأرحام من أعظم المبادئ المتكررة في القرآن ومن أول سورة البقرة، فإن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الخاسرين أفرادًا ودولًا قال عن صفاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧).

الحق الرابع: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

وأحسنوا إلى اليتامى إحسانًا بالرفق بهم والمسح على رؤوسهم والقيام على مصالحهم.

(١) سنن الترمذي (٣ / ٤٦).

وهم من فقد أبويه أو أحدهما وهو دون الخامسة عشرة، وهو دون البلوغ، وتحديد مرحلة عمرية يذهب فيها وصف اليتم أمرٌ في غاية الجمال التربوي للمجتمع حتى لا يبقى اليتيم شاعرًا بعدم الاستقلال في الشخصية، فالتعامل مع اليتيم يقوم على الإحسان في البداية والحزم في النهاية ليتم دمجه في المجتمع، ويستطيع مواجهة تحديات العالم.. بعضهم يحدد سن الخامسة عشرة لتكون سن البلوغ، وبعضهم يحددها بتسع عشرة سنة إن لم تظهر علامات البلوغ.

وفي كل الأحوال فإن اليتيم ينبغي أن يشعر بكينونته واستقلاله في مرحلة ما، وعلى المجتمع أن يساعده للوصول إلى هذه المرحلة التي يتجاوز فيها وصف اليتم مما بينه الله في قوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ (النساء: ٦)، فذكر اليتيم وبين أنه لا يدفع له ماله إلا بعلامتين: العلامة الأولى بلوغ سن النكاح، والثانية: إيناس الرشد ويتحقق بقدرتهم العقلية على التصرف المالي الرشيد.

والإحسان إلى اليتيم وتأهيله في المجتمع يظهر الترابط والتراحم بين أبناء الإنسانية، فيشعر الجميع عندها بحكمة ربهم ورحمته بهم، وهو الذي قال لهم: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ (البلد: ١١ - ١٥).

وترى حث النبي ﷺ على إشاعة مبدأ التعاون والترابط بين أفراد الإنسانية من خلال الإحسان إلى ضعفاء المجتمع (اليتيم والمسكين) فيقول: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمُ المِسْكِينَ، وَامْسَحْ بِرَأْسِ اليَتِيمِ»[1]، وقدمهم على من بعدهم لاجتماع سببين من أسباب الضعف: العجز عن تحصيل المكاسب بسبب الصغر، وفقد العائل.

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد (١ / ٤١٧) برقم ١٤٢٦.

الحق الخامس: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ .

أي وإحسانًا إلى المساكين، أو إحسانا بذي المساكين، كما بدأها في البداية، وهم كل من احتاج الإعانة، ولم يستطع القيام بأموره بنفسه، والإحسان لهم إما ببذل الجميل معهم ما يسد عوزهم وحاجتهم، وإما بالرد الحسن لهم كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (الضُّحَى: ١٠).

وقد أحصى بعض العلماء في الاقتصاد الإسلامي لبعض الدول أن الزكاة في مجموعة قليلة من الدول عبارة عن مائة مليار دولار تخيل لو وزعت على المسلمين ماذا تفعل لهم؟

الحق السادس: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي وإحسانًا إلى الجار ذي القربى، فيدخل فيه بحسب كلام المفسرين الأنواع الثلاثة:

النوع الأول: الجار الذي له رحم، فالتوصية به مضاعفة؛ والفضيلة مضاعفة والحسنة مضاعفة، إذ صار له حقان: حق الجيرة وحق القرابة.

النوع الثاني: الجار الذي قرب جواره.

النوع الثالث: الجار المسلم؛ لأن ذا القربى قد يطلق على المسلم مطلقًا، بينما يطلق على غير المسلم الأجنبي.

الحق السابع: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾

الجنب هو البعيد، من جانب أي باعد، فقد قال -تعالى مجدُه-: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥) أَيْ بَعِّدْنِي، وَالجَانِبَانِ النَّاحِيَتَانِ لِبُعْدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الآخَرِ كما قال أعشى بني قيس:

أَتَيْتُ حُرَيْثًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ فَكانَ حُرَيْثٌ فِي عَطَائِي جَامِدَا
إِذَا زَارَهُ يَوْمًا صَدِيقٌ، كأَنَّما يَرَى أُسُدًا فِي بَيْتِهِ وَأَسَاوِدَا

فقوله: (عن جنابة) أي عن بعد وغربة، ومنه اجتنب فلان فلانًا أي بعد عنه، و (الجنب) يقال له ذلك لابتعاده عن الصلاة.

لماذا لم يكتف بقوله الجار وإنما فصل بالجنب وذي القربى؟

السبب في تفصيل ذلك أن لكلّ واحدٍ منهما حقوقًا تختلف عن الآخر، فإذا قلنا: الجار (ذو القربى) ربما قال المعترض: فالجار البعيد لا حق له، وهنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح أن له حقًا، فذكر الجار الجنب.

فيدخل فيه:

- الجار البعيد الذي بينك وبينه قرابة.

- و الجار البعيد الذي لا قرابة بينك وبينه.

-والجار غير المسلم وهو الكافر (الأجنبي).

فكل ذلك يدخل في مسمى الجار، وقد حث النبي ﷺ على الإحسان إلى الجار بناء على ذلك، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ[1].

وعن عباية بن رفاعة قال: بلغ عمر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه شيئًا، فأرسل له محمد بن مسلمة رضي الله عنه ليمثل هيئة رقابة ومحاسبة.. فلما قدم على عمر رضي الله عنه هجَّر إليه، فسار ذهابه ورجوعه تسع عشرة فقال: لولا حسن الظن بك لرأينا أنك لم تؤد عنا قال: بلى أرسل يقرأ السلام ويعتذر ويحلف بالله ما قاله. قال: فهل زودك شيئًا؟ قال:

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٢) برقم ٦٠١٤ ومسلم برقم ٢٦٢٥ .

لا!. قال: فما منعك أن تزودني أنت؟ قال: إني كرهت أن آمر لك، فيكون لك البارد ويكون لي الحار، وحولي أهل المدينة قد قتلهم الجوع، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يشبع الرجل دون جاره» (١).

وعن المقداد بْن الأَسْوَدِ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟ « قَالُوا: حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللهُ ورسُولُه، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. فَقَالَ: رسولُ اللَّهِ ﷺ) لأنْ يَزني الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَة، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَن يزنيَ بامرَأَةِ جَارِهِ». قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَة؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ. قَالَ «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِن عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يسرِقَ مِنْ جَارِهِ».

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ الذَّنْب أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَن يطْعَم مَعَكَ». قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَاني حَليلةَ جَارِكَ».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الجيران ثلاثة، فجار له حق وهو أدنى الجيران، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق فأما الذي له حق واحد فجار مشرك له حق الجوار، وأما الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاث حقوق فالجار ذو الرحم له حق الرحم وحق الإسلام وحق الجوار، وأدنى حق الجوار أن لا تؤذي جارك بقتار قِدرك إلا أن تغرف له منها» (٢).

هنا تعلم مقدار التفصيل التشريعي القرآني وكيف يعطي للبشرية مراتع سعادتها إذا طبقت.

---

(١) أحمد(١ / ٥٤)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواية عباية بن رفاعة عن عمر مرسلة قاله أبو زرعة كما في المراسيل.

(٢) مسند الشاميين (٣/ ٣٥٦).

الحق الثامن: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

وهو الرفيق فيدخل فيه:

الزوجة بالنسبة لزوجها، والزوج بالنسبة لزوجته، وكذلك الرفيق في السفر -كما قال مجاهد-: منزله منزلك، وطعامه طعامك، ومسيره مسيرك [١].

ويدخل فيه المنقطع إلى الرجل الذي يلازمه رجاءَ نفعه؛ لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريبٌ منه [٢]، ومثل ذلك الصديق، ويفصل النبي ﷺ جمال الصحبة وواجباتها، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يفعل ذلك يرغب بعض تلاميذه بذلك وهو أن يصلهم يقوم بصلتهم، فيدخل في ذلك التلاميذ ومن باب أولى يدخل أيضًا المعلم؛ لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريبٌ منه [٣]، وكلما كنت محسنًا إلى الصاحب بالجنب كنت أقرب إلى الله جل شأنه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» [٤].

الحق التاسع: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي وأحسنوا إلى ابْنِ السَّبِيلِ، و«السبيل»: هو الطريق، وابنه: صاحبه الضاربُ فيه أي المسافر، فله الحق على من مرّ به محتاجًا منقطَعًا به، أهل العلم يجعلون ابن السبيل ليس كل من طرق الطريق، بل يجعلون ذلك مخصوصًا بالمسافر؛ لأنه ضرب

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٤١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٤٤).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٤٤).

(٤) سنن الترمذي(٤/ ٣٣٣) برقم ١٩٤٤، وقال:« حديث حسن غريب، وأبو عبد الرحمن الحبلي اسمه عبد الله بن يزيد»، وصححه الألباني.

في الأرض فلا يوجد له بيت يسكن فيه، فهو ابنه، والآية تدل على ما هو أعم، فإن السبيل يطلق على كل الطريق، وهذه الآية تتكلم عن الحقوق العامة لا عن حقوق الزكاة، فكل ابن السبيل له حق، كأن يمر الإنسان في طريق ويريد أن يسترشدك إلى أين يذهب؟ فينبغي أن ترشده هذا من حقه، أو يحتاج إلى أن تدفع سيارته مثلًا، أو يحتاج إلى توصيلٍ إلى مكان ما.. هنا يجب أن تعينه، أو يحتاج إلى معونة، أو إلى ضيافة، وأولى أبناء السبيل: المنقطع الذي لا يستطيع الوصول إلى جهته بسهولة، خاصة إذا كان سفره في غير معصية الله، أما إذا كان في معصية فينبغي أن لا يعان، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ». فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ [1].

وانظر للمصطلحات القائمة هنا وجمالها: الجار ذو القربى، الجار الجنب، الصاحب بالجنب، ابن السبيل.

الحق العاشر: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وهم المأسورون في الحرب، فاقترن الإحسان لهم بالإحسان إلى الوالدين:

أي: أحسنوا إليهم، ولم نسمع عن نظامٍ يجعل للأرقاء حقوقًا مقاربة لحقوق الوالدين والأقربين إلا الإسلام إلا بعض إشارات محدودة موجودة في التوراة، والأصل أن النظام الإسلامي قام على تحرير الناس حتى قال جل ذكره في أسرى الحروب: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد: ٤)، فإذا تم الإعتاق بالمن على الأسير

(١) صحيح مسلم (٥ / ١٣٨) برقم ٤٦١٤.

فهذه هي الرتبة العليا.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (١)، وإن لم يحدث العتق، فيجب الإحسان إلى ملك اليمين، فما ملك اليمين؟ هل اليد اليمنى هي من تملك فقط؟ وهل اليد اليسرى وبقية الجسد لا يملك؟ الجواب: هذه إضافة الجزء إلى الكل، وسبب ذكر اليمين لأن هذا الأسلوب أسلوب عربي، يستخدم العرب هذه المجازات، أو هذه الاستعارات، كما يقال: «تكلم فوك»، و«مشَتْ رجلك»، والمقصود بكليهما أي أنك تكلمت أنت ومشيت أنت، و«بطشت يدك»، بمعنى: تكلمتَ، ومشيتَ، وبطشتَ.. وأضاف الملك إلى اليمين لأن اليمين هي التي تقوم عادة بتحرير الأوراق، وهي التي تعطي المال، وهي التي تمنع، وهي التي تبطش، وهي التي تمنح، فأضاف الملك إليها لهذه الملابسة باعتبار أنها تقوم بإنجاز الأعمال الحيوية في حياة الإنسان، وبعضهم فسرها بالقوة، ومنه قوله جل شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ (الصافات: ٢٨).

وملك اليمين في الإسلام لهم وضع متميز يكفل لهم الكرامة الإنسانية اللائقة بما لا نجده لكثير من الرجال الأحرار في العصر الحاضر، فبدلًا من السجن يكون ملك اليمين جزءًا من الأسرة، فيخالط هذه الأسرة وتكون له حقوق محددة ريثما يدرب نفسه على الاندماج في المجتمع، فهو أجنبي عن الأسرة فلا يعقل مساواته بالابن مثلًا في الحقوق، ولا تهضمه حقه، فوصى الله به من أجل أن يكرم ريثما يتم إعتاقه، وقد رغب النبي ﷺ بإعتاق الأسير، والإحسان إليه، إذا كان هذا ملك اليمين فكيف بالعامل؟

(١) صحيح مسلم (٤ / ٢١٧) برقم ٣٨٦٩.

وقد بين النبي ﷺ أوجه الإحسان إليهم فعَنِ المَعْرُورِ قَالَ لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ [١]..

والمكانة التي تبوأها الأرقاء في الإسلام كانت تنفيذًا لهذه الوصية القرآنية، وقد أكد عليها النبي ﷺ حتى وهو في ساعة الاحتضار.

فعن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاةَ الصلاةَ. اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» [٢]، فعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما؛ إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»[٣]، وعن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً، أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أُكْلَةً، أَوْ أُكْلَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلاَجَهُ»[٤]، ومثلهم الموظفون.

فهذه تسعة أصناف أوصى الله بأداء الحقوق إليهم جميعًا.

ما سبب ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾؟

---

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (١ / ١٤).

(٢) أحمد(١ / ٧٨)، وقال الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٣) صحيح مسلم (٣ / ٧٨).

(٤) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٣ / ١٩٧).

سبب هذا الختم المهيب في الحقيقة لأنه يمثل خاتمة لمن يحسن إلى هذه الأصناف التسعة ثم يختال عليهم، أو يخرب إحسانه بالافتخار أمامهم، فيشوه إحسانه ويكدر إيمانه، كما تمثل هاتان الصفتان بداية لتفصيلٍ أعظم في الآيتين القادمتين، فبعد أن ختم الله هذه الختمة العظيمة التي تبين الوجه النضر الرائع للشريعة الإسلامية، أراد أن يبين الذين يخالفون في إعطاء هذه الحقوق، فللواحد منهم صفات مؤلمة مفزعة مفجعة ينبغي أن يراجع نفسه، منها هاتان الصفتان: الخيلاء والفخر، ثم أكمل الصفات في الآيات اللاحقة.



الحصن الثامن

الحذر من الصفتين اللتين تدمران التماسك الأسري، وتقضيان على بث الحياة الإنسانية، وتَحْطِمان النظام الاجتماعي، وهما: الفخر والخيلاء، ومعالجة نفسيات أصحابها(النساء:٣٧-٤٢)

آيات هذا الحصن:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ (النساء:٣٦-٤٢).

المناسبة والاتصال:

لما ذكر الله عز جاره حقوق الأسرتين: الأساسية، والكبيرة بصرنا الله بأهم صفتين تتسببان في منع القيام بهذه الحقوق.

وهاتان الصفتان هما:

الصفة الأولى: الاختيال في المشي بسبب الغرور.

الصفة الثانية: الفخر الجاهلي بالقول ذكرًا للأفعال والإنجازات، ويُبَصِّرُنا بهاتين الصفتين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء:٣٦).

فكلا الصفتين ترجع إلى زهو الحركة، فـ «المختال»: المفتعل للاختيال بحركاته وأفعاله، من قولك: «خال الرجل فهو يخول خَوْلا وخَالا»، ومنه الخيل التي تتغطرس بمشيها.

ومنه قول الشاعر:

أَلا أَبْلِغَا خُلَّتِي رَاشِدًا قَدِيمًا، وصِنْوِي إذَا ما تَصِلْ
بِأَنَّ الدَّقِيقَ يَهِيجُ الجَلِيلَ وَأَنَّ العَزِيزَ إذا سَاءَ ذَلْ
وَأَنَّ الحَزَامَةَ أَنْ تَصْرِفُوا لِحَيٍّ سِوَانَا صُدُورَ الأَسَلْ
فَإِنْ كُنْتَ سَيِّدَنَا سُدْتَنَا وإنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَاذْهَبْ فَخُلْ

وإنما ذكر الاختيال هاهنا؛ لأن المختال يأنف من أقاربه إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء فلا يحسن عشرتهم.

وأما «الفخور»، فهو المفتخر المزهو بلسانه على غيره بما أنعم الله عليه من آلائه، وبسط له من فضله، ولا يحمده على ما أتاه من طَوْله، ولكنه به مختال مستكبر، وعلى غيره به مُسْتطيل مفتخر، يتطاول على الناس، ويعدد مناقبه كبرًا وغرورًا.

والفرق بين الصفتين أن المختال يرجع خيلاؤه إلى الحركة، والمفتخر يرجع زهوه إلى اللسان.

ولمجاهدة الصفتين يجب التواضع والتلطف في القول والمشي على الأرض هونًا، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ذكر أن النبي ﷺ يبغض ثلاثة منهم: المُخْتَالُ الفَخُورُ وَأَنْتُمْ

تَجِدُونَهُ عِنْدَكُمْ يَعْنِي فِي كِتَابِ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1].

وقد استنبط أبو رجاء الهرويّ من ورود هاتين الصفتين بعد الكلام عن حقوق المجتمع في الآية أن من اتصف بهما ضيع حقوق الخلق فقال: لا تجد سيِّئ المِلْكة إلا وجدته مختالًا فخورًا. وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، ولا عاقًّا إلا وجدته جبارًا شقيًا. وتلا ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (سورة مريم: ٣٢).

ثم يُبَصِّرُنا الله بأن هاتين الصفتين تُنتجان صنفين مدمرين لبث الحياة الإنسانية، وهما: البخلاء والمراؤون:

الصنف الأول: البخلاء.

ويُبَصِّرُنا بهم قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، ولأن منعهم للحقوق الإنسانية مؤسسي، فهم لا يكتفون بالبخل بل يجمعون لذلك عملين ينشطون فيهما:

أولهما: التعاون على الإثم والعدوان بالأمر بالبخل. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، فلم يكتفوا بالبخل حتى أصروا على إشاعته بين الناس، وربما شكلوا منظماتٍ محلية ودوليةً لذلك.

وثانيهما: كتمان فضل الله من العلم والمادة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء:٣٧):

فقوله جل ذكره: ﴿يَبْخَلُونَ﴾[2] من بخل يبخل فهو بخيل وباخل، وما يفعله

(١) مسند البزار (٩ / ٣٤٧).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٣٨)، تاج العروس (٢٨/ ٦٢).

بُخْلٌ وبَخَل، فالبخل إمساكُ ما يملك عمن لا يحق له أن يحبسه عنه ويقابله الجود، ويهبط الشيطان بالإنسان حتى يمنع ما لا يضر بذلُه، ولا ينفع منعه، ثم يهبط به دركة ثالثة، فيحاول أن يمنع ما يملك غيره، وهو صفة رديئة تؤدي إلى الدمار الاجتماعي ثم إلى الدمار الجماعي، كما أنه مرض نفسي لا بد من معالجته.

فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ البَحْرَيْنِ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلاَثًا فَلَمْ يَقْدَمْ مَالُ البَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ دَيْنٌ، أَوْ عِدَةٌ فَلْيَأْتِنِي، قَالَ جَابِرٌ فَجِئْتُ أَبَا بَكْرٍ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَوْ جَاءَ مَالُ البَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلاَثًا قَالَ فَأَعْطَانِي قَالَ جَابِرٌ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُهُ الثَّالِثَةَ فَلَمْ يُعْطِنِي فَقُلْتُ لَهُ قَدْ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي فَإِمَّا أَنْ تُعْطِيَنِي وَإِمَّا أَنْ تَبْخَلَ عَنِّي فَقَالَ أَقُلْتَ تَبْخَلُ عَنِّي وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ- قَالَهَا ثَلاَثًا - مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَكَ.. عُدَّهَا فَعَدَدْتُهَا فَوَجَدْتُهَا خَمْسَمِئَةٍ فَقَالَ خُذْ مِثْلَهَا مَرَّتَيْنِ [1]، ويصور الشاعر الحرص على المنع فيقول عن بخيلٍ اسمه عيسى:

يُقَتِّرُ عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من مِنخَرٍ واحدِ

والفرق بينه وبين الشح أن:

الشح حالة نفسية ملازمة تحضر تصرفات الإنسان فتأمره باختيار الأسوأ الذي فيه منعٌ أن يصل خير إلى غيرٍ، ويصف الله جل جلاله هذه الحالة البئيسة، فيقول: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)، فالشح مرضٌ قلبيٌّ يحتاج إلى مجاهدة

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢١٨) برقم ٤٣٨٣.

عظيمة لمقاومته والشفاء منه، ويبين ربنا الحق أن المفلحين يتقون الشح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)، فهم يجالدونه، ويجاهدونه، ويبتكرون الوسائل التي تجعل بينه وبينهم وقاية، وتحميهم منه لئلا يقعوا في أسره، وعند ذلك تتحقق لك مرتبة الفلاح، بينما وصف المنافقين بالاستجابة لداعية الشح في أنفسهم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (الأحزاب: ١٩)، وكلمة (شحَّ) بمعنى قل وعسر وانقطع، فكأنهم يقطعون الخير عن أنفسهم وغيرهم.

أما البخل فيتعلق بما في اليد، فالفقير قد يكون شحيحًا وهو لا يملك شيئًا بينما لا يكون البخيل بخيلًا إلا بشيء يملكه كما قال الله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ (التوبة: ٧٦)، وعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ المُزَنِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَا لِي أَرَى بَنِي عَمِّكُمْ يَسْقُونَ العَسَلَ وَاللَّبَنَ وَأَنْتُمْ تَسْقُونَ النَّبِيذَ؟ أَمِنْ حَاجَةٍ بِكُمْ أَمْ مِنْ بُخْلٍ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الحَمْدُ لِلَّهِ! مَا بِنَا مِنْ حَاجَةٍ وَلاَ بُخْلٍ [1].

ويرى ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الفرق بين الشحِّ والبخل: أنَّ الشحَّ هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه، والبخل منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه، وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشحِّ، والشحُّ يدعو إلى البخل، والشحُّ كامنٌ في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحَّه، ومن لم يبخل فقد عصى شحَّه ووقي شرَّه، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وَقيل: البُخْل فِي أَفرادِ الأُمورِ وآحادِهَا، والشُّحُّ عامٌّ، وَقيل: البُخْلُ بِالمَالِ.

(١) صحيح مسلم (٤ / ٨٦) برقم ٣٢٤٠.

والشُّحُّ بالمالِ والمعروفِ [١].

ولأن البخل مجرد ثمرة من ثمرات الشح قال النَّبِيّ ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ» [٢].

وأشار بعض المتأملين في الفرق بينهما إلى قوله جل ذكره: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ (محمد: ٣٧)؛ إذ قد يكون معنى قوله: {إن يسألكموها فيحفكم} من الإحفاء أي فيجهدكم وهو قول عامة المفسرين، ويحتمل أن يكون من الحفاوة والإكرام كما في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ (مريم: ٤٧) أي إن سألكم أموالكم ليجعلكم من الأحفياء عنده، فأجهدكم في طلب ما عندكم تبخلوا به، وعندها يخرج أضغانكم أي شحكم وسوء خلقكم، ويدل على أن البخل ينبثق عن الشح ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفُحْشَ، وَلاَ التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ والشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ، فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ، فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ، فَفَجَرُوا» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ يَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ»، فَقَامَ ذَاكَ أَوْ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ، وَالهِجْرَةُ هِجْرَتَانِ: هِجْرَةُ الحَاضِرِ، وَالبَادِي، فَهِجْرَةُ البَادِي أَنْ يُجِيبَ إِذَا دُعِيَ، وَيُطِيعَ إِذَا أُمِرَ، وَالحَاضِرِ أَعْظَمُهُمَا بَلِيَّةً، وَأَفْضَلُهُمَا أَجْرًا» [٣].

ويظهر لي فرقٌ واضحٌ ثانٍ بين البخل والشح، فالبخل أن تمنع ما عندك والشح

(١) تاج العروس (٦/ ٤٩٨).

(٢) مسند أحمد (٢ / ٣٠٢) برقم (٨٠١٠) ٧٩٩٧.

(٣) مسند أحمد (٢ / ١٥٩) برقم ٦٤٨٧، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

يشمل أن تمنع ما عند غيرك، أي أن تمنع خيرًا عند غيرك من أن يعطيه ثالثًا، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ﷺ، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخشى أن لا تكون أصابتني هذه الآية: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)، والله ما أعطي شيئًا أستطيع منعه. قال: (ليس ذلك بالشح، إنما الشح أن تأكل مال أخيك بغير حقه، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل) [١].

ورجَّح القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشح أخص من البخل، فالشحُّ هو البخل مع حرص لما رواه جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتَّقوا الشحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم»، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم أبدًا، ولا يجتمع شحٌّ وإيمان في قلب رجل مسلم أبدًا» [٢]،

والآن عد إلى الآية التي جعلتنا نخوض في هذا التفصيل.. إنها قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ فهل يستوي المختال الفخور الذي يبخل ويأمر الناس بالبخل مع نفسية المفلحين الكريمة النفيسة؟ وإليك قصة لواحدٍ منهم يحكيها أَبو هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أي ضيفًا، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلاَّ المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا،

(١) تهذيب الآثار للطبري (١ / ١٧٩) برقم ٣٤١.

(٢) سنن النسائي (٦ / ١٤) برقم ٣١١٤، وقال الألباني: صحيح.

ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا، فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ - مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وأول ما يدخل في البخل: البخل بالعلم، ومن كتمان العلم كتمان صفة النبي الخاتم ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان كَرْدَم بن زيد، حليفُ كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبَحْريّ بن عمرو، وحُيَيّ بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالًا من الأنصار، وكانوا يخالطونهم، ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون! فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: من النبوة، التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٧ - ٣٩) (٢).

كما يدخل في البخل: البخل بالإحسان، والآيات وردت في سياق ذلك، حيث أمر الله بالإحسان إلى الأصناف السابق ذكرهم إحسانًا خلقيا أو ماليًا.

واجتماع هذه الثلاثية الخبيثة: البخل، والأمر به، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يؤدي إلى الكفر الأصغر الذي هو بريد للكفر الأكبر، ويُبَصِّرُنا بذلك مجيئ قوله

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٤٢) برقم ٣٧٩٨، وبين ابن حجر في فتح الباري (٧ / ١٢٠) أن معنى قوله: (وأصبحي سراجك) بهمزة قطع أي أوقديه».

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٥٣).

تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ٣٧) بعد ما سبق.

انظر لهذه الصفات المذمومة كيف تجتمع في قوى الإجرام؟

الاختيال والفخر، والبخل والأمر بالبخل لإفساد المقتدرين، وظلم العاجزين، وكتمان ما آتاهم الله من فضلة فَيُوهِمُونَ الفَقْرَ مَعَ الغِنَى، وَالإِعْسَارَ مَعَ اليَسَارِ، وَالعَجْزَ مَعَ الإِمْكَانِ، وهَذَا الكِتْمَانَ قَدْ يَقَعُ عَلَى وَجْهٍ يُوجِبُ الكُفْرَ بشكوى الله وعدم الرضى بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، واجتماع الصفات الخمس يؤدي إلى الكفر بالنعمة، ولذا بين الله تعالى عاقبة الكفر بالنعمة فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ٣٧)، والكفر بالنعمة عند الإصرار عليه يؤدي إلى ما هو أسوأ منه وأردى من أكبر الكبائر كجحود آيات الله وموالاة أعدائه ارتكاب أفعال الكفر الأكبر، والنبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع» [١]، والجَعْظَري: الفظّ الغليظ المتكبر، والجواظ: كثير اللحم المختال في مشيته، وقال: «إن الله يبغض كل جعظري جواظ سخاب بالأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة» [٢].

هل تعلم كيف يُدَمِّر البخلاء الجشعون من أصحاب المليارات الحياة الإنسانية؟

إنهم يبنون حياتهم على الاختيال والفخر، فيبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، وهنا تراهم يصبحون مجموعة من الغزاة الجشعين الذين يحرصون على تدمير الكرامة الإنسانية مقابل أطماعهم، فقد أظهر تقرير لمنظمة أوكسفام أن ثروات أصحاب المليارات نمت بمعدّل ٢,٥ مليار دولار يوميًّا في عام ٢٠١٨ فيما تراجعت ثروة الناس الأكثر فقرًا.. هل تصدق أن التقرير يذكر أن ثروات أصحاب المليارات

(١) أحمد (٢ / ١٦٩).

(٢) ابن حبان (١ / ٢٧٤)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

زادت بنسبة ١٢% في العام الماضي - أي ما يعادل ٢,٥ مليار دولار يوميًّا - في حين انخفضت ثروات ٣,٨ مليار إنسان أي نصف تعداد البشرية الأكثر فقرًا بنسبة ١١%، وفي هذه اللحظات المظلمة يجتمع قادة الأعمال والزعماء السياسيون بالمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس بسويسرا، ويسلط التقرير الصادر بعنوان «الصالح العام أم الثروات الفرديّة؟» الضوء على الفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء، ويذكر التقرير أنّ ١% من الأكثر ثراءً بالعالم لو دفعوا ضريبة إضافية على ثرواتهم بنسبة ٠,٥% فقط لساهم ذلك في جمع مبلغ كافٍ لتعليم ٢٦٢ مليون طفل غير ملتحقين بالمدارس ولتأمين الرعاية الصحيّة اللازمة لإنقاذ ٣,٣ مليون شخص من الموت.

وهنا تأتي بصائر المعرفة القرآنية لتحذر من هذه الصنف المعتدي المجرم، فيذكر بغيه حينما يبغي على الإنسانية باختيال وفخر، ويستخدم البخل والأمر به أداة لأحقاده المجنونة، فتشقى معه الحياة الإنسانية، ويضعف بثها في العالمين.

الصنف الثاني ممن يمنع حقوق الناس من كل مختال فخور: المراؤون: الذين ينفقون لخداع الجماهير، ولتغطية الأعين والإعلام برؤيتهم، وبصرنا الله بهذه الصفة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ (النساء:٣٨).

إنهم ينفقون ويشاركون في الإنفاق الخيري.. لكن لا لأنهم يؤمنون بل ليخادعوا الجماهير، ويظهروا أنفسهم أمام أعين الناس، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، بل يحترفون المباهاة والفخر، واللعب على الجماهير، ولذا متى ما استطاعوا ترك النفقة تركوها لأن غرضهم فقط إغراء الجماهير وجذب انتباههم.

فلَمَّا أَمَرَ بِالإِحْسَانِ إِلَى أَرْبَابِ الحَاجَاتِ، بَيَّنَ أَنَّ مَنْ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ قِسْمَانِ: فَالأَوَّلُ: هُوَ البَخِيلُ الَّذِي لَا يُقْدِمُ عَلَى إِنْفَاقِ المَالِ البَتَّةَ، وَهُمُ المَذْمُومُونَ فِي قَوْلِهِ:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ (النساء: ٣٧)، والثَّاني: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ، لَكِنْ لَا لِغَرَضِ الطَّاعَةِ، بَلْ لِغَرَضِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ (النساء: ٣٨)، وفهم الطبري من العطف بالواو أن الكلام عن صنفين من الناس، فذكر أن الله فصَل بين صفة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وصفة الفريق الآخر الذين وصفهم في الآية قبلها، وأخبر أنّ لهم عذابًا مهينًا بـ«الواو» الفاصلة بينهم لينبئ عن أنهما صفتان من نوعين من الناس مختلفي المعاني، وإن كان جميعهم أهلَ كفر بالله، ولو كانت الصفتان كلتاهما صفةَ نوع من الناس، لقيل إن شاء الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ (١).

فذكر الله - جلَّ مجده - صنفين:

الصنف الأول: الذي يزعم الإيمان بالله واليوم الآخر ثم هو مختال فخور بخيل ويأمر الناس بالبخل، ويكتم ما آتاه الله من فضله.

والصنف الثاني: وهو الصنف الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وينفق رئاء الناس، فانظرهم حواليك.

يجتمع كل مختال فخور من الصنفين في تقريب أسوأ المستشارين، وأردأ الأصحاب، وأحط البطانات؛ فيقربون منهم شياطين الإنس والجن بطانتهم ومستشاريهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله -تعالى مجدُه-: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ (النساء: ٣٨) والقرين: الصاحب المقارن غير المفارق.

وهنا قد يطرح التساؤل عن أهم سبب لنزولهم إلى حضيض الكفر بالله، وإشاعة

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٥٧).

الفساد في الأرض، فيأتي الجواب:

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ (النساء: ٣٨).. إنها بطانة السوء من شياطين الإنس والجن، فالقرين المقارن غير المفارق إما من الفساق، أو أصحاب البدع المضلة، أو ناشري الإجرام والفساد، ومنه قول عدي بن زيد:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ، وأبْصِرْ قَرِينَهُ فَإنَّ القَرِينَ بِالمُقَارِنِ مُقْتَدِ

كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ (الزخرف: ٣٦).. هل يكون قرينًا صالحًا من يورد صاحبه النار؟ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الحج: ٣، ٤).

وعلى الرغم من منع هذين الصنفين لحقوق البشرية إلا أن الله ذكر لهم مجموعة من البواعث تعالج أنفسهم الشاردة.

فختم بذكر البواعث على إعطاء الحقوق لذويها، وجعلها على الطريقة الشرعية، لا مراءاة، ولا سمعة، وهذه البواعث هي:

الباعث الأول: الهرب من مصادقة الشيطان، وتغيير البطانة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ (النساء:٣٨).

فالمختال الفخور البخيل منع الحقوق بسبب مقارنته للشيطان لأن خطة الشيطان قائمة كما قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، وكذلك المرائي يقارنه الشيطان لأنه لم يرد تحقيق المصالح الحقيقية للبشرية ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (الأنفال: ٤٧، ٤٨).

الباعث الثاني: اختيار الجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وتوفية الحقوق إلى أهلها، فهو السبيل الوحيد لعدم التلاعب بها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل جلاله: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٩).

فالمعنى: وأَيُّ الشَّيْءِ عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا؟ مَا الَّذِي كَانَ يُتْعِبُهُمْ وَيُثْقِلُهُمْ؟. وهذا التعبير المؤثر: ﴿ وَمَاذَاعَلَيْهِمْ ﴾ يحمل التوبيخ الكبير، ويمكن أن تقول: إنه الإنكار التوبيخي على عدم فعلك لأمرٍ مقدورٍ ميسورٍ لك أن تقوم باختياره وفعله.. بل فعله إن لم ينفعك فلن يضرك.

سبحان الله.. صدق الله جل في علاه! تذوق جمال هذا الكلام الذي يجمع العتاب والإنكار والحث على التحرر مما أحاط بالنفس من الأسوار؛ فالمعنى: وأَيُّ الشَّيْءِ عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا، وهذا إن جعلنا (ماذا) اسمًا واحدًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «ذَا» فِي مَعْنَى الَّذِي، وَيَكُونُ «مَا» وَحْدَهَا اسْمًا، وَيَكُونُ المَعْنَى: وَمَا الَّذِي عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا، وَقَدْ قُدِّمَ دَلِيلُ الجَوَابِ اهْتِمَامًا بِالِاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِ قَتِيلَةَ بِنْتِ الحَارِثِ:

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مَنَّ الفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: أي ضررٍ لَوْ آمَنُوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا، مَا الَّذِي كَانَ يحل بهم؟ لو آمنوا ما الذي كان يشقيهم في أمرٍ يسعدهم؟ بل هم بذلك منتفعون، واختيارهم لذلك يرفعهم على أنه يسيرٌ خفيفٌ.

وهنا ترى أمرين علميين جدليين مدهشين تقدمهما الآية:

الأول: الرد على الجبرية الظالمين الذين يزعمون أن الإنسان مسير غير مخير، مجبر غير مختار.. وكيف يكون ذلك والله كما ترى قد جعل له الاختيار، وعاتبه

موبخًا على عدم اختيار الجانب الأسهل الأنفع؟

الثاني: الأخذ بالاحتياط الذي لا يضر من كمال العقول، فالله جل جلاله يقول لنا ولهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر: ما الضرر الذي سيحدث لهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ولو على سبيل الاحتياط لأنفسهم؟ هم لن يفقدوا متاع الدنيا لأن الله لم يحرم زينة الدنيا التي بناها لهم فقد قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢).. فالله أباح الطعام وأحسن اللباس وحث على النكاح وأن تظهر نعمته على عبده.. فما الضرر الذي سيكون عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، ولو على سبيل الاحتياط لأنفسهم؛ لأنه إما أن يكون هذا الإيمان باطلًا على رأيهم وفكرهم، فهم لم يخسروا شيئًا يريدون التمتع به إذا آمنوا، وإما أن يكون حقًا، فهم سيخسرون أعظم الخسارة عندما يردون إلى الله في اليوم الآخر للحساب، ولذا قال المعري:

قالَ المُنجّمُ والطّبيبُ كِلاهما: لا تُحشَرُ الأجسادُ؛ قلتُ: إليكما
إن صَحَّ قولُكما، فلستُ بخاسرٍ، أو صَحّ قولي، فالخَسارُ عليكما
طَهّرْتُ ثَوْبي للصّلاةِ، وقلبُهُ طُهرٌ، فأينَ الطُّهرُ من جسديكما؟
وذكرتُ رَبّي، في الضّمائرِ، مؤنسًا خَلَدي بذاكَ، فأوحِشا خَلَديكما
إنْ لم تَعُدْ بيَدي مَنافعُ بالذي آتي، فهلْ من عائدٍ بيَدَيكما؟
بُرْدُ التّقيّ، وإن تَهَلّلَ نَسجُه، خيرٌ بعلمِ اللهِ من بُرديكما

«لذلك قال علي ﷺ لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكًّا: إن صح ما قلتَ فقد تخلصنا جميعًا، وإلا فقد تخلصتُ وهلكت. أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال»[1].

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٩).

وَمثل ذَلِك قَول الآخر:

ورغبني فِي الدّين أَن دَلِيله قويٌّ، ويُخشى كلُّ شَرٍّ بجحده
وكرهني للكفر أَن فَسَادَه جليٌّ، ويُخشى كلُّ شَرٍّ بِقَصْدِهِ

بل كَمَا قَالَ الله تَعَالَى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الآيَة، فإيراد مذهب الاحتياط فقط «لمداواة النُّفُوس الجامحة، والوساوس الغَالِبَة، والاستعانة على تليينها بالمعارضات النافعة لتسلم العُقُول مِمَّا يزاحمها مِمَّا شقّ على الأوهام من الغيوب» [1].

نعم المطلوب الإيمان بالله واليوم الآخر على سبيل اليقين لا الاحتياط، ولكن الآية تشير إلى مشرعٍ في الجدل مع الشاكين لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

ولماذا ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؟ لأنه كلما قل اليقين باليوم الآخر وجد التلاعب المجرم الآثم بحقوق الناس على المستوى الفردي والجماعي ومستوى الحكومات.

الباعث الثالث: معرفة دقة الحساب يوم القيامة وهوله والإعداد لذلك، فلا تفوت الذرة من العمل الصالح أو السيء أثناء الحساب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾:

فإذا كانوا أصروا على الاختيال والفخر الباطل، وعلى البخل والأمر به، وعلى كتمان ما آتاهم الله من فضله، وعلى عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى الإنفاق رياء، فينبغي أن يعلموا هم كما ينبغي أن تعلموا أنتم أيها المؤمنون أن الله لا يظلم مثقال ذرة، فهو تتمة تهديد لهم، وهو وعد لكم.. فما مثقال الذرة؟

(١) إيثار الحق على الخلق (ص: ٦٤).

يقربها ابن عباس ﷺ فيقول: رأس نَملة حَمراء [١]، ويقربها أيضًا فيجعلها واحدة الهباء، وهو الشيء الذي يراه الناس عندما يسلط عليه ضوء الشمس إذا كان مركزًا من خلال كوةٍ، فيرى الناس فيه القذاءة، ومجموعها يسمى الهباء، وهو موجود حولنا ولكننا لا نراه، فانظر مقدار صغره، ومثقال الذرة يطلق على مثقال أصغر جزء لا يتجزأ، ولا يمكن رؤية ذلك إلا بمجاهر قوية تكبر الشيء آلاف المرات.. ماذا يريد الله أن يبين لنا؟

إنه يبين لنا أنه لا يظلم مثقالًا أي وزنًا يساوي الذرة التي تساوي أصغر شيء مخلوق يمكن أن يكون له وزن على وفق الميزان الإلهي الحساس لأتفه شيء في أعين الناس مما لا يستطيعون وزنه مهما اخترعوا من أدوات.. فماذا سيفعل الظالمون لأنفسهم أو الظالمون لغيرهم من المتلاعبين بحقوق البشرية عندما يتم الحساب، وتوزن الأعمال، ولا يُظلم المرء مثقال ذرة حتى لو كان ابتسامة أو عبوسًا.. حتى لو كان خطرة نفسٍ عابرة أمكن التحكم فيها.. كيف سيصنع الغافلون؟

الله لا يظلم أحدًا مثقال ذرة ولو كان كافرًا، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا» [٢].

ومعنى أنه لا يظلم أي لا ينقص مثقال الذرة مع أن الناس لا يبالون بهذا الوزن.. فيا لهول ذلك اليوم الذي يوزن فيه مثقال الذرة.

بل إن الله ذكر ما هو أصغر من الذرة.. لقد ذكر أن علمه يسع لما هو أصغر من

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٦٠).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٣٥) برقم ٧٢٦٧.

الذرة فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١).. ها هو الملك جل جلاله لا يشير فقط إلى الصغير الذي دون الذرة بل إلى الأصغر من الصغير مما هو دونها.. فلا إله إلا الله.

وهذه الآية من أعظم الآيات التي كان يعطيها ابن عباس ﷺ اهتمامًا زائدًا، وقد سبق ذكرها، وكذلك كنت ترى ابن مسعود يوليها مكانة خاصة، حيث يقول: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا و ما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠) و﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١) و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨ و ١١٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠) قال عبد الله: ما يسرني أن لي بها الدنيا و ما فيها[1]

وعن ابن مسعود قال: (يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له الحق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على ابنها أو أبيها، أو أمها، أو أخيها، أو زوجها)، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠١)، «فيغفر الله من حقه ما شاء، ولا يغفر من حقوق العباد شيئًا، فيقول: «ائتوا إلى الناس حقوقهم، فيقول: يا رب، فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم حقوقهم؟، فيقول: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا إلى كل ذي حق بقدر طلبته، فإن كان وليًا لله ففضل له

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢ / ٣٣٤).

مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ «وإن كان عبدًا شقيًا قال: يا رب، فنيت حسناته، وبقي طالبون كثير، قال: خذوا من سيئاتهم، فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكًا إلى النار» [(١)]، ويبين قتادة هول ذلك فيقول - وقد تلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾-: لَأنْ تفضُل حسناتي في سيئاتي بمثقال ذرّة، أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها[(٢)].

الباعث الرابع: تذكر قيمة الحسنة المقبولة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾:

ويبين قتادة هول ذلك، فيقول: لأنْ تفضُل حسناتي في سيئاتي بمثقال ذرّة، أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها [(٣)]، فقراءة ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: {يضعِّفها} بالتشديد، أي: يضعِّف ذلك ضِعفين، وقراءة الجمهور: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾، أي: أضعافًا كثيرة، فلعلهما موقفان أو يختلف التضعيف حسب من يستحق الفضل.

ويبين أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة فائدة عظيمة لهذه الحسنة، حيث يروي عن النبي ﷺ وهو يحدث عن أهل الجنة: «وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٦٣)، والأهوال (١ / ٢٥٠).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٦٠).

(٣) الطبري (٨/ ٣٦٠).

فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَؤُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ إِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فَيُقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»[1].

الباعث الخامس: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

سيعطي الله لعبده أجرًا عظيمًا على غير عملٍ قام به.. انظر لعظمة الفضل، وهذه الجملة على قصرها حوت إلهابًا عظيمًا لك لتقتبس من فضل الله:

فأما أولًا: فإنك عندما تسمع كلمة ﴿يُؤْتِ﴾ تشعر بجمال الإعطاء؛ لأن الإيتاء إعطاءٌ مخصوص؛ إذ يظهر أنه يكون مع تهيئة المعطَى له على الوجه الأمثل ليتناول الشيء الذي سيعطاه، فذكر جل جلاله أنه سيؤتي من لدنه أجرًا عظيمًا إيتاء يظهر منه التكريم للمؤتى.

فلما ذكر في قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ مضاعفته للحسنة من العمل ذكر هنا أنه يعطي إعطاء لائقًا في كمِّيته وكيفيته (بالمعطِي) -عزَّ جارُه- يهيئ له (المعطَى له) ليستطيع الاستمتاع به.

وأما ثانيًا: فانظر كيف يهيج السامع ببيان عظمة المعطِي فيقول: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾،

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٩ / ١٥٩).

واللدنية الإلهية تدلك على أن المعطَى سيكون عظيمًا بما يليق بعظمة المعطِي جل جلاله، واضرب لنفسك مثلًا بعطاء الأرض إذ تضع فيها حبةً فتنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فالأرض أعادت لك الحبة سبعمائة حبة بما أودع الله فيها من قوانين، فكيف إذا نسب الإعطاء إلى الله عز ذكره مباشرة؟ فكلمة لدنه تدل على عظم الأجر المعطى لهم، فهي بِمَعْنَى «عِنْدَ» إِلَّا أَنَّ «لَدُنْ» أَكْثَرُ تَمْكِينًا، يَقُولُ الرَّجُلُ: عِنْدِي مَالٌ فيحتمل أن يكون مَالُهُ بِبَلَدٍ آخَرَ، وَلَا يُقَالُ: لَدَيَّ مَالٌ وَلَا لَدُنِّي، إِلَّا مَا كَانَ حَاضِرًا.

وأما ثالثًا: فإنه وصف الذي سيعطيه بالأجر مع أنه فضلٌ خالص، وزاد في التشويق له فوصفه بالعِظَم، وذلك ليجعلك تتشوف وتتشوق أن تكون ممن ينال هذا الأجر، بإعداد نفسك إعدادًا خالصًا مناسبًا يجعلك تظن أنه سيشملك برحمته، ويبين لك المزية التي تكتسبها لتستحق الفضل قول ربك -عزَّ جارُه-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨).

الباعث السادس: باستحضار شهادة الشهود يوم الوفود على الله وفي مقدمة الشهود الأنبياء، ومنهم خاتمهم ﷺ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١):

و ﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ مُضَافٌ إِلَى جُمْلَةِ ﴿جِئْنا﴾ والتقدير: فكيف يكونون عندما يأتيهم زَمَان نأتي فيه من كل أمة بشهيدٍ من الأنبياء يشهدون عليهم؟ وكيف يكونون في زمانٍ نأتي بك على أمتك هؤلاء شهيدًا؟ وكيف يكونون عندما تكون أنت شهيدًا على أن الأنبياء بلغوا أممهم؟ وقد أتى بها على أسلوب السؤال الذي يُحدِثُ الروعةُ في القلب، ويجعل المرء يتصور ماذا سيحدث خائفًا قلقًا بخلاف الأسلوب الخبري الذي ساقه الله في القرآن المكي في قوله تَعَالَى ذكره: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا

لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النَّحْل: ٨٩).

فقوله: ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ تصح فيه جميع الاحتمالات هاهنا: فيصح أن يراد بهم الأنبياء السابقون، ويصح أن يراد بهم أمتك أي أمة الدعوة والإجابة، فإن النبي ﷺ كان يستشهد الله على تبليغه لأمة الإجابة وأمة الدعوة: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»[1].

وتخبرنا سورة البقرة أن أمة النبي ﷺ يكونون شهداء ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) وهذه الشهادة تحمل الكرامة المتميزة لهذه الأمة من الله جل جلاله لكنها تدل على مقدار المسؤولية الجسيمة على هذه الأمة إزاء نشر الخير في العالم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، والشهادة يظهر لي أنها تعني أمرين: شهادة الأمة على أنها قامت بواجب البلاغ لسائر العالم على امتداد الزمان والمكان؛ فإن الأمة تخلف النبي ﷺ في مهمته، وشهادتها بأن الأنبياء بلغوا أقوامهم عن ربهم، وذلك لأن الله قد أخبر الأمة بهذا البلاغ، ومن أصدق من الله قيلًا.

وحينها تشتد حسرة المناوئين للرسل المختالين الفخورين، وتزداد آلام البخلاء البائسين، ويعظم الندم عند من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩):

ومضيت أقرأ في الوجوه حكاية ... إجمالها عند الذكي مفصل
ورأيت مالا كنت أحلم أن أرى ... حولي وقد كشف الستار المسدل
هذا هو النمرود يندب حظه ... والدمع من هول المصيبة يهطل
وهناك فرعون المؤله نفسه ... يسعى بغير بصيرة ويولول
وهناك كسرى تاه عن إيوانه ... مترنح في سيره متململ

(١) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٢ / ٢١٦).

وهناك قيصر نفسه مكسورة وبقلبه مما يعاني مرجل
وهنا أبو جهل يراجع نفسه عيناه توحي أنه يتوسل
يارب أرجعنا لنعمل صالحًا غير الذي كنا نقول ونعمل
هيهات قد طوي الكتاب ألم يكن فيكم نبي بالهداية مرسل
سبحان ربك هؤلاء جميعهم كانت لهم دار هناك تبجل
لكنهم كفروا بمن أعطاهم ملكًا وعاثوا في البلاد وقتلوا
ورموا بشرع الله خلف ظهورهم عزلوه عن حكم الزمان وعطلوا
جمع الطغاة هنا وقد هانوا على ربي وفاز المؤمن المتبتل
وقفوا وآلاف الضحايا حولهم فاليوم ينظر في الأمور ويبطل
واليوم يسعد مؤمن بيقينه واليوم يشقى الفاسق المتحلل
واليوم يمتد الصراط فمسرع نحو النعيم وزاحف متمهل
ومحمل بالذنب زلت رجله فهوى ونار جهنم تستقبل

آهٍ.. آهٍ يا للذكريات.. وما أدراك ما الذكرى؟

لقد ذرفت عينا النبي ﷺ وهو يسمع هذه الآية المباركة، وهو الشاهد فكيف بالمشهود عليهم؟ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ! فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ [1].

وعن يُونُس بن مُحَمَّدِ بن فَضَالَةَ الظَّفَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ مِمَّنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَتَاهُمْ فِي مَسْجِدِ بني ظَفَرٍ (بفتحتين كما في فتح الباري

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٢٤١).

حي من الأوس)، فَجَلَسَ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي فِي مَسْجِدِ بني ظفرٍ اليَوْمَ، وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، وَمُعَاذُ بن جَبَل، وَأُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَارِئًا، فَقَرَأَ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء آية ٤١)، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى اضْطَرَبَ لَحْيَاهُ، فَقَالَ: «أَيْ رَبُّ، شَهِدْتُ عَلَى مَنْ أَنَا بَيْنَ ظَهْرَيْهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ أَرَ؟» [١].

لماذا بكى ﷺ؟ لأن بكاءه كما يقول الطاهر «تُرْجُمَانُ رَحْمَةٍ وَمَسَرَّةٍ وَأَسَفٍ وَبَهْجَةٍ» [٢]، إنها المشاعر الصادقة لا يحتملها الجسد، فتخرج على هيئات عباراتٍ سائلة على الخدود، وخير الأنبياء للعالم يتذكر شهادته على المعاندين، وشهادته للصادقين، وهو يرجو الخير للعالمين، لكن كثيرًا منهم عن ذلك معرضون.. إنه البكاء الذي يعبر عن مقدار الرحمة النبوية البالغة بالعالم الذي عاند جزء منه الرسالة النبوية وأبى إلا اختيار طريق الشقاء.

الباعث السابع: تصور الحال المخزية للكفار الذين عصوا الرسول، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤٢)، فعند مجيء الشهود وفي مقدمتهم سيد الخلق ﷺ يندم النادمون من العصاة، وعندها يصابون بمصيبتين:

المصيبة الأولى: أن يتصوروا الحال المخزية للبخلاء المرائين يوم الحقيقة العظمى شاعرين بالخزي حيث فضحوا وكشفوا وخسروا، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤٢) كفروا بتغطية الحقائق الواضحة التي تبين صدق الدين الإسلامي فودوا عند ساعة الحقيقة أن لو غطاهم التراب.. لقد عصوا الرسول بنبذ النظام الإسلامي في

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٤ / ١٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٥٨).

أصله أو في تفاصيله، فودوا ساعة الحقيقة أن لو نبذتهم الإنسانية فكانوا أرضًا يمشي عليها الخلائق.. كفروا بالله وبالحقائق الكبرى وعصوا الرسول في أصل شريعته أو تفاصيلها.. إنها تفاصيل الشريعة التي يحاربونها.. لقد كان يمكن أن تسعدهم في الدنيا لو التزموا نظامها، وتركوا العناد والفساد، وبذا يدخل في الآية الكفر المخرج من الملة كما يدخل الكفر الأصغر احتمالًا، فالآية ترهيب شديد للصنفين الوارد ذكرهما في منع الحقوق في قوله -تعالى مجدُه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧).

ثم ترسم لنا الآية صورة هؤلاء الكفار وهم يتمنون جاهدين أن تسوى بهم الأرض، وفي هذه الكلمة ﴿تُسَوَّىٰ﴾ ثلاث قراءات:

القراءة الأولى: قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ وَأَبُو عَمْرٍو ويعقوب تُسَوَّى مَضْمُومَةَ التَّاءِ خَفِيفَةَ السِّينِ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.. ماذا ترسم لنا هذه القراءة؟ إنها ترسم صورة هؤلاء تتنازعهم رغبات التخلص من هول ذلك الموقف بالانتحار، فهو خير لهم من النار في ظنهم، فربما خطر على بالهم أن يكون المسوي لهم بالأرض الله، وربما نازعتهم رغبة ثانية بأن يكون المسوي لهم بالأرض أحد ملائكته، أو أحد خلقه.. إنه الندم الذي يجتاح قلوبهم ومشاعرهم بعد أن رأوا ما كانوا يوعدونه حقًا واضحًا، والخوف مما سيأتي بعد الحساب من العذاب.

القراءة الثانية: قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وأبو جعفر تسَّوَّى مَفْتُوحَةَ التَّاءِ مُشَدَّدَةَ السِّينِ بِمَعْنَى: تَتَسَوَّى، فَأَدْغَمَ التَّاءَ فِي السِّينِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا، وقد اجتمع تشْدِيدَانِ فِي التَّنْزِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ (النَّمْلِ: ٤٧) ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ (يُونُسَ: ٢٤) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٦).

والقراءة الثالثة في معنى القراءة الثانية، وهي قَراءة حَمْزَة وَالكِسَائِيّ وخلف العاشر ﴿تَسَوَّى﴾ مَفْتُوحَةَ التَّاءِ وَالسِّينُ خَفِيفَةٌ، حذفوا التَّاءَ الَّتِي أَدْغَمَهَا نَافِعٌ، لِأَنَّهَا كَمَا اعْتَلَّتْ بِالإِدْغَامِ اعْتَلَّتْ بِالحَذْفِ، وفي كلتا القراءتين أسند الفعل في قوله:

﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ إِلَى الأَرْضِ أي تتسوى بهم الأرض.

وهاتان القراءتان تصوران رغبتهم في أن تتحرك الأرض التي نطقت بذنوبهم، وحدثت أخبارها بأفعالهم لتتسوى بهم كما تزلزلت ورجت ورجفت، فلماذا لا يشمل ذلك أن تميد بهم وتحملهم فتدكهم كما تدك الجبال بالأرض، فيرتاحون من هول ذلك الموقف العسير وهذا أقوى في تمني الخلاص من قول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ (النبأ: ٤٠)، فإن تمني الكافر أن يكون ترابًا ربما يكون معناه أنه لم يكن إنسانًا من بداية الأمر بل كان ترابًا، وربما يكون معناه أن يتحول ترابًا، فتكون ﴿كُنتُ﴾ بمعنى: صرت، ولكنهم هنا يتمنون الموت الشنيع السريع بأن تسوى بهم الأرض إما بارتفاعها وارتطامها بهم، وإما برفعهم وضربهم بها ضربة عظيمة حتى تلتصق أجسادهم بها.. ما هذا؟ إنهم يتمنون أن تتحرك الأرض فتزلزلهم وترميهم ثم تضربهم بها فيموتون، وذلك أهون عليهم في ظنهم من ما يرونه يوم الحساب، إلا أن الإيقاع في قراءة نافع أثقل يوضح ثقل الهم الذي أصابهم وأرجف قلوبهم.

وهناك معنى ثالث يمكن استنباطه من هاتين القراءتين-أشار إليه الطاهر بن عاشور - ولا يظهر لي-، وهو أن تكون التَّسْوِيَةُ فِي البُرُوزِ وَالظُّهُورِ، أَيْ أَنْ تَرْتَفِعَ الأَرْضُ فَتُسَوَّى فِي الِارْتِفَاعِ بِأَجْسَادِهِمْ، فَلَا يَكونون بارزين ظاهرين، ولا يراهم أحد لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَذُلِّهِمْ، فَيَنْقَبِضُونَ وَيَتَضَاءَلُونَ حَتَّى يَوَدُّوا أَنْ يَصِيرُوا غَيْرَ ظَاهِرِينَ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا وَصَفَ أَحَدُ الأَعْرَابِ يَهْجُو قوما من طيء أَنْشَدَهُ المُبَرِّدُ فِي الكَامِلِ:

إِذَا مَا قِيلَ أَيُّهُمْ لِأَيٍّ تَشَابَهَتِ المَنَاكِبُ وَالرُّؤُوسُ

والأماني الثلاث التي تظهر في المعاني الثلاثة تمثل أماني المحسور اليائس من تحقق أمنيته. والمصيبة الثانية التي تحدث لهم: أنهم لا يكتمون الله حديثًا.. فلا يستطيعون المراوغة والكذب والتحايل عندما يسألهم الله عن أعمالهم في الدنيا مع

أنهم يحاولون ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ (المجادلة: ١٨).. إنهم يحاولون أن يقولوا: بخلنا للمصلحة العامة، وأنفقنا للمصلحة العامة، ويكشف الله خبيئاتهم وخبثهم، وعندها لا يستطيعون أن يكتموا الله أدنى حديثٍ من أخبارهم العامة، والخاصة. ومن محاولاتهم الفاشلة أنهم يحلفون فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣)، وهم يحلفون إما لظنهم الباطل أنهم كانوا على الحق وأن ما فعلوه لم يك شركًا، وإما -كما يقول ابن عباس ﷺ-: لأنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهلُ الإسلام قالوا: «تعالوا فلنجحد»! فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾! فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتمون الله حديثًا [1].

وبذا يتضح لك أن القيامة مواطن مختلفة، ومراحل متعددة، فَمَوْطِنٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٨) وَمَوْطِنٌ يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ (النَّحْل: ٢٨) وَقَوْلِهِمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَيَكْذِبُونَ فِي مَوَاطِنَ، وَفِي مَوَاطِنَ يَعْتَرِفُونَ عَلَى أنفسهم بالكفر ويسألون الرجعة وهو قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ (الأَنْعَام: ٢٧).

وَآخِرُ تِلْكَ المَوَاطِنِ أَنْ يُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتتكَلَّمَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَجُلُودُهُمْ، فَنَعُوذُ باللَّه مِنْ خِزْيِ ذَلِكَ اليَوْمِ.



(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٧٣).

الحصن التاسع

الاستمتاع الحقيقي بالصلاة؛ لأنها تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، وذلك بتعظيم الصلاة وأماكنها، فالصلاة المعظمة من أقوى أسس بث الحياة الإنسانية (النساء:٤٣)

آية هذا الحصن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴾ (النساء:٤٣).

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله تعالى جده في الحصن الثامن حالة البخلاء والمرائين باعتبارهم أهم من يمنع حقوق الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع الإنساني، وذكر البواعث التي تعين على معالجة أنفسهم ينتقل بك إلى حصنٍ من أهم الحصون التي تعالج تلك النفسيات المريضة، وتعين على ضبط الأسرتين الصغيرة والكبيرة، وهي الصلاة.

وللتمكن من الاستمتاع بالصلاة ذكر الله حقوقها الأساسية هنا، وهي:

الحق الأول: يجب أن نعظم الصلاة بعدم قربانها إلا بوعيٍ حاضرٍ.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء:٤٣) .

﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ أي: لا تقوموا بأداء الصلاة حتى تعلموا ما تقولون، ولماذا اختير فعل القرب؟ فقيل: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ الجواب: لتحقيق أمرين:

الأول: أن يكون قد استفاق تمامًا قبل الصلاة بوقتٍ كافٍ وليس بعد أن يدخل فيها.

الثاني: سيتضح عندما نكمل الجملة، فاسمع لها: لا تقربوا الصلاة.. هذه جملة لها وقع رهيب في النفس؛ إذ كيف يتم النهي عن قربان الصلاة، وهي أعظم أعمال الإسلام، فلما قال: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ أدركت سبب النهي؛ فلم يقل لا تصلوا لبيان منافاة حالة السكر لها، وبشاعتها؛ إذ تسبب الابتعاد عن الصلاة، فيولد ذلك في نفس الإنسان ترك السكر بالكلية.

ولَفْظ الصَّلَاةِ يحتمل أن يكون المراد به الصلاة ذاتها، ولذا جعلنا الحق الأول للاستمتاع بالصلاة ألا يقربها الإنسان إلا بوعيٍ حاضر، ولكن ما هذه الحالة التي يمنع الإنسان فيها من قربان الصلاة؟

إنها حالة السكر، والسكارى جمع سكران، والسكران من سكن وعيه وانسد واحتار واضطرب وقلب عالي الأمور سافلها، والتَّسْكير: التَّحيير والإغلاق، ويظهر هذا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، والسَّكْر: حَبْس الماء، والماء إذا سُكِر تحيَّر. وأمّا قولهم ليلة ساكرة، فهي سَّاكنة طلقةٌ ليس فيها ما يؤذِي. قال أوس:

تُزادُ لياليَّ في طُولِها فليست بطَلْقٍ ولا ساكِرهْ

والسكر -كما يقول الخليل-: «نقيض الصحو، (والسُّكْر ثلاثة): سُكْرُ الشراب، وسُكْرُ المال، وسُكْرُ السلطان. وسكْرةُ الموت: غشيته»، ولأنه إغلاق يقال لسد منبثق الماء ومنفجره سكرًا، فالسِّكْرُ: اسم السداد الذي يجعل سدًا للبثق ونحوه[1]، فالسكران يصدق في حقيقته اللغوية والشرعية على من شرب المسكر بأنه أغلق

(١) العين (٥/ ٣٠٩)، معجم مقاييس اللغة (٣/ ٦٧)، تهذيب اللغة (١٠/ ٣٥).

عقله، وكذلك يطلق على من سكن وعيه بالنوم فلا يستطيع تمييز أفعاله، وقد قال الفَرَزْدَق:

مِنَ السَّيْرِ وَالإِدْلَاجِ يُحْسَبُ أَنَّمَا سَقَاهُ الكَرَى فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ خَمْرًا

وبناء على ذلك جعل بعض أهل العلم الآية تنطبق على الحالتين معًا: السكران بالخمر، والسكران بالنوم أي من كان يغشاه نومٌ ثقيل، وهنا نعلم لماذا قال الضحاك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ ليست لمن يقربها سكران من الشراب، إنما عُنِي بها سكر النوم [١]، ويؤيد هذا ما جاء عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسُبَّ نَفْسَهُ» [٢]، والذي يظهر بوضوحٍ أن المراد بالسكر حقائقه العرفية والشرعية واللغوية، وهو ما كان سببه الخمر وكل شيء يغطي العقل مثل المخدرات، ويلحق به إغلاق العقل بالنوم..

إن حق الصلاة، وحق العبادة الاستمتاع بها ألا تُؤدَى إلا بوعي حاضر أقل أحواله أن يعرف الإنسان ما يقول، وإلا فكيف يجد سعادته أو متعته فيها، ومما يدل على تحديد معناها سبب نزولها، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: قل أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [٣].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٧٧).

(٢) صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (١ / ٦٣).

(٣) سنن الترمذي (٥ / ٢٣٨)، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب.

الحق الثاني: يجب أن نعظم أماكن الصلاة، بعدم قربانها إلا بوعيٍ حاضرٍ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾(النساء:٤٣):

فلَفْظ الصَّلَاةِ يحتمل أن يكون المراد به الصلاة ذاتها، ويحتمل أن يراد به مواضع تأديتها، أي: المساجد مِنْ بَابِ حَذْفِ المضَافِ، أو مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الحَالِّ عَلَى المحَلِّ، أَيْ: لَا تَقْرَبُوا مَوْضِعَ الصَّلَاةِ، كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ (الحَجِّ:٤٠)، وَالمرَادُ بِالصَّلَوَاتِ مَوَاضِعُ الصَّلَوَاتِ مع أن التعبير بالصلوات هنا أعمق بكثير؛ إذ يراد في هذا الكلام أن المجرمين يحاولون هدم الصلوات نفسها من قلوب الناس.

وتحريم الخمر لأجل الصلاة تنمية للوعي الإنساني، وسمو بالروح، وهو من أعظم محاسن الشريعة، ويوضح حماية الشريعة للمصالح الإنسانية، ويؤسس لطهارة العقل بجوار طهارة البدن والثوب والمكان:

فهذه الآية توضح المرحلة الثالثة من المراحل المتدرجة لتحريم الخمر؛ إذ تمثل المرحلة الثالثة، فالمرحلة الأولى كانت قوله تعالى ذكره: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ (النحل: ٦٧)، والمرحلة الثانية كانت قوله تعالى ذكره: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، ويدل على المرحلة الثالثة والرابعة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما (فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا)، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن

﴿نَّفْعِهِمَا﴾ إلى آخر الآية، (فدعي عمر فقرئت عليه فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا) فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته، فأنزل الله فيها آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، (فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التي في المائدة) آية أغلظ من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)، فقالوا: انتهينا ربنا. فقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا ومن عمل الشيطان فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ: «لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم»[1].

ما هذه الأنفس الصافيات؟ أي شيء هذه القلوب الزكية؟ مع أن الخمر كان لها تغلغل في الصدور والنفوس ضمن ثقافة الجاهلية الأولى حتى كانت جزءًا من الفخر المنافس؛ إذ يقول امرؤ القيس:

وَأَصبَحتُ وَدَّعتُ الصِبا غَيرَ أَنَّني ... أُراقِبُ خَلّاتٍ مِنَ العَيشِ أَربَعا
فَمِنهُنَّ قَولي لِلنَدامى تَرَفَّقوا ... يُداجونَ نَشّاجًا مِنَ الخَمرِ مُترَعا
وَمِنهُنَّ رَكضُ الخَيلِ تَرجُمُ بِالقَنا ... يُبادِرنَ سِربًا آمِنًا أَن يُفَزَّعا
وَمِنهُنَّ نَصُّ العيسِ وَاللَيلُ شامِلٌ ... تَيَمَّمُ مَجهولًا مِنَ الأَرضِ بَلقَعا

(١) أحمد (٢ / ٣٥١) وقال الأرناؤوط: حسن لغيره، وما بين الأقواس من سنن النسائي (٨ / ٢٨٦).

وَمِنْهُنَّ: سوْقي الخَوْدَ قَد بَلّها النَّدى تُرَاقِبُ مَنْظُومَ التَّمائِمِ، مُرْضَعا[١]

ويقول طرفة بن العبد:

(فَلَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي)
(فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العَاذِلاَتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالماءِ تُزْبِدِ)
(وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفي وَمُتْلَدِي)
(إلى أن تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ)

ويقول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

ألا تعجب من هذا التأثير القرآني على قومٍ تكون الخمر من أعظم لذاتهم، وأكثر شهواتهم سيطرة على عقولهم؟ لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة. وكسب المعركة دون حرب، ودون تضحيات. ودون إراقة دماء.. والذي أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين- حين سمعوا آية التحريم- فمجوها من أفواههم، ولم يبلعوها[٢].

حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونًا في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف» ! من باب التهكم عليه؛ لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائمًا مدة أربعة عشر عامًا، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣.

(١) ديوان امرئ القيس ت المصطاوي (ص: ١٢٥)، (يداجون: يعالجون. النشاج: الزق الذي على ما فيه. مترع: مملوء، ونص العيس: ركوب الإبل. تيمم: تقصد. البلقع: الأرض المقفرة، الخود: الشابة الحسنة من النساء. سوقي: شمّ).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٦٦٥).

إن القرآن المجيد يملأ حياتك بالطهر والنقاء، فيجمع لك بين الطهارة الحسية، والطهارة القلبية، والطهارة العقلية، وخاصة عند قِربان الصلاة.. إنها الصلاة.. حتى تؤتي ثمارها اليانعة، وتحدث أثرها البالغ في الحياة لا بد أن يقربها المرء على أعلى درجات الطهارة: المادية والمعنوية: طهارة البدن والثوب والجسد، وكذلك طهارة القلب والعقل، فما تعلق منها بالأمور المادية أعانك الله عليها بهذه التشريعات المفصلة، وبقي عليك طهارة القلب.. فانظر كيف يمكنك أن تكتسب من الصلاة ما تواجه به الحياة، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»(١)، وروى أبو نعيم في «الحلية» عن سفيان الثوري يقول: «يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها».

وتدبر القرآن لتتلألأ أمامك آيات البيان.. إنه يحثنا بشدة بالغة على تدريب أنفسنا على الاستعانة بالصلاة على النوازل والتكاليف والواجبات الحياتية، فقد قال تعالى جده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ١٥٣)، ويبصرك أنها أعظم الوسائل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٢) كما قال الأستاذ عبد الوهاب عزام:

سجدة تخفض الجباه ولكن عز فيها مسبح وتعالى
ظنها الجاهلون غلا على العبد ولكن تحطم الأغلالا
خر فيها لساجد كل شيء يرهب الكون قوله والفعالا
تثبت الوجه والجوارح في الأرض ولكن تقلقل الأجبالا

(١) مسند أحمد (٤ / ٣٢١) برقم (١٨٨٩٤) ١٩١٠٠، وصححه الأرناؤوط.

تهدم الشرك والوساوس في النفس ولكن تشيد الأجيالا
في سكون، وللقلوب مسير سخر الأرض رهبة وجلالا
هي لله، وَحَّدَتْهُ، فَقَرَّت ومحت كل غاشم يتعالى
من وعاها: وعى السيادة في الأرض جلالًا، ورحمة، وجمالا

الحق الثالث: التعاون على كف المنكرات التي يقترفها بعضهم، على سبيل محبة أجزاء الجسد الواحد لبعضها، ويُبَصِّرُنا بذلك الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٣).

فالخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمجتمع المؤمنين من غير السكارى لينبهوا السكارى، فيتم التعاون فيما بينهم على كف المنكرات التي قد تصدر من بعضهم فهم كالجسد الواحد إن أصاب الألم منه عضوًا سهر سائر الجسد على إصلاح عوجه، وإعانته على ترك خلله وإزالة ألمه، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ (النساء: ٣٥).

وذلك كله يوجب السعي لتعظيم الصلاة، ومعرفة ما يقول الإنسان في صلاته وتمييزه، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٣).

فينبغي أن يكون حاضر الفؤاد في صلاته.. فما أكثر ما تمر علينا الصلوات خاليات من علمنا بما نقول في غير سكر والله المستعان، فعَنِ الحَسَنِ، قَالَ: سَمِعَهُمْ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ، وَمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ أَمْرِ الضَّيْعَةِ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: «أَتَجِدُونَهُ» قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: «وَاللهِ لَأَنْ تَخْتَلِفَ الأَسِنَّةُ فِي جَوْفِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنِّي فِي صَلَاتِي»[1]، وعن أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَسَدِيُّ، قَالَ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا هَذَا البُكَاءُ الَّذِي يَعْرِضُ لَكَ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي وَمَا سُؤَالُكَ عَنْ ذَلِكَ؟ قُلْتُ:

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٩٢).

يَا عَمُّ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي، فَقَالَ سَعِيدٌ: «مَا قُمْتُ فِي صَلَاتِي إِلَّا مُثِّلَتْ لِي جَهَنَّمُ» [١].

الحق الرابع: تعظيم الصلاة وأماكنها المخصصة، وهي المساجد، بعدم قربانها حال الجنابة، فلا تقرب إلا على طهارة كاملة، ويُبَصِّرُنا بهذا قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ (النساء: ٤٣):

فعن ابن عباس ﷺ: «لا تقربوا الصلاة وأنتم جُنب، إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء، فقد أحللتُ لكم أن تمسَّحوا بالأرض» [٢]، ويستثنى من قربان الصلاة وأماكنها حال الجنابة، أن يكون المرء عابر سبيل، وله معنيان:

المعنى الأول: إن جعلنا النهي عن قربان الصلاة ذاتها فيكون عابر السبيل هو المسافر، فيجوز له الصلاة حال الجنابة إن فقد الماء، ويتيمم مكان ذلك، ويكون وصف عابر السبيل وصف واقع، فيلحق به الحضري كذلك إن وجدت علة فقدان الماء أو تعسره، وقد ذكر هذا المعنى الإمام مجاهد وغيره فقالوا: مسافرين لا يجدون ماء [٣].

المعنى الثاني: إن جعلنا النهي عن قربان أماكن الصلاة حال الجنابة يكون عابر السبيل هو المجتاز للمسجد الذي لا ينوي الإقامة فيه، وإنما أراد الانتقال من مكان إلى مكان ولا سبيل لهذا الانتقال إلا عبور المسجد، فجاز له عبور المسجد حال الجنابة تخفيفًا له من الحكم العام؛ ليسر الدين ومعرفة الله بحال العالمين، واحتياجاتهم المتجددة لعبور المساجد.. فعلامَ يدل ذلك؟ إنه يدل على شدة ارتباط الأمة بمساجدها، ودوران أوضاعها حولها.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٧٤).

(٢) الطبري (٨/ ٣٧٩).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٨١).

ونقل الطبري هذا المعنى فقال: لا تقربوا المصَلَّى للصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوه جنبًا حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل يعني: إلا مجتازين فيه للخروج منه، فأقيمت «الصلاة» مقام «المصلَّى» و«المسجد»، وأسند هذا التفسير إلى ابن عباس [١].

وتقييد قربان المسجد بالاغتسال دَلِيلٌ لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الأَئِمَّةُ الثَّلَاثَةُ: أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالُكٌ وَالشَّافِعِيُّ: أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الجُنُبِ المُكْثُ فِي المسجدِ حَتَّى يَغْتَسِلَ أَوْ يَتَيَمَّمَ إِنْ عَدِمَ المَاءَ، أَوْ تعسر استعماله عليه، وَخصه الإِمَامُ أَحْمَدُ بالوضوء، فمَتَى تَوَضَّأَ الجُنُبُ جَازَ لَهُ المُكْثُ فِي المسجدِ، لِمَا رَوَى هُوَ وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؛ فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَار قَالَ: رَأَيْتُ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُونَ فِي المَسْجِدِ وَهُمْ مُجْنِبُونَ إِذَا تَوَضَؤُوا وُضُوءَ الصَّلَاةِ [٢].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى معنى ثالث هنا، وهو أنه يجوز للمسافر قربان الصلاة حتى لو كان جنبًا دون اغتسال، ويكون المعنى: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها وأنتم جنب حتى تغتسلوا إلا إن كنتم عابري سبيل، فعابر السبيل استثني من الاغتسال، فمفهوم ذلك أنه يجوز له أن يقربها وهو جنب. وكانت الجنابة معروفة عند العرب، ولعل ذلك من بقايا الملة الحنيفية، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ- فِي «السِّيرَةِ» - أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، لَمَّا رَجَعَ مَهْزُومًا مِنْ بَدْرٍ، حَلَفَ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهُ غُسْلٌ مِنْ جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْزُوَ مُحَمَّدًا ﷺ.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٨٢).

(٢) وقال ابن كثير: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِم».

وللجنابة أحكام شديدة معروفة في الشرعة اليهودية، ففي سفر اللاويين:

١٥: ١ وكلم الرب موسى وهرون قائلًا: ١٥: ٢ كلما بني إسرائيل، وقولا لهم: كل رجل يكون له سيل من لحمه، فسيله نجس. ١٥: ٤ كل فراش يضطجع عليه الذي له السيل، يكون نجسًا، وكل متاع يجلس عليه، يكون نجسًا.

١٥: ٥ ومن مس فراشه، يغسل ثيابه، ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء.

بينما جاءت الشريعة الإسلامية تضع عن العالم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَاوِلِينِي الخُمْرَةَ مِنَ المَسْجِدِ». فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ. فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ»[1].

وبذا تتكلم هذه الجملة المباركة عن حقٍ من حقوق الصلاة، وهي ألا تقرب إلا على طهارة كاملة إلا أنه يستثنى من ذلك أن يكون المرء مسافرًا لم يجد ماء، فالاستثناء مقيد بعدم وجود الماء للمشقة التي يجدها المسافرون عند نزول الآية في حمل الماء، وفهم هذا التقييد من السياق التاريخي الذي نزلت فيه الآية، ومما يأتي في الجملة التي بعدها، ولكن ينبغي أن ندرك أن معنى ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ لا يعني أن لا يصلي الإنسان حتى يغتسل جاعلًا وقت اغتساله اختيارًا مفتوحًا، بل يدل على إيجاب الغسل من الجنابة متى حضر وقت الصلاة؛ لأن الصلاة لا تسقط عنه بحال، حاله في ذلك حال المسلمين يوم نزل عليهم أول الآية ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ فهي تعني أن الأولية للاستعداد للصلاة، وليس ليمدد الإنسان وقت لهوه كما يشاء.

الطهارة المتكررة علامة الأمة المسلمة المستقيمة النشطة التي تجدد للبدن طاقته، وللنفس حيويتها .

---

(١) صحيح مسلم (١ / ١٦٨).

إذ تتعجب من ربط الصلاة بالوضوء أو الاغتسال أي بالطهارة التي تنشط البدن، وتقوي الحركة والتفكير، فهو ربط يومي دقيق، ولم يجعل مناط التطهر وجود الوسخ بل القيام إلى الصلاة، وجعل مناط الاغتسال -وهي الطهارة الكبرى- «حَالَةُ دَفْعِ فَوَاضِلِ القُوَّةِ البَشَرِيَّةِ، وَحَيْثُ كَانَ بَيْنَ تِلْكَ الحَالَةِ وَبَيْنَ شِدَّةِ القُوَّةِ تَنَاسُبٌ تَامٌّ، إِذْ بِمِقْدَارِ القُوَّةِ تَنْدَفِعُ فَضَلَاتُهَا، وَكَانَ أَيْضًا بَيْنَ شِدَّةِ القُوَّةِ وَبَيْنَ ظُهُورِ الفَضَلَاتِ عَلَى ظَاهِرِ البَدَنِ المُعَبَّرِ عَنْهَا بِالوَسَخِ تَنَاسُبٌ تَامٌّ، كَانَ نَوْطُ الِاغْتِسَالِ بِالجَنَابَةِ إِنَاطَةً بِوَصْفٍ ظَاهِرٍ مُنْضَبِطٍ فَجُعِلَ هُوَ العِلَّةَ أَوِ السَّبَبَ.. عَلَى أَنَّ فِي الِاغْتِسَالِ مِنَ الجَنَابَةِ حِكْمَةً أُخْرَى، وَهِيَ تَجْدِيدُ نَشَاطِ المَجْمُوعِ العَصَبِيِّ الَّذِي يَعْتَرِيهِ فُتُورٌ بِاسْتِفْرَاغِ القُوَّةِ المَأْخُوذَةِ مِنْ زَبَدِ الدَّمِ» (١).

الحق الخامس: التدريب النفسي بمجاهدة الأهواء عن الذرائع الموصلة إلى المنكر، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٣)؛ إذ إن الله لا يخاطب السكران، ولا يكلفه وهو لا وعي له، وإنما قال: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾؛ ليبين أنه خاطبهم في صحوهم؛ ليحتاطوا قبل الوصول إلى مرحلة سكرهم:

ونتلقى هذه البصيرة الغالية من آيتنا المباركة، فخاطبهم الله جل جلاله في صحوهم ليحتاطوا قبل الوصول إلى مرحلة سكرهم.. فترى الذين أوتوا الفهم في الكتاب قد بصرهم ذلك بالقاعدة الفقهية والأصولية والعقدية الثمينة قاعدة سد الذرائع، فالمخاطبون هم المؤمنون حال صحوهم لئلا يقعوا في شيءٍ مما نهوا عنه إن تناولوا المسكر، ثم إن المسلمين التزموا بهذه التكاليف فلن يبقى معهم وقت

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٦٥).

حقيقي لتناول المسكر إلا بعد العشاء وبعد الفجر وهو وقتٌ لا يفعل فيه ذلك عادة، وذلك لتقارب أوقات الصلوات، فكأن هذا الأمر قد منعهم من قرب المسكر إلا في وقتٍ محدودٍ ضيق من الليل خوفًا من أن تأتي الصلاة وهم في سكرهم، وحتى الليل فكيف سيضيع نبلاء القوم على أنفسهم أفضل الأوقات للصلوات التطوعية، ومن هنا ذهب رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن هذا التعبير ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ يدل على النهي عن السكر قرب الصلاة أيضًا بالوضع اللغوي؛ بسبب النهي عنه وقت الصلاة، وذلك لأن عَبْد القَاهِرِ فرَّق فِي دَلَائِلِ الإِعْجَازِ بَيْنَ الحَالِ المُفْرَدَةِ، وَالجُمْلَةِ الحَالِيَّةِ، فَمَعْنَى جَاءَ زَيْدٌ رَاكِبًا، أَنَّ الرُّكُوبَ كَانَ وَصْفًا لَهُ حَالَ المَجِيءِ فَهُوَ تَابِعٌ لِلْمَجِيءِ مُقَدَّرٌ بِقَدْرِهِ، وَمَعْنَى جَاءَ وَهُوَ رَاكِبٌ أَنَّ الرُّكُوبَ وَصْفٌ ثَابِتٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَالِ تَلَبُّسِهِ بِهِ، فلاحظ هنا كيف اختلف التعبير في الآية، فَلِمَ لَمْ يَقُلْ: لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ سُكَارَى وَلَا جُنُبًا، أَوْ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ، وَأَنْتُمْ سُكَارَى وَلَا وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، أَوْ يَجْعَلِ الأُولَى مُفْرَدَةً وَالثَّانِيَةَ جُمْلَةً. فالاختلاف في التعبير للاختلاف في الحال والمصير، فالتَّعْبِير بِجُمْلَةِ ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ السُّكْرِ الَّذِي يُخْشَى أَنْ يَمْتَدَّ إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ فَيُفْضِيَ إِلَى أَدَائِهَا فِي أَثْنَائِهِ، فَالمَعْنَى: احْذَرُوا أَنْ يَكُونَ السُّكْرُ وَصْفًا لَكُمْ عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ فَتُصَلُّوا وَأَنْتُمْ سُكَارَى، فَامْتِثَالُ هَذَا النَّهْيِ إِنَّمَا يَكُونُ بِتَرْكِ السُّكْرِ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ، بَلْ وَفِيمَا يَقْرُبُ مِنْ وَقْتِهَا، وَلَيْسَ المَعْنَى: لَا تُصَلُّوا حَالَ كَوْنِكُمْ سُكَارَى، وَأَمَّا نَهْيُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ جُنُبًا فَلَا يَتَضَمَّنُ نَهْيَهُمْ عَنِ الجَنَابَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: وَأَنْتُمْ جُنُبٌ يُرِيدُ صَرْفَ النَّاسِ عَنِ السُّكْرِ، وَتَرْبِيَتَهُمْ عَلَى تَرْكِهِ بِالتَّدْرِيجِ لِمَا فِيهِ مِنَ الإِثْمِ وَالضَّرَرِ، وَلَا يُرِيدُ صَرْفَهُمْ عَنِ الجَنَابَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ سُنَنِ الفِطْرَةِ[1]، فانظر لهذه الدقة في العبارة

(١) تفسير المنار (٥/ ٩٤).

القرآنية مما يتحد في الوضع ويدق في الصنع كما عبر عن ذلك الجرجاني [١].

الحق السادس: التمتع بالصلاة مهما كانت الأحوال، إذ تجد التخفيف في مقدماتها أي في شروطها لأصحاب الأعذار؛ لئلا تفوتهم متعة الصلاة، وبصرنا بذلك قول الله جل ذكره: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء:٤٣):

فذكر الله تعالى العلاقة بين حق الصلاة وحق أماكنها المخصصة لها، مع حق العباد في التخفيف عنهم عند عدم إمكانية التعظيم الكامل للصلاة ولأماكنها؛ وذلك لتبقى متعة الصلاة قائمة، فلا تسقط عند ظهور عذر العبد في أدائها على الوجه الأكمل..

إن التخفيف في الأصل لمصلحة العباد في عدم حرمانهم من متعة الصلاة لشدة حاجتهم إليها لا لأن الله يحتاجها كما تصوره الأساطير الإغريقية عن آلهتهم الذين يحتاجون إلى صلوات العباد لبقاء قوتهم.. الأمر مختلف، فإن البشرية بأمس الحاجة إلى الصلاة لتستمد قوتها، وقد بين الله سبحانه أن التخفيف بالاكتفاء بالتيمم إذا تعذر الماء أو شق استعماله يتم **في أربعة أحوال:**

الحال الأول: المرض، ويُبَصِّرُنا به قوله جل ذكره: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ سواء كان المرض بسبب الجروح أو الكسور أو القروح.

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المتوفى سنة ١٨٢هـ: المريضُ الذي لا يجد أحدًا يأتيه بالماء، ولا يقدر عليه، وليس له خادم ولا عون، فإذا لم يستطع أن يتناول الماء، وليس عنده من يأتيه به، ولا يحبو إليه، تيمم وصلَّى إذا حلَّت الصلاة. قال: هذا كله قولُ أبي إذا كان لا يستطيع أن يتناول الماء وليس

(١) دلائل الإعجاز ص١٣٥.

عنده من يأتيه به، لا يترك الصلاة، وهو أعذَرُ من المسافر [١]، والمرض المعتبر الذي يجيز التيمم هو المرض الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنِ اسْتِعْمَالِ المَاءِ فواتُ عُضْوٍ أَوْ شَيْنه أَوْ تَطْوِيلُ البُرء كما يقرر ابن كثير.

الحال الثاني: السفر ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

الحال الثالث: إتيان الغائط مع قلة الماء ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

و«الغائط»: ما اتسع من الأودية، فهذه اللفظة من كنايات النزاهة، وجعل كناية عن قضاء حاجة الإنسان؛ لأن العرب كانت تختار الأماكن البعيدة المستترة لقضاء حاجتها، فكنى عن قضاء الحاجة في الغائط بقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.. فلم يقل: إذا عملتم كذا وكذا، بل قال: إذا جئتم من مكان كذا كناية عما تم فيه! ولم يسند الفعل إلى المخاطبين، فلم يقل: أو جئتم من الغائط. بل قال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ زيادة في أدب الخطاب، ولطف الكناية ليرتفع بأخلاق البشر في مخاطباتهم، وكلامهم فيما بينهم، وليكون هذا الأدب نموذجًا للبشر حين يتخاطبون! ومثل هذا الرقي في الخطاب تراه في اللغة القرآنية الراقية حين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والتعبير بالملامسة أرق وأحشم وأرقى- والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيرًا عنه- وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس، في الحديث عن مثل هذه الشؤون عند ما لا يكون هناك مقتض للتعبير المكشوف [٢].

الحال الرابع: ملامسة النساء مع قلة الماء بحيث لا يكفي للاغتسال ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: وَأَصْلُ اللَّمْسِ المُبَاشَرَةُ بِاليَدِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ الجَسَدِ، وَقَدْ أُطْلِقَ مَجَازًا وَكِنَايَةً عَلَى

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٨٧).

(٢) في ظلال القرآن٢/ ٦٧١.

التحسس والمعرفة عن كثب: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ (الجنّ: ٨) وَعَلَى النُّزُولِ، قَالَ النَّابِغَةُ:

لِيَلْتَمِسَنْ بِالجَيْشِ دَارَ المُحَارِبِ

واختلف في معنى اللمس، ويعبر عن ذلك سعيد بن جبير فيقول: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فأتيت ابن عباس ﷺ فقلت: إنّ ناسًا من الموالي والعرب اختلفوا في «اللمس»، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع. قال: من أيّ الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي. قال: غُلِب فريق الموالي، إن «المس» و«اللمس»، و«المباشرة» الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء [١].

ويدل لتفسير ابن عباس ﷺ ما جاء عن عروة عن عائشة ﷺ: أن النبي ﷺ قبل بعض نسائه ثم خرج الى الصلاة ولم يتوضأ قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت، وبعد هذه الرواية يبين الترمذي خلاف أهل العلم في مفهوم اللمس، فيقول: وقد روي نحو هذا عن غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة قالوا: ليس في القبلة وضوء، وقال مالك بن أنس والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق في القبلة وضوء [٢].

ويؤيد ما ذهب إليه مالك ومن معه رأي عبد الله بن عمر في تعميم المعنى الذي تدل عليه الملامسة؛ إذ كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة فمن قبل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء [٣]. وسبب الاختلاف يعود إلى محاولة تحديد المعنى اللغوي لكلمة (لمس) مع وجود الرواية التطبيقية من النبي ﷺ،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٣٨٩).

(٢) سنن الترمذي (١ / ١٣٣).

(٣) الموطأ - رواية يحيى الليثي (١ / ٤٣).

ويقرر الراغب معنى اللمس فيقول: اللمس إدراكٌ بظاهر البشرة، كالمسّ، ويعبّر به عن الطّلب، كقول الشاعر:

ألام على تبكّيه وأَلْمِسُهُ فلا أجده
وكيف يلام محزون كبير فاته ولده[1]

ودَخَلَ أبو يونُس عبد الله بن سالِم مَوْلى هُذَيل على المَهدِيّ فَمَدَحَه، فأمَرَ له بخمسةِ آلافِ دِرْهَم، فَفَرَّقَها وقال:

لَمَسْتُ بكَفّي كَفَّهُ أبْتَغي الغِنى ولم أدْرِ أنَّ الجُوْدَ من كَفِّه يُعْدي
فَلا أنا مِنْهُ ما أفادَ ذَوُو الغِنى أفَدْتُ، وأعْداني فأتْلَفْتُ ما عِنْدي

وإذا نظرت في القرآن وجدت أن اللمس يطلق على الجس باليد، فقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (الأَنْعَام: ٧) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَاعِزٍ -حِينَ أَقَرَّ بِالزِّنَا يُعرض لَهُ بِالرُّجُوعِ عَنِ الإِقْرَارِ-: «لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ لَمَسْتَ»، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَاليَدُ زِنَاهَا اللَّمْسُ» وَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: قَلّ يَوْمٌ إِلَّا ورسولُ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ عَلَيْنَا، فَيُقَبِّلُ وَيَلْمِسُ. وَمِنْهُ مَا ثَبَتَ فِي الصحيحين: أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ المُلَامَسَةِ، كما يطلق اللمس على التطلب مطلقًا كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن: ٨)، ومن هنا لعله يمكن الترجيح بأن اللمس المصاحَب بثوران شهوة هو الذي يوجب الوضوء

وتأمل في الآية: أَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بِقَوْلِهِ قبلها ﴿وَلَا جُنُبًا﴾؟

الجواب: لا لِأَنَّ ذَلِكَ ذُكِرَ فِي مَعْرِضِ الأَمْرِ بِالِاغْتِسَالِ، وَهَذَا ذُكِرَ فِي مَعْرِضِ الإِذْنِ بِالتَّيَمُّمِ الرُّخْصَةِ، وَالمَقَامُ مَقَامُ تَشْرِيعٍ يُنَاسِبُهُ عَدَمُ الِاكْتِفَاءِ بِدَلَالَةِ الِالتِزَامِ[2]،

(١) المفردات للراغب ص٧٤٧.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٦٧).

وبعد ذكر الأحوال الأربعة التي توجب الطهارة الصغرى أو الكبرى بين الله جواز الاكتفاء بالتيمم فقال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ (النساء: ٤٣) ، ولكنه قيد هذه الرخصة بعدم وجود الماء.. والآية فيها مجال واسع للتدبر لنصل إلى هدى الله فيها، فقيد «عدم وجود الماء » على ماذا يرجع من هذه الأحوال الأربعة؟

لنسمع الشوكاني يبين ذلك فيقول: «هذا القيد إن كان راجعًا إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط وهو المرض والسفر والمجيء من الغائط وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم بل لابد مع وجود أحد السببين من عدم الماء، فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد الماء ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح كالمريض إذا لم يجد الماء تيمم، وكذلك المقيم كالمسافر إذا لم يجد الماء تيمم، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر فقيل: وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء، وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب.

وإن كان راجعًا إلى الصورتين الأخيرتين أعني قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال، وهو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم وإن كان واجدًا للماء قادرًا على استعماله. وقد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبرا في الأولين لندرة وقوعه فيهما»، ويرد الشوكاني هذا الرأي الثالث ردًا قويًا، فيقول: وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط وتوجيه بارد. وقال مالك ومن تابعه: «ذَكَر الله المرض والسفر في شرط التيمم اعتبارًا بالأغلب في من لم يجد الماء بخلاف الحاضر؛ فإن الغالب وجوده، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه».

والظاهر أن المرض بمجرده مسوغ للتيمم إن كان الماء موجودا إذا كان يتضرر باستعماله في الحال أو في المآل ولا يعتبر خشية التلف؛ فالله سبحانه يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، ويقول ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، والنبي ﷺ يقول: «الدين يسر» ويقول: «يسروا ولا تعسروا» وقال: «قتلوه قتلهم الله» ويقول: «أمرت بالشريعة السمحة» (١)

وقد رجح محمد صديق حسن خان أَنْ قَيْدَ عَدَمِ الوُجُودِ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، فَتَكُونُ الأَعْذَارُ ثَلَاثَةً: السَّفَرَ، وَالمَرَضَ، وَعَدَمَ الوُجُودِ فِي الحَضَرِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ القَيْدَ إِذَا وَقَعَ بَعْدَ جُمَلٍ مُتَّصِلَةٍ كَانَ قَيْدًا لِآخِرِهَا، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَكُونُ قَيْدًا لِلْجَمِيعِ إِلَّا أَنْ يَمْنَعَ مَانِعٌ فَكَذَلِكَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ وُجِدَ المَانِعُ هَاهُنَا مِنْ تَقْيِيدِ السَّفَرِ وَالمَرَضِ بِعَدَمِ الوُجُودِ لِلْمَاءِ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عُذْرٌ مُسْتَقِلٌّ فِي غَيْرِ هَذَا البَابِ كَالصَّوْمِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَحَادِيثُ التَّيَمُّمِ الَّتِي وَرَدَتْ مُطْلَقَةً وَمُقَيَّدَةً بِالحَضَرِ، ونقله محمد رشيد رضا في تفسير المنار مقرًا له إلا أنه أكد على أن الاحتياط الأَخْذُ بِالعَزِيمَةِ وَعَدَمُ تَرْكِ الطَّهَارَةِ بِالمَاءِ إِلَّا لِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ (٢).

الحق السابع: تعظيم الصلاة بإيجاد بديل عن الطهارة الأساسية عند تعسرها أو تعذرها، وذلك بالتيمم عند عدم الماء إذا كانت هناك أعذار، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ (النساء:٤٣).

فالتيمم معناه القصد، فقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ «تفعَّلوا» من قول القائل:«تيممت كذا» إذا قصدته وتعمدته، «فأنا أتيمّمه»، وقد يقال منه:«يَمَّمه فلان فهو يُيممه»، ومنه قول

(١) تفسير فتح القدير (١/ ٤٧١).

(٢) انظر: الروضة الندية شرح الدرر البهية لصديق حسن خان١/ ٥٦، وتفسير المنار٥/ ١٠٥.

أعشى بني ثعلبة:

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ مِنَ الأَرْضِ مِنْ مَهْمَهٍ ذِي شَزَنْ

ثُمَّ صَارَ حَقِيقَةً شَرْعِيَّةً فِي العَمَلِ المَخْصُوصِ، وَهُوَ ضَرْبُ اليَدَيْنِ بالصعيد الطيب، وَمَسْحُ الوَجْهِ وَاليَدَيْنِ بِهِمَا بقصد الطهارة الشرعية، وجَمَعَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الحقيقة اللغوية والشرعية، فَقَالَ:

تَيَمَّمْتُكُمْ لَمَّا فَقَدْتُ أُولِي النُّهَى وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً تَيَمَّمَ بِالتُّرْبِ

فمن تعظيم الصلاة تطلب الصعيد الطيب في التيمم، ولا يكفي أي صعيد.

والصَّعِيدُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الصَّاعِدِ على وجه الأرض، فاختلفت عبارات أهل العلم في تحديده، فقَالَ الزَّجَّاجُ: الصَّعِيدُ وَجْهُ الأَرْضِ، تُرَابًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ، وقيل: التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقيل: بل هو الأرض المستوية، وقيل: وجه الأرض، وقيل: بل هو وجه الأرض ذاتِ التراب والغُبَار، وذهب مالك إلى أنه كُلُّ مَا صَعِدَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ، وَالرَّمْلُ، وَالشَّجَرُ، وَالحَجَرُ، وَالنَّبَاتُ، «وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالصَّعِيدِ لِيَصْرِفَ المُسْلِمِينَ عَنْ هَوَسِ أَنْ يَتَطَلَّبُوا التُّرَابَ أَوِ الرَّمْلَ مِمَّا تَحْتَ وَجْهِ الأَرْضِ غُلُوًّا فِي تَحْقِيقِ طَهَارَتِهِ» كما يقول الطاهر بن عاشور، وَقِيلَ: مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ التُّرَابِ فَيُخْتَصُّ التُّرَابُ وَالرَّمْلُ وَالزَّرْنِيخُ، وَالنَّوْرَةُ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ. وَقِيلَ: هُوَ التُّرَابُ فَقَطْ، فهو الأرض الملساء التي لا نَبات فيها ولا غِرَاس، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابِهِمَا، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (الكَهْفِ: ٤٠) أَيْ: تُرَابًا أَمْلَسَ طَيِّبًا، وَبِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ بن اليَمَانِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ»، وَفِي لَفْظٍ: «وَجُعِلَ تُرَابُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ»، فخصص الصعيد بِالتُّرَابِ فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ،

فَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ يَقُومُ مَقَامَهُ لَذَكَرَهُ مَعَهُ، ومثل ذلك أَنَّ هذه الآية هاهنا مُطْلَقَةٌ، وَلَكِنَّهَا فِي سُورَةِ المَائِدَةِ مُقَيَّدَةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ (المَائِدَةِ: ٦) وَكَلِمَةُ «مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ، وَهَذَا لَا يَتَأَتَّى فِي الصَّخْرِ الَّذِي لَا تُرَابَ عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ كَلِمَةَ «مِنْ» لِابْتِدَاءِ الغَايَةِ، قَالَ صَاحِبُ «الكَشَّافِ»: لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: مَسَحْتُ بِرَأْسِهِ مِنَ الدُّهْنِ وَمِنَ المَاءِ وَمِنَ التُّرَابِ: إِلَّا مَعْنَى التَّبْعِيضِ، ثُمَّ قَالَ: وَالإِذْعَانُ لِلْحَقِّ أَحَقُّ مِنَ المِرَاءِ. الثَّانِي: مَا ذَكَرَهُ الوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى أَوْجَبَ فِي هَذِهِ الآيَةِ كَوْنَ الصَّعِيدِ طَيِّبًا، وَالأَرْضُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الَّتِي تُنْبِتُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٨) فَوَجَبَ فِي الَّتِي لَا تُنْبِتُ أَنْ لَا تَكُونَ طَيِّبَةً، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ أَمْرًا بِالتَّيَمُّمِ بِالتُّرَابِ فَقَطْ، وَظَاهِرُ الأَمْرِ للوجوب.

والظاهر عندي إعمال الآيتين، فالصعيد يكون بالتراب حال توفره، وهذا إعمال للتقييد في سورة المائدة، وبغيره حال عدم الأول، وهذا إعمال للإطلاق في سورة النساء، وحمل المطلق على المقيد ليس متفقًا عليه دائمًا، بل ربما كان إعمال كلٍّ من الجهتين حسب المناسب لهما أولى.

وأما قوله: ﴿طَيِّبٗا﴾ فإنه يعني به: طاهرًا من الأقذار والنجاسات.

وقد بين الله كيفية التيمم فقال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ (النساء: ٤٣).

وهنا تتساءل: عن سر إدخال الباء في قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ﴾ فلم يقل: فامسحوا وجوهكم.. فتعال لنلمح مجموعة من المعاني التي تثيرها هذه الباء:

فيظهر من هذه الباء أن التراب لا يمكن إيصاله لجميع العضو وإن اجتهد الإنسان

في ذلك، فأدخل الباء قاصرًا للفعل في قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي أوقعوا المسح بها سواء عم التراب منبت الشعر أم لا، وبذا تكون الباء للتبعيض على قول من يثبت التبعيض ضمن معاني الباء كابن مالك، وذلك حتى لا يتمرغ الإنسان في التراب تمرغًا كما فعل عمار رضي الله عنه، فروى شَقِيق بن سلمة قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللهِ وَأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ المَاءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي؟ فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الآيَةِ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ المَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ المَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا» فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ، أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟ (١).

كما يمكنك أن تجد في الباء معنى تأكيد المسح، فكأن ما مسته من الأرض أداة للمسح مِثْلَ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وَقَوْلِ النَّابِغَةِ- يَرْثِي النُّعْمَانَ بْنَ المُنْذِرِ-:

لَكَ الخَيْرُ إِنْ وَارَتْ بِكَ الأَرْضُ وَاحِدًا وَأَصْبَحَ جَدُّ النَّاسِ يَضلَعَ عَاثِرَا

أَرَادَ إِنْ وَارَتْكَ الأَرْضُ مُوَارَاةَ الدَّفْنِ. وَالمَعْنَى: فَامْسَحُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ،

فيضرب المتيمم -كما يقول الطبري- بيديه على وجه الأرض الطاهر، أو ما قام مقامه، ثم يمسَح بما علق من الغُبار وجهه؛ فإن كان الذي علق به من الغُبار كثيرًا فنفخ عن يديه أو نفضه، فهو جائز، وإن لم يعلَق بيديه من الغبار شيء وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصعيد، ثم مسح بهما أو بها وجهه، أجزأه ذلك، فقد تيمّم عمّارٌ فضرب

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٩٦).

بيديه إلى التراب ضربةً واحدة، ثم مسح بيديه واحدة على الأخرى، ثم مسح وجهه، ثم ضرب بيديه أخرى، فجعل يلوي يَدَه على الأخرى، ولم يمسح الذراع [١].

واختلف أهل العلم في مدلول ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ هل المقصود بها كامل اليد أي إلى العضد، أم إلى المرافق كما ظهر تقييدها في الوضوء، أم إلى الكوع، فقد قال مكحول: التيمم ضربة للوجه والكفين إلى الكوع، ويتأوّل مكحول القرآن في ذلك: ﴿فَاغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ (سورة المائدة: ٦)، وقوله في التيمم: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، ولم يستثن فيه كما استثنى في الوضوء ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ قال مكحول: قال الله ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨)، فإنما تقطع يد السارق من مَفصِل الكوع [٢]، ورجح الطبري أن الحدّ الذي لا يجزئ المتيمم أن يقصِّر عنه في مسحه بالتراب من يديه: الكفان إلى الزّندين، لإجماع الجميع على أن التقصير عن ذلك غير جائز، ثم هو فيما جاوز ذلك مخيّر، إن شاء بلغ بمسحه المرفقين، وإن شاء الآباط، والعلة التي من أجلها جعلناه مخيرًا فيما جاوز الكفين: أن الله لم يحدَّ في مسح ذلك بالتراب في التيمم حدًّا لا يجوز التقصير عنه [٣].

الحق الثامن: اللجوء إلى الصلاة مهما اعترى المرء فيها من تقصير عن الصفة الكاملة، فالتيمم من أعظم الأدلة البرهانية على يسر الشريعة، وحرصها على مصالح البشرية؛ ولذا أشار الله إلى مقصدين من المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية هما: (العفو، والمغفرة)، وهما يقتضيان التيسير، ويبقيان الأمة تحت العناية الإلهية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وهذا التقعيد القرآني المجيد لقاعدتي العفو، والمغفرة في التشريعات الإلهية

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤١٠).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤١١).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤١٩).

يبين الأسرار التشريعية، والحِكَم التنظيمية في الحياة البشرية للتيمم بل لسائر الأحكام الشرعية، وهنا قال الفقهاء: المشقة تجلب التيسير، فتجد في قوله جل مجده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء:٤٣) « التعقيب الموحي بالتيسير. وبالعطف على الضعف، وبالمسامحة في القصور. والمغفرة في التقصير» [١]، فالتيمم بالتراب طهارة رمزية تدل على عظمة الصلاة، ومكانتها، وأهميتها، تعظيم المناجاة لله، ولذا اكتفي في الطهارتين الكبرى والصغرى بالوجه والكفين، وبين سبحانه أن التخفيف والتيسير مع منع الترك بالكلية من مقاصد الشريعة لأنه كان عفوًا غفورًا.

والتيمم من أعظم الأدلة البرهانية على يسر الشريعة، وحرصها على مصالح البشرية؛ إذ النفوس الإنسانية بحاجة دائمة إلى دعم مستمر في حياتها بالنظم والبرامج التعبدية التي تسكن نفسها، وتريح بالها، ولذا جعل الله الطهارة بالماء جزءًا من البرنامج اليومي لها، فإن لم يوجد أو شق استعماله فإن الله جعل بديلًا له هو التيمم بالتراب، والبديل يأخذ حكم الأصل، وتقوم العناية الإلهية بالرعاية للبشرية بجعل المصالح النفسية والعقلية متوفرة في التيمم، وارتبط هذا التيسير العظيم بعائشة زوج النبي ﷺ تكريمًا لها، وبيانًا لمنزلتها، حيث روت لنا قصة نزول آية التيمم فقالت: سَقَطَتْ قِلاَدَةٌ لِي بِالبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المَدِينَةَ فَأَنَاخَ النَّبِيُّ ﷺ وَنَزَلَ فَثَنَى رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِدًا أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلاَدَةٍ فَبِي المَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَوْجَعَنِي ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ فَالتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ فَنَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآيَةَ فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: لَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٦٩).

لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَرَكَةٌ لَهُمْ [١].

وفي لفظ عنها رضي الله عنها، أَنَّهَا اسْتَعَارَتْ مِنْ أَسْمَاءَ قِلاَدَةً فَهَلَكَتْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي طَلَبِهَا فَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلاَةُ فَصَلَّوْا بِغَيْرِ وُضُوءٍ فَلَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ شَكَوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: جَزَاكِ اللَّهُ خَيْرًا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ قَطُّ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ لَكِ مِنْهُ مَخْرَجًا وَجَعَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ بَرَكَةً (مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ) [٢].

ويذكر ابن عباس رضي الله عنهما هذه البركة المحتفة بعائشة رضي الله عنها، حيث دخل عليها فقال: كنتِ أعظم المسلمين بركة على المسلمين! سقطت قلادتك بالأبواء، فأنزل الله فيك آية التيمم! [٣].

واختلف في الآية المقصودة في هذا الحديث: هل هي آية النساء أم المائدة، وجاء في بعض ألفاظه تعيين آية المائدة، والمسألة محتملة. ومن العفو والمغفرة ما قاله الحسن: كان الرجل يصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم يحدث، وكذلك التيمم [٤]، ولكن الشافعية جعلوا الفاء في قوله {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} دليلاً على وجوب تكرار الطلب مع كل صلاة لأنه قيد جواز التيمم بعدم وجود الماء، ولا يعرف ذلك إلا إذا طلب الماء.

وقد تتساءل عن سر التيمم، مع أن المراد إيجاد الطهارة، وهل التيمم بالتراب يوفر هذه الطهارة؟

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ٦٤).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٣٧) برقم ٣٧٧٣.

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٠٥).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٨/ ٤٢٥).

الجواب: نعم لا يقوم التيمم بالتراب مقام الماء من حيث الطهارة الحسية إلا أن التيمم عملية رمزية تدل على استصحاب حس الطهارة المتروكة، فهي مفهومة الحكمة والمنافع، كما أنه يدل على التعبد المحض، والاستسلام الكامل لله في شرعه وحكمه، وهو يدل على شدة التنظيم الإسلامي لأمور الحياة، والانضباط، ونبذ الفوضى مهما تغيرت الأحوال، ويعبر عن السعة الشرعية، والسماحة الحكمية عندما تقل الموارد، ولذا حدث أبو ذر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجد الماء فليمسه بشرته فإن ذلك خير» (١)، والتيمم من أوجه الخاتمية لأمة القرآن الكريم لتكون شريعة القرآن مناسبة لتغير الزمان والمكان:

فقد جعل الله التيمم من خصائص هذه الأمة، ويروي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هذا التميز للأمة الخاتمة عن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا، وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» (٢)، وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاَثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلاَئِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ»، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى (٣).

كل هذا التفصيل ليشعر الناس بتدفق الاستمتاع بالصلاة، وليكونوا في هذا الشعور الماتع قريبين من سمت أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث كان

(١) سنن الترمذي (١ / ٢١١).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٩١).

(٣) صحيح مسلم (٢ / ٦٣).

يتمتع بالصلاة، ويروي أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِى الجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ - قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ - لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا» (١)، ويروي أنس مدى الشعور الغامر بالراحة في صلاة النبي ﷺ حيث كان يقول: «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة» (٢):

يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي أنا بغير محمد لا نقتدي
لا نستعيض عن الشريعة منهجًا وضعته فكرة مستغلٍ ملحد

إنها الشريعة الإسلامية، والبصائر القرآنية التي تقدم للعالم النظم الكفيلة بسعادته وراحة باله بعيدًا عن الاجتهادات القاصرة، والرغبات الأثيمة المسعورة ممن يمنعون الناس حقوقهم في الاستمتاع بحياتهم، ومن أعظم أنواع الاستمتاع الاستمتاع بالصلاة.



(١) أبو داود (٤ / ٤٥٣).

(٢) أحمد(٣ / ١٢٨) برقم ١٢٣١٥، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن.

محتويات الجزء الأول

مقدمة..... ٥

التمهيد:..... ١٣

الفصل الأول: السياق التاريخي لنزول سورة النساء ١٧

الفصل الثاني: السياق الموضعي (الترتيب المصحفي)..... ٢١

الفصل الثالث: السياقان التاريخي والمصحفي ٢٥

الفصل الرابع: اسم السورة القرآنية نوعٌ آخر من البيِّنات المبهرة. ٣٨

الفصل الخامس: الخريطة الكلية لسورة النساء..... ٣٩

الفصل السادس: الواقعية المعجزة للبصائر القرآنية في سورة النساء..... ٨٥

الفصل السابع: بعض أوجه الارتباط التفصيلية بين سورة النساء وما قبلها ٩٣

الفصل الثامن: أسلوب الصياغة للألفاظ والمعاني القرآنية في سورة النساء..... ٩٩

منظومةُ (صفْوَة البيانِ) مِنْ وَحْيِ شَرْحِ (بَصائرِ القُرْآنِ). ١٠٣

المقدمة: أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بث الحياة الإنسانية). ١١٧

الأساس الأول: عالمية الخطاب القرآن. ١١٧

الأساس الثاني: التقوىٰ صِمام الأمان لإعطاء الحقوق لأهلها، وإقامة القوانين بالعدل في العلاقات الأسرية والبشرية ١١٩

الأساس الثالث: الرؤية القرآنية للحقوق تقوم علىٰ أساس النظر إلىٰ المصلحة الإنسانية في الحياتين: (الفانية، والباقية)..... ١٢٣

الأساس الرابع: من أعظم حقوق بث الحياة الإنسانية: تكريم المرأة، وبناء الحياة البشرية

علىٰ هذا التكريم. ١٢٣
الأساس الخامس: منح الله البشرية الحقَّ في (بث الجنس الإنساني في الأرض زمانا ومكانا ١٣٠
الأساس السادس: صلة الأرحام القريبة والبعيدة علامة علىٰ صدق تدين الإنسان، وبناء النظام البشري السوي. ١٤٠
الأساس السابع: تنمية درجة الإحسان في النفوس البشرية لتراقب ربها في أداء الحقوق الإنسانية لأهلها، فيجتمع القضاء والديانة في الالتزام بالمبادئ. ١٤٥
الأساس الثامن: يرتبط البث التكريمي للحياة الإنسانية بالإيمان بالله الواحد، فهو الذي خلقها وبثها، وإنكار وجود الله إعلان حرب علىٰ الإنسانية ذاتها. ١٤٧
المحور الأول: التنظيم الإلهي للأطفال (وخاصة اليتامىٰ) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-٤١)..... **١٥١**
القسم الأول: الحقوق المالية العامة لليتامىٰ (النساء:٢-٣، ٦). ١٥٩
القسم الثاني: من حقوق النساء العامة عند الزواج ليقمن بدورهن في رعاية الأطفال والجنس الإنساني(النساء:١، ٣-٤)..... ١٩٦
القسم الثالث: حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال لتأهيلهم وجعلهم شركاء في البناء لا معاول للهدم(النساء:٥). ٢٢٨
القسم الرابع: القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه (النساء:٧-١٠)..... ٢٤٤
القسم الخامس: الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وتحقق العدل في بث الحياة الإنسانية (النساء:١١-١٤). ٢٧٣
المحور الثاني: التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار

الحياة (النساء:١٥-٢٥). **٣٢٣**

القسم الأول: القوانين التي تحمي نظام الزواج من الخيانة، وتعيد تأهيل الخونة المتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة المجتمعية (النساء:١٥-١٦). ٣٢٩

القسم الثاني: حقوق الزوجة، وتحذير الزوج من التعسف في التعامل معها (النساء:١٩-٢١). ٣٦٠

القسم الثالث: من حقوق البناء الأسري: معرفة المحرمات من النساء في الزواج (النساء٢٢-٢٤). ٣٨٤

القسم الرابع: من حقوق البناء الأسري: معرفة من يجوز الزواج بهن (النساء:٢٤-٢٥). ٤٠٦

المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣). **٤٤٩**

الحصن الأول: إدراك الرحمة الإلهية في تشريعات القرآن لبث الحياة الإنسانية، حيث يُظهِرُ الله لك المقاصد الكلية لهذه للتشريعات (النساء٢٨-٢٦)..... ٤٥٧

الحصن الثاني: التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة (النساء:٢٩) ٤٧١

الحصن الثالث: المحافظة علىٰ الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس وكبائر الذنوب المدمرة (النساء: ٢٩-٣١). ٤٧١

الحصن الرابع: الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء (النساء:٣٢). ٥٠١

الحصن الخامس: الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم علىٰ النصرة والولاء (النساء: ٣٣)..... ٥١٥

الحصن السادس: إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها (النساء: ٣٤-٣٥)..... ٥٢١

الحصن السابع: القيام بحقوق الأسرة الإنسانية المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة (النساء:٣٦). ٥٥٩

الحصن الثامن: الحذر من الصفتين اللتين تدمران التماسك الأسري، وتقضيان علىٰ بث الحياة الإنسانية، وتَحْطِمان النظام الاجتماعي، وهما: الفخر والخيلاء، ومعالجة نفسيات أصحابها (النساء:٣٧-٤٢)..... ٥٧٦

الحصن التاسع: الاستمتاع الحقيقي بالصلاة (النساء:٤٣). ٦٠٢

محتويات الجزء الأول **٦٢٩**

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله :

المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق ...

نصائح عن المعرفة القرآنية
قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

هذا الكتاب

هو (التفسير المفصل) لـ (بصائر المعرفة القرآنية في سورة النساء-التفسير الكلي) أقدّمه لك: لترى وجهًا مذهلًا من أوجه البينة القرآنية المتجددة. سترى بصائر هذه السورة جاءت (برهانًا) على أنها الوحي الحق النازل للخلق، و(نورًا مبينًا) يهدي الإنسانية لتنظيم حياتها، وحل مشاكلها المزمنة المستعصية... وبعد تأمل شارف ست سنوات، وتدبر لدقائق البصائر التي أضاءت بها هذهً السورة على علمائنا وصلتُ إلى أن موضوعها الكلي وعمودها الذي تتمحور حوله: بث الحياة الإنسانية: وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال...

تقدم السورة انتصارًا مبكرًا، وتقنينًا ربانيًا لبث الحياة الإنسانية، فبصائرها تقسم الحقوق بين البشر بالقسط، وتنقذ المستضعفين خاصة الأطفال والنساء من الظلم الهائل الذي مسهم ويمسهم من الجاهليات القديمة، والمعاصرة.

تزعم المنظمات الدولية، ومؤتمرات المناخ والسكان والتنمية تبني هذه المعاني، لكنها ما زالت تائهة متلاعبة لا تستطيع الوصول إليها بسبب (الشح)، و(البخل) و(أكل الأموال بالباطل) و(عدم أداء الأمانات إلى أهلها)، وضعف الإمكانات العقلية والنفسية البشرية عن تسطير (التشريعات المقسطة) للإنسانية...

بصائر هذه السورة تقدم العلاج الحقيقي لذلك كله..

تكونت السورة من مقدمة، وسبعة محاور، وخاتمة. كل كلمة فيها تجذبك نحو الأخرى في اتصال متتابع، عسى أن يجد القارئ في هذه البصائر بردًا وسلامًا لنفسه الظامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيها أنوارًا صافية ذات بهجة تحمي من الذين يتبعون الشهوات، وتحرس من الذي يميلون بالعالم ميلًا عظيمًا.

9 789927 154096